دكتور/ كامل سعفان



دار الفضيلة



الإدارة ، القاهرة ، ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس : ٤١٨٩٦٦٥
المكتبة ، ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات ، دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٤١٢٧٦





بداية

يجب أن نعلم أن كثيراً من الشعارات والطقوس التى يقوم بها رجال الدين ـــ بوجه عام ـــ لا يسهل تعليلها ، وبالتالى لا تسهل المحاجة فيها ، لأن كل صاحب ملة أو نحلة ملتزم ـــ طوعاً أو كرهاً ـــ بمواريثه .. والعبارة القرآنية على لسان الكفار : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ [الزخرف : ٢٣] ـ تمثل طبيعة الاعتقاد فى كل زمان .

لهـذا ، لا يَظُنَّنَّ ظان أن ما لا يرضاه ، أو ما لا يعقله ، يمكن تغييره ، بل إن الزمان يظل يزيد من الأوزار ، ومن الطقوس والمراسيم ، ما يملأ قيعان الوهم التى لا تزال تتسع وتعمق فى نفوس (العامة) ، وإن ضاقت بها قلة قليلة فهى تلوذ بالكفر والإلحاد، وتستوجب اللعن والحرمان .

ولقد تنبه القدماء إلى هذه الحقيقة (الفطرية) ، فقالوا : (لا جدال فى معتقد) مع أن العامة تقول : (ربنا عرفوه بالعقل) ، لكن عند تحكيم العقل مع هؤلاء (العامة) لا تلومنَّ إلا نفسك .

من هنا يجب أن يعرف القارئ الكريم أنى ما قصدت إلا عرض مجموعة من الحقائق (التاريخية) ـ إذا صح أن للتاريخ حقائق ـ تفيد لوناً من التطور الفكرى .

وما قصدت إلى أن يكون هذا التناول خاصاً بالمسيحية، لكن المصادر والمراجع التى تيسرت لى هى التى خطت بى هذه الخطوات .

وقد تناولت الأديان الأخرى فى كتب أخرى ، فى حدود ما تيسر لى من مصادر ومراجع كذلك .

ثم إنى لا أبرئ تاريخ المسلمين من (الأخلاط والأوشاب) التى دخل بها على الفكر الإسلامى (مذهبيون) و (ساسة) ، استعانوا بالإسرائيليات وبالمجوسيات وبالصابئيات ، وبما عند البراهمة والبوذية، وبما حصلوا من فلسفات وما تولد عنها ، فبدلوا وغيروا وتأولوا وابتدعوا، طلباً للشهرة ، أوكيداً عقائدياً ، أو سياسياً ، أو شعوبياً.

وإذا قلت (مسيحية بلا مسيح) فقد قال الإمام محمد عبده ، وهو فى باريس : (وجدت إسلاماً بلا مسلمين) : ووصف الوضع فى ديار الإسلام بأنه (مسلمون بلا إسلام) .

من هنا يجب طرح مفهوم (الطائفية) ، والتعصب الأعمى ، وتدارك الأخطاء بالإصلاح قبل أن تتآكلنا ـ عقولاً ومعتقدات ـ تلك (البكتريا القاتلة) .

إن هذه ليست صفحات من تاريخ المسيحية بقدر ماهى صفحات من تاريخ الشعوب التى لبست ثياباً مسيحية ، فظلت قروناً عديدة تكيد وتتآمر وتقترف كل الآثام باسم (المسيح) عليه السلام .

وقد أردت بإعادة عرضها ـ بقلم المؤرخين المسيحيين ـ بياناً واضحاً لطبيعة هذه الشعوب التى عانت منها الإنسانية فى شتى أقطار الأرض ، فباسم المسيحية ، والتبشير بدعوة المسيح ، فتك بعضها ببعض ، وسقط عشرات الملايين على مذبح الدنيوية الخبيثة ، وركبوا البحر إلى أفريقيا وآسيا وأمريكا واستراليا ونيوزيلندة وكندا ، ينشرون آثامهم وأوبئتهم تحت شعار المدنية والحضارة .

وباسم المسيح وأسفار الكتاب المقدس ، وعلى إيقاع المزامير

والتراتيل ، أبادوا شعوباً واستعبدوا شعوباً، وهدموا حضارات ، وزيفوا شعارات ، وصاروا يحكمون العالم من خلال مؤسسات سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية ، لإحكام الرباط المقدس على الرقاب ، وإذابة العماد المقدس في الدماء ، وإحالة الخبز المقدس إلى مصارف دولية ، ومعامل نووية وجرثومية ، وإلى خبراء ووسطاء وعملاء ، وإلى عصابات كافرة فاجرة ، تملك حق التشريع والتنفيذ ، وفق أهداف (السلام الدولي) وبمباركة (مجلس الكنائس العالمي) ، وبالتنسيق والتكامل مع (الصهيونية العالمية) .

لقد تحولت (السوق الأوربية المشتركة) وتحالف (الدول الصناعية السبع) إلى تجمعات (المافيا) الدولية التي تملك بالدولار والين والمارك والفرنك والجنيه أن تعيد تشكيل القيم ، وأن تعيد ترسيم الحدود ، وأن تعيد تصوير مايدور في فلكها من حكومات ، متخذة من (مجلس الأمن) الوسيلة (الشرعية) لإلباس أخطر الجرائم الإنسانية ثوب (حماية الحقوق الإنسانية) وصيانة (السلم العالمي) .

إن قراءة هذه الصفحات ـ إذا أضيفت إلى ما بقي في الذاكرة من واقع (أممي) تعيشه دول العالم الثالث ـ جديرة بإلقاء ضوء أسود كئيب على مستقبل ظالم رهيب ، مالم نُرجع البصر والبصيرة كرتين ، ونغير من نفوسنا وسلوكنا ، ونتمسك بما صح من قيمنا ومبادئ ديننا ، ونستعين بالصبر والصلاة ، وبالجد والجهاد ، بزيادة العمل ، وبجودة الإنتاج ، وبعدم الوقوع في حمأة القروض والمعونات الفنية وغير الفنية .

إنهم لا يجودون علينا بما يصلحنا ، فنقف على أقدامنا.

إن هذه الصفحات السوداء لاتؤذن بخير يمكن أن تقدمه هذه

الشعوب ، إنهم بقروضهم يكبلون حركتنا ، ويغيرون قبلتنا، ويبثون فى صفوفنا الخبراء الجواسيس ، والعملاء المناحيس ، ويفرضون علينا طريقاً غير آمنة .

إن شعوب العالم الثالث اليوم محكومة بالهواء الملوث ، وبالماء الملوث ، وبالسماد الملوث ، وبالبذور الملوثة ، وبالدم الملوث ، وبالدواء الملوث ، وبالأغذية الفاسدة ، وبالأفكار الفاسدة ، وبالبرامج الإعلامية والتعليمية والترفيهية الفاسدة .

وقد آن أن نخرج من مسرح (القراجوزات) التى تحركها أصابع وخيوط مستترة ، ونملك مقدراتنا ، ونعيش على ما تُغِلُّ أرضنا ، وما تنتج مصانعنا ، وما تحققه معاملنا ومختبراتنا .

٢٤ يوليـة ١٩٩٤

* * *

التَّحَوّل

(أ) المسيحية ـ بداية الغزو الوثنى ـ سيطرة الغازى ـ مرحلة التنظيم ـ الآداب المسيحية.
(ب) الجذور .
(ج) ألوهية المسيح .
(د) التثليث .
(هـ) الفداء .
(و) ومن مظاهر التحول.
(ز) ونبتت نابتة .
(ح) المجامع المسكونية .
(ط) الفرق المسيحية فى التراث الإسلامى .

* * *



(أ) المسيحية ..

(ماجئت لأنقض ، بل لأكمل) ..

هذا موجز شريعة السيد المسيح عليه السلام .

إنه لم ينسخ شريعة موسى عليه السلام ، ولم يشأ وضع قوانين اجتماعية جديدة ، كان همه الوحيد ـ كما قال اسبينوزا ـ إعطاء تعاليم خلقية وتمييزها عن قوانين الدولة ، ومن ثم بقيت شريعة موسى ، مع التخفيف مما فرضه الحاخامات على الشعب (المختار) لا (المختار) ، فحرموا ما أحل الله لتقوى قبضتهم على أعناق (شعب صلب الرقبة) .. ومن ثم عرفت المسيحية بأنها رسالة المحبة والسلام .

(أن تحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل فكرك) ، وأن (تحب قريبك كنفسك) ـ متى ٢٢ .

(باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم) . (من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً) ـ متى ٥ .

(من طلب منك رداءك فأعطه قميصك مع الرداء) ـ متى ٥ .

لب العبادة فى قوة الإيمان :

(لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل ، لكنتم تقولون للجبل انتقل من هنا إلى هناك ، فينتقل) ـ متى ١٧ .

(ليس الإنسان للسبت ، إنما السبت للإنسان) ـ مرقس ٢ .

ومن ثم فالشعائر أخذت طابعاً سهلاً :

(متى صليت فلا تكن كالمرائين) ـ متى ٦ .

(متى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين) ـ متى ٦ .

حتى العقوبات التى بالغت أسفار (العهد القديم) فى عرضها صوراً من

الانتقام العنيف ، أرخت عليها المسيحية سدولاً :

(قالوا له : يا معلم : هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل ، وموسى في الناموس أوصانا أنه مثل هذه ترجم ، فماذا تقول أنت ؟ قال : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » ، ثم قال لها : (اذهبي ولا تخطئي أيضاً) ـ يوحنا ٨ .

لقد فتح الباب واسعاً أمام خراف بني إسرائيل ، لتفيء إلى ظل ظليل .

(إن كان لإنسان مائة خروف ، وضلّ واحد منها ، أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال ، ويذهب يطلب الضال ؟ وإن اتفق أن يجده ، فالحق أقول لكم : إنه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التي لم تضل) ـ متى ١٨ .

لكن ، من لا يستجيب لهذا العفو العام ، ويسارع إلى مغفرة من ربه ـ كما فعل الفريسيون والكتبة والمرابون المستفيدون من الأنظمة التي كانت سائدة ـ فلا داعي لضياع الجهد والوقت في إثرهم :

(كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع ، وتلقى في النار) ـ متى ٣ .

* هذه هي الخطوط الرئيسية التي أوردتها الأناجيل ، مع بيان صلة السيد المسيح بخالقه .

يقول يسوع في وصيته لتلاميذه: (من يقبلكم يقبلني، ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني) ـ متى١٠ .

قال أحدهم : (أيها المعلم الصالح) ، قال : (لماذا تدعوني صالحاً ؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد ، وهو الله) ـ متى ١٩ .

وفي ليلة العشاء الأخير قال لحوارييه : (نفسي حزينة حتى الموت ، امكثوا هنا ، واحرسوني) ، ثم ذهب إلى الأمام قليلاً ، وخرّ ساجداً على الأرض ، وأخذ يدعو الله أن يقيه من عذاب هذه الساعة ، إن كان ذلك ممكناً، وقال : (يا أبتاه ، يا أبي ، أنت القادر على كل شيء ، فارحمني من هـذا الكأس وأبعده عني ، إنها مشيئتك ، وليست مشيئتي) ـ مرقس ١٤ .

وحين أحاط به جند الرومان صار السيد المسيح يضرع إلى الله : (إلهي ، إلهي ، لماذا

تركتني ؟) ـ متى ٢٧ ، ومرقس ١٥ .

وهذا يفيد أن المسيحيين الأول استخدموا كلمة (الرب) في وصف عيسى ، بمعناها الإغريقي : Kyrios ، أى المولى ، أو السيد ، وليست الإله الخالق ، ولا بدع إذ عاشت فلسطين زمناً طويلاً تحت حكم يونانى مسيطر بثقافته ، ثم تحت حكم رومانى مسيطر بثقافة يونانية كذلك .

بداية الغزو الوثنى :

نطقت (الأناجيل) بالطبيعة الإنسانية لعيسى بن مريم ، بالرغم من أن هذه الأناجيل مشكوك في روايتها ، بسبب أنها لم تدون إلا بعد وفاة السيد المسيح بزمن طويل ، وبعد ظروف صعبة من الاضطهاد والنفى والتشريد والسجن والتعذيب ، حتى إنها اختلفت فى كثير من (الأصول) ، وقدمت فى شكل مذكرات كتبها أصحابها ، أو كتبها من نسبها إلى أصحابها ، كما يقول أكثر النقاد [١] .

ثم جاء الجيل الثانى أو الثالث ، متأثراً بثقافة دخيلة ، استعان بها كل من يوحنا وبولس ، لتدعيم كيان (متهدم) .. وكانت الثقافة اليونانية بآلهتها الوثنية ، أهم المنابع التى استقى منها المثقفون بعـامة ، على مدى قـرون ، وخضع لتأثيرها الدعاة إلى المسيحية ، بالإضافة إلى الثقافة الفارسية (الوثنية) التى كانت تضرب بجذور عريقـة في هـذه الساحة . . .فلا غرو أن صيغت المسيحية من جديد صياغة وثنية .

ويجب ألا ننسى سبق الثقافة المصرية القديمة إلى هذا الميدان ، من قبل غزو الإسكندر المقدونى الذى أعظم من شأن (آمون) وادعى عبادته ، ولبس شعاره .

وكان الفيلسوف الإسكندرى اليهودى (فيلون) ـ المعاصر للسيد المسيح ، والمتمتع بحظ من الصوفية المنتشية ـــ هو همزة الوصل بين المسيحية النقية البسيطة وبين الوثنية المادية الجافية .

من هنا بدأ إنجيل يوحنا بعبارة (فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله) .

---

(١) انظر كتابى : (دراسة فى التوراة والإنجيل) ـ دار الفضيلة .

ومع أن لهـذا التعبير (تأويلاً) بسيطاً أوجـزه القـرآن الكريم في عبارة :﴿ كن ﴾، ﴿ فيكون ﴾[1] فإن الظروف النفسية التى عاناها المسيحيون ، وبخاصة في عهود تيرون وتراجان وهادريان ، جعلت القوم يلتفُّون في عبارات تستنزل (الإله) من السماء إلى الأرض ـ كما فعـــل اليهود من قبل ـ ليكون أقرب إلى خلاصهم ، والدفاع عنهم ، ويقود مسيرتهم (!!).

ومن ثم كان الاختلاف ـ مع زمن المراجعة ـ في طبيعة السيد المسيح : هل هي طبيعة مزدوجة باجتمـاع اللاهوت بالناسوت ؟ هل ثمة إله (آب) وإله (ابن)، وروح قدس يجمع بين الابن وأبيه ؟ هل هي ثلاثة جواهر ذات صفات مختلفة ، أو هي جوهر واحد بثلاثة أسماء ؟ وما حظ السيدة العـذراء من الألوهيـة ؟ وإذا لم تكن إلهـة فكيف ولدت إلهــاً ؟.

سيطرة الغازي :

يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ٣ جـ ٣ ص ٢٧٦) : (إن المسيحية كانت آخر شيء عظيم ابتدعه العالم الوثنى القديم) .

خرجت المسيحية من رحم اليهودية ، ومن قبل توالدت اليهودية من أرحام عدة ، طبيعية وصناعية .

وإذا كان للابن شخصيته وبصماته الخاصـة ، فإنه تغـــذى من دم أمه ، وحمل جينات أبيــه .

ولما كانت اليهودية ـ إبان ظهور السيد المسيح ـ قد اعتورتها عوامل هدم كثيرة ، من داخلها ومن خارجها ، من فساد الكهنة ، وتسلطهم على الأموال والأرواح ، ومن كثرة الأساطير والمعتقدات الوثنية التي اكتنفت اليهودية ، منذ نشأتها، وتفاعلت معهـــا مئات السنين ، حتى إذا كان اضطهاد الأشوريين والبابليين واليونان والرومان ، وتعدد عهـود الشتات ، أسراً وعبودية واغتراباً واغتصاباً ـ خضعت اليهودية لما أملته تقاليد ومعتقدات البلاد التي لجأ إليها اليهود .

---

(١) سورة يس الآية ٨٢ .

فلما كانت دعوة السيد المسيح التى لم تتجاوز ثلاثة أعوام ، فى هـــذه البيئة الظالم أهلها ، لم يستطع إلا استنقاذ عدد قليل (١٢) من الصيادين والغرباء الذين يعيشون على هامش مجتمع من العشارين والمرابين والمتكسبين بالدين ، والمتآمرين لحساب أنفسهم ، ولحساب الرومان الذين يستبدون بهم ، ويفرضون عليهم وثنيتهم وطقوس عبادتهم .

فلمـا (صلب)[1] السـيد المسيح ، سـاح الحواريون الذين أوصاهم (يسوع) بقــوله : (لا تذهبوا إلى الوثنيين ، ولا تدخلوا مدينة للسامريين ، بل اذهبوا إلى خراف بيت إسرائيل الضــالة) .. فى أراض تنكرهم ، وتتربص بهم ، وتسجنهم ، وتكيد لهم ، وتفتنهم عـــن معتقدهم .

ومن خلال الرهبة والرغبة تشكلت ديانة جديدة ، تكاد تكون غريبة كل الغربة عن تعاليم السيد المسيح ، الذى لم يظهر اسمه فى كتاب من كتب التاريخ العالمى قبل سنة ٩٥ للميلاد ، عندما أشار المؤرخ اليهودى يوسيفوس إليه مرتين ، ويقول العلماء : إن الإشارة الثانية ربما كانت إضاءة متأخرة بواسطة كاتب مسيحى .

وفى القرن الثانى الميلادى وردت فى بعض كتابات الرومانيين ، أمثال تاسيتوس ، وسونونيس ، ثم بلينى ـ إشارات عابرة عن شخص اسمه كريستوس ، ولكنهم لم يزيدوا عن مجرد ذكر اسم المسيح ـ تاريخ الكنيسة جـ ١ ص ٤٠ .

وذكر (كرين برنتن) المؤرخ الأمريكى الكبير فى كتابه (أفكار ورجال ص ١٧٥) أن (ألبرت شوتيز) استمر لعدة أجيال فى (البحث عن يسوع فى التاريخ) وانتهى إلى نتائج غريبة ، ولعل أغرب هذه النتائج ما استنتجته إحدى المدارس من أنه لم يكن هناك يسـوع فى التاريخ ، وأن الشخص المسيحى الذى يمثل يسوع أسطورى ، أو على الأصح مركب من عدة أساطير متنوعة .

ولعل ذلك بسبب الاختلافات الواردة فى أخبــار الأناجيل ، والانقــلاب الذى أحــدثه بولس.

غير أن هؤلاء الباحثين يتفقون اتفاقاً تاماً ـ كما يقول برنتن ـ على أنه (ليست لدينا

---

(١) مخطوطات نجع حمادى التى اكتشفت عقب الحرب العالمية الثانية لمجموعة من الرهبان فى عصور المسيحية الأولى وبضم ٥٣ نصاً فى ١١٥٣ صفحة جمعت فى ١٣ مجلداً ـ تنفى صلب المسيح ، وتتحدث بصدق الرواية القرآنية ـ مجلة الهلال يونية ١٩٩٥ .

رواية معاصرة مباشرة عن أى شىء مما قال المسيح أو فعل) .

* (وقد مات الرسل الذين رأوا المسيح ، وعرفوه فى أيام جسده ، والمؤرخون خارج الكنيسة لا يعرفون إلا القليل جداً عنها ـ المسيحية ـ وعن عقائدها ، وحتى لو عرفوا عنها شيئاً ، فإنهم ما كانوا يعيرونها التفاتاً ، لعـدم أهميتها لهم ، أما المؤرخ المسيحى يوسا بيوس القيصرى ـ ٢٠٦/٢٤٠ ـ فقـد كتب عن حيـاة الرسل ، فى كتابه « تاريخ الكنيسة » ، لكنه اعتمد كثيراً على بعض الأساطير ، أو على تقاليد نسبت إلى كُتّاب آخرين فى القرن الثانى ، وفى تلك الحقبة كتبت بعض أسفار « العهد الجديد » ، وعلى الأخص الأناجيل، والرسائل الرعوية ، ورسالة العبرانيين ، ويعقوب ، وسفر الرؤيا) ـ تاريخ الكنيسة جـ ١ ص٧٥ .

هذا ما قرره (جون لوريمر) أستاذ مادة تاريخ الكنيسة بكلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة ، فماذا يقول ول ديورانت المؤرخ الفيلسوف ؟ .

يقول: قد يبدو من غير المعقول أن يكون كاتب سفر الرؤيا هو نفسه كاتب الإنجيل الرابع، ذلك أن سفر الرؤيا سفر يهودى ، وأن الإنجيل فلسفة يونانية ، ولعل الرسول قد كتب تلك الرؤى فى سورة الغضب التى أعقب اضطهاد نيرون ، وكان لها من هذا الاضطهاد ما يبررها ، ثم كتب الإنجيل فى أيام نضجه وشيخوخته ونزعته الميتافيزيقية سنة ٩٠ تقريباً .

وما من شك فى أنه قد سمع فى الجزائر والمدائن الأيونية أصداء كثيرة للتصوف اليونانى ، والفلسفة اليونانية ، وكان بطليموس من قبله قد نشر تلك العقيدة الخطيرة القائلة إن : « أفكار الله » هى النمط الذى شكلت بمقتضاه الأشياء كلها ، ثم جمع الرواقيون هذه الأفكار فى عبارتهم « فكرة الله المخصبة » ، ثم جسَّد الفيثاغوريون الجدد هذه الأفكار ، فجعلوها شخصاً قدسياً ، ثم استحالت على يد فيلون إلى « عقل الله » ، أى إلى عنصر قدسى ثان ، به يخلق الله الخلق ، ويتصل بالعالم .

وإذا كان يوحنا قد عاش مدى جيلين فى بيئة هلنستية ، فقد بذل جهده لكى يصبغ بالصبغة اليونانية العقيدة الصوفية اليهودية القائلة بأن حكمة الله كانت شيئاً حياً ، والعقيدة المسيحية القائلة بأن عيسى هو المسيح المنتظر ، كما أحس من قبل فيلون العالم المتضلع فى

البحوث العقلية اليونانية بالحاجة إلى صياغة العقائد اليهودية من جديد ، كى توائم عقلية اليونانيين ذوى النزعة الفلسفية. فلم يعرض يوحنا المسيح على العالم ، كما كان يعرض من قبل ، بوصفه يهودياً يلتزم الشريعة اليهودية إلى حد ما ، بل أنطقه ـ فى خطابه لليهود ـ بقوله : « أنتم » وبحديثه عن الناموس بقوله : « ناموسكم » ، ولم يكن « مسيحاً منتظراً » أرسله لينجى خراف إسرائيل الضالة بل كان ابن الله الخالد معه ، ولم يكن الحكم بين الناس فى المستقبل فحسب ، بل كان هو الخالق الأول للكون .. ومن ثم كان فى وسع العالم الوثنى ، بل فى وسع العالم المضاد للسامية الذى آمن بالقياصرة آلهة ـ أن يحتضنها ، ويرضى بها.

إن المسيحية لم تقض على الوثنية ، بل تبنتها .

وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبة ، وساعدت عدة مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على إحداث هذه النتيجة المتناقضة الأطراف ، فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ، ويوم الحساب ، وأبدية الثواب والعقاب ، ومن مصر جاءت عبادة أم الطفل ، والاتصال الصوفى بالله ، ذلك الاتصال الذى أوجد الأفلاطونية الحديثة واللاأدرية ، وطمس معالم العقيدة المسيحية .. ومن مصر أيضاً استمدت الأديرة نشأتها، والصورة التى نسجت على منوالها .

ومن فريجية جاءت عبادة الأم العظمى .

ومن سورية أخذت تمثيلية بعث أوتيس .

وربما كانت تراقيا هى التى أمدت المسيحية بطقوس ديونيسيوس ، وموت الإله وقيامه .

ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة المسيح وحكمه الأرض ألف عام ، وعصور الأرض، واللهب الأخير الذى سيحرقها ، وثنائية الشيطان والله ، والظلمة والنور .

ولقد بلغ التشابه بين الطقوس المثراسية ، والقربان المقدس ـ فى القداس ـ حداً جعل الآباء المسيحيين يتهمون إبليس بأنه هو الذى ابتدعه ، ليضل به ضعاف العقول ـ قصة الحضارة مج ٣ جـ ٣ ص٢٧٤/٢٧٦ .

* وقد لعب شاءول الطرسوسى (بولس) دوراً خطيراً فى تزييف (المسيحية) ، ذلك

أنه كان على عداء شديد للمسيحية ، وقد أعان على نشر اضطهاد المسيحيين فى أورشليم وما حولها ، وأعان على رجم الشهيد اسطفانوس الذى (كان يتمتع بمواهب ممتازة) ، ثم أعلن دخوله في المسيحية ليكيد لها من الداخل كما هى عادة اليهود ، على مدى تاريخهم الطويل ، وادعى أن المسيح ظهر له فى الطريق وباركه وأوصاه.

كان شاءول فرّيسياً يعرف العبرية واليونانية ، وغالبــاً الآرامية ، وتعلم على يد غمالائيل (أمير اليهـود) الذى تزعم اضطهاد المسيحيين ، وأعــان صموئيل هاكلتون على كتــابة (صلاة) ضد المسيحية تقول :

(ليقطع رجاء النّمـامين ، ولْيَفْنَ الأشرار فى لحظة ، لينقطع كل أعدائك ، وأزل سريعاً المتكبرين وزعزعهم ، وأسقطهم سريعــاً فى أيامنا ، لتتبارك أنت يارب الذى تضرب أعداءنا ، وتذل المتكبرين) ــ عن دائرة المعارف اليهودية جـ ١١ ص ٢٧١ .

ومن ثم كان رد الفعل المسيحى بالكتابة إلى (تيطس) محذرين من اليهود ، وتكلم سفر الرؤيا عن (مجمع الشياطين) ، وقال (أغناطيوس) : (إنه من الجنون أن تتكلم عن المسيح يسوع وتكون فى نفس الوقت يهودياً) ولعله كان يعنى شاءول الذى كان يحمل الجنسية الرومانية ، وتأهل بثقافته ورومانيته ليقوم بالدور الذى رسمه أو رسم له فى تاريخ المسيحية .

يقول اسبينوزا الفيلسوف اليهودى المتنصر فى تعليل هذا الدور الذى قام به بولس : كان يونانياً مع اليونانيين ، يهودياً مع اليهود ، لم ير المسيح ، ولم يكن معاصراً له ، وكان تحوله إلى الدين الجديد متأخراً ، وكان تاريخه مثقلاً باضطهاد المسيحيين ، فأراد التعويض عن كل ذلك خاصة أمام تلاميذ المسيح المباشرين ، وماكان بينه وبينهم من منافسة من أجل نشر الدعوة ، هـذا البناء النفسى يظهر فى عــديد من عباراته ، مثــل : (أنا بولس) (الأمر بيدى) إلخ ، وفى إصراره فى كل رسالة من رسائله على أنه حوارى ، يتحدث باسم المسيح ، جاءه وحى مباشر ، لا يقل أهمية عن الآخرين ، ويطالب بالسمع والطاعة على الإطلاق ، ويرد على اتهامات الآخـرين بأنه دخيل على الدعوة ، فهو يتحدث عن نفسه ، ويعطى نفسه السلطة ، لدرجة أن رينان وصفه بأنه متكبر مغرور ، ويصف نفسه بأنه متميز عن غيره ، وأن لغته ليست من البشر ، بل من الروح ، وأن له نفس الحقوق التى

للحواريين ، وأنه تابع للمسيح ومقلد له .

ولما كان الأسر الرومانى الأول ـ وهو فى الواحدة والستين ـ كان الدافع لديه هو التركيز على الفضيلة العملية ، بلغة الأمر والنهى ، وتظهر لديه فى ذلك الحين معتقدات الجماعة الأولى ، مثل انتظار رجوع الرب ،كما أخذت المصطلحات اللاهوتية فى الظهور ، ووحَّد بولس بين الكلمة والإنجيل والروح القدس ويسوع والرب ، وتحول كلام الله إلى شخص المسيح ، وظهرت ألقاب المسيح على أنها حقائق كونية .

وفى المرحلة ما بين الواحدة والستين والسابعة والستين من عمره ظهر الدافع الأساسى فى صورة نظريات فى المسيح ، وصاغ فى قوالب عقلية عواطفه الصوفية ، وانفعالاته التبشيرية ، وتحولت ألقاب المسيح من مجرد لغة عادية إلى صفات لله أو إلى أسس للعقيدة ، مثل التوسط والخلاص والتجسد والفداء.

وخطا خطوة أخرى فأعلن أن (الوصايا بشأن الأطعمة والصيامات والفروض ليست ملزمة) ـ مواقف من تاريخ الكنيسة ص ١١ ـ ونقل المسيحية من الخاص إلى العام ، أو من المحلية إلى العالمية ، وبذلك أفرغها من اليهودية ، وضل بها داخل الوثنية اليونانية ، وزاد فأعلن ألوهية المسيح ، وهذا ما أرادت السبئية أن تصنعه بالإسلام ، حين ادعى ابن سبأ إسلامه ، ثم أعلن ألوهية على بن أبى طالب .. وجعل بولس الآلهة ثلاثة ، لهم من صفات آلهة الأولمب الزواج والولادة وتقسيم الاختصاصات ، ومن ثم كانت قرابين المذبح المسيحى مشمولة بطقوس المذبح الوثنى ، كما كان حال المذبح اليهودى .

يقول برتراند رسل فى(تاريخ الفلسفة الغربية ـ جـ ٢ ص ٣٦) : كان الذين يبشرون بالمسيحية أول الأمر هم اليهود أنفسهم ، يبشرون بها اليهود ، على أنها العقيدة اليهودية التى دخلها الإصلاح ، وقد أراد القديس جيمس ـ كما أراد القديس بطرس بدرجة أقل ـ أن يقف أمر المسيحية عند هذا الحد ، وقدكان من الجائز أن يسود رأيهما ، لولا القديس بولس الذى صمم على قبول غير اليهود ، دون مطالبتهم بالختان أو الخضوع للتشريع الموسوى . وقصة النزاع بين الفريقين مثبتة فى (أعمال الرسل) وهى مروية هناك من وجهة نظر القديس بولس .

ولعله من أجل هذا قال أغناطيوس فى رسالته إلى المسيحيين فى تراليس (Tralles)) :

(سدوا آذانكم عن سماع أى واحد يتكلم عن غير يسوع المسيح الذى من نسل داود الذى من العذراء مريم ، الذى ولد بالحق ، وأكل وشرب ، واضطهد حقيقة فى عهد بيلاطس النبطى ، ثم صلب ومات أمام أنظار الكائنات التى فى الأرض والسماء وتحت الأرض ، وأقيم حقاً من بين الأموات . أقامه أبوه السماوى) .

وأكد هذا جاستن مارتر ، حين وقف أمام متهميه سنة ١٦٧ يقول : (نحن نعبد إله المسيحيين ، الإله الواحد الذى نؤمن بأنه هو الخالق الأصلى لكل العالم ، ولكل الأشياء المنظورة وغير المنظورة ، والرب يسوع المسيح عَبْد الرب الذى تنبأ عنه الأنبياء ، كنبى الخلاص لكل البشر ، ومعلم المعرفة السامية) ـ تاريخ الكنيسة جـ ٢ص ١٥٥ .

لقد فجر بولس قنبلته ليتخلص من جميع المسيحيين الأول ، وليصطلى بنارها كل من يحاول أن يجدد معتقداتهم ، أو يخطو على آثارهم .

كان دأبه كما قال فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس صح ٩ ـ (استعبدت نفسى للجميع لأربح الأكثرين ، صرت لليهودى كيهودى لأربح اليهود ، للذين تحت الناموس كأنى تحت الناموس ، لأربح الذين تحت الناموس ، وللذين بلا ناموس كأنى بلا ناموس ، صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال قوماً) .

وهـذا منطق الوصولى الداهية الذى لا يلتزم مبدأ فى سبيل الوصول إلى غاية ينشدها ، ولعله نجح فى أن شغل المسيحيين بالمسيحيين ، فتبادلوا الاتهامات ، وسقط منهم شهداء أضعاف الذين سقطوا على أيدى أعدائهم الحقيقيين ، أو الذين لم يلبسوا أقنعة ، ويتنكروا فى المسوح .

*** وعلق المؤرخ الكبير توينبى على هذا التحول بقوله :**

انحراف زعماء الكنيسة المسيحية فى كثير من الأحيان ـ منذ تشييد الكنيسة حتى أقرب وقت ـ انحراف عن العقيدة ، بلغ درجة نكران مؤسس الكنيسة نفسه ، إذ جعل رجال الدين من الدين مهنة يحتكرونها دون الناس جميعاً ، واتصفوا بذلك الرياء الذى كان من سمات الفريسيين اليهود ، واعتنق رجال الدين كذلك ـ بدافع من مصالحهم ـ وثنية اليونان ، وتعدد أربابهم ، وجعلوا من أنفسهم حماة للمصالح الموروثة ، يذودون عنها ، مستخدمين آراء المشرعين الرومان .

وبينما كانت الكنيسة تقود في المؤخرة معركة ثقافية ضد ما اعتبرته أخطاء (تحررية) و (مستحدثة) و (علمية) ـ سقطت دون أن تدرى في هاوية الرجعية السياسية ، فأصبحت من ثم تؤيد الإقطاع والملكية والأرستقراطية ، بل السياسيين الرجعيين الذين كانوا في الواقع خصوماً للمسيحية والروح الثورية على السواء .

وما تزال هناك طائفة من الهيئات الكنسية ترى في الإصرار على عدم التسليم للعلم أملها الوحيد في استبقاء نفوذها ، وقد انعكس عنادها هذا في قرارات مجمع الفاتيكان (١٨٦٩ ـ ١٨٧٠) : وفي قرار الحرمان الذي أصدرته الكنيسة الرومانية الكاثوليكية سنة ١٩٠٧ ضد ما أسمته (الاتجاهات العصرية الضارة) .

وقد تنسى رجال الدين أن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي ، تضطره إلى التماس فتات العزاء الديني على موائد لا تملك منها شيئاً .

إن أخطر ظاهرة يواجهها العالم اليوم في البلاد المسلّم بديمقراطيتها ، وباعتناقها المسيحية ـ أن أربعة أخماس عقيدة جمهرة السكان هي فعلاً العبادة الوثنية البدائية للجماعة التي أصبحت موضع تأليه جمهرة الناس، وهي عبادة تستتر وراء كلمة لطيفة هي (الوطنية) .

إن اللاهوت المصوغ صياغة علمية (بفرض تصور حدوثه)سيثبت قصوره وفناؤه على طول المدى ، مثله مثل ضروب اللاهوت التي صيغت من قبل صياغة فلسفية ، فأصبحت وقت كتابة هذه السطور تتدلى كأحجار الرحى حول أعناق البوذيين والهندوكيين والمسيحيين والمسلمين .

إن الصياغة العلمية قاصرة ، لأن لغة الفكر أضعف من أن تنقل فراسة النفس، وهذه الصيغة العلمية فانية ، لأن إحدى مزايا البحث العقلي أنه دائم التحول ، وأنه يطرح جانبا النتائج التي سبق أن توصل إليها ـ مختصر دراسة للتاريخ جـ ٣ ص ١٨٤/١٧١ .

مرحلة التنظيم :

ومفهوم (الكنيسة) في بداية الأمر كانت هيئة بسيطة من المؤمنين ، تختار لها واحداً أو أكثر من الكبراء أو القساوسة ليرشدها ، وواحداً أو أكثر من القراء والسدنة ، والشمامسة ، ليساعدوا الكاهن .

ولما كثر عدد العابدين ، وتعقدت شئونهم ، اختاروا لهم في كل مدينة قسًا ، سموه إبسكوبس (Episcopos) أي مشرفاً ، أو أسقفاً ، لينسق هذه الشئون.

ولما زاد عدد الأساقفة أصبحوا هم أيضاً في حاجة إلى من يشرف على أعمالهم وينسقها.

لهذا بدأنا نسمع في القرن الرابع عن كبار الأساقفة ، أو المطارنة المشرفين على الأساقفة ، والمسيطرين على الكنائس في ولاية كاملة ، وكان يحكم هذه الطبقات من رجال الدين بطارقة يعتمدون في القسطنطينية ، وأنطاكية ، وبيت المقدس، والإسكندرية ، وروما .

وكان الأساقفة وكبار الأساقفة يجتمعون بناء على دعوة البطريك ، أو الإمبراطور ، في المجمع المقدس، فإذا كان هذا المجمع لا يمثل إلا ولاية بمفردها سمي مجمع الولاية ، وإذا كان يمثل الشرق أو الغرب سمي المجمع الكلي ، وإذا ما مثلهما جميعاً كان مجمعاً عاماً ، وإذا ماكانت قراراته ملزمة لجميع المسيحيين كان هو المجمع الأكبر .

وكانت الوحدة الناشئة من هذا النظام هي التي أكسبت الكنيسة اسم (الكاثوليكية) ، أو العالمية ، وفي القمة يجلس(البابا)الذى أصبح في الإنجليزية (Pope)، وكان يطلق في القرون الثلاثة الأول على كل أسقف مسيحي ، وكانت الإسكندرية مصدر نشوء هذا اللقب.

ويرجع تاريخ بناء أقدم الكنائس إلى سنة ٢٣٢ ، وقد وجد هذا البناء في حطام مدينة (دورا) ، على نهر الفرات ، وحملت بقايا هذه الكنيسة إلى الولايات المتحدة ، وحفظت في متحف جامعة ييل ـ مواقف من تاريخ الكنيسة ص ٢٥ .

* ويلاحظ ول ديورانت أن (التنظيم الكنسي) في بيئة رومانية لم يكتسب الهيكل الإداري فحسب ، بل اكتسب العادات والمراسم الدينية التي كانت سائدة في روما قبل قيام المسيحية ، كالبطرشيل وغيره من ثياب الكهنة الوثنيين ، واستعمال البخور والماء المقدس في التطهير ، وإيقاد الشموع ، ووضع ضوء دائم لا ينطفىء أمام المذبح ، وعبادة القديسين ، وهندسة الباسلقا ، وقوانين روما التي اتخذت أساس القانون الكنسي ، ولقب الحبر الأعظم الذى أطلق على كبير الأساقفة ، مضافاً إلى اللغة اللاتينية التي أصبحت في القرن الرابع الأداة الخالدة النبيلة لشعائر الكاثوليكية .. بل كان أهم من هذا كله نظام الحكم الواسع

الذى أمسى ـ بعد عجز السلطة الزمنية ـ صرح الحكم الكنسى ، فلم يلبث الأساقفة ـ لا الحكام الرومان ـ أن صاروا هم مصدر النظام ، ومركز القوة والسلطان فى مدائن الإمبراطورية ، وكان المطارنة وكبار الأساقفة أكبر عون لحكام الولايات ، إن لم يكونوا قد حلوا محلهم ، كما حل مجمع الأساقفة محل جمعيات الولايات وسارت الكنيسة الرومانية فى الطريق الذى سارت فيه قبلها الدولة الرومانية ـ قصة الحضارة مج ٣ جـ ٣ ص ٣١٩/٣٢٠ .

الآداب المسيحية :

فى القرن الثانى أخذت الخيوط المسيحية تتجمع وتتكامل ، وتصمد فى مواجهة المكائد اليهودية ، والتجاوزات الرومانية ، وتتحدى الشعور بالاغتراب والعزلة ، وتفيض بالأناجيل والرسائل والرؤى و « الأعمال » .

ومرة أخرى اشتد الاختلاف حول هذه (الآداب) : من حيث صدق تعبيرها عن العقيدة ، ومن حيث بعدها عن الصدق .

وكان أن قبلت الكنائس الغربية ـ مثلاً ـ سفر الرؤيا ، على حين رفضته الكنائس الشرقية التى تعترف بإنجيل العبرانيين ، وبرسائل يعقوب .

ويذكر كليمنت الإسكندرى ضمن الكتب المقدسة رسالة كتبت أواخر القرن الأول باسم تعاليم الرسل الاثنى عشر المرفوضين من الكنائس الغربية ، ولعلها ذلك السفر الذى ذكره رسل فى كتابه (تاريخ الفلسفة الغربية جـ ٢ ص ٣٠) باسم (عهود الرؤساء الاثنا عشر) التى كتبت بين سنتى ١٠٩ ، ١٠٧ ق . م ، كتبها فريسى معجب بحنا هير كانوس الكاهن الأعلى من أسرة هاسمون ، وتتضمن هذه العهود مبادئ خلقية (نحسبها من أخص خصائص تعاليم المسيح) مع أنها بقلم فريسى ، ومنها :

(ليحب كل منكم زميله من قلبه ، وإذا أخطأ أحد فى حقك فتحدث إليه فى رفق ، ولا تحمل فى نفسك ضغينة ، وإذا ندم الخاطئ واعترف بخطئه فسامحه ، أما إذا أنكر وقوع الخطأ منه فلا يأخذنك الغضب منه ، حتى لا تنتقل عدوى العاطفة منك إليه ، فيأخذ فى السباب ، وعندئذ يصبح خطؤه ضعفين .. وإذا لم يكن ذا حياء ، ومضى فى اقترافه الخطأ فسامحه من قلبك ، واترك الانتقام لله) .

(أحب ربك وجارك) .

(أحبوا ربكم طوال حياتكم ، وأحبوا بعضكم بعضاً من قلوبكم) .

(أحبُّ ربى كما أحبُّ كل إنسان بكل قلبى) .

ويمكن المقارنة بين هذه الفقرات وبين إنجيل متى (صح ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٩) .

وفى (عهـود الرؤساء الاثنى عشر) كذلك استنكار لكل ضروب الكراهية ، مثال ذلك :

(الغضب أعمى ، ولا يسمح لإنسان أن يرى وجه إنسان آخر رؤية الحق) .

(الكراهية شر ، لأنها تقترن دائماً بالكذب) .

ويعلل الدكتور تشارلز هذا الموقف (الشاذ) من هذا الفريسى بقوله :

(لما انسلخت الحركة الفريسية عن مبادئ حزبها القديمة ، وأخذت بنصيب فى الحركات والاهتمامات السياسية ، واقتضاها ذلك ـ فى الوقت نفسه ـ أن تتجه اتجاهاً أخذ يتزايد نحو دراسة حرفية للتشريع . فسرعان ما بلغت فى ذلك حداً لم تعد معه تهيئ المجال لتطور مبادئ أخلاقية رفيعة ، كالتى تنادى بها « عهود الرؤساء الاثنا عشر » ولذلك نرى الخلفاء الحقيقيين لحزب « الحسيديين » الأولين وتعاليمه قد نفضوا أيديهم من اليهودية ، حيث وجدوا لأنفسهم ملاذاً طبيعياً فى أحضان المسيحية ، وهى فى مرحلتها الأولى) .

كأن تشارلز يقول إن مؤلف (عهود الرؤساء الاثنى عشر) شعر بما أصاب اليهودية على يد الفريسيين من جمود ، فأراد أن يبث فيها الحياة ، عن طريق هذه المبادئ (المسيحية) ، وكأنه كان يبشر بظهور السيد المسيح ، وتقويض صفحة اليهودية التى خضعت لمطامع الحاخامات الدنيوية.

* وخلف الجيل الثانى أو الثالث أناجيل أخرى كإنجيل الناصريين ، وإنجيل الأبيونيين(الفقراء) ، وإنجيل العبرانيين ، وإنجيل المصريين ، وإنجيل بطرس ، وغيرها ، مما كتب فى القرن الثانى الميلادى ، لكن الكنيسة حكمت بأن الأناجيل الأربعة ـ متى ، ومرقس ، ولوقا ، ويوحنا ـ هى وحدها التى تقدم القصة الحقيقية لحياة المسيح ـ تاريخ الكنيسة جـ ١ ص ٨٤ .

ويذكر الأستاذ العقاد (عبقرية المسيح ص ١٩٣/١٩٢) أن المسيحيين تداولوا فى

القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل ، ثم اعتمد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالاقتراع .

وكشفت أوراق بردية في مصر ، ترجع إلى منتصف القرن الثاني ، لا تشبه الأناجيل المعتمدة في نصوصها.

وتتفق الآراء على أن نسختين من الأناجيل كتبهما مسيحيان لم يجتمعا بالسيد المسيح ، ولم يسمعا منه ، وهما نسخة مرقس التي دون فيها ما سمعه من بطرس الرسول بغير ترتيب ، وعلى غير قصد منه أن تجمع في كتاب ، وقد كتبها في روما بعد مقتل الرسول بطرس ، وليس معه أحد من التلاميذ.

والنسخة الثانية هي نسخة لوقا ، صاحب بولس الرسول ، دون فيها ما سمعه منه ، ولعله أضاف إليها جزءاً من النسخة المفقودة ثم جزءا من إنجيل مرقس ، بعد اطلاعه عليه .

ويقول ويلز (معالم التاريخ الإنسانية مج٣ ص ٦٩٠/٦٩١) : يميل النقاد إلى اعتبار إنجيل القديس مرقس أصح ما كتب عن شخص يسوع وأعماله وأقواله ، وأجدرها بالثقة .

وبالرغم مما أضيف إلى القصة من إضافات معجزية ، وأمور لا تصدق ، فإن المرء لا يسعه إلا أن يقول : (إن هنا لإنساناً حقاً ، إذ ليس من الممكن أن يكون هذا القسم من القصة من نسج الخيال والاختراع) .

ولا شك في أن القصة ليست من نسج الخيال ، وليس كل ما جاء في الأناجيل وأعمال الرسل محض اختلاق ، لكن القضية مرهونة بما بين هذه الكتابات من اختلافات ، وبما جاء في هذه الكتابات من إضافات ، وبما طبعت به هذه الكتابات من انطباعات شخصية .

يقول الأستاذ العقاد (عبقرية المسيح ص ١٩٤) : إنجيل متى ملحوظ فيه أنه يخاطب اليهود ، ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة ، ويؤدي عباراته أداءً يلائم كنيسة بيت المقدس في منتصف القرن الأول الميلادي .

وإنجيل مرقس ملحوظ فيه أنه يخاطب (الأمم) ، ولا يتحفظ في سرد الأخبار الإلهية التي كانت تحول بين بني إسرائيل المحافظين والإيمان بألوهية المسيح .

وإنجيل لوقا كتبه طبيب ، وقدمه إلى سَرى كبير ، فأورد فيه الأخبار والوصايا من الوجهة الإنسانية ، وأحضر في ذهنه ثقافة السَّرى الذي أهدى إليه نسخته ، وثقافة أمثاله من العلية .

وإنجيل يوحنا غلبت عليه فكرة الفلسفة ، وبدأه بالكلام عن الكلمة (Logos) ، ووصف فيه التجسد الإلهى ، على النحو الذى يألفه اليونان ، ومن حضروا محافلهم ، ودرجوا معهم على عادات واحدة .

وتفرد إنجيل يوحنا بمقولة : (من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر) ، كأنما أراد تبرير عدم رجم الزانية ، مع أن جريمة الزنا من أخطر الجرائم التى قامت عليها شريعة موسى عليه السلام ، لكن لعله أراد أن يدين اليهود الذين يرتكبون أشنع الجرائم ، ثم يريدون أن يقيموا الحد على هذه المرأة التى ربما ضاقت بها سبل الكسب الشريف .

إن التمايز بين الأناجيل وبين أعمال الرسل ، على أساس من التوجه الشخصى ، والثقافة الخاصة ، يباعد دون شك من تقديس الكلمة ، ومن الالتزام بمحتواها .

ولعل هذا مما أدى إلى اختلاف نصوص طباعة الكاثوليك ، عن نصوص طباعة البروتستانت .

وهذه دائرة المعارف البريطانية التى اجتمع لكتابتها أكثر من ٥٠٠ عالم ، استبعد فيها مسيو موريس فرن كونَ الأناجيل الثلاثة المعزوّة إلى متى ومرقس ولوقا ـ من تصنيفهم ، وحين وصل إلى إنجيل يوحنا قال : إنه لاشك كتاب دخيل مزور ، أراد مؤلفه أن يوجد تناقضاً بين أقوال القديسين متى ويوحنا ، وادعى فى صلب كتابه أنه هو الحوارى الذى يحبه المسيح ـ المسيح بين الحقائق والأوهام ـ د . وصفى ص ٤٢ .

هذا مع أن يوحنا بن زبدى الذى كان يحبه المسيح صياد سمك ، وصفه القديس لوقا بأنه ـ مع بطرس ـ (إنسانان عديما العلم وعاميان) ـ أعمال الرسل ٤ : ١٣ ـ على حين ينحو إنجيل يوحنا منحى فلسفة فيلون الفيلسوف اليهودى الإسكندرى .

يقول المجاهد أحمد ديدات : (عتاد الجهاد ص ٣٨) : إن يوحنا (اليونانى) الذى صاغ الإنجيل الرابع استمد معلوماته ـ فيما يتعلق بحياة المسيح ـ من الشيخ يوحنا بن زبدى الذى انتهى مطافه إلى مدينة إفسس التى كانت معروفة بأنها مدينة الخمر والعهر ، وليس من الغريب ـ وقد وكلوا إليه صياغة إنجيل باللغة اليونانية ـ أن يصرح بألوهية المسيح ، وأن يجعل المسيح يحول الماء خمراً ، وتسقى أم المسيح بنفسها الناس خمراً ، كما صرح بإطلاق سراح المتلبسة بالزنا دون عقاب ، وجعل المسيح يخاطب أمه بقوله : (يا امرأة) ،

بدلاً من أن يقول (يا أمي) ، أو يستخدم تعبيراً آخر يدل على البر بأمه ، وكان خطابه للمرأة الزانية : (يا امرأة) .

ويأخذ ديدات على إنجيل لوقا ـ أقدم الأناجيـــل ـ أنه يروى عن السيد المسيح قوله : (جئت لألقى ناراً على الأرض ، فماذا أريد لو اضطرمت) وقوله : (تظنون أنى جئت لأعطى سلاماً على الأرض كلا أقول لكم : بل انقساماً) .

* ولم يقف الأمر عند الأناجيل الأربعة التى اختيرت (بالاقتراع) ، فسفر الرؤيا يعتقد الأرثوذكس والكاثوليك أنه كلام الله ، ويعتقد البروتستانت أنه محض خرافات .

والرسائل الاثنتان والعشرون التى نسبت إلى الرسل لاتبين لنا من هو المسيح الذى أخبرت عنه الأناجيل الأربعة ، لم تذكر شيئاً عن ولادته أو نسبه أو حياته ، بل لم تذكر شيئاً عن أفعاله وأقواله وتعاليمه ، ولم تشر أية إشارة إلى الأناجيل الأربعة التى كان يجب أن تكون عمدة الدين وأساس العقيدة ، بل هى لا ترجع فى أمر من أمورها إلى تعاليم المسيح ـ المسيح بين الحقائق والأوهام ص٤٥ .

ويقول الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه (الأسفار المقدسة ص ٩٤) عن رسائل الرسل : (لم تعتمد هذه الرسائل جميعها إلا فى سنة ٣٦٤ ؛ أما قبل ذلك فكان كثير منها موضع شك فى صحة حقائقها، وصحة نسبتها إلى أصحابها ، عند كثير من المسيحيين ، حتى إن مجمع نيقية نفسه ـ وهو من أكبر مجامعهم المسكونية ـ لم يعتمد إلا رسالتين اثنتين من هــذه الرسائل ، رسالة بطرس الأولى ، ورسالة يوحنـــا الأولى ، ورفض ما عداهما) .

ويقول ديدات فى مناظرته القديس السويدى باستر ستانلى شوبيرج :

إن إنجيل الكاثوليك به ثلاثة وسبعون سفراً ، أو كتاباً ، ولو فحصنا إنجيل الملك جيمس ـ إنجيل البروتستانت ـ نجد به ستة وستين سفراً ، أو كتاباً ، وبذلك تكون الزيادة فى إنجيل الكاثوليك سبعة أسفار أو كتب ، هل مثل هذا الاختلاف فى محتوى الأناجيل مجرد اختلاف فى أساليب الصياغة بين الكتب ؟ .

إن أعظم الخوارق المنسوبة إلى المسيح بالإنجيل هى الصعود إلى السماء والجلوس على يمين الله ، ولقد ورد ذكر ذلك الصعود إلى السماء بين دفتى أكثر من إنجيل ، ورغم ذلك

تم العدول والتراجع عن ذلك . من الذى عَدَلَ وتراجع عن ذلك ؟ خمسون عالماً من أكبر علماء المسيحية ، يساندهم جمهور اثنين وخمسين مذهباً مسيحياً !!.

إن الدكتور ج . ب . فيلبس ـ وهو واحد من أكبر علماء المسيحية ـ يقرر فى مقدمته لإنجيل (متى) أن القديس متى كان يقتبس من إنجيل القديس مرقس ، وكان ينقحه ، محاولاً الوصول إلى تصور أحسن وأفضل منه .

لماذا يعمد رجل هو أحد تلاميذ المسيح ، وواحد من حوارييه ، مثل متى ، إلى النقل عن رجل لم يكن من تلاميذ المسيح وحوارييه ، مثل مرقس؟

فى إنجيل الملك جيمس ـ وهو الإنجيل الذى حظى بثلاث عمليات من عمليات المراجعة الفائقة التدقيق ، بواسطة مراجعين من عظماء رجال الدين المسيحي وأعلامهم مرتبة ـ تم استبعاد الإصحاح السادس عشر من إنجيل مرقس ، لماذا ؟ لأنه لم يوجد له أصل فى المخطوطات القديمة ، والأكثر قدماً ـ مناظرتان فى استكهولم ص ٦٤ ـ ٩٢ .

ويقول ديدات فى(المصدر السابق ـ ص ٣٤/٢٧) :

اختار البابا جون العلامة هانزكومب رئيساً للجنة شكلها الفاتيكان لدراسة الإنجيل ، فقرر هانز أننا لا نستطيع أن نجد أى دليل على أن الإنجيل ينحدر مباشرة عن الله ، وقدم الأدلة الصريحة على أن الإنجيل إنما هو كلام بشر ، مستدلاً على ذلك بما ورد فى صدر إنجيل القديس لوقا : (إذ كان الكثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا ـ كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة ـ رأيت أنا أيضاً ، إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق ، أن أكتب على التوالى إليك ، أيها العزيز ثاوفيلس ، لتعرف صحة الكلام الذى علمت به) .

هاكم القديس لوقا نفسه يحدد الطريقة التى كتب بها الإنجيل ، لا بتكليف من الله ، ولا بتكليف من الروح القدس ، ولكن بتكليف من نفسه (رأيت أنا أيضاً) ، إنه هو الذى رأى أن يكتب إلى ثاوفيلس ، وهو الذى حدد مصادره التى يستقى منها معلوماته ، متمثلة فيمن سبقوه إلى الكتابة فى هذا الموضوع الذى ارتأى هو أيضاً أن يكتب فيه .

وعندما نتصفح إنجيل لوقا أيضاً نجد أنه فى بدء تحديده نسب المسيح عليه السلام يقول :

(ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة ، وهو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي بن متثات بن لاوى بن ملكى بن ينّا بن يوسف بن متّاثيا بن عاموص بن ناحوم بن حسلى بن نجّاى بن مآث بن متّاثيا بن شمعي بن يوسف بن يهوذا بن يوحنا بن يريسا بن زر بابل بن شالتيئيل بن نيرى .. إلخ)ـ لوقا ٣ .

نجد كلمات وعبارات مثل (نحو) ، و (على ما كان يظن) فى كلام يزعمون أنه كلام الله ، وكأن الله ـ سُبحانه وتعالى ـ عاجز ، وفق زعمهم ، عن تحديد عمر المسيح ، وكأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يتكلم بالظن ، ولا يعرف يقيناً .

وجاء فى مجلة الحقيقة الناصعة (Plain Truth) ـ أكتوبر ١٩٧٧ ـ (إن قراءة قصص الكتاب المقدس للأطفال يفتح عيونهم على أمور الشهوات الجنسية (Sex) ، وإذا لم يهذب الكتاب المقدس وينقح فإن لهيئات الرقابة على الكتب التعليمية الحق فى أن تعتبره غير صالح للقراءة ، من جانب أولئك الذين لم يتجاوزوا الثامنة عشرة من العمر ، على أحسن الفروض) .

ولقد قام الدكتور فرنون جونز ـ وهو واحد من أكبر علماء النفس الأمريكيين ـ بإجراء بعض التجارب على مجموعات متماثلة من طلاب المدارس لدراسة نوعية تأثير قراءة قصص الكتاب المقدس على سلوك أفرادكل مجموعة فى الحياة المدرسية ، وأوضحت التجارب أن مجموعة الأطفال الذين قرئت عليهم قصص الكتاب المقدس ظهر فى مسلكهم اليومى سمات الانحراف الخطيرة ، مثل الميل إلى خداع الآخرين ، والكذب والسرقة والشذوذ الجنسى .

إن للقراءة تأثيرها الخطير فى تكوين شخصية الناشئين ، إن كل إنسان إنما هو نتاج ما يأكل ، وهو أيضاً نتاج ما يقرأ ، ولو طبعت مثل هــذه القصص الشاذة فى كتاب غير (الكتاب المقدس) لما أجيز طبعها ونشرها فى كثير من دول العالم المتحضر .

وليس الأمر مقصوراً على (العهد القديم)دون (العهد الجديد) ، لأن مرد (العهد الجديد) إلى(العهد القديم) ، وشريعة (العهد الجديد) ممثلة فى (العهد القديم) ، هذا بالإضافة إلى أن قصص (العهد الجديد) تقوم على اختلافات ، واختلاقات واتهامات وإدانات. ولو أننا جمعنا بين لوقا وبولس وبرنابا ويوحنا فى طبق واحد ،لأصيب كل الآكلين بأمراض الهضم جميعاً .

من أجل هذا ـ كما يقول : (T. G. Tucker) (استخدم كُتّابُ الأناجيل المواد المروية والمكتوبة ، ولم يتورعوا عن تعديلها وتغييرها ، والإضافة إليها أو الحذف منها ، بما يتفق مع هـدف الكاتب) ـ عن تاريخ المسيحية فى ضـوء المعلومات الحديثة ص٣٢٠ .

يقول اسبينوزا (رسالة فى اللاهوت والسياسة ص ٣٣٥/٣٣٠) : إن طرق حديث الحواريين وأسلوبهم فى المناقشة ـ كما هو واضح فى الرسائل ـ يدل بوضوح تام على أن هذه الكتابات لم تصدر عن وحى وبتفويض إلهى ، بل هى مجرد أحكام شخصية وطبيعية لمؤلفيها ، ولا تتضمن إلا نصائح أخوية مقترنة بتعبيرات مجاملة مهذبة ، وهذا مناقض تماماً للطريقة التى يعبر بها النبى عن سلطته ، كما هى الحال فى ذلك الاعتذار الذى قدمه بولس(رسالة إلى أهل رومية ١٥ : ١٥) : (ولكن بأكثر جسارة كتبت إليكم جزئياً أيها الإخوة) ، ونستطيع أن ننتهى إلى نفس الاستنتاج إذا عرفنـا أننا لا نجد فى أى موضـع ما يدل على أن الحواريين قد تلقوا أمراً بالكتابة ، بل تلقوا فقط أمراً بالتبشير فى كل مكان يذهبون إليه ، وبتأييد أقوالهم بالآيات إذ كان حضورهم ضرورياً .

فإذا قرأنا الرسائل بإمعان وجدنا أن الحواريين ـ بالرغم من اتفاقهم على الدين نفسه ـ كانوا يختلفون اختلافاً ملحوظاً على الأسس التى يقوم عليها.

فلكى يُثَبِّتَ بولس الناس فى الدين ، ويبين لهم أن الخلاص لا يتم إلا بالفـضل الإلهى ، علمهم أنه لا يحق لأحـد أن يتفاخـر بأفعاله، بل بإيمانه فقط ، وأن الأعمـال لا تنقذ أحداً (الرسالة إلى أهـل رومية ٣ : ٢٨/٢٧) ، وأستخلص من ذلك عقيدة القدرية كلهـا .

أما يعقوب فإنه على العكس من ذلك ، يدعو فى رسالته إلى أن الخلاص يتم بأعماله لا بإيمانه فقط (رسالة يعقوب ٢ : ٢٤) ، ويجعل عقيدة الدين كلها تنحصر فى هذه المبادئ القليلة وحدها ، تاركاً كل مناقشات بولس جانباً.

وعلى ذلك ، فلكيلا يصدم الناس بشدة بهذه العقيدة الجديدة ، كيّفها الحواريون ـ بقدر استطاعتهم ـ مع روح العصر (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثة ٩ : ١٩ وما بعدها) وأقاموها على أكثر الأسس شيوعاً ، وأوسعها قبولاً فى ذلك العصر . لذلك لم يتفلسف أى حوارى بقدر ما فعل بولس الذى دعا للتبشير بين الأمم ، أما الآخرون الذين كانوا يبشرون

اليهود المعروفين باحتقارهم للفلسفة فقد تكيفوا حسب روح اليهود (الرسالة إلى أهل غلاطية ٢ : ٢ وما بعدها) وعلموا الدين مجرداً من أية تأملات فلسفية .

من أجل هذا نشر الغنوصيون [١] كتباً قالوا إنها تحتوى تعاليم المسيح ورسله ، فما كان من الكنيسة إلا أنها أخذت تسمح ببعض الكتب ، وتمنع بعضها الآخر ، ولم يكن (العهد الجديد) قد ظهر بعد كوحدة .

ولم تختم الكنيسة على الأسفار القانونية إلا في القرن الرابع الميلادى.

وقد تحدثت الأسفار غير القانونية (الأبوكريفا) عن أم يسوع ، وجدته، وعن طفولته، وكيف عمل يسوع الطفل من الطين طيراً ، ثم صفق لها فطارت ، وكيف كان يسحب ألواح الخشب القصيرة ــ فى دكان يوسف النّجار ــ فتطول حسب المطلوب .

وقد جعلت الكنيسة الأساقفة المرجع الأول للحق غير المدون ، خصوصاً أسقف روما ، وذلك للرد على الغنوصيين ــ مواقف من تاريخ الكنيسة ص ٢٣/٢٢ .

يقول ليتزمان فى (تاريخ الكنيسة الأولى جـ ٢ ص ٨٧) : إن الغنوصية وضعت المسيح مركزاً لحوادث العالم ، وقد تتحدث كتابات غنوصية (عن المسيح وقد تحول إلى شبح خفى غير منظور ، فيظهر كصبى ، أو كرجل عجوز ، أو كبديل للرسول يظهر ثم يختفى مظهراً طبيعته فى صليب من نور وهو الكلمة الإلهى الذى هو فى نفس الوقت الآب والابن والروح القدس ، والذى لم يعلق أبداً على صليب خشبى) .

ويذكر إيريناوس أن بعض الغنوصيين يقسمون طبيعة المسيح ، فالمسيح جاء إلى يسوع ، فلما مات يسوع لم يمت المسيح ، أى أن المسيح لم يمت ، بل مات بدله سمعان القيروانى ، بينما وقف يسوع يضحك من غباوة اليهود .

وقيل إن يسوع كان قادراً على التخفى ، فلما جاء الجند ليقبضوا عليه اختفى ، ووجدوا يهوذا الذى ألجمته المفاجأة ، وألجمه الشعور بالخيانة ، فساقوه إلى الصلب.

وقيل قول كثير حول عملية الصلب ، وجرت محاولات للكشف عن أدوات الصلب .

* من أجل هذه الدوامة التى دارت بكثير من الرءوس أباطرة وبطارقة ، ومجامع مقدسة

---

(١) تم اكتشاف كثير من الكتابات الغنوصية فى نجع حمادى سنة ١٩٤٥ ، حفظت ورممت وترجمت وأعدت للنشر فى المتحف القبطى بالقاهرة .

وغير مقدسة ، ومعارك مشروعة وغير مشروعة ، وسيول من الاتهامات والإدانات بالحرْم والتكفير والحرق والتشهير ـ آثر بعض المفكرين المسيحيين أن يصنعوا أناجيل خاصة بهم ، اقتبسوا عناصرها من أوراق قديمة ، وأضافوا إليها أوراقاً جديدة .

هذا هو تولستوى اتخذ إنجيلاً خاصاً تُرجم إلى عدة لغات ، منها: العربية ، وقد جمع ـ كما يقول الدكتور وصفى فى (المسيح بين الحقائق والأوهام هـ ـ ص٩٠/٩٢) ـ فى إنجيله ما اعتقده صحيحاً .

وقال فى مقدمة إنجيله : (لا ندرى السر فى اختيار الكنيسة هذا العدد من الكتب ، وتفضيلها إياه على غيره ، واعتباره مقدساً منزلاً دون سواه ، مع كون جميع الأشخاص الذين كتبوها هم فى نظرها رجال قديسون) .

(وياليت الكنيسة عند اختيارها تلك الكتب أوضحت للناس سبب هذا التفضيل ، فبينت إذ ذاك ما وجدته من الخطأ فى الكتب التى لم تعتبرها موحى بها) .

(إن الكنيسة أخطأت خطأً لا يغتفر فى اختيارها بعض الكتب ورفضها الأخرى ، واجتهادها ـ بعد ذلك التقسيم ـ أن تؤيد أن ما اختارته منها هو الصحيح المنزل الموحى به من الروح القدس ، معتبرة كل حكمة واردة فيها من السماء ، لا تحول ولا تزول ، ولو تبصرت قليلاً لأدركت بداهة أن ما عملته أفسد وأضر ما اختارته منها ، بإضافتها إليها التقاليد المتباينة المعنى ، المتضاربة المغزى) .

(كان على الكنيسة ـ قبل اختيارها هذه الكتب ـ أن تدرسها درساً وافياً ، وتحذف منها ما يدعو إلى الانتقاد والشك ، لكنها لجأت إلى الكلام الزائف ، واضطرت أن ترفض كثيراً من الأسفار ، وبعض فصول من أعمال الرسل ورسائلهم التى لو طالعها المرء بإمعان لوجدها أقرب إلى الغش والخيانة منها إلى التعليم) .

ولعل هذا سر اضطراب اسبينوزا فى بيان مفهوم القداسة (رسالة فى اللاهوت والسياسة ص ٧٤/٧٥) إذ يقول : (يكون الكتاب مقدساً ، أو من عند الله طالما يحث الناس على ممارسة الفضيلة وحياة التقوى ، فإذا لم يؤد الكتاب هذا الغرض ، وإذا توقف الناس عن ممارسة هذه الحياة السليمة ، وإذا ضاع منهم التدين الصحيح ، ولم يعد الكتاب مقدساً ، أو من عند الله ، فالكتاب لا يكون مقدساً أو من عند الله إلا بقدر ما يؤثر فى

الناس ويدعوهم إلى حياة الفضيلة والتقوى) .

قول غاية فى الغرابة ، كأن الله لا يكون موجوداً إلا إذا اعترف الآخرون بوجوده ، والشمس تفقد وجودها عند العميان ، أو عنـــد من يغلقون نوافذهم ، والزمن يتوقف ما دمت لا تملك ساعة تدور ، ويصبح كل كتاب يدعو إلى الفضيلة والتقوى مقدساً ، ومن هنا تكون شروح الكتب المقدسة مقدسة ، ويكون الدعاة إلى الله مقدسين ، ويدخل فى عالم القداسة الحكماء والزهاد ورجال القضاء والمعلمون .

وبناء على هذا الفهم العجيب ، فإن من يعرف أن الرؤية تتم بوقوع أشعة المرئى على العين ، ينكر وجود المرئى والعين إذا لم يتم وقوع الأشعة ، ومن ثم فكل ما يحتويه الظلام وتحجبه الستر يكون غير موجود !!.

ويكرر هذا المعنى الذى يخالف منهجه فى نقد (الكتاب المقدس) ، وهو يتحدث عن الأناجيل فيقول : (لا يقع التبـــديل إلا فى الوحى المكتوب ، لا فى الوحى المطبـوع ، ولا يقع التحريف إلا فى الألفاظ ، لا فى المعانى ، فقد تتغير الألفاظ ، وتتبدل النصوص ، ولكن يبقى المعنى واحداً من حيث هو دعوة للطاعة وللخلاص ، وبذلك لا تنقص ألوهية الكتاب ولا تزيد بتغيير الكلمات أو تبديلها ، وبهذا المعنى يمكن أن يقال إن الكتاب قد وصل إلينا بلا تحريف أو تبديل) !!.

عجباً ، عجباً !!.

* * *

(ب) الجذور ..

لم يزل الشرق ـ منذ قديم الزمان فى الوجدان الغربى ـ مهبط الأسرار السماوية ، وأنه تعلّم من خبر السماء ما لم تعلمه الأمم الغربية ، وأن كهان الشرق سحرة يطلعون على الغيب ، وينفذون إلى بواطن الديانات.

وكلمة (السحر) عند الغربيين (Magic) منسوبة إلى المجوس (الفرس) .

والسحر البابلى فى كل لغة مضرب المثل ثقافياً وشعبياً .

ويزعم الغربيون أن ما جبل عليه الشرقى من صبر ظاهر إنما هو فى الحقيقة تعبير عن نفاد الصبر ، لأنه بعجزه عن تحمل الألم والحزن يلجأ على الفور إلى التعلق بأشياء أسمى وأنبل، ويهرب من واقع الحس الدنيوى .. هذا على حين يلكز الغربى بقدمه الوخزات التى تؤلمه ، ويجد راحته فى الأمل ، وفى الاعتقاد بأن الأمر لن يدوم إلى الأبد ـ الحضارة البيزنطية ـ رنسمان ص ١٢ .

وهذا تعليل استعلائى من واقع استعمار الغرب للشرق ، ولا يمثل منزع الشرق إلى الروحانيات والوجدانيات التى تعبر عن رقة الإحساس، وإشراق النفس ، والرغبة فى استكناه حائط الغيب ، على حين يغرق الغربى نفسه فى حمأة الواقع ، لا يكاد يعدوه إلى المستقبل إلا من خلال السلم المادى ، ومن ثم يعيش حياته (يلكز بقدمه الوخزات)، ولا يجد سعادته بعيداً عن الماديات ، ومن خلال التنافس المادى الذى لا قمة له يظل حاملاً صخرة سيزيف إلى الأبد .. هذا على حين قد يعتصر الشرقى سعادته من (الفقر) ومن (الألم) ، ولعل (التصوف) الذى ابتدعه الشرق دليل هذا (الإدراك) وهذا التصوف بعينه يشغل الفكر الشرقى ، كما يشغل وجدانه ، وهو مزيج من الزهد و (الصبر) والشوق ، ويمثل الوعى الأسمى لعلاقة العبد بربه ، وهذا (الوعى) قديم فى الشرق قدم الحضارة الإنسانية . كل الديانات الشرقية ـ سماوية ووثنية ـ تحقق قدراً كبيراً من النزوع الصوفى ، مع ملاحظة أن جميع الديانات السماوية التى تشغل الفكر والوجدان العالمى ، وأشهر الديانات (الوثنية) أو غير السماوية ، إنما هى مباهج ومناهج ومعارج شرقية .

* ومنذ أن اتصلت روما [١] ـ لأول مرة ـ بالشرق تسربت إلى الغرب العقائد ذات الشعائر السرية الخاصة بإيزيس والأم العظيمة ، وأخذ أتبـاع تلك العقائد والمتشيعون لها يزدادون بالتدريج .

وفي غمرات الطقوس السرية والرياضات التي فرضتها هاتان الربّتان ، كان المتبرم بهذا العالم يخوض غمراتها ليصل إلى الحقيقة العليا.

ولذا كانت هذه النحل أحب إلى قلوب الحصفاء البصيرين بأمور الدين ، والمكدودين المرهقين [٢] .

وكان الجند وكل ذي همة من الرجال يفضلون عقيدة من أصل إيراني ، وهي المثراسية ، عبادة أبوللو ، الشمس التي لا تقهر .

ولم يأت القرن الثالث الميلادي حتى صارت المثراسية منتشرة في أنحاء الإمبراطورية ، مشتملة غالبية الجيش ، وقد حليت بالفخامة والمراسم النبيلة ، وأوجدت إحساساً بالزمالة وحب النظام ، يصارع الإحساس بقلة الرجاء في العالم ، وما يرين عليه من وحشة ـ الحضارة البيزنطية ـ رنسمان ص ١١ .

وقد شوهدت آثار العبادة المثراسية في أقصى أقطار الدولة الرومانية غرباً في السور الروماني بالجزر البريطانية .

وقد شغف الجند بهذه العبادة ـ كما يقول الأستاذ العقاد (عبقرية المسيح ص ٥١/٥٢) ـ لأنها جمعت بين صفتين محبوبتين صفة النور الذي يبدد الظلام ، والحق الذي يمحو الباطل، وصفة المناضل رب الجنود الذي قيل في كتاب (الأفستا) إنه يسوق جحافله منتصراً لتغليب إله الخير (أورمزد) على إله الشر (أهريمان) .

وهو كذلك إله محبوب عند غير الجنود ، كالرعاة ، والعاملين بالليل ، يعبده الرعاة والملاحون ، ويهتدون بنوره في أعمالهم الليلية ، ويعتقدون أنه يولد في الجسم الآدمي كما يولد الفقراء في كهف مهجور ، ولهذا يتخذون له المعابد من الكهوف .

وربما حببه إلى عباده ذلك الحنين المعهود في الناس إلى استطلاع الأسرار ، والطموح إلى الترقي في درجات العلم المجهول ، فقدكان لعبّاده درجات سبع ، ينتقلون فيها من

---

(١) تم الاتصال قبل ذلك ، عن طريق أثينا وكريت ، لكنا بصدد تأثير الشرق في التكوين المسيحي .

(٢) وهذا يعني أن لكز الوخزات بالقدم لم يكن دليل قوة ، ولا مصدر أمل ، وقد يكون دليل قلة الحيلة .

درجة إلى درجة ، على أيدى الأئمة المختارين ؛ ويتعاطون الشعائر فى كل احتفال سراً وجهراً ، على ملأ من الصفوة المقربين ، ومنها تناول الخبز والخمر ، واعتبار الشهد المقدس الذى يوضع على اللسان رمزاً لحلاوة الإيمان .

واقترنت نحلة (إيزيس) المصرية بنحلة (مثرا) الفارسية ، فى غزو بلاد اليونان والرومان ، فسماها اليونان (ديمتر) ، ونحلوها صفتها المصرية ، صفة الأمومة الكبرى ، أو صفة الطبيعة الأم ، وكان عبّادها يوحدون بينهـا وبين القمر ، ويعتبرونها من ثم ربة البحر والملاحة ، ويرسمون لها صوراً جميلة تنم على الطهارة والحنان ، وفى حضنها طفل رضيع يشع النور من وجهه ، رمزاً للأمومة والبر والبراءة .

وكان كهانها يحلقون رءوسهم فى الغرب ، محاكاة للكهنة المصريين ، وكان لها بينهم عابدون وعابدات يسمونها حامية البيت والأسرة ، ومن ثم شاعت عبادتها بين الرومان الذين اشتهروا بتقاليد الأسرة ، وتقديس حقوق الآباء .

ولا شك فى أن المراسم السرية التى تلازم نحلة إيزيس كان لها أثر فى تشويق الناس إلى انتحالها ، كما كان لها مثل هذا الأثر فى عبادة (مثرا) ، وما شابهها من العبادات .

ذكر فيلون أن أتباع نحلة المتطلسين (Therapeuts) كانوا يجتمعون يوم السبت ، ويتفرقون بعد ذلك فى الصوامع للتأمل والدراسة الفلسفية ، ورياضة الروح والجسد ، ومعنى اسمهم اليونانى الأساة ، وأكثر صوامعهم على مقربة من الإسكندرية ، حول بحيرة مريوط القديمة .

ويظن بعض المؤرخين أن هؤلاء المتطلسين هم أساتذة النساك اليهود الذين يسمون الآسين أو الأسينيين .

* ولما جاءت المسيحية لم تجد صعوبة فى الالتقاء بهذه العبادات التى تعيش على أرضها ، إذ كانت تجمع بينها عناصر كثيرة مشتركة ؛ كطقوس الطهارة ، والإله الذى يموت ثم يبعث ، والعذراء التى تحمل ، ويوم الحساب ، وحفلات الربيع ، وحفلات الانقلاب الشتوى ، والشياطين والملائكة والقديسين .

وتميزت المسيحية على المثراسية بأنها سمحت للنساء أن يلعبن دوراً بارزاً فى حياتها ، إذ تولين مناصب الشماسات ، ورئاسة الأديرة الخاصة بالراهبات على حين كانت المثراسية

عبادة الذكور فقط .. ثم إن المسيحية أتاحت للفلسفة الإغريقية أن تؤثر فيها ، مما وهب اللاهوت المسيحي محتوى فكرياً جعلها موضع القبول من كثير من المفكرين ، وذلك بفضل اجتهادات بعض القادة المسيحيين ، طمعاً فى كسب أرض جديدة ، وسلطان جديد ، على حين لم تحظ المثراسية بمثل أوريجين وإرينايوس وترتليان وكليمان الإسكندرى ، ولعل هذا يرجع إلى قدم العهد بالمثراسية ، فصارت تتحرك بحركة الفراغ والحاجة إلى ملئه ، لكن المسيحية كانت تتحرك بحركة الرسل والمبشرين الذين يجدون واجبهم في نشر الدعوة ، وفى حمايتها ، وفى اتخاذ كل الوسائل الممكنة لغرس جذورها، وإروائها بدماء شهدائها ، ولعل الاضطهاد الذى عانته ـ منذ بداية الدعوة ـ كان أعون على التحدى والصمود فى وجه أعتى العواصف والأعاصير .

* ولما كانت المسيحية وارثة اليهودية ـ بحكم مضمون رسالة السيد المسيح ـ ولما كانت اليهودية قد لبست أكثر ثياب الثقافات والديانات الشرقية واليونانية ، فقد حذت المسيحية حذو مرضعتها التى لم تبخل عليها ـ سلماً وحرباً ـ بكل إمكانياتها .

كان الصدوقيون يميلون إلى الأبيقورية ، وكان الفريسيون يأخذون بالحكمة الرواقية ، مع كراهيتهم التشبه بالأجانب .

وفى عصر الميلاد نبغ يهوذا فيلون الذى ولد بالإسكندرية سنة ٣٠ ق . م. ومات سنة ٥٠م ، ومزج بين عقائد عصره والمذاهب الفلسفية ، لا سيما الإغريقية الإسكندرية ، فى فلسفة واحدة ، أو فى تفسير جديد للعهد القديم .

وقد أخذ القول بالكلمة (Logos) من الرواقيين ، عبر هيرقليطس ، أول القائلين بها فى الزمن القديم ، وقال إن الكلمة واسطة الله فى علاقته بالعالم ، وأخذ فى تفسير الرموز الدينية من العبادات السرية ، كعبادة إيزيس ، وعبادة أوزيريس سرابيس التى تأسست فى الإسكندرية ، وتفرعت فى أثينا وبومبى وروما ، وفى بعض المواني الآسيوية ، ثم طبق هذا التفسير على رموز التوراة ، فشرحها شرحاً عقلياً يخالف فى كثير من المسائل شروحها التقليدية ، وقال فى كلامه عن خلق العالم أن موسى لم يأت بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع المبهمة الذين يحصرون أحكام قومهم فى الحلال والحرام بغير تصرف ، ولا تنقيح ، ولا بأسلوب كأسلوب الشرائع المبهمة التى تحيط بها الألغاز والزيادات ، وأنه روى قصة

الخليقة رواية تتضمن أن الدنيا مطابقة للنظام (أو الشريعة) ، وأن النظام مطابق للدنيا ، وأن الإنسان الذى يتبع النظام مواطن صالح للعالم كله ، يسير وفقاً لمشيئة الطبيعة التى تسير الدنيا كلها وفق مشيئتها .

كان فيلون رواقياً على حافة الأبيقورية ، فكان فى كلامه عن إبراهيم ، مفسراً اسم إسحق ، بأن (معنى إسحق فى لغتنا الضحك ، ولكن الضحك هنا غير الضحك الذى يأتى عن سرور الجسد ، فهو سرور المعرفة الصالحة ، وهذا هو الفرح الذى روى لنا أن الحكيم أبراهام قدمه قرباناً إلى الله ، مبيناً ذلك فى هذا الرمز أن الفرح على صلة وثيقة بالله وحده ، إذ الإنسان عرضة للحزن والخوف ، من الشرور الحاضرة والمتوقعة ، وليس الحزن والخوف من طبيعة الله) .

وينقسم الإنسان عند فيلون ثلاثة أقسام ، وليد الأرض ، ووليد السماء ، ووليد الله .. وليد الأرض من يطلب متاع الجسد ، ووليد السماء من يطلب متاع الفكر، ووليد الله من تجرد عن الدنيا وأقبل بجملته على عالم فوق هذا العالم ، معصوم من الفناء ، براء من المـادة ، فى زمرة الهداة والمرسلين .

وليس فيلون من دعاة العزلة فى الصوامع ، لأن اختلاف المكان لا يصنع شيئاً ، لأن الخير كله من الله ، حيث كان ، وهو كائن فى كل مكان ، بهدى ركاب الروح إلى حيث يشاء .

لذلك لم يكن يستعظم ضحايا القرابين ، وقد جاء فى كلامه عن الشرائع الخاصة :

(إن الله لا يفرح بالضحايا ، ولو حسبت بالمئات ، لأنه مالك كل شىء ، ومعطى الناس كل شىء ، ومن عطاياه تلك الضحايا، وقد يكون التقرب بخبز الشعير أقوم عنده من التقرب بالنفائس والذخائر ، بل من تقدم إليه بنفسه لا يحتقب شيئاً غير الصدق ، وخلوص النية ـ أكرم عنده ممن يبذل الأموال ويسىء الأقوال والأفعال) ـ عبقرية المسيح ـ العقاد ـ ص ٦٥/٦٧ .

* ومن الحقائق المقررة فى التاريخ ـ كما يقول ويلز (معالم التاريخ الإنسانية مج ٤ ص ١٣١٠/١٣١٢) ـ أن تعاليم يسوع الناصرى كان فيها شىء جديد ، عميق الجدة ،

خلاق قوى الخلق ، فإنه بشّر بمملكة جديدة للسموات فى قلوب الناس وفى دنياهم ، ولم يكن فى تعاليمه شىء ـ بقدر ما نستطيع أن نحكم عليها من هذا البعد الزمنى ـ يتعارض أو يتدخل مع أى اكتشاف أو توسع فى تاريخ العلم والبشرية .

لكن من الحقائق التاريخية أيضاً أن الرسول بولس وخلفاءه قد أضافوا إلى تعاليم يسوع الصريحة الممعنة فى الثورية ، أو أكملوها ، أو فرضوا عليها ، أو تبدلوا بهـــا مبادئ أخرى (واختر لنفسك من هذه الألفاظ ما تشتهى) ، وذلك ببسطهم نظرية للخلاص ، دقيقة معقدة ، وهو خلاص يمكن الحصول عليه ـ فى معظم الأمر ـ بالإيمان **والشكليات** ، دون دخول أى تغير جدى فى مألوف عادات المؤمن وأعمـال العادية ، وأن تلك التعاليم البولسية كانت تحتوى فعلاً على معتقدات محددة جداً حول تاريخ العالم والإنسان .

وليس من شأن المؤلف ـ كما يقول ويلز ـ أن يجادل فى هذه الأمور أو يشرحها ، فإن مرد قيمتها النهائية إلى علماء اللاهوت ، أما اختصاص المؤلف فينحصر فى أن المسيحية الرسمية ـ فى جميع أنحاء العالم ـ تبنت وجهة نظر بولس .

وبالرغم من هذه الحيلة الذكية التى اعتادها كثير من المؤلفين ، حين يقصدون التخلص من آصار الصدق ، نجد ويلز يقول : إن المسيحية (قامت على نظـــريات بولس ، لا على قضايا المسيح) ، أى أن مسيحية اليوم ينبغى أن تسمى (بولسية) .

لقد سعى (بولس) ـ فيما سعى لطمس طريق المسيحية ـ إلى حجب العقل ، وإلى تلقينه أفكاراً وثنية ، بدعوى كسب الأرض اليونانية والرومانية ، وظل العقل الذى صنعه بولس ـ إلى عهد قريب ـ صنيعة الخرافات والأوهام والمعتقدات التى لفقها بولس من هنا ومن هنـــاك .

وظل العالم المصطبغ بالبولسية يعتقد ـ إلى قرن سلف ، أو أقل من ذلك ، كما يقول ويلز ـ أن الكون خلق خلقاً خاصاً فى ستة أيام ، بكلمة من الله صدرت قبل بضعة آلاف من السنين ، فى سنة ٤٠٠٤ ق ، م ، كما يقول الأسقف أشر (Ussher) .

وجاء العالم الفرنسى بالتاريخ الطبيعى بوفون (Buffon) فمد عمر العالم فى كتابه : (حقب الطبيعة) سنة ١٧٧٨ إلى سبعين ألفاً ، أو خمسة وسبعين ألفاً من السنين ، وذهب إلى أن الأيام الستة أيام مجازية كانت فى حقيقتها عصوراً .

وحاولت الجيولوجيا بهذه الحيلة المريحة أن تعقد صلحاً مع التعاليم (البولسية) استمر إلى منتصف القرن الثامن عشر .

وأضاف الفكر البولسي أن الأيام الستة التي تم فيها الخلق الكوني تمثل ستة آلاف عام ، لأن يوم الله بألف عام من تقديرنا الزمني ، وهذا هو عمر الكون ، أما اليوم السابع الذي هو يوم (راحة) الخالق فيمثل الألف السابعة الباقية من عمر الكون ، وفيها يعود السيد المسيح لينشر العدل ، ويقيم ملكوت السماء .

وهذا التقويم الزمني للعالم ليس بدعاً (بولسياً) ، إنما هو ثمرة من ثمار (قيد العقل) ، ومحاكمة كل من تسول له نفسه أن يخوض فيما يخالف رأي الكنيسة بالحرم والنفي والحرق والصلب .

ومن عجيب أمر هؤلاء الذين ينطحون برءوسهم حائط الغيب أنهم لم يتفقوا على يوم ميلاد المسيح ، ولا على سنة ميلاده ..

يقول الأستاذ العقاد في (عبقرية المسيح ص ٦٧) : إن القول الراجح في تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين هو أن ميلاد المسيح متقدم على السنة الأولى (للميلاد) ببضع سنوات هذا مع أن ثمة معالم رومانية يمكن أن تعين على تحديد زمن الميلاد ، أما بالنسبة لبداية الكون ونهايته فليس من وسيلة (تقريبية) لوضع حدود لها ، ومن ثم فالعلم الحديث يضرب في تاريخ الوجود الإنساني بين خمسة ملايين وخمسين مليوناً من السنين ، وكأن الأمر خاضع لمصطبة حشاشين .

إن (البولسية) التي استبدلت بالمسيحية السمحة مجموعة من الوثنيات والأوهام ، وجاءت مجامعها المقدسة فقننت هذه الوثنيات والأوهام ، ورفعت سيفاً أعمى في وجه كل من تسول له نفسه أن يسمع أو يرى أو يتكلم بغير ما يلقى إليه ـ غرست في المجتمع (المسيحي) آلافاً من جذور الشر ، فأثمرت خلافات وافتراءات وعداوات لا حدود لها .

* كانت مدينة طرسوس التي ولد فيها بولس مركز الديانة المثراسية ، ومن ثم ترسب في وعيه بعض مصطلحاتها وعاداتها .. وبما أنه يهودي فريسي (متزمت) نشأ في بيئة غير يهودية ، فقد أصيب بلون من الاضطراب النفسي ، لعدم قدرته على المواءمة بين موروثاته ومكتسباته ، لكنه ـ من خلال حملته على المسيحية ، وتقديره لصمود رجالها ـ

أدرك بحس التاجر اليهودى أن المستقبل لهذه الدعوة الجديدة ، فركب موجتها ، وتصدر موكبها ، زاعماً أنه لقى السيد المسيح ، وأنه تلقى منــه (المباركة) والإذن بالخروج إلى (طريق الأمم) ــ الأعمال صح ٩ ــ فراح يجتاز الإمبراطوية الرومانية التى يحمل جنسيتها، مبشراً ، لا باليهودية ضد الهلينية ، ولا بالهلينية ضـد اليهودية ، لكن ــ كما يقول توينبى فى (مختصر دراسة للتاريخ جـ ٣ ص ٤٣٧) ــ مبشراً بمسلك جديد فى الحياة ، مستمد على السواء من الثروة الروحية لهاتين الثقافتين المتنابذتين ، وما كان فى وسع أى حدود ثقافية أن تقف فى وجه الدعوة الجديدة .

لقد استعان بولس بكل ما على الأرض الرومانية من ثقافات ــ دينية وغير دينية ــ ليصنع (مسيحية) لا يعرفها المسيح ، وكأنه اكتفى بالإذن (المطلق) الذى منحه إياه السيد المسيح .

وظلت هذه السياسة ــ كما يقول العقاد (عبقرية المسيح ص ٨٧) ــ مرعية عدة قرون ، إذ نقل الراهب بيد (Bade) فى تاريخ الكنيسة الإنجليزية خطاباً لجريجورى الأول بتاريخ ٦٠١ ــ يستشهد فيه بنصيحة المستشار البابوى مليتس (Mellitus) الذى كان ينهى عن هدم المعابد الوثنية ، ويرى الإبقاء عليها (وتحويلها من عبادة الشياطين إلى عبادة الإله الحق ، كى يهجر الشعب خطايا قلبه ، ويسهل عليه غشيان المعاهد التى تعود ارتيادها) .

وهذا سلاح ذو حدين ، كما يقال ، إذ من الممكن أن تشد المؤثرات التاريخية أصحابها إلى الماضى ، أكثر مما تدفعهم العقيدة الجديدة إلى كراهية الماضى .

ولقد أسكن بولس المسيحية مساكن الوثنية ، لا على طريقة مليتس وجريجورى ، بل ليتزع (المسيحية)من عباءتها المقدسة ، ويعريها من منح السماء.

راح يقيم أركانها على مبادئ جديدة ، وهى لعبة قديمة اعتاد الأفاقون أن يلعبوها مع أصحاب الثورات ، ليخدعوهم عن ثوريتهم ، ويتحولوا بهم إلى شعارات زائفة ، ومكتسبات دعائية واهمة .

قال بولس : إن السيد المسيح هو الله ، وهو ابن الله ، فنشأت نظرية لاهوت المسيح وناسوته .

وقال بولس : إن السيد المسيح قد جاء ليطهر البشرية من خطيئة آدم التى ورثها أبناؤه

على مر السنين ، وأن السيد المسيح قبل أن يصلب تطهيراً للبشرية من تلك الخطيئة . وقد ساعدت هذه الدعوى الكنيسة على أن تقبض على الرقاب إذ ورثت القدرة على المغفرة ، وباعت صكوك الغفران ، ووصلت إلى قدس الأقداس عن طريق (الاعتراف) ، وألزمت (شعب الكنيسة) بما تفرضه من قرارات ، فلا تفكير إلا بوحي منها ، ولا علم إلا لخدمتها ، وكل رأي مخالف يقتل صاحبه ويصلب ويحرق ويطرد من رحمة الله .

وبهذا فُتح الطريق أمام (التمرد الفكرى) ، وأمام (النفاق الدينى) ، حتى إذا امتصت القرون سلطان الكنيسة أعلن (الثوار) عن كفرهم بكل ما تقدم الكنيسة ، فإذا كان (الله قد تجسد ، ومشى في الأسواق ، وانتصر عليه أعداؤه ، وتمكنوا من صلبه) فعلى كل (عاقل) أن يكفر به ، وأن يتخذ من القـوة إلهـاً ، ما دام (الله قد مات) على رأى نيتشه.

لقد زعم بولس أنه (لبس لكل حالة لبوسها) حتى ينشر دعوة (المسيح) ، فإذا هو يعلن موت المسيح ، ويبعث إنساناً إلهاً ، أو إلهاً إنساناً، يدغدغ به مشاعر اليونان والرومان الذين كانوا يتصورون الآلهة على صورة البشر ، يمارسون حياتهم فوق قمم جبال الألب ، كما يمارس البشر حياتهم .. هذا إلى أن بعض الأباطرة ادعى الألوهية ، وطلب من الشعب عبادته ، والصلاة له ، فعبده الشعب . وصلى ، وقدم القرابين .

ونجح بولس في استمالة أباطرة الرومان بإباحة الخمر ، وبعدم ضرورة الختان ، وكأنما كان هدفه صناعة دين على هوى الرومان ، وعد هذا لوناً من المهارة والدهاء (إذ كنت محتالاً أخذتكم بمكر) ــ رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس صح ١٢ : ١٦ .

وما أدرى هل كان توينبي يمزح أو يسخر أو يثني على هذا (المكر) اليهودى ، حين قال (مختصر دراسة للتاريخ جـ ٣ ص ٤٦) : (لو لم ينزع بولس الطرسوسى **ببراعة** عن المسيحية أرديتها الفلسطينية التي كانت تكسوها ، وقتما وفدت إلى العالم ــ لما قيض أبداً لفنانى الأقبية الرومانيـة من المسيحيين ، ولا لفلاسفة المدرسة اللاهوتية المسيحية بالإسكندرية ، **الفرصة لعرض المسيحية فى ثوب الفكر والخيال اليونانيين** ، فكان أن مهدوا الطريق لاعتناق العالم الهلينى لها) .

ويوازن ويلز بين دور كل من المسيح وشاءول (بولس) ، فيقول (معالم التاريخ الإنسانية مج ٣ ص ٧٠٩/٧٠٥) : (لقد أوتى شاءول علماً أوسع كثيراً ، وعقلية أضيق

كثيراً ، مما يبدو أن قد أوتى يسوع) .

ونسى أن يوازن بين صاحب رسالة سماوية وبين دخيل عليها، عدو لها ، بين داعية إلى المحبة والخير والسلام وبين مضطغن عليه ، محارب له ، مزيف لدعوته ، مبتدع ديناً على أنقاض دين .

يقول الفيلسوف جلبرت موراى : إن بولس (متأثر بطرائق التعبير الفلسفى للمدارس الهلينستية ، وبأساليب الرواقيين (Stoicism)، على أن تمكنه من اللغة الراقية الرفيعة عظيم مدهش) .

كان صاحب نظرية دينية ـ كما يقول ويلز ـ ومعلماً يعلم الناس ، قبل أن يسمع بيسوع الناصرى بزمن طويل ، وهو فى رواية العهد الجديد يبدو ـ بادئ ذى بدء ـ فى إهاب الناقد المرير ، والخصم العنيد ، والمضطهد الناشط للناصريين جميعاً .

ويقول ويلز : إنا نكاد نتخبط فى نفس الظلمات حول تعاليم غمالائيل الذى يقولون إنه هو المعلم اليهودى الذى كان بولس يجلس عند قدميه .

كذلك لسنا ندرى ما هى التعاليم غيراليهودية التى درسها ، ومن الراجح جداً أنه تأثر بالمثراسية ، إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثراسية .

كان ذهنه مشبعاً بفكرة لا تبدو قط بارزة قوية ، فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعاليم ، ألاوهى فكرة **الشخص الضحية الذى يقدم قرباناً لله ، كفارة عن الخطيئة** ، فما بشر به يسوع كان ميلاداً جديداً للروح الإنسانية ، أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة ، ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء ، طلباً لاسترضاء الإله .

كان يسوع فى نظره حَمل عيد الفصح ، تلك الضحية البشرية المأثورة ، المبرأة من كل عيب ودنس ، التى تتعقب فى إصرار ديانات الشعوب البيضاء الداكنة ، سكان البحر المتوسط .

لم ير بولس يسوع قط ، ولابد أنه استقى معرفته بيسوع وتعاليمه سماعاً عن التلاميذ الأصليين .

* لم يقل ويلز أن بولس ظهر إبان هجرة أو (فرار) الحواريين ، خوفاً مما نزل بالسيد المسيح ، ورغبة فى نشر دعوته ، مشبعين بالتقصير فى الدفاع عنه ، متخذين من نشر الدعوة

وسيلة للتكفير عما حدث من التقصير .

وقد ارتبطت الهجرة أو (الفرار) بألوان من المعاناة المادية والنفسية ، إذ كان الولاة الرومان يتعقبون تحركاتهم ، ويمسكون بهم ، يسجنونهم ، ويعذبونهم ، كما أن اليهود كانوا يتابعونهم بألوان من المكائد والمؤامرات .

من ثم وجد بولس ـ فى هذا الفراغ الفسيح ـ البيئة المهيأة لتقبل دعاواه وابتداعاته التى لا علاقة لها بالمسيحية ، وإن صيغت فى إطار مسيحى ، استجاب لهـــا الفكر الهلينستى ، لأنها ربيبته ، ومن نسيج فلسفاته وفلسفات أخــرى ورثها وتلون بها ، وصارت من مبـادئه ومعتقداته .

ولعله وجد بعض العون والتأييد من أحبار اليهود ومن الولاة الرومان .

(ومن الجلى أن بولس أدرك الشيء الكثير من روح يسوع ومبدئه الخاص بالميلاد الجديد ، بيد أنه أدخل هذه الفكرة فى صرح نظام لاهوتى ، نظام يتسم بشديد البراعة والخفاء ، لا تبرح فتنته تستهوى العقول « فكرياً » بصفة رئيسية) .

إنه لم يخن يهوديته إذ حارب المسيحية باعتناقها وإعادة تشكيلها ، وغرس بذور الشوك والخمط والزقوم فى أرياضها.

ولا ريب فى أنه استفـاد من تجربة (الحاخامات) الذين صنعوا (العهد القديم) ، ثم صنعــوا المشنا والجمارا ، وبقيـــة (الأبوكريفا) التى كان يدرسها له الحاخام الكبير غمالائيل .

لقد (وجد الناصريين ولهم روح ورجاء ، وتركهم مسيحيين لديهم بداية عقيدة) .

(كان رجلاً هائل الطاقة والنشـاط ، وقد علم الناس فى أورشليم وأنطاكيـة وأثينا وكورنثوس وإفيسس وروما) .

إنه بفضل(اجتهاده) أصبحت المسيحية (أكثر تسامحاً مع الملكية الخاصة ، وأصبح فى وسعها أن تقبل نصارى أغنياء ، دون الإصرار على جعل ثرواتهم مشاعاً) .

(واغتفر القديس بولس نظام الرق ، عندما قال : أيها العبيد ، أطيعوا فى كل شيء سادتكم) .

وإذا كانت المسيحية صـمدت فى وجه (ربوبية قيصر) فقد كان لليهود فضل السبق

إلى هذا الصمود ، ثم إن المسيحية بعد أن أظلها سلطان (قسطنطين) تنازلت عن كثير من قيمها ، اعترافاً بفضل هذا الملك ، الذى أشرف على صناعة (قانون الإيمان) وسعياً إلى وراثة سلطانه السياسى .

* ولعل مقتل بولس قد حرر أو أفسح فى حرية رجال الكنيسة الذين اقتبسوا من (المثراسية) يوم الأحد ، بوصفه يومهم الأكبر للتعبد بدلاً من يوم السبت اليهودى ، كما استفادوا فكرة الإكثار من استعمال الشموع فى الحفلات الدينية ، كما اقتبسوا فكرة (الاغتسال فى دم) المسيح .

يقول ويلز : (إنه لزام علينا أن نتذكر أن الموت صلباً لا يكاد يهرق من الدم أكثر مما يريقه الشنق ، فتصوير يسوع فى صورة المريق دمه من أجل البشرية ، إنما هو فى الحقيقة من أشد العبارات بعداً عن الدقة) .

(إن جميع المقاصير المقدسة المثراسية تزدان بصورة مثرا وهو يذبح العجل « المقدس » الذى ينزف دمه نزفا عظيماً من جرح فى جنبه ، ومن ذلك الدم نشأت حياة جديدة، فكان المتعبد المثراسى يستحم بالفعل فى دم العجل « الضحية » ، وبذلك « يولد من جديد » ، وكان عند انخراطه فى النحلة ــ لأول مرة ــ يدخل تحت سقالة يذبح العجل عليها ، فيسيل عليه دمه .. وهى فيما يبدو الفكرة الدينية الأولى لأقدم مدنيات المعابد التى تسفك دماء الضحية عند وقت البذار) .

وأسهمت (نحلة الإسكندرية) فى الفكر المسيحى ، والطقوس المسيحية ، بقدر أعظم ، إذ (كان طبيعياً أن يجد المسيحيون فى شخصية حورس « الذى كان ابناً لسيرابيس ، وهو سيرابيس فى نفس الوقت »شبيهاً مرشداً لهم ، فيما يبذلون من جهود عنيفة ، لتفهم ما خلفه لهم القديس بولس من خفايا ، وقد كان الانتقال من هذا إلى المطابقة بين شخصية مريم وإيزيس ، ثم السمو بها مرتبة شبه قدسية ، خطوة طبيعية كذلك) .

(وكان طبيعياً أيضاً للمسيحية أن تقتبس ــ وهى لا تكاد تعى ــ الطرائق العملية للديانات الشائعة فى ذلك الزمان ، فاتخذ قساوستهم طريقة الرءوس الحليقة ، والزى الخاص بالكهنة المصريين ، لأن ذلك كان يبدو الطريقة المثلى لتمييز القسس ، وتتابعت البدع واحدة فى إثر أخرى . وكانت نتيجة ذلك أن **دفنت التعاليم الثورية** الأصلية ، بطريقة تكاد

تكون غير محسوسة تحت تلك الإضافات المألوفة) .

ولا ريب في أن عملية (الدفن) هذه تمت (شرعاً) ، على يد (فريسي بن فريسي) أدبه (غمالائيل على تحقيق الناموس الأبوى) ، ليتنقم من (ابن الزنا) ـ كما يقول التلمود ـ الذى شهَّر بالفريسيين والكتبة والمرابين في (عيد الفصح) وكانت (البدايات) التي ابتدعها للخروج من ثياب (المسيحية) قادرة على أن تنمو وتزدهر ، حتى تصبح أجمة من نبات العوسج سريعة الامتداد .

* لقد رأى بولس ـ كما يقول الدكتور محمد وصفى فى كتابه (المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام) ص ٥١ وما بعدها ـ أنه لو ادعى النبوة دون الرسالة ، لاضطر أن يسير حسب أوامر المسيح ، وأن يعمل بتعاليمه ، وأن يدعو للدين المسيحى الصحيح الذى يريد محوه ، ويعمل جهده للظهور على أنقاضه .

وقد خاف بولس أن يدعى النبوة حتى لا يعد فى (الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة ، من ثمارهم تعرفونهم ، هل يجتنون من الشوك عنباً ، أو من الحسك تيناً ، هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة ، وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية ، لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية ، ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة ، كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار ، فإذاً من ثمارهم تعرفونهم) ـ متى صح ٧ : ١٥ ـ ٢٠ .

ولم يَدَّعِ بولس لنفسه النبوة ، لئلا يعلو عليه رسول كالمسيح ، وإذا كان الناس وقتئذ لا ينكرون وجود عيسى ، جعل بولس المسيح إلهاً ، حتى لا يقال إنه رسول لرسول ، ثم ادعى الرسالة خالصة من دون الناس ، ليجعل لنفسه حق التشريع ، وليتاح له نقض تعاليم عيسى ، وهدم المسيحية التى أساسها التوحيد الحقيقى ، دون سواه .

إن كتب التاريخ المسيحية تجهل تاريخه جهلاً تاماً ، ولا تعلم شيئاً عن مولده أو حياته أو تاريخ كتابته رسائله [١] ، ولم يستطع كتاب (مرشد الطالبين) أن يذكر عنه إلا كونه مات فى عهد نيرون ، ولم يذكر شيئاً من سيرته إلا أنه كان كافراً ثم تنصر .

---

(١) يكفى للتعريف به ما جاء فى (أعمال الرسل) ، وما تحدث به سفر برنابا ، والاعتراف برسائله بين (الكتاب المقدس) ، ولم يكن بولس بدعاً فى هذا الشأن ، فأكثر رجال (الكتاب المقدس) لم تسجل سيرتهم .

ولم يرو عن بولس أنه أتى بمعجزة واحدة يثبت بها رسالته ، مع أن عيسى قرر أن من كان في قلبه ذرة من الإيمان يمكنه خرق نواميس الكون : (فالحق الحق أقول لكم : لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنـــا إلى هناك فينتقل ، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم) ـ متى ١٧ : ٢٠ .

* وكتب بولس عبارة عن رسائل شخصية محضة ، فيها كثير من الأخطاء .

في رسالته إلى العبرانيين صح ٩ يقول : (لأن موسى بعد ما كلم جميع الشعب بكل وصية ، بحسب الناموس ، أخذ العجول والتيوس مع ماء وصوفاً قرمزياً وزوفا ، ورَشَّ الكتاب نفسه ، وجميع الشعب ، قائلاً هذا هو دم العهد الذى أوصاكم الله به ، والمسكن أيضاً ، وجميع آنية الخدم رشها كذلك بالدم) .

وجهل هذا (الفريسي ابن الفريسي) أن موسى لم يأخذ دم عجول وتيوس ، بل دم ثيران فقط ، ولم يأخذ الدم مع ماء وصوفا قرمزياً وزوفاً ، بل أخذ الدم وحده ، ولم يرشّ الكتاب وجميع الشعب ، بل رش نصف الدم على المذبح ، والنصف الآخر على الشعب ـ خروج ٢٤ .

ونسب إلى الله الحمق والضعف في رسالتـــه الأولى إلى كورنثوس صح ١ إذ قـال : (إن حماقة الله أعقل من الناس ، وضعف الله أشد قوة من الناس) .

ولقد أبطل بولس جميع أحكام التوراة العملية (أعمال ١٥) ، ولم يستثن منها غير أحكام حرمة ذبيحة الصنم وحرمة الدم ، وحرمة المخنوق، وحرمة الزنا .

ثم عاد فأبطل النجاسة أصلاً وفرعاً ، وأحـــل ذبيحة الصنم ، ولم يحرم الدم والمخنوق : (إني عالم ومتيقن في الرب يسوع أن ليس شيء نجساً بذاته ، إلا من يحسب شيئاً نجساً فله هو نجس) ـ رسالته إلى أهـــل رومية صح ١٤ : ١٤ . وقال في رسالته إلى تيطس صح ١ : ١٥ (كل شي طاهر للطاهرين ، وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شيء طاهراً ، بل قد تنجس ذهنهم أيضاً وضميرهم) .

وقد أحل أكل لحم الخنزير ، حتى صار أحب اللحوم إلى رجال الدين المسيحي ، مع أن التـوراة تحرمه ، يقول سفر لاويين صح ١١ : (والخنزير لأنه يشق ظلفاً ، ويقسمه ظلفين ، لكنه لا يجتر ، فهو نجس لكم ، من لحمها لا تأكلوا ، وجثثها لا تلمسوا ، إنها نجسة لكم) .

والمسيح أطلق الشياطين على قطيع الخنازير وأهلكه ، يقول مرقس صح ٥ : (فطلب إليه كل الشياطين قائلين : أرسلنا إلى الخنازير لندخل فيها، فأذن لهم يسوع للوقت ، فخرجت الأرواح النجسة ، ودخلت فى الخنازير ، فاندفع القطيع من على الجرف إلى البحر ، وكان نحو ألفين، فاختنق فى البحر) ، ولولا أن الخنازير فى شريعة السيد المسيح محرم أكلها ، ومهدرة حياتها لما أذن فى قتل هذا العدد الضخم الذى يعد ـ فى عرف من يستحلون أكله ـ ثروة هائلة .

ونصح بولس بشرب الخمور ، فقال لصاحبه تيمو ثاوس : (لا تكن فيما بعد شراب ماء ، بل استعمل خمراً قليلاً من أجل معدتك وأسقامك) ـ تيمو ثاوس الأولى ٥ : ٢٣.

وزعم لنفسه حق التشريع ، فقال فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس صح ٧ : ١٢ ، ٢٥ (وأما الباقون فأقول لهم : أنا لا الرب ، إن كان أخ له امرأة غيرمؤمنة ، وهى ترتضى أن تسكن معه ، فلا يتركها) ، وقال : (وأما العذارى فليس عندى أمر من الرب فيهن ، ولكننى أعطى رأياً) .

وقد اعترض لوثر على هذا بقوله : (إن الحوارى ليس له حق اختراع حكم ، جاعلاً نفسه فى المنصب الذى يخص عيسى فقط) ، وقال عن رسالة يعقوب كلها : (إنها كلام لا اعتداد به) .

وفى الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس صح ٧ يحلل بولس زواج الأرملة ، وفى رسالته إلى أهل غلاطية صح ٥ ينقض حكم الختان ، على الرغم من أن التوراة تنص صراحة على وجوبه ، وتجعل منه دعامة العهد بين الله وبين سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وبالرغم من أن المسيح عليه السلام كان قد ختن ، وعلى الرغم من أن المسيح لم يبح لنفسه نقض شريعة موسى عليه السلام . تقول التوراة (تكوين صح ١٧) (وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلته ، فتقطع تلك النفس من شعبها ، إنه قد نكث عهدى) .

وفى رسالته إلى العبرانيين صح ٧ يحقّر شريعة موسى التى هى شريعة عيسى ، فيقول : (فإنه يصير إبطال الوصية السابقة ـ للأويين أن يعشروا الشعب ـ من أجل ضعفها وعدم نفعها) ، ويقول فى رسالته إلى رومية صح ٤ : (لأن الناموس ينشىء غضباً ، إذ حيث لا ناموس ليس أيضاً تعد) .

يقول د. وصفى ص ٦٧ : (وهكذا بنى بولس ديناً على الإيمان بإله وهمى ، تجسد فى رحم امرأة ، ومكث فيه تسعة أشهر ، ثم ولد من أمه ، وبعد ثلاثين عاماً صلب وقتل ولعن ، ليفتدى العالم من خطيئة وهمية وصم بها الجنس البشرى) .

وقد أدت نظرية الفداء ، أو الخلاص هذه إلى تعاليم كنسية أخذت طابع تعاليم العاملين فى سوق الأوراق المالية .

يقول لوثر: (إن الإنجيل لا يطلب منا الأعمال من أجل تبريرنا ، بل بعكس ذلك ، إنه يرفض أعمالنا) ، ويترك للكنيسة حق تقرير المغفرة والإدانة ، عن طريق (كرسى الاعتراف) ، وبيع (صكوك الغفران) ، (إنه لكى تظهر فينا قوة التبرير يلزم أن تعظم آثامنا جداً) ، ثقة فى قدرة (ربنا يسوع) على تحمل خطايانا.

ويقول لوثر ـ ساخراً على ما يبدو ـ (أما أنا فأقول لكم : إذا كان الطريق المؤدى إلى السماء ضيقاً وجب على من رام الدخول فيه أن يكون نحيلاً رقيقاً .. فإذا ما سرت فيه حاملاً أعدالاً مملوءة أعمالاصالحة ، فدونك أن تلقيها عنك ، قبل دخولك فيه ، وإلا امتنع عليك الدخول من الباب الضيق هذا ، وإن الذين تراهم عاملين الأعمال الصالحة هم أشبه بالسلاحف ، فإنهم أجانب عن الكتاب المقدس ، وأصحاب القديس يعقوب الرسول، فمثل هؤلاء لا يدخلون أبداً) ـ عن كتاب المقارنة بين الدين الكاثوليكى والمذهب البروتستانتى للأنبا إغناتيوس ـ طبع ١٩٠٤ .

ويقول ميلانكتون صاحب لوثر ، فى كتابه (الأماكن اللاهوتية) (إن كنت سارقاً أو زانياً أو فاسقاً فلا تهتم بذلك ، عليك فقط ألا تنسى أن الله هو شيخ كثير الطيبة ، وأنه قد سبق وغفر لك خطاياك ، قبل أن تخطئ بزمن مديد) ـ المصدر السابق .

* لقد حذر الحوارى برنابا من بولس بعدما صحبه فى إحدى الرحلات ، وافترق عنه ، فقال (برنابا صح ١) : إن تعاليم يسوع المسيح وآياته (اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين ، بدعوى التقوى ، مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله ، ورافضين الختان الذى أمر به الله دائماً ، مجوزين كل لحم نجس ، الذين ضل فى عدادهم أيضاً بولس الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسى) .

صادفت ابتداعات بولس هوى لدى السلطات الدينية والسياسية ، وأصبحت قرارات

المجالس الكنسية هى الشريعة ، مع تضارب هذه القرارات ، ومع كثرة الفتن التى أحدثتها ، لقد حرمت (التقاليد الكنسية) على المسيحى أن يفهم كتبه ، ويفسر ما جاء فيها من الأحكام ، ومن ذلك المنشور الذى أذاعه البابا سنة ١٨٦٤ حاكماً فيه باللعنة على كل من يرى جواز خضوع الكنيسة لأى سلطة أخرى ، أو يعتقد أنه حر فيما يعتقد ، أو يفسر شيئاً من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة ، ومثله منشور سنة ١٨٦٨ يوجب على المؤمنين أن يَفْدوا نفوذ الكنيسة بأرواحهم وأموالهم، وأن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم . وسبق هذين المنشورين معارك مع الفلاسفة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ومعارك مع البروتستانت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

ومع هذا يقول القديس أنسيلم (يجب أن تعتقد أولاً بكل ما يعرض على قلبك ، بدون نظر ، ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت) ، فكيف يعتقد الإنسان ما لم يفهم، أليس هذا لوناً من التضليل وتغييب العقل حتى يسيطر رجال الدين ؟ .

ومن عجب أن هذا التحول الخطير الذى أحدثه بولس، بحيث صارت المسيحية (بولسية) يجد عند توينبى (مختصر دراسة للتاريخ جـ ٢ص ٢٥٢) لوناً من التأييد، إذ ينسب (انتصار المسيحية) إلى هذا التحول الخطير)، فيقول : لم يكن ليقيض النصر للمسيحية لو لم يجهد آباء الكنيسة أنفسهم ، من القديس بولس ومن تلاه ــ إبان القرون الأربعة أو الخمسة الأولى من العهد المسيحى ــ فى ترجمة العقيدة المسيحية إلى مصطلحات الفلسفة الهلينية ، وفى تشييد الدرجات الكهنوتية ، وفقاً لمراتب الموظفين فى الإدارة الرومانية ، وفى صياغة الطقوس المسيحية طبقاً للطقوس السرية (أساس عقيدة أورفيوس عند اليونان ، وأوزيريس وإيزيس فى مصر القديمة)، بل عمدت الكنيسة المسيحية إلى قلب الاحتفالات الوثنية إلى أعياد مسيحية ، وإحلال عقائد الأبطال الوثنيين إلى عقائد القديسين المسيحيين .

ولقد كان اعتراض الفاتيكان على مقترحات مماثلة لبعثات اليسوعيين التبشيرية مما عوّق نمو برعمة المسيحية ، وبالأحرى لو كان خصوم القديس بولس من المسيحيين ذوى الأصل اليهودى قد قيض لهم الفوز فى المؤتمرات والمعارك التى جاء ذكرها فى (أعمال الرسل) وفى رسائل بولس الأولى ــ لترتب على ذلك صد الرسالة المسيحية ــ بدرجة قاتلة ــ إلى أرض الأمميين .

وفات المؤرخ الكبير أن المسيح صلوات الله عليه ـ كما قال ابن قيم فى (هداية الحيارى ص ٢١٢/٢١٣) ـ كان يتدين بالطهارة ، ويغتسل من الجنابة ، ويوجب غسل الحائض ، وبفضل بولس صار هذا كله غير واجب عند طوائف النصارى ، بل إن الإنسان يقوم من على بطن المرأة ويبول ويتغوط ولا يمس ماء ، ولا يستجمر ، والبول والنجو ينحدر على ساقه وفخذه ويصلى ، وصلاته صحيحة تامة عنده.

والمسيح كان يقرأ فى صلاته ما كان الأنبياء وبنو إسرائيل يقرءونه فى صلاتهم من التوراة والزبور ، وطوائف النصارى إنما يقرءون فى صلاتهم كلاماً قد لحنه لهم الذين يتقدمون ويصلون بهم ، يجرى مجرى النوح والأغانى ، فيقولون : هذا قداس فلان ، وهذا قداس فلان ، ينسبونه إلى الذين وضعوه .

وهم يصلون إلى الشرق ، وما صلى المسيح إلى الشرق قط ، وما صلى إلى أن توفاه الله إلا إلى بيت المقدس ، وهى قبلة داود والأنبياء قبله ، وقبلة بنى إسرائيل.

والمسيح اختتن وأوجب الختان ، كما أوجبه موسى وهارون، والأنبياء قبل المسيح .

والمسيح حرم الخنزير ، ولعن آكله ، وبالغ فى ذمه ، ولقى الله ولم يطعم من لحمه وزن شعيرة ، والنصارى تتقرب إليه بأكله .

والمسيح ما شرع لهم هذا الصوم الذى يصومونه قط ، ولا صامه فى عمره مرة واحدة ولا أحد من أصحابه ، لا صام صوم العذارى فى عمره ، ولا أكل فى الصوم ما يأكلونه ، ولا حرم فيه ما يحرمونه .

لا عطل السبت يوماً واحداً حتى لقى الله ، ولا اتخذ الأحد عيداً قط .

وليس عند النصارى على من زنى أو لاط أو سكر حد فى الدنيا أبداً ، ولا عذاب فى الآخرة ، لأن القس والراهب يغفره له ، فكلما أذنب أحدهم ذنباً أهدى للقس هدية أو أعطاه درهماً أو غيره ليغفر له .

وإذا زنت امرأة أحدهم بيّتها عند القس ليطيبها له ، فإذا انصرفت من عنده ، وأخبرت زوجها أن القس طيبها ، قبل ذلك منها ، وتبرَّك به .

وهم يقرون أن المسيح قال : (إنماجئتكم لأعمل بالتوراة ، وبوصايا الأنبيـاء قبلى ، وما جئت ناقضاً ، بل متمماً ، ولأن تقع السماء على الأرض أيسر عند الله من أن أنقض

شيئاً من شريعة موسى ، ومن نقض شيئاً من ذلك يدعى ناقضـاً في ملكوت السماء) وما زال هو وأصحابه كذلك إلى أن خرج من الدنيا ، وقال لأصحابه : (اعملوا بما رأيتموني أفعل ، وارضوا من الناس بما أرضيتكم به ، ووصوا الناس بما وصيتكم به ، وكونوا معهم كما كنت معكم ، وكونوا لهم كما كنت لكم)[1] .

وما زال أصحاب المسيح بعده على ذلك قريباً من ثلاثمائة سنة ، ثم أخذ القوم فى التغيير والتبديل والتقرب إلى الناس بما يهوون ، ومكايدة اليهود ومناقضتهم بما فيه ترك دين المسيح والانسلاخ منه جملة .

* إن ما نجح فيه بولس مع المسيحية أراد أن يسعى سعيه مع الإسلام ابن سبأ اليهودى اليمنى النشأة الفارسى الثقافة .

أسلم (ابن السوداء) وتسمى (عبد الله) ، وتنقل في البلاد الإسلامية ، يحاول نشر ضلالته .

بدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، فالكوفة ، فالشام ، فلما لم يوفق لجأ إلى مصر ، فوجد استجابة لنشر تعاليمه السياسية ضد الخليفة الثالث (ذى النورين) رضى الله عنه الذى كان واليه على مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح رضى الله عنه مشغولاً بالحروب الخارجية ، ولم يعلم ابن أبى سرح بأمر فتنته إلا بعد عودته من حرب الروم سنة ٣٥هـ .

لقد نادى ابن سبأ بمذهب الوصاية ، وهو أن لكل نبى وصياً ، نقلا عن أن يشوع كان وصى موسى ، فزعم أن على بن أبى طالب وصى محمد ﷺ ، ولما كان محمد خاتم الأنبياء كان على خاتم الأوصياء ، ومن ثم فالخلافة اغتصبت من على ، ومن هنا كان تكفير كل من أبى بكر وعمر وعثمان ، والسيدة عائشة أيضاً ، رضى الله عنهم جميعاً ، بسبب موقفها من على ، وما أحيط بموقعة الجمل .

وتطور مبدأ الوصاية (السبئى) إلى أن جزءاً جزءاً إلهياً حل فى الإمام على ، وأن هذا الجزء الإلهى (يحّل) فى الأئمة من بعده ، من أبناء السيدة فاطمة .

وتطور مفهوم هذا الجزء الإلهى إلى أن علياً لم يقتل (وفيه الجزء الإلهى) ، وإنما

---

(١) هـــذان النصان من إنجيل متى صح ٥، ٢٣ ولكن التعبير مختلف عما هو بين أيدينا ، وإن صحت الدلالة

اختفى وسيعود ، وهو الذى يجىء فى السحاب ، والرعد صوته ، والبرق سوطه ، وإنه سينزل إلى الأرض ليملأها عدلاً بعد أن ملئت جوراً .

وصارت (رجعة) الإمام مقولة الحنفية ، ثم الإمامية الإسماعيلية والإثنى عشرية ، وانتهى الأمر إلى البهائية والقاديانية .

وهكذا ، أحدثت دعوى ابن سبأ (دوامة) على الشاطىء الإسلامى ، ما لبثت أن تحولت إلى (نقاقيع) على المستوى الدينى ، أما على المستوى السياسى ، فقد نجحت فى خلق ثورة ضد الخليفة الثالث أدت إلى قتله ، وتقسيم العالم الإسلامى بين على ومعاوية ، ثم بين الأمويين والعلويين ، ثم بين العباسيين والفاطميين .

ولم يكن ابن سبأ وحده من حاول الكيد للإسلام ، وتحويل مساره ، فقد كانت هناك محاولات يهودية ضد القرآن ، وضد السنة النبوية ، وكان اختلاق لأخبار قصد بها تزييف الفكر الإسلامى ، وما تزال (الإسرائيليات) لغماً متفجراً فى نفوس المفسرين ورجال الحديث .

* * *

(جـ) ألوهية المسيح ..

جاء في سفر تثنية صح ١٣ (إذا قام في وسطك نبي أوحالم حلماً ، وأعطاك آية أو أعجوبة ، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي أكلمك عنها ، قائلاً : لنذهب وراء آلهـة أخرى ، لم تعرفها ، ونعبدها ، فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم ، لأن الرب إلهكم يمتحنكم ، لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ، ومن كل أنفسكم ، وراء الرب إلهكم تسيرون ، وإياه تتقون ، ووصاياه تحفظون ، وصوته تسمعون ، وإياه نعبدون ، وبه تلتصقون ، وذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم يقتل ، لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم ، الذي أخرجكم من أرض مصر ، وفداكم من بيت العبـودية ، لكي يطوحكم عن الطـريق التي أمركم الرب إلهكم أن تسلكوا فيهـا ، فتنزعون الشر من بينكم) .

(وإذا أغواك سراً أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذي مثل نفسك ، قائلاً : نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك ، من آلهة الشعوب الذين حولك ، القريبين منك ، أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض إلى أقصائها ، فلا ترض مـه ولا تسمع له ، ولا تشفق عينك عليه ، ولا ترقّ له ، ولا تستره ، بل قتلاً تقتله ، يدك تكون عليـه أولاً لقتله، ثم أيدى جميع الشعب أخيراً ، ترجمـه بالحجارة حتى يموت) .

الأمر واضح في تحريم الشرك بالله سبحانه ، ابناً كان أو روح القدس ، أو من الملائكة، وجزاء المشرك أن يقطع عن (الشعب) بالقتل، واشتراك جميع الشعب في رجمه حتى الموت .

(فاحتفظوا جداً لأنفسكم ، فإنكم لم تروا صورة ما يوم كلمكم الرب في حوريب من وسط النار ، لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً ، صورة مثال ما شبه ذكر أو أنثى ، شبه بهيمة ما ، مما على الأرض ، شبه طير ما ذى جناح ، مما يطير في السماء ، شبه دبيب ما على الأرض ، شبه سمك ما مما في الماء من تحت الأرض ، ولئلا ترفع عينيك إلى السماء ، وتنظر الشمس والقمر والنجوم كل جند السماء التي قسمها الرب إلهك لجميع الشعوب التي تحت كل السماء ، فتغتر وتسجد لهـا وتعبدها ، وأنتم قد أخذكم الرب ،

وأخرجكم من كور الحديد ، من مصر، لكي تكونوا له شعب ميراث ، كما فى هذا اليوم ، وغضب الرب عليّ بسببكم ، وأقسم إنى لا أعبر الأردن ، ولا أدخل الأرض الجيدة التى الرب إلهك يعطيك نصيباً ، فأموت أنا فى هذه الأرض ، لا أعبر الأردن، وأما أنتم فتعبرون وتمتلكون تلك الأرض الجيدة ، احترزوا من أن تنسوا عهد الرب إلهكم الذى قطعه معكم ، وتصنعوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً ، صورة كل ما نهاك عنه الرب إلهك ، لأن الرب إلهك هو نار آكلة إله غيور) ـ تثنية صح ٤ .

هكذا حذر (العهد القديم) من أن يتخذ (الشعب) إلهاً غير الله ، ومن أن يتخذ الشعب صنماً أو وثناً أو صورة تمجد غير الله .

وجاء (العهد الجديد) فصرح فى مواطن عدة بأن (الله لم يره أحد قط) ـ يوحنا صح ١ ـ (الذى وحده له عدم الموت ، ساكناً فى نور لا يدنى منه الذى لم يره أحد من النـــاس ، ولا يقـدر أن يراه ، الذى له الكرامة والقـــدرة الأبدية) ـ الرسالة الأولى إلى تيموثاوس صح ٦.

لكن إلى جوار هذه النصوص نصوص أخرى موهمة بسبب سوء الترجمة ، وبسبب كون هذه النصوص لم تلتزم وحياً من الله ، بل دونت ، وحدث فيها تغيير وتبديل وإضافات فى أزمنة بعيدة من زمن (الوحى).

لهذا سهل تجسيم الله سبحانه واختصاص (الشعب المختار) به ، وسهل وصفه بصفات البشر ، تأثراً بالبيئات الثقافية التى نزح إليها اليهود ، نفياً أو ترحلاً . فلما كانت المسيحية سهل الخروج بها عن (الوحدانية) ، لأن ظروفاً كثيرة أحاطت بالسيد المسيح وحواريه ، فمكنت من الخروج بالمسيحية إلى (البولسية) أو الإبليسية .

ومع هذا يقول تاونزند (Townsend) فى مقدمته لترجمة (سفر المقابيين الرابع) :

(لقد قيل حقـاً إنه لو كـانت اليـهـودية ـ باعتبـــارها ديانة ـ قد زالت فى ظل أنطيوخوس ، لأعوزت المسيحية التربة التى نمت فيها بذورها ، وهكذا ترى دماء شهداء المقابيين الذين أنقذوا اليهودية ، قد أصبحت فى النهاية بذور « الكنيسة » ، وعلى ذلك ، فما دامت البلاد المسيحية فى أوروبا ، وكذلك الإسلام ، كلاهما يستمد فكرة التوحيد من أصل يهودى ـ فقد يجوز لنا أن نقول إن العالم مدين بوجود الوحدانية ذاته ـ سواء فى الشرق أو فى الغرب ـ للمقابيين) ـ تاريخ الفلسفة الغربية ـ رسل جـ ٢ ص ٢٤ .

وقد جهل هذا التاونزند أن المسيحية تستمد وجودها من الله مباشرة ، ولها كتابها الموحى به ، وإن طمست معالمه ، وأن الإسلام يستمد وجوده من الله مباشرة ، وله كتابه الموحى به ، فسواء بقيت اليهودية أو لحقت بغيرها من الديانات السماوية السابقة ، فإن لكل من الديانات السماوية جذورها الخاصة ، وإن اتفقت في وحدانية المصدر ، وفي وحدانية الهدف ، كما جهل هذا الانحرافات التي أصابت كلاً من اليهودية والمسيحية ، وبخاصة في أصول العقيدة ، وأن ثقافات غير سماوية طغت على تلك الأصول ، بحيث لا تصلح لأن تكون جذوراً ممتدة للوحدانية .

ابن اللــه :

كان اليهود (يعدون علماء الدين آلهة [1] (Gods) أو ربّيين (Rabbis) جمع ربّى ، إذ إن رجل الدين كان يتحدث غالباً عن الله ، أو عن الرب ، وإذ لاحظ المسيح ـ عليه السلام ـ أن علماء اليهود في عصره قد حادوا وانحرفوا عن تفسير كلام الله التفسير الصحيح ، قام عليه السلام بالمهمة ، وعمل على تصحيح ما حرفوه من العقائد ، فيما يتعلق بالله ، وبشريعة الله ، كما أنزلها بالتوراة ، ورفض المسيح أن يلقب نفسه بلقب « إله » أو « ربى » ، مؤثراً أن يلقب نفسه بأنه « ابن الله » [2] ، تواضعاً منه عليه السلام ، وتمييزاً لتعاليمه من تعاليم الآلهة والربيين الفاسدة المحرفة) ـ عقاد الجهاد ص ٣٩ .

وقد حرص عيسى ـ عليه السلام ـ أن يحدد دوره ، فقال : (لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً ، إلا ما ينظر الأب أن يعمل ... لأن الأب يحب الابن ، ويريه جميع ما هو يعمله) .

(أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً ، كما أسمع أدين ، ودينونتي عادلة ، لأنى لا أطلب مشيئتي ، بل مشيئة الآب الذى أرسلنى) .

(هـذه الأعمال بعينها التى أنا أعملها هى تشهد لى أن الآب قد أرسلنى) ـ يوحنا ٥ .

هكذا ، وفى إنجيل يوحنا الذى كان بعباراته الفلسفية الموهمة ، بداية الطريق إلى

---

(١) قياساً على ربيين كان يجب أن يقال إلهيين.

(٢) لفظ « ابن الله » ورد كثيراً فى أسفار العهد القديم بمعنى المشمول برعايته ، ولعل هذا هو المقصود .

التحول ـ أعلن السيد المسيح أنه ليس إلا رسول الله ، وأن كل ما يفعله إنمـــا هو بأمر من الله ، وأنه بدون مشيئة الله وإرادته لا يملك من الأمر شيئاً .

(أيها الرجال الإسرائيليون ، اسمعوا هذه الأقوال ، يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده ، فى وسطكم ، كما أنتم أيضاً تعلمون) ـ أعمال الرسل صح ٢ على لسان الحوارى بطرس ـ فلم يكن عيسى (مستطيعاً بنفسه) ، حتى يكون إلهاً ، أو ابناً لإله.

بل إن عيسى أعلن أنه على غير علم بموعد القيامة ، حتى يدعى إلهـــاً ، أو ابن إله، (وأما ذلك اليوم ، وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحـــد ، ولا الملائكة الذين فى السماء، ولا الابن ، إلا الآب) ـ مرقس صح ١٣ .

هل يمكن تصور إله يجرّبه أو يغريه شيطان ؟.

جاء فى مرقس صح ١ (وللوقت أخرجه الروح إلى البرية ، وكان هناك فى البرية أربعين يوماً يجرّب من الشيطان) !!.

وفى مرقس صح ٦ قال الذين استمعوا إليه يعلم يوم السبت : (ما هذه الحكمة التى أعطيت له ، حتى تجرى على يديه قوات مثل هذه ؟ أليس هذا هو النجار ابن مريم وأخو يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان ؟ أو ليس أخواته هاهنا عندنا ؟ فكانوا يعثرون به ، فقال لهم يسوع : ليس **نبى** بلا كرامة إلا فى وطنه وبين أقربائه وفى بيته ، **ولم يقدر** أن يصنع هناك ولا قوة واحدة) .

نص يعترف بإنسانيته الكاملة ، فهو (النجار ابن مريم) ، وقد ولدت أمه من يوسف النجار بنين وبنات ، مما يخرجها عن دائرة الألوهية ، وكانت لديهم أسباب للنيل منه ، ثم إنه جوبه بهذا الموقف المعاند ، (ولم يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة) ، واكتفى بالإشارة إلى نبوته التى لا يعترف بها قومه (ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وبين أقربائه وفى بيته) . وما أظن أن للإله ـ سبحانه ـ وطناً وأقرباء وبيتاً يبيت فيه !!.

* هذه إحدى شهادات الكتاب المقدس على إنسانية عيسى ..

شهادة أخرى للكتاب المقدس يعرضها الأستاذ العقاد (عبقرية المسيح ٢٠٣/٢٠٩) يمهد لهـــا بأن الاسم يسوع أو (يهوشع) مركب من كلمتين تفيـــدان معنى (سُعى

يهوا) ، أو (نجدة يهوا) ، أو (خلاص يهوا) ، فتسمى الطفل به ، وتربى تربية دينية خالصة ، فى انتظار أن يكون المسيح المنتظر ، حيث ورد فى أسفار من النبوءات أن بيت لحم هي مولد المسيح الموعود ، لأنها موطن داود .. ومن ثم ساغ (أو سهل) الانحراف بمعنى الأبوة الإلهية ، أو (الربوبية) فى الفكر الإسلامي ، مع أن ثمة فاصلاً قوياً بين الإنسان ابناً مجازياً لله ، وبين دعوى البنوة الحقيقية (الكافرة) ـ فى مواطن كثيرة من كتب الأنبياء.

جاء في سفر (تكوين ٦) أن الملائكة أبناء الله وأن أبناء الله رأوا بنات الناس حسنات فاتخذوا منهن زوجات .

وورد فى (تثنية ١٤) أن موسى قال : (أنتم أبناء الله) ، وفى (تثنية ٣٢) أشير إلى الشعب كله بأنهم أبناء الله وبناته .

وفى المزامير أكثر من مرة قيل: (قوموا للرب يا أبناء الله) ـ ٢٩ ـ و (من يشبه الرب بين أبناء الله) ـ ٨٩ وذكر فى (هوشع صح ١) من خطاب الرب لهوشع (يقال لهم أبناء الله الحى) .

هكذا الجميع(أبناء الله) ، وليس موسى أو هارون أو أحد من الأنبياء ، دون سواه ، مما يعنى أن البنوة عبودية لله ، وتمتع برعاية الله وفضله .

أما فى (العهد الجديد) فمخاطبة الله باسم (الآب) وردت فى الصلاة التى تبتدئ بدعاء الله : (أبانا الذى فى السموات) وحيث قال المسيح للتلاميذ : إن (أباكم واحد ، وهو الذى في السموات) ، وحيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد ، وكل ولادة للروح فهى بنوة لله .

* أما (ابن الإنسان) فقد وردت فى كتب (العهد القديم) باللغة الآرامية ، وباللغة العبرية ، وهى بالآرامية (بارناشا) من بار بمعنى ابن ، وناش بمعنى إنسان ، وهى بالعبرية (ابن آدم) ، وتطلق فى كلتا اللغتين على الإنسان الخالص ، أو على الإنسان من حيث هو نوع بقابل أنواع الأحياء.

وقد وردت تسعين مرة فى (سفر حزقيال) ، حيث يخاطب (يهوه) ذلك الرسول ، فيناديه يا ابن الإنسان .

ووردت فى (سفر دانيال ٨) بلسان جبريل ، وهو يخاطب النبى باسم ابن الإنسان ..

ووردت في هذا السفر باللغة الآرامية ، حيث يتكلم عن مخلوقات بصور الحيوانات ثم ينبيء عن رسول يأتي في صورة إنسان ، رآه النبي في رؤى الليل (على سحاب كابن الإنسان) جاء بسلطان لن يزول .

أما في كتب (العهد الجديد) فقد وردت في مواضع بمعنى (الإنسان) ، ومنها قول السيد المسيح في (إنجيل متى صح ١٢) ، (كل خطيئة وتجديف يغفر للناس، وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له ، لا في هذا العالم ولا في الآتي) .

وجاءت أحياناً مرادفة لضمير المتكلم (أنا) ، حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه ، فجاء في (لوقا ١٢) : (كل من اعترف بي قدام الناس يعترف به ابن الإنسان قدام ملائكة الله) ، وجاء في (متى ١٠) : (كل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضاً به قدام أبي الذي في السموات) .

ووردت في (متى ١٦) (إنه لما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلبس، سأل تلاميذه قائلاً : « من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان ») .

وورد في (مرقس ٨) : (ثم خرج يسوع وتلاميذه إلى قرى قيصرية فيلبس ، وفي الطريق سأل تلاميذه قائلاً : « من يقول الناس إني أنا » .

وغني عن القول أن هذه الأسماء كانت تفهم ، كما تعود قراء الكتب الدينية أن يفهموها في ذلك الحين ، ولم يوص السيد المسيح تلاميذه أن يفهموا منها غير ذلك، حين يذكرون (ابن الله) ، و (ابن الإنسان) .

* * ومع هذه النصوص الصريحة على إنسانية السيد المسيح ، وأنه ليس إلا رسولاً من الله ، وأن البنوة لله تعبير مجازي مشترك في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجـــديد ــ فإن (رسالة بولس إلى أهل كولوسي صح ١) تقول : (الذي هو صورة الله غير المنظور ، بكر كل خليقة ، فإن فيه خلق الكل ، ما في السموات وما على الأرض ، ما يرى وما لا يرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين ، الكل به وله قد خلق ، الذي هو قبل كل شيء ، وفيه يقوم الكل) .

لعل بولس جمع في هذا النص بين ما جاء في سفر (تكوين صح ١) : (وقال الله

نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا) ، وبين ما قال الفلاسفة ـ تنزيهاً لله عن أن يباشر الخلق بنفسه ـ إنه خلق (العقل الفعال) الذى به تم خلق الكون .

وقال بولس في رسالته (إلى العبرانيين صح ١) : (الذى ـ وهو بهاء مجده ، ورسم جوهره ، وحامل كل الأشياء بكامل قدرته ـ بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا ، جلس على يمين العظمة فى الأعالى ، صائراً أعظم من الملائكة ، بمقدار ما ورث اسماً أفضل منهم) .

وكان يوحنا قد قدم لإنجيله بعبارة فيلون اليهودى (فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان) .

ولو أننا صرفنا الكلمة إلى إرادة الخلق ـ دون الارتباط بعيسى ـ لهان الأمر ، ولتبين أن الله لم يعان فى عملية الخلق ، حتى يحتاج إلى يوم (الراحة) السبت ، بل يقول للشيء (كن فيكون) .

لكن (يوحنا صح ٥) صور علاقة الله برسوله على أنها علاقة أب بابنه حقيقة ، ووزع شئون الكون بينهما ، (لأنه كما أن الأب يقيم الأموات ويحيى ، كذلك الابن أيضاً يحيى من يشاء لأن الأب لا يدين أحداً ، بل أعطى كل الدينونة للابن) .

هكذا .. مع أن هذا الإصحاح ذاته أكثر من العبارات التى تفصل ما بين الآب وما بين (ابن الإنسان) وكأنما الإصحاح كتب بعقلين مختلفين ، ولاأدرى ما قيمة (الدينونة) إذا كان (الابن الإله) ـ بمعاناته فى (الناسوت) ـ قد تحمل جميع الخطايا ؟!.

وإذا رأينا إحياء الموتى دليل الألوهية ، كان كل من حزقيال وإيليا وأليشع آلهة كذلك ، فقد أحيا حزقيال جيشاً عظيماً جداً جداً (حزقيال صح ٣٧) ، وأحيا إيليا طفلاً (الملوك الأول صح ١٧) وأحيا أليشع كذلك طفلاً (الملوك الثانى صح ٤) ، ثم أتى بمعجزة تجعله أكبر الآلهة ، فقد أحيا جثة ألقيت فى قبره ، بعد موته (الملوك الثانى صح ١٣) .

بل إن تلاميذ المسيح كان فى وسعهم إحياء الموتى وعمل معجزات تفوق معجزات المسيح نفسه .

ثم إن عيسى لم يكن قادراً على الإتيان بمعجزة دون أن يجريها الله على يديه ، بدليل

أنه ـ كما ذكر (مرقس صح ٦) ـ لما جاء إلى وطنه لم يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة) .

ويعلق العلامة أحمد ديدات على هذا (اللغو الباطل) بقوله في مناظرتيه في استكهولم ص ١٤١ :

إن تصور أن يسوع ـ جسماً وروحاً ـ كان موجوداً مع الله ، قبل بدء الخليقة ، ثم قال له الله اذهب يا بنى فى بدء العام الأول للتاريخ الميلادى ، واخرج من رحم العذراء مريم ، وليكن كذا وكذا ـ إنما هو تصور غير معقول ، هل كان في تصوركم هكذا على هذا النحو ؟ كيف كان يسوع موجوداً مع الله قبل بدء الخليقة ؟ هل كان موجوداً مع الله بجسمه وروحه ؟ كيف يمكن تصور ذلك ؟ هل كان موجوداً كوليد ، أم كطفل، أم كشاب ويفع ؟ أم كان يسوع كهلاً مكتمل الرجولة عندما كان مع الله قبل بدء الخليقة ، وقبل وجود سيدنا إبراهيم عليه السلام ؟.

لقد ورد فى سفر (نحميا) بالعهد القديم مقولة : (أنا أعرفك قبل أن تكون فى رحم أمك) ، كيف يكون ذلك ؟ معنى ذلك أن صاحب المقولة يريد أن يقول : أنا تنبأت بوجودك قبل أن تولد ، وجعلت من مولدك نبوءة للناس ، أنا أريد أن أعرف كيف يوجد نبى قبل أن يخلق فى رحم أمه ؟.

ويجيب باستر ستانلى شوبيرج على هذا بقوله :

أنتم تعرفون أن يسوع ليس ابن الله ، بنفس الطريقة التى أصبحت بها أنا ابن أبى ، يجب أن تدركوا أن الله فوق مستوى فهمنا وإدراكنا ، الله أعظم منا .

* وفى مناظرته الدكتور أنيس شروش الفلسطيني الذى تأمرك ، وحصل على الدكتوراه في اللاهوت ـ قال العلامة ديدات : إن أى شخص ولدته أمه لا يمكن أن يقارن ويتساوى مع الله ، سواء أكان ذلك الإنسان الذى ولدته أمه موسى أم محمد أم إبراهيم أم عيسى (إن أى شخص ولدته أمه لا يمكن أن يكون إلهاً) ـ أيوب ٢٥ ـ إن هذا ما يقول به الإنجيل أيضاً.. لقد جاء وصف عيسى بأنه (ابن الإنسان) فى العهد الجديد ثلاثاً وثمانين مرة ، ووصف بأنه (ابن الله) فى العهد الجديد ثلاث عشرة مرة . سل أى مبشر مسيحى : من هو ابن الإنسان؟ سيقول لك على الفور يسوع .. الإنسان هو الإنسان فى كل زمان وفى

كل مكان ، وقد أجريت ليسوع عملية الختان ، عندما بلغ يومه الثامن (لوقا صح ٢) إله وتجرى له عملية الختان ؟! .

إن أصحاب الكنيسة الإنجليكانية هنا فى انجلترا قد جنحوا إلى الواقعية ، وتراجعوا عن زيف الخيال ، فأعلن أكثر من نصف عدد علماء اللاهوت بالكنيسة الإنجليكانية هنا فى بريطانيا ، فى شهر يونية الماضى (١٩٨٥) أن المسيحيين ليسوا مرغمين على الاعتقاد بأن يسوع المسيح قد ولد .

إن خلاص المسيحيين (Salvation) إنما يعتمد على موت المسيح على الصليب : إن كل ما يهم الفكر المسيحى هو خلاص المسيحيين ، عندما يفتدى يسوع خطايا البشر وآثامهم بدمه هو ، وبآلامه هو ، وها هم أولاء لا يزالون يعتقدون أن المسيح يجب أن يموت من أجلهم كإله ، وليس كإنسان .

إذا كان عيسى إلها (God) ، لأنه قد ولد من غير أب ، فإن آدم إله أعظم ، حسب زعمهم ، وهناك إجماع على أن آدم لم يكن إلهاً ، فعيسى لا يصح أن يكون إلهاً ، من باب أولى .

وما قولهم فى ملكى صادق الذى يقول عنه الإنجيل (العبرانيين صح ٧) : (ملك ساليم ، كاهن الله العلى الذى استقبل إبراهيم راجعاً من كسرة الملوك ، وباركه الذى قسم له إبراهيم عشراً من كل شىء ، المترجم أولاً : ملك البر ، ثم أيضاً ملك ساليم ، أى ملك السلام ، بلا أب ، بلا أم ، بلا نسب ، لا بداءة له ، ولا نهاية حياة ، بل هو مشبه بابن الله هذا ، يبقى كاهناً إلى الأبد) .

* * ويتناول الفكر الإسلامى هذه القضية بأكثر من قلم ، نكتفى بذكر ما قاله ابن تيمية فى (الجواب الصحيح جـ ١ص ١٩١/١٧٧) :

قال رحمه الله : المعنى فى قوله جل ثناؤه : ﴿ **إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه** ﴾ يعنى أن عيسى كان « بكن » ، وليس هو الكن ، ولكن بالكن كان ، فالكن من الله قوله ، وليس الكن مخلوقاً .. قال قتادة : ليس الكلمة صار عيسى ، ولكن بالكلمة صار عيسى .

وقولهم إنه إله بلاهوته ، ورسول بناسوته ، كلام باطل من وجوه :

منها : أن الذى كان يكلم الناس ، إما أن يكون هو الله ، أو هو رسول الله ، فإن كان هو الله بطل كونه رسول الله ، وإن كان هو رسول الله بطل كونه هو الله .

إنه من المعلوم أن الناس كانوا يسمعون من المسيح كلاماً بصوته المعروف ، وصوته لم يختلف عليهم ، ولا حاله عند الكلام تغيرت ، كما يختلف الإنسان وحاله إذا دخل فيه الجنى ، وإذا فارقه الجنى ، فإن الجنى ـ إذا تكلم على لسان المصروع ظهر الفرق بين ذلك المصروع وبين غيره من الناس ، بل اختلف حال المصروع وحال كلامه ، وسمع منه من الكلام ما يعلم يقيناً أنه لا يعرفه ، وغاب عقله ، بحيث يظهر ذلك للحاضرين ، واختلف صوته ونغمته ، فكيف بمن يكون رب العالمين هو الحالُّ فيه ، المتحّد به ، المتكلم بكلامه ، فإنه لابد أن يكون بين كلامه وصوته ، وكلام سائر البشر وصوتهم ، من الفرق أعظم من الفرق الذى بين المصروع وغير المصروع ، بما لا نسبة بينهما .

وأما المسيح فلم يكن بين كلامه وصوته ، طول عمره ، وكلام سائر الناس ـ فرق يدل على أنه نبى ، فضلاً عن أن يدل على أنه إله ، وإنما علم أنه نبى بأدلة منفصلة ، ولم يكن حاله يختلف ، مع أنهم يقولون إن الاتحاد ملازم له ، من حيث خلق ناسوته فى بطن أمه مريم ، وإلى الأبد ، لا يفارق اللاهوت ذلك الناسوت أبداً .

وحينئذ ، فمن المعلوم أن خطابه للناس إن كان خطاب رب العالمين لم يكن هـــو رسوله ، وإن كان خطاب رسوله لم يكن ذلك صوت رب العالمين .

ومنها : أن مصير الشيئين شيئاً واحداً مع بقائهما على حالهما ، بدون الاستحالة والاختلاط ، ممتنع فى صريح العقل ، وإنما المعقول مع الاتحاد أن يستحيلا ويختلطا ، كالماء مع الخمر واللبن ، ويكون الإله هو الرسول والرسول هو الإله .

* ويقول ابن تيمية (ص ٢٦٤/٢٦٥) : يذكرون فى (الأمانة) أن المسيح تجسد من مريم ومن روح القدس ، وهذا يوافق ما أخبر الله به من أنه أرسل روحـــه الذى هو جبريل ، وهو روح القدس، فنفخ فى مريم ، فحملت بالمسيح ، فكان المسيح متجسداً مخلوقاً من أمه من ذلك الروح ، وهذا الروح ليس صفة الله ، لا حياته ، ولا غيرها ، بل روح القدس قد جاء ذكره كثيراً فى كلام الأنبياء ، ويراد به إما الملك ، وإما ما يجعله الله

في قلوب أنبيائه وأوليائه من الهدى والتأييد ، ونحو ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه** ﴾ [المجادلة ٢٢] وقال تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا** ﴾ [الشورى٥٢] ـ وقال تعالى : ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده** ﴾ [النحل٢] ـ وقال تعالى : ﴿ **يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق** ﴾ [غافر ١٥] ـ فسمى الملك روحاً ، وسمى ما ينزل به الملك روحاً ، وهما متلازمان ، والمسيح عليه السلام مؤيد بهذا وهذا .

ويعلل ابن قيم الجوزية في كتابه : (هداية الحيارى ص ٢١٤) هـذا التحول ، فيقول :

رأوا اليهود قد قالوا في المسيح إنه ساحر مجنونٌ ممخرق ولد زنية ، فقالوا: هو إله تام ، وهو ابن الله . ورأوا اليهود يختنون فتركوا الختان .. ورأوهم يبالغون في الطهارة فتركوها جملة .. ورأوهم يتجنبون مؤاكلة الحائض وملامستها ومخالطتها جملة فجامعوها ، ورأوهم يحرمون الخنزير فأباحوه ، وجعلوه شعار دينهم ، ورأوهم يحرمون كثيراً من الذبائح والحيوان فأباحوا ما دون الفيل إلى البعوضة ، وقالوا : كل ما شئت ودع ما شئت ، لا حرج ورأوهم يستقبلون بيت المقدس في الصلاة فاستقبلوا الشرق ، ورأوهم يحرمون على الله نسخ شريعة شرعها فجوزوا هم لأساقفتهم وبطارقتهم أن ينسخوا ما شاءوا ويحللوا ما شاءوا ، ويحرموا ما شاءوا ، ورأوهم يحرمون السبت ويحفظونه ، فحرموا هم الأحد وأحلوا السبت ، مع إقرارهم بأن المسيح كان يعظم السبت ويحفظه .. ورأوهم ينفرون من الصليب ، فإن في التوراة (ملعون من تعلق بالصليب) تثنية صح ٢١ ـ والنصارى تقر بهذا فعبدوا هم الصليب هذا مع إقرار النصارى بأن المسيح قال لأصحابه : (إنما جئتكم لأعمل بالتوراة ووصايا الأنبياء قبلى) ـ متى صح ٥ ـ فذهبت النصارى تنقضها شريعة شريعة في مكايدة اليهود ومغايظتهم .

* ويورد أحمد ديدات في (عتاد الجهاد ص ٢٩/٢٨) نصاً عن (لوقا صح ١) يقول : (فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور ، فقال له ملاك الرب : لا تخف يا زكريا ، لأن طلبتك قد سمعت ، وامرأتك أليصابات ستلد لك ابناً وتسميه يوحنا ، ويكون لك فرح وابتهاج ، وكثيرون سيفرحون بولادته ، لأنه يكون عظيماً أمام

الرب ، وخمراً ومسكراً لايشرب ، ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس) .

بشرى بميلاد يحيى عن طريق ملاك ، رسول من الله ، وهى هى نفس البشرى التى بشر بها الملاك ، رسول الله ، العذراء مريم .

اليصابات كانت عاقراً ، وكانت عجوزاً ، وكان زوجها عجوزاً ، وهن العظم منه ، واشتعل الرأس شيباً ، وأمر ولادتها مرده إلى البشرى ، كلمة الله وحدها ، كذلك الشأن مع سارة (ساراى) زوج إبراهيم ، وهو هو ما حدث مع العذراء مريم .

ويتساءل ديدات : هل (روح القدس) الذى استمده يوحنا المعمدان (من بطن أمه)، وخوله أن يقوم بتعميد عيسى ، عندما بلغ عيسى الثلاثين من عمره ، هو هو ذات (روح القدس) الذى امتلأت به أليصابات ، هل هو هو ذات (روح القدس) الذى كان قد امتلأ به زكريا عليه السلام كما يقول (لوقا صح ١) : (وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس) ؟ وهل هو هو ذات (روح القدس) الذى أضفاه المسيح على الحواريين (وقال لهم اقبلوا الروح القدس) ـ يوحنا صح ٢٠ ـ وهل هو هو (روح القدس) الذى حذر المسيح من التجديف عليه بقوله : (من جدّف على الروح القدس فليس له مغفرة إلى الأبد بل هو مستوجب دينونة أبدية) ـ مرقس صح ٣ .

* * *

(د) التثليث ..

يقول هـ . جـ . ويلز في (معالم التاريخ الإنسانية ص ٦٩٢) : ليس هناك من دليل واضح على أن حواريي المسيح اعتنقوا مبدأ التثليث .

لكن ، ما لبث أن نحا المسيحيون نحو اليهود في المنفى ، فأخذوا عن الثقافات التي اتصلوا بها ، وصنعوا عقائد وتشريعات وتقاليد .

كان البراهمة ـ كما قال الدكتور وصفي في (المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام ص ٣٦) ـ يطلقون على التثليث اسم (ترى مورتى) ، أي الهيئات الثلاث ، أو الأقانيم الثلاثة ، وهي : (براهما وفشنو وسيفا) ، ويقولون : إن هذه الأقانيم الثلاثة إله واحد ، ويرمزون إليها بالرمز (أوم) ، الألف والواو والميم ، وهو رمز يقدسونه ، كما يقدس المسيحيون الصليب .

و (براهما) هو (الأب) الممثل لمبادئ التكوين والخلق .

و (فشنو) هو (الابن) الممثل لمبادئ الحماية والحفظ ، وهو المنفك والمنقلب عن الحال اللاهوتية .

و (سيفا) هو (روح القدس) المبدئ والمهلك ، المبيد والمعيد ، ويرمزون له ـ كالمسيحيين ـ بصورة الحمامة .

ويسمون فشنو (كرشنا) ، ويقولون : إنه ولد من العذراء الطاهرة العفيفة (ديفاكي) ، والدة الإله ، ويقولون: إن الإله تجسد ليخلص العالم من الخطايا اللاحقة به ، والآثام التي تدخله الجحيم .

فلم هذه التمثيلية ، وكان يكفي أن يبسط الله رحمته للجميع ؟.

وليثبت الدكتور وصفي أن المسيحية أخذت التثليث عن البرهمية ، يقارن بين ما نسب إلى كرشنا وما قال النصارى في المسيح (المصدر نفسه ص ١٣٧/١٣٨) :

١ ـ لما مات كرشنا حدثت مصائب وعلامات شر عظيم ، وأحاطت بالقمر هالة سوداء ، وأظلمت الشمس في وسط النهار ، وأمطرت السماء ناراً ورماداً ، وتأججت أشعة نار حامية ، وصار الشياطين يفسدون في الأرض ، وشاهد الناس ألوفاً من الأرواح في جو

السماء يتحاربون صباح مساء ، وكان ظهورها فى كل مكان .

= لما مات يسوع حدثت مصائب جمة متنوعة ، وانشق حجاب الهيكل من فوق إلى تحت ، وأظلمت الشمس من الساعة السادسة إلى التاسعة ، وفتحت القبور ، وقام كثيرون من القديسين ، وخرجوا من قبورهم .

٢ ـ وثقب جنب كرشنا بحربة .

= وثقب جنب يسوع بحربة .

٣ ـ وقال كرشنا للصياد الذى رماه بالنبلة وهو مصلوب : اذهب أيها الصياد محفوفاً برحمتى إلى السماء مسكن الآلهة .

= وقال يسوع لأحد اللصين اللذين صلبا معه : الحق أقول لك ، إنك اليوم تكون معى فى الفردوس .

٤ ـ ومات كرشنا ثم قام من بين الأموات .

= ومات يسوع ثم قام من بين الأموات

٥ ـ ونزل كرشنا إلى الجحيم .

= ونزل يسوع إلى الجحيم .

٦ ـ وصعد كرشنا بجسده إلى السماء ، وكثيرون شاهدوه صاعداً .

= وصعد يسوع بجسده إلى السماء ، وكثيرون شاهدوه صاعداً .

٧ ـ ويدين كرشنا الأموات فى اليوم الآخر .

= ويدين يسوع الأموات فى اليوم الآخر .

٨ ـ كرشنا الألف والياء ، هو الأول والوسط وآخر كل شىء .

= يسوع الألف والياء ، هو الأول والوسط وآخر كل شىء .

٩ ـ فى حضور أرجونا بُدلت هيئة كرشنا ، وأضاء وجهه كالشمس ، ومجد العلىّ .

اجتمع إلى الآلهة ، فأحنى أرجونا رأسه تذللاً ومهابة ، وتكتف تواضعاً ، وقال باحترام : الآن رأيت حقيقتك كما أنت ، وإنى أرجو رحمتك يارب الأرباب ، فعد واظهر علىّ فى ناسوتك ، أنت المحيط بالملكوت .

= وبعد ستة أيام ، أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه ، وصعد بهم إلى جبل عال ، منفردين ، وتغيرت هيئته قدامهم ، وأضاء وجهه كالشمس ، وصارت ثيابه بيضاء كالثلج ... وفيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم ، وصوت من السحابة قائل: هذا هو ابنى الحبيب الذى سررت له ، اسمعوا ، ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم ، وخافوا جداً .

١٠ ـ وغسل أرجل البرهميين ، وهو الكاهن العظيم براهما ، وهو العزيز القادر ، ظهر لنا بالناسوت .

= وغسل أرجل التلاميذ ، وهو الكاهن العظيم القادر ، ظهر لنا بالناسوت .

وعبارة (يوحنا صح ١٣) تقول : (قام عن العشاء ، وخلع ثيابه ، وأخذ منشفة واتزر بها ، ثم صب ماء فى مغسل ، وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ، ويمسحها بالمنشفة التى كان متزراً بها) .

أى أنه تجرد من الثياب ، وهو يقوم بهذه المهمة التى لا مبرر لها !!.

* والتثليث لم يقتصر على البرهمية ، فبوذا إله ذو أقانيم ثلاثة ، ويسمونه (فو) ، ويرمزون له كالهندوس باللفظ (أوم) ، الألف والواو والميم ، ويقولون إنه ولد من العذراء (مايا) ، وإنه ظهر فى الأرض بالناسوت لينقذ العالم من خطاياه .

وأورد الدكتور وصفى (المصدر السابق ص ١٤٢/١٤٠) عبارات (تاريخية) متشابهة لكل من بوذا والمسيح .

وقبل الميلاد بسبعمائة عام دخل مصر برهمى يسمى (مانس) ونقل الثالوث البرهمى معه فى صورة آمون (الآب) وكونس (الابن) ، وموث (الأم) .

وكان الفرس يؤمنون بأن أورمزد هو الخالق ، ومثراس هو ابن الله ، والمخلص، والوسيط، وأهرمان هو المهلك والمبيد ، صورة من الأسطورة المصرية أوزوريس وحورس وست .

وانتقلت هذه الأفكار مجتازة أوروبا ، لتصل إلى الدول الإسكندنافية ، فإذا أودين هو (الآب) ، وتورا هو (الابن) ، وفرى ، مانح البركة والنسل والسلام .

إن للأساطير سحرها ، إذا لم يبطل هذا (السحر) عقل رشيد، وإدراك واع ، وقلب بصير .

* يقول صاحب الملل والنحل (على هامش الفصل جـ ٢ص ٦٨/٦٧) :

أجمع أصحاب التثليث كلهم على أن القديم لا يجوز أن يتحد بالمحدث ، إلا أن الأقنوم الذى هو (الكلمة) اتحدت دون سائر الأقانيم .

وأجمعوا على أن المسيح عليه السلام ولد من مريم عليها السلام ، وقتل وصلب ، ثم اختلفوا فى كيفية ذلك .

والملكانية واليعقوبية قالتا إن الذى ولدت مريم هو الإله ، إذ إن الملكانية اعتقدت أن المسيح ناسوت كلى أزلى ، ومريم إنسان جزئى ، والجزئى لا يلد الكلى ، وإنما ولده الأقنوم القديم ، واليعقوبية لما اعتقدت أن المسيح جوهر من جوهرين ، وهو إله ، وهو المولود ، قالوا : إن مريم ولدت إلهاً .

وكذلك قالوا فى (القتل) إنه وقع على الجوهر الذى هو من جوهرين ، قالوا : ولو وقع على أحدهما لبطل الاتحاد .

وزعم بعضهم أنا نثبت وجهين للجوهر القديم ، فالمسيح قديم من وجه ، محدث من وجه.

وزعم قوم من اليعقوبية أن الكلمة لم تأخذ من مريم شيئاً ، لكنها مرت بها كالماء فى الميزاب ، وما ظهر من شخص السيد المسيح عليه السلام فى الأعين هو كالخيال والصورة فى المرآة ، وإلا فما كان جسماً متجسماً كثيفاً فى الحقيقة ، وكذلك القتل والصلب إنما وقع على الخيال والحسبان .

وزعم آريوس أن الله واحد ، سماه أباً ، وأن المسيح كلمة الله وابنه ، على طريق الاصطفاء وهو مخلوق قبل خلق العالم ، وهو خالق الأشياء .

وزعم أن لله تعالى روحاً مخلوقة أكبر من سائر الأرواح ، وأنها واسطة بين الأب والابن، تؤدى إليه الوحى .

وزعم أن المسيح ابتدأ جوهراً لطيفاً روحانياً خالصاً غير مركب ، ولا ممزوج بشىء من الطبائع ، وإنما تدرع بالطبائع الأربعة عند الاتحاد بالجسم المأخوذ من مريم .

والنساطرة ذهبوا إلى أن مريم العذراء لم تلد الإله ، بل ولدت الإنسان فقط ، ثم اتحد ذلك الإنسان بعد ولادته بالأقنوم الثانى اتحاداً مجازياً ، لأن الإله وهبه المحبة والنعمة ، فصار بمنزلة ابن الله .

وعقد مجمع إفسوس الأول سنة ٤٣١ ، وقرر لعن (نسطور) وطرده ، وكان بطريرك القسطنطينية منذ سنة ٤٢٨ .

غير أن النسطوريين انحازوا بعد ذلك إلى الرأى القائل بامتزاج اللاهوت بالناسوت ، وأصبحوا متفقين مع الكنيسة الكاثوليكية ، ويقيم معظمهم الآن فى موصل العراق .

* وهذا الاختلاف بين (الكنائس) أسسته المجامع المسكونية التى كانت تدار إدارة سياسية ، ويتدخل فيها الأباطرة والولاة المحليون لصالح فريق دون آخر ، وما إن ينتهى (مجمع) إلا بطرد فريق ولعنه ونفيه ، حتى انتهى الأمر إلى أن صار الجميع مطرودين ملعونين .

ولو أن القوم حكموا عقولهم لا مناصبهم ، لأدركوا أن مرد هذه الخلافات إلى (التثليث) الذى هو دخيل على رسالة السيد المسيح ، كما أنه مناف للعقل كل المنافاة .

يقول الدكتور وصفى (المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام ص ١١٣/١٠٧) :

على اعتبار التقسيم المذكور يكون لكل أقنوم وظيفة خاصة به ، وصفة تلازمه ، لا يتصف بها غيره ، ولا يكون لأيهم صفة الألوهية منفرداً بل يكون كل منهم ناقصاً ، حتى ينضم إلى غيره ، والتركيب فى ذات الله محال ، لأن المركب يحتاج إلى كل جزء من أجزائه ، فيكون حادثاً .

ثم ما دام (الآب) هو مكون الكائنات ، والابن هو المخلص ، والروح القدس هو معطى الحياة ، فيكون الآب عاجزاً عن التخليص ، وعن إعطاء الحياة ، ويكون المخلص عاجزاً عن تكوين الكائنات وإعطائها الحياة ، ويكون الروح القدس عاجزاً عن تكوين الكائنات وتخليصها ... وأن يتكون الله تعالى من أقانيم عاجزة لهو عين الوهم والمحال .

ولو فرضنا أن عقيدة التثليث هى مدار النجاة ، فكيف خفى ذلك على الأنبياء والرسل من قبل؟!.

وما جدوى أن يقول عيسى لإبليس: (لأنه مكتوب : للرب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد) ؟!.

لقد روى مرقس (صح ١٢) أن عيسى كان يعلم اليهود ، فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون ، فلما رأى أنه أجابهم حسناً ، سأله : أية وصية هى أول الكلمة ، فأجاب يسوع : (إن أول الوصايا هى : اسمع ! يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد ، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل فكرك ، ومن كل قدرتك ، هذه

هى الوصية الأولى) ، فقال له الكاتب : (جيداً يا معلم ، بالحق قلت ، لأنه الله واحد وليس آخر سواه) ، فلما رآه يسوع أجاب بعقل ، قال : (لست بعيداً عن ملكوت الله) .

لم قال المسيح : (الرب إلهنا رب واحد) ، ولم يقل : (أنا إلهكم رب واحد ، وثلاثة أقانيم) ؟ .

جاء فى (الأعمال صح ٢) : (ولما حضر يوم الخمسين ، كان الجميع بنفس واحدة ، وصار بغتة من السماء صوت ، كما من هبوب ريح عاصفة ، وملأ كل البيت ، حيث كانوا جالسين ، وظهر لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار ، واستقرت فى كل واحد منهم ، وامتلأ الجميع من الروح القدس ، وابتدءوا يتكلمون بألسنة أخرى ، كما أعطاهم الروح أن ينطقوا) .

حسب دعوى أن الثلاثة فى واحد ، تكون هذه الألسنة المقسمة هى الآب والابن والروح القدس ، فهل حلت أقانيم الآب والابن والروح القدس فى التلاميذ سواء بسواء ، من حيث بشريتهم المحضة ، ومن حيث حلول الروح فيهم جميعاً ؟

* يقول تقرير قام بطبعه ونشره مؤتمر الكنائس العالمى (مناظرة العصر لديدات ص ٦٢/٦٥) : إن الآب (The father) إله ، وإن الابن (The son) إله ، وإن الروح القدس (The Holy Spirit) إله ، ولكنهم ليسوا ثلاثة آلهة ، بل هم إله واحد (One God) ، والآب قادر (Almighty) والابن قادر ، وروح القدس قادر ، ولكنهم ليسوا ثلاثة قادرين ، بل هم قادر واحد (One Almighty) ولو قلنا إنها تسميات لشىء واحد ، لقالوا : كلا إن كلاً منها مختلف ، ومتمايز عن الآخر : (Adiffernt Persons).

إن المسيحيين يقولون : باسم الآب والابن والروح القدس ، ومن الكفر والتجديف على الله فى نظر المسيحيين أن يقول أحد : باسم الروح القدس والآب والابن ، أو باسم الابن والآب والروح القدس ، ذلك لأنهم يرون أن المسيح هو الأقنوم الثانى من أقانيم التثليث ، والإخلال بترتيب الأقانيم كفر .

وقال ديدات فى مناظرته باستكهولم (ص ١٦٣/١٦٥) : لو كنتم ثلاثة أشخاص ، وزعمتم أنكم شخص واحد، وقتل أحدكم نفساً بغير حق ، هل نشنق الآخرين ؟.

إن لكل واحد شخصيته فى الذهن ، للآب صورة ذهنية ، وللابن صورة ذهنية ، ولروح القدس تصور ذهنى ، وعندما تقولون (باسم الآب) يكون عنـــدكم تصور ذهنى

معين للآب ، قد تتصورونه شيخاً أبيض اللحيـة في أعيـاد الميلاد ، وعندما تقولون (باسم الابن) يكون عندكم تصور ذهني معين للابن ، وأنتم ترسمونه في لوحاتكم شاباً وسيماً ، هو في نظركم ملك الملوك ، عيناه لونهما أزرق ، شعره لونه أصفر ، له أنف متميز كأنف اليهود ، حول رأسه هالة من النور مرسومة في الهواء ، هل قال الإنجيل ذلك ؟ من أين حصلتم على هذا التصور ؟.

إن علماء المسيحية أنفسهم قد أزالوا شعار التثليث هذا من الجملة السابعة من الإصحاح الخامس من رسالة يوحنا الأولى التي كانت تقول : (فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة : الآب والكلمة والروح القدس ، وهؤلاء الثلاثة هم واحد) .

وقال علماء المسيحية إن هذه العبارة إنما هي تزييف أدخل على الإنجيل ، وليست موجودة بأية أصول قديمة للإنجيل .

حذفوها ، لأنها كانت من صياغة بعض رجال الدين القساوسة (Pasters) في القرن السادس الميلادي ، لقد كانوا يكتبونها كملاحظة بالهامش ، وعند طباعة الإنجيل دخلت في السياق [1] .

* * *

(١) لكن قانون الإيمان أو الأمانة الذى صدر عن مجمع نيقيه سنة ٣٢٥ أقر هذا التعبير ، أو صاغه .

(هـ) الفـــداء ..

قال ماكس مولر فى كتابه (الآداب السنسكريتية ص ٨٠) :

البوذيون يزعمون أن بوذا قال: (دعـــوا كل الآثام التى ارتكبت فى هذا العالم تقع على ، كى يخلص العالم).

وقال العلامة ولبمز فى كتابه : (ديانات اليهود ص ٢١٤) :

(الهنود تقول ، ومن رحمة بوذا تركه الفردوس ، ومجيئه إلى الدنيا ، من أجل خطايا بنى الإنسان ، وشقائهم ، كى يبررهم من ذنوبهم ، ويزيل عنهم العقاب الذى يستحقونه).

وقال مورى فى كتابه : (الخرافات ص ٣٨٤) :

(يحترم المصريون أوزيريس ، ويعدونه أعظم مثال لتقديم النفس ذبيحة ، لينال الناس الحياة) .

وقالت مسز هجسون فى كتابها (تاريخ سيدنا من الآثار) :

(كان المليتيون يمثلون الإلـه إنساناً مصلوباً مقيد اليدين والرجلين بحبـل على خشبة ، وتحت رجليه صورة حمَل ، والسوريون يقولون : إن تموز الإله المولود البكر من عذراء، تألم من أجل الناس ، ويدعونه المخلّص ، والفادى المصلوب ، وكانوا يحتفلون فى يوم مخصوص فى السنة تذكاراً لموته ، فيصنعون صنماً على أنه هو ، يضعونه على فراش وينـدبونه والكهنة ترتل قائلة : ثقـوا بربكم ، فإن الآلام التى قاسـاها قد جلبت لنـا الخلاص) .

ويقول العلامة دوان : (كان الوثنيون يدعون بروميثيوس مخلصاً ، كما يدعونه أيضاً الإله الحى ، صديق البشر ، المقدم نفسه ذبيحة لخلاص الناس) (١) .

هذه صورة من (الخرافة) التى نمت فى أرضها المسيحية ، وجاء الكهان فاستعانوا بها ، من أجل الاستئثار بمكانة فى نفوس الناس ، ومن أجل الاستيلاء على أموالهم .

إن من جعل من عيسى مخلصاً اتخذ من صكوك الغفران ومن الاعتراف ومن

---

(١) هذه النقول عن كتاب (المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام) ص ١٥٨/١٥٧ .

الأفخارستيا وسائل لتحقيق أهداف دنيوية دنيئة .

إن العهد القديم يقول : (لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل) ـ تثنية صح ٢٤ .

ويقول : (النفس التي تخطئ هي تموت ، الابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن ، برّ البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون) ـ حزقيال صح ١٨ .

والعهد الجديد يقول : (سيجازى كل واحد حسب أعماله) ـ رسالة إلى أهل رومية صح ٢ .

ومع هذا جاء بولس ويوحنا والمجامع المسكونية ، فنسجوا حول (دعوى) الصلب ما وجدوه من أساطير كانت تتحرك قريباً منهم ، دون أن يقدروا أثر هذه الأساطير على صدق العقيدة وجلالها .

لقد كان من البدهيات أن يسأل المرء نفسه : إذا كانت معصية آدم أوجبت تضحية الله ، بتجسده وتحمله أقسى المعاناة ، فكيف بالفواحش والمنكرات التى نسبوها إلى الأنبياء والرسل ؟!.

لكن من غلب عليهم الوهم ، واستخفتهم الأسطورة قالوا : إن فى خطيئة آدم من القبح والفحش ما أوجب اللعنة الإلهية عليه وعلى سائر نسله من بعده ، ومن جملتهم الأنبياء والمرسلون.

إذا كان الأمر كذلك ، واقتضى أن يتجسد الله وينزل إلى الأرض ليكفر عن خطيئة آدم ، فلماذا لم يفعل ذلك منذ أخطأ آدم ؟ وما ذنب الذين أخطئوا قبل أن يأتى المسيح حتى لا تغفر خطاياهم ؟ وما شأن الذين يرتكبون الفواحش بعد صلب المسيح ؟.

إذا صح أن أنبياءً ورسلاً سبقوا ظهور المسيح ، وأخطئوا أخطاء تجاوزت (معصية) آدم ، فكيف صح اختيارهم لحمل رسالة الله إلى الناس ، ونزول روح القدس عليهم بوحى من الله ؟

وإذا صح أن الإنسان أخطأ لأنه ورث المعصية من آدم ، فما الداعى إلى أن يتجسد الله ويتعذب ويهان ويشتم ويشاك ويتفل عليه ويتهكم به ويضرب ويصلب ويقتل قتلة الأشرار ؟ أما كان يكفى أن يصدر عفواً عاماً ، وإن تأخر مئات الآلاف من السنين ؟.

ثم ما هي (معصية آدم) ؟ أهي تناوله من شجرة (المعرفة) ؟ أليست المعرفة سلّماً إلى الله ؟ وهل حرمت المعرفة في تاريخ البشرية إلا في زمن الطغاة والمستبدين؟ أهي اقترانه بحواء وإنجابه منها ؟ ألم تخلق له حواء ؟ وإذا لم يكن الاقتران والإنجاب هدفاً فما حكمة خلقها ؟ ألم تخلق إناث أخريات لكل ذكور العالم ، وكلهن يؤدين وظيفة استمرار الجنس والبقاء ؟ ولو أن آدم وحواء لم يقوما بهذه الوظيفة ، فما علة خلق أداة التناسل عند الجنسين ، وما علة الإخصاب ، بل ما أهمية هذا الكون كله بدون الجنس البشرى الذى أنجبه آدم ؟ (هذا من وجهة نظر بشرية ، ومن دلالة آيات قرآنية تقول إن الله سخر للإنسان مخلوقاته في السماء والأرض ، الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والجبال والبحار والأنهار إلخ . إلخ) .

إن أسئلة كثيرة تثيرها هذه (الدعوى الباطلة) التى تم التقاطها من طريق الناقمين الكافرين .

ثم إن معصية آدم لا تساوى معصية الذين صلبوا ربهم الذى أتاهم ، وقبل أشد المعاناة من أجل خلاصهم .

يقول يوحنا صح ٢ : (وهو كفارة لخطايانا ، ليس لخطايانا فقط ، بل لخطايا كل العالم أيضاً) .

إذاً لا مبرر لتأخير ظهوره ، حتى امتلأت الأرض بأخطر الجرائم : فردية وجماعية ، ولا جدوى بعد ذلك من الحساب والعقاب والجنة والنار ، ومن الاعتراف وصكوك الغفران والتوبة والصلاح .

وإذا كان الإله سبحانه انتظر حتى تتضاعف خطايا الجنس البشرى فيغفرها جملة ، فإن جرائم ما قبل (الصلب) في التاريخ البشرى كله لا تقاس بما صنع الصليبيون والمغول والاستعماريون ومجرمو الحروب العالمية والإقليمية والقومية والحدودية !! .

وإذا كان المسيح المعلم قد نزل للفداء ، فما أهمية ما جاء به من آداب وتعاليم ، ما دام كل شيء قد دخل تحت مظلة الغفران ؟!.

* يقول الأستاذ عبد الحميد السحار في كتابه (أضواء على السيرة النبوية جـ ١ ص ٢١١/٢١) : كان لنظرية بولس أعمق الأثر في إلحاد من ألحدوا من مفكرى المسيحية وفلاسفتها ، فنظرية الخطيئة الموروثة لا تستقيم مع عدل الله الذى يقرره في كل دياناته السماوية .

فاضت كتب رجال الدين وآباء الكنيسة وبسكال وبوسويه وماسيون وغيرهم ـ من الناطقين باسم التقليد المسيحي ـ بفكرة أن الإنسان في نظر هؤلاء جميعاً مخلوق وضيع ، لا يملك أية طهارة ، ولا يتمتع بأية فضيلة ، ولا تنطوي نفسه على أية براءة .. إنه عند أصحاب نظرية الخطيئة الأولى (مخلوق ساقط بهيمي ، تعميه شهوته الدنيئة ، بحيث إنه لولا خـــوفه من نار جهنم ، أو لولا احترامه لسلطة المجتمع ، لأقدم على ارتكاب أدنى الموبقات ، وما تورع عن إتيان أحط الجرائم) .

ومع هذا تقول توراتهم : (نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا) ـ تكوين صح ١ .

قال نيتشه : (إن كان من شـأن فكرة الله أن تسقط ضـلال الخطيئة على براءة الأرض ، فإنه لابد للمؤمنين بالحس الأرضي أن يهوّوا بمعاولهم على تلك الفكرة) .

وقال : (طوبى لأتقياء القلب ، لأنهم لا يعاينون الله .. لقد صرنا بشراً ، ولهذا فإننا لا نريد إلا ملكوت الأرض ، إلى أين مضى الله ؟ سأقول لكم إلى أين مضى ، لقد قتلناه أنتم وأنا ، أجـل ، نحن الذين قتلناه ، نحن جميعاً قاتلوه ، ألا تشمون رائحـة العفن الإلهي ؟ إن الآلهة أيضاً تتعفن ، لقد مات الله ، وسيظل ميتاً) .

وردد سارتر عبارة نيتشه ، فقـال : (إن الله قد مات ، ولكن هذا لا يعني أنه غير موجود ، أو أنه لم يعد موجوداً ، بل إن الله قد مات بمعنى أنه كان يحدثنا في صمت ، فلم نعد نستطيع أن نلمس منه الآن إلا جثة هامدة ، إن الله قد مات ، ولكن هذا لا يعني ـ بطبيعة الحال ـ أن الإنسان قد أصبح ملحداً ، فإن صمت المتعالي ـ مضافاً إليه استمرار قيام الحاجة الدينية لدى الإنسان الحديث ـ إنما هو في صميمه مشكلة كبرى ، وهذه المشكلة التي ثارت بالأمس ، كـما تثور اليـــوم ، إنما هي المشكلة التي ما زالت تؤرق نيتشه وهيـــدجر ويسبرز) .

أرقت فكرة (الخطيئة الأولى) رجال الفكر ، مذ صنعها بولس ، فهي فكرة لا تدل إلا على ظلم الإله الذي ينبغي أن ينزه عن كل نقيصة ، وقد دارت حولها مناقشات على مر العصور ، حتى دفعت إلى القول إن الله مات .

لكن باستر استانلي شوبيرج السويدي يقول :كان يتعين على يسوع أن يموت ، لا لمجرد أن يعاني سكرات الموت ، ولا لكي يهزم ، ولكن لكي يقتحم أبواب مملكة الجحيم ، لكي ينفذ إلى الشيطان من خلالها ... وانهزم هذا الذي يطاردنا ، لكي ينتزع القوة من

بين يدى الشيطان ، ولكى يفتح سبل الحياة لكل أولئك الذين يؤمنون بيسوع المسيح ، لكى ينقذهم من الجحيم ، ويفتح لهم السماء عندما يذهبون إلى السماء) !! .

وهل فعل ؟ إن الباستر استانلى شهد حربين عالميتين قتل فيهما عشرات الملايين، وأصيب عشرات الملايين ، وحدث تخريب منشآت بآلاف الملايين ، بالإضافة إلى نفقات الحربين التى تصل إلى مئات آلاف الملايين ، بالإضافة إلى الجرائم الأخلاقية الفردية التى صحبت هذه الجرائم الجماعية .. ولو نظرنا إلى أكثر ضحايا هذه الحرب وإلى مجرميها نجدهم من أنصار السيد المسيح ، فهل هذا هو الإنقاذ من الجحيم ؟.

ولماذا يكون (الموت) سبيل الله إلى الجحيم ليهزم الشيطان ، أليس بدون الموت يكون أقدر على هزيمته ؟

* * عالج المفكرون الإسلاميون هذه القضية من واقع قوله تعالى : ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** ﴾[النساء ١٥٧] .

قال ابن تيمية فى (الجواب الصحيح ص ٢٢٥/٢٢١) : يزعمون أن آدم لما أكل من الشجرة غضب الرب عليه وعاقبه ، وأن تلك العقوبة بقيت فى ذريته ، إلى أن جاء المسيح وصلب ، وأنه كانت الذرية فى حبس الشيطان ، فمن مات منهم ذهبت روحه إلى جهنم فى حبس إبليس .

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام كان أبوه كافراً ، ولم يؤاخذه الله بذنب أبيه ، فكيف يؤاخذه بذنب آدم ، هذا إذا ثبت أن آدم لم يتب ، فكيف وقد أخبر الله عنه بالتوبة !!.

ثم يزعمون أن الصلب الذى هو من أعظم الذنوب والخطايا به خلص الله آدم وذريته من عـــذاب الجحيم ، وبه عاقب إبليس ، مع إن إبليس ما زال عاصياً لله ، مستحقاً للعقاب ، منـــذ امتنع عن السجود لآدم ، ووســوس له ، إلى حين مبعث المسيح ، والرب قادر على عقـــوبته .

إن من خلق بعد المسيح من الذرية كمن خلق قبله ، فكيف جاز تمكن إبليس من المتقدمين دون المتأخرين وكلهم من ذرية آدم ؟ وكيف جاز تمكن إبليس من عقوبة الأنبياء المتقدمين ولم يمكن من عقوبة الكفار والجبابرة بعد المسيح ؟.

هل عاقب إبليس بنى آدم وأدخلهم جهنم بإذن الله ، أو بغير إذنه ؟ إن قالوا بإذنه، فلا ذنب له ، ولا يستحق أن يحتال عليه ليعاقب ويمتنع ، وإن كان بغير إذنه ، فهل جاز فى

عدل الله أن يمكنه من ذلك أو لم يجز ؟ فإن جاز ذلك فى زمان جاز فى جميع الأزمنة ، وإن لم يجز فى زمان لم يجز فى جميع الأزمنة ، فلا فرق بين ما قبل المسيح وما بعده .

هل كان الله قادراً على منع إبليس وعقوبته بدون هذه الحيلة ، وكان ذلك عدلاً منه لو فعله أم لا ؟ فإن كان ذلك مقدوراً له ، وهو عدل منه ، لم يحتج أن يحتال على إبليس ، ولا يصلب نفسه أو ابنه .

ثم إن كان هذا العدل واجباً عليه وجب منع إبليس ، وإن لم يكن واجباً جاز تمكينه فى كل زمان ، فلا فرق بين زمان وزمان ، وإن قيل : لم يكن قادراً على منع إبليس ، فهو تعجيز للرب على منع إبليس ، وهذا من أعظم الكفر ، باتفاق أهل الملل.

إن ما فعله به الكفار اليهود الذين صلبوه كان طاعة لله ، أو معصية ؟ فإن كان طاعة لله استحق اليهود الذين صلبوه أن يثيبهم ويكرمهم على طاعته ، كما يثيب سائر المطيعين له ، والنصارى متفقون على أن أولئك من أعظم الناس إثماً ، وهم من شر الخلق ، وهم يستحلون من دمهم ولعنتهم ما لا يستحلونه من غيرهم ، بل يبالغون فى طلب اليهود . وإن كان أولئك اليهود عصاة لله ، فهل كان قادراً على منع إبليس من ظلم الذرية فى المستقبل أم لا ؟ فإن لم يكن قادراً على منعهم من المعاصى ، ولم بمنعهم، كان قادراً على منع إبليس بدون هذه الحيلة ، وإن كان حسناً منه تمكينهم من هذه المعصية ، كان حسناً منه تمكين إبليس من ظلم الذرية فى الماضى والمستقبل ، فلا حاجة فى الحيلة عليه .

* وقصة الصلب ـ (الجواب الصحيح ص ١٤) ـ موضع اشتباه ، وقد قام الدليل على أن المصلوب لم يكن هو المسيح عليه السلام : ﴿ **ولكن شُبِّهَ** ﴾ ، وهم ظنوا أنه المسيح والحواريون لم يروا المسيح مصلوباً ، بل أخبرهم بصلبه بعض من شهد ذلك من اليهود .

وبعض الناس يقـولون : إن أولئك تعمدوا الكذب ، وأكثر النـــاس يقولون : اشتبه عليهم ، ولهذا كان جمهور المسلمين يقولون فى قوله : ﴿ **ولكن شبه لهم** ﴾ عن أولئك ، ومن قال بالأول جعل الضمير فى ﴿ **شبه لهم** ﴾ عن السامعين لخبر أولئك ، فإذا جاز أن يغلطوا فى هذا ولم يكونوا معصومين فى نقله ، جاز أن يغلطوا فى بعض ما ينقلونه عنه ، وليس هذا مما يقدح فى رسالة المسيح ، ولا فى تواتر نقله عنه بأنه رسول الله الذى يجب اتباعه ، سواء صلب أو لم يصلب ، وماتواتر عنه فإنه يجب الإيمان به ، سواء صلب أو لم يصلب .

أما ابن حزم فيقول : (الفصل جـ ١ ص ٥٨/٥٩) ـ النصارى مقرون بأنهم لم

يقوموا على أخذه نهاراً خوف العامة ، وإنما أخذوه ليلاً ، عند افتراق الناس عن الفصح ، وأنه لم يبق في الخشبة إلا ست ساعات من النهار ، وأنه أنزل إثر ذلك ، وأنه لم يصلب إلا في مكان نازح عن المدينة ، في بستان فخار ، متملك للفخار ، ليس موضعاً معروفاً للصلب ، ولاموقوفاً لذلك ، وأنه بعد هذا كله رشّي الشُرط على أن يقولوا إن أصحابه سرقوه ، ففعلوا ذلك ، وأن مريم المجدلانية ـ وهي امرأة من العامة ـ لم تقدم على حضور موضع صلبه ، بل كانت واقفة على بعد تنظر ، هذا كله في نص الإنجيل عندهم ، فبطل أن يكون صلبه منقولاً بكافة ، بل بخبر يشهد ظاهره على أنه مكتوم متواطأ عليه ، وما كان الحواريون ليلتئذ ـ بنص الإنجيل ـ إلا خائفين على أنفسهم ، غيّباً عن ذلك المشهد ، هاربين بأرواحهم ، مستترين ، وأن شمعون الصفّا غرّر ودخل دار قيفان الكاهن أيضاً بضوء النهار ، فقال له : أنت من أصحابه ، فانتفى وجحد ، وخرج هارباً من الدار ، فبطل أن ينقل خبر صلبه أحد تطيب النفس عليه ، على أن تظن به الصدق ، فكيف أن ينقله كافة .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ولكن شبه لهم ﴾ إنما عنى تعالى أن أولئك الفساق الذين دبروا هذا الباطل ، وتواطئوا عليه ، هم شبهوا على من قلدهم ، فأخبروهم أنهم صلبوه وقتلوه ، وهم كاذبون في ذلك ، عالمون أنهم كذبة .

وقد شاهدنا نحن مثال ذلك ، وذلك أننا أنذرنا بالجبل لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر ، فرأيت أنا وغيرى نعشاً فيه شخص مكفن ، وقد شاهد غسله شيخان جليلان حكمان ، من حكام المسلمين ، ومن عدول القضاة في بيته ، وخارج البيت أبى يرحمه الله وجماعة من عظماء البلد ، ثم صلينا في ألوف من الناس عليه ، ثم لم يلبث إلا شهوراً نحو السبعة ، حتى ظهر حياً ، وبويع بعد ذلك بالخلافة ، ودخلت عليه أنا وغيرى ، وجلست بين يديه ، ورأيته ، وبقى ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام .

* لابد أن يوضع في الاعتبار أن هول الموقف يؤثر على الرؤية ، وعلى الكلمة المنقولة ، ولم يكن ثمة مؤرخون يتوخون صحة الرواية ، وظل الأمر عفوداً حتى كان تدوين أخبار الأناجيل ، مع أنها لم تقطع بأن عيسى صلب .

ومما يدل على أن المسيح لم يصلب ، أو لا دليل على أنه المصلوب ـ أن مريم المجدلية (التفتت إلى الوراء) فنظرت يسوع واقفاً ، ولم تعلم أنه يسوع ، فقال لها يسوع : يا امرأة ، لماذا تبكين ؟ من تطلبين ؟ فظنت تلك أنه البستاني ، فقالت له : يا سيد إن

كنت أنت قد حملته فقل لى أين وضعته ، وأنا آخذه) ـ يوحنا صح ٢٠ .

مريم المجدلية القريبة الصلة به تراه بعد الصلب (سوياً) ولم تعرفه ، لأن الأحداث التى أحاطت بعملية الصلب ملأت وجدانها وفكرها بفقده ، فصار كل همها أن تبحث عن قبره .

ويقول يوحنا صح ٧ : (وكان قوم منهم يريدون أن يمسكوه ، ولكن لم يلق أحد عليه الأيادى) ، أى أن عملية القبض عليه لم تتم أصلاً ، حتى يتوج بالشوك ويهان ويصلب .

ثم إن المصلوب أنكر أنه المسيح ، لقد سأل رئيس الكهنة المصلوب ، قبل تنفيذ الحكم ، (وقال له : أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا : هل أنت المسيح ابن الله ؟ فقال له يسوع : أنت قلت) ـ متى صح ٢٦ .

قوله (أنت قلت) إنكار لا شك فيه ، وما كان على المسيح أن ينكر ، وقد استحلف بالله ، ثم إن المسيح كان معروفاً للكهنة ، وكان له أستاذ من بينهم ، وقد واجههم أكثر من مرة ، فكيف كان جهله فى هذه الحالة ؟ وكيف جهله كل الذين حضروا مع رئيس الكهنة ، وقد كان يعظ الناس جهرة ، ويجتمع بالكهنة يحاورهم ، ويتحداهم ، ويحطم أدوات المرابين والعشارين والباعة فى مدخل بيت المقدس ؟.

وإذا كان (قيافا) رئيس الكهنة نبياً (يوحنا صح ١١) فكيف يهين النبى إلهاً ، ويلطمه ، ويسعى لصلبه ؟.

ثم إن (يهوذا) الذى زعم أنه وشى به ، ودل عليه ، وكان سبب صلبه ، إنما هو برىء من كل ما نسب إليه .

يقول الدكتور وصفى (المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام ص١٧١/١٧٢) : لقد كان يهوذا أحد الاثنى عشر تلميذاً الذين مدحهم المسيح أعظم مدح ، ووعدهم بالجلوس على كراسى العظمة والمجد ، فقد ذكر متى (١٩ : ٢٨) قول المسيح : (الحق أقول لكم : إنكم أنتم الذين تبعتمونى فى التجديد ، متى جلس ابن الإنسان على كرسى مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثنى عشر كرسياً ، تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر) .

وقال متى ـ بعد أن ذكر الاثنى عشر تلميذاً بأسمائهم ، ومنهم يهوذا ـ (هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً : إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ، وفيما أنتم

ذاهبون اكرزوا قائلين : إنه اقترب ملكوت السموات ، اشفوا مرضى ، طهروا برصا ، أقيموا موتى ، أخرجوا شياطين.. إلخ) متى صح ١٠ .

إن يهوذا هذا الذى أعطاه يسوع كل هذا السلطان كيف يموت مرتداً كافراً منافقاً ، لأنه خان المسيح وسلمه ؟ ألا يعد هذا جهلاً من المسيح بحوارييه ؟.

إن الذى روى حكاية تسليم يهوذا المسيح ، حسب أن يهوذا أسلمه حقيقة ، فرواها حسب ظنه ، ولم يدر أن يهوذا غسل المسيح رجليه مع باقى التلاميذ ، وقال : (الذى قد اغتسل ليس له حاجة إلى غسل رجليه ، بل هو طاهركله) ــ يوحنا صح ١٣ .

لكن بقية العبارة (وأنتم طاهرون ، ولكن ليس كلكم ، لأنه عرف مسلمه ، لذلك قال : لستم كلكم طاهرين) .

وهذه العبارة تحتمل على الظن ــ كما قال الدكتور وصفى ــ لأن إنجيل يوحنا دوّن بعد ذلك بزمن طويل ، ثم إن يوحنا صاحب الإنجيل ليس من شهود السيد المسيح ، وقد نقل عن يوحنا بن زبدى رجل لا يعرف القراءة والكتابة ، وكثيرون من النقاد المسيحيين يشككون فى صحة رواية إنجيل يوحنا .

* * وهكذا (تعمدت المسيحية الرسمية « البولسية » ــ كما يقول ويلز فى معالم التاريخ الإنسانية مج ٣ ص ٨٥٣ ــ أن تسدل منذ أمد بعيد ستاراً كثيفاً على تلك التعاليم العجيبة الرائعة ، تعاليم يسوع الناصرى التى منها انبعثت ، كما أنهـا روّضت نفسها على تجاهلها) .

(وحين تشبثت الكنيسة الكاثوليكية بملكيتها للقب الحبر الأعظم Pontifex Maximus) تخلت عن واجبها الذى خلقت من أجله ، أعنى بلوغ مملكة السماء ، إذكانت مشغولة بإحياء عزة الرومان على الأرض متصورة أنها تراثها التليد) .

(لقد أصبحت **هيئة سياسية** ، تستغل إيمان بسطاء الناس وحاجاتهم ، للمضى قدماً بمشروعاتها وخططها ، وتشبثت بتقاليد الإمبراطورية الرومانية وبفكرة أنها هى الطريق الطبيعى لوحدة أوربا) .

وفى هذا الطريق اصطنعت صلاة وصوماً ، وعيداً بعد عيد ، وحجاً بعد حج .

يقول ابن تيمية فى (الجواب الصحيح جـ ١ ص ١٢٨) : فلبست الصلوات التى يصلونها منقولة عن المسيح عليه السلام ، ولا الصوم الذى يصومونه منقولاً عن المسيح ، بل

جعل أولهم الصوم أربعين يوماً ، ثم زادوا فيه عشرة أيام ، ونقلوه إلى الربيع ، وليس هذا منقولاً عندهم عن المسيح عليه السلام ، وكذلك حجهم لقمامة ، وبيت لحم ، وكنيسة صيدنايا ، ليس شيء من ذلك منقـــولاً عن المسيح عليه السلام ، بل وكذلك عامة أعيادهم ، مثل عيد القلندس، وعيـــد الميلاد ، وعيد الغطاس ـ وهو القداس ـ وعيد الخميس ، وعيد الصليب الذى جعلوه فى وقت ظهور الصليب ، لما أظهرته هيلانة الحرانية الفندقانية أم قسطنطين ، بعد المسيح عليه السلام بمائتين من السنين ، وغير ذلك من أعيادهم التى رتبوها على أحوال المسيح والأعياد التى ابتدعوها لكبرائهم ، فإن ذلك كله من بدعهم التى ابتدعوها بلا كتاب نزل من الله تعالى) .

* * *

(و) ومن مظاهـــر التحول ..

(أ) قالوا إن الأب سينسيوس (Senesius) أسقف بطوليمايس الذى درس علوم الرياضـة والفلسفة فى الإسكندرية على هيباشيا ، ثم زار أثينـه ، وفيها قويت عقيـدته الوثنية ، ثم تزوج بامرأة مسيحية سنة ٤٠٣ ، واعتنق على أثر ذلك الدين المسيحى ـ وجد أن من المجاملة (اللائقة) لزوجته أن يحول ثالوث الأفلاطونية الحديثة المكون من الواحد ، والفكر ، والنفس ، إلى الآب ، والروح ، والابن ـ قصـة الحضـارة مج ٤ جـ ١ ص ١٢٦/١٢٥ .

(ب) فى قداس العشاء الأخير استحال الخبز والخمر اللذان كانا يعدان فى الطقوس القديمة هدايا توضع على المذبح ، أمام الإله ، بفضل تدشين القساوسة له ، إلى جسم المسيح ودمه ، وأصبحا يقدمان لله، بوصفهما تكراراً لتضحية يسوع بنفسه على خشبة الصليب ، ويلى هذا موكب مؤثر رهيب ، يشترك فيه العابدون فى حياة منقذهم ومادته نفسيهما .

وكانت هذه فكرة خلع عليها طول الزمن قداسة ، فلم يكن العقل الوثنى فى حاجة إلى شىء من التدريب لاستقبالها وإدماجها فى (طقوس القدامى الخفية) ، وبها أصبحت المسيحية آخر الأديان الغامضة وأعظمها .

وكان (منح البركة) للخبز والخمر أحد الأسرار السبعة المسيحية المقدسة، وهى الطقوس التى يعتقد الناس أنهم ينالون بهـا البركة الإلهيـة ، بنفس القدر الذى يحصـل به عابدو (مثراس) ـ فى أثناء الطقوس الخفية ـ على (البركة)من الخبز والماء المقدسين .

(جـ) على نسق ما كان فى عبادة ديونيشس وأتيس ومثراس ، كان المسيحيون الأولون يجتمعون كثيراً فى عيد الحب (Apape) ، ويكون ذلك عادة مساء أحد السبوت ، وكان العشاء يبدأ وينتهى بالصلاة . وقراءة بعض فقرات من الكتاب المقدس ، وكان القس يبارك الخبز والخمر ، ليصيرا لحم المسيح ودمه ، وفى آخر المراسم تكون (قبلة الحب) بين الرجال ، أو بين النساء ، ثم حدثت مشاركة بين الرجال والنساء ، مما حدا بترتليان وغيره إلى التنديد بهذه العادة التى توصل إلى الإباحة الجنسية .

(د) أصدر بولس أمراً صارماً يقول : (لتصمت نساؤكم فى الكنائس ، لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن ، ولكن إذا كن يردن أن يتعلمن شيئا فليسألن رجالهن فى البيت ، لأنه قبيح بالنساء أن تتكلمن فى كنيسة) .

(إن الرجل لا يبغى أن يغطى رأسه ، لكونه صورة الله ومجده ، وأما المرأة فهى مجد الرجل ، لأن الرجل ليس من المرأة ، بل المرأة من الرجل ، ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة ، بل المرأة من أجل الرجل ، ولهذا يتبغى للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة) .

وقد علق ول ديورانت على هذا القول بأن هــذه نظرة يهودية يونانيــة ، لا رومانية ، (ولعلها كانت ثورة على الإباحيــة التي انزلقت إليهــا بعض النساء ، بإســاءة استعمال ما أوتين من حرية) .

وكان كثير من رجال الدين يعارضون فى أن تغنى النساء في الكنيسة ، بل كانوا يعارضون فى أن يغنين فى أى مكان عام ،لأن صوت النساء قد يثير رغبة دنسة فى الرجل القابل للتهيج على الدوام .

وكان القديس جيرون يرى أن يقص شعر المرأة كله ، لأنه يعد من أكبر المغريات ويخشى أن يفتتن به الناس والملائكة أنفسهم أثناء الصلاة ، وكان هذا القديس يطلب إلى المسيحيات ألا يستخدمن أدهان التجميل أو الحلى ، وأن يتجنبن الشعر المستعار ، بنوع خاص ، لأن بركة القسّ إذا نزلت على الشعر الميت المأخوذ من رأس لابسه صعب عليها أن تعرف أى رأس تباركه ــ قصة الحضارة مج ٣ جـ٣ ص ٢٨٧/٢٧٨

(هـ) وترتب على هذا الموقف من المرأة أن الدعوة إلى (العزوبة) كانت انبعاثاً قائماً بذاته من بيئة (الرهبنة) التى كانت منتشرة فى أصقاع مختلفة من الإمبراطورية الرومانية ، وبخاصة فى صحراء مصر ذات التأثير القوى على مجرى الحياة المسيحية ، ثم إن الاضطهاد الرومانى للمسيحية ، والفساد الخطير الذى صاحب حركات المد والجزر الرومانية، من خلال الغنائم والأسرى بوجه خاص ــ كان من دواعى (الخصاء) الذى حمل رايته (بولس) وأدى إلى بقاء البنات أبكاراً ، وإلى تشجيع الزوجين على عدم ممارسة العلاقات الجنسية ، وألا يسمح بالطلاق ، إلا إذا كان أحد الزوجين وثنياً ، وصارت الكنيسة تقاوم زواج الأرامل من النساء والرجال ، وفرضت موافقتها على صحة الزواج ، بحيث لا يكون الزواج مدنياً .

وقبل أن يحل عام ٢٠٠ للميلاد اتخذت عادة (وضع الأيادى) صورة (الرسامة الكهنوتية) ، وبمقتضاها أصبح للأساقفة وحدهم حق رسامة القساوسة بصورته الصحيحة .

ثم استخدمت الكنيسة ـ آخر الأمر ـ من (رسالة يعقوب صح ٥) دهن المريض بالزيت المقدس بعد الموت ، وهى البركة الأخيرة التى يتلقاها من القس، حين يدهن فى المسيحى المحتضر أعضاء الحس والأطراف ، فيطهره من الخطايا ، ويؤهله للقاء الله .

* * وتبع هذا التحول الفكرى والطقسى ، وتشابك الدين بالسياسة ، وضغوط بيئة الاضطهاد ـ تحول فى مواقف الرجال ، وفى تقييم معتقداتهم ، بل حدث خلل فى توجهاتهم .

(أ) فى سنة ١٥٦ قام مونتانس (Motanus) ـ الذى وصف بأنه زعيم جديد لشيعة ضالة فى ميسيا (Mysia) ـ يندد بتعلق المسيحية المتزايد بشئون هذا العالم ، وبازدياد سلطان الأساقفة المطلق على الكنيسة ، وأخذ يطالب بالعـودة إلى البساطة المسيحية الأولى وصرامتهـا ، وكان مما تنبأ به أن ملكوت السموات قد دنت ساعته ، وأن أورشليم الجديدة التى يقول بها (سفرالرؤيا)ستنزل من السماء على سهل قريب ، بعد زمن قليل .. ثم سار بنفسه إلى هذه الأرض الموعودة ، على رأس حشد من الناس بلغ من الكثرة درجة خلت معها بعض المدن من سكانها . وحدث فى هذا الوقت ما حدث فى بداية عهد المسيحية ، فامتنع الناس عن الزواج ، وعن التناسل، وجعلوا متاعهم ملكاً مشاعاً بينهم ، وعمدوا إلى التقشف والزهد ، استعداداً لمجىء المسيح .

(ب) وصار مرسيون (Marcion) (٨٥ ـ ١٦٠) أعظم الملاحدة من غير الأدريين الغنوصيين ، وإن كان قد تأثر بآرائهم الدينية .

كان أبوه أسقفاً يعدّ (الابن الأكبر للشيطان) ، فى رأى بوليكاربوس أسقف سميرنا فى روما . ومع هذا استطاع أن يؤسس كنيسة ضمت فى عضويتها كثيرين من أرجاء الإمبراطورية .

وقد جاء مرسيون إلى روما من سينوب ، حوالى سنة ١٤٠ ، معتزماً أن يتم ما بدأه بولس ، وهو تخليص المسيحية من اليهودية ، أو صناعة مسيحية جديدة .

وينسب إليه أن المسيح ـ حسب رواية الأناجيل ـ قد قال : إن أباه إله رحيم ، غفور محب على حين أن (يهوه) ـ كما يصفه العهد القديم ـ إله صارم فى عدله ، مستبد ،

إله حرب ، ولا يمكن أن يكون يهوه هذا أباً للمسيح الوديع ، لا يمكن من يقول (أنا مصدر النور ، وخالق الظلمة ، صانع السلام ، وخالق الشر) ، أن يكون هو نفسه إله يسوع الذى قال : (هكذا ، كل شجرة جديدة تصنع أثماراً جيدة ، وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية ، لا تقدر شجرة جيدة ، أن تصنع ثماراً ردية ، ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة) ـ متى ٧ .

وبهذا ـ كما قال جون لوريمر ـ قارن مرسيون بين إله العهد القديم ، الإله الخالق ، وإله العهد الجديد ، الإله الفادى ، بين العدل والمحبة ، الناموس والإنجيل . ولم يستطع أن يفهم أن هذه الصفات المتناقضة يمكن أن تجتمع فى كائن واحد أبدى .

وفات لوريمر أيضاً أن ما نراه متناقضاً هو فى النظام الكونى ، ووفق القوانين الطبيعية الشاملة ـ ليس تناقضاً إن رؤيتنا القاصرة الضيقة المحدودة الذاتية لا تحسن الحكم على ما يحدث فى الكون كله ، وفق تناسق وتناغم ، ووفق أطراف الجاذبية ، و ﴿ **ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ [سورة الملك الآية ٣] إلا نتيجة هذا القصور الذاتى .

وتساءل مرسيون قائلاً : أى إله خيّر تطاوعه نفسه بأن يقضى على البشر جميعاً بالشقاء ، لأن أباهم الأول أكل تفاحة ، أو رغب فى المعرفة ، أو استجاب لامرأة ؟.

ثم قال : إن يهوه موجود ، وهو خالق العالم ، لكنه خلق لحم الإنسان وعظامه من المادة ، ولهذا ترك روح الإنسان مسجونة فى قالب من الشر ، وأراد إله أكبر من يهوه أن يطلق هذه الروح من ذلك السجن ، فأرسل ابنه إلى الأرض ، وظهر المسيح ، وكان عند ظهوره فى الثلاثين فى جسم طيفى غير حقيقى ، وكسب بموته لخيار الناس ميزة البعث الروحى الخالص .

وقال : إن الأخيار هم الذين يفعلون ما فعله بولس ، فينبذون يهوه ، والشريعة اليهودية ، ويرفضون الكتب العبرانية المقدسة ، ويتجنبون الزواج ، واللذات الجسدية جميعها ، ويتغلبون على الجسم بالزهد الشديد.

وعمل مرسيون على نشر هذه الآراء بإصدار عهد جديد ، غير العهد المعروف ، يكون من إنجيل لوقا ورسائل بولس ، فأصدرت الكنيسة مرسوماً بحرمانه ، وردت إليه المال الكثير الذى وهبه لها حين جاء إلى روما .

لقد استحق مرسيون الحرمان ، لأنه (اخترع) إلهاً لم يكن موجوداً ، وأضفى على

عيسى وجود (الطيف) وصنع إنجيلاً جديداً ، وكأنه اتخذ بولس مشجباً يعلق عليه رداء المسيحية (القائمة) ، ويلبس الكنيسة ثوباً جديداً .. ومن ثم استحق لقب (أعظم الملاحدة) ، لأن لعبته كانت أعظم اللعبات في الساحة (المقدسة) .

(جـ) سيلسوس : (Celsus) توفي سنة ١٧٨ .. جاء في كتابه ألثوس لوجوس (Althos Logos) : (إن يخلق الله البشر على صورته ، فالله ليس كذلك ، ولا يمكن أن ينزل إلى الأرض ليأخذ صورة المسيح) .

(إنهم يدعون أن الله يعلن لهم كل شيء قبل حدوثه ، بل وصل به الأمر إلى حد أنه هجر العالم ، وحركة السموات ، وأغمض عينيه عن كل الأرض ، لينتبه لهم فقط ، ويرسل رسلاً لهم وحدهم ، بدون أي توقف ، لأنه يريدهم أن يكونوا معه دائماً) ـ عن تاريخ الكنيسة ج ٢ ص ١٢٧ .

هذا قول يمكن حمله على (التنزيه) فالله لا صورة له ، و ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ [سورة الشورى الآية ١١] وهو مالك الملك كله ، كل المخلوقات لديه سواء ، لا يختص برحمته (شعباً) دون آخر ، ومقياس التكريم عنده ـ جل شأنه ـ (التقوى) ، وإخلاص العبادة له ، وليس الانتساب إلى داود أو إسرائيل أو إبراهيم ، وكونه ـ سبحانه ـ ﴿ **يختص برحمته من يشاء** ﴾ [سورة البقرة الآية : ١٠٥] ، فهذا يرجع إلى الإرادة الكونية العادلة ، ولا يملك أحد حق الفتوى بشأنها ، بسبب من القصور العقلي ، وبسبب من غلبة الأهواء والنوازع الذاتية والعرقية .

لقد كان سيلوس ـ بالرغم من عدم دقة الترجمة ، وما يمكن لتتابع الرواية ، وكونها معرضة أحياناً ، من تأثير في النقل ـ شأن مرسيون ، من (أعظم الملاحدة) أيضاً لأنه لم يسلم بما نقل إليه ، وإنما ناقش ما عرض عليه ، ورأى رأيه .

(د) إيريناليوس (Irenaeus) ، تربى في سميرنا ، حيث تعرف على بوليكاربوس ، واختير شيخاً في ليون ، ومات سنة ٢٠٠ .

يعتبر أعظم من ظهر من آباء الكنيسة الأوائل ، وكان له تأثيره الضخم في تشكيل الفكر الكنسي لسنين طويلة ، نظراً لمقدرته الفذة على الجمع بين عناصر الفكر المسيحي المختلفة ، ووضعها في مفاهيم موحدة .

كان يقول : إن العمل الأساسي للمسيح و التجسد الذي سار في المنحدر الذي هبط

إليه آدم فى سقوطه ، ثم حوله إلى عمل فدائى مجيد ، فما فقدناه فى آدم ، أى أن نكون على صورة الله وشبهه ، قد كسبناه فى يسوع المسيح .

نحن نتبع المعلم الصالح الكامل الوحيد ، كلمة الله ، ربنا يسوع المسيح ، الذى لفرط محبته لنا أخذ مكاننا لكى يرفعنا إلى مستواه .

نحن لم نخلق آلهة منذ البدء ، ولكننا خلقنا بشراً ، ثم صرنا بالمسيح يسوع آلهة ـ تاريخ الكنيسة جـ ١ ص ١٢٩ ، ١٣٦ ـ نقلاً عن كتاب (ضد الهرطقة) .

وهذا قول ـ مع التحفظ على الترجمة ـ لا يخضع لمنطق ، وإن كان حريصاً على اقتفاء أفكار قدمت له ، فرضى بها ، وتحمس لها ، دون أن يكلف نفسه مشقة النظر ، ومن ثم صار (الأعظم) .

إن تفسيره لحكمة (التجسد) من أجل أن يرفعنا إلى مستواه ، فنصير به آلهة ـ إغراق فى الوثنية ، مع أنه كان بوسع (الله) ـ دون تجسد ـ أن يرفعنا أو يخسف بنا الأرض .

ثم إذا كان (المعلم الصالح) ، (كلمة الله) ، (ربنا يسوع المسيح) ـ وهى صفات يعوزها التناسق والتوافق ، لتعبر عن (شخص) واحد ـ قد تجسد فى بيئة يهودية ضيقة ، ولم يؤمن به غير فئة قليلة فى حدود اثنى عشر حوارياً ، وامرأتين أو أكثر ، وهؤلاء جميعاً عانوا من الاضطهاد والاستشهاد ، والسجن والتعذيب ، فكيف تحققت (الألوهية) فيهم؟ ثم كيف انتقلت الألوهية منهم إلى مئات الملايين بعد ذلك ؟ ألا يكون معنى هـذا تمثل الألوهيـة فى الدعـوة إلى الله ، والالتزام بتعاليمه ، ومن ثم يصبح يسوع المسيح (إلهـاً) ، باعتباره حمل (كلمة الله) إلى قومه ، وبهذا يفهم (التجسد) على أساس (تشخيص) كلمة الله فى عـادة ذات مراسم وطقوس ، ويحمـل التعبير على (المجـاز) ؟! .

أليس بهذا يلتقى إيرينايوس(أعظم آباء الكنيسة)بمرسيوس (أعظم الملاحدة) ؟! .

(هـ) ترتليانوس (Tertillianus) أجرأ مدافع عن المسيحية .. ولد فى قرطاجنة سنة ١٦٠ ، كان والده قائد مائة رومانيا .

اعتنق ترتليانوس المسيحية فى كهولته ، وتزوج بمسيحية ، ونبذ كل اللذائذ الوثنية ، ورُسّم قساً .

رفض كل تفكير منطقى منفصل عن الإلهـام والوحى ، وقصر أسباب بهجتـه على

ما كان يحتويه دينه من أمور لايصدقها العقل السليم .. فمثلاً (« لقد مات ابن الله » ذلك شيء معقول لا لشيء إلا لأنه لا يقبله العقل .. » وقد دفن ثم قام من بين الأموات » ذلك أمر محقق ، لأنه مستحيل) .

ومثل هذا التأكيد على (عجز العقل) ، ورفض الاطمئنان إليه ، أمر لا تؤمن مغبته ، فالعقل ـ مع قصوره ـ قيد على الانطلاق ، وتحديد لمدى الحركة ، ومحاولة تبين المزالق والمنحدرات . لهذا خرج ترتليانوس ـ وهو فى الثامنة والخمسين من عمره ـ على المبادئ السليمة للدين المسيحى، لأنها فى رأيه ـ إن صح له رأى ـ ملوثة بالأساليب الدنيوية ، واعتنق المبادئ المنتانية ، لأنه رآها تطبيقاً سليماً مستقيماً لتعاليم المسيح ، وندد بجميع المسيحيين الذين يقبلون أن يكونوا جنوداً أو فنانين ، أو موظفين في الدولة ، كما ندد بجميع الأساقفة الذين يغفـــرون خطايا المذنبين التائبين ، وانتهى الأمر إلى أن أطلق على البابا لقب (راعى الزانين) ـ قصة الحضارة مج ٣ جـ ٣ ص ٣٠٨/٣٠٦ .

(و) بانطاينوس (Pantaenus) (١٧٩ ـ ٢١٦) ، أول من ارتبط اسمه بمدرسة الموعظين فى الإسكندرية ، برغم ما ذكر من أن أثيناجوراس الفيلسوف الأثينى المسيحى، فى نهاية القرن الثانى ، هو الذى وضع هذه المدرسة .

وكان كليمنت (Clemens) ـ حوالى ١٥٠/٢١٥ ـ أشهر تلاميذ بانطاينوس ، وقد خلفه فى رئاسة المدرسة ، واعتمد الجدل ـ مثل أستاذه ـ فى مواجهة ميثولوجيا الإغريق ، وكان ـ شأن الفيلسوف سقراط ـ يعد الجهل أكثر إثماً من الخطيئة .

وقد ترك الإسكندرية إبان الاضطهاد الوثنى إلى فلسطين ، وصحب أسقف أورشليم حتى مات .

(ز) ويعد أوريجنز أدمنتيوس (Origens Adamantius) (١٨٥ ـ ٢٥٤) ـ تلميذكليمنت ـ المؤسس الحقيقى لمدرسة الإسكندرية .

ولد فى عائلة مسيحية غنية بالإسكندرية ، ولما بلغ السابعة عشرة من عمره قبض على والده بتهمة أنه مسيحى ، وحكم عليه بالإعدام ، ووقع عبء الأسرة عليه ، فعمد إلى حياة الزهد والتقشف ، وأكثر من الصوم ، وأقل من ساعات النوم ، وافترش الأرض ، ومشى حافياً ، وعرض نفسه للبرد والعُــرى ، وأخيراً خصى نفسه ، إطاعة للآية (١٢ صح ١٩ متى) بعد أن تزمت فى تفسيرها أشد التزمت.

وقد اجتذب علمه وبلاغته ـ فى هذا السن المبكر ـ كثيرين من الطلبة ، وثنيين ومسيحيين ، وصارت له شهرة واسعة بإنتاجه الأدبى ، وبتفسيره الكتب المقدسة ، ويقدر عدد كتبه أحياناً بستة آلاف كتاب .

وبحكم البيئة السكندرية التى احتضنت الثقافتين اليونانية والرومانية كان أوريجنز رواقياً وفيثاغورياً وأفلاطونياً حديثاً ، وغنوصياً أدرياً ، ومسيحياً كذلك .

وقد شمله ديمتريوس حيناً بعطفـــه ورعايته غير أن العـــلاقة بين الأسقف وأوريجنز ما لبثت أن ساءت ، بسبب تألق نجم أوريجنز ، وبخاصة خارج مصر .

وفى سنة ٢٣٠ أفلت أوريجنز من قبضة ديمتريوس إلى فلسطين ، ورسم قساً على يد أسقفى قيسارية وأورشليم ، فعقد ديمتريوس مجمعاً ضم الأساقفة والقسيسين ، وتقرر طرد أوريجنز من الإسكندرية وحرمانه من العودة إليها ، وعقد مجمعاً آخر جرده من وظائفه ، وقطعه من كنيسة الإسكندرية .

كان أوريجنز يقول إنه ليس ثمة شيء روحانى خالص ، ما عدا الله ــ الآب والابن والروح القـــدس ــ والنجوم كائنات حيـــة عاقلة ، نفخ فيها الله أرواحاً كانت موجودة من قبل ، وفى رأيه أن الشمس يمكن لها أن تقترف الخطيئة ، وأرواح الناس ــ كما اعتقد أفلاطون ــ قد جاءت إليهم عند مولدهم من عالم آخر ، لأنها كانت قائمة منذ أول الخلق ، والعقل والروح متميزان عنـــده ، كما هما متميزان ــ على وجه التقريب ــ عنـــد أفلاطون ، فإذا ما هبط العقل أصبح نفساً ، وإذا ماسمت النفس بالفضيلة أصبحت عقلاً ، والأرواح كلها فى النهاية ستخضع للمسيح خضوعاً تاماً ، وعندئذ ستكون أرواحاً بغير أجسام ، حتى الشيطان نفسه سيصيبه الخلاص فى النهاية .

وكان يقول إن من وراء المعنى الحرفى لعبارات الكتاب المقدس طبقتين من المعانى أكثر عمقاً ، هما المعنى الخلقى والمعنى الروحى ، لا تصـــل إليهما إلا الأقلية الباطنية المتعلمة .

والله عنده ليس يهوه ، بل هو الجوهر الأول لكل الأشياء ، وليس المسيح هو الإنسان الآدمى الذى يصفه العهد الجديد ، بل هو العقل الذى ينظم العالم ، وهو بهذا الوصف خلقه الله الآب ، وجعله خاضعاً له .

الابن هو الوسيط بين الله والعالم ، وبمقدار ما نعرف الابن نستطيع أن نعرف الآب ،

فالله الأزلى ولد أو خلق كلمته (Logos) الابن الذى على الرغم من كونه ليس إلهاً ، بالمعنى الحقيقى ، فإنه يشارك فى جوهر الآب ، ويأتى الروح القدس فى مرتبة تالية .

لا يمكن أن نشبه الآب (الله)بأى نوع من الأجسام ، أو أن نقول إنه كان فى جسم ، بل هو طبيعة بسيطة عاقلة ، لايقبل أى نوع من الإضافة ، ولا يعقل أن هناك شيئاً أقل أو أكثر من ذاته ، إنه واحد كامل أو وحدة كاملة ، هى مصدر لكل طبيعة عاقلة ، أو عقل ، وهو عندما يتحرك ، أو يفعل شيئاً ، فإنه لا يحتاج إلى جسد أو مكان ، أو حجم ملموس ، أو أى صورة جسدية ، كالشكل أو اللون ، أو غير ذلك من الأمور الجسدية .

وفى عهد جستنيان أدان المجمع المسكونى الخامس فكره ، وتبرأت منه الكنيسة ، وفى سنة ٤٠٠ طعن البابا أنستيسيوس فى آرائه التجديفية ، ولعنه مجلس القسطنطينية ، وصدر ضده قرار بالحرمان سنة ٥٥٣ ، ولعله قد اتهم بالخروج على الدين فى أربعة أشياء :

١ ـ فى اعتقاده بوجود الأرواح قبل مولد أصحابها ، وهو رأى أفلاطون .

٢ ـ فى اعتقاده بأن الطبيعة البشرية للمسيح قد كانت قائمة قبل حلوله فى الجسد ، وليس الأمر فى ذلك مقتصراً على طبيعته الإلهية .

٣ ـ فى اعتقاده بأن أجسادنا عند البعث ستتحول إلى أجساد أثيرية خالصة .

٤ ـ فى اعتقاده بأن الناس جميعاً ـ بل والشياطين كذلك ـ سيصيبهم الخلاص فى نهاية الأمر .

هذا .. مع أنا لا نكاد نجد عالماً مسيحياً جاء بعده ـ لعدة قرون ـ إلا اغترف من بحر علمه الفياض ، واعتمد على كتبه ، وكان لدفاعه عن المسيحية أثر كبير فى عقول المفكرين الوثنيين ، وبفضله لم تعد المسيحية دين سلوى وراحة للنفوس فحسب ، بل تمثل (فلسفة) ناضجة كاملة النماء ، دعامتها الكتاب المقدس ، مع وضع التفسير العقلى فى الاعتبار[1] .

(جـ) ديونيسيوس (Dionyst) أحد تلاميذ أوريجنز المشهورين ، صار أسقفاً بالإسكندرية بعد هرقل ـ تلميذ آخر لأوريجنز ـ وفى رسالة بعث بها ديونيسيوس إلى فيلمونوس ـ أحد رجال كنيسة روما ـ خلع على هرقل لقب (البابا) ، وهذا يعنى أن

(١) عن قصة الحضارة مج ٣ جـ ٣ ص ٣١٣/٣٠٩ وتاريخ الكنيسة جـ ٢ ص ٦٧/٦٥ والدولة والكنيسة جـ ٣ ص ٣٠/٢٦ وتاريخ الفلسفة الغربية جـ ٢ ص ٤٠ .

هرقل أول من حمل لقب بابا الإسكندرية ، بعد أن وسع دائرة سيادة الكنيسة السكندرية ، حتى حوت عشرين أسقفية.. وقد أشار القلقشندى فى (صبح الأعشى ج ٥ ص٤٧٢ ، جـ ٦ ص ٤٢) إلى أن بطريرك الإسكندرية أول من حمل لقب (بابا) ، قبل أن يختص أسقف روما بهذا اللقب .

وكان ديونيسيوس أشهر من تولى أسقفية الإسكندرية حتى زمانه (٢٤٦ ـ ٢٦٥) .. كان لاهوتياً قديراً شارك فى كل الجدل العقيدى الذى ظهر فى عهده ، وخاصة حول إعادة التعميد والنوفاتية والسابللية وآراء بولس السميساطى ، واستخدم تعبيرات (أوريجينية)عن تبعية الابن ، وصار ينظر إليه على أنه غارس العقيدة الأتومية (إنكار الشبه بين الابن وأبيه) وعمل على توطيد العلاقة بين كنيستى الإسكندرية وروما ، وتعرض خلال أسقفيته الطويلة للاضطهاد الذى عاناه المسيحيون على عهد الإمبراطور دكيوس (٢٤٩/٢٥١) ، ثم فاليران (٢٥٧/٢٦٠) ، دون أن ينزل على إرادة الإمبراطور ـ الدولة والكنيسة جـ ٣ ص ٣٢/٣٨ .

(ط) ـ كالستس (Callistus) .. بدأ حياته عبداً ، ثم صار من رجال المال والمصارف ، واختلس الأموال المودعة عنده ، فحكم عليه بالأشغال الشاقة ، ثم أطلق سراحه ، وأثار شغباً فى أحد المجامع الدينية ، فحكم عليه بالعمل فى مناجم سردينية ، لكنه هرب منها بأن احتال على وضع اسمه فى ثبت من أعفى عنهم ، وقضى عشر سنين يعيش فى أنتيوم (Antium) عيشة قاسى من هدوئها أشد الآلام ، ولما عهد إليه زفرينس العناية بالمقبرة البابوية نقلها إلى طريق أبيا (Appia) فى السرداب المسمى باسمه ، ولما مات زفرينس ، واختير كالستس بابا ، أعلن هبّوليتس وغيره من القساوسة أنه لا يصلح لمنصبه، وأقاموا كنيسة وبابوية سنة ٢١٨ غير كنيسته وبابويته .

وزاد من هذه الخلافات أن كالستس كان يرى أن يعاد إلى حظيرة الكنيسة من ارتكبوا بعد تعميدهم خطيئة يعاقب عليها بالإعدام ، كالزنا ، والقتل ، والردة ، ثم أعلنوا توبتهم .

وانتهى انشقاق هبوليتس سنة ٢٣٥ ، لكن نوفاتوس فى قرطاجنة ، ونوفاتيان فى روما ، أقاما كنائس محرمة تحريماً قطعياً على الذين يرتكبون الذنوب بعد التعميد .

وقرر البابا استيفن (٢٥٤ ـ ٢٥٧) أنه لا ضرورة لتعميد من يعتنقون المسيحية من الطوائف غير المؤمنة، كأنه رأى أنهم مسيحيون (مع وقف التنفيذ) ، أو كأنه رأى أن تكون المسيحية متوارثة ، كما يفعل يهود اليوم ، باشتراط أن يكون اليهودى لأب وأم يهوديين .

هــذه ..

نماذج من كبار رجال الكنيسة الأول ، يفيـد سلوكهم وتفكيرهم مدى ما أحـدثه (التحول) من اضطراب فكرى ونفسى ، فكان مثلهم مثل الذى انسلخ من جلده ، رجاء أن ينبت له جلد آخر أشد بريقاً ولمعاناً ، وأقدر على تحمل التغيرات المناخية ، فإذا هو ـ منذ ذلك الحين ـ يعانى من تجربة (التحول) ، غير قادر على استنبات جلد يحميه ، أو يستر تشوهاته ، وغير قادر على استعادة جلده الذى خرج منه ، وحرم من بساطته وبهائه .

* * *

(ز) ونبتت نابتـــة ..

قسطنطين ، والـد قسطنطين (الحوارى الثالث عشر) [1] ، كـان ديّناً ، يبـغض الأصنام ، محباً للنصارى ، خرج إلى ناحية الجزيرة والرها، فنزل فى إحدى القرى ، ورأى امرأة جميلة ، يقال لها هيلانة ، وكانت قد تنصرت على يد أسقف الرها ، وتعلمت قراءة الكتب ، فخطبها قسطنطين من أبيهـا ، وتزوجها ، فولدت له قسطنطين الذى تربى فى الرها ، وتعلم حكمة اليونان ، وكان جميل الوجه ، قليل الشر ، محباً للحكمة ـ هداية الحيارى ص ٢٥٧ .

استطاع قسطنطين (الابن) أن يستأثر بالإمبراطورية ، وأن يتخذ من المسيحية درعاً يعينه على توحيد الإمبراطورية ، إذ دفعه الخلاف مع مكستيوس المناهض للنصرانية إلى الرجوع عن المثراسية ، عقيدة أسرته ، وانتصر للمسيحية ، أقوى الطوائف الدينية ، ويعلل جيبون ذلك بأسباب خمسة :

١ ـ غيرة المسيحيين على دينهم غيرة لا تلين ، بل غيرة لا تتسامح ـ إذا صح لى هذا التعبير ـ نعم إنهم قد استمدوا غيرتهم هذه من الديانة اليهودية ، لكنهم طهروها من الروح الضيقة الأفق ، المجافية الامتزاج بالناس ، مما أدى إلى نفور غير اليهود من اعتناق التشريع الموسوى ، بدل أن يغروهم بالانضمام إليه .

٢ ـ القول بحياة آخرة قولاً أخذوا يصلحونه بكل طريقة ممكنة ، مما عسى أن يزيد هذا الرأى الهام وزناً وأثراً .

٣ ـ ما نسب إلى المسيحيين الأولين من القدرة على أداء المعجزات .

٤ ـ أخلاق المسيحيين الخاصة المتزمتة .

٥ ـ ما تتصف به الجمهورية المسيحية من وحدة ونظام ، مما انتهى شيئاً فشيئاً إلى تكوين « دولة » قائمة بذاتها ، آخذة فى ازدياد قوتها ، فى قلب الإمبراطورية الرومانية .

وعلق رسل على هذه الأسباب بقوله (تاريخ الفلسفة الغربية جـ ١ ص ٤٤/٤٨) :

---

(١) وضع المـؤرخ الكنسى كتاباً رفع فيه قسطنطين إلى مصـاف الرسل ، جاعلاً منه (الحوارى الثالث عشر) .

الأسطورة الأساسية التي دخلت المسيحية من تلك الديانات هي أسطورة الإله الذى يموت لينشر من جديد ، ولهذا فإنى أعتقد أن مذهب الخلود كان له أثر فى نشر المسيحية أقل مما ظن جيبون .

وأعتقد أن جيبون قد فاته أمر غاية فى الخطورة ، وهو كون المسيحية لها (كتاب مقدس) فالمعجزات التى كان المسيحيون يعتمدون عليها قد ظهرت فى زمن بعيد القدم ، إذ ظهرت فى أمة رأى القدماء فيها أمة محوطة بالأسرار ، وكان ثمة تاريخ يقال بحيث نطرد أجزاؤه من (بداية الخلق) فصاعداً ، وهو يروى أن الله قد أتى بالعجائب المعجزة فى كل عصر من العصور قصد بها إلى اليهود أولاً ، ثم إلى المسيحيين ، نعم ، إن المؤرخ الحديث لا يرتاب قط فى أن التاريخ القديم للإسرائيليين أسطورى إلى حد كبير ، لكنه لم يبد أسطورياً فى أعين القدماء ، فقد آمن القدماء بصدق رواية هومر عن حصار طروادة ، وآمنوا كذلك بقصة روميولوس وريموس ، وما إلى ذلك ، ولذا نرى أوريجن يتساءل : لماذا نصدق هذه الروايات وترفض روايات اليهود ؟ ولم يكن ثمة جواب منطقى على هذا السؤال .

وليس من شك فى أن أخلاق المسيحيين قبل قسطنطين كانت أسمى جداً من الأخلاق فى أوساط الوثنيين ، وكان المسيحيون يضطهدون أحياناً ، كما كانوا فى معظم الأحيان فى موقف الضعفاء ، بالنسبة إلى منافسيهم من الوثنيين ، لكنهم آمنوا إيماناً قوياً بأن جزاء الفضيلة يكون فى الجنة ، وعقاب الإثم يكون فى النار ، وكانت مبادئهم الخلقية ـ فيما يختص بالعلاقة الجنسية ـ على درجة من الصرامة ، قلَّ مثيلها فى العالم القديم حتى لنرى (بلينى) يشهد لهم بعلو مستواهم الخلقى ، مع أن مهمته الرسمية كانت اضطهادهم .

أما ما عرفت به الجمهورية المسيحية من وحدة ونظام ، فذلك فى رأيى أهم الأسباب الخمسة وهو ما قصد إليه قسطنطين ، فقد كان لابد من محاباة المسيحيين ـ باعتبارهم كتلة منظمة متحدة ـ لكى يظفر منهم بالتأييد ، على حين كانت كل الفرق المعادية للمسيحيين على غير نظام ، وبذلك لم يكونوا ذوى أثر من الوجهة السياسية .

وحتى يأخذ بزمام المسيحية زعم ـ أو زعموا له ـ أن قد ظهر له صليب فى السماء مكتوب عليه أو حوله « بهذا تغلب » ، فقال لأصحابه : رأيتم ما رأيت ؟ قالوا : نعم ، فآمن حينئذ بالنصرانية ، وتجهز لمحاربة مكسنتيوس القيصر .. وفى صباح اليوم التالى رأى

قسطنطين ــ فيما يرى النائم ــ أن صوتاً يأمره بأن يرسم جنوده حرف (X) على دروعهم ، وفي وسطه خط يقطعه ، وينتهي حول أعلاه علامة الصليب ، فلما استيقظ من نومه صدع بما أمر، وخاض المعركة خلف لواء رسم عليه الحرفان الأولان من لفظ المسيح يربطهما صليب[1] .. ولما تمكن من القضاء على مكسنتيوس ، في معركة جسر ملقيوس ، انضم إلى ليكينيوس، كنصيرين للمسيحية، لقتال مكسمين المعـادى للمسيحية ، وأصدرا مرسوم ميلانو الشهير سنة ٣١٣ الذى اعترف اعترافاً قانونيـاً كاملاً بالمجتمع المسيحى ، غير أن ليكينيوس ظل على وثنيته .

وبعد أن انفرد قسطنطين بالسلطة قضى على كل فكر مخالف للمسيحية ، بقصد فرض عقيدة واحدة تلم شتات الإمبراطورية ، ومن ثم (أصبح تاريخ الكنيسة بتأثيره سلسلة من الكفاح العنيف الذى كان لابد من حدوثه ، نتيجة مباغتته الناس بضرورة الإجماع على عقيدة واحدة ، وعنه اقتبست الكنيسة الميل إلى الاستبداد ، وعدم الخضوع للمسئولية ، وإنشاء هيئة تقوم على المركزية ، وتعيش على غرار الإمبراطورية وإلى جوارها) ــ معالم التاريخ الإنسانية جـ ٣ ص٧٢١ .

لقد منح القسوس كل الامتيازات التى كانت ممنوحة للكهنة الوثنيين ، وأعطى الكنائس حقوق هياكل الوثن ، وصار يوم الأحد الإجازة الرسمية ، وبدأ الأساقفة يسافرون فى عربات الحكام الرسمية ، وأعيد بناء الكنائس التى تهدمت على نفقة الوثنيين الذين هدموها ، كما بنى قسطنطين عدداً جديداً من الكنائس ، مثل كنيسة أياصوفيا (الحكمة المقدسة) فى القسطنطينية.

وبعد ذلك تلقى قسطنطين (تكليفاً إلهياً لتنفيذ عدالة الله ، بتحرير الشعوب من عبادة الأوثان ، والعمل على توحيدهم فى عبادة إله المسيحيين) ، فأعلن فى جماعـة من

---

(١) لنجاح هذه القصة ، عمد الإمبراطور ثيودوسيوس ــ فى حربه مع أربوجاست ــ إلى صناعة قصة أخرى قبل أن يخوض معركته سنة ٣٩٤ ، فأرسل إلى راهب مصرى يدعى حنا ، يسأله عن الحرب المقبلة ، فأخبره الراهب أنه قد جاءه رجلان يرتديان ثياباً بيضاً ، ويمتطيان صهوتى جوادين ، وأخبراه أنهما جاءا يحاربان فى صف قواته ، وأن أحدهما يوحنا الإنجيلى ، والثانى فيليب الرسول . وذكر أن الرؤيا نفسها رآها أحد الجنود الذى نقلها إلى قائده ، حتى وصلت إلى مسامع الإمبراطور الذى ازداد بها ثقة فى النصر .

وما تزال الجماهير فى مصر تذكر قصة ظهور السيدة العذراء بالقاهرة ــ إبان هزيمة ١٩٦٧ لامتصاص غضب الجماهير .

الأساقفة : (أنتم عينتم أساقفة لشئون الكنيسة الداخلية ، وقد تعينت أنا من الله لشئونها الخارجية) ، وبهذا اقترنت المسيحية أمام العالم باسمه وبكلمته .

* وفي خضم هذا التحول الخطير ، رأت هيلينا الطموح ـ أم قسطنطين ـ أن تلعب دوراً يتناسب مع مكانتها أماً للإمبراطور ، ورائدته إلى المسيحية .

رأت بثاقب فكرها أن تصنع للمسيحية صنماً تدور حوله ، كما ولدت لها إمبراطوراً تلتف به ، فأخذت في جمع المقدسات .

بعد قرنين ونصف من الزمان فكرت في خشب الصلب ، وفي الدم المقدس ، وفي تاج الشوك ، والحربة ، والرداء غير المخيط ، والمسامير .

ومع أن حادثة الصلب موضع شك ، ومع أن أحـــداً لم يكن ليعنيه الاحتفاظ بهـــذه (الآثار المقدسة) في ذلك الحين ، ومع أن الزمن الطويل كفيل بالتهامها وتعفية وجودها ـ فإن (القديسة هيلانة) أو هيلينا ، استطاعت الحصول على ما أرادت ، عن طريق البحث والتنقيب ، أو عن طريق صناعة البديل ، مجاملة لأم الإمبراطور .

وقد أحدث الحصول على (الآثار المقدسة) دوياً ، جعل من هيلانة قديسة ، ودفع الإمبراطور هرقل إلى أن يسير على نفس الطريق ، فيضيف (إلى المجموعة كثيراً من أدوات آلام الصلب المقدسة) ـ الحضارة البيزنطية ص ٢٥٩ .

ولم يقتصر الأمر على جمع الأدوات ، فانتشرت حمّى (جمع الجثث المقدسة) فأحضرت هيلانة جثة القديس دانيال ـ قبل ميلاد المسيح بزمن طويل ، إذ هو من عهد نبوخذ نصر ، ولم تعامل جثته معاملة جثث المصريين القدماء ، ثم إن دانيال مات في دولة لا تهتم بالاحتفاظ بجثته ، ولم يكن ثمة دليل على أن ماعثر عليه إنما هو من بقايا القديس العظيم ، إلا إذا قلنا أن قداسته خير دليل ، أو أن دانيال القديس غير دانيال النبي ، وإن كان الحديث عن صموئيل وأشعيا بعد ذلك يرجح أن النبي هو المقصود .

ووصلت جثث القديسين تيموثي وأندراوس ولوقا في عهد الإمبراطور قسطنس ، وجثة صموئيل في عهد أركاديوس ، وأشعيا في أيام ثيودوسيوس الثاني ، ومريم المجدلية والعازر في حكم لاوون السادس ، وأضاف رومانوس الأول تمثال الرها (؟!) ، ونيقوفورس فوقاس شعر يوحنا المعمدان ، كما نقل يوحنا جيمسكي نعلي السيد المسيح ، وحفظ رداء إيليا في

الكنيسة الكبرى الجديدة ، ووضع خبز المعجزة تحت عمود قسطنطين ، بينما كان فى الإمكان مشاهدة آثار العذراء في معظم الحالات بكنائسها في كل من بلاخرناى ، وخلا كوبراتيا ، ولم يكن لمتاحف الآثار المقدسة ضريب فى العالم .

وبهذا لم يعد الرجال والنساء يهرعون إلى معابد أسكليبيوس ، أو لوكينا ، التماساً للشفاء من آلامهم ، بل أخذوا يتزاحمون على كنيسة القديس داميان ، والقديس قوزماس ، بوصفهما لا يكلفان في طبهما شيئاً .

وكانت (الأضرحة المقدسة) لكبير الملائكة ميخائيل منتجعات للعلاج والشفاء ، وبخاصـــة كاتدرائية بخوناى ، على حين كان القديس ديوميد بضارعه فى كفايته العلاجية، أو يكاد .

وكان الرجال يلجئون إلى القديس أرتيميوس التماساً لشفاء شكاتهم الجنسية ، بينما تذهب النساء لشريكته القديسة ميزونيا .

وكان فى إمكان القديسين أن يحموا مدينة من الأخطار ، فإن القديس ديمتريوس أنقذ سلانيك بشخصه مرتين ، على حين كانت القسطنطينية تحت رعاية العذراء ، وتمكنت الرها أن ترقد طويلاً فى سلام ، اعتماداً على وعد المسيح أنها لن تقع فى أيدى أعدائها ، ومع ذلك فإن هذا الوعد قد ذهبت به العوامل الجوية المتغيرة.

وإلى جانب (هذه الخرافات والخزعبلات كانت الأبالسة والشياطين تقيم فى كل مكان ، فإن الشيطان ـ فى صورة كلب ـ هاجم الأسقف بارثيوس من أهل لامبساكوس ، بل إن جستنيان الأعظم نفسه باع روحه ، وكنت تستطيع أن تراه طول الليل يجوس خلال القصر ، حاملاً رأسه على كفه) .

وكان يوحنا النحوى بطريق القرن التاسع ، المؤمن بتحطيم الصور ـ منغمساً فى أعمال الشعوذة والسحر ، ويعقد الجلسات التى يتخذ فيها من الراهبات وسيطات .

وكان الناس يزعمون أن فوطيوس حصّل ما حصله من علمه الهائل بإنكاره المسيح ، أى عن طـــريق الشيطان، وربما كان بداية أو بذرة أولى لمـــا وصل إليه شيطان جــوته فى (فاوست) .

وقد لعن القديس قوزماس فى القرن الثانى عشر الإمبراطورة برثا ، داعياً عليها بألا تلد

غـلاماً قط ، وكان معاصره ميخائيل سيكيديتس يستطيع أن يجعل الأشياء تختفى عن النواظر ، وكان يقوم بالملاعيب والمقالب ، بمساعدة الأبالسة .

وكان ثمة رجال يتنبئون بالمستقبل ، وكان الرهبان المجانين والأطفال الملهمون يتعرفون على من تخبئ لهم الأيام منصب الإمبراطورية .

وهناك عراف أخبر ليو الخامس وميخائيل الثانى وتوماس المغتصب بما ينتظرهم من مستقبل زاهر ، وماتخبئه لهم الأيام من عراقيل .

وكانت الأحلام والرؤى توجه الحوادث وترشدها ، وكان المعتقد أن لكل إنسان قريناً ترتبط به حياته .

وفى سنة ١٢٠٤ دمر الأهالى ـ وقد استبد بهم الغضب ـ تمثالاً عظيماً للربة أثينا ، إذ خيل لهم أنها تشير إلى اللاتين أن يقبلوا من الخارج من الغرب .

* وفى سنة ٧٢٦ أصدر ليو الثالث مرسوماً ينص على منع عبادة الصور والتماثيل ، وأتبعه بتدمير عام لجميع الأيقونات التى تمثل المسيح والقديسين ، وربما كان دافعه الأصلى لاهوتياً ، على أن الحركة سرعان ما اكتسبت أساساً سياسياً قامت عليه ، كهجوم موجه إلى الكنيسة ، وإلى الأديرة ، بوجه خاص ، وهى التى كان امتلاكها للصور المقدسة يزيد من قوتها النامية المتزايدة .

وصـارت هذه الناحية المناهضة للرهبنة والرهبان صريحة صراحة قاطعة فى عهد قسطنطين الخامس الذى كان هو نفسه رجل لاهوت ، له نزعات إلحادية توحيدية ، وكان الرهبان على رأس جبهة عباد الصور .

وأوتيت عملية تحطيم الصور قدراً معيناً من النجاح بآسيا الصغرى ، وبين الجند الذين كان يغلب عليهم العنصر الآسيوى ، لكنها لقيت مقاومة شديدة فى أوروبا التى كانت الوثنية اليونانية والرومانية مهد حضارتها .

وحدثت بالقسطنطينية فتن وثورات ، كما حدث عصيان عظيم يوم تولية قسطنطين الخامس العرش ، وبلغ من شدة كراهية الناس لعملية تحطيم الصور بإيطاليا أن اللومبارد لم يجدوا أدنى مقاومة يوم اجتاحوا رافنا ، آخر الأقاليم الإمبراطورية هناك ، حتى لم يبق للإمبراطور سنة ٧٥١ أى شىء شمال كالابريا ، وأدت الحركة إلى شقاق مع البابوية كانت

له نتائج بعيدة المدى ، فقد راح البابوات يتشددون فى الفرنجة حلفاء جدداً لهم ، على حين فقدت الإمبراطورية آخر ما بقى لها من المصلحة وبواعث الاهتمام فى الناحية اللاتينية ، وأصبحت كلاً متكاملاً ناطقاً باليونانية الصرفة .

* وكانت إيرينه الأثينية ، أم الإمبراطور قسطنطين السادس، والوصية على العرش ـ تعبد الأيقونات والصور ، ولهذا تصالحت مع روما سنة ٧٨٧ ، ودعت إلى اجتماع المجلس المسكونى السابع فى نيقيه ، لإعادة عبادة الصور ، فابتهجت الكنيسة وجموع العامة ، لكن الجند الآسيويين استاءوا منها ، وكان كَبُر عليهم أن تحكمهم امرأة (؟!) وبعد سلسلة طويلة من الخلافات قبضت إيرينه على ابنها وسملت عينيه ، وانفردت بالحكم خمس سنوات (٧٩٧ ـ ٨٠٢) ، وفى أثناء هذا الحكم النسائى توج البابا ليون ـ شرلمان الأعظم إمبراطوراً على الغرب . وباسترداد الهيئة العسكرية قوتها عادت عملية تحطيم الصور من جديد ، وعزل إيرينه صاحب خزانتها نيقو فوروس الأول (٨٠٢ ـ ٨١١) ، وكان مالياً ممتازاً ، لكنه كان جندياً هاوياً قليل الكفاءة .

وفى أثناء حكم لاوون الخامس (٨١٣ ـ ٨٢٠) أعيد تحطيم الصور ، بوصفه حركة سياسية مناهضة لرجال الدين ، لا حركة لاهوتية ، لكن لاوون قتل سنة ٨٢٠ بيد جندى آخر من عمورية يسمى ميخائيل .

وصار ميخائيل الثانى (٨٢٠ ـ ٨٢٩) من المتحمسين لتحطيم الصور ، كما أنه ضاعف من سخط حـزب الكنيسة باتخاذه إحدى الراهبات زوجة ثانية له ، هى (يوفرو سينه) ، ابنة قسطنطين السادس، وعقبه ابنه ثيوفيلوس (٨٢٩ ـ ٨٤٢) ، وهو من محطمى الصور كأبيه ، وإن كان أقل تطرفاً .

وبعد وفاة ثيوفيلوس سنة ٨٤٢ صارت أرملته ثيودورا وصية على العرش الذى ورثه ولدها الصغير ميخائيل الثالث ، فأعادت عبادة الصور سنة ٨٤٣ ، وأبهجت قلوب الغالبية الساحقة من رعاياها ـ الحضارة البيزنطية ص ٢٦٣/٢٥٩ ، ص ٤٤/٤٢ .

ومن الملاحظ أنه خلال هذه المرحلة الطويلة من الفتن التى بدأتها هيلانة الحرانية فى القرن الثالث ـ كان عظماء رجال اللاهوت من أنصار عبادة الصور ، وهم يوحنا الدمشقى، وثيودور الاستودبومى ، والبطريق نيقيفوروس ، ومن ورائهم فوطيوس عدو روما ، فى الوقت الذى اشتد حرصهم على تجميع نقاط الجدل اللازمة لأعمالهم اللاهوتية .

(ح) المجامع المسكونية ..

سبقت الإشارة إلى دور الإمبراطور قسطنطين وأمه هيلانة فى مسيرة المسيحية .

ويقول صاحب (الحضارة البيزنطية ص ٢٣) : لما بنيت القسطنطينية قدم قسطنطين احترامه وولاءه لآلهة الحظ بالمدينة ، كما أنه أقام عموداً ضخماً لأبوللون ، غير فيه وجه التمثال ، فصار يحمل صورته وقد أسبغت عليه كل صفات الرب الشمس ليعبده الوثنى والمثراسى والمسيحى على السواء ، أى أن الرجل لم يكن قد تخلى عن وثنيته ولا عن التقليد الإمبراطورى المعروف أن يكون إلهاً يعبد فى الأرض .

وقد تغاضت الكنيسة عن كثير من نزواته ، اعترافاً بفضله ، باعتباره حاميها ، وفارض سلطانها ، أو خوفاً من أن تطيش هذه النزوات ، وتنتكس علاقته بهم [١] .

---

(١) بعد موت قسطنطين زعم رجال الكنيسة أن وثيقة صدرت من الإمبراطور قسطنطين ، وهو يغادر روما ، ليؤسس عاصمته فى القسطنطينية ، وقد استخلف فيها البابا فى روما وأسلمه الأرض التى تحيط بروما ، وفحوى الوثيقة ـ كما أوردها رسل (تاريخ الفلسفة الغربية جـ ٢ ص١٤٢) عن كتاب لم ينشر لبيرنز (Burns) ـ (يقول قسطنطين ـ بعد أن أوجز خلاصة للعقيدة النيقية وسقوط آدم ومولد المسيح : إنه كان مصاباً بالجذام ، وإنه وجد الأطباء لا خير فيهم ، ، فالتمس لذلك قساوسة الكابتول ، واقترحوا عليه أن يذبح أطفالاً عدة ليغتسل بدمائهم ، لكنه أعاد الأطفال بدون ذبح لما سكبت الأمهات من دموع ، وفى تلك الليلة ظهر له بطرس وبولس ، وقالا له : « إن البابا سلفستر » كان مختبئاً فى كهف على سراقطى ، وإن فى مستطاعه أن يشفيه ، فذهب إلى سراقطى حيث أنبأه « البابا العالمى » أن بطرس وبولس رسولان لا إلهان ، وأطلعه على صور عرفهما مما تذكره من حلمه ، واعترف بذلك أمام « الأتباع »جميعاً ، وعندئذ فرض عليه البابا سلفستر فترة يقضيها مرتدياً قميصاً من الشعر ليكفر عن نفسه ، ثم عمده، وعندئذ رأى يداً من السماء تلمسه ، وشفى من الجذام ، وأقلع عن عبادة الأوثان ، وبعدئذ ظن هو وأتباعه وأعضاء مجلس الشيوخ ونبلاؤه والشعب الرومانى كله ـ أن من الخير أن يهب سلطة عليا لأبرشية بطرس ، ويجعلها مقدمة على أنطاكية والإسكندرية وأورشليم والقسطنطينية ، وبعد ذلك شيد كنيسة فى قصره فى « لاتران » ، وخلع على البابا تاجه ، والتاج الثلاثى ، والأودية الإمبراطورية ، والمقاطعات والمدن فى إيطاليا والغرب بحيث تخضع للكنيسة الرومانية إلى الأبد ، وبعد ذلك ارتحل إلى الشرق، لأنه ليس من اللائق أن يكون لإمبراطور دنيوى شىء من السلطان ، فى بلاد أمر الإمبراطور السماوى أن تقوم فيها إمارات للأساقفة ، وأن يكون بها رئيس الديانة المسيحية) .

يقول كرين برنتن (أفكار ورجال ص٣٤١) : وقد أثبت أحد الإنسانيين الأوائل ـ واسمه لورنزوفالا الذى توفى سنة ١٤٥٧ ـ أن هذه الوثيقة مزورة ، ذلك أن لغة الوثيقة لم تكن تلك اللغة التى كان من الممكن أن تكتب بها فى مستهل القرن الرابع ، وقد أثبت فالا ذلك بوسائل أصبحت مألوفة لنا اليوم أثبت أن بالوثيقة إشارات إلى غير زمانها ، كما لو عزا أحد إلى أبراهام لنكولن خطاباً ، وكانت فيه إشارة إلى عربة بويك .

وحين بدا أن كل شيء يسير في طريق الوحدة للدولة وللكنيسة ، ظهرت بذور فتنة كبرى ، بطلها رجل يسمى آريوس ولد سنة ٢٥٦ ، ليبيّ الأصل ، أخذ العلم عن ديونسيوس البطريرك الرابع عشر للإسكندرية (٢٤٦ ـ ٢٦٤) ، الذى يقول : (لم يكن ابن الله واحداً مع الآب ، بل كان آخر مختلفاً عن الآب ، كاختلاف الكرمة عن الكرام ، والقارب عن صانع القوارب) ، كما أخذ العلم عن لوقيا نوس الأنطاكي الذى استشهد سنة ٣١٢ ، وكانت له أفكار لاهوتية (يعوزها الصواب) ـ في رأى الدكتور قنواتي ص ٩٨ .

وسيم آريوس قساً في الإسكندرية حوالى سنة ٣١١ ، بعد أن تشبع بالفكر الأفلاطوني القائل باستحالة الخلق المباشر، وبالمنهج الأرسطى في المنطق ، وأخذ ينشر آراء من اليسير تقبلها في الأوساط الكنسية المثقفة في الولايات الشرقية من الإمبراطورية ، لكن الكنيسة في الإسكندرية كانت تتزعم فكراً هو مزيج من الوثنية الهلينية والوثنية المصرية القديمة .

كان آريوس يقول : (إن المسيح لم يكن هو والخالق شيئاً واحداً ، بل كان هو الكلمة أول الكائنات التى خلقها الله ، وأسماها ، إنه إذا كان الابن من نسل الأب ، فلابد أن تكون ولادته قد حدثت في زمن ، وعلى هذا لا يمكن أن يكون الابن متفقاً مع وجود الأب في الزمن ، يضاف إلى هذا أنه إذا كان المسيح قد خلق فلا بد أن يكون خلقه من لا شيء أو من غير مادة الأب ، لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة ، وقد ولد الروح القدس من الكلمة ، وهو أقل ألوهية من الكلمة نفسها) .

(إن المسيح لابد إذاً أن يكون كائناً وسيطاً أعظم من الإنسان ، وأقل من الإله) .

منطق قد يكون استمراراً للأفكار المنحدرة من أفلاطون ، عن طريق الرواقيين ، وفيلون ، وأفلوطينوس، وأوريجنز ، بل إن هذه الأفكار وردت على لسان كل من يودوكسيوس أسقف أنطاكية ، واللاهوتيين القديرَين أكيتوس ويونوميوس ، إذ قالوا : (إن الابن ليس من جوهر الآب ، وإنه مخلوق من مرتبة المخلوقات) .

وقد ارتاع ألكسندر أسقف الإسكندرية من هذه الآراء ، وارتاع أكثر من سرعة انتشارها بين رجال الدين أنفسهم .. لهذا دعا مجلساً من الأساقفة المصريين إلى الاجتماع في الإسكندرية ، وأقنع أعضاءه بأن يحكموا بتجريد آريوس وأتباعه ، وأبلغ الإجراءات التى اتخذها المجلس إلى سائر الأساقفة .

ولما جاء قسطنطين إلى نقوميديا ـ بعد أن هزم ليسينوس ـ سمع هذه القصة من

أسقفها، فأرسل إلى ألكسندر وإلى آريوس رسالة شخصية يدعوهما أن يتخلقا بهدوء الفلاسفة ، وأن يوفقا بين آرائهما المختلفة في سلام .

لكن بطريرك الإسكندرية منع آريوس من دخول الكنيسة ، فخرج آريوس ومعه أسقفان إلى القسطنطينية شاكين مستعدين .

قال آريوس : إنه تعدى على وأخرجني من الكنيسة ظلماً ، وسأل الملك أن يشخص بطريرك الإسكندرية ، ويناظره قدام الملك .

وجـــه قسطنطين رسولاً إلى الإسكندرية ، فأشخص البطريرك، وجمع بينه وبين آريوس ليناظره .

قال قسطنطين لآريوس: اشرح مقالتك ، فقال آريوس : (أقول إن الآب كان ولم يكن الابن ، ثم إنه أحدث الابن ، فكان كلمة له ، إلا أنه محدث مخلوق ، ثم **فوض الأمر إلى ذلك الابن المسمي كلمة ، فكان هو خالق السموات والأرض وما بينهما** ، كما قال في إنجيله ، إذ يقول : «وهب لى سلطاناً على السماء والأرض» فكان هو الخالق لهما بما أعطى من ذلك ، ثم إن الكلمة تجسدت من مريم العذراء ، ومن روح القدس ، فصار ذلك مسيحاً واحداً ، والمسيح الآن معنيان ،كلمة وجسد ، إلا أنهماجميعاً مخلوقان) ـ هداية الحيارى ص ٢٥٩ .

كلام آريوس على هذا الترتيب يعنى أن الكلمة أمر الله (كن فيكون)، وبهذا الأمر كانت السموات والأرض .

وكان عيسى ، ذلك لأن عيسى لم يكن إلا بعد أن تجسدت الكلمة (من مريم العذراء ومن روح القدس) ، أى بعد خلق السموات والأرض وما بينهما ، وخلق أجيال من البشر ، ومن الأنبياء والرسل . وليس من المعقول أن تكون (الكلمة والجسد) خالقان ، وهما جميعاً مخلوقان [1] .

(١) يقول رسل (تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٤٩) ، لو قبل هذا الرأى فى وقت سابق لذلك العهد لأمكن ألا يثير معارضة شديدة ، أما في القرن الرابع فقد كانت الكثرة الغالبة من رجال اللاهوت ترفضه ، والرأى الذى كانت له السيادة آخر الأمر هو القائل بتعادل الآب والابن ، وبأنهما من عنصر واحد ، ومع ذلك فالآب والابن (شخصان) متميزان حتى لقد أطلق على الرأى القائل بأنهما ليسا متميزين ، بل هما جانبان مختلفان (لكائن) واحد ، اسم الزندقة (السابلية) نسبة إلى (سابليوس) ، وهكذا تحتم على الأرثوذكسية أن تسير فى طريق ضيق .

ولعل ما أورده الدكتور جورج قنواتى (المسيحية والحضارة العربية ص ٣٧) على لسان آريوس أكثر وضوحاً :

(إن الله واحد ، غيرمولود ، لا يشاركه شيء فى ذاته تعالى ، فكل ما كان خارجاً عن الله الأحد إنما هو مخلوق من لاشيء بإرادة الله ومشيئته ، أما « الكلمة » فهو وسط بين الله والعالم ،كان ولم يكن زمان ، لكنه غير أزلى ولا قديم .

بل كانت مدة لم يكن فيها « الكلمة » موجوداً ، فالكلمة « مخلوق » بل إنه مصنوع ، وإذا قيل إنه « مولود » فمعنى أن الله « تبناه » ، ويؤدى ذلك إلى أن الكلمة غير معصوم طبعاً ، ولكن استقامته حفظته من كل خطأ وزلل ، فهو دون الله مقاماً ، ولو كان معجزة الأكوان خلقاً بلغ من الكمال ما لا يستحيل معه شيء وأكمل منه مرتبة وحالاً) .

ويعلق الدكتور قنواتى على هذا بقوله : (يقوم هذا المذهب على إنكار اللاهوت فى المسيح ، وتصوره إنساناً محضاً ، مهما كان عظيماً ، ولذلك أجمع الآباء فى نيقيه على تكفيره) .

ولقد وجد بطربريك الإسكندرية فى (النص الأول) مزلقاً لأنه كان على ما يبدو مرتبطاً بوهلة اللقـاء ، على حين كان (النص) الذى أورده الدكتور قنواتى من كتـاب : (ثاليا) ــ أى المائدة ــ الذى أصدره آريوس بعدما لجأ إلى فلسطين ، بعد مؤتمر نيقيه .

قال البطريرك : (تخبرنا الآن : أيما أوجب علينا عندك عبادة من خلقنا ، أو عبادة من لم يخلقنا) ؟.

قال آريوس : (بل عبادة من خلقنا) .

قال البطريرك : (فإن كان خالقنا الابن ــ كما وصفت ــ وكان الابن مخلوقاً ، فعبادة الابن المخلوق أوجب من عبادة الآب الذى ليس بخالق ، بل نصير عبادة الآب الذى خلق الابن كفراً ، وعبادة الابن المخلوق إيماناً ، وذلك من أقبح الأقاويل) .

استغل البطريرك اضطراب عبارة آريوس أحسن استغلال ، ولو أن آريوس طلب بيان البطريرك فى هذه القضية لتبين له أكثر من مزلق آثم ، لكن الملك الخبير بسياسة الرعية فضل انتصار البطريرك لتدين له مصر بالولاء ، فأعلن استحسان مقالة البطريرك، وتبعه الحاضرون وكان الإجماع على تكفير آريوس وكل من قال بمقالته ، لكن البطريرك أراد

أن يكون التكفير عن طريق مجمع من البطارقة والأساقفة (نصنع فيه قضية ، ويكفر آريوس ، ويشرح الدين ، ويوضحه للناس) .

بعث قسطنطين الملك إلى جميـع البلدان ، فجمع البطارقة والأساقفة في مدينة نيقية ، بعد سنة وشهرين ، وكان عددهم ألفين وثمانية وأربعين ، يتقدمهم بطريرك الإسكندرية ، وبطريرك أنطاكية ، وأسقف بيت المقدس ، وجلس الإمبراطور على عرش من الذهب ، يتابع ما يدور في المجلس بملاحظة ملامح وإيماءات ونغمات أصوات المتناظرين ، إذ كان أمياً رقيق الزاد من الإغريقية ـ معالم التاريخ الإنسانية ـ جـ ٣ ص ٧١٩ .

واتفق الجميع سنة ٣٢٥ على لعن آريوس وأصحابه ، وكل من قال بمقالته ووضعوا ميثاق (الأمانة) القائم على معتقد التثليث ، ثلاثة جواهر أو آلهة في جوهر أو إله واحد :

(نؤمـن بإله واحـد ، الله الآب ، ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، ما يرى وما لا يرى ونؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد المولود من الآب ، قبل كل الدهور ، إله من إله ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود ، غير مخلوق ، مساو للآب في الجوهر ، به كان كل شيء ، وبغيره لم يكن شيء مما كان ، هذا الذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس، ومريم العذراء ، تألم وقبر وقام في اليوم الثالث ، كما في الكتب ، وصعد إلى السموات ، وجلس عن يمين الله ، وسوف يأتي في مجده) .

وقد أضاف إليه مجمع القسطنطينية سنة ٣٩١ بعض الإضافات ، وحينئذ اتخذ صيغته النهائية حتى أيامنا هذه في الكنيسة الجامعة .

ومهما قيل في هذا (القانون) فإنه صياغة (مجمعية) لم يرد عن السيد المسيح ، وهو لا يتجاوز كونه تطويراً وتقنيناً لفكر (بولس) ولعل هؤلاء المجمعيّين شركاء بولس أو تلامذته ، لأنهم جميعاً يشاقون ما بين قـول السيد المسيح (ما جئت لأنقض ، بل لأكمل) ، وبين ما جاء به موسى من وحدانية الله ، وإن جاء (أسرى بابل) ، وأضافوا ما ما ثقفوه من المجوسية والفرعونية والزرادشتية ، ما يعبر عن ثقافتهم أكثر من التعبير عن ديانة موسى ، ولا ريب في أن بولس وخلفاءه كانوا يعبرون عن الثقافة اليونانية ، وماورثوه عن أسرى بابل أكثر من التعبير عن ديانة عيسى .

وصدق كرين برنتن (أفكار ورجال ص ٢٠٧) : (لو أن المرء اعتبر « العهد الجديد » التعبير النهائي عن العقيدة المسيحية لخرج من ذلك قطعاً ، لا بأن مسيحية القرن الرابع ـ مجلس نيقيه ـ تختلف عن المسيحية الأولى فحسب ، بل بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتاً) .

وصدق على هذا (القانون) ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً .

* كان مجلس نيقيه الأول دليلاً قوياً على رئاسة القيصر للعقيدة المسيحية ، (وكان قسطنطين يقصد أن تكون الكنيسة المسيحية كنيسة للدولة ، يكون الإمبراطور رئيسها، ولم تعترض على ذلك الكنيسة اعترافاً بفضله) .

ومع أن دم منافسيه وابنه ، ودم زوجته ،كان يلطخ يديه [1] ، فإنه صار (الرسول الثالث عشر ، وزادت كرامته الروحية قوة بما أظهرته أمه هيلينا من همة في أعمال الحفر والتنقيب ، وهي الأمة البثينية السابقة لقسطنطيوس ، فإن قسطنطين أرسلها إلى بيت المقدس) لتصنع كشفاً هزّ العالم المسيحي هزة هائلة ، (ودوت أرجاؤه إجلالاً للمجد الخالد الذي أسبغ على أم الإمبراطور ، وأصبح اسما قسطنطين وهيلينا ـ ولا يزالان ـ أعظم الأسماء توقيراً في تاريخ المسيحية) ـ الحضارة البيزنطية ـ ص ٢١/٢٢ .

اطمأن قسطنطين ، وواصل مسيرته في توسيع ملكه ، فسار على رأس جماعة من القواد والمهندسين والقساوسة ، وانتقل بهم من مرفأ بيزنطة ، واجتاز ما حوله من التلال ، ليرسم حدود العاصمة التي كان يعتزم إنشاءها ، ولما عجب بعضهم من اتساع رقعتها ، رد عليهم بقوله : (سأواصل السير حتى يرى الله الذي لاتدركه الأبصار أن من الخير أن أقف) .

وأصدر دستوراً لم يكن في واقع الأمر إلا استمراراً لدستور دقلديانوس .. كان دستور دولة ملكية مطلقة ، جعل من حق مجلس الشيوخ في القسطنطينية وفي روما أن يناقشا المسائل المعروضة عليهما ، وأن يشرّعا ويفصلا في بعض القضايا ، لكن هذا كله كان يخضع لحق الرفض المخول للإمبراطور .

(١) أمر بإعدام ابنه كريسبوس ، بتحريض من فاوستا امرأة أبى الفتى ، ثم اقتنع ببراءة كريسوس فأمر بإعدام فاوستا ، بأن ألقيت للضوارى عارية على جبل موحش ـ معالم التاريخ الإنسانية جـ ٣ ص ٧١٧ .

وأشار الدستور إلى قصر المناصب العليا على الأشراف ، ما بين كونت (Conites) ودوق (Duces) ، يعينهم الإمبراطور الذى يتحمل تبعة الحكم كاملة ، ويستمتع بالسلطة كاملة ، وتحيط به هالة رهيبة من المهابة ، والترفع ، والعزلة عن الشعب ، والأبهة الشرقية ، وما تحلعه عليه الكنيسة من مراسم التتويج والتقديس والتأييد .

وبهـــذا نجح قسطنطين ـ من خلال مسيحيته ـ أن يمسك بكل المقاليد المادية والروحية .

لكن .. ظل كثير من الأساقفة ـ وبخاصـــة الكثرة الغالبة فى الشرق ـ يناصرون آريوس ، سراً وجهراً أى أنهم كانوا يرون أن المسيح ابن الله ، لكنه لا يشترك مع الآب فى مادته ولا فى خلوده .. ولم يستنكف قسطنطين نفسه ـ بعد أن قبل قرار المجمع ، وطرد آريوس من البلاد ـ أن يدعـوه إلى اجتمـاع شخصى معه سنة٣٣١ ، ولم يجد فى أقواله ما يستطيع أن يعده خروجـــاً على الدين ، وأوصى بأن ترد إلى آريوس وأتباعـــه كنائسهم، فاحتج اثناسيوس على ذلك ، واجتمع فى (صور) مجلس من أساقفة المشرق ، وقرر خلعه من كرسى الإسكندرية الدينى سنة ٣٣٥ ، وظل عامين طريداً فى غالة .

هذا بينما راح يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى يعلمان ـ خلافاً لما وقعا عليه فى نيقيه ـ بأن (الابن ليس من جوهر واحد مع الآب) ، ولما اتهم يوساب بذلك صراحة أمام الإمبراطور ، أقر فى جرأة ، وقال ـ موجهاً حديثه لقسطنطين ـ (هب أن هذا الرداء قد قطع أمام ناظرى شطرين لعجزت أن أحاج بأن أياً منهما ينتهى إلى نفس المادة) .. وهذا قول خطابى لا أساس له من المنطق ، لأن المادة يمكن التعرف عليها وعلى خصائصها بسهولة ، وبخاصة إذا كانت رداء ، ولهذا يمكن الطعن فى نسبة هـــذا القول إلى يوساب (الداهية) ، وبخاصة فى حضرة الإمبراطور .

وكان ميليتيوس (Melitius) أسقف أسيوط قد خرج على قوانين نيقيه التى تحكم فى صياغتها أثناسيوس (شماس) الإسكندرية ، ثم أسقفها ، إذ كان القانون السادس ينص على (إعطاء بطريرك الإسكندرية كل الحقوق التى كانت له من قديم على أساقفة مصر وليبيا والمدائن الخمس) ، وحرم القانون الخامس (انتقال الأساقفة والقسيسين والشمامسة من كنيسة لأخرى) ـ فكان ميليتيوس ينتقل بين البِيَع التى خلت من الأساقفة ، إبان فترة الاضطهاد ، وصـار يعين لهـــا أساقفة جـــدداً ، وعاد ثانية إلى مقره فى أسيوط ، ولمـــا

أنشأ (كنيسة الشهداء) حـرم الكهنة الذين ارتدوا وقت المحنة واستبدل بهم غيرهم ، من الذين صمدوا للتعذيب ، ولم يلبث أن أحس بدنو أجله فعين أقرب أصدقائه (يوحنا) خلفـاً له ، خلافاً لما أقره المجمع ، وصارت كنيسة أسيوط على خلاف شديد مع كنيسة الإسكندرية ، حتى بعد استشهاد الأسقف بطرس سنة ٣١١ .

يقول أبيفانيوس : إن الخلاف نشأ بين الأسقف بطرس أسقف الإسكندرية والأسقف ميلتيوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط) ، عندما كانا مسجونين معاً ، إبان اضطهاد دقلديانوس ، فقد رأى الأسقف بطرس أن تقف الكنيسة موقفاً متسامحاً مع المرتدين ، لكن ميليتيوس طالب بمعاملتهم بقسوة ، وساندته مجموعة من الكهنة والرهبان ، ممن كانوا معهما ، وقد اشتد الصراع حتى وصل إلى درجة القطيعة .

وعندما علم الآريوسيون بما فعله ميلتيوس ، بدءوا يناوئون سلطان الكنيسة ، فتبعهم من جديد أناس كثيرون ، بينما مال إلى الميليتيين من رأوا أن من حقهم ترؤس كنائسهم .

وحدث تقارب بين الآريوسيين والميليتيين ، أدى ـ بعد مناقشات حادة ـ إلى تقبل الميليتيين الأفكار الآريوسية وقد أحيا هذا من جديد الجدل حول آريوس وعقيدته فى كثير من أنحاء الإمبراطورية .

وبعد ثلاث سنوات من النفى عاد كل من يوساب وثيوجنس إلى كنيستيهما ، كما عاد آريوس من منفاه ، لكنه ظل ممنوعاً من دخول الإسكندرية .

وقد رغب قسطنطين فى تألف آريوس ، فأرسل إليه يقول : (لزمن مضى ، بلغ نيافتكم أن فى مقدوركم الوفود إلى مقامنا ، بغية الحصول منا على لقاء ، وكم كانت دهشتنا بالغة لتوانيكم فى الإقدام ، وعليه إذن ، بادروا بالارتحال مسرعين إلى بلاطنا ، وعندما تحسون رحمتنا بكم ، وتقديرنا إياكم ، تضمنون العودة إلى دياركم ، دعائى إلى الله أن يحفظكم ، عزيزى) .

وأمام إلحاح قسطنطين ركب آريوس إلى القسطنطينية ، يصحبه يوزيوس الشماس الذى كان إسكندر أسقف الإسكندرية قد حرمه ، باعتباره نصير آريوس ، عند بداية الجدال بين الرجلين ، وقد استقبلهما الإمبراطور . واستجابا لطلبه أن يقدما إليه مكتوباً يؤكد موافقتهما على قانون الإيمان النيقى ـ كما فعل يوساب وثيوجنس ـ فقدما إليه صيغة خلت من

عبارات (من نفس الجوهر) [1] ، وهى العبارة التى سبق أن اقترحها الإمبراطور ، ووافق عليها المجمع .. وكانت الصيغة ـ كما يقول جونز ـ فى جملتها مختصرة ماكرة ، لكن الإمبراطور لم يتوقف عند هذه الصيغة ، رغبة فى إعادة الوحدة إلى الكنيسة والدولة .

لكن أثناسيوس ـ شماس المجمع النيقى الشهير الذى تولى الأسقفية سنة ٣٢٨ ـ رفض الانصياع لأوامر الإمبراطور بإعادة آريوس إلى مجتمع الكنيسة ، وأرسل إلى الإمبراطور ما يفيد عدم قبوله آريوس فى بيعته ، كما رفض قبول الميليتيين فى الكنيسة ، واحتج على اختيار يوحنا الميليتى .

كتب الإمبراطور إلى أثناسيوس متوعداً ، وحمل الرسالة اثنان من موظفى القصر ، هما سينكليتوس وجاودنتيوس ، وقد جاء فيها (ولتدرك جيداً أنه إذا نما إلى علمنا أن أحداً ممن يرغبون فى العودة إلى الكنيسة قد حيل بينه وبين ما يشتهى ، لأبعث على التو من يقوم بعزلك ، إنفاذاً لمشيئتى ، ويرسل بكم إلى المنفى) .

ولم يكن الإمبراطور يقصد بهذا التهديد إلا حفظ التوازن بين الأطراف .

* * مات قسطنطين سنة ٣٣٧ ، بعد أن قسم مملكته بين أبنائه الثلاثة : قسطنطين الثانى (٣٣٧ ـ ٣٤٠) فى بريطانيا وغالة وأسبانيا .. قسطنطيوس (٣٣٧ ـ ٣٦١) فى تراقيا وبونطس وآسيا والشرق .. قسطانز (٣٣٧ ـ ٣٥١) فى بداشيا ومقدونيا وبانونيا وأفريقيا.

وتم القضاء على بقية أسرة قسطنطين ـ كما جرت العادة ، تفادياً للخلافات ـ ما عدا صبيين صغيرين هما جوليان وجوفيان .

وطوال ما يزيد على عشر سنين كان قسطنطيوس يراقب عن كثب مسار الفريق اليوسابى والعقيدة الآريوسية ، ويختلط بزعمائها ، ويقف على آرائهم ، ولذلك كان من الطبيعى أن يأخذ عنهم لاهوته ، وأن يشاركهم عداءهم المفرط لأثناسيوس .

واتفق الإخوة الثلاثة على إعادة جميع الأساقفة المنفيين إلى كنائسهم ، فارتحل أثناسيوس (من غالة حيث نفاه قسطنطين) قاصداً الشرق ، فى معية قسطنطين الثانى ، وفى ٢٣ نوفمبر ٣٣٧ دخل الإسكندرية ـ بعد غياب عامين تقريباً ـ وسط مظاهر الترحيب

---

(١) اعترف هيلارى أسقف بواتيه فى غالة ـ فى القرن الرابع ـ أنه ظل ثلاثين سنة ، بعد مجمع نيقية ، لا يعرف شيئاً عن الهوموسية (الابن مساو للآب فى الجوهر) قاعدة الإيمان الأرثوذكسى للكنيسة الجامعة .

والبهجة من جانب الإكليروس وشعب الإسكندرية.

ولما لم يكن الآريوسيون يقبلون عودته حدثت اضطرابات فى المدينة .

قام أنطونيوس (أبو الرهبان) بزيارة الإسكندرية ، تدعيماً وتأييداً لأثناسيوس ، وكان للرهبان قواعد فى جميع أنحاء مصر ، مما دعم مركز أثناسيوس.

وعمل اليوسابيون على تطويقه وعزله عن العالم المسيحى ، وهو ما نجح فيه خصومه منذ سنة ٣٣٣ فى مجمعى قيسارية وصور ، ولذا عزم على أن يحاربهم بنفس أسلوبهم .

كثرت اتهامات الآريوسيين واليوسابيين بأن أثناسيوس يستولى على قمح الأرامل ، وأنه يثير الاضطرابات فى مصر وفلسطين .

وتمّ تعيين جريجورى الكبادوكى أسقفاً للإسكندرية فى يناير ٣٣٩ ، بحجة أن أثناسيوس كان مغتصباً للبيعة ، وبهذا أصبح قسطنطيوس طرفاً فى صراع الكنيسة ، وبخاصة بعد أن اقتحم جريجورى الإسكندرية ، بصحبة قوة عسكرية قوامها خمسة آلاف جندى ، وتمكن أثناسيوس من الفرار ، حين علم بهذا الأمر .

وفى هذا الوقت تم تعيين يوساب النيقوميدى أسقف القسطنطينية .

كتب أثناسيوس إلى قسطنطيوس يحاول كسبه ، ويوغر صدره ضد الآريوسيين، وقال فى ختام رسالته : (هبوا أحدكم فى المذبح يعظ ، والجموع من حوله خاشعة، وإذا بمرسوم يقتحم عليه الهدوء ، ويعلنه بخليفة له ، وإذا بهذا يقدم ويأتى من الأمور شائنها ، ألن يتملكه الحق مغيظاً ؟ ألن يهرع يرجو للحق إنصافاً ؟) .

(لا ريب عندى ـ وقد اضطرمت نفوسكم بالمقت والكره لشرور قصصتها عليكم ، أتاها هؤلاء البلهاء ـ أنكم سوف تدينون قرناء السوء والخطايا) .

(إنى لأضرع إليكم ألا تدعوا الدنس يصيب البيعة السكندرية ، تلك التى ذاع صيتها ، وإذا ما سولت لجريجورى نفسه أن يكتب لنيافتكم ، أو من أجله كتب أحد إخوتى ، فلا تلقوا لتلك الرسائل بالاً ، مزقوها ، وبالعار جللوا حامليها ، دعاة الرذيلة والكفران)

* * *

حرب المجـامع :

طمع قسطنطين الثانى فيما يملك أخوه الأصغر قنسطانز .. وفى عام ٣٤٠ طالب بالولاية الأفريقية عوضاً عن فقر إقليمه ، وغزا على الفور أقاليم أخيــه ، فدارت الدائرة عليه ، حيث لقى مصرعه ، وأصبح قنسطانز حامى النيقية المظفر فى أقاليمه ، بل فى أقاليم أخيه قسطنطيوس الذى شغلته قوات الفرس على جبهة الفرات .

وخلال فترة ثلاث سنوات قضاها أثناسيوس فى روما ، بعد هروبه من الإسكندرية ، دار صراع عقيدى بين أساقفة الشرق والغرب ، ودارت مراسلات بين أنطاكية وروما ، وأمكن أثناسيوس أن يحوز على إعجاب قنسطانز وثقته .

كتب قنسطانز إلى أخيه الذى كان يعانى أوجاع الحرب الفارسية أن يُعقد فى سرديكا مجمع للأساقفة يضع حداً للخلافات الكنسية ، فوافق قسطنطيوس ، مع علمه بأن المكان والزمان غير متاسبين ، لكن ما كادوا يجتمعون أواخر صيف ٣٤٣ ، وكل فريق مصر على موقفه ، حتى انسحب الأساقفة الشرقيون ، بحجة أنهم تلقوا رسالة بانتصار قسطنطيوس على الجبهة الفارسية ، ومن الواجب أن يشاركوا الإمبراطور فرحة النصر .

وفى فيلبس سنة ٣٤٣ عقــد أساقفة الشرق مجمعاً منفصلاً أكدوا فيه سابق أحكامهم بإدانة أثناسيوس وبولس وماركللوس واسكلبيوس ، وأصدروا قراراً بإدانة وعزل يوليوس أسقف روما .

أما أساقفة سرديكا فعقدوا مجمعاً مستقلا ترأسه هوسيوس القرطبى ، وأدانوا انسحاب أساقفة الشرق ، كما قرروا إدانة وعزل ثيودور أسقف هرقله ، ونارقيسوس أسقف بانياس ، وأكاكيوس القيسارى ، وأسطفانوس الأنطاكى ، وأورماكيوس أسقف سينجيد ونوم ، وفالنز أسقف مورسا ، ومنوفانتوس الأفسوسى ، وجورج أسقف اللادقية .. وتم تجريد جريجورى الكبادوكى أسقف الإسكندرية ، وباسل أسقف أنقره الذى خلف ماركللوس ، وكونيتيانوس الذى اعتلى كرسى غزة بدلاً من اسكليبوس ـ من ألقابهم الكهنوتية ، وعزلهم ، وقطعهم من شركة الكنيسة .

وفى ٢٦ يونية ٣٤٥ مات جريجورى الكبادوكى ، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام عودة أثناسيوس فى ٢١ أكتوبر ٣٤٦ ، بعد غيبة سبع سنوات ونصف تقريباً ، وقد خرجت المدينة كلها لاستقباله .

* كان فوطين شماساً لأسقف أنقرة ، واعتنق آراء أستاذه ماركللوس ، وتطرف بها ، لكنه ما لبث أن جهر بأن (الابن استمد وجوده من مريم العذراء ، وأنه محض إنسان) ، وأنكر وجوده قبل كل الدهور ، حسب ما تؤمن به الكنيسة الكاثوليكية ، فكان طعنة نافذة فى ظهر أثناسيوس ومؤيديه ، وبعد هذا شغل أسقفية سيرميوم (٣٤٠ ـ ٣٥١) .

وفى سنة ٣٥٧ انتهز نفر من زعماء الأريوسية وجود الإمبراطور قسطنطيوس فى سيرميوم (يوغوسلافيا) ، وبينوا له أن كلمة (جوهر) وراء الخلافات الكنسية كلها ، ولما وافقهم الإمبراطور عقدوا مجمع سيرميوم الثانى سنة ٣٥٧ ، وأصدروا مرسوماً للإيمان ، اعتبره هيلارى كفراً محضـــاً ، وأطلق عليه (مرسوم التجديف) ، وقد جاء فى هذا المرسوم : (لما كان البعض قد اضطرب فكره بمسائل تدور حول ما يسمى « جوهر » ، مما قاد إلى القول « بالمساواة فى الجوهر » ، و « التشابه فى الجوهر » ـ لذا كان من الواجب ألا يذكر هذا على الإطلاق . وألا يعرض فى الكنيسة ، ذلك أن الكتاب المقدس لم يحدّث البتـة عن أى منهـا ، فتلك أمـور فـوق علم البشـر ، وفـوق إدراك الأناسى ، لأن أحـداً لا يستطيع أن يوضح ولادة الابن ، الآب وحده هو الذى يعلم كيف ولد الابن ، والابن يعلم . ولا أحد يشك فى أن الآب أعظم فى المجد والكرامة والألوهية) .

ودعا يودوكسوس أسقف أنطاكية (٣٥٨ ـ ٣٦٠) على الفور إلى عقد مجمع حضره عدد من الأساقفة الذين يؤيدونه ، وقرروا التصديق على مرسوم سيرميوم الثانى ، ونبذ اصطلاح (الهوموسية) و (الهومويوسية) ، باعتبارهما غير واردين فى الكتاب المقدس ، تبعاً لما قرره الإخوة فى سيرميوم .

وفى أنقره سنة ٣٥٨ عقد مجمع مضاد كان تحدياً صريحاً لصيغة سيرميوم الأخيرة التى رفضت الشبه بين الآب والابن .

وفى سنة ٣٦٢ عقد مجمع أنطاكية لمناقشة آراء بولس السميساطى الذى نادى بأن المسيح مجرد إنسان وصل إلى درجة الألوهية بكماله الخلقى ، وأنكر أقنومى الابن والروح القدس ، معتبراً إياهما قوتين فى الله كقوتى العقل والتفكير فى الإنسان ، قال إن ابن الله لم يكن فى الأزل ، بل ولد إنساناً حلت فيه كلمة الله وحكمته عندما ولد من العذراء ، وأن هذه الحكمة التى مكنته من أن يعلم ويعمل العجائب قد فارقتـــه حين أمسكه اليهود

ليصلبوه ، وبسبب هذا الذى حدث من اتحاد القوة الإلهية بالإنسان يسوغ القول إن المسيح هو الله ، ولكن مجازاً لا حقيقة .

وقد أدى هذا القول بالسميساطى إلى أن يزعم أنه كان فى المسيح أقنومان وابنان لله ، أحدهما بالطبيعة ، والآخر بالتبنى .

وبذلك شايع سابليوس فى إنكار الثالوث الأقدس ، بقوله : إنه يوجد إله واحد ، هو الذى تدعوه الكتب المقدسة بالآب ، وأن كلمته وحكمته ليست أقنوماً بل إنها فى الكيان الإلهى بمقام الفهم فى العقل الإنسانى .

وحين بلغت البابا أثناسيوس أنباء هذا (الهرطوقى) بعث إليه رسائل عدة ، يبين له فيها ضلاله ، وقد جاء فى إحدى هذه الرسائل :

(لم يكن ممكناً ، وقد صار الرب إنساناً لأجلنا ، أن يكون ناسوته بلا فهم ، والخلاص الذى تحقق باللوغوس « الكلمة » نفسه لم يكن خلاص الجسد وحده ، بل خلاص النفس أيضاً ، وبما أنه حقاً ابن الله فقد صار أيضاً ابن الإنسان ، وإذ إنه ابن الله الواحد ، فقد صار بكراً بين إخوة كثيرين – روميه ٨ : ٢٩ – وعلى هذا ، فلم يكن لله ابن قبل إبراهيم ، وابن آخر بعده ، ولا أنه كان من أقام لعازر ، وكان آخر سأل عنه ، بل كان هو عين الذى قال كإنسان : « أين لعازر » والذى أقامه كإله من الموت ، هو جسدياً كإنسان ، صنع طيفاً بريقه ، ولكنه إلهياً كإله ، فتح عينى المولود أعمى ، وبينما تألم الجسد – كما يقول بطرس ٤ : ١ – قد فتح القبر وقام من الموت كإله) – عن المسيحية والحضارة العربية ص ٣٩ .

رسالة موهمة بتعبيراتها ، كيف (صار بكراً بين إخوة كثيرين) ؟! ألا يعنى هذا أن لله أبناء آخرين ، أو أنه لا أبناء إلا على سبيل المجاز ؟! وما مقدار المشاركة فى الله ، وهل ينطبق عليهم مفهوم الجواهر المتعددة فى الصورة ، والحقيقة هى جميعاً أقنوم واحد ، كما زعم القس مشرقى عن ثلاث قطع من الذهب ، جوهرها جميعاً واحد ، متناسياً أن لكل قطعة ذاتيتها وقيمتها ، ومجال استعمالها الخاص؟! ثم ما مدى صدق التعبير (جسدياً كإنسان ، ولكنه إلهياً كإله) ، أهو صدق مجازى ؟ أيعنى فقط رفعة المكانة ، ويرشح هذا قوله (قد فتح القبر وقام من الموت كإله) ؟ وإذا كان الآلهة لا يموتون إلا إذا كانوا من

آلهة الأولمب ، فهل نأخذ هذا التشبيه مأخذاً بلاغياً فقط ؟ أم نصدق دعوى أنه (كائن واحد هو نفسه ابن الله وابن البشر) كما قال قنواتي ص ٤٠ ؟! ما حدود هذه البنوة البشرية؟ وإذا كان لها نسب مع داود ، ألا يكون لداود ومن جاء بعده حظ من الألوهية ؟ وإذا أسقطنا يوسف النجار من حسابنا ، فأين يقف داود من مريم (العذراء) ؟ أما كان ينبغي الوقوف عند مفهوم (العذراء) كما ينبغي أن يكون (اللوجوس) هو أمر الله (كن فيكون) ، أو هو بشرى (الروح القدس) جبريل إلى مريم ، كما جاء في القرآن الكريم .

* وفى سنة ٣٦٢ عقد مجمع فى أنطاكية لمناقشة آراء بولس السميساطى ، وتمت إدانته وعزله من منصبه ، ولعن آرائه ، واعتبارها هرطقة .

ونتيجة ما أورثته حرب المجامع من بلبلة واضطراب كتب هيلارى أسقف بواتيه إلى قسطنطيوس يرجوه أن يسمح بمناقشة الإيمان فى حضرته : (حقاً إنه لشيء يرثى له وأثيم ، أن نرى عديداً من الإيمان فكراً بين الناس ، عقائدكالأهواء ، منابع الكفران والتجديف ماثلة حلول الخطايا فينا ، نضع مراسم الإيمان بهوس ونفسرها بعصبية ، تارة نرفض الهوموسية وأخرى نرضى عنها ، ثم تتناولها من هنا وهناك أيدى المجامع ، فالتشابه الكامل أو الجزئى بين الآب والابن موضوع الجدال لزمان غيرسعيد ، فى كل عام ، بل فى كل فجر ، تخرج عقائد جدد ، نصف بها غوامض الكلم ، ونندم على ما فعلنا ، وندافع عن الذين تابوا ، وندين عقائد الآخرين في أشخاصنا ، وعقائدنا فى ذوات الآخرين ، ونمزق هذا أو ذاك إرباً ولدينا على الدوام للآخرين أنكال وجحيم) .

أجاد هيلارى وصف حال الكنيسة التى أدى اضطرابها وتآكلها من الداخل إلى أن يقف (جوليان) من المسيحية كلهاموقفاً عجيباً !!.

ذهب جوليان (Julianus) ابن أخى قسطنطين إلى نيقوميديا ، ليتلقى العلم على الأسقف يوسبيوس ، ولقن من علوم اللاهوت أكثر ما يطيق عقله ، فظهرت عليه سمات تدل على أنه سيكون قديساً .

درس الفلسفة على إدسيوس ومكسيموس وكريسنثيوس ، وقد أتم هؤلاء تحويله سراً إلى الدين الوثنى ، ذلك لأن مكسيموس الصورى جمع بين دعوى المواهب الصوفية والوثنية المخلصة الفصيحة التى انتصرت على جوليان فترة حكمه (٣٦١ ـ ٣٦٣) ، وأخضعته لسلطانها فقال :

(الله ، الأب ، الذى صور كل ما هو كائن ـ أقدم من الشمس ، ومن السماء ، وأعظم من الزمان ، ومن الخلود ، ومن مجرى الكينونة ، لا يستطيع أن يسميه مشترع ، أو أن ينطق به صوت ، أو أن تراه عين ، لكننا نحن ـ لعجزنا عن إدراك جوهره ـ نستعين بالأصوات والأسماء والصور ، وبالذهب المطروق ، والعاج والفضة ، وبالنبات والأنهار والسيول وقلل الجبال ، فى إشباع حنيننا إلى معرفته ، ونداری عجزنا بأن ننحت من طبيعته أسماء لكل ما هو جميل فى هذا العالم . فإذا ما تاق يونانى لأن يتذكر الله حين يبصر تحفة من عمل فدياس ، أو تاقت نفس مصرى لهذه الذكرى فعبد الحيوان ، أو مجد غيرهما ذكراه بعبادة نهر أو نار ، فإن اختلافهم عنى لا يغضبنى ، وكل ما أطلب إليهم أن يلاحظوا وأن يذكروا ، وأن يحبوا) .

تفسير فنى وعلمى أيضاً لنزعة الشرك تسلل إلى فكر ابن عربى وشيعته من متصوفة الإسلام ، بمعنى أن المشركين لا يكفرون بالله ، ولا يجحدون آياته ، إنما هم عباد لله ، عن طريق (المقال) ، أو هم يعبدون الله من خلال اليقين بعظمة مخلوقاته ، بحيث تكون هذه المخلوقات تذكيراً به ـ سبحانه وتعالى ـ أو تقريباً له من عباده ، كما يفعل المحب بصورة محبوبه ، يقبلها ، ويضمها إلى صدره ، وقد يبثها شجونه ومعاناته وأشواقه .

ومع هذا الوضوح فى العبارة فقد ارتد جوليان إلى الوثنية ، لأنها كانت تعيش فى وجدانه ، ولأن ما كان يتمتع به من شجاعة المقاتل وصدقه كره إليه ما جهر به الأساقفة من خداع ومكر وتآمر على الدين بالدين ، هذا إلى أنه تبين ـ كما جاء فى رسالته إلى (أهل الجليل) مبيناً سبب ارتداده عن المسيحية ـ أن (الأناجيل يناقض بعضها بعضاً ، وأن أهم ما تتفق فيه أنها أبعد ما تكون عن العقل ، فإنجيل يوحنا يختلف كل الاختلاف عن الأناجيل الثلاثة الأخرى فى روايتها ، وفيما تحتويه من أصول الدين ، وقصة الخلق التى جاءت فى سفر تكوين تفترض تعدد الآلهة ، فإذا لم تكن كل قصة من هذه القصص ـ الواردة فى سفر تكوين ـ أسطورة لا أكثر ، وإذا لم يكن لها ـ كما اعتقد بحق ـ تفسير يخفى على الناس ، فهى مليئة بالتجديف فى حق الله ، ذلك أنها تمثله ، أول ما تمثله ، جاهلاً بأن التى خلقها لتكون عوناً لآدم ستكون سبب سقوطه ، ثم تمثله إلهاً حقوداً حسوداً إلى أقصى الحقد والحسد ، وذلك بما تعزوه إليه من أنه يأبى على الإنسان أن يعرف الخير والشر ، وهى دون غيرها التى تؤلف بين عناصر العقل البشرى ، وتجعله وحدة

متناسقة، وأنه يخشى أن يصبح الإنسان مخلداً إذا طعم من شجرة الحياة . ولم يكون إلهكم غيوراً حسوداً إلى هذا الحد ، فيأخذ الأبناء بذنوب الآباء ؟ولم يغضب الإله العظيم ذلك الغضب الشديد على الشياطين والملائكة والآدميين ، ألا فوازنوا بين سلوكه وسلوك ليقورغ نفسه ، والرومان أنفسهم ، إزاء من يخرجون على القوانين ، يضاف إلى هذا أن العهد القديم يقر التضحية الحيوانية ، ويتطلبها ، كما تقرها وتتطلبها الوثنية) .

وكان يرى أن النفس البشرية ـ إذا ما سلكت طريق التقى والصلاح والفلسفة ـ قد تتحرر من سجنها هذا ، وتسمو إلى آفاق التفكير في الحقائق والشرائع الروحية ، وتندمج بهذا في الحكمة الإلهية بل ربما اندمجت في الله الأزلي نفسه .

إن هذا البطل الذى صار قيصراً على الغرب ـ من قبل الإمبراطور قسطنطيوس ـ منذ سنة ٣٥٥ ، واستطاع حماية جبهة الراين ضد قبائل الفرنجة ، ثم أصبح إمبراطوراً بعد موت قسطنطيوس سنة ٣٦١ ، وتغلب على كثير من المؤامرات والدسائس ـ كان في وثنيته ضحية الواقع الكنائسي الذى كشفته (حرب المجامع) .

ومن ثم أصدر أمراً بفتح أبواب المعابد الوثنية، وتقريب الأضاحي على مذابحها إرضاءً للأرباب، وأصدر قراراً بمنع المسيحيين من دراسة الآداب الإغريقية ، وحرم على المعلمين أن يقوموا بالتدريس إلا إذا دانوا بعبادتهم للأرباب ، وأعلن أنه من السخف أن يتصدى المسيحيون لتعليم الآداب الكلاسيكية في الوقت الذى يمتهنون أرباب أعلامها .

لقد كان منطقياً مع البيئة من حوله ، أو كان موقفه هذا احتجاجاً عنيفاً على ما سبق أن اختزنه من تعاليم المسيحية ، وكأنه كان على يقين من أنه لن ينجو من ضربة في الظلام تحمل شارة الصليب ، لهذا حين أصيب في حربه مع الفرس ، صاح ـ وهو ينثر دمه في الهواء ـ (ها قد انتصرت أيها الجليلي) .

وتولى جوفيان أخوه ، وكان مسيحياً لطيفاً يخالط العامة ، ومنذ توليه الحكم أعلن أنه (لن يضار أحد من أجل العقيدة ، وأنه يقدم الحب لمن يسعى صادقاً من أجل وحدة الكنيسة والسلام) .

لكن رجال الكنيسة كانوا في غيهم يعمهون .

لم يستطيعوا الاستفادة من تجربة جوليـان التى كانت محاكمة عنيفـة لواقع

الكنيسة ، وكان حسبهم منه حرصه على إحقاق الحق ، وأن (المتهم برىء حتى تثبت إدانته) .

ولم يستطيعوا الاستفادة من سماحة جوفيان ، ومد يده إليهم ، رجاء أن يبدءوا صفحة جديدة .

لكن ، كما قال سوزومين المؤرخ الكنسى :

(راح الأساقفة يؤججون ثانية نيران الشقاق ، وحمى مرة أخرى وطيس الشقاق ، لقد أظلهم صمت رهيب طوال عهد جوليان ، وغلفهم الهدوء القلق ، وأخذوا يبسطون أكف الضراعة من أجل رحمة الرب ، فلما كشف عنهم الهوان ، إذا هم ينكثون ، ذلك دأب أولئك الرجال) .

ويضيف سقراط المؤرخ الكنسى : (إن الأساقفة يتحلقون حول العرش ، كل يريد أن يجتذب إلى معتقده جوفيان ، ذلك أنه ما إن عاد جوفيان من فارس حتى قامت الكنيسة تغرق نفسها في مشاكل جديدة) .

يقول ول ديورانت : ونتج عن هذه الخلافات المجمعية (مقتل ثلاثة آلاف شخص ، وأغلب الظن أن الذى قتلوا من المسيحيين بأيدى المسيحيين فى عامى ٣٤٣/٣٤٢ يزيد عددهم على من قتلوا بسبب اضطهاد الوثنيين للمسيحيين فى تاريخ روما كله) .

* * وجاء دوناتوس أسقف قرطاجنة سنة ٣١٥ فأنكر ما للعشاء الربانى الذى يقدمه القساوسة من أثر فى الخطيئة .

وتحمس لهذه العقيدة (المارقة) الفقراء ، واستحال هذا (الانحراف) الديني إلى ثورة اجتماعية .

غضب الأباطرة على هذه الحركة ، وأصدروا المراسيم ضد من يستمسكون بها ، وفرضوا عليهم الغرامات الفادحة ، وصادروا أملاكهم ، وحرموا على الدوناتيين حق التصرف فيما يمتلكون بالبيع أو الشراء أو الوصية ، وأخرجهم الجنود من كنائسهم بالقوة ، وأعطيت هذه الكنائس للقساوسة أتباع (الدين القويم) ، وسرعان ما تألفت عصابات مسيحية ـ شيوعية فى آن واحد ـ سميت باسم الجوّابين ، وأخذت تندد بالفقر والاسترقاق ، فألغت الديون، وحررت الرقيق ، وحاولت أن تعيد المساواة المزعومة التى كان يتمتع بها الإنسان

البدائى ، وكانوا يقتنعون عادة بالسرقة ، وقطع الطريق على المارة ، لكنهم فى بعض الأحيان يغضبون من المقاومة ، فيعمون أعين أتباع (الدين القويم) ، أو أعين الأغنياء ، بمسحها بالجير ، أو يضربونهم بالعصى الغليظة حتى الموت ، وكانوا إذا واجهوا الموت ابتهجوا به ، لأنه يضمن لهم الجنة ، واستبد بهم التعصب الدينى آخر الأمر ، فكانوا يسلمون أنفسهم إلى ولاة الأمور، معترفين بأنهم مارقون من الدين ، ويطالبونهم بالاستشهاد ، وكانوا يعترضون السابلة يطلبون إليهم أن يقتلوهم ، ولما تعب أعداؤهم أنفسهم من إجابتهم إلى ما يريدون أخذوا يطلبون الموت بالقفز فى النيران المتقدة ، أو بإلقاء أنفسهم من فوق الأجراف العالية ، أو بالمشى فوق ماء البحر .. وحارب أوغسطين أسقف هيبو (Hippo) (٣٥٤ ـ ٤٣٠) الدوناتيين بكل مالديه من وسائل ، وبدا فى وقت من الأوقات أنه قد تغلب عليهم، لكن الدوناتيين عادوا إلى الظهور أكثر عدداً ، حين جاء الوندال إلى أفريقيا ، وسروا أعظم السرور بطرد قساوسة (الدين القويم) ، وبقى الحقد الطائفى يأكل الصدور ، وينتقل من الآباء إلى الأبناء ، وهو أشد ما يكون قوة ، حتى جاء العرب إلى أفريقيا سنة٦٧٠ ، فلم يجدوا قوة متحدة توقف تقدمهم .

* * وحوالى سنة ٤٠٠ ظهر فى روما راهب بولندى يسمى بيلاجيوس (Pelagius) ليثير ثلاث قارات ، بهجومه على عقيدة (الخطيئة الأولى) الموروثة عن آدم ، لأن خطيئة كل إنسان تخصه وحده ، وتقع عليه وحده .. وقد وجد فى فلسطين كثيرين تعاطفوا معه، وفى (مجمع اللد) سنة ٤١٥ أعلنوا أنه مستقيم العقيدة .

وحاول أبوليناريوس أسقف لاودكيه (٣١٠ ـ ٣٩٠) صياغة تفسير لطبيعة المسيح الإلهية البشرية على أن الجسد بطبيعته خاطئ ، ولكى يكون المسيح بلا خطيئة وجب أن يأتى إليه روح أو عقل إلهى ، ليرشد الجسد ، ويسيطر عليه (لقد أخذ اللوجوس الإلهى مكان الروح البشرى ، أو العقل الإنسانى فى المسيح ، وظل الجسم فقط بشرياً) .

وقد استنكرت رأى أبوليناريوس وأدانته مجامع روما سنة ٣٧٧ ، وأنطاكية سنة ٣٧٩ ، والقسطنطينية سنة ٣٨١ .

أما ديودوروس الطرسوسى قس أنطاكية ، ثم أسقفها ، وعضو مجلس أفسس سنة ٤٣١ ـ فقد هاجم سنة ٣٩٤ الآريوسية وآراء أبوليناريوس ، إذ (قدم فكرة وجود شخصين فى المسيح ، فى شكل اتحاد أدبى معنوى ، فالذى ولد من مريم هو الإنسان فقط ، وكان

التجسد هو سكنى اللوجوس في إنسان كامل كسكنى الله فى الهيكل .. إن اتحاد الناسوت واللاهوت فى المسيح يشبه اتحاد الجسد والروح فى أى شخص) .

وهـو بعينـه ما قاله أبوليناريوس ، مما يفيد حيرة القوم فى تفسير ما ابتلوا به منذ مجمع نيقيـه .

* وجاء نسطوريوس أسقف القسطنطينية سنة ٤٢٨ فكشف جميع الأوراق ، وقال: إن كلمـة ثيوتوكوس لم تميز بدرجة كافيـة بين اللاهوت والناسوت في المسيح ، وفضـل أن يطلق على مريم لفظ كريستوكوس ، أى أم المسيح ، لأن (مايولد من الجسد فهـو جسد) ، وقال: (تسألون عما إذا كان يمكن أن تدعى مريم « أم الله » ، إذن هل لله أم؟ إذا صح هذا فالوثنية نفسها معذورة في أن تنسب أمهات لآلهتها ، لكن حينئذ يكون بولس الرسول كاذباً ، لأنه قال عن لاهوت المسيح أنه كان « بلا أب ، بلا أم ، بلانسب » ــ عب ٧ : ٣ ــ لا ياسيدى ، مريم لم تحمل الله فى بطنها ، فإن المخلوق لا يحمل الخالق غير المخلوق ، لكن مريم حملت الإنسان الذى هو أداة الله ، لم تحمل مريم من الروح القدس في اللوجوس ، لكن الروح القدس صاغ وكون من العذراء هيكلاً يسكنه اللوجوس ــ يوحنا ٢ : ٢١) .

ونقل يوحنا لا يخدم الفكرة (الآريوسية) التى أرادها نسطوريوس ، لأن الحوار بين اليهود والمسيح كان عن إقامة هيكل المعبد الذى بنى فى ست وأربعين سنة ، فقال لهم عيسى : (انقضوا هذا الهيكل ، وفى ثلاثة أيام أقيمه ، فقال اليهود في ست وأربعين سنة بنى هذا الهيكل أفأنت فى ثلاثة أيام تقيمه ؟) ، وجاء يوحنا ليقول : (وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده) ، فهل كان يقصد القيامة بعد صلبه ؟ وما علاقة هذا بموضوع التحدى وعلى فرض أنه قصد هذا ، فما علاقة قيام (هيكل جسده) بما قصد نسطوريوس عن صياغة الروح القدس من (العذراء هيكلاً يسكنه اللوجوس) ؟! .

المهم أن نسطوريوس أصر على موقفه ، وطلب الاستشهاد بما جهر به من شكوك فى أم المسيح ، باعتبارها (ليست أم الله الحق ، بل أم كلمة الله ، المشتملة على طبيعتى المسيح الإلهية والبشرية معاً) .

وعقد البابا سلستين الأول (Celestine) فى روما سنة ٤٣٠ مجلساً طالب بأن يرجع

نسطوريوس عن آرائه أو يعزل من منصبه ، فلما رفض سطوريوس كلا المطلبين اجتمع فى أفسوس سنة ٤٣١ مجلس عام ، لم يعزل نسطوريوس فحسب ، بل حرمه أيضاً من الكنيسة المسيحية ، ذلك أن كيرلس الأول أسقف الإسكندرية المتوفى سنة ٤٤٤ كان من أعضاء المجلس ، وكان يقول : (إن كان ربنا يسوع المسيح هو الله ، فكيف يمكن للقديسة مريم العذراء التى ولدته أن لا تكون أم الله ؟) .

ويقال إن نسطوريوس قد وصل إلى هذا المجلس ومعه ستة عشر أسقفاً وحرس مسلح ، ووصل كيرلس ومعه خمسون أسقفاً مصرياً عدا الرهبان والخدم والبحارة .

وقد سيطر كيرلس على المجلس الذى انعقد بحضور مائة وستين أسقفاً ، وتمت إدانة نسطوريوس ، وأرسلوا إليه الرسالة التالية :

(إلى نسطور ، يهوذا الجديد ، اعلم أنه بسبب تعاليمك المتمردة ، وعصيانك لقوانين الكنيسة فإنه فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يونية الجارى سنة ٤٣١ ، وعملاً بلوائح وبقوانين الكنيسة ، قــرر المجمع المقدس عزلك ، كما قرر أنه لم يعد لك أى رتبة فى الكنيسة) .

بعد أيام وصل يوحنا أسقف أنطاكية مع وفده ، وعقد مجمعاً مضاداً ، تم فيه التصويت على أن كيرلس وممنون هرطوقيان ، وأن كليهما معزول من وظائفه .

فلما وصل وفد روما ، جمعهم كيرلس مع الوفود المؤيدة له ، وأصدروا المزيد من الإدانات ضد يوحنا وسطور .

وسمح لنسطوريوس أن يرتحل إلى أنطاكية ، لكنه ظل يدافع عن آرائه ، ويطالب بالعودة إلى منصبه ، فنفاه الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى إلى واحة فى صحراء ليبيا .

ولما مات سنة ٤٥١ انتقل أتباعه إلى شرقى سوريا ، وشادوا لهم كنائس ، وأنشئوا مدارس لتعليم مذهبهم فى الرها ، وترجموا التوراة ، وكتب أرسطو وجالينوس ، إلى اللغة السريانية ، وكان لهم شأن كبير فى تعريف المسلمين بعلوم اليونان وطبهم وفلسفتهم .

ولما اضطهدهم الإمبراطور زينون انتقلوا إلى فارس ، وأنشئوا مدرسة عظيمة الأثر فى نصيبين .

وعلا شأنهم بسبب اضطهاد الفرس لهم .. وتكونت منهم جماعات فى بلخ وسمرقند ، وفى الهند والصين .

ولا يزالون حتى الآن يعيشون جماعــات متفــرقة فى آسيا ، ولايزالون ينكرون عبـادة مريم .

وقد وجد فى مدينة سيجان الصينية نقش على الحجر باللغتين السريانية والصينية يرجع عهدها إلى سنة ٧٨١ ، مما يفيد قدم عهدهم بالصين .

وقد كان لغزو تيمورلنك واضطهاده سنة ١٣٨٠أسوأ الأثر فى الكنيسة النسطورية ، لكن ابن صرما مطران نصيبين أحياها ، وهى الآن فى العراق وإيران وسوريا ، تتمثل فى جماعات قليلة ، كما يوجد عدد من كنائسها فى الولايات المتحدة الأمريكية ـ المسيحية والحضارة العربية ص ٤٢ .

* يقول رسل فى (تاريخ الفلسفة الغربية جـ ٢ ص ١٠٢/١٠٥) عن كيرلس :

كان غيوراً على الدين غيرة فيها هوس التعصب ، واستخدم منصبه فى إثارة المذابح ضد اليهود فى الإسكندرية ، وكان لليهود بها جالية كبيرة جداً ، وأشهر ما يشتهر به هو محاكمته ومعاقبته (هيپاشيا) ، غير مستند إلى قانون فقد (انتزعت من عربتها انتزاعاً ، وعريت عن ثيابها ، وجرت إلى الكنيسة ، وذبحت ذبحاً وحشياً ، على يدى « بطرس القارئ » وطائفة من المتهوسين الدينيين الغلاظ القلوب ، القساة بغير رحمة ، وكشط لحمها عن عظامها بمحار حاد الأطراف ، وقذف فى النار بأعضاء جسدها وهى ترتعش بالحياة ، لقد كانت المحاكمة العادلة والعقاب العادل كلما أحذا مجراهما يعودان فيحتفيان بما يقدم من الهدايا التى تجيء فى أونتها المناسبة لذلك) ـ عن جيبون ـ فصل ٤٧ .

وبعد موت القديس كيرلس حاول رؤساء الطائفة الدينية فى إفسوس أن يدفعوا بنصرهم إلى آخر الشوط ، فترددوا فى زندقة من نوع يناقض زندقة نسطوريوس ، وهى ما يطلق عليه (الزندقة القائلة بالطبيعة الواحدة) ، ومؤدى ما تذهب إليه أن المسيح ذو طبيعة واحدة فقط ، ولو قدكان القديس كيرلس لا يزال حياً ، لأيد هذا الرأى تأييداً لاشك فيه ، وأصبح بذلك زنديقاً .

* * كان بالقسطنطينية طبيب راهب ، هو الأرشمندريت أوطيخا (يوتيخس) : الذى أذاع مبدأ ينص على وحدة طبيعة المسيح .. قال : إن جسد المسيح ليس هو مع أجسادنا بالطبيعة ، وإن المسيح قبل التجسد من طبيعتين ، وبعد التجسد طبيعة واحدة .

وهو قول لا يبعد عما ذهبت إليه مدرسة الإسكندرية ، ومقالة يعقوب البرذعانى، وهو ما عليه المصريون حتى اليوم .

وقبل إن بعض الأساقفة ناظره ودحض حجته ، فأرسل بطريرك القسطنطينية إليه، واستحيره ، ثم جمع جمعاً عظيماً لمناظرته .

قال أوطيخا : (إن قلنا إن المسيح طبيعتان فقد قلنا بقول نسطوريوس ، ولكنا نقول إن المسيح طبيعة واحدة ، وأقنوم واحد ، لأنه من طبيعتين كانتا قبل التجسد ، فلما قبل التجسد زالت عنه ، وصار طبيعة واحدة ، وأقنوماً واحداً) .

فرد بطريرك القسطنطينية : (إن كان المسيح طبيعة واحدة ، فالطبيعة القديمة هى المحدثة ، وإن كان القديم هو المحدث ، فالذى لم يزل هو الذى لم يكن ، ولو جاز أن يكون القديم هو المحدث لكان القائم هو القاعد ، والحار هو البارد) .

وأبى أوطيخا أن يرجع عن مقالته ، فلعنوه واستعدى إلى الملك ، وزعم أنهم ظلموه ، وسأله أن يكتب إلى جميع البطارقة للمناظرة ، فاستحضر الملك البطارقة والأساقفة من سائر البلاد إلى مدينة إفسس ، فثبت بطريرك الإسكندرية مقالة أوطيخا ، وقطع بطارقة القسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس ، وسائر البطارقة والأساقفة ، وكتب إلى بطريرك روما وإلى جماعة الكهنة فحرمهم ومنعهم من القربان ، إن لم يقبلوا مقالة أوطيخا .

وافترق هذا المجمع وكل فريق يلعن الآخر ويحرمه ، ويبرأ من مقالته ـ هداية الحيارى ص ٢٦٧ .

* ولما تولى الحكم مرقيا نوس ، وكان حريصاً على أن تكون علاقته طيبة بروما ، اجتمع إليه الأساقفة من سائر البلاد ، وأعلموه ما كان من ظلم ذلك المجمع ، وقلة الإنصاف ، وأن مقالة أوطيخا قد غلبت على الناس وأفسدت دين النصرانية ، فأمر الملك باستدعاء سائر البطارقة والمطارنة والأساقفة إلى مدينة خلقيدنية سنة ٤٥١ ، فاجتمع فيها ستمائة وثلاثون أسقفاً ، فنظروا فى مقالة أوطيخا وبطريرك الإسكندرية ، وكان البابا ليو العظيم يعارض تلك المقالة بشدة ، فأدين مذهب وحدة طبيعة المسيح ، وعدّ زندقة من الزندقات .

وأثبت مجمع خلقيدونية (أن المسيح إله وإنسان ، فى المكان مع الله باللاهوت ، وفى

المكان معنا بالناسوت ، يعرف بطبيعتين ، تام باللاهوت وتام بالناسوت ، ومسيح واحد) .

وأيد أقوال الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً في مجمع نيقيه سنة ٣٢٥ (أن الابن مع الله في المكان ، نور من نور ، إله حق من إله حق) .

ولعن أريوس ، وقال : (إن روح القدس إله ، وإن الآب والابن وروح القدس واحد بطبيعة واحدة وأقانيم ثلاثة) .

ووافق على ما ذهب إليه مجمع إفسس ضد نسطوريوس ، وقال : (إن مريم العذراء وَلَدَت إلهاً ، ربنا يسوع المسيح ، الذى هو مع الله بطبيعة ، ومع الناسوت بطبيعة) ، وشهد (أن للمسيح طبيعتين ، وأقنوماً واحداً) .

ولعن نسطوريوس وبطريرك الإسكندرية ، كما لعن المجمعين الثانى والثالث بمدينة إفسس.

يقول صاحب (الحضارة البيزنطية ص ٣١/٣٠) : وكان مجلس خلقيدونية نقطة التحول فى تاريخ الإمبراطورية بمصر وسوريا ، إذ كانت نظرية وحدة طبيعة المسيح تناسب المزاج الشرقى ، وسرعان ما انتشرت فى كل أرجاء الولايات الكنائس المعتنقة لمذهب وحدة الطبيعة ، وقد وحدتها جميعاً معارضتها لمجمع خلقيدونية ، وترتب على هذا تقبل الفتوحات العربية بعد ذلك بقرنين فى كل من مصر وسوريا .

* وفى أيام أنسطاس الملك (قنسطانز الثانى) ، كان (سورس) القسطنطينى على رأى أوطيخا ، فجاء إلى الملك يقول : (إن المجمع الخلقيدونى فى الستمائة والثلاثين قد أخطئوا فى لعن أوطيخا وبطريرك الإسكندرية ، والدين الصحيح ما قالاه ، فلا يقبل دين من سواهما ، ولكن اكتب إلى جميع عمالك أن يلعنوا الستمائة والثلاثين ، ويأخذوا الناس بطبيعة واحدة ، ومشيئة واحدة، وأقنوم واحد) . فأجاب الملك إلى ذلك ، فلما بلغ ذلك إيليا بطريرك بيت المقدس ، جمع الرهبان ، ولعنوا أنسطاس الملك وسورس، ومن يقول بمقالتهما ، فبلغ ذلك أنسطاس ، ونفاه إلى أيله ، وبعث يوحنا بطريركاً على بيت المقدس، لأن يوحنا كان قد ضمن له أن يلعن المجمع الخلقيدونى الستمائة والثلاثين ، فلما قدم إلى بيت المقدس اجتمع الرهبان ، وقالوا : (إياك أن تقبل من سورس ، ولكن قاتل عن المجمع الخلقيدونى ، ونحن معك) .

واجتمع عشرة آلاف راهب ورؤساء الديرات ، فلعنوا أوطيخا وسورس ونسطورس ومن

لايقبل المجمع الخلقيدونى ، وقرع رسول الملك من الرهبان ، وكتبوا إلى أنسطاس الملك أنهم لا يقبلون مقالة سورس ولا أحد من المخالفين ، ولو أهريقت دماؤهم ، وسألوه أن يكف أذاه عنهم ، وكتب بطريرك روما إلى الملك يقبّح فعله ويلمنه .

وانفض هذا المجمع وقد تلاعن فيه الجميع .

وكان لسورس تلميذ يقال له يعقوب البرادعى فأفسد أمانة النصارى ، ثم مات أنسطاس وتولى قسطنطين الرابع ، فرد كل من نفاه أنسطاس الملك إلى موضعه .

ثم تولى ملك آخر هو (جستنيان الثانى)[1] وكانت اليعقوبية قد غلبوا على الإسكندرية ، وقتلوا بطريقاً لهم ، يقال له بولس ، كان ملكياً ، فأرسل قائداً ومعه عسكر عظيم إلى الإسكندرية، فدخل الكنيسة فى ثياب البطريق ، وتقدم وقدس ، فرجموه بالحجارة ، حتى كادوا يقتلونه ، فانصرف ، ثم زعم أن كتاباً جاء من الملك ، ودعا الناس إلى سماعه ، حتى إذا اجتمعوا أعمل جنده فيهم السيوف ـ هداية الحيارى ص ٢٦٩/٢٧٠ .

* وحدث أن أسقف منبج قال بالتناسخ ، وأنه ليس قيامة ، وكان أسقف الرها ، وأسقف المصيصة ، وأسقف آخر ، قالوا : (إن جسد المسيح خيال غير حقيقة) فحشرهم الملك إلى القسطنطينية ، فقال لهم بطريقها : (إن كان جسده خيالاً يجب أن يكون فعله خيالاً ، وقوله خيالا ، وكل جسد يعاين لأحد من الناس أو فعل أو قول فهو كذلك) .

وقال البطريق لأسقف منبج : (إن المسيح قام من الموت ، وأعلمنا أنه كذلك يقوم الناس من الموت يوم الدينونة ، وقال فى إنجيله : « إنه تأتى ساعة حتى أن كل من فى القبور إذا سمعوا قول ابن الله يحيون » فكيف تقولون ليست قيامة ؟) . فأوجب عليهم الخزى واللعن .

وأمر الملك أن يكون لهم مجمع يلعنون فيه ، واستحضر بطارقة البلاد ، فاجتمع مائة وأربعة وستون أسقفاً ، فلعنوا أسقف منبج وأسقف المصيصة ، وثبتوا قول أسقف الرها : (إن جسد المسيح حقيقة لا خيال ، وأنه إله تام ، وإنسان تام ، معروف بطبيعتين ومشيئتين

(١) أسماء الأباطرة الثلاثة بعد الفتح العربى ، على حين تجرى أحداث هذه المجامع قبل الفتح

وفعلين وأقنوم واحد) ، وثبتوا المجامع الأربعة التى عقدت بعد المجمع الخلقيدونى .

* وفى أيام معاوية بن أبى سفيان ، كان لهم مجمع آخر تلاعنوا فيه ، وذلك أنه كان بروما راهب قديس يقال له مقسلموس ، وله تلميذان ، فجاء إلى قسطا الوالى ووبخه على قبح مذهبه ، وشناعة كفره ، فأمر به قسطا فقطعت يداه ورجلاه ، ونزع لسانه ، وفعل بأحد التلميذين مثله ، وضرب الآخر بالسياط ونفاه .

بلغ ذلك ملك قسطنطينية (المفروض أنه قسطنطين الرابع) ، فأرسل إليه أن يوجه إليه من أفاضل الأساقفة ليعلم وجه هذه الحجة ، ومن الذى كان ابتدأها ، لكيما يطرح جميع الآباء القديسين كل من استحق اللعن ، فبعث إليه مائة وأربعين أسقفاً وثلاثة شمامسة ، وجمع الملك مائة وثمانية وستين أسقفاً ، فصاروا ثلاثمائة وثمانية ، وأسقطوا الشمامسة فى (البرطحة) .

كان رئيس هذا المجمع بطريرك القسطنطينية وبطريرك أنطاكية ، ولم يكن لبيت المقدس والإسكندرية بطريرك ، فلعنوا من تقدم من القديسين الذين خالفوهم ، ولعنوا أصحاب المشيئة الواحدة ، ولخصوا (الأمانة المستقيمة) ، بزعمهم ، وثبتوا ما ثبتته المجامع الخمسة التى كانت قبلهم ، ولعنوا من لعنوه ، وانصرفوا .

* ولما توفى الملك ، وتولى بعده ، ابنه اجتمع فـــريق من المجمع السابق ، وزعمـــوا أن اجتماعهم كان على الباطل ، فجمع الملك مائة وثلاثين أسقفاً ، فثبتوا ما جاء فى المجمع السابق ، ولعنوا من لعنهم وخالفهم ، وثبتوا قول المجامع الخمسة ، ولعنوا من لعنوه ، وانصرفوا .

يقول ابن قيم الجوزية : (وقد اشتملت هذه المجامع « العشرة » المشهورة على زهاء أربعة عشر ألفاً من الأساقفة والبطارقة والرهبان ، كلهم يكفر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، فدينهم إنما قام على اللعنة ، بشهادة بعضهم على بعض ، وكل منهم لاعن وملعون) .

(فإذا كانت هذه حال المتقدمين ، مع قرب زمنهم من أيام المسيح ، ولقاء أخيارهم فيهم ، والدولة دولتهم ، والكلمة لهم ، وعلماؤهم إذ ذاك أوفر ما كانوا ، واحتفالهم بأمر دينهم واهتمامهم به كما ترى ، ثم هم مع ذلك تائهـــون حائرون بين لاعن وملعـــون ، لا يثبت لهم قدم ، ولا يتحصل لهم قول فى معرفة معبودهم ، بل كل منهم قد اتخذ إلهه

هواه ، وباح باللعن والبراءة ممن اتبع سواه ، فما الظن بحثالة الماضين ، ونفاية العابرين ، وزمالة الحائرين ، وذرية الضالين ، وقد طال عليهم الأمد ، وبعد العهد ، وصار دينهم ما يتلقونه من الرهبان) ؟! هداية الحيارى ص ٢٧٣/٢٧١ .

وأضاف صاحب (الحضارة البيزنطية ص ٤٠/٣٨) : أن هرقل ـ ككل أسلافه من قبله ـ حاول أن يفوز بصداقة المؤمنين بوحدة الطبيعة ، بتسوية لاهوتية يعقدها ، فتبنى الفكرة القائلة بأن للمسيح طبيعة واحدة فقط ، أو على كل حال إرادة واحدة فقط ، على أن (فكرة وحدة الإرادة) هذه ـ وإن لقيت بعض النجاح في القسطنطينية ، بل ساهم في تأييدها البابا هونوريوس الأول ـ لم ترض أتباع مذهب وحدة الطبيعة ، فإن ما كان واقعاً بهم من مظالم سياسية ، وما يملأ نفوسهم من كراهية مقيمة لمراسيم خلقيدونية ، جعلتهم متذمرين على الدوام ، مما ساعد على تقبل الغزو العربي الإسلامي .

وقد ظل أباطرة الأسرة الهرقلية يناصرون مذهب وحدة الإرادة إلى حين ، ثم داروا على أعقابهم ، ودعوا إلى مجمع مسكوني بالقسطنطينية سنة ٦٨٠ ، لكي يستنكر تلك الزندقة ، والتأم بعد ذلك مجمع إضافي ملحق بالأول هو (مجمع ترولّلو المقدس) ، واتخذ قراراً ظل إلى الأبد دستور الكنيسة البيزنطية ، وقاعدتها الأساسية .

ولعله في هذا المجمع كانت محاكمة (المارونية) ، إذ إن يوحنا مارون ظهر سنة ٦٦٧ ، يدعو إلى أن المسيح ـ مع أنه ذو طبيعتين ـ له مشيئة واحدة ، وإرادة واحدة ، وهي المشيئة الإلهية ، والإرادة الإلهية ، لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد إلهي .

وقد شايعه في هذا الرأي بعض مسيحيّ آسيا .

لكن هذه المقالة لم ترق بابوية روما ، ورؤساء الكنائس الكاثوليكية ، فأوعزوا إلى الإمبراطور ، وعرض الأمر على مجلس القسطنطينية سنة ٦٨٠ ، وكان مؤلفاً من ٢٨٩ أسقفاً ، وانتهى بإصدار قرار يكفر يوحنا مارون ويلعنه ويطرده ، ويكفر كل من يقول بالمشيئة الواحدة .

وقد نزلت بالمارونيين اضطهادات شديدة ، فأخذوا يفرون من بلد إلى بلد ، إلى أن انتهى بهم المطاف إلى جبل لبنان ، وظلوا مستقلين في شئونهم الدينية ، إلى أن قربتهم كنيسة روما إليها ، لأسباب سياسية ، فأعلنوا سنة ١١٨٢ ولاءهم لها ، مع بقائهم على مذهب المشيئة الواحدة .

وفي سنة ٨٦٩ عقد مجمع في القسطنطينية أصدر قراراً بأن روح القدس منبثق من الآب والابن معاً ، واشتهر هذا المجمع باسم (المجمع الغربي اللاتيني) .

وفي سنة ٨٧٩ عقد مجمع آخر في القسطنطينية ، أصدر قراراً بأن روح القدس منبثق من الآب وحده ، واشتهر هذا المجمع باسم (المجمع الشرقي اليوناني) .

وظلت المجامع المسكونية تجتمع لصالح هذا الفريق أو ذاك ، بأمر من البابا أو الإمبراطور ، وكلها تصدر قرارات باللعن والطرد .

* ويلاحظ أن قضية (بشرية المسيح وألوهيته) ظلت إلى يومنا هذا مثار جدل المجامع والمجالس الكنسية وغير الكنسية .

ولما كانت المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى ، فيما يسمى عصر الإيمان ، وعصر النهضة ، ثم عصر فولتير وروسو ـ لجلج كثيرون ، معظمهم من رجال الدين ، بشأن بشرية المسيح .

وأخيراً قالت دائرة المعارف البريطانية : (إن عيسى الناصرى كان رجلاً عادياً ، وإنه تشرف بالرسالة عند تعميده على يد سيدنا يحيى ـ يوحنا المعمدان ـ وكان آخرون يقولون بأنه نال شرف التبنى ، ولبس البنوة العضوية ، بعد بعثه ، أى رفعه إلى السماء) ـ الأناجيل لأحمد طاهر ص ٦٦ .

ويقول القس دى جروت في كتابه (التعاليم الكاثوليكية) : إن الثالوث الأقدس هو لغز بمعنى الكلمة ، والعقل لا يستطيع أن يهضم وجود إله مثلث ، لكن هذا ما علمنا إياه الوحي (!!) وحتى بعد وجود هذا اللغز الذى كشف عنه الوحي لنا ، فلا يزال من المستحيل على عقل الإنسان أن يعى كيف يجتمع ثلاثة أشخاص فى طبيعة إلهية واحدة .

وتقول دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة : (من الصعب ـ ونحن فى النصف الثانى من القرن العشرين ـ أن نقدم تفسيراً واضحاً إيجابياً ، لا لف فيه ولا دوران ، عن الوحى ، وعن تطور النظرية ، وتفسير لغز التثليث مذهبياً ، خاصة وأن المدافعين عن التثليث فى مناقشاتهم يقدمون ـ كما يقدم الكاثوليك الرومان وغيرهم ـ صورة مهزوزة ، فقد حدث أن نادى به المتضلعون فى علم اللاهوت ورجال الدين المسيحى ، مع أعداد متزايدة من الرومان الكاثوليك ، بأنه ممنوع على الفرد أن يتحدث عن التثليث فى العهد الجديد ، دون أن يكون مؤهلاً لذلك ، ويسير مع هؤلاء على قدم المساواة المؤرخون للدين المسيحى والمذاهب الدينية

المنبثقة عنه ، فكل من يتكلم فى التثليث دون أن يكون مؤهلاً لذلك ـ إنما ينتقل إلى أحداث الربع الأخير من القرن الرابع ، ففى هذا الوقت فقط أدخل ما يسمى بالتثليث إلى المسيحية فكراً وحياةً) ـ المصدر السابق ص ١١٣ ، وفى اجتماع ممثلى الكنيسة فى أورشليم سنة ١٩٥٩ صرح الأنبا غريغوريوس بقوله :

(إنى أتجاسر وأقرر أن كل الجدال الدائر بين الكنائس الكاثوليكية الرومانية والبروتستانتينية والخلقيدونية من جانب ، وكنائس « الطبيعة الواحدة » أو الأرثوذكسية اللاخلقيدونية من الجانب الآخر ـ إنما هو فى جملته جدال فلسفى) .

(فهناك دائماً حبل سرى روحى ، غير مدرك بالعقل، يذيب ويحل ويتغلب على كل المتناقضات بسبب هذه الخبرة السرية الروحية ، فنحن لا نسأل دائماً . لماذا ؟ وكيف ؟) .

(عبارة « طبيعتين متحدتين معاً » هى عبارة فى غاية الخطورة ، لأنها تتضمن الازدواج ، وحتى نوعاً من الفصل بين اللاهوت والناسوت ، وإلا فلا معنى للإصرار على عبارة « طبيعتين » ، ما دام هناك اتحاد) .

(وتتضمن عبارة « طبيعتين » احتمال صلب جسد المسيح ، لا المسيح نفسه ، وكل الأسفار المقدسة ضد هذا المفهوم) .

هذه الحيرة التى كشف عنها الأنبا غريغوريوس ليس منشؤها الجدل الفلسفى ـ كما قال ـ بل السير فى طريق الرسول بولس، دون أن يسأل السائر نفسه : (لماذا ؟. وكيف؟) .

* ولما كان النصر لأمريكا فى الحرب العالمية الثانية أمكن تشكيل ما يسمى (مجلس الكنائس العالمى) الذى صار يتحرك بحركة السياسة الأمريكية ، وبحركة الصهيونية العالمية ، ومن مآثر هذا المجلس استصدار قرار من (الفاتيكان) ببراءة اليهود من دم السيد المسيح ، وأخذت المجالس الكنسية والمجامع المسكونية ، لا يشغلها أمر الدين بقدر ما يشغلها الوفاق مع المخطط الصهيونى العالمى ، بالرغم من المخطط (التبشيرى) بتحويل أفريقيا كلها إلى المسيحية قبل سنة ٢٠٠٠ ، لكنها مسيحية أمريكية تتداخل فيها المصالح السياسية والاقتصادية ـ أمريكية صهيونية ـ تحت مظلة (مجلس الكنائس العالمى) ، وضرب كل (الجيوب) الإسلامية فى كل من قارتى أوروبا وأفريقيا تحت رعاية (الصندوق الدولى) ، و (البنك الدولى) .. وبؤسى للذين يرقصون على (تراتيل) مجلس الأمن .

(ط) الفرق المسيحية فى التراث الإسلامى

قبل أن تظهر الفرق الثلاث الرئيسية : الملكانية والنسطورية واليعاقبة ، التى أسفرت عنها المجامع المقدسة ـ كان ثمة أصحاب بولس الشمشاطى (Samosati) الذى (كان قوله التوحيد المجرد الصحيح ، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام ، خلقه الله تعالى فى بطن مريم من غير ذكر ، وأنه إنسان لا إلهية فيه) ، وكان يقول : (لا أدرى ما الكلمة ، ولا روح القدس) .

وقد تبعه فى هذا مقدونيوس ، بطريرك القسطنطينية أيام قسطنطين بن قسطنطين بانى القسطنطينية ، وكان يقول (إن عيسى عبد مخلوق ، إنسان نبى ، رسول الله ، كسائر الأنبياء عليهم السلام ، وإن عيسى هو روح القدس ، وكلمة الله عز وجل ، وإن روح القدس والكلمة مخلوقان) ـ الفصل لابن حزم جـ ١ ص ٤٨ .

ولم يبعد آريوس كثيراً عما ذهب إليه هذان الكبيران ، وإن كان صراعه مع بطريرك الإسكندرية جعله يضطرب باضطراب العبارات والمزالق التى كان يصنعها له أعداؤه .

ولما كانت دعوى الاتحاد والتجسد بين اللاهوت والناسوت ، اختلف القوم فى الكيفية .

يقول صاحب الملل والنحل (هامش الفصل جـ ٢ ص ٦٠) :

منهم من قال : أشرق على الجسد إشراق النور على الجسم المشف .

ومنهم من قال : انطبع فيه انطباع النقش فى الشمعة .

ومنهم من قال : ظهر بظهور الروحانى بالجسمانى .

ومنهم من قال : تدرع اللاهوت بالناسوت .

ومنهم من قال : مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن الماء .

وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة ، وعمدتهم اليوم ثلاث فرق :

الملكانية : مذهب جميع ملوك النصارى ، حيث كانوا ، حاشا الحبشة والنوبة ، ومذهب عامة أهل كل مملكة للنصارى ، حيث كانوا، حاشا الحبشة والنوبة ، ومذهب جميع نصارى أفريقية وصقلية والأندلس وجمهور الشام ـ الفصل جـ ١ ص ٤٨ .

وينسبهم الشهرستاني (جـ ٢ ص ٦٢) إلى (ملكا) الذي ظهر بالروم ، واستولى عليها (ليس في الأباطرة اسم قريب من هذا الاسـم) . ويقول الشهرستاني : معظم الروم (ملكائية) ، بينما ينسبهم آخرون إلى الملكية ، فقالوا (ملكانية) . ويروى الشهرستاني أنهم يقولون : إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح ، وتدرعت بناسوته ، ويعنون بالكلمة أقنوم العلم ، ويعنون بروح القدس أقنوم الحياة ، ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابناً ، بل المسيح مع ما تدرع به ابن ، فقال بعضهم : (إن الكلمة مازجت جسد المسيح ، كما يمازج الخمر اللبن ، أو الماء اللبن) .

وصرحت الملكائية بأن الجوهر غير الأقانيم ، وذلك كالموصوف والصفة ، وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث ، وقالت الملكائية : المسيح ناسوت كلي لا جزئي ، وهو قديم أزلي ، من قديم أزلي ، ولقد ولدت مريم ـ عليها السلام ـ إلهاً أزلياً ، والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت ، وأطلقوا لفظ الأبوة والبنوة على الله ، عز وجل ، وعلى المسيح ، لما وجدوا في الإنجيل ، حيث قال : (إنك أنت الابن الوحيد) ، وحيث قال شمعون الصفا : (إنك ابن الله حقاً) ، ولعل ذلك من مجاز اللغة ، كما يقال لطلاب الدنيا أبناء الدنيا ، ولطلاب الآخرة أبناء الآخرة .

ويبدو بيان الشهرستاني أقرب إلى الفكر الإسلامي ، لكن ابن حزم قال : (الفصل جـ ١ ص ٤٩) : إن الله تعالى ـ عبارة عن قولهم ـ ثلاثة أشياء : أب وابن وروح القدس ، كلها لم تزل ، وإن عيسى عليه السلام إله تام كله . وإنسان تام كله ، ليس أحدهما غير الآخر ، وإن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل ، وإن الإله منه لم ينله شيء من ذلك ، وإن مريم ولدت الإله والإنسان ، وإنهما معاً شيء واحد ، ابن الله .

وقول ابن حزم هو ما صرح به المجمع الخليقدوني ، وما تضطرب في سراويله الكاثوليكية إلى اليوم .

النسطورية : يقول الشهرستاني (الملل والنحل جـ ٢ ص ٦٤/٦٥) : هم أصحاب

نسطور الحكيم الذى ظهر في زمان المأمون ، وتصرف فى الأناجيل بحكم رأيه ، وقال : إن الله تعالى واحد ، ذو أقانيم ثلاثة : الوجود والعلم والحياة ، وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ، ولا هي هو ، واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام ، لا عن طريق الامتزاج ، كما قالت الملكائية ، ولا عن طريق الظهورية ، كما قالت اليعقوبية ، ولكن كإشراق الشمس فى كوة ، أو على بلور ، أو كظهور النقش فى خاتم .

وزعموا أن الابن لم يزل متولداً من الأب ، وإنما تجسد واتحد بجسد المسيح حين ولد ، والحدوث راجع إلى الجسد والناسوت ، فهو إله تام وإنسان تام ، ولم يبطل الاتحاد قدم القديم ، ولا حدوث المحدث ، لكنهما صارا مسيحاً واحداً .

وأما قولهم فى القتل والصلب فيخالف قول الملكائية واليعقوبية ، إذ قالوا : إن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته ، لا من جهة لاهوته ، لأن الإله لا تحله الآلام .

اليعقوبية : يقول صاحب (الفصل جـ ١ ص ٤٩/٥٠) قالت إن المسيح هو الله تعالى نفسه ، وإن الله مات وصلب وقتل ، وإن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر ، والفلك بلا مدبر ، ثم قام ورجع كما كان ، وإن الله تعالى عاد محدثاً ، وإن المحدث عاد قديماً ، وإنه تعالى كان فى بطن مريم محمولاً .

وهم فى أعمال مصر وجميع النوبة وجميع الحبشة ، وملوك الأمتين المذكورتين .

واليعقوبية : ينسبون إلى يعقوب البرذعانى ، راهب بالقسطنطينية ، وهم فرقة نافرت العقل والحس منافرة وحشة تامة ، لأن الاستحالة نقلة ، والنقلة والاستحالة لا يوصف بهما الأول الذى لم يزل ، ولو كان كذلك لكان مخلوقاً ، والمحدث يقتضى محدثاً خالقاً له ، ويكفى من بطلان هذا القول دخوله فى باب المحال والممتنع الذى قد أوجب العقل والحس بطلانه ، وليس فى باب المحال أعظم من أن يكون الذى لم يزل يعود محدثاً ، لم يكن ثم كان ، وأن يصير غير المؤلف مؤلفاً ، ويلزم هؤلاء القوم أن يعرفونا من دبر السموات والأرض وأدار الفلك هذه الثلاثة الأيام التى كان فيها ميتاً .

ثم يقال للقائلين بأن البارى تعالى ثلاثة أشياء : آب وابن وروح القدس ، أخبرونا إذ هذه الأشياء لم تزل كلها ، وأنها مع ذلك شىء واحد ، إن كان ذلك كما ذكرتم ، فبأى معنى استحق أحدهما أن يكون آباً ، والثانى ابناً ، وأنتم تقولون إن الثلاثة واحد ، وإن كل

واحد منهما هو الآخر ، والآب هو الابن ، والابن هو الآب ، فهذا عين التخليط !! .

وإنجيلهم يبطل هذا بقولهم فيه : « سأقعد عن يمين أبي » ، وبقولهم فيه : « إن القيامة لا يعلمها إلا الآب وحده ، وإن الابن لا يعلمها » .. فهذا يوجب أن الابن ليس هو الآب .

وإن كانت الثلاثة متغايرة ، وهم لا يقولون بهذا ، فيلزمهم أن يكون في الابن معنى من الضعف أو من الحدوث أو من النقص ، به وجب أن ينحط عن درجة الآب ، والنقص ليس من صفة الذى لم يزل ، مع ما يدخل على من قال بهذا من وجوب أن تكون محدثة لحصر العدد ، وجرى طبيعة النقص والزيادة فيها .

ويضيف الشهرستانى (الملل والنحل جـ ٢ ص ٦٧/٦٦) مفهوم (الظهورية) عندهم ، بقولهم انقلبت الكلمة لحماً ودماً ، فصار الإله هو المسيح ، وهو الظاهر بجسده ، بل هو هو .

ومنهم من قال : ظهر اللاهوت بالناسوت ، فصار ناسوت المسيح مظهر الحق ، لا على طريق حلول جزء فيه ، ولا على سبيل اتحاد الكلمة التى هى فى حكم الصفة ، بل صار هو هو .

وزعم أكثر اليعقوبية أن المسيح جوهر واحد ، أقنوم واحد ، إلا أنه من جوهرين ، وربما قالوا طبيعة واحدة من طبيعتين ، فجوهر الإله القديم وجوهر الإنسان المحدث تركبا ، كما تركبت النفس والبدن ، فصارا جوهراً واحداً ، أقنوماً واحداً ، وهو إنسان كله ، وإله كله ، فيقال الإنسان صار إلهاً ، ولا ينعكس ، فلا يقال الإله صار إنساناً ، كالفحمة تطرح فى النار ، فيقال صارت الفحمة ناراً ، ولا يقال صارت النار فحمة ، وهو فى الحقيقة لا نار مطلقة ، ولا فحمة مطلقة ، بل هى جمرة .

وزعموا أن الكلمة اتحدت بالإنسان الجزئى ، لا الكلى ، وربما عبروا عن الاتحاد بالامتزاج والادراع والحلول ، كحلول صورة الإنسان فى المرآة المجلوة .

* ويعالج ابن تيمية قضية الحلول والظهور هذه بطريقة أخرى ، لأن القوم ـ كما يبدو من عباراتهم ـ كانوا يطورون هذه العبارات ، بموجب المواقف (الدفاعية) التى كانوا يضطرون إليها ، أو قل إن تغيير العبارة وتطويرها جاء من قبل (الآخرين) الذين يكيفون

العبارة بموجب فهمهم للمقولة المسيحية ، ثم إن ابن تيمية فى (معالجته) كان مقوماً ناقداً مناظراً .

جاء فى (الجواب الصحيح جـ ٢ ص ١٢٢/١٢٠ ، ١٧٩/١٦٨) إنهم قالوا : مولود غير مخلوق ، مساو الآب فى الجوهر ، وصرحوا بأنه مساوٍ له فى الجوهر ، والمساوى ليس هو المساوَى ، ولا يساوى الآب فى الجوهر إلا جوهر ، فوجب أن يكون الآب جوهراً ثانياً ، وروح القدس ثالثاً .

وقالوا : تجسد من روح القدس ومريم ، فإذا كان روح القدس هو حياة الله كما زعمتم ، فيكون المسيح كلمة الله وحياته ، فيكون لاهوته أقنومين من الأقانيم الثلاثة ، وعندهم إنما هو أقنوم الكلمة فقط ؛ وإن كان روح القدس ليس هو حياة الله ، بطل تفسيركم لروح القدس بأنه حياة الله ، وقيل لكم : لا يجب أن يكون روح القدس صفة الله ولا أقنوماً .

ثم جعلتم روح القدس هذا ناطقاً فى الأنبياء عليهم السلام ، وحياة الله صفة قائمة به لا تحل فى غيره ، وروح القدس الذى تكون فى الأنبياء والصالحين ليس حياة الله القائمة به .. ولو كان روح القدس الذى فى الأنبياء هو أحد الأقانيم الثلاثة لكان كل من الأنبياء إلهاً معبوداً قد اتحد ناسوته باللاهوت ، كالمسيح عندكم ، فإن المسيح لما اتحد به أحد الأقانيم صار ناسوتاً ولاهوتاً ، فإذا كان روح القدس الذى هو أحد الأقانيم الثلاثة ناطقاً فى الأنبياء كان كل منهم فيه لاهوت وناسوت كالمسيح ، وأنتم لا تقرون بالحلول والاتحاد إلا للمسيح مع إثباتكم لغيره ما أثبتم له .

ولو كان المسيح نفس كلمة الله ، فكلمة الله ليست هى الإله الخالق للسموات والأرض ، ولا هى تغفر الذنوب ، وتجزى الناس بأعمالهم ، سواء كانت كلمته صفة له أم مخلوقة له ، كسائر صفاته ومخلوقاته ، فإن علم الله وقدرته وحياته لم تخلق العالم ، ولا يقول أحد : يا علم الله اغفر لى ، ويا قدرة الله ، توبى علىّ ، ويا كلام الله ارحمنى ، ولا يقال : يا توراته ، أو يا إنجيله ، أو يا قرآنه اغفرلى وارحمنى ، وإنما يدعو الله سبحانه ، وهو سبحانه متصف بصفات الكمال ، فكيف والمسيح ليس هو نفس الكلام ؟.

إنهم يشبهون اتحاد اللاهوت بالناسوت باتحاد الروح بالبدن ، كما شبهوا هنا ظهوره

فيه بظهور الروح في البدن ، وحينئذ فمن المعلوم أن ما يصيب البدن من الآلام تتألم به الروح ، وما تتألم به الروح يتألم به البدن ، فيلزمهم أن يكون الناسوت لما صلب وتألم وتوجع الوجع الشديد كان اللاهوت أيضاً متألماً متوجعاً ، وقد خاطبت بهذا بعض النصارى، فقال لي : الروح بسيطة ، أي لا يلحقها ألم . فقلت له : فما تقول في أرواح الكفار بعد الموت ، أمنعمة أم معذبة ؟. فقال : هي في العذاب ، فقلت : فعلم أن الروح المفارقة تنعم وتعذب ، فإذا شبهتم اللاهوت في الناسوت بالروح في البدن ، لزم أن يتألم إذا تألم الناسوت ، كما تتألم الروح إذا تألم البدن ، فاعترف هو وغيره بلزوم ذلك .

ومن المعلوم أن الأنبياء الذين كانوا قبل المسيح أفضل من عوام النصارى الذين كانوا بعد المسيح ، وأفضل من اليهود الذين كذبوا المسيح ، فإذا كان الرب قد يفضل باتحاده في المسيح حين كلم عباده بنفسه ، فيتحد بالمسيح محتجباً ببدنه الكثيف ، وكلم بنفسه اليهود المكذبين للمسيح وعوام النصارى ، وسائر من كلمه المسيح ـ فكان أن يكلم من هم أفضل من هؤلاء من الأنبياء والصالحين بنفسه أولى وأحرى ، فإذا كان هو سبحانه لم يفعل ذلك ، إما لامتناع ذلك ، وإما لأن عزته وحكمته أعلى من ذلك ، مع عدم الحاجة إلى ذلك ، علم أنه لا يفعل ذلك في المسيح بطريق الأولى والأحرى .

وإذا أمكن اتحاده ببشر ، فاتحاده بملك من الملائكة أولى وأحرى ، وحينئذ فقد كان اتحاده بجبريل الذي أرسله إلى الأنبياء أولى من اتحاده ببشر يخاطب اليهود وعوام النصارى .

بقول داود عليه السلام في مناجاته لربه : (وليفرح المتوكلون عليك إلى الأبد ، ويبتهجون ، وتحل فيهم ، ويفتخرون) فأخبر أنه يحل في الصالحين المذكورين ، فعلم أن هذا لا اختصاص للمسيح به .

* وأورد ابن تيمية (الجواب الصحيح جـ ٢ ص ٣٧٢/٣٢٣) رسالة الحسن بن أيوب ، مسيحي أسلم ، إلى أخيه علي بن أيوب ، ذكر فيها سبب إسلامه ، كما ذكر الأدلة على بطلان دين النصارى وصحة دين الإسلام .

قال : ثم نظرت في قول (الملكانية) ، وهم الروم ، وهم أكثر النصارى فوجدتهم قالوا : إن الابن الأزلي الذي هو الله الكلمة تجسد من مريم تجسداً كاملاً ، كسائر أجساد الناس ، وركب في ذلك الجسد نفساً كاملة بالعقل ، والمعرفة ، والعلم ، كسائر أنفس

الناس ، وإنه صار إنساناً بالنفس والجسد اللذين هما من جوهر الناس ، وإلهاً بجوهر اللاهوت ، كمثل أبيه لم يزل ، وهو إنسان بجوهر الناسوت ، مثل إبراهيم وداود ، وهو شخص واحد ، لم يزد عدده ، وثبت له جوهر اللاهوت كما لم يزل ، وصح له جوهر الناسوت الذى لبسه من مريم ، وهو شخص واحد لم يزد عدده ، وطبيعتان ، ولكل واحد من الطبيعتين مشيئة كاملة ، فله بلاهوته مشيئة مثل الآب والروح ، وله بناسوته مشيئة مثل مشيئة إبراهيم وداود .

ثم نظرت فى قول (النسطورية) ، فوجدتهم قالوا : إن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئة واحدة ، وإن طبيعة اللاهوت التى للمسيح غير طبيعة ناسوته ، وإن طبيعة اللاهوت لما توحدت بالناسوت ، بشخصها الكلمة ، صارت الطبيعتان بجهة واحدة ، وإرادة واحدة ، واللاهوت لا يقبل زيادة ولا نقصاً ، ولا يمتزج بشىء ، والناسوت يقبل الزيادة والنقصان ، فكان المسيح بذلك إلهاً وإنساناً ، فهو إله بجوهر اللاهوت الذى لا يزيد ولا ينقص ، وهو إنسان بجوهر الناسوت الذى يقبل الزيادة والنقصان .

وقالوا : إن مريم ولدت المسيح بناسوته ، وإن اللاهوت لم يفارقه قط منذ توحدت بناسوته .

وقال الحسن : فوجدنا (اليعقوبية) قد صرحوا بأن مريم ولدت الله ، وأنه تألم وصلب ومات ، وقام بعد ثلاثة أيام من بين الموتى .

ثم [1] كانت عقيدة (الإيمان) التى أقرها ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً ، من البطارقة والمطارنة والأساقفة والأحبار فى مدينة نيقيه بحضرة الملك ، وقد اعترفوا فيها جميعاً بأن الرب المسيح الذى هذه صفته على ما اقتصصناه منها : (الإله الحق من الإله الحق نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، وصار إنساناً ، وحبل به وولد ، من مريم البتول وتألم وصلب) .

قد يجب على ذوى العقول أن تزجر عقولهم عن عبادة إله ولدته مريم ، وهى امرأة آدمية ، ثم مكث على الأرض ثلاثين سنة ، تجرى عليه أحكام الآدميين ، من غذاء وتربية ، وصحة وسقم ، وخوف وأمن ، وتعلُّم وتعليم ، لا يتهيأ لكم أن تدعوا أنه كان منه فى تلك

(١) لا تفيد الترتيب الزمنى ، لأن الفرق الثلاث نشأت بعد مجمع نيقيه .

المدة من أسباب اللاهوت شيء ، ولا له من أحوال الآدميين كلها ، من حاجاتهم وضروراتهم وهمومهم ومحنهم وتصرفاتهم - مخرج ، ثم أحدث بعد هذه المدة الطويلة ، ما أحدثه من إظهار أمر الله تعالى والنبوات والآيات الباهرة المعجزة بقوة الله تعالى ، وقد كان في غيره من الأنبياء مثلها ، وما هو أعلى منها ، فكانت مدته في ذلك أقل من ثلاث سنين ، ثم انقضى أمره بما تصفون أنه انقضى به ، وتنسبونه إليه ، من حبس وضرب وقذف وصلب وقتل ، فهل تقبل العقول ما تقولون من أن إلهاً نال عباده منه مثل ما تذكرون أنه نيل منه ؟!.

صدقتم بشريعة (الإيمان) ، وكفرتم من خالفها ، ثم لم تلبثوا أن خلعتموها وانسلختم منها ، وقلتم إن المسيح جوهران وأقنومان ، جوهر قديم ، وجوهر حديث ، ولكل جوهر أقنوم على حياله ، وإن الله جوهر قديم يقوم بمعنيين ، فهو واحد يقوم بثلاثة معان ، وثلاثة لها معنى واحد ، كالشمس التي هي شيء واحد ، ولها ثلاثة معان : القرص والحر والنور .

وقلتم : إن المسيح هو الله ، وهو مبعوث ، غير أنه ليس يُعبد ، فكان معنى قولكم هذا أن المسيح مولود ، لكنه ليس مفعولاً به ، وهو مبعوث مرسل ، لكنكم تستحيون أن تسموه رسولاً ، إذ كنتم لا تفرقون بين الله وبينه في شيء من الأشياء ، وأقبلتم [1] على الملكائية واليعقوبية بالتكفير واللعن ، لقولهم : إن الله والمسيح شيء واحد ، ثم لم تلبثوا أن قدمتم المسيح على الله تبارك وتعالى ، وبدأتم به في التمجيد ، ورفعتم إليه تهاليلكم ، ورغائبكم ، في أوقات القرابين خاصة ، وهي أجل صلواتكم ، وأفضل محافلكم عندكم ، فإنه الإمام منكم على المذبح من مذابحكم ، وأهله مرعوبون ، فتتوقعون نزول روح القدس بزعمكم من السماء بدعائه .

وجدناكم قد عبتم على اليعقوبية قولهم : إن مريم ولدت الله - عز وجل عن ذلك - وفي شريعة الإيمان التي بيناها ، المجتمع عليها (أن المسيح إله حق، وأنه ولد من مريم)[1].

فما معنى المنافرة ؟. وما الفرق ؟. وما تنكرون من قولهم إن المقتول المصلوب هو الله عز وجل عن ذلك ؟.

---

(1) يبدو أن أخاه نسطوري .

وشريعة إيمانكم تقول : (نؤمن بالرب المسيح الذى من خبره وحاله الذى ولد من مريم ، وتألم وصلب على عهد الملك بيلاطس النبطي ، ودفن وقام في اليوم الثالث) أليس هذا إقراراً بمثل قولهم ؟.

إنكم إن قلتم : إن المقتول المصلوب هو الله ، فإن مريم عندكم ولدت الله .. وإن قلتم إنه إنسان ، فإن مريم ولدت إنساناً ، وبطلت الشريعة ، فأى القولين اخترتموه ففيه نقص دينكم .

ثم عبتم على الملكانية قولهم : (إنه ليس للمسيح إلا أقنوم واحد ، لأنه صار مع الأزلى الخالق شيئاً واحداً لا فرق بينهما) . وقلتم بأن له أقنومين ، لكل جوهر أقنوم على حياله ، ثم لم تلبثوا أن رجعتم إلى مثل قولهم ، فقلتم : (إن المسيح – وإن كان مخلوقاً من مريم ، مبعوثاً – فإنه هيكل لابن الله الأزلى ، ونحن لانفرق بينهما) ، فإذا كان الأمر عندكم على هذا ، فما تنقمون على الملكانية ؟. وما معنى الافتراق ، وقد رجعتم فى الاتحاد إلى مثل قولهم ؟. إن هذا الأمر تحار فيه الأفهام .

فأما احتجاجكم بالشمس ، وأنها شيء واحد له ثلاثة معان ، وتشبيهكم ما يقولونه في الثلاثة الأقانيم بها ، فإن ذلك تمويه لا يصح ، لأن نور الشمس لا يحد بحد الشمس ، وكذلك حرها لا يحد بحد الشمس ، إذ كان حدُّ الشمس جسماً مستديراً مضيئاً مسخناً دائراً فى وسط الأفلاك دوراناً دائماً ، ولا يتهيأ أن يحد نورها وحرها بمثل هذه الصفة ، ولا يقال إن نورها أو حرها جسم مستدير مضيء مسخن دائم الدوران ، ولو كان نورها وحرها شمساً حقاً من شمس حق من جوهر الشمس ، كما قالت الشريعة في المسيح : (إنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه) – لكان ما قلتم له مثلاً تاماً ، والأمر مخالف لذلك ، فلا يشبهه ، ولا يقع القياس عليه ، والحجة منكم فيه باطلة .

ووجدناكم تذكرون أن المسيح نزل من السماء ، فأبطل بنزوله الموت والآثام ، فإن العجب ليطول من هذا القول ، وأعجب منه من قبله ، ولم يتفكر فيه ، ومن لم يستقبح أن يعتقد ديانة لله تبارك وتعالى على مثال هذا القول المحال البائن عما تشهد به العقول ، وتنبئ به المشاهدة ، ويدعو الناس إليها ، فما هو ببعيد من عقد ما هو أمحل وأبطل منها ، لأنه إن كانت الخطيئة بطلت بمجيئه، فالذين قتلوه إذاً ليسوا خاطئين ولا مأثومين ، لأنه لا خاطئ بعد مجيئه ولا خطيئة .

وكذلك أيضاً الذين قتلوا حواريه ، وأحرقوا أسفاره غير خاطئين ، وكذلك من يراه من جماعتكم ـ منذ ذلك الدهر إلى هذا الوقت ـ يقتل ويسرق ويزنى ويلوط ويسكر ويكذب ويرتكب كل ما نهى عنه من الكبائر وغيرها ، غير خاطئين ولا مأثومين .

وإذا كان الأمر كذلك ، ففيم كانت تباع صكوك الغفران ، وفيم كانت بدعة الاعتراف ؟! .

لقد أفصح كل إنجيل ـ من كلامه ومخاطباته ووصاياه ، بما لا يحصى كثرة ـ بأنه عبد مثلكم ، ومربوب معكم ، ومرسل من عند ربه وربكم ، ومبدى ما أمر به فيكم ، وحكى مثل ذلك من أمره حواريوه وتلامذته ، ووصفوه لمن سأل عنه .

وفي كلامهم بأنه رجل جاء من عند الله عز وجل ، ونبى له قوة وفضل ، فتأولتم فى ذلك أنه أخرج كلامه على معنى الناسوت ، ولو كان كما تقولون لأفصح عن نفسه بأنه إله ، كما أفصح بأنه عبد ، لكنه ما ذكره ، ولا ادعاه ولا دعا إليه ، ولا ادعته له كتب الأنبياء قبله ، ولا كتب تلامذته ، ولا حكى عنهم ، ولا أوجبه كلام جبريل الذى أداه إلى مريم ، ولا قول يحيى بن زكريا .

فإن قلتم إنكم استدللتم على ربوبيته بإحياء الموتى ، وبأنه أبرأ الأكمه والأبرص ، ومشى على الماء ، وصعد إلى السماء ، وصير الماء خمراً ، وكثَّر القليل ، فيجب الآن أن ينظر إلى كل من فعل من هذه الأمور فعلاً ، فنجعله رباً وإلهاً ، وإلا فما الفرق ؟.

وليست أعجوبة الولادة توجب الإلهية ولا الربوبية ، لأن القدرة فى ذلك للخالق ـ تبارك وتعالى ـ لا للمخلوق ، وعلى أنه يوجدكم ، لأن حواء خلقت من فحل بلا أنثى ، وخلق أنثى من ذكر بلا أنثى أعجب ، فما الفرق ؟.

وفى كتب بولس وغيره ممن يحتج به النصارى وجد نحواً من عشرين ألف آية مما فيه اسم المسيح ، وكلها تنطق بعبودية المسيح وأنه مبعوث مربوب ، وأن الله اختصه بالكرامات ، ما خلا آيات يسيرة مشكلات ، قد تأولها كل فريق من أولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم على هواهم ، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد ، وتركوا المعظم الذى ينطق بعبوديته ، فلو كانوا قصدوا الحق لردوا تلك المشكلات الشاذة اليسيرة التي يوجد لها من

التأويل خلاف ما يتأولونه على الواضحات الكثيرة التي قد بانت بغير تأويل ، لأنه إنما يجب أن يقاس الجزء على الكل ، ويستدل على ما غاب بما حضر ، وعلى ما أشكل بما ظهر ، فمن تلك الآيات المشكلات ما قد ذكرناه في كتابنا هذا ، وبينا معناه ، والحق فيه ، وأنه ليس كما تأولوه [1] .

* * يلاحظ أن الفكر الإسلامي أحدث أثراً محدوداً في الفكر المسيحي ، على حين كان تأثيره أبلغ في الفكر اليهودي ، فاليهود ـ لشعورهم الطويل بالاضطهاد ، وبالاغتراب ـ حرصوا على التقية ، وعلى أن يتزيوا بزى البلاد التي نزلوا بها ، وربما أعلنوا تغيير دينهم ، حتى يتمكنوا من تحقيق مآربهم المادية والسياسية ، و(الكيدية) كذلك ، ولعل تنصرهم في أسبانيا وإسلامهم في تركيا (الدونمة) ليس ببعيد ، ومن التأثير الفكري ما ظهر في كتابات موسى بن ميمون وسعدى الفيومي ، وقد غلب عليهما فكر المعتزلة ، أما المسيحيون فكانوا أصحاب شوكة ، منذ انتصر قسطنطين لهم ، حتى مع انتشار الإسلام ، كان للدولة المسيحية كيان كبير ، ثم كان لهذا الكيان ردود أفعال (مستعلية) في الحروب الصليبية ، وفي الحروب الاستعمارية ، وفي مصر كانوا على يقين من أنهم أصحاب الأرض، وقد وادعهم الحكم الإسلامي حينما فرض سلطانه ، لهذا نجد أن أبا على عيسى بن إسماعيل ابن إسحق بن زرعة (٩٤٣ ـ ١٠٠٨) ـ وهو فيلسوف يعقوبي، ومترجم نشأ في بغداد ، وكان كثير الصحبة والملازمة ليحيى بن زيد ـ يرجع الصفات عند الله إلى ثلاث رئيسية : الجود والحكمة والقدرة .

(فالذات الإلهية واحدة ، بالرغم من تعدد الصفات ، وبين الذات الإلهية وهذه الصفات الرئيسية مناسبات ، فسمى البادئ العقل من هذه الثلاث آبا ، وسموا تلك الذات ـ كانت عاقلة ذاتها ـ ابناً ، لتولد هذا المعنى عن ذات الآب الذى خصوه باسم العقل ، فالعاقل إنما كان عاقلاً بالعقل ، فهو لذلك شديد الملابسة والمشابهة والمشاركة في معنى العقل ، فجعلت المناسبة الغريبة بينهما ، أعنى العقل والعاقل ، هى تشبه الأبوة والبنوة ،

---

(١) الفقرة الأخيرة بقلم ابن تيمية على ما يبدو ، وإن وردت في سياق رسالة الحسن ، هذا إذا لم تكن رسالة الحسن كلها مطبوعة بطابع ابن تيمية ، كأنه أدرك فحواها ، ثم صاغها .

وجعلوا المعقول من هذه الثلاثة المعاني هو الروح ، على جهة التمثيل ، من قِبَل أن الروح كأنها أمر خارج من ذى الروح ، وهو أبعد منه ، كمـا أن المعقول أبعد عن معنى العقل من معنى العـاقل ، فإن ذات المعقـول قد تكون في بعض الأشيـاء من خـارج ، وتكون مباينـة للعقل ، فأما في هذا المعنى فإنه غير مباين ، وإنما قيل ذلك على جهة التشبيه والمناسبة) [1] .

أما فيما يخص السيد المسيح فهو يحاول إثبات ألوهيته بشهادة الإنجيل ومعجزاته ، وبانتشار المسيحية ، وهـو لا يقـول بإمكان التجسد فحسب ، بل بضرورته ، إذ إن البـارى (يريد البلوغ بنا إلى أقصى غاية فى النعمة ، وهى أن يصلنا بذاته ، ولو لم ينلنا ذلك للزم إحدى الشناعتين ، وهما العجز والبخل) .

أما طريقة اتحاد الذات الإلهية بالطبيعة الإنسانية فهو يلجأ في تفسيرها إلى المذهب اليعقوبي ـ وهو مذهبه ـ مع شيء من التعديل ، يقول : (وأما اليعقوبية فتذهب إلى أنه طبيعة واحدة وأقنوم واحـد ، لا يتكثر ، وأن الطبيعتين لا يفسدهما تركيب إحداهما مع الأخرى ، ولا مخالطة إحداهما الأخرى ، ولا امتزاجهما) ـ قنواتى ص ٣٣٦/٣٣١ .

* أما الرشيد أبو الخير بن الطيب ، فهو قس وطبيب من القرن الثالث عشر ، ومن مؤلفاته كتاب (جلاء العقول في علم الأصول) الملقب بـ (كشف الأسرار الخفية فى أسباب المسيحية) ، ويسمى أيضاً (ترياق العقول فى علم الأصول) .

وقد جاء في الفصل الأول من هـذا الكتاب (النصارى يقولون إن البارى تعالى واحـد ، بسيط ، روحانى ، حى ناطق ، مختار ، واجب الوجود لذاته ، موصوف بصفات الكمال) . ويوصف بثلاثة أوصاف شرعية ، وهى الآب والابن والروح القدس .

ويشيرون باسم البارى ـ تقدست أسماؤه ـ إلى موجـود ، هو جوهر ، حكيم ، قادر أزلى ، علة وجود كل موجود .

ويقولون : إنه فوق التمام والكمال، لقصر العقول البشرية على أن نجد له أوصافاً تناسبه تعالى .

---

(١) هذه عبارة الدكتور جورج قنواتى فى كتابه (المسيحية والحضارة العربية) ، ويبدو أن الدكتور كان معجلاً فى تدوين كتابه ، أو كان مرض الموت حال دون مراجعته ، والمعنى المقصود فى هذا واضح .

ويقــولون مستــدلين بوجــود آثاره : إنه الخيـر المطلق ، والجواد المطلق ، والحكيم المطلق ، والقادر المطلق ، ليس بجسم ، ولا جسمانى ، ولا قوة فى جسم ، لا تصح عليه النقلة ، ولا نمتد نحوه الإشارة .

وأما وصفه بالأوصاف الشرعية فامتثالاً لما ورد في الإنجيل المجيد ، من قـوله للرسل : (امضوا وتلمذوا الأمم ، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس) ، ويشيرون باسم الآب إلى الجوهر الذى سموه البارى ، موصوفاً بصفة الوجود ، وباسم الابن إلى الجوهر المذكور باعتبار كونه عالماً ، وباسم الروح القدس إلى الجوهر المذكور من حيث كونه قادراً .

وأما قولهم إنه جوهر ، فبمعنى القائم بذاته ، الغنى عن المحـل ، لا الذى يشغل الأحياز ، ويقبل الأعراض ، كالجواهر الجسمانية ـ قنواتى ص ٢٦٧/٢٦٨ .

* النموذجان يمثلان أثر الحضارة العربية فى الفكر المسيحى ، وبخاصة فكر المعتزلة ، ولا ريب فى أن استفادة ابن الطيب القس الطبيب من الفكر الإسلامى أكبر مما فعل الفيلسوف اليعقوبى ابن زرعة ، ذلك لأن اليعاقبة عرفوا بالتمسك بمواريثهم ، ولأن ابن الطيب تأخر به الزمن ، بحيث كانت الفواصل النفسية بين المجتمعين المسيحى والإسلامى أقل ، ثم إن ابن زرعة كان يعقوبياً فى العراق موطن النساطرة ، على حين كان موطن اليعاقبة الأصلى مصر ، و (الاغتراب) عادة من عوامل التمسك بالمواريث ، حرصاً على عدم الذوبان فى مجتمع (الغربة) .

ومع هذا ، فقد ظل الحذر من طغيان الفكر الإسلامى ، وما صاحبه من قوة سياسية ، أحد العوامل التى أصابت (العبارة) المسيحية بالاضطراب ، أو بترقيع ثوب مرقع .

فلما كان انتصار المسيحية وانتشارها مع حركة الاستعمار ،كان (الاستعلاء) بالتعصب لكل ما أفرزته (المجامع المقدسة) ، بحيث صارت كلمة الكنيسة غير قابلة للمناقشة ، بالرغم من الحرب الطاحنة، منذ ظهور لوثر وكلفن والتنويريين وكثير من الفلاسفة والمؤرخين المتحررين .

فى كتاب (المسيحية والحضارة العربية) وصف الأب الدكتور قنواتى الدين المسيحى بأنه دين تاريخى (وحوادث حياته مسجلة فى كتب ووثائق لا يمسها أى شك) ص ١٩ ونقل عن توما الأكوينى التمييز بين ثلاث مراحل للوحى :

(أ) قبل الناموس مع إبراهيم .

(ب) تحت الناموس مع موسى .

(جـ) تحت نعمة المسيح مع الرسل .

وبهذا يكون قد أهمل ما قبل إبراهيم ، وما بين إبراهيم وموسى ، أو قصر التشريع (الناموس) على ما جاء به موسى ، ومن ثم لا يصبح للأنبياء من قبله أى دور إصلاحى (تعليمى) إلا فى حدود (القدوة الحسنة) ، وأنكر الوحى على أنبياء بنى إسرائيل ، وفى الوقت نفسه جعل المسيحية من عمل (الرسل) ، أى أن المسيح لم يستقل بالأمر ، كما حدث مع إبراهيم وموسى ، وكأن أنبياء بنى إسرائيل لم يقوموا بدور تشريعى .

وزعم الدكتورقنواتى أن (تعليم العهد القديم إلهى من وجهتين ، فمن وجهة ، لقد نقل بواسطة وحى علنى ، أوصله الله إلى أشخاص مختارين ، هم الأنبياء ، ومن وجهة أخرى ، قد سجل فى أسفار كتبت تحت إلهام من عند الله) .

وضرب صفحاً عما أعلنه كثير من الباحثين (المسيحيين) عن ضياع العهد القديم مع تخريب أورشليم ، فى عهد نبوخذ نصر ، وكتابة العهد القديم مرة أخرى إبان الأسر البابلى ، بعد موسى بأكثر من ألف عام ، بل إن بعض الأسفار المتأخرة كتبت بعد ميلاد السيد المسيح ، وبعض الأسفار دخلت فى دائرة التحريم (الأبوكريفا) .

وإذا كان (أساس هذا الناموس موجوداً فى الوصايا العشر الذى أصبح ميثاق الإنسانية قاطبة) ، فإن هذه الوصايا ــ كما جاء فى العهد القديم ــ كانت فى لوحين كسرهما موسى ، ثم إن القوم حين وصلوا بالتابوت الذى فيه (اللوحان) إلى أورشليم لم يجدوا أثراً لهما ، وعلى فرض بقاء (الوصايا العشر) ، فهل تتضمن شيئاً عن الذى دونه الكهنة فى بابل عن حقوق الكهنة ، وعن طقوس النجاسة والطهارة ، وهى أهم ما جاء فى تشريعات بنى إسرائيل ، فضلاً عن الفرائض والعقوبات ؟. ثم ماذا عن الأساطير والخرافات التى امتلأت بها الأسفار الخمسة التى نزلت على موسى ، فى زعم كتّاب التوراة ؟.

وكيف (يأتى المسيح من سلالة داود) الذى اتهمه العهد القديم بأخطر الجرائم ؟ وكيف (يضفى عليه ــ عيسى ــ الكتاب المقدس الصفات المميزة « يستقر عليه روح الرب،

روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح العلم وتقوى الرب » ـ أشعيا ١١ : ٥/٢ ـ ويذكر له أسماء عظيمة : « لأنه قد ولد لنا ولد ، أعطى لنا ابن ، فصارت الرئاسة على كتفه ، ودعى اسمه عجيباً ، مشيراً إلهاً جباراً ، أبا الأبد ، رئيس السلام ، لنمو الرئاسة ، ولسلام لا انقضاء له على عرش داود ومملكته ، ليقرها ويوطدها ، بالإنصاف والعدل ، من الآن وإلى الأبد » أشعيا ٩ : ٧/٦) .. هذا مع أن أشعيا كتب ما كتب بعد أسر بابل ، وبعد أن تم تدوين أخبار الملوك التى جعلت من داود وسليمان ملكين ، لا رسولين ، وألصقت بهما وبأبنائهما جرائم تدينها الوصايا العشر وغيرها من الشرائع الإنسانية ، سماوية وأرضية ، منذ آدم إلى اليوم ، فهل من الممكن لأحد من سلالة داود وسليمان ، ومن بعدهما رحبعام ويربعام ، أن يصير (إلهاً جباراً) ؟! .

ألم يقرأ الأب الدكتور فى (سفر تكوين ٣٨ . ١٥ ـ ١٨) عن علاقة يهوذا مع كنته ثامار ، وما أفرزته هذه الجريمة الشنعاء من وجود (فارص وزارح من ثامار) فى سلسلة نسب المسيح ، كما ذكر متى صح ١ ؟! .

أليس وجود السيد المسيح فى سلسلة هذا النسب ينافى ألوهيته ، ويجعله ابناً خالصاً ليوسف النجار ، شأنه شأن بقية البشر ؟.

ثم أين هـذا السلام الذى لا انقضـاء له ؟ وأين (الإنصاف والعـدل من الآن وإلى الأبد) ؟! .

أهناك تاريخ للإنسانية (اليهودية المسيحية) غير مادونه (التاريخ البشرى) ؟! .

يزعم الأب الدكتور أن المسيح (الله) ليس حلقة فى تاريخ الأنبياء ، فلم يكن إبراهيم وموسى إلا ممهدين لظهوره ، (ما كانت العهود القديمة إلا إشارة له .. أما الناموس فلم يعط إلا كحافظ للوعد ، كمعلم يقود إلى المسيح الذى فيه تتحقق هذه الوعود .. لم يأت المسيح ليحل الناموس والأنبياء ، ولكن ليتممهم) .

والتتميم هنا ينبغى أن يكون غير المتمثل فى قول السيد المسيح (ما جئت لأنقض ، بل لأتمم) ، بحيث يصبح مكملاً لشريعة موسى ، أو مطهرها مما أدخله الكهنة عليها ، وإلا أصبح المسيح (حلقة) تابعة لشريعة موسى ، فلا يعقل أن يصبح (الإله) ـ سبحانه ـ بشراً كموسى ، وهو الذى أوحى إلى موسى بالشريعة .

إن أساس المسيحية - كما قرر الأب الدكتور - (هو ظهور إله أصبح إنساناً ، لكي تكون لنا شركة مع الله ، لكي يدخل الإنسان في أعماق الله ، كما يقول القديس بطرس) أي أن (إظهار يسوع كسيد وابن الله ، كنور وحياة الروح المقدس ، والصلات بين الأقانيم الإلهية) لا يجعله يتحول إلى رسول ونبي ، كما هو الحال مع موسى وغيره من الأنبياء ، وإذا صح أنه من سلالة داود ، فالأمر لا يعدو أن (الإله تجسد) ، مع احتفاظه بحق الألوهية ، وتدبيره لشئون الكون ، وما كان تجسده إلا شأناً من الشئون الكونية ، وبما أن التجسد حقيقة إلهية ، فإن (المسيح إنسان بكل معنى الكلمة ، والدليل على ذلك حياته الأرضية وآلامه وموته ، ولكن حتى أثناء حياته الأرضية كان يلقب بكلمة الرب «كيريوس» ، ولا يشق على الله - سبحانه وتعالى - أن يقوم بهذا الدور (الإنساني) ليحمى (المسيحيين) من أوضار الخطيئة التي توارثها الجنس البشري عن أبيه آدم !!.

ولا أدري لو أن الأب الدكتور قنواتي سئل عن حق غير المسيحيين في (الخلاص) من الخطيئة الأولى ، بعد أن قام (الفادى) بدوره ، أكان يتردد في نفيهم من (ملكوت السماء) ، لأنهم ليسوا (مسيحيين) ، أم يدخلهم تحت خيمة الخلاص ، لأن رب المسيحيين هو رب الناس جميعاً ؟ ولو أنهم دخلوا (الخيمة) ، فما جدوى تجسد الإله ما دام الجميع قد شملهم الله برحمته ؟. وإذا كانت الرحمة من حق الناس جميعاً ، فما ذنب الذين سبقوا إلى الوجود ، قبل (التجسد) و (الصلب) ، وفيهم أنبياء من أولى العزم ، وفيهم آباء المسيح ؟.

أحسب أنه كان من واجب الدكتور (الأب) الذي تخصص في الفلسفة وفي اللاهوت أن يراجع قلمه ، قبل أن يخضع لهذه الموروثات التي أشبعها الفلاسفة المسيحيون والمؤرخون المسيحيون غربلة ونخلاً .

ومن عجيب أمر الأب الدكتور - وهو من دارسي الفكر الإسلامي - أن يسبق إلى قلمه قوله : (هناك تشابه كبير بين علم التوحيد المسيحي ، وعلم التوحيد الإسلامي ، برغم الفوارق) ص ٢٦ - مع أن أساس المسيحية القائم على التجسد والتأنس يقطع كل صلة مع الله (الأحد) الذي (لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) .

ثم إذا كان الإسلام أنصف عيسى ومريم - عليهما السلام - من ترهات بولس ، ومن توسعوا من بعده ، وإذا كان الإسلام قد نظر إلى كل من شريعة موسى وعيسى وغيرهما من

الأنبياء والرسل ، على أنها دعوات لله الواحد الذى لا شريك له ، الحى القيوم ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، جل وعلا ـ فهذا لا يعنى أن الإسلام يقر الدعاوى عن ألوهية المسيح أو أمه مريم ، أو الروح القدس ، ولا يعنى أن يقر ما كتبه الكهنة ونسبوه إلى موسى عليه السلام ، وقد أعلن القرآن مراراً أنهم بدلوا وحرفوا ، واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً .

* والمؤرخ الدكتور وليم قلادة فى كتابه (المسيحية والإسلام على أرض مصر) يقـول : (لقد كان آريوس الذى نهض أثناسيوس لمقاومته نصف قرن من الزمان ، مدعماً من الحاشية والبلاط الإمبراطوريين) .

(كان أثناسيوس يقدم تعليماً عن المسيح يجعل للإنسان كرامة ونسباً للإله ، يصعب معه على حاكم مطلق أن يواصل فرض إرادته دون اعتراض ، لكن آريوس كان يقدم تعبيراً دينياً لا يضمن هذا المركز الرفيع للإنسان ، ولهذا واجه البابا المصرى العنت والمطاردة والعزل مرات متعاقبة) .

(وكان قسطنس خليفة قسطنطين متطرفاً فى مناصرته للآريوسية ، لأن نظرته إلى السلطة الملكية كانت متناسقة مع نظرة آريوس إلى الألوهية ، كان قسطنس حاكماً مطلقاً وجد فى الآريوسية تعبيراً دينياً عن فلسفة الحكم) ـ ص ٩١/٩٠ .

تعليل زعمه من نسبوا نحلة القدرية والمرجئة إلى حكام بنى أمية ، مع اختلاف الموقفين ، لأن نسبة الإنسان للإله ، وامتزاج الناسوت باللاهوت ، بحيث يصبح الإنسان إلهاً ، والإله إنساناً ، قد يرفع من شأن الإنسان حقاً ، إذا لم يقتصر أمر هذا (الامتزاج) على السيد المسيح ، لكنه يحط من شأن هذا الإله ، لأنه يصيره بشراً يولد ، وتتزوج أمه ، وتلد إخوة ، ويختن ، ويعمد ، ويهان ، ويصلب ، ويموت . فإذا قلنا إن (النسب الإلهى) ليس مقصوراً على السيد المسيح ، وإنما يشمل أمه ، وقد يشمل الحواريين والرسل والقديسين ، وقد يتسع لكل مسيحى ، فإن مجال الألوهية يتحول إلى جبال الألب ، وقد يهبط جنوباً إلى منف أو طيبة ، من واقع اضطهاد دقلديانوس الذى جمع بين المسيحيين و (أرباب العقائد القديمة الوثنية) ، ثم إن هذا (النسب الإلهى) يساعد على ظهور (القيصر الإله) مرة أخرى ، أما أن يكون عيسى بشراً ، وعبداً للإله الحق ، الخالق ، الذى له ملكوت كل شىء ـ فإن هذا يحد من سلطة أى حاكم ، ويخضد من شوكته ، ويجعل

مصيره دنيا وأخرى بيد من هو أقوى وأكبر ، الذى « يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء » .

ويحاول الدكتور قلادة (ص ١٠٦) أن يجمع بين هذا الفكر (الدخيل) على المسيحية ، و (المفترى) على السيد المسيح ، وبين الفكر الإسلامى ، فيمد أصابع مشوهة إلى ما نسب إلى رسول الله محمد ﷺ أنه قال : (إن الله خلق آدم على صورته) أو (إن الله خلق آدم على صورة الرحمن) ، وهو قول توراتى تسلل إلى الفكر الإسلامى ، بطريق يهودى أسلم أو بطريق يهودى منافق ، يظهر غير ما يبطن .. وكان أن روج لهذا القول التوراتى متصوفة ذهب بهم الخيال مذاهب .. وكعادة (السلف الصالح) يأخذون النصوص (الدخيلة) مأخذ المسلمات ، مادامت تحمل (سنداً صحيحاً) ، وما دام يمكن تأويلها بحيث تلتقى مع الفكر الإسلامى ، وهذا ما قاله الإمام النيسابورى : (إن الله خلق آدم على صورته ، أى خلقه على صفته ، فأعطاه على ضعفه من كل صفة من صفات جماله وجلاله نموذجاً) .

وجاء الأستاذ البهى الخولى ، فلم يقف عند المصدر الأول ، واستعان به فى (فلسفة تقويم الإنسان وخلافته) .

واتخذ الدكتور قلادة ما تراكم من نصوص (إسلامية) حول هذا الأصل (الدخيل) ، وجعل يتصيد ما هو فى (الحقيقة الإسلامية) ناشىء عن المصدر القرآنى : **﴿ إنى خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾** ، **﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾** ، **﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾** ـ فجمع بين ما قاله النيسابورى ، وما نقل عن الشيخ محمد الغزالى ص ١٠٧ ـ (إن قدر الإنسان رفيع ، والمكانة المنشودة له تجعله سيداً فى الأرض وفى السماء ، ذلك أنه يحمل بين جنبيه نفحة من روح الله ، وقبساً من نوره الأقدس ، وهو الذى رشح الإنسان ليكون خليفة عن الله فى أرضه ، وهو الذى جعل الملائكة تعنو له ، وتعترف بتفوقه) .

أراد الدكتور قلادة تطويع نص الشيخ الغزالى للمعتقد المسيحى ، فأضاف عبارة : (النسب السماوى) إلى نص الشيخ الغزالى ، وفاته ما يعنيه قول الأستاذ فهمى هويدى ص ١٠٧ ـ (إن الآيات التى تمجد الإنسان وتعلى مرتبته فوق كل المخلوقات تتناول الإنسان لذاته ، لا لاعتقاده) ، على حين أن الأمر فى المسيحية مقصور على ما أحدثه

(تجسد الله فى المسيح) ، وهو ما تبرأ منه النصوص الإسلامية ، عن السيد المسيح عيسى بن مريم ، وليس ابن الله .

ويمضى الدكتور قلادة فى نقوله عن الدكتور دراز والأستاذ فهمى هويدى والأستاذ البهى الخولى والدكتورة عائشة عبد الرحمن والأستاذ فتحى رضوان ، مع أن الطريقين مختلفان كل الاختلاف ، وحسبه أن يسمع قول الله فى قرآنه : ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به ، أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد** ﴾ [المائدة ١١٦ ـ ١١٧].

﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون** ﴾ . [التوبة ٣٠ ـ ٣١] .

* * *



تداعِيَاتُ التَّحَوّل ..

- النزاع بين الكنيسة والدولة .
- الوثنية تغزو الكنيسة .
- فى الطريق إلى توماس .
- على حد السيف .
- الحروب الصليبية .
- آخر المد جزر .
- ضراوة المادة .
- قفزة فوق السور .
- شهـــادات .
- سلوك البابوات .
- نذر الشر .
- وانهارت السدود .

* * *



النزاع بين الكنيسة والدولة

كما نبين لنا أن الأزمة التي اشتدت بين المسيحيين الأول نشأت من التخلى عن (الفكر المسيحى) المتسم بالبساطة والسماحة ، ومن الخضوع لفكر وثنى ، وآخر فلسفى ، تم نضجهما على يدى أفلوطين وفيلون .. وكان أن لهث رجال الكنيسة في أذيال هذا الفكر (الدخيل) ، في محاولة للخروج من وصايته بالتورط في حضانته ، مما أدى إلى نزاع لا نهاية له مع عقل الإنسان المرن ، وآرائه المتغيرة .

وادعت (الكنيسة) أنها قد وجدت ــ عن طريق الوحي الإلهي ــ جواباً لكل مسألة من المسائل القديمة ، المتعلقة بأصل الخلق ، وطبيعته ، ومصيره ، وفى ذلك كتب لكتنيوس ــ سنة ٢٠٧ ــ يقول : (نحن الذين أخذنا عن الكتاب المقدس علم الحقيقة نعرف بداية العالم ونهايته) ، وهو قول أشبه بقول القائل : (أنا ابن من تطأطئ له الرءوس) ، قول موهم لا يصل حتى إلى مستوى (علم الحقيقة) الصوفى .. وكان ترتليان قد قال هذا القول نفسه سنة ١٩٧ ، وأراد أن يغلق باب الفلسفة أمام الناس .. وإذ كانت المسيحية قد حولت اهتمام الناس من الدار الدنيا إلى الدار الآخرة ، فقد عرضت عليهم تفسيرات (سماوية) للحادثات التاريخية ، فقاومت بذلك مقاومة سلبية البحث عن العلل الطبيعية ، وضحت بكل ما أنتجه العلم اليونانى ، من تقدم خلال سبعمائة عام ، فى سبيل علم نظام الكون وأصل الحياة ، كما وصفهما سفر تكوين .

وهذا هو المأزق الرهيب الذى يساق إليه رجال الدين، حين يدخلون فى مزايدات مع العلماء والفلاسفة ، فيخرجون من دائرة (نفوذهم) إلى دائرة (نفوذ) غيرهم ، فيتعروا ويتخلوا عن جميع أسلحتهم .

إن مسلك الدين محصور فى صحة التوجه إلى الله ، وفى تقويم السلوك ، وفى توظيف المواهب والملكات من أجل هذا التقويم ، بل فى توظيف العلوم والمعارف لخدمة هذا التقويم ، من خلال تدعيم صلة المخلوق بالخالق ، ومن خلال بيان عظمة الخالق فى خلقه .. فإذا تحول الدين إلى نشاط (عقلى) حر، فقد وقعت الكارثة ، ذلك لأن (العقل) ــ دون أن يحصن بالتوجيهات (السماوية) ، وبالأوامر والنواهي الدينية ــ يكون أقرب إلى الانحراف والشطط منه إلى السداد والصواب .

يرى أينسديمس (Aenesidemus) النسوسى ، فى القرن الأول الميلادى ، أن من المتناقضات التى تجعل المعرفة مستحيلة :

١ ـ أن أعضاء الحس فى الحيوانات المختلفة ، وفى الآدميين المختلفين ، تختلف فى شكلها وتركيبها ، وأن المفروض فيها أنها تنقل لصاحبها صوراً للعالم مختلفة ، وأنى لنا أن نعرف أى هذه الصور هو الصحيح ؟.

٢ ـ أن الحواس لا تنقل إلا جزءاً صغيراً من الجسم المحس، كجزء محدد من الألوان ، والأصوات ، والروائح ، وما من شك فى أن الصورة الذهنية التى تتكون لدينا عن هذا الجسم صورة جزئية غير موثوق بصحتها .

٣ ـ أن هذه الحواس قد تتعارض إحداها مع حاسة أخرى .

٤ ـ أن الجسم المحس يتلون ، وقد يتلون خطأ بحالتنا الجسمية والعقلية ، فى حالة اليقظة أو النوم ، والشباب أو الشيخوخة ، والحركة أو السكون ، والجوع أو الشبع ، والكره أو الحب .

٥ ـ أن مظهر الشيء المحس يختلف باختلاف حالة البيئة التى تحيط به ، من ضوء وهواء وبرد وحر ورطوبة ، إلى آخره ، فأى مظاهره هو الصحيح .

٦ ـ أن لا شيء يمكن معرفته بنفسه ، أو معرفته معرفة مطلقة ، فهو لا يعرف إلا بصلته بشيء آخر ، أى بوصفه جزءاً من كل .

٧ ـ أن عقائد الفرد موقوفة على العادات ، والدين ، والنظم والقوانين التى نشأ فيها، وما من فرد يستطيع أن يفكر تفكيراً موضوعياً ـ قصة الحضارة مج ٣ جـ ٣ هـ ص ٨٩ .

ويقول سكستس : إن كل حجة يمكن معارضتها بحجة مساوية لها ، ومن أجل هذا لن تجد فى آخر الأمر شيئاً لا ضرورة له أكثر من التعليل ، والاستدلال لا يوثق به إلا إذا قام على أساس الاستقراء الكامل ، ولكن الاستقراء الكامل مستحيل ، والمعرفة كلها نسبية ، كذلك لا يوجد خير أو شر موضوعى ، فالمبادئ الأخلاقية تختلف باختلاف البلاد ، وللفضيلة فى كل جيل تعريف يختلف عن تعريفها فى كل جيل آخر.. وبهذا (يؤكد أننا لا نستطيع أن نعرف أننا لا نعرف) .

ومن هنا كانت حياة الرجل العادى ـ كما يرى لوشيان ـ خير أنواع الحياة ، ومن اختارها كان أكثر الناس فطنة ـ المصدر السابق ص ٩٠/٩٤ .

وينسب مثل هذا القول إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (اللهم إيماناً كإيمان العوام) ، ولا يقصد بهذا إغفال العقل ، أو تسطيح الفكر ، بل المقصود هو التسليم لله ، والثقة الكاملة به ، وتفويض الأمر كله له ، مع اتخاذ كافة الأسباب للمعرفة ، والتزود بكل زاد يوثق إيمان الإنسان بربه ، ويوثق معرفته بنواميس الله وقوانينه فى كل هذا الكون الفسيح الجنبات ، العظيم الآيات .. وأى تقصير فى هذا الجانب يؤدى إلى الخلل، وإلى الاضطراب ، خلل عقلى واضطراب اجتماعى ، لأن فقدان (الضوء الخالد) الذى يحدد الاتجاه ، سرعان ما يؤذن بتسلل الظلام وتداخله ، وبالعزلة الحقيقية للإنسان ، من داخل نفسه ومن خارجها ، وسهولة تشابك القيم وتعقدها.. ومن ثم يكون اتهام الآخرين، والعدوان عليهم ، فى مقدمة الوسائل التى يعالج بها الإنسان مشكلاته ، ويحدد مواقفه ، وقد ينصحه الطبيب بتحطيم شىء ما ليكون بديلاً من تحطيم نفسه .

وقد وقع المجتمع المسيحى ـ فى خضم تيارات الوثنية واليهودية المعادية المتجنية ـ بين شقى التسليم والتحدى ، التسليم بما ينقل إليه عن رجال الكنيسة ، وتحدى التيارات العقلانية العدوانية ، مع الخضوع لوهم القدرة على توظيف العقلانية لخدمة العقيدة ، ومن ثم كثرت الانهامات ، وتبادلوا أنخاب اللعن والحرمان و (تحطيم) الآخرين ، وكأنما سيطر على الجميع المبدأ الأمريكى الذى يقول : (من ليس معنا فهو علينا) .

* * وفى هذا الإطار المحموم وضع ترتليان المبدأ الثورى ، أن (الإنسان غير ملزم بأن يطيع قانوناً يعتقد أنه ظالم) .. وهو مبدأ مثالى ، بعيد من أرض الواقع ، حتى إن واضعه نفسه لا يستطيع تنفيذه، لأن مفهوم (الظلم) يختلف من شخص إلى آخر ، فضلاً عن أن ما يراه الحاكم عدلاً قد يراه المحكوم تعسفاً واستبداداً وقهراً . وشيوع مثل هذا (المبدأ) فى بيئة تتنازعها الروحية الطوباوية ، والمادية الوثنية ، لابد وأن ينتهى إلى صراع ضار ، يتحرك بجميع الأطراف دون وعى لمغبته ، ودون إدراك لمداه .

كان المسيحى يعظم أسقفه ، بل يعظم قسيسه أكثر من تعظيمه الحاكم الرومانى ، ويعرض ما يقع بينه وبين زملائه المسيحيين من مشكلات قانونية على رؤساء الكنيسة ، لا على موظفى الحكومة ، وكان اعتزال المسيحى للشئون الدينية يبدو للوثنى كأنه هروب

من الواجبات المدنية ، واستهانة بها ، واستعلاء عليها ، وضعف للروح القومى ، والإرادة القومية .. وقد دعا ترتليان المسيحيين إلى رفض الخدمة العسكرية ، لأن (وجود المسيحيين فى الجندية يعتبر بركة للجيش الرومانى) ، وبخاصة ـ كما ذكر يوسابيوس ـ أنه فى سنة ١٧٣ وقعت فرقة من جيش ماركس أوريليوس فى حصار الأعداء ، قرب نهر الدانوب ، فصلى الجنود المسيحيون فى الجيش ، فثارت زوبعة رعدية ممطرة ، فكان المطر سبباً فى تجديد نشاط الرومانيين ، وجعل البرق والرعد الأعداء يهربون .. وقال ترتليان : (عندما أمر السيد بطرس أن يرد سيفه إلى غمده فإنه جرد كل جندى من سلاحه) ، وقال هيبوليتس : (إن أى مسيحى معمّد إذا دخل الخدمة العسكرية ، فإنه يحتقر الله ، ويجب أن يطرد من الكنيسة) ، وقال جاستن مارتر : (الكنيسة لا تعرف الحرب ، والمسيحيون مستعدون أن يستشهدوا ويقاسوا الآلام ، فى سبيل شهادتهم للحق ، ولكنهم لايقتلون الآخرين) .

من هنا اشتدت العزلة المسيحية، وعد هذا الموقف السلبى موقفاً عدائياً ، يعبر عن الازدراء للوثنية ، وللمجتمع الذى يعيشون فيه ، ويرفض الولاء للقيادة الرومانية .

ولم يقف الأمر عند هذه الشعارات ، واستجابة الكثيرين لها ، فإن زعماء المسيحيين جعلوا يحضونهم على تجنب غير المسيحيين ، وأن يبتعدوا عن الألعاب الهمجية (الأولمبية) التى يقيمها الوثنيون فى أعيادهم، وألا يغشوا دور تمثيلهم ، لأنها مباءة للفجور ، وحرم على المسيحى أن يتزوج بغير مسيحية ، وعلى المسيحية بأن تتزوج بغير مسيحى .

وكان أن اتهم الدين المسيحى بأنه يعمل على تشتيت شمل الأسر، وخراب البيوت .

هذا فى الوقت الذى كان فيه القانون الرومانى ـ منذ عهد نيرون (٥٤/٩٨)ـ يعد الجهر بالمسيحية جريمة يعاقب عليها بالإعدام .. صحيح أن معظم الأباطرة كانوا يتغاضون عن تنفيذ هذا القانون ، لكنه قائم ، ويمكن تنفيذه بقدر من التجاوز عند الحاجة .. وإذا كان فى وسع المسيحى ـ حين يتهم بمخالفته ـ أن ينجو من العقاب بحرق البخور أمام تمثال الإمبراطور ، وبعد ذلك يسمح له أن يمارس شعائر دينه ، غير مضيق عليه ، وإذا كان الذين يرفضون تقديم هذا الولاء للإمبراطور، يسجنون أو يجلدون ، أو ينفون ـ فحين يسخن أنف الإمبراطور ، وحين تلتهب شفاه بطانته ، وحين تضيق السبل ، لن يكون مفر من ركوب أعلى موجة .

حين شب حريق روما الشهير سنة ٦٤ م وثارت الجماهير غاضبة ، لم يكن بدٌ من تقديم كبش فداء ، فكان اتهام المسيحيين بإشعال الحريق ، وأمكن إطفاء ثورة الجماهير بسيل من دماء المسيحيين .

وحدث في أزمير أن طالب الغوغاء فيليب حاكم ولاية آسيا ألا يتهاون في تنفيذ (القانون الروماني) ، فأجابهم إلى ما طلبوا ، وأمر بإعدام أحد عشر مسيحياً في المجتلد سنة ١٥٥ ، ولكن هذا زاد من تعطش الغوغاء إلى الدماء ، فأخذوا يطالبون بإعدام الأسقف بوليكارب ، وكان شيخاً في السادسة والثمانين ، تقياً ورعاً ، طلبوا منه سب المسيح مقابل الصفح عنه ، فقال : (لقد ظللت خادماً له ستة وثمانين عاماً ، لم يسئ إلي فيها قط ، فكيف أسب ملكي الذي أنجاني ؟!) فأشعلوا فيه النار .

وفي عهد ماركس أوريليوس الورع ، حلت بالبلاد كوارث ، من فيضان ، ووباء ، وحروب ، وساد الاعتقاد أن سبب هذه الكوارث إهمال آلهة الرومان أو إنكارها ، فأصدر سنة ١٧٧ مرسوماً يقضي بعقاب من يخرجون على عبادة الآلهة الرومانية ، وعذب كثير من المسيحيين حتى الموت .

وفي عهد سبتميوس سفيرس سنة ٢٠٢ ، وكاراكالا سنة ٢١٣ لقي المسيحيون ألواناً من الاضطهاد ، بحجة أنهم جماعة ملحدة تثير غضب الآلهة ، فتصيب الجماهير الوثنية بالكوارث الطبيعية .. وفي سنة ٢٠٣ استشهد كثير من المسيحيين في قرطاجنة . وتكرر هذا في عهد ماكسيمين قيصر (٢٣٥/٢٣٨) ، إذ قتل كثير من آباء الكنيسة

وتطور الأمر منذ سنة ٢٤٨ إلى أن كانوا يجرون المسيحيين إلى المعابد الوثنية ، ويجبرونهم على تقديم الذبائح للأوثان ، وصار الغوغاء يحطمون ممتلكات المسيحيين في غضب وعنف ، وألصق الناس بالمسيحيين تهماً كثيرة ، منها أنهم أكلة لحوم البشر ، إذ يجتمعون على أكل لحوم الصبية ، وقد تطورت هذه الإشاعة عن طريق كون المسيحيين يأكلون العشاء الرباني سراً .

وللأسف أدان المسيحيون اليهود بعد ذلك بهذه التهمة ، بحجة أنهم لا يأكلون فطير عيد الفصح إلا مخلوطاً بدم بشري .

وفي سنة ٢٤٩ اجتاحت الإمبراطورية موجة من النشوة الدينية الوثنية ، راح ضحيتها

عـدد كبير من المسيحيين ، فى مقدمتهم أساقفـة أورشليم ، وأنطاكية ، وروما ، وتولوز سنة ٢٥٠ .

وفى سنة ٣٠٣ أمر جليريوس بهدم كل الكنائس المسيحية، وحرق كتبهم ، ومصادرة أملاكهم ، وحرمانهم من جميع المناصب العامة ، وإعدام من يضبط فى أى اجتماع دينى .

ويؤكد يوسبيوس أن الناس كانوا يجلدون حتى تتساقط لحومهم ، وأن لحومهم كانت تقشر بالأصداف ، وكان الملح أو الخل يصب فى جروحهم ، وتقطع لحومهم للحيوانات ، أو يصلبون ويتركون للوحوش تنهشهم .

ودام الاضطهاد ثمانية أعوام ، هلك بسببه ألف وخمسمائة ، وارتد آلاف عن المسيحية .

ومع هذا كان المسيحيون يزدادون في العدد وفى النفوذ ، حتى خشى بعض المسئولين أن يثوروا ضد الإمبراطور ، مما حدا بالإمبراطور ديسيوس ـ الذى اختاره جنوده خلفاً للإمبراطور فيليبس سنة ٢٤٩ ـ أن يصدر مرسوماً بأنه على جميع السكان الأحرار ـ رجالاً ونساءً وأطفالاً ـ أن يقدموا الذبائح لآلهة الإمبراطورية ، وأن يسكبوا لها السكائب ، ويأكلوا من الذبائح ، ويحصلوا على شهادة بذلك .

وبعد أن قتل ديسيوس سنة ٢٥١ خلفه جاليوس الذى واصل الاضطهاد، لكنه قتل سنة ٢٥٣ ، وخلفه فاليريان الذى (كان متسامحاً ودوداً لشعب الله ، وكان بيته يمتلئ بالأتقياء ، بل كان كنيسة الله) ، لكن سوء الأحوال الاقتصادية أوغر صدر ماكريانوس وزير المالية ضد المسيحيين الذين نعمت كنائسهم بحظ موفور من الذهب والفضة ، ساعد على كثير من الخدمات الاجتماعية للمسيحيين ـ فدس لهم عند الإمبراطور الذى أصدر مرسوماً سنة ٢٥٧ يمنع العبادة المسيحية ، ويأمر بتقديم الذبائح للآلهة ، ويدعو الأساقفة ليمثلوا أمام المحاكم الإمبراطورية صاغرين ، بقصد الضغط عليهم حتى يفتدوا أنفسهم بما يكنزون من ذهب وفضة .

وجاء إلى الحكم دقلديانوس سنة ٢٨٤ ، فوجد المسيحية فى انتشار ، والكنائس تقام فى كل مكان ، وظهر المسيحيون فى الجيش ، وفى بعض المحاكم العليا ، ودخلت فى

المسيحية الإمبراطورة بريسكا زوجة دقلديانوس الأثيرة وابنته فاليريا ، فهادن الكنيسة ، لكنه في سنة ٢٩٣ ـ وقد رأى في الديانات الغربية عامل اضطراب ـ أصدر مرسوماً ضد المانوية ، وفي سنة ٣٠٣ أصدر أمره بإبادة الكنيسة في نيقوميديا ، وأحرق الكتب المقدسة ، ونهب الرعاع الأثاث ، ونتيجة تآمر أعداء المسيحية (امتلأت السجون بالأساقفة والمطارنة والشمامسة والقرائين ومخرجي الشياطين ، حتى لم يبق فيها مكان لوضع المجرمين) ، وصار الإعدام بالجملة .. في فريجيه أحاط الأعداء بالكنيسة ، وأغلقوا بابها ، وأحرقوها بمن فيها ، وفي سنة ٣٠٤ صدر مرسوم بتقديم الذبائح للإمبراطور ، ونزل الاضطهاد على الجميع .

ولما اعتزل دقلديانوس الحكم سنة ٣٠٥ بسبب مرضه ، خلفه جاليريوس ، فزاد من الاضطهاد ، وعمل على إبادة الكتب المقدسة .

وتولى مكسيمبانوس ابن أخي جاليريوس الحكم في القسم الشرقي من الإمبراطورية سنة ٣٠٦ ، فعمل على تنظيم الاضطهاد ، وتوسيع نطاق المعابد الوثنية ، وكان حظ مصر من الاضطهاد كبيراً ، حتى إن كاهن قرطاجنة كتب يقول : (إذا وضع كل شهداء العالم في كفة ، ووضع شهداء مصر وحدهم في كفة ، فإنهم يزيدون عن الآخرين جميعاً) .

(وقد سمح لكل من أراد أن يضربهم بالعصي والسياط والجلدات ، وأن يشتمهم ، وقد علق بعض المسيحيين على المشانق وأيديهم مقيدة وراء ظهورهم ، ثم سحبت أطرافهم بواسطة آلات خاصة ، وبينما هم على هذه الحال يضربون على أجسادهم)[1] .

ولما بردت الأنوف والشفاه ، انتشرت موجة من التعاطف الشعبي مع المسيحيين ، أدى إلى صدور مرسوم سنة ٣١١ في عهد جاليريوس بالتسامح والاعتراف بالمسيحية ديناً مشروعاً .

وبهذا (صار دم الشهداء البذور التي نبتت منها المسيحية) ، كما قال ترتليان .

* وكرد فعل للاضطهاد ، وشدة المعاناة ، كان اللجوء إلى العزلة الروحية والمادية ، احتجاجاً على ضراوة الإنسان وهوانه على نفسه وعلى الآخرين .

ألف القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠) هو وألسيبوس وطائفة من الأصدقاء

---

(١) نجح الثوار في مصر (١٩٥٢ – ١٩٧٠) في صناعة تاريخ أبلغ مهارة وإتقاناً !! .

جماعة دينية ، وعاشوا معاً في تاجستي ، فقراء ، عَزاباً ، منقطعين للدرس والصلاة ، وعلى هذا النحو وجدت الطريقة الأوغسطية سنة ٣٨٨ ، وهي أقدم أخوة رهبانية في الغرب كله : صحيح أن للرهبنة تاريخاً عريقاً عراقة الفساد والظلم الاجتماعي والسياسي ، لكن ما فعله القديس أوغسطين كانت له بيئته الخاصة ، وكانت له ثماره الخاصة .

ولد أوغسطين سنة ٣٥٤ بعد جيروم بتسع سنين ، وبعد أمبروز بأربعة عشر عاماً ، وهو أفريقي سلخ في أفريقيا الشطر الأعظم من حياته ، كانت أمه مسيحية ، ولم يكن أبوه ، كذلك ، وبعد فترة قضاها معتنقاً المانوية أصبح كاثوليكياً ، وقام بتعميده أمبروز في ميلان ، وعين أسقفاً على (هيو) التي لا تبعد عن قرطاجنة سنة ٣٩٦ تقريباً ، ولبث هناك حتى مات سنة ٤٣٠ .

يقول كرين برنتن (أفكار ورجال ص ٢٣٤) : إنه إحدى الشخصيات الكبرى في الفكر الغربي ، وهو يقف على قدم المساواة مع أفلاطون وأرسطو ، وهو كثير التناقض ، كثير الالتواء والالتفاف ، لأنه كان شخصاً عظيم الموهبة ، متأثراً بدنيا الثقافة الرومانية المنحلة ، وإن المرء ليميل إلى الاعتقاد بأنه اعتنق المسيحية ، لأنها المبدأ الوحيد السليم المتكامل في عالم مضطرب .

ويقول رسل (تاريخ الفلسفة الغربية جـ ٢ ص ٦٨) : إنه ليشبه تولستوى من بعض الوجوه ، لكنه أعلى منه في مقدرته العقلية ، وهو رجل جموح العاطفة ، كان في صباه أبعد ما يكون عن مثل الفضيلة ، لكن حافزاً باطنياً فيه جعله يبحث عن الحق والتقوى ، وحارب الزندقة حرباً عنيفة ، لكن بعض آرائه قد عدت بدورها زندقة ، حين أخذ بها (جانسيوس) في القرن السابع عشر ، ومع ذلك ، فالكنيسة الكاثوليكية لم تشك قط في سلامة آرائه من الوجهة الدينية ، حتى اعتنقها البروتستانت ، فالقديس أوغسطين (ص٥٣) هو الذي صاغ للكنيسة لاهوتها الذي ظل حتى (الإصلاح الديني) ، وكذلك صاغ شطراً كبيراً من الآراء التي اعتنقها فيما بعد لوثر وكلفن .

ولن نجد إلا رجالاً قلائل هم الذين بذُّوا الأساتذة أمبروز وجيروم وأوغسطين الذين ازدهرت بهم الحياة الدينية في الفترة القصيرة ما بين انتصار الكنيسة الكاثوليكية في الإمبراطورية الرومانية وبين غزوات البرابرة ، وكانوا كلهم في عهد الشباب حين كان

(جوليان) المارق ممسكاً بزمام الحكم ، ولم يكد ينقضي زمن الأساتذة الثلاثة حتى أصبح البرابرة سادة على إيطاليا وأسبانيا وأفريقيا، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أصبح هؤلاء السادة (البرابرة) من الزنادقة المعتنقين لمذهب آريوس .

و (اعترافات القديس أوغسطين) من أشهر معالم الفكر المسيحى، وأقربها إلى الوجدان العام ، وقد نثر فيها كثيراً من الآراء التى شغلت وما تزال تشغل الفكر الإنسانى بوجه عام .

كان الإله عند أفلاطون وأرسطو أقرب إلى أن يكون فناناً أو مهندس عمارة منه إلى أن يكون (خالقاً) ـ كما يقول الفيلسوف رسل ـ فالمادة فى رأيهما أزلية لم تخلق ، والذى خلقته إرادة الله هى الصورة وحدها .. وجاء القديس أوغسطين وقال إن العالم لم يخلق من مادة بعينها ، بل خلق من لا شيء ، فالله قد خلق المادة ، ولم يكن أمره مقصوراً على التنظيم والترتيب .

وينبغى أن نقرر أن عملية الخلق قد تمت فى لحظة واحدة ، دون أن يقتضى ذلك أى تعاقب زمنى ، وما جاءت عبارة التوراة على هذا النحو ، (أى أن الله قد خلق السموات والأرض فى ستة أيام متوالية) ، إلا لكى تناسب ضعف عقولنا ، وقصور تخيلنا ، بدليل قول الكتاب (إن الله قد استراح فى اليوم السابع) ، وهو تعبير لا يلائم إلا الصانع البشرى الذى يتعب بعد قيامه بعمل شاق ، أو جهد مضن ، وليس مثل الله كمثل الصانع البشرى الذى يستعين بجسم ما فى صناعة جسم آخر ، وإنما الله هو خالق كل شيء ، حتى تلك المادة التى استعملها فى خلقه للسماء والأرض، (وإلا ، فأنى لشيء لم تخلقه أنت أن يوجد إلا إذا كنت أنت نفسك موجوداً ؟. ولكنك قلت : لتكن الأشياء ، فكانت الأشياء ، وبكلمتك أنت خلقتها).

وأوغسطين يتوقف عند الآيات الأولى من سفر تكوين لكى يثبت لنا أنها تنطوى على فكرة (التثليث) ، إذ ترد فيها كلمة (الله) ، وكلمة (البدء) ، وكلمة (الروح) ، وهو يحاول أن يقرب هذه الفكرة إلى أذهان قرائه ، فيحدثهم عن (وحدة) النفس البشرية التى تقوم على (الوجود)و (المعرفة) ، و (الإرادة) .. (إننى أوجد وأعرف وأريد ، أو أنا موجود من شأنه أن يعرف ويريد ، وأنا أعرف أننى أوجد وأريد ، وأنا أريد أن أوجد وأعرف ، وهذه المظاهر الثلاثة تكون حياة واحدة غير منقسمة ، إذ نحن هنا بصدد وجود واحد ،

وعقل واحد، وماهية واحدة ، أو نحن بصدد تمايز لا ينطوى مع ذلك على أى انفصال) ــ عن اعترافات القديس أوغسطين للدكتور زكريا إبراهيم ص ٤٨/٥٠ .

وهذا التعريف بالإله الخالق يستدعى أن يكون السيد المسيح (الوسيط الحقيقى بيننا وبين الله) ــ ص ٤٥ من المصدر السابق ــ ومن ثم فالقديس أوغسطين لم يبعد عن الحقيقة ، ولم ينزلق فى مهاوى القديس بولس ، لكنه ما لبث ــ كما يقول رسل (جـ ٢ ص ٩٤) أن قسم البشر قسمين : من رضى الله عنهم ومن غضب عليهم ، لا على أساس حسناتهم أو سيئاتهم ، بل قسمهم هكذا جزافاً ، فالكل على السواء يستحقون اللعنة ، وعلى ذلك فليس لدى المغضوب عليهم ما يبرر تذمرهم مما أصابهم ، أو كما قال القديس بولس ــ فى رسالته الثانية إلى التسالونيكيين ــ (ما دامت قد حقت عليهم اللعنة فهم فى ضلال ، وما داموا على ضلال فقد حقت عليهم اللعنة . وضلالهم قضاء خفى من الله عليهم ، وهو خفى بما يقتضيه العدل ، وعادل عدلاً خفياً ، هذا هو حكم الله الذى ما انفك يحكم منذ بدأ العالم) .

هذا قول مثير دون شك ، بالرغم من(العدل الخفى) ، لأن الشرائع كلها ربطت رضوان الله بالعمل الصالح وغضب الله بالعمل السيئ ، وبشرت الصالحين بالجنة والمذنبين بالنار ، وهذا يعنى أن القديس أوغسطين حين يتخلى عن (التقليد) يقترب من الصواب ، وحين يقع فى إسار بولس يتخبط ، حتى إنه ليزعم أن (الطفولة نفسها لا تخلو من خطيئة ما دام الإنسان لابد من أن يخطئ فى حق الله ، حتى ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض) .

وأوغسطين هنا ينسب إلى الأطفال رذائل كثيرة ، كالجشع ، والغيرة ، والعناد ، وقلة الصبر ، لكى يؤكد النظرية المسيحية القائلة بالخطيئة الأصلية ، ومعنى هذا أن براءة الأطفال المزعومة إنما هى فى رأى أوغسطين مجرد مظهر لضعف تكوينهم ونقص أعضائهم ، دون أن يكون هناك ما يشهد حقاً ببراءة نفوسهم أو طهارة ضمائرهم ــ الاعترافات ص ٢٧ .

ومن هنا يتبين مدى التعصب الدينى الذى دفع بمفكر كبير إلى القول بأن آدم ــ قبل السقوط ــ كانت له إرادة حرة ، وكان فى مستطاعه أن يمتنع عن اقتراف الخطيئة ، لكنه لما أكل (التفاحة) هو وحواء دخلهما الفساد الذى انتقل منهما إلى خلفهما كله ، ولم يعد أحد من هذا الخلف يستطيع بقوته الخاصة أن يمتنع من الخطيئة ، فلا سبيل أمام

الناس إلى حياة الفضيلة إلا برحمة من الله ، ولما كنا جميعاً قد ورثنا خطيئة آدم ، حقت علينا اللعنة الأبدية جميعاً ، وكل من يموت بغير تعميد - حتى الأطفال الرضع - مصيرهم إلى جهنم ، حيث يصلون عذاباً لا ينتهي ، وليس من حقنا أن نتذمر من هذا الجزاء ، لأننا جميعاً أشرار ، لكن الله برحمته - التي يرحم بها من يشاء - يختار فريقاً ممن نالهم التعميد، فيذهب به إلى الجنة ، لكنهم لا يذهبون إلى الجنة لأنهم خيّرون ، فنحن جميعاً فاجرون فجوراً تاماً ، إلا من شاء الله برحمته أن يرفع عنه فجوره ، ولا تستطيع أن تجد علة لخلاص فريق ولعنة فريق آخر ، فذلك محض اختيار من الله لا تدفعه إليه الدوافع ، فاللعنة برهان على عدالة الله ، والخلاص برهان على رحمته ، وكلاهما معاً يكشفان عما يتصف الله به من خير - تاريخ الفلسفة الغربية جـ ٢ ص ٩٨ .

شل التعصب الديني قدرة هذا المفكر الكبير على الخروج من إسار قديسه بولس ، فقال : (إننا - ونحن كلنا أبناء آدم - نشاركه في إثمه ، بل إننا في الواقع أبناء هذا الإثم لأن الخطيئة الأولى كانت نتيجة شهوته ، ولا تزال هذه الشهوة تدنس كل عمل من أعمال التناسل ، وبفضل هذه الصلة بين الشهوة الجنسية والأبوة ، كان الجنس البشري « جمعاً من الخاسرين » ، وحلت اللعنـة على **الكثرة الغالبة** من الآدميين ، نعم إن بعضنا سوف ينجو ، ولكن نجاة هؤلاء لن تكون إلا نعمة ينالونها بسبب ما قاساه ابن الله من آلام ، وبشفاعة الأم التي حملت به من غير دنس، « لقد حل بنا الهلاك بفعل امرأة ، وعادت إلينا النجاة بفضل امرأة »).

وعلى هذا يكون قد حكم على الرسل والأنبياء السابقين ، وعلى أتباعهم بالانغماس في الخطيئة ، بل حكم بعدم جدوى الشرائع السابقة ، حتى شريعة موسى التي آمن بها عيسى ودعا إليها . ولا ريب في أن الدافع إلى هذا المعتقد كان هو الدافع إلى العزلة والترهب والحرمان من كثير من الحقوق الإنسانية ، وكان يجب أن يسأل القديس نفسه : ماذا لو لم تكن تلك الخطيئة ؟. أكان ثمة من يعمر هـذه الأرض، وينطلق منها إلى السماء ؟. أكانت حاجة للشرائع والعبادات ؟. أكانت حاجة إلى ثواب وعقاب وقيامة وجنة ونار ؟. إن هذه الخطيئة المزعومة هي علة الوجود كله ، ولهذا خلق الله أداتها ، وليس من المعقول أن يخلق الله أداة ويحرم استعمالها إلا على طريقة (ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إيـاك إياك أن تبتل بالماء) .. لقد خلق الله أدوات كثيرة، وترك لنا حق استعمالها ، حتى

(العقل) الذى هو أداة الهدى والضلال (فرض) علينا استخدامه من أجل (معرفته) ، كما فرض علينا استخدام أداة (الخطيئة) لنتكاثر فى عبادته .

أيمكن الزعم أن هذا الوجود كانت ستختص به الملائكة ، لو لم تكن (الخطيئة) ؟ ثم إن السيدة مريم (البتول) ولدت عن طريق هذه الخطيئة ، كما ولد إبراهيم ويعقوب وموسى وداود ، فهل تشملها تلك الأحكام الجائرة ؟. وما ذنب البشرية أن تحل بها اللعنة ، وقد تاب الله على آدم (المتهم) بالخطيئة ؟. كيف يجرؤ (قديس) على أن يقول : (إن خطية الإنسان صارت أحط وأردأ لأن الجميع يولدون نتيجة اتصال جنسى بين الرجال والنساء ، والنتيجة أن كل الجنس البشرى - من الكبير حتى أصغر وليد - جميعهم كتلة من الهلاك الأبدى ، وبهذا يستحقون غضب الله ، ومن هذه الحالة الميئوس منها للخطية الأصلية ليس هناك وليد واحد ، كلا ، ولا واحد حصل على الخلاص ، أو يكون مخلصاً ، أو سوف يخلص على الإطلاق ، إلا بنعمة الفادى) .. وكل هذا يمكن قبوله إذا كانت هذه النعمة بأثر رجعى ، إلى بداية التكاثر البشرى ، ثم إن طريقة التكاثر البشرى هذه تنطبق على الحيوانات ، وبصورة تقريبية على النبات ، فهل تشمل (الخطيئة)هذه الكائنات أيضاً ؟ هل يتسع مجال اللعنة والحرمان لها ؟. وإذا كانت نعمة (الفادى) لم تشمل فى وجوده على الأرض إلا قلة قليلة من الصيادين والفقراء ، وإذا قيل إن الحواريين والأساقفة وغيرهم من رجال الكنيسة ينهضون نيابة عنه بتوزيع هذه (النعمة) - فما علة تعذيب (ابن الله) وصلبه ؟ ألا تستدعى هذه العلة - وهى تحمل آلام البشرية وخطاياها - أن يعذب رجال الكنيسة ويصلبوا ، ليكون لهم حق (النيابة) عن (الفادى) ؟! .

إن مثل هذه الآراء (المتطرفة)فى تشاؤمها وتفاؤلها لم تكن تحظى بالقبول إلا عند الدهماء والمستفيدين من ترويجها ، لهذا حمل بيلاجيوس (Pelagius) - وهو رجل من (ويلز) كان من رجال الكنيسة المثقفين المحبوبين - على هذا التفكير الأعمى حملة شديدة ، وقال : (الله لا يرجح كفة خسراننا ، بأن يجعل الطبيعة البشرية آثمة بفطرتها ، فلم تكن ثمة خطيئة أولى ، ولم يكن هناك سقوط للإنسان ، ولن يعاقب على الذنب إلا من اقترفه ، ولن ينتقل منه جرم إلى أبنائه ، والله لا يقدر على هؤلاء الأبناء أن يكون مصيرهم الجنة أو النار، ولا يختار متعسفاً من يلعنه ومن ينجيه ، بل يترك لنا نحن أن نحتار مصيرنا) .

ومضى بيلاجيوس فقال : (إن القائلين بفساد الإنسان الأخلاقى إنما يلومون الله على خطايا البشر ، إن الإنسان يشعر بأنه مسئول عما يعمل ، ومن أجل هذا فهو مسئول عنه حقاً ، (وإذا كنت مرغماً فإنى قادر)) .

منطق رجل لم يتأزم بالواقع الاجتماعى ، وحرر فكره من موبقات هذا الواقع ، وقد وجد فى فلسطين كثيرون يتعاطفون معه ويؤيدونه .. وفى سنة ٤١٥ أعلن (مجمع اللد) أن بيلاجيوس مستقيم العقيدة ، رداً على كتاب أوغسطين إلى رئيس الكنيسة فى أورشليم يحذره من هذا الكنسى الزنديق الماكر .

وسعى أوغسطين إلى البابا إنوسنت (Innocent) الأول ، فأعلن أن بيلاجيوس مارق من العقيدة ، فلما مات إنوسنت وخلفه زوسيموس (Zosimus) أعلن براءة بيلاجيوس .

وفى سنة ٤١٨ أعلن مجلس إفسوس أن ما يراه بيلاجيوس من أن فى مقدور الإنسان أن يكون صالحاً ، دون أن يستعين بنعمة الله ـ زيغ وضلال .

هذا مع أن نعمة الله ممثلة فى (العقل) ، وممثلة فى المواهب والملكات ، وفى هذه المخلوقات الدالة على عظمة الخالق .

لكن ، لعل المقصود بالنعمة هو (الإيمان) .. لاشك فى أن من يفقد الإيمان يفقد كل الدواعى إلى الخير والصلاح ، وفى هذا يقول أوغسطين : (إن الإيمان يجب أن يسبق الفهم ، لا تحاول أن تفهم لكى تؤمن ، بل آمن لكى تفهم) .

وإذا كان الإيمان يستدعى اطمئنان القلب ، فكيف يتحقق الاطمئنان دون فهم ؟ـ

قد يقول إن الثقة تكفى لهذا الاطمئنان ، لكن الثقة لا تأتى من خارج العقل كذلك ، لأن الثقة ثمرة التجربة ، والاختبار ، والفهم والثقة لا يحققان الإيمان بدون قلب طاهر يسمح باستقبال ما يحيط به من أشعة قدسية ، وتمييز هذه الأشعة القدسية من الوساوس الشيطانية عمل عقلى كذلك ، فإذا تطهر الإنسان ، وراض نفسه على التقرب من الله ، فجمع بين إدامة النظر فى عظمة الخالق ، من خلال عظمة خلقه ، وبين الحرص على أن يكون بحيث يرضى عنه الله ، وبين الرغبة فى أن يكون أحسن حالاً مما كان فإنه لا يلبث أن يرقى إلى الغاية الحقة ، وإلى جوهر الدين ، وهو (الاستحواذ على الله الحى) ، أو بمعنى أيسر (إدراك) ما لله فيه .

حقاً إن (الله وحده هو الذى يعرف الله حق المعرفة) ، ولكن (فى وسعنا أن نعرف الله معرفة أكيدة ، بمعنى ما ، عن طريق خلقه ، لأن كل شىء فى العالم أعجوبة من أعظم العجائب ، فى نظامها ، وفى وظيفتها ، ولا يمكن أن توجد إلا إذا أوجدها عقل خلاق ، وإن ما فى الكائنات الحية من نظام ، وتناسب ، واتزان ، ليدل على وجود نوع من القدرة الإلهية الأفلاطونية ، يتوحد فيها الجمال والحكمة) ، ولا يمكن معرفة (النظام والتناسب والاتزان) من غير عقل ، ومن غير مداومة التفكير المشمول بالرغبة فى الهداية ، والشعور بعظمة الكائنات ، وهذا يعنى أن عبارة (سبق الإيمان) لا تعنى أكثر من الاستعداد النفسى للهداية ، لأنه ما لم تسبق الرغبة فى الوصول إلى الحقيقة ، وإذا كان ثمة عناد ومكابرة وتبعية لما ورث من (وثنية) الآخرين ، فسيضل بعقله ضلالاً مبيناً ، فالعقل ليس كائناً مستقلاً ، يعمل بطاقة مستقلة ، إنما هو أقرب إلى (الحاسوب) الذى يعمل من خلال المعلومات التى تقدم إليه ، ومن خلال مهارة وإرادة مقدم هذه المعلومات .

إن أرجحة أوغسطين بين الأفلاطونية الصوفية ، وبين (البولسية) الوثنية هو الذى جعله يجمع بين الغث والسمين ، بحيث يجد قارئه ـ كما يقول صاحب قصة الحضارة مج ٤ جـ ١ ص ١٤٤ ـ (متناقضات وسخافات ، بل وقسوة سقيمة فى التفكير) ، إنه قرأ فى أفلاطون أن ما فى العالم من أشياء حقيقية وحوادث قد وجدت كلها أولاً فى عقل الله ، قبل أن توجد على سطح الأرض ، (كما يوجد تخطيط البناء فى عقل المهندس قبل أن يقيمه) ، ويحدث الخلق فى الوقت المناسب ، حسب هذه الصورة الأزلية الموجودة فى (العقل الإلهى) ، وهذا يؤكد أن العملية العقلية تسبق العملية (الوجودية) أو تسبق الخلق والتكوين ، لكن الرجل الذى كتب ٢٣٠رسالة شغله (التأليف) عن المراجعة ، أو ـ كما نسب إلى أحد التنويريين ـ إنه يمسك بالقلم ، ويبدأ فى الكتابة ، ويترك لله أمر توقفه !!.

ومع هذا فإن للقديس أوغسطين إشراقات رائعة ، مثل قوله عن الزمن : (إنه لا يحق لنا أن نقول إن هناك ثلاثة أزمنة ، ألا وهى الماضى والحاضر والمستقبل ، بل ربما كان الأصح أن نقول : إن هناك ثلاثة أزمنة ، ألا وهى حاضر الماضى ، وحاضر الحاضر ، وحاضر المستقبل ، وهذه الأنحاء الثلاثة من الزمان ، إنما توجد فى ذهننا وحده ، لا فى أى موضوع آخر ، وحاضر الأشياء الماضية إنما هو الذاكرة وحاضر الأشياء الحاضرة إنما هو

العيان المباشر ، في حين أن حاضر الأشياء المستقبلة إنما هو الانتظار) ـ الاعترافات ص ٦١ ـ ومع أن الأمر لا يتجاوز جدّة التعبير ، فإنه دليل على قدرة القديس على الحركة العقلية ، التى تبلغ به أحياناً مجال الاضطراب ، ولعل هذا من أهم الدواعى لوقوع النزاع بين الكنيسة والدولة ، إذ لم يكن آباء الكنيسة على حظ من المرونة والوعى السياسى والإدارى .

* * *

الوثنية تغزو الكنيسة ..

نهى العهد القـديم فى صراحة (سفر تثنية صح ٤) المؤمنين أن يصنعـوا (تمثـالاً منحوتاً ، صورة مثال ما ، شبه ذكر أو أنثى ، شبه بهيمة ما ، مما على الأرض .. إلخ) .

وكانت الكنيسة ، أول أمرها تكره الصور والتماثيل ، وتعدها بقايا وثنية ، وتنظر بعين المقت إلى فن النحت الوثنى الذى يهدف إلى تمثيل الآلهة .

لكن انتصار المسيحية فى عهد قسطنطين ، وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية من أثر فى القسطنطينية والشرق الهلنستى ـ قد خفف من حدة مقاومـة هذه الأفكار الوثنيـة .

وكانت بدعة هيلانة ، وما صاحبها من تقديس الآثار المسيحية ، ثم ما كان من ردود الأفعال تأييداً ورفضاً ، مما أعان على تقبل بدعة جديدة .

لمـا أن تضاعف عـدد القديسين (المعبودين) نشأت الحاجـة إلى تذكرهم ، والتبرك (بمعايشتهم) ، فظهرت لهم ولمريم العذراء كثير من الصور ، ولم يعظم الناس الصور التى زعموا أنها تمثل المسيح فحسب ، بل عظموا كل ما اتصل به ، وأصبح الصليب فى نظر عامة المسيحيين طلسماً ذا قوة سحرية عجيبة ، وأطلق الشعب العنان لفطرته ، فحول الآثار والصور والتماثيل المقدسة إلى معبودات ، يسجد لها الناس ، ويقبلونها ، ويوقدون الشموع ، ويحرقون البخور ، ويتوجونها بالأزهار ، ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفى .

وقد غضب الإمبراطور ليو الثالث الإسورى (٧١٧ ـ ٧٤١) من هذا الإفراط فى التدين من جانب الشعب، وخيل إليه أن الوثنية أخذت تغزو المسيحية ، وتتغلب عليها من جديد بهذه الوسيلة ، فأصدر سنة ٧٢٦ مرسوماً ـ مبقت الإشارة إليه ـ لإزالة جميع الصور والتماثيل الدينيـة من الكنائس ، وحـرم تصوير المسيح والعـذراء ، وأمر بأن يغطى بالجص ما على جدران الكنائس من صور .. وأيد رجال الدين هذ المرسوم ، لكن الرهبان وصغار

القساوسة احتجوا عليه ، وثار الشعب ، وهاجم المصلون الجنود الذين حاولوا تنفيذ القانون بالقوة .

واجتمع مجلس من أساقفة الغرب ، دعا إليه جريجورى الثانى ، وصب اللعنة على محطمى الصور والتماثيل المقدسة ، دون أن يذكر اسم الإمبراطور ، وانضم بطريرك القسطنطينية إلى الثائرين ، فما كان من لبو إلا أن خلعه سنة ٧٣٠ .

وتكررت الأحداث فى عهد ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١ ـ ٧٧٥) ، وفى عهد لبو الرابع (٧٧٥ ـ ٧٨٠) .

وهكذا بدا أن السلطة الزمنية تقف ضد الوثنية ، على حين حرصت السلطة الدينية على الدفاع عنها ، وتعميق جذورها فى نفوس أتباعها ، حتى تحول الفاتيكان إلى أكبر متحف عالمى ، أو أكبر مدرسة للفنون التشكيلية والنحت والتصوير ، والزائر للكنائس القديمة ، فى فينا وبودابست وأمستردام ولندن وفينيسيا يفاجأ بعظمة الفنون الإنسانية بنفس القدر الذى يستشعره فى زيارة المعابد البوذية فى الهند وتايلاند وبورما وكوريا وسيام وغيرها من بلاد الشرق الأقصى .

* * فى مرحلة التحول الخطيرة هذه اعتلى عرش البابوية جريجورى الأكبر (٥٤٠ ـ ٦٠٤) ، وهو فى الخمسين ، وكان أول بابا سمى بهذا الاسم .

ولد فى روما حوالى سنة ٥٤٠ ، من أسرة غنية نبيلة ، والظاهر أن جده كان قد ارتقى إلى منصب البابوية بعد أن ماتت زوجته ، وكان لجريجورى نفسه قصر وثروة ، وتلقى ما كان يعد تعليماً جيداً .

نصب عمدة روما سنة ٥٧٣ ، لكن الدين غلبه ، فاعتزل منصبه ، ووهب ثروته لبناء الأديرة ولأعمال البر ، واعتنق البندكتية ، وانصرف بجهده للتأمل ، وفرض على نفسه ألوان التقشف .

وأقام فى القسطنطينية فترة (٥٧٩ ـ ٥٨٥) يمثل مصالح البابوية فى بلاط الإمبراطور ، ويمثل وجهة نظر البابوية فى الأمور الدينية .

وقضى الأعوام (٥٨٥ ـ ٥٩٠) رئيساً لديره ، ولما مات البابا خلفه فى البابوية ، وكانت ظروف العصر في غاية الارتباك ، فحارب أسباب الفساد ، وكان يكتب رسائل إلى الأساقفة وإلى الحكام العلمانيين فى كافة أنحاء العالم الروماني ، وكتب (فى حكم الراعى لرعيته) كتاباً يحتوى على نصائحه للأساقفة ، كان ذا أثر فى الشطر الأول من العصور الوسطى .

ومن رسائله إلى أسقف كاجلياري فى سردينيا : (لقد نبئت أنك قبل أن تحتفل بشعائر الصلاة يوم ميلاد المسيح ، ذهبت لتحصد أولاً ما جاء به أصحاب المنح ، وكذلك بعد أن فرغت من شعائر الصلاة ، لم تتردد فى محو آثار ما نهبته نفسك ، وإنما تفعل ذلك إذ رأيت أننا ما نزال على كرامة شيبك ، ونعاملك معاملة الرجل الذى تقدمت به السن ، ونظن أنك بحكم سنك ستربأ بنفسك عن مثل هذا السلوك الأرعن) .

وأرسل تعليماته إلى أسقف أنطاكية ، فيما يختص باجتماع الزندقة فى إفسس ، قائلاً : (لقد بلغ مسامعنا أن أحداً فى كنائس الشرق لا يستطيع أن يظفر بأمر مقدس إلا إذا دفع رشوة) .

وبعث إلى أسقف مرسيليا يؤنبه ، لتحطيمه تماثيل كانت موضع عبادة : (نعم ، إن عبادة التماثيل باطلة ، لكن التماثيل مع ذلك نافعة ، ولابد من معاملتها بشيء من الاحترام) .

يقول رسل (تاريخ الفلسفة الغربية جـ ٢ ص ١٣٠) : وحدث أن خلع الإمبراطور موريس عن عرشه ، إثر ثورة تزعمها معمور اسمه (فوكاس) ، وهو قائد فرقة من الجيش ثم اعتلى هذا المغامر العرش ، وذبح جميع أبناء موريس الخمسة على مرأى من أبيهم ، ثم قتل الإمبراطور الشيخ نفسه ، ولبس التاج على يدى بطريرك القسطنطينية ، فجعل جريجورى يكتب الرسائل المترعة بعبارات النفاق ، يتملق بها هذا الغاصب وزوجته . قال : (الفرق بين ملوك الأمم وبين أباطرة الجمهورية ، هو أن ملوك الأمم سادة على عبيد ، أما أباطرة الجمهورية فسادة على أحرار .. إنى لأضرع إلى الله القدير أن يصون قلبك برعاية رحمته ، كلما فكرت فكرة أو فعلت شيئاً ، وعسى أن يهديك الروح القدس الحال فى

جسمك الحيوانى كلما أقمت العدل ، وكلما راعيت الرحمة) .

وكتب إلى زوجة (فوكاس) الإمبراطورة (ليونشيا) (أى لسان يستطيع أن يتكلم ، وأى عقل يستطيع أن يفكر ، وأى شكر جزيل نحن مدينون به لله العلى القدير على رصانة إمبراطوريتكم التى أزاحت عن كواهلنا تلكم الأعباء البواهظ التى لبثت جاثمة أمداً طويلاً ، وأعادت للإمبراطورية نير سيادتها الرقيق) .

كان البابا الكبير ابن عصره ، لم يكن متفلسفاً دينياً مثل أوغسطين ، ولم يكن كاتباً مجيداً مثل جيروم ، لكنه كان عميق الأثر فى من يقرءون له ويستمعون إليه ، بفضل تعاليمه الدينية التى تجمع بين أشتات من الأدب اليونانى ، والفكر اليهودى ، والخيال القصصى الذى هو مزيج من الخوف والعدل .

(ولعل تعاليمه الدينية تنعكس عليها صحته المعتلة ، كما تنعكس عليها فوضى زمانه) .

يقول : (النار ليست اسماً على غير مسمى ، إنها هوة سحيقة تحت الأرض ، مظلمة ، لا قرار لها ، وجدت من يوم أن خلق العالم ، نار لا تنطفئ لظاها ، مجسمة ، فى مقدورها أن تطهر الأرواح والأجسام ، أبدية لكنها لا تفنى المذنبين ، أو تنقص من إحساسهم بالألم ، ويضاف إلى آلامهم - فى كل لحظة يقضونها متألمين - رعبهم مما ينتظرونه من آلام ، ومن مشاهدة ما يلاقيه ذووهم المذنبون من هول العذاب ، ويأسهم من النجاة ، أو من السماح لهم بالفناء) .

أفكار تلفيقية ، يشيع مثلها فى خطب ومؤلفات وعظية كثيرة ، لكنها أفكار لعبت دوراً خطيراً فى حياة القوم ، وقد مهدت لأسقف نيسا ، جريجورى اللاهوتى الكبادوكى ، حتى يقوم بشرح (سفر أيوب) فى ستة مجلدات ، ملأها بهذا العصير الذهنى والوجدانى ، من تراث العصور الوسطى .. ومعروف أن (سفر أيوب) قصة أو دراما تشغل أقل من أربعين صفحة من (العهد القديم) ، فإذا أمكن مطه وحشوه ليصبح ستة مجلدات ، فإن هذا لا يدل على قدرة ذهنية جريجورية ، بقدر ما يدل على عملية جمع ما أمكن جمعه من بطون الكتب ، ومن أفواه الرواة ، ومن آداب الشعوب ، أمثالاً وأساطير وخرافات ، وعمل

على تصنيعها وتوليفها ، بحيث تنسجم مع حاجة الجماهير .

وكأنه يصف دوره بقوله : (لقد امتلأ كل شيء بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الكلم ، وازدحمت بهم الطرقات والأسواق والأزقة ، فإذا ما سألت عما يجب أن أدفعه ثمناً لشيء ، فلسفوا لي الإجابة حول المولود والمخلوق ، وإذا مارغبت في الوقوف على ثمن الخبز أجابني البائع بأن الأب أعظم من الابن ، وإذا ما بحثت عما إذا كان حمامي قد أعد، جاءتني الإجابة تقول : إن الابن خلق من العدم) .

ومن باب الاستطراد المرح قيل إن الجيش ثار على الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨ ـ ٦٨٠) ، بطلب إليه أن يشرك معه أخويه هرقل وتيبريوس ، ولما سألهم الإمبراطور : لم يريدون ذلك ، أجابوه (لأنا نؤمن بالثالوث ، فلنتوج أباطرة ثلاثة) !!.

* في هذا الجو الذى تبلبلت فيه عقول الناس وألسنتهم ، ولم يعد يصح معهم منطق سليم ـ حاول بابوات وأساقفة حشو الرءوس بكل ما يشفي من حمى هذه المقولة المتراسية الفيلونية الأفلوطينية البولسية التى تحولت ـ من خلال صراع المجامع الكنسية ، والاجتهادات الشعبية ـ إلى (أقانيم) تتداخل وتتوحد ، وتتنافر وتختصم .. في هذا الجو كان دوره أقرب إلى العلاج بغسيل الجهاز الهضمى ، إثر عملية تسمم ، أو بمحاصرة النيران بمادة رغوية تكتم منافذ الأوكسيجين ، لو أنه وجد البيئة التى تتقبل آراءه .

جاء الفيلسوف الأيرلندى جون اسكوتس أرجينا (٨١٥ ـ ٨٧٧) ليقدم أعظم مؤلفاته (التقسيم الطبيعى) سنة ٨٦٧ ، فأحدث في الأفق الدينى ما يشبه الزلزال ، أو سقوط أحد المذنبات ، أو كأنه هدم أركان الكنيسة على أصحابها . قال :

١ ـ (إن السلطان يستمد أحياناً من العقل ، لكن العقل لا يستمد أبداً من السلطان ، ذلك أن كل سلطان لا يرضى عنه العقل السليم يبدو ضعيفاً ، لكن العقل السليم لا يحتاج إلى تأييد السلطان أياً كان نوعه ، لأنه يستند إلى قونه) .

٢ ـ (ليست الخصائص المحسوسة في الأشياء متأصلة في الأشياء نفسها ، وإنما تكون من الأشكال التى تدركها بها ، فإذا قيل إن الله يرغب ، ويحب ، ويختار ، ويرى ،

ويسمع ـ يجب ألا نفكر إلا في أن حقيقته وقوته اللتين لا يستطاع وصفهما يعبر عنهما بمعان تتفق معنا في طبيعتها) .

٣ ـ (إذا فهمنا لفظ « الأب » بمعنى المادة الخلاقة ، أو جوهر الأشياء جميعها، و « الابن » على أنه الحكمة الإلهية التي تتكون أو تحكم بمقتضاها الأشياء كلها ، و « الروح » على أنه الحياة ، أو حيوية الخلق ، إذا فهمنا هذه الثلاثة على هذا النحو ، جاز لنا أن نفكر في الله على أنه ثالوث) .

وبهذا جمع أرجينا بين الفكر الصوفي والفكر العقلاني ، ليعالج ما أحدثته (المواريث) والأهواء من فراغ شديد الجفاء والجفاف ، وأضاف أن (الجنة والنار ليستا مكانين ، بل هما أحوال النفس ، والنار هي الشقاء المنبعث من الخطيئة ، والجنة هي السعادة المنبعثة من الفضيلة ، والنشوة المنبعثة من الرؤية الإلهية ، من « إدراك الألوهية » التي تتكشف من الأشياء جميعها للنفس التقية ، وليست جنة عدن مكاناً على الأرض ، بل هي حالة من حالات النفس .. والأشياء جميعها خالدة ، فللحيوانات أيضاً ـ كما للآدميين ـ نفوس تعود بعد الموت إلى الله ، أو إلى الروح الخالق الذي انبعثت منه .. والتاريخ كله إن هو إلا فيض من عملية الخلق إلى الخارج ، عن طريق الانبعاث ، وموجة مدية لا تغلب نحو الداخل ، تجذب الأشياء جميعها ـ في آخر الأمر ـ إلى الله) .

بهذا استثمر الفيلسوف الأيرلندي نظرية الفيض ونظرية التوحد في وقت كانت الحاجة إليه ماسة أشد ما تكون .. لكنه أثار عليه رجال الدين جميعاً ، حتى إذا كان عام ١٢٢٥ أمر البابا هونوريوس الثالث بإحراق كتابه .

* كان كتاب (التقسيم الطبيعي) أخطر مواجهة للأساطير والأوهام التي عششت في معتقدات العصور الوسطى ، معتقدات العامة ورجال الدين .. وليس أدل على ذلك من أن البابا جريجوري الكبير كان يرى أن الشيطان جسم حقيقي من لحم ودم ، يغشى كل مكان في العالم ، يغوي الناس بضروب من المغريات، ويخلق كل أنواع الشرور .. وكان يرى أن من المستطاع طرده بقدر من الماء المقدس ، أو برسم علامة الصليب ، فيفر مخلفاً وراءه رائحة خبيثة ، هي رائحة الكبريت المحترق .. والشيطان شديد الإعجاب بالنساء ، ويتخذ

بسماتهن ومفاتنهن أدوات يغرى بها ضحاياه ، وينال رضاءهن فى بعض الأحيان .

وكان أن اعترفت امرأة من تولوز بأنها كثيراً ما ضاجعت الشيطان ، وأنها ـ وهى فى الثالثة والخمسين ـ ولدت منه هولة لها رأس ذئب ، وذنب أفعى .

وللشيطان أعوان من الأبالسة يحومون حول كل نفس ، يغرونها بارتكاب الآثام ، ويضاجعون النساء اللائى يهملن أنفسهن ، أو ينمن على وجوههن ، أو ينقطعن للدين والعبادة .

وقد دفع انتشار الأوهام عن الشياطين والجن والساحرات عالماً ذكياً هو سيمون التورانى ، سنة ١٢٠١ ـ إلى أن يثبت فى محاضرة له عقيدة التثليث ، بالحجج القوية البارعة ، فلما رأى إعجاب مستمعيه به تاه عجباً ، وقال إن فى وسعه أن يثبت عكس هذه العقيدة بحجج أقوى من حججه الأولى .

وما كان يجرؤ على مثل هذا إلا لاقتناعه بغفلة السامعين ، وبأن المعتقدات الكنسية لا تقوم على أساس مكين .

ومما زاد الأمر سوءاً أن جيوم ديورانت (١٢٣٧ ـ ١٢٩٦) أسقف مندى (Mende) رأى أن لكل جزء من الكنيسة معنى دينياً ، فمدخل الكنيسة هو المسيح الذى يوصلنا إلى الجنة ، وعمدها المطارنة وعلماء الدين الذين يقيمون صرح الكنيسة ، وغرفة المقدسات التى يلبس فيها القس ثيابه هى رحم مريم الذى يتجسد فيه المسيح بجسد الآدميين .

ويقول أحد الأساقفة العظام إن داود حين يراقب بشِشبع وهى تستحم إنما يرمز إلى المسيح ، إذ يرى كنيسته تطهر نفسها من دنس هذه الدنيا .

وهكذا فسرت كل واقعة فى أسفار (العهد القديم) بصورة فى أسفار (العهد الجديد) ، على سبيل الرمز ، أو على سبيل الإغراق فى (الوهم) . وللأسف الشديد سار ابن عربى ـ وهو ابن هذه الفترة ـ هذا المسار الخيالى (المثير) ، حتى هدم الجسور بين مواطن الكفر والإيمان .

ومن هذا الأفق الرمزى التلفيقى ما سمى بالأسرار المقدسة .

ومما لاشك فيه لم يكن دبورانت وغيره السبب المباشر فى (تشخيص) هذه الأسرار ، لأنها ذات تاريخ وثنى طويل ، كما أن لها جذوراً يهودية ، وأخرى مصرية وهندية وبابلية وفارسية ويونانية .

(أ) ـ البطريرك [1] : اشترط فيه أن يكون حر المولد ابناً لأم متوجة (لم تتزوج إلا مرة واحدة ، لأن الأرملة لا تتوج إذا تزوجت مرة ثانية) ، صحيح البدن ، غير متزوج ، وألا يقل عمره عن خمسين عاماً ، وألا يكون قد أراق دماً ، وأن يكون عالماً ، حياته بلا لوم ، مستقيم الرأى ، من ساكنى الصحراء (راهب) ، وألا يكون أسقفاً .

يقول الدكتور بتلر عن شرط سكنى الصحراء : مهما كانت الضرورة ، فالواضح الآن هو أن هذا الأمر ضد مصلحة الشعب ، لأنه كيف يستطيع مجرد متوحد عاش بعيداً عن فكر وحركات عصره ، ليست لديه أية تجارب فى التعامل مع الناس ـ كيف يستطيع مثل هذا الشخص أن يوجه روح الكنيسة أو يقود بيده العاجزة سفينة فى أزمنة مشبوبة بالأعاصير والأخطار ؟!.

وقد ورد أن تقليد الهروب إلى الصحراء ، والعودة بالقيود الحديدية ، كان يشكل جانباً من جوانب الاحتفال بالتجليس أو الترسيم .

ويفسر فانسليب (Vansleb) هذا الأمر بأنه عند اقتراب موعد الانتخاب كان كل من يشعر بجدارته بالمنصب يختفى، وكان المجلس يطلب جنوداً من رجال الحكم للقبض على الهاربين ، وإحضارهم مقيدين إلى (القاهرة) .

وإذا لم يكن المرشح قد حاز أية رتبة كنسية ، خلاف رتبة الرهبنة ، فإنه يمر ببقية الرتب الضرورية فى عدة أيام متتابعة ، قبل يوم الرسامة الذى لابد أن يكون يوم الأحد ، فيمنح رتبة الشماس يوم الخميس ، والقس يوم الجمعة ، والقمص أو رئيس الكهنة يوم السبت ، ولكنه لا يمر برتبة مساعد الشماس ، ولا تجرى رسامته أسقفاً ، وإذا كان قد

---

(١) الحديث هنا خاص ببطريرك الإسكندرية ، كما جاء فى (الكنائس القبطية القديمة فى مصر) لألفريد بتلر ـ جـ ٢ ص ٢٤٢/٢٣٨ ، ويلاحظ أن البابوية الغربية تخضع لتوجهات سياسية فى الدرجة الأولى ، ومن ثم خلت من شروط الرهبنة ، والعلم ، والسن ، وصحة النفس والجسم .

حصل على رتبة الشماس أو القس قبل الرسامة ، لكنه لم يكن قد صار راهباً ، فمن الضرورى أن يرسم راهباً على الرتبة الأعلى .

وفى اليوم المحدد للرسامة يحضر البطريرك المنتخب إلى الكنيسة مقيداً بالسلاسل ، وهى كنيسة القديس مرقس بالإسكندرية ، وقد قضى الليلة السابقة ساهراً بجوار قبر القديس مرقس الإنجيلى .

وبعد إجراء المراسم الأولى: مباخر وصلوات وتسابيح وقراءات فى الإنجيل ـ يسلم كبير الأساقفة وثيقة الانتخاب إلى أحد الشمامسة ، يتلوها على المنبر بصوت عال ، ويوقع جميع الأساقفة بالموافقة ، ويوقع بعدهم ثلاثة من الكهنة ، وثلاثة من الشمامسة الذين من الإسكندرية ، ثم رئيس دير القديس مكاريوس ، أو حاكم الإسكندرية أو القاهرة .

ثم ينزل الأساقفة ويقفون بجوار المذبح ، وبعد أن يؤدوا العديد من التراتيل والصلوات ، مع إطلاق البخور ، يضع كبير الأساقفة يده اليمنى فى صمت على رأس البطريق ، بينما يعلن رئيس الشمامسة إعلان التنصيب .

ومرة أخرى يضع كبير الأساقفة يده ، ويقرأ الدعاء ، بينما يمد جميع الأساقفة أيديهم ، كل واحد كلتا يديه إلى فوق ، ثم يرسم كبير الأساقفة البطريرك بصليب على رأسه ، ويعلنه رئيساً للأساقفة فى كنيسة الله المقدسة للمدينة العظيمة الإسكندرية ، ويلبسه البطرشيل وبذلة القداس ، ويعود الجميع إلى أماكنهم على المنصة ، بينما يقرأ أحد الشمامسة وثيقة التنصيب من فوق المنبر ، ويلى ذلك صلوات طويلة ، حتى يعلن كبير الأساقفة اسم البطريرك ، ويصيح جميع الحاضرين : (مستحق، مستحق) ، ثم توضع البشارة أربع مرات متتابعة فوق رأس البطريرك ، ويضع كبير الأساقفة وجميع الأساقفة أيديهم فوقها ، وبعد أن يرتدى البطريرك الصدرة والعباءة والتاج والعكاز يقتادونه إلى العرش ، فيجلس عليه ثلاث مرات ، ثم يعلن كبير الأساقفة باليونانية اسمه ، ولقبه ، بينما يخلع جميع الأساقفة تيجانهم ، ويجلس البطريرك على العرش ممسكاً كتاب البشارة ، ثم يحييه جميع الأساقفة ورجال الإكليروس والشعب ، ثم يتقدم البطريرك للاحتفال بالقربان ، ويقرأ الإنجيل بنفسه ، وعندما يصل إلى عبارة (أنا هو الراعى الصالح) يصيح جميع الحاضرين (مستحق ، مستحق) ، وعند نهاية القداس يعطى السلام ، وينسحب فى موكب حافل إلى غرفة حفظ الأوانى والأثواب ، حيث يخلع ملابس الخدمة ، ويلبس

العبـاءة السـوداء ، ويعـود إلى العرش ، ويعطى البركة ، ويمر من الكنيسـة إلى القصر البطريركى ، أو (القلاية) كما يدعى ، ويركب بغلته فى موكب عظيم ، ويسير أمام الجميع رجال الأكليروس ، وتتبعه جماهير الشعب ، بينما تحمل فى مقدمة الموكب ثلاثة صلبان مع صورة القديس مرقس الرسول ورايته ، ثم يتحركون إلى المقر البابوى ، بين أصـوات التهليل ، وهنـا يأتى جميع رجال الإكليروس ووجهاء الناس للمبايعة ، ويقام عيد لمدة ثلاثة أيام ، اليوم الأول فى كنيسة الإنجيليين ، والثانى فى كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل ، والأخير فى الكنيسة المرقسية ، ويجلس البطريرك على العرش ، ويمسك برأس القديس مرقس بدلاً من الإنجيل ، ويضعها فى كساء جديد .

(ب) من ملابس رجال الإكليروس الأقباط [1] :

١ ـ التونية : (Dalmatic) ثوب طويل من الكتان يصل إلى القدمين ، مزين بالجواهر على شكل صليب على الظهر والصدر والحواف وأطراف الأكمام .. أما إذا كانت الكنيسة فقيرة فإنه يطرز بالحرير بدلاً من الجواهر ، وهذه التونية واحدة من الأدلة الكثيرة على عظمة الطقس القبطى القديم ، وترتديها كافة الرتب الكنسية ، حتى من هم دون رتبة الشماس ، وهى ذات لون أبيض .

ويورد ابن العسال قانوناً من قوانين القديس باسيليوس يقول : (ملابس الخدمة يجب أن تكون بيضاء فقط) ، وتقول القوانين الإمبراطورية إن (الملابس الكهنونية يجب أن تصل إلى الكعبين ، وأن تكون بيضاء وليست ملونة) ، ولاشك فى أن المقصود بهذا القانون (التونية) التى ما تزال حتى اليوم ضرورية لخدمة القداس .

والفارق بين تونية الكاهن وتونية الشماس فى الزخرفة ، لأن تونية الكاهن وضعت على صدرها صورة العذراء مريم ، وصورة ملاك على كل من الكمين ، مطرزة بخيوط الذهب أو الفضة أو أشغال الإبرة الدقيقة ، بينما تحمل تونية الشماس صلباناً صغيرة ملونة .

وفى الفترة التى كانت فيها التونية العادية مطعمة بأفاريز وصلبان من الجواهر الثمينة ، كانت الأرضية منسوجة من الحرير الأبيض الثمين أو الكتان ، والحرير هو المادة الشائعة الذكر فى الكتابات القديمة .

(١) الكنائس القبطية القديمة فى مصر ـ ج ٢ ص ٩٧/٨٤ .

ويُرى رئيس الملائكة ميخائيل - في صورة بكنيسة أبي سرجة - وقد ارتدى تونية قرمزية مزينة بالذهب .

يقول البطريرك اليوناني جرمانوس : (إن التونية اليونانية بلونها الأبيض ترمز لمجد الله ونقاء الحياة التي يحياها القسوس المسيحيون) .

ويوجد بين كنوز كنيسة القديس نيقولاوس القبطية بالقاهرة تونية فخمة مصنوعة من الحرير الأزرق الفاتح ، مزخرفة بزهور ودوائر مطرزة في تصميمات جميلة بارزة ، وقد أحيطت الزهـور والدوائر التي تدور حول رسوم أشخاص القديسين بحبات متلاصقة من اللؤلؤ ، مصفوفة مع خطوط التصميم .

أما التونية التي يرتديها البطريرك في الاحتفالات الكبرى حالياً فهي مصنوعة من خيوط الذهب .

٢ - الصدرة : يصف القديس جيروم الصدرة بأنها منسوجة من الذهب ، وبألوان زاهية مثل الإفود (Ephod) .. ويورد ماريوت أن المطران الروسي يرتدي فوق صدره قطعتين من الملابس المزينة بالجواهر ، ويظن أنهما مأخوذتان عن الأوريم والتراقيم اللذين كانا على صدرة هارون الكاهن .

ويضاف إلى التونية والصدرة من ملابس الإكليروس الإفود ، والمنطقة (Girdle) ، والمنديل (Maniple) والغفارة (Cope) ، والبطرشيل (Stole) ، ولكل مواصفاته الخاصة ذكرها بتلر في (الكنائس القبطية ج ٢ ص ٨٤ وما بعدها) .

(ج) **المذبح** : يقول فورتوناتوس : إن هذا الاسم يمثل مائدة السيد المسيح التي استضاف بها تلاميذه .

ويقول بولس السلنتياري (Silentiary) في وصف كنيسة القديسة صوفيا (Sophia) : إن مذبح قسطنطين كان مصنوعاً من الذهب والفضة والأخشاب الثمينة ، ومزيناً باللآلىء والأحجار الكريمة ، وكان مرفوعاً على درجات ، ومقاماً فوق أعمدة ذهبية ترتكز على قواعد من الذهب .

وينقل عن مؤرخ آخر قوله : (وفي العادة تضع معظم الكنائس رفات القديسين في أماكن تحت المذبح ، حتى تظل راقدة في راحتها) .

وكتب أردو (Ardon) رئيس دير أنيان الذى توفى سنة ٨٢١ : (كان التناول يتم لكل فرد من المذبح المجوف الذى كانت توضع فى تجويفه صناديق مختلفة تضم رفات الآباء) ـ المصدر نفسه ص ٢٠/٧ .

ولا ندرى سر علاقة الرفات بالمذبح والتناول ، أهو ضيق فى المكان ، مع أن كل كنيسة تلحق بها حجرات وحديقة فى غالب الأمر ، أم أن المطلوب هو الحصول على بركة القديسين أثناء التناول ؟.

(د) **الزيوت المقدسة** : أهم المواد المستخدمة فى عمل زيت الميرون هو البلسم الذى ينمو فى حديقة مريم بالمطرية ، مكان مدينة هليوبولس القديمة ، وهنا ـ كما تقول الرواية ـ استراحت العائلة المقدسة أثناء هروبها إلى مصر [١] .

وتجرى عدة عمليات غلى للميرون ، كل منها مستقلة بطقس خاص ، والكميات المأخوذة من كل مادة محددة بالدقة ، سواء عن طريق الميزان أو القياس . (ولعله يقصد القياس داخل الأنابيب أو الأوانى) .

فى العملية الأولى يتم غلى الأطياب والأفاويه المختلفة التى تتضمن أزهار الزنبق والكاسيا ، حيث توضع فى قدر وتنقع فى الماء النقى لمدة يوم ، وفى صباح اليوم التالى يصب فيها ثمانية أرطال من الزيت النقى الذى لم يوضع فى أية أوعية من الجلد ، وتترك لمدة يوم ، وهى تغلى على نار متوسطة .

أما مواد الوقود فهى حطب الزيتون ، أو خشب الأيقونات القديمة .

وأثناء غليان الخليط يقرأ سفر المزامير كله ، ويقلب الخليط من وقت لآخر بقضيب من فروع شجر الزيتون ، وكلما أوشك الماء على النفاد أعيد تزويده .

وفى المساء ترفع القدر عن النار ، ويترك الزيت طوال الليل حتى يبرد ، ثم يصفى بمنخل من نسيج الكتان .

وبعد ذلك توضع الأزهار الفارسية الحمراء مع خشب الصندل الأبيض ، وغير ذلك من المواد العطرية ، فى غلاية كبيرة مملوءة بالماء النقى ، وتترك لمدة ست ساعات ، ثم

---

(١) قيل إن العائلة اختفت داخل تجويف شجرة ، ونسج العنكبوت خيوطاً حول مدخل التجويف ، ففقد أثرها المطاردون ـ الكنائس القبطية جـ ٢ ص ٢٥٦ .

يضاف إليهما الزيت الذى صنع بالأمس ، ويتم غلى الجميع لمدة أربع ساعات على نار هادئة ، ويصفى الخليط مرة أخرى.

أما فى الطبخة الثالثة فيتم اختيار أفاوٍ أخرى ، وتنقع ثم تغلى مع ماء الزيت الناتج عن اليوم السابق ، وتصفى كالمرتين السابقتين ، وفى اليوم التالى يتم خلط مواد أخرى ، منها البلسم والزعفران ، وخشب الصبار ، وكمية أخرى من الوورود الحمراء ، وتغلى كما حدث من قبل ، حتى يتبخر الماء كله ، ثم ينقى الخليط بالتصفية ، وفى اليوم الخامس يضاف هذا الخليط إلى العنبر الأصفر المغلى والبلسم ، ويغلى على نار هادئة .

أما مواد الوقود فهى الفحم النباتى المصنوع من خشب البلوط ، حتى يتم تحلل العنبر والبلسم .

ثم يصفى (الميرون) من خلال منخل من الكتان ، ويجمع فى وعاء نظيف ، ويقلب يومياً لمدة سبعة أيام .. وبذلك يصبح جاهزاً للتكريس والتقديس .

ويتم هذا كله بناء على إرشاد ملاك ظهر للبطريرك تيوفيلس .

ويكون تكريس هذا الزيت يوم الخميس ، إذ يجتمع البطريرك وعدد كبير من الأساقفة ورجال الإكليروس والشعب ، بكنيسة القديس مقاريوس ، ويوضع زيت الميرون ، وزيت الغاليلايون [1] المطلوب تقديسهما فى أوعية منفصلة على المذبح العالى ، وتبدأ الخدمة بأداء صلاة الشكر مع حرق البخور ، ويصلى البطريرك هذه الصلاة ، ويلى ذلك قراءة عدد من فصول الكتاب المقدس ، وأثناء ذلك يجلس البابا البطريرك على عرشه ، وبعد انتهاء القراءات يتألف موكب يدور حول الكنيسة ، ويحمل فى مقدمته صليب كبير مخصص للدورات الاحتفالية ، ويسير وراء الصليب اثنا عشر من الإيبودياكونين ، يحمل كل منهم مصباحاً مضيئاً ، ويسير بعدهم اثنا عشر شماساً ، يحمل كل منهم مروحة فضية ، ويسير بعدهم اثنا عشر كاهناً يحملون المجامر التى ينطلق منها البخور ، وبعدهم يسير البطريرك تحت مظلة حريرية يحملها أربعة من الشمامسة ، بينما هو يحمل وعاء الزيت المقدس ، ويسير على جانبى البطريرك وخلفه بعض رجال الإكليروس الذين يحملون المراوح والصلبان ، وأثناء تحرك الموكب ينشد الجميع (هذا هو طيب الرب) ، وعندما يعودون إلى الهيكل

(١) قيل إنه زيت تغلى فيه بقايا زيت الميرون بعد تصفيته .

يضع البطريرك الميرون مرة أخرى على المذبح ، ويبدأ الخدمة الطويلة الجميلة لتكريس الميرون ، وبعد مباركة الزيت يحتفل على التو بسر القربان الأفخارستيا ، وبعد الانتهاء منه يوضع زيت الميرون ، وزيت الغاليلايون فى الفجوة التى تحت المذبح العالى ، حتى يوم الثلاثاء من أسبوع القيامة ، وفى هذا اليوم ، بعد خدمة القداس ، يوزع البطريرك على الأساقفة كميات تكفيهم العام التالى .

وأثناء صلوات البركة الخاصة بالغاليلايون يذكر أن الكهنة والشهداء قد مسحوا بهذا الزيت ، ويتضح من مغزى الصلوات الأخيرة أن الغاليلايون له خواص وفاعليات سرية ضد عبادة الأصنام أو السحر ، وفيه حصانة ضد هجمات الشياطين ، وقوة لشفاء الروح والجسد ، وهو بهذا ضرورى لجميع المؤمنين .

ويستخدم الميرون الآن للتثبيت فقط ، ولتدشين الجديد من الكنائس أو المذابح أو الأيقونات أو الأوانى ، وللمسحة الأخيرة عند العماد .

ويوضع الزيت فى صندوق من المرمر ، مغطى بستر ، ويحمل فى موكب ، فيتحرك أمامه الشمامسة بالشموع المضيئة ، وعلى كلا الجانبين سبعة من الشمامسة يحملون المراوح التى يروحون بها على الوعاء ، إلا أن البابا لا يحمل الزيت المقدس ، بل يتسلمه من كبير الكهنة أو الأسقف على باب الهيكل ، ويضعه على المذبح .

(هـ) **مسحة المرضى** : فى الترتيب الطقسى الذى أورده البابا غبريال ، نجده يصف طقس هذا السر كما يلى :

يملأ قنديل ذو سبعة أفرع بأنقى أنواع زيت الزيتون المستورد من فلسطين ، ويوضع على حامل أمام أيقونة القديسة العذراء مريم ، ويوضع بالقرب منه صليب وكتاب البشارة الفضية ، ويجمع سبعة من الكهنة أو عدد مناسب منهم فى الكنيسة ، وتبدأ الخدمة بصلاة الشكر ، ويليها إشعال البخور ، ويقرأ جزء من الرسائل ، ويلى ذلك بعض الصلوات المناسبة، ثم يشعل رئيس الكهنة إحدى الفتائل مع رسم علامة الصليب على الزيت ، بينما يرتل رفقاؤه المزامير ، ويلى ذلك صلوات أخرى ، وفى وقت معين يقوم الكاهن الثانى برشم علامة الصليب على الزيت ، ثم يشعل الفتيلة الثانية ، ويستمر ذلك مع الصلوات والتراتيل ، حتى يتم إشعال الفتائل السبع بالترتيب ، وبعد إتمام كافة الصلوات وإشعال

الفتائل ، فإن الشخص المريض إذا كان قادراً على المشاركة فى الخدمة يتقدم إلى باب الهيكل نحو الشرق ، وهناك يرفع رئيس الكهنة البشارة الفضية والصليب على رأسه ، ثم يضع يديه على صدغى المريض .

وبينما يردد رئيس الكهنة وحده بعض الصلوات يقدم جميع الكهنة بركاتهم ، ثم تتلى الصلاة الربانية ، ويفتح الإنجيل، ويقرأ الفصل الذى ينفتح عليه الكتاب بالمصادفة ، ثم يتلى قانون الإيمان ، وبعض الصلوات الأخرى ، ويرفع الصليب مرة أخرى على الشخص المريض ، ثم يتشكل موكب يطوف بالكنيسة حاملاً القنديل ذا الفتحات السبع والشموع المضيئة، بينما هم يرتلون طالبين من الرب شفاء المريض ، بشفاعة القديسين والشهداء .

وفى نهاية الدورة يعود المريض إلى الخورس الأول ، وبينما يقف أمام الهيكل ، كما كان من قبل ، يدهن بالزيت .

ولكن ، إذا كان المريض يعانى من المرض الذى يحول بينه وبين تحمل هذا الاحتفال الطويل والمرهق بالكنيسة ، **فإنه يحل محله شخص بديل** !!.

ويتحدث القديس يوحنا فم الذهب بوضوح عن الأشخاص الذين دهنوا بالزيت من مثل هذا القنديل وتم شفاؤهم من أمراض معدية .

وقيل إن كثيرين تم شفاؤهم من الأرواح الشريرة بهذه الطريقة .

وقد ورد هذا فى الطقس اليونانى الذى يتضمن صلاة لمسح المريض بزيت القنديل[1] .

(و) **المعمودية** : حسب القوانين القديمة التى تأسست طبقاً للشريعة الموسوية ، فيما يختص بالتطهير ، حددت مدة أربعين يوماً ، بوصفها السن المقررة لتعميد الأطفال الذكور ، وثمانين يوماً لتعميد الإناث ، وهى الفترة الزمنية المقررة لتطهير الأم بعد الولادة ، وبعدها يتحتم حضور الأم إلى الكنيسة .

وقد اتخذت المسيحية التعميد لمحو الخطيئة الأولى بحيث يولد الشخص ميلاداً جديداً ، إذ يدخل حظيرة المسيحية ، ومن المثير للدهشة أن الخطيئة الأولى وردت فى سفر (تكوين)

(١) عن الكنائس القبطية ـ ج٢ ص٢٥٢ ـ ٢٦٠ ـ ولابد من ذكر قنديل أم هاشم فى هذا المجال ، والترحم على يحيى حقى ، لكن لابد أن نسأل عن هذه المسحة فى حالة الأوبئة !! .

ولم يقف اليهود عندها ، وظلت خبراً من الأخبار ، ولم يقف السيد المسيح عندها أيضاً ، وقد كان عليه السلام يهودياً يحترم ناموس موسى ، وعادات اليهود ، ويحافظ على المواسم والأعياد .

لكن بولس الذى خرج بالمسيحية إلى الوثنية جعل (المعصية الأولى للإنسان موجهة ضد الله ، فهى غير محدودة ، وتتطلب مغفرة غير محدودة) .

ومن هنا لا يكتفى بالتعميد ، بل كان المفروض أن يطلق الأبوان على طفلهما فى حفل التعميد اسم أحد القديسين ، ليكون هذا القديس شفيع الطفل وأنموذجه وحاميه .

وقد جرى خلاف فى توقيت هذا العماد ، لتتم فاعليته ، فقيل إنه يفضل بعد البلوغ حتى يمكن المعمد التمييز بين الخطيئة والطهارة ، وقيل قبل أن يوافيه الموت حتى يلقى الله خالياً من الذنوب ، كيوم ولدته أمه ، أو تأسياً بالملك قسطنطين (الحوارى الثالث عشر) ، وثمة من يقترح أن يتم العماد للأبوين ليلة بلتقيان ليكتبا شهادة الحمل ، بحيث يأتى الوليد خالياً من الخطيئة تماماً ، أما إطلاق اسم القديس على الطفل فأمر كان ينبغى استشارة القديس فيه ، لأن من المحتمل أن يصير هذا الطفل مجرماً فيساء القديس بسببه ، دون أن يعطى فرصة لحماية هذا (المجرم) من نفسه ، ودون أن يعطى القديس فرصة للدفاع عن نفسه ، كيف تركه فصار مجرماً .

ومن المثير للدهشة أيضاً أن القاعدة اليهودية الخاصة بالختان فى اليوم الثامن تعتبر قاعدة عامة فى المسيحية ، لكنها ليست إجبارية ، ولا تعتبر طقساً دينياً ، ويحظر تماماً إجراء عملية الختان بعد المعمودية ، مع أنه يمكن النظر إليها على أنها (عملية جراحية) .. لكن للختان فى اليهودية قيمة أخرى ، لأن به يعرف (الشعب المختار) .

وقد حددت لتطبيق طقس المعمودية فترات معينة من السنة ، بينما منع فى فترات أخرى ، لكن الاستثناءات تحدث دائماً أثناء الخطر ، أما الفترات غير المناسبة لإجراء المعمودية فهى فترة الصوم الأربعينى كاملة ، وأسبوع الآلام ، وعيد القيامة .. أما قوانين الأنبا خريستوذولوس فتمنع إجراء المعمودية عشية عيد القيامة ، وخلال فترة الخمسين .. ونجد أن الموسم المناسب للعماد ـ منذ أقدم العصور ، وحتى اليوم ـ هو عيد الغطاس ، أو الظهور الإلهى .

ويتم العماد فى مبنى مكرس لهذا العرض (خارج الكنيسة) ، حيث يستقبل الطفل

المرشح للعماد أولاً فى ردهة صغيرة ، عند المدخل ، ثم يقتاد إلى المعمودية ، وبعد تمام الطقس يقتاد إلى الهيكل الجانبى المواجه ، مع اعتباره خارج الكنيسة ، ثم يتناول من سر الأفخارستيا ، وبذلك تتم عضويته فى جماعة المؤمنين ، ويصبح له الحق فى دخول مكان العبادة .

لكن الأقباط ـ فى كل الأحوال ـ لا يسمحون بعماد الأطفال فى منازلهم ، فمن الضرورى حضور الجميع إلى الكنيسة .. ولا يعرف المسيحيون الأرثوذكس سوى التغطيس كأسلوب وحيد للتعميد ، ولا جدال فى أن التغطيس يتم ثلاث مرات ، يغطس الطفل بكامله ثلاث مرات تحت الماء .

لكن حالة تعميد الطفل الضعيف أو المريض لا تستوجب أسلوب التغطيس ، ويستعاض عنه برش الماء ثلاث دفعات .

وإذا كان الماء شديد البرودة ، بحيث يسبب الضرر ، فمن الجائز استخدام الماء الدافىء، وإذا تعذر الحصول على الماء الدافىء أو البارد ، يصب الماء الموجود ثلاث مرات ، باسم الآب والابن والروح القدس .

وقبل المعمودية بيوم أو اثنين ، يجب أن يصوم من سيقوم بالتعميد ، ومن سيقدم التعميد .

والمرشحون للتعميد يصومون استعداداً ليوم الأحد ، الذى فيه يحضرون إلى الأسقف ، ويحثون أمامه ، ثم يقوم الأسقف بوضع يديه عليهم ، وطرد أى روح شريرة عنهم ، ثم ينفخ فى وجوههم ، ويرشم جباههم ، وآذانهم ، وأنوفهم ، ويقضون الليل سهارى فى القراءة والوعظ .

وفى باكر اليوم الثانى عند صياح الديكة يجرى تكريس الماء الذى يصب فى جرن المعمودية ، ويتحتم وجود الوكيل (الأشبين) بالنسبة لصغار السن ، للإجابة عنهم ، وهؤلاء الوكلاء الوالدان ، أو من بين ذوى الأرحام .

ويصلى الأسقف صلاة الشكر على الزيت الموجود فى زجاجة ، ويسمى زيت التهليل ، وهو زيت الغاليلايون الذى يستخدم لطرد الأرواح الشريرة .

ويقف على يمين الكاهن شماس يمسك بزيت الميرون ، كما يقف على يساره شماس آخر يمسك بزيت الغاليلايون .

ويلى ذلك جحد الشيطان الذى يدهن المرشح بعده بزيت الغاليلايون ، ثم يقف المرشح فى الماء بعد أن يخلع ملابسه ، وعند كل مرة يتم فيها الاعتراف بالإيمان يغطس فى الماء ، إلى ثلاث مرات ، ثم يخرج من الماء ، ويرشم بزيت الميرون ، ثم يلبس الملابس ، ويدخل إلى الكنيسة ، وهناك يضع الأسقف يده على رأسه ، ويرشم جبهته ويحييه أو يقبله ، ويطلق الجميع عبارة السلام ، وبذلك ينتهى طقس التثبيت .

وبعد العماد والتثبيت مباشرة يأتى دور التناول ، السر المقدس ، سر الشكر .

يقوم الأسقف بإتمام صلوات تقديس الخبز والخمر ، ومباركة اللبن وعسل النحل ، ثم يقسم الخبز ، ويعطى لكل واحد جزءاً منه ، قائلاً : (هذا هو خبز السماء ، جسد المسيح يسوع) ، ثم يعطيه من الكأس قائلاً : (هذا هو دم المسيح يسوع مخلصنا) ، وكذلك يقدم من اللبن والعسل لكل واحد .

* أما القديس ساويرس بطريرك الإسكندرية سنة ٦٤٦ فيرى أن الاحتفال يبدأ بعملية (خلط الماء) ، ولعله يقصد نفضه ، أو تحريكه بيده ، وبعد ذلك يأتى دور حرق البخور ، مع صلاة لمحاربة (سلاطين قوات الهواء) ، وبعدها ينفخ الكاهن فى الماء ثلاث مرات ، وبعد ذلك يرشم علامة الصليب ثلاث مرات على جبهة كل طفل ، بدون استخدام الزيت ، ويطرد عنه الشياطين برشم صلبان أخرى كثيرة على الوجه ، ثم يتجه الأطفال إلى الغرب لجحد الشيطان ، ثم يعودون إلى الشرق مرة أخرى ، ويرشم الكاهن ثلاثة صلبان على جبهة كل طفل بزيت الزيتون الذى هو زيت الغاليلايون أو زيت الموعوظين .

وبعد رفع البخور تأتى صلوات تبريك الماء ، فيرشم الكاهن علامة الصليب على سطح الماء ، ثم يعمل بإصبعه أربعة صلبان صغيرة من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب ، مصحوبة بدعوات كثيرة ، ثم يصب زيت الغاليلايون من قنينة صغيرة على الماء فى شكل ثلاثة صلبان ، ثم يصب زيت الزيتون على رأس كل طفل ، ويضعه فى جرن المعمودية ، واضعاً يده اليمنى على رأسه ، ويرفع الطفل بيسراه ثلاث مرات ، قائلاً : (نعمد « فلاناً » باسم الآب آمين ، والابن آمين ، والروح القدس آمين) .

وكلمات الطقس هنا تعنى أن الطفل قد غطس تحت الماء ثلاث مرات ، ولا يوجد أى اختلاف فى أى من التغطيسات الثلاث عن الأخرى .

وبعد انتهاء هذا الترتيب يخرج الطفل من المعمودية ، ويرشم بالميرون ثلاث مرات على جبهته ، ثم على سائر أعضاء الجسم ، ثم يلبس الملابس ، ويقدم إلى المذبح للتناول من سر الأفخارستيا .

وينهى الكاهن هذا الطقس عندما يتوج الأطفال الذين تعمدوا بأكاليل من الزهر .

وقد أغفل الأنبا ساويرس ذكر اللبن والعسل .

* وعادات جحد الشيطان ، وتبريك الماء ، والرشم بالزيت ، ما تزال موجودة ، لكن الزيت الذى يستخدم أولاً هو زيت الزيتون الصافى الذى يباركه الكاهن ، والطفل الذى يخلع ملابسه يرفع يديه على هيئة صليب لجحد الشيطان ، ثم يتجه إلى الغرب ، ويتلو قانون الإيمان ، وبعد ذلك تتم العودة إلى الشرق ثم تدهن جميع مفاصله بالزيت الثانى ، أو الغاليلايون .

وعادات حرق البخور ، والنفخ على الطفل ، وسكب الميرون على الماء فى ثلاثة صلبان ، ثم التغطيس ثلاث مرات ، ووضع اليد أو التثبيت ، والدهن بالميرون ـ لا تزال موجودة فى الطقس الحالى .

وإذا كان الطفل أصغر من أن يتناول القربان المقدس فإن الكاهن يغمس إصبعه فى الكأس ويلمس به لسان الطفل ، وبعد ذلك يتناول من خليط اللبن والعسل .

وخلال هذا الاحتفال الذى يستغرق وقتاً طويلاً ، والذى يحفل بالعديد من الصلوات والترانيم ، والفصول التى تقرأ من الكتاب المقدس ـ توضع البشارة على حامل الإنجيل الموجود بجرن المعمودية ، وتوقد حولها الشموع التى تظل مشتعلة أثناء الاحتفال، وبعد انتهاء القداس يتحرك رجال الإكليروس بملابسهم الفخمة فى موكب يطوف بالكنيسة ثلاث مرات .. وأثناء الموكب يحمل الأسقف أو الكاهن الطفل الذى يسير أمامه القندلفت حاملاً صليب البركة الذى تثبت فيه ثلاث شموع مشتعلة ، ويليه بقية رجال الإكليروس والشمامسة ، وهم يحملون الشموع ويدقون الأجراس والصنوج .

وتحل المنطقة (الزنار) فى اليوم الثامن بعد العماد ، وليس قبل ذلك فى احتفال مهيب ، لأن ذلك يعتبر استكمالاً لطقس العماد ، ويعقد هذا الاحتفال فى جرن المعمودية بالكنيسة ، وليس فى منزل المعّمد ، فتوضع زجاجة من الماء على حامل الإنجيل ، مع وضع

صليب على الحافة ، وتضاء حولها الشموع ، ويرفع البخور ، مع ترديد الصلوات وقراءة الفصول الخاصة من الكتاب المقدس، ثم يرشم الكاهن الماء ثلاث مرات على هيئة صليب، ثم يحل المنطقة (الزنار) و يغسل الطفل وملابسه [1].

(ز) ـ سر التناول : (القربان ـ التقدمة ـ الذبيحة) :

يقول الدكتور بتلر : إن مناقشة المراسم المتعلقة بالقداس القبطي تحتاج إلى رسالة علمية متعددة الأجزاء .

ثم يقول : إن الصوم قبل التناول لا غنى عنه ، بالنسبة لكل من يتقدم للتناول ، وهذا **القانون** ينطبق على الأطفال أيضاً ، لأنه قانون **فوق مستوى السؤال** ، ولا يستثنى منه أحد.

وتبدأ فترة الصيام من بعد صلاة الغروب لليوم السابق على الاحتفال بالقداس ، وتعتبر نظافة البدن ضرورية جداً للتقدم للتناول ، وللكاهن ، ويلزم الكاهن أن يغسل قدميه قبل دخول الكنيسة ، ولا تصح مناولة الأشخاص غير المعروفين (الغرباء) الذين لم يفحص الكاهن إيمانهم ، خوفاً من أن يتقدم للتناول شخص بدون استحقاق (؟!) .

ومن يتناول هذ السر عليه أن يقضي بقية اليوم دون أن يتناول طعاماً أو شراباً مع يهودي أو مسلم ، كما أنه يلتزم بألا يخرج من فيه أي شيء من طعام أو شراب يكون قد تناوله ، ويمتنع كذلك عن التدخين .

أما الخبز المستخدم في القربان فهو مصنوع من أفخر أنواع الدقيق ، ويتم شراؤه خصيصاً لعمل القربان ، ولابد من خبزه في فرن خصص لذلك ، ملحق بمبنى الكنيسة ، ولابد أن يقوم بعملية الخبز قندلفت (قيم) الكنيسة الذي يلتزم أثناء الخبيز بتلاوة أجزاء معينة من المزامير باحترام وتقوى ، ولابد من أن يكون العجين مختمراً ، كما يلزم خبز القربان في صباح اليوم الذي يستخدم فيه للقداس ، وتصنع القربانة على شكل كعكة مستديرة يبلغ قطرها ثلاث بوصات ، وسمكها بوصة واحدة ، ولابد من ختم سطحها العلوي بتشكيلة من الصلبان ، يحيط بها إطار مكتوب داخله عبارة مقدسة ، ترجمتها : (قدوس الله ، قدوس القوي ، قدوس الحي الذي لايموت) .

ويوجد داخل الإطار المكتوب، والذي يبتعد عن حافة القربانة اثنا عشر صليباً متساوية ،

---

(١) الكنائس القبطية ـ جـ ٢ ص ٢٠٧/٢١٥ .

وقد وضع كل منهـا داخل مربع خـاص به ، وجميع الصلبان تشكل صليباً كبيراً .

ويقوم (الأرمن) كذلك بختم القـربانة ، ولكن بصـورة للسيد المسيح .. والقـربانة لا تحتـوى على خميرة ، وتخبـز فى فـرن ملحق بالكنيسة ، صباح اليـوم الذى سيقـام فيـه القداس ، وكذلك تختم القربانة النسطورية بختم ، وهي تشبه القربانة القبطية ، لكن أقل سمكاً .

ويستخدم لإتمام سر التنـاول نبيذ غير مختمر ، لكنه مصنـوع من عصير العنب المجفف ، أو الزبيب الذى يترك منقوعاً فى الماء فترة معقولة ، وبعد ذلك يعصر فى معصرة النبيذ ، وتحت ضغط الحاجة يسمح أحياناً باستخدام النبيذ المصنوع من البلح .

وقد خصص لخدمة القداس يوم الأحد ، الساعة التاسعة ، ولا يسمح بإقامة قداس آخر على نفس المذبح ، خلال نفس اليوم ، كما أن الأوانى وملابس الخدمة المستخدمة فى هذا القداس لا تستخدم فى نفس اليوم مرة أخرى .

وعند بدء الخدمة فإن كل من يدخل الكنيسة يحيى المذبح ، ثم يقبل طرف الستارة المعلقة أمام باب الهيكل ، أو يسجد أمام عتبة الهيكل .

ومن المعتاد الآن ـ بالنسبة للجوقة ـ ترديد (تسبيحة موسى) أثناء قيام الشمامسة بإعداد المذبح .

ويجب على الكاهن ـ قبل صلاة الاستعداد ـ أن يفحص جميع الأوانى ، وأن يتأكد من أن اللوح المقدس مثبت فى مكانه تحت المفارش .

وبعد أداء صلاة الاستعداد ، وصلاة الشكر ، يذهب الكاهن إلى باب الهيكل ليأخذ القرابين من يد الشماس ، حيث تحضر ثلاث قرابين على صينية ، ويتحسسها الكاهن للتأكد من أنها طازجة ، ويمسح فوقها بيده ، ويلوح فوقها بيده ، ثم يختار واحدة من الثلاث ، ويحملها إلى المذبح مع قنينة النبيذ .

وبعد ذلك توقد الشموع ، ويمسك بها الشمامسة بجانب المذبح ، ويمسك أحدهم كذلك بقنينة النبيذ ، كما يمسك شماس آخر إبريقاً من الماء ، ثم يتحرك هذا الموكب حول المذبح بالشموع ومجامر البخور ، بينما يحمل الكاهن القربانة فى لفافة من الحرير ، أو فوق أحد المفارش الصغيرة .

وبعد انتهاء الدورة حول المذبح يقف الكاهن فى مكانه أمام المذبح فى مواجهة الشرق ، وظهره نحو الشعب ثم يخلط الخمر بقليل من الماء فى الكأس ، ولا يكون الماء دافئاً كما هو الحال عند اليونانيين .

وأثناء صلاة التقدمة التى تلى ذلك يرشم الكاهن الخبز والنبيذ بعلامة الصليب .

وبعد انتهاء الصلاة يضع فوق الكرسى المفرش الصغير الذى يقوم مقام الغطاء ، ويمثل حجاباً صغيراً ، حسب ما تمليه التعليمات ، وفي إجراء مماثل يضع فوق القربانة لفافة مستديرة صغيرة ، عليها ثلاثة صلبان ، ثم يضع القبة أو النجم ، وبعد ذلك يضع الصينية فوق الصندوق ، وبذلك تركز أيضاً على الكأس ، إذ تكون حافة الكأس بنفس مستوى سطح الصندوق .

ثم يغطى الجميع بالستر الأكبر حجماً ، المصنوع من الحرير ، والمطرز فوق صليب كبير .

وبعد انتهاء هذه العملية يركع الكاهن ويقبل المذبح .

* وأثناء صلاة التحليل يركع الكاهن وشمامسة الهيكل فى شكل دائرة أمام باب الهيكل ، مع الانحناء من وقت لآخر ، ثم يتناول الكاهن المجمرة ، ويقف أمام المذبح لرفع البخور ، ويلوح بالمجمرة فوق العناصر المقدسة ، ويدور حول المذبح وهو يحرك المجمرة ، بينما يرتل الشمامسة الألحان الثلاثة الخاصة برفع البخور

ثم ينزل الكاهن ويقف أمام باب الهيكل ، ويبخر حول المدخل ، ثم يدور وينشر البخور فى كافة أرجاء الكنيسة ، ومع استمرار الألحان ، وقيام الكاهن بنشر البخور ، يقف المصلون ويحنون رءوسهم .

بعد ذلك تقرأ الرسائل باللغة القبطية من فوق المنجلية التى تنصب فى الخوروس (مكان وقوف الشمامسة أمام حامل الأيقونات) . على بعد عدة أقدام من باب الهيكل ، ويواجه القارئ اتجاه الشرق ، وظهره فى مواجهة الجمهور .

ويقرأ فصل من أعمال الرسل بنفس الطريقة ، ثم يقرأ فصل من تاريخ الكنيسة ، أو حياة القديسين ، وبعد انتهاء القارئ من القراءة يركع ، ويلمس الأرض برأسه أمام باب

الهيكل ، ويقرأ الكاهن فصل الإنجيل الأول وهو يقف في مواجهة الشعب ممسكاً الكتاب بيسراه ، بينما يمسك شمعة وضاءة بيمناه .

وعند هذه النقطة يستمر الموكب في الدوران حول المذبح ، من إطلاق البخور حتى الوصول إلى لحن التقديسات الثلاث الذى يردده الشمامسة .

ثم يأتي دور قراءة الكاهن للإنجيل ، فيتجه نحو الشرق ، ويخرج الشماس لدى باب الهيكل ، ويقول بصوت مرتفع : (قفوا بمخافة الله لسماع الإنجيل المقدس) ، وهنا يبخر الكاهن كتاب البشارة المختوم داخل الغلاف الفضي ، ويسلم إلى كاهن آخر يقبله ، ثم يضعه فوق المنجلية ، ويبدأ في قراءة فصل الإنجيل باللحن القبطي ، وهو يتجه ناحية الشرق وأثناء القراءة يقف القائم بخدمة القداس أمامه في مواجهة الغرب، ويبخر الإنجيل باستمرار ، وقد وقف على كل من جانبيه شماس يمسك بشمعة مضاءة ، بينما تتوهج شمعة أخرى على الشمعدان الكبير الذى يوجد دائماً بجانب المنجلية لهذا الغرض ، وبعد ذلك يقرأ الإنجيل بالعربية على مدخل باب الهيكل ، بينما يقف الشمامسة حاملين الشموع بجانب القارئ الذى يواجه المصلين في تلك الأثناء ، ويظل الكاهن يلوح بالمجمرة ، أما الشمامسة وشمامسة الهيكل الذين يرتدون الطرابيش[1] مثلهم مثل جمهور الحاضرين فإنهم يخلعونها أثناء قراءة الإنجيل.

وعند انتهاء قراءة الإنجيل يقبل الكاهن وكافة رجال الإكليروس الحاضرين البشارة الفضية (علبة من الفضة تحتوى الكتاب المقدس) ، كما تقدم لمن يريد أن يقبلها من بين جمهور المصلين ، ثم تطفأ الشموع ، وتعاد البشارة إلى الهيكل ، ويقف جميع الكهنة حول الباب عندما تبدأ الصلاة بعد قراءة الإنجيل، وهنا تعطى التعليمات الخاصة بالخدمة وغيرها من الأمور .

وفى هذه الأثناء يشدو الشمامسة بأحد الألحان ، وبعده يسجد الكاهن أمام الهيكل ، ويقبل العتبة ، وهو يردد صلاة الحجاب بصوت منخفض ، ثم يقف الكاهن ويذهب إلى المذبح ويقبله ، بينما يقف الشمامسة خارج الباب وهم يرتلون الألحان ، وبعد الصلاة من أجل الكنيسة الجامعة ، ومن أجل جمهور المصلين ، يردد الجميع في صوت واحد (قانون الإيمان) بينما يغسل الكاهن يديه ثلاث مرات ثم يجففهما في مواجهة الجمهور ، وبعد

(١) كان ذلك إبان الحكم العثماني ، أما الآن فقد تغير غطاء الرأس .

أن ينحنى لباقى رجال الإكليروس ، ويرسم علامة الصليب على جمهور المصلين ، يتمتم بعبارة (السلام لجميعكم) ، ويردد صلاة أوشية السلام (دعاء أثناء الصلاة) ، وفى نفس الوقت يرفع المفرش الكبير عن قربانة الحمل ، كما يرفع الصينية عن الكأس ، بينما يرفع الكاهن لفافة أخرى مشابهة فوق رأسه، على شكل حجاب أو طبق أخضر اللون، وبه صليب ذهبى ، لكى يراه جميع الحاضرين ، وعند عبارة (قبلوا بعضكم بعضاً بقبلة مقدسة) . يتجه الكاهن ناحية الغرب ، وينحنى لجميع الحاضرين ببطء ، بينما يحيى الحاضرون بعضهم بعضاً ، بأن يتجه كل شخص إلى من بجواره ويلمس يديه ، ويلى ذلك تسبيحة الغلبة والخلاص ، بينما يصيح الناس بكلمة آجيوس (قدوس) ، ثلاث مرات ، ثم ترفع اللفافة الصغرى ، أو الطبق الأحمر عن الكأس ، ويمسكها الكاهن باليد اليمنى ، بينما يمسك الطبق الأخضر بيده اليسرى ، ويرفع يديه ، وبنفس الطريقة يأخذ العديد من اللفافات التى على المذبح ويرفعها ، وذراعاه مبسوطتان أثناء إحياء ذكرى الخلاص .

وعند صلاة القسمة يرفع الكاهن يديه خلال دخان المجمرة التى يحملها الشماس ، ثم يرشم القربانة ثلاث مرات ، ويقسمها إلى ثلاثة أجزاء مع بقائها ملتصقة ، ويرشم الكأس بنفس الطريقة ، ويحركها أمامه على هيئة صليب ، وخلال هذا الإجراء يقف اثنان من الشمامسة ، كل منهما إلى أحد جانبى الكاهن ، وهو يحمل شمعة مضاءة ، ويرفع جميع الشمامسة ــ على مختلف مراتبهم ــ الطرابيش عن رءوسهم ، ثم ينحنون مرة أخرى .

وبعد جملة أو اثنتين ينطق بهما الكاهن يصيح المصلون كيرياليسون (يارب ارحم) ، وهنا تكون صلاة التقدمة قد تمت .

ويتحرك اثنان من الشمامسة بين صفوف المصلين ، وكل منهما يحمل طبق العطاء، وشمعة مضاءة لهذا الغرض ، لاشك أنها ترمز لتذكار النص المعتاد ، ويستمر الشمامسة فى ترتيل الألحان أثناء صلاة الشفاعة وتخليد الأحياء وأوشية الراقدين ، وفى هذه الأثناء يرفع الكاهن يديه عالياً وقد أمسك بكل منهما لفافة من اللفافات العديدة التى فوق المذبح ، ويتم تغيير غطاء العناصر المقدسة ، ويرفع اللفافة التى بلون الزعفران الموضوعة عليها ، ثم يضع بدلاً منها لفافة بيضاء الحواف بلون قرمزى داكن ، ويرشم الجمهور بعلامة الصليب .. وعندما يقول الكاهن (الجسد المقدس) يأخذ قربانة الحمل ، ويضعها على يده اليسرى ، ثم يضع إصبعه على القلب الذى تقسم منه ، ومع قوله (والدم

الكريم) يرفع إصبعه عن الخبز ، ويغمسه فى النبيذ ، ويرشم فوقه علامة الصليب ، وبنفس الإصبع يرشم الأسباديقون وجزءاً آخر من القربانة ، وبذلك يبلغ عدد الصلبان التى رشمت على العناصر ثلاثة صلبان .

وبعد السلام تبدأ صلاة القسمة التى يقوم الكاهن خلالها بتقسيم القربانة إلى خمسة أجزاء ، ثم يقسم أربعة أجزاء إلى قطع صغرى تسمى (الجواهر) ، كما فى القداس اليونانى .

وبعد ذلك يصلى الجميع الصلاة الربانية وهم وقوف ، وليسوا راكعين ، مع نشر الذراعين والنظر إلى أعلى ، وأثناء التقديس يرفع الكاهن الأسباديقون فوق رأسه ، ثم يخفضه فى الكأس ، ويرشم به علامة الصليب على الكأس، ثم يخرجه ويرشم به بقية القربانة (الجزء الخامس) ، وبذلك يرشم ثلاثة صلبان من الخبز على الخمر ، ومن الخمر على الخبز ، وبعد ذلك يضع الأسباديقون على الكأس ، وبعد ترديد الاعتراف توضع اللفافة على القربانة ، ويقبل الكاهن المذبح مردداً التمجيد ، وعند رفع اللفافة التى تلى ذلك تظهر القبة أو النجم معتدلة فوق الصينية ، وتحتها لفافة صغيرة مطرزة بالصلبان التى تغطى القربانة، وفجأة يرفع الكاهن الصينية بيده ، ويرفعها على رأسه، ثم يستدير نحو الشعب ، ويقف فى مدخل الهيكل، وهو يرفعها إلى أعلى ، وهنا يصيح الجمهور (مبارك الآتى باسم الرب) وأثناء التكريس يقف على كل من جانبى الكاهن شماس يحمل شمعة موقدة .

ويبدأ الكاهن فيتناول أولاً ، ثم لرجال الإكليروس ، ثم الشعب بالترتيب .

وأثناء التناول يحمل كل من المتقدمين لفافة فى يده ، وبعد أن يأخذ الجوهرة فى فمه يحيط فمه باللفافة جيداً حتى لايسقط أى فتات على الأرض ، ثم يناول الدم بالملعقة ، أما الأسباديقون فإنه يحفظ لكى يتناوله الكاهن خادم المذبح ، وإذا كان الأسقف حاضراً فإنه يتناول بنفسه، بوضع الملعقة فى الكأس، وحتى الأطفال الصغار يتناولون ، ويسمح لهم بدخول الهيكل ، أما النساء فيخرج الكاهن ويناولهن فى مكانهن فى الشرقة ، أو فى الطرف الغربى من الكنيسة .. والمتقدمون للتناول يدورون حول المذبح ، ويستمرون فى التناول حتى تنتهى القربانة ، ثم يشرب الكاهن كل ما يتبقى فى الكأس حتى الثمالة ، ويمسح داخله بإصبعه ويلعقه ، ثم يغسل الكأس بالماء ويشرب الماء المختلط بالبقايا ، ويغسل الصينية بنفس الطريقة ، ثم يشرب الشماس الماء المختلط بالبقايا .

في الطقس (الكلتي) لا يسمح للنساء بالتناول إلا إذا كن يرتدين (الإيشارب) أو لفافة ، وهي عادة شرقية منصوص على مراعاتها في القوانين الرسولية ، وما زالت باقية لدى القبط .

يقول القديس كيرلس الأورشليمي الذي كتب في منتصف القرن الرابع تعليمات للمتقدمين للتناول : (ثم تلمس بيديك بقايا الماء التي على شفتيك ، وتقدس بها عينيك وجبهتك وسائر الحواس) .

وبعد غسيل الأواني ومنح البركة يقوم الأسقف ـ في حالة حضوره ـ برش الماء على المذبح ، وفي الهواء حول الهيكل ، وعلى رجال الإكليروس ، ثم يخرج الأسقف من الهيكل وخلفه شماس يحمل حوضاً فضياً وإبريقاً ، ويصب الشماس الماء على يد الأسقف الذي يرشه في كافة الأرجاء على أفراد الشعب الذين يحتشدون حوله ، ثم توزع لقمة البركة من القرابين التي لم تتقدس ، ثم ينصرف الجمهور .

والأقباط لا يستخدمون الملح في أي جزء من طقسهم ، مهما كان الأمر .

والتعليمات تقول : إذا وجد بعض فتات من (الذخيرة) بعد أن يشرب الكاهن البقايا يجب أن يتناول هذا الفتات أحد الشمامسة أو العلمانيين الذي لم يشرب الماء بعد .

وعلى الكاهن أن يمكث بجوار هذه الذخيرة حتى احتفال القداس في اليوم الثاني ، كي يستطيع أن يتناول هذا الفتات بعد فترة الصيام المقررة وممارسة تأديب قاس لقاء ما وقع فيه من إهمال .

ويؤمن الأقباط بأن الخبز والماء يتحولان إلى جسد المسيح ودمه ، حسب كل ما يعنيه هذا الاعتقاد حرفياً .

وانتشرت ألف قصة وقصة عن مقدرة الخبز المقدس على إخراج الشياطين ، ومداواة الأمراض ، وإطفاء النيران ، والكشف عن الكذب باختناق الكذابين .

وكان يطلب إلى كل مسيحي أن يتناول العشاء الرباني مرة في العام على الأقل ، وكان تناول الشاب المسيحي لأول مرة فرصة لإقامة المهرجانات الفخمة والحفلات السارة .

ومع هذا قال راهب بندكتي فرنسي يدعى رتراموس سنة ٨٥٥ : إن الخبز والخمر المقدسين لم يكونا جسم المسيح ولا دمه إلا بطريقة روحية لا جسدية .

وأعلن برنجار ، رئيس شمامسة تور حوالي سنة ١٠٥٤ ، ارتيابه في تحول الخبز والخمر المقدسين إلى جسم المسيح ودمه ، فعوقب بالحرمان من الدين ومن الكنيسة .

وكان أن أعلن مجلس لاتران سنة ١٢١٥ أن هذه العقيدة من المبادئ الأساسية في الدين المسيحي .

وأضاف مجلس ترنت سنة ١٢٦٠ أن كل جزيء من الخبز المقدس ـ مهما كسر ـ يحتوى جسم عيسى المسيح كله ، ودمه ، وروحه .

ويعقب ول ديورانت (قصة الحضارة مج ٤ جـ ٥ ص ١٨) فيقول : وبهذه الطريقة تعظم الحضارة الأوربية والأمريكية اليوم شعيرة من أقدم الشعائر في الأديان البدائية ، وهي أكل الإله .

(ح) ـ **مراسم الكفارة** : وهي أهم من التعميد ، لأنه إذا كانت عقائد الكنيسة تلقن الناس أنهم آثمون ، فإن هذه المراسم تعرض عليهم وسائل تطهير أرواحهم حيناً بعد حين ، بأن يعترفوا بذنوبهم إلى قسيس ، ويقوموا بمراسم للكفارات ، فقد ورد في (متى صح ١٦ وصح ١٨) أن المسيح غفر الخطايا ، وأنه منح الرسل هـذه القدرة نفسها ، قـدرة (الربط والحل) ، وتقول الكنيسة : إن هذه القدرة قد انحدرت بالتوارث من الرسل إلى المطارنة الأولين ، ومن بطرس إلى البابوات ، ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين في القرن الثامن .

قال الأنبا ساويرس : (من يتقدم ـ للتناول ـ بدون اعتراف بخطيئته فإنه يجعل خطيئته أعظم) .

وقد صار للاعتراف صورة وهيئة ، إذ يقف المعترف أمام الكاهن جاثياً على ركبتيه ، مطأطئاً رأسه إلى الأرض، ويتلو الاثنان معاً الصلاة الربانية ، وبعد تلاوة صلوات أخرى يمنح الكاهن الحل للمعترف ويباركه، ويقبل المعترف قدمي (أب الاعتراف)، ملتمساً صلواته ، ويحكي كافة أفكاره وأفعاله للكاهن ، ثم يصلي عليه الكاهن صـلاة تحليل ثانية ، وبعد ذلك يسمح له بالاشتراك في التناول [1] .

وقد قرر مجلس لاتران الرابع سنة ١٢١٥ أن يتكرر الاعتراف والعشاء الرباني كل عام ، وجعلهما من الواجبات الخطيرة ، إذا أهملهما إنسان حرم من جميع خدمات الكنيسة ، ومن الدفن دفنة مسيحية .

(١) الكنائس القبطية القديمة ـ جـ ٢ ص ٢٣٢/٢١٦ .

وأريد تشجيع من يريدون التوبة وحمايتهم ، فوضع (خاتم) على كل توبة بمفردها ، ومعنى هذا الخاتم أنه لا يجوز لقس أن يفشى ما اعترف له به .

ويعلق ول ديورانت على هذا النظام (قصة الحضارة مج ٤ جـ ٥ ص ١٦/١٥) بأنه استخدم لتحقيق أغراض سياسية ، حين كان القساوسة يأبون أن يغفروا للذين يناصرون الأباطرة على البابوات ، واستخدم كذلك فى محاكم التفتيش ، إذ أمر القديس شارل برميو (١٥٣٨ ـ ١٥٨٣) رئيس أساقفة ميلان ، قساوسته أن يطلبوا إلى من يأتونهم للتوبة أن يخبروهم بأسماء كل من يعرفون من الملحدين ومن يشتبهون فيهم .

وأجيز للقساوسة فرض عقوبات على التائبين ، هى فى العادة تصدق بالمال ترضية للكنيسة التى كان لها حق التجاوز عن هذا العقاب ، وذلك بأن تنقل إلى أى تائب مسيحى يقوم بأعمال معينة من التقى أو التصدق قسماً صغيراً من كنوز البركة التى تجمعت من تعذيب المسيح وموته ، ومن أعمال القديسين الأبرار ، وقد منحت صكوك الغفران منذ القرن التاسع ، وأعطى بعضها فى القرن الحادى عشر للحجاج الذين يزورون الأضرحة المقدسة ، وكان أول صك بالغفران الكلى هو الذى عرضه إربان الثانى سنة ١٠٩٥ على من يشتركون فى الحروب الصليبية ، ثم توسعت الكنيسة بهذه الصكوك فى جمع المال وفى الأعمال الخيرية .

وقد ندد مجلس مينز الدينى سنة ١٢٦١ بكثير من موزعى هذه الصكوك ، ووصفهم بأنهم كذابون أشرار ، يعرضون ما يعثرون عليه من عظام الناس أو الحيوان على أنها عظام أولياء صالحين .. وشهرت بها بعض الكنائس ، ومع هذا ظلت هذه (الشعبذات) فى انتشار .

(ط) ـ **سر الأفخارستيا** : عن كتاب (إرشاد لأجل الاعتراف وتناول القربان المقدس) لاستيفان بورجيا ، كاتم سر مجمع انتشار الإيمان المقدس ، أورد الدكتور محمد وصفى فى كتابه (المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام ص ١٢٩/١٢٧) هذا الحوار الإرشادى :

س ـ ما هو سر الأفخارستيا ؟.

جـ ـ هو السر الذى تحت أشكال الخبز والخمر يحوى جسد ودم ولاهوت سيدنا يسوع المسيح ، ليكون لنا قوتاً روحياً .

س ـ أيوجد في الأفخارستيا يسوع المسيح عينه الذي هو في السماء ، والذي كان في أحشاء الكلية القداسة مريم البتول ؟.

جـ ـ نعم ، يوجد المسيح عينه .

س ـ أي شيء هو القربان قبل التقديس ؟.

جـ ـ هو خبز .

س ـ أي شيء هو القربان بعد التقديس ؟.

جـ ـ هو جسد سيدنا يسوع المسيح الحقيقي .

س ـ أي شيء يوجد في الكأس قبل التقديس ؟.

جـ ـ يوجد خمر .

س ـ أي شيء يوجد في الكأس بعد التقديس ؟.

جـ ـ يوجد فيه دم سيدنا يسوع المسيح الحقيقي .

س ـ متى تصير هذه الاستحالة ؟.

جـ ـ حينما ينهي الكاهن لفظ كلام التقديس .

س ـ ما الذي يجب فعله حينما تتقدم إلى تناول القربان المقدس ؟.

جـ ـ يجب أن نجثو على ركبنا ، ونرفع رأسنا قليلاً بأعين محتشمة متجهة نحو الجوهرة فقط ، فاتحين فمنا باعتدال ، مادين لساننا قليلاً ما بين شفتينا .

س ـ كيف يجب مسك منديل التناول ؟.

جـ ـ يجب مسكه ممتداً نحو العنق .

س ـ متى يجب ابتلاع الجوهرة ؟.

جـ ـ يجب أن نجتهد في ابتلاعها بمقدار ما يمكننا من السرعة ، وأن نمتنع عن البصاق فترة من الزمن ، (هذه الفترة تقدر بيوم كامل ، خشية أن يكون جزء من الخبز لا يزال لاصقاً بالفم) .

س ـ ما الذي يجب فعله إذا التصقت الجوهرة بسقف الحلق ؟.

ج ـ يجب انفكاكها باللسان ، لا بالإصبع .

وجاء فى (نفس المصدر ص ١٢٩) : (لا فرق بين ذبيحة القداس وذبيحة الصلب، إذ إن الذبيحة هى نفسها بحسب الجوهر ، لأن يسوع المسيح بنفسه الذى قدم ذاته على جذع الصليب هو هو عينه الذى يقوم بيدى الكهنة على مذابحنا ، وأن ذلك يصير بنوع مختلف) .

ويعلق الدكتور وصفى (ص ١٣٣/١٣٠) متعجباً : إذا كانت الكنيسة تلعن يهوذا الإسخريوطى ، لأنه سلم المسيح لليهود ليقتلوه ، فما بال كهنتهم وقسوسهم يسلمون المسيح للناس ليأكلوه ؟.

وإذا كان يهوذا فعل ذلك مرة ، فرجال الكنيسة يفعلون ذلك دائماً أبداً ، فضلاً على أن يهوذا لم يأكل لحم أخيه المسيح ، ولا شرب دمه ، وهم يفعلون ذلك .

تصور قداساً يحصل فى وقت واحد ، فى جميع أنحاء العالم ، فيتحول الله تعالى فى وقت واحد إلى ملايين مضاعفة فى أمكنة مختلفة ، إن التثليث ـ بالنسبة لهذا الطقس ـ هين جداً، ومن الغريب أن تحتم الكنيسة على أتباعها أن يأكلوا الله مرة فى كل شهر على الأقل .

ليت شعرى ، ما داموا يعتقدون أن الذى يأكل الله يثبت فيه (يوحنا صح ٦ : ٥٦) فما معنى أكله مئات المرات ، ما دام قد ثبت فيه لأول مرة ؟.

يقول القديس يوحنا الدمشقى : (إن الخبز والخمر والماء تستحيل بمقتضى الطبيعة إلى جسد من يأكلها ويشربها ، بالأكل والشرب ، ولا تصير جسداً آخر غير جسده الأول، هكذا خبز التقدمة والخمر الممزوج بالماء ، تستحيل بحال يفوق الطبع البشرى إلى جسد يسوع المسيح ودمه بالدعاء ، وحلول الروح القدس ، وليسا اثنين بل هما واحد ، هو هو نفسه) .

ويقول كرين برنت (أفكار ورجال ص ٢٤٦) : (بمعجزة القداس تحول مادة الخبز والنبيذ إلى مادة جسد المسيح ودمه ، لكنه لا يحدث أى تغيير فى الأعراض التى تبقى أعراض الخبز والنبيذ ، ونحن لا نذوق إلا الأعراض ، ولا نذوق المادة إطلاقاً ، ولذا فنحن بالطبيعة عند التناول إنما نذوق ما نذوقه دائماً على مائدة الطعام فى المنزل ، ومن ثم فإن الكيماوى الذى يحلل الخبز والنبيذ المقدس بغير ورع لا يجد تحولاً ، بيد أن التحول قائم ،

وهو ذلك التحول المعجز من الخبز والنبيذ إلى الجسد والدم الذى يتجاوز حواسنا ، ولكنه لا يسحقها أبداً) .

ومع هذا شهر البروتستانت بهذا (السر المقدس) وسفهوا أحلام (مرتكبيه) ، وقال لوثر متهكماً :

(إنى أعترف أنه جسد ودم عمانوئيل الحقيقى) .

وهناك من يقول إذا كان آكل المسيح ، يغفر المسيح له ، فماذا يكون حاله إذا عاد إلى الرذيلة والشر ، مع العلم باعتقادهم أن آكل اللقمة (الجوهرة) يثبت فيه المسيح إلى الأبد ؟!.

* * ويتبع هذه (الأسرار المقدسة) الإيمان بأن الجسم يبعث حياً بعد الموت ، وهم يلفونه فى كفنه ، ويضعون قطعة من النقود فى تابوته ، كما يفعل الأقدمون، إذ يعتقدون أنهم يؤجرون كارون (Charon) لنقله إلى الدار الآخرة ، ثم يحملونه إلى قبره فى احتفال مهيب ، ينفق فيه الكثير من المال ، وقد يستأجر النائحون أو النائحات ليبكوه ، ويرتدى أهله عليه سود الثياب مدة عام ، حتى لا يستطيع أحد أن يعرف ـ لطول مدة الحزن ـ أن قلباً تائباً ، وقساً خادماً ، قد ضمنا لهذا الفقيد نعيم الخلود .

* وقد ملئت العبادات المسيحية بطائفة كثيرة من الأرواح ، ترافق الناس ، وتشد عزائمهم ، وتكون لهم إخوة على الأرض تقربهم إلى السماء ، وتخلص الدين من عناصره الأكثر قتامة ، فكان لكل أمة ، ومدينة ، ودير ، وكنيسة ، وحرفة ، ونفس ، وأزمة من الأزمات ـ وليُّها الشفيع التصير ،كما أن لكل منها إلهاً فى روما القديمة . كان لانجلترا القديس جورج ، ولفرنسا القديس دنيس، وكان القديس بارتولميو حامى الدباغين ، لأن جلده سلخ وهو حى ، وكان صانعو الشموع يضرعون إلى القديس يوحنا ، لأنه غمر فى قدر مليئة بالزيت المشتعل ، وكان القديس كريستوفر نصير الحمالين لأنه حمل المسيح على كتفيه ، وكانت مريم المجدلية تتلقى توسلات بائعى العطور ، لأنها صبت زيوتاً عطرة على قدمى المسيح .

وكان لكل من يحدث له طارئ ، أو يصاب بمرض ، صديق فى السماء، فكان القديس سبستيان والقديس رتش (Roch) ذَوَى قوة وبأس فى أيام الوباء ، وكان القديس

أبو ليبنيا الذى كسر الجلاد فكه يشفى ألم الأسنان ، والقديس بليز يشفى آلام الحلق ، والقديس كورنيل يحمى الثيران ، والقديس جول يحمى الدجاج ، والقديس أنطون يحمى الخنازير ، وكان القديس ميدار هو الذى تضرع إليه فرنسا لينزل المطر ، فإذا لم ينزل المطر ألقوا تمثالاً له في الماء من حين إلى حين ، بمثابة رقية سحرية لاسترضائه .

* ووضعت الكنيسة تقويماً جعلت كل يوم فيه عيداً لأحد القديسين، لكن التقويم لم يتسع للخمسة والعشرين ألفاً من القديسين الذين اعترفت بهم قوانين الكنيسة ، قبل أن يحل القرن العاشر الميلادى ، وعلقت صور ، ووضعت تماثيل للقديسين فى الكنائس ، وفى الميادين العامة ، وفى الطرق ، وفوق المبانى .. ونلقت الصور والتماثيل من أنواع العبادة التلقائية ما جلل بالعار بعض الفلاسفة ومحطمى الصور المقدسة .. واضطر كلوديوس أسقف تورين إلى الشكوى من أن كثيرين من الناس (يعبدون صور القديسين .. فهم لم يقلعوا عن عبادة الأصنام ، بل كل ما فى الأمر أنهم غيروا أسماءها) .

وما دام القديسون قد كثروا إلى هذا الحد ، فقد كثرت تبعاً لذلك مخلفاتهم ، عظامهم ، وشعورهم ، وأثوابهم ، وأى شىء استعملوه فى حياتهم ، وكان المفروض أن كل مذبح يشمل واحداً أو أكثر من هذه المخلفات.

كانت تعزى إلى جميع المخلفات قوى معجزة ، وتروى مئات الآلاف من القصص عما تحدثه من المعجزات ، وكان الرجال والنساء يبذلون كل ما فى وسعهم للحصول على أقل أثر ، ليتخذوه طلسماً ، كخيط من ثوب قديس ، أو قليل من تراب علبة مخلفات ، أو نقطة زيت من مصباح مقدس فى ضريح .

وكانت الأديرة تتنافس وتتنازع فى جمع المخلفات وعرضها على العبّاد الأسخياء ، إذ كانت تدر ثروة طائلة ، ومن ثم كانت مخلفات زائفة كثيرة تباع للكنائس والأفراد ، وشر هذه المساوئ كان تقطيع الأولياء الأموات ، ليتيسر لعدد من الأماكن الحظوة برعاية القديس وبركته .

* يعلق اسبينوزا على هذه (المسرحيات الطقسية)بأن القرابين التى كان البطارقة يقدمونها إلى الله ، يمكن تفسيرها برغبتهم فى أن يثيروا فى نفوسهم التى تعودت منذ الطفولة على هذه (الضحايا) مزيداً من الخشوع ، فقد تعود الناس منذ عانوس (ابن

نبيث كما تزعم التوراة) على تقديم الضحايا ، ليثيروا فى أنفسهم أكبر قدر من الخشوع ، ولم يضح البطارقة لله مطلقاً تنفيذاً لأمر إلهى ، على أساس معرفة استخلصوها من الأسس الشاملة التى يقوم عليها القانون الإلهى، بل اتباعاً لعادة عصرهم فحسب ، وإذا كانوا قد أمروا بهذه الضحايا فإن هذا الأمر لم يكن سوى أمر صادر عن قانون الدولة التى يعيشون فيهـا .

أما فيما يتعلق بطقوس الدين المسيحى ، مثل العماد ، وتناول قربان الرب ، والأعياد ، والصلوات العلنية ، وكل ما يشترك فيه جميع المسيحيين ، سواء أكان المسيح هو الذى وضعها أم الحواريون ــ فهذا أمر لم يثبت فى رأى على نحو قاطع بعد ، فهى بمثابة آيات خارجية للكنيسة الشاملة ، وليست أموراً توصل إلى السعادة الروحية أو لها فى ذاتها أى طابع مقدس ــ رسالة فى اللاهوت والسياسة ص ٢٠٩ ، ٢١٣ .

* * وقد ورث القوم هذه (الخرافات) عن الأديان الوثنية القديمة ، فعادة حرق البخور أمام المذبح ، أو رجال الدين ، تذكرنا بعادة تقديم القرابين المحروقة .. أما عادة رش الماء المقدس فهى صورة قديمة من التعاويذ .. وأما المواكب ومراسم التطهير فهى امتداد لشعائر موغلة فى القدم، وملابس القساوسة ، وتلقيب البابا بالحبر الأعظم تراث من روما الوثنية .

وقد وجدت الكنيسة المسيحيين من أبناء الريف يعظمون بعض العيون والآبار ، والأشجار، والحجارة، فرأت من الحكمة أن تخلع البركة على هذه الأشياء، حتى لا تفجع القوم فيما ألفوا ، ومن أجل هذا دشنت مجموعة من الحجارة فى صورة مائدة فى بلواريه، على أنها مصلى القديسين السبعة ، وحللت عبادة شجرة البلوط ، بأن علقت على الأشجار صور القديسين .

وحل تقويم القديسين محل التقويم الرومانى ، وأجازت الكنيسة أن تبقى الأرباب القديمة العزيزة على الناس، وأن تحمل أسماء قديسين مسيحيين .

وحدث أن سيريل (Cyril) كبير أساقفة الإسكندرية وصف ــ فى موعظة له شهيرة ، ألقاها فى إفسس سنة ٤٣١ ــ مريم بكثير من العبارات التى كان الوثنيون من أهل تلك المدينة يصفون بها آلهتهم الكبرى (أرتميس ــ ديانا) ، دلالة على حبهم إياها ، واعتزازهم

بها .. ووافق مجلس إفسس فى تلك السنة على أن تلقب مريم (أم الإله) ، على الرغم من احتجاج نسطوريوس ، وما لبثت أرق صفات عشتروت ، وسيبيل ، وأرتميس ، وديانا، وإيزيس ، أن جمعت فى عبادة مريم ، ثم قررت الكنيسة فى القرن السادس إقامة الاحتفال بعيد صعود مريم العذراء إلى السماء وحددته باليوم الثالث عشر من أغسطس ، وهو تاريخ عيدين قديمين لإيزيس وأرتميس .

وهذا الإطار الوثنى حول السيدة مريم رفع من قدرها لدى العامة ، حتى قيل إن شاباً أغواه الشيطان بإنكار المسيح نظير ثروة طائلة ، لكنه لم يفلح فى إغرائه بإنكار مريم ، فلما تاب الشاب استطاعت مريم أن تقنع المسيح بالعفو عنه .. وقال أحدهم فى شكواه : (رباه ، إن لم تنقذنى من هذه الغواية ، فسأشكوك إلى أمك) .. وقد بلغت صلوات الناس لها من الكثرة حداً جعل خيال العامة يصور عيسى فى صورة من يغار منها .

وجمع رئيس دير فرنسى يدعى جوليتيه دى كوانس أقاصيص مريم فى قصيدة طويلة مؤلفة من ثلاثين ألف بيت ، نجد فيها العذراء تشفى راهباً مريضاً ، بأن تجعله يمتص اللبن من ثديها .. وقبض على لص كان على الدوام يصلى لها قبل أن يقدم على السرقة ، فعلق اللص ليشنق ، لكن يديها ظلتا ترفعانه دون أن يراهما أحد ، فلما تبين للناس أنها تحميه أطلقوا سراحه .. وخرجت راهبة من ديرها لتحيا حياة الإثم ، فلما عادت إلى الدير بعد سنوات تائبة محطمة الروح وجدت العذراء قد شغلت مكانها على الدوام ، وأن أحداً لم يلاحظ غيابها ، وذلك لأن الراهبة لم تغفل عن الصلاة إليها فى كل يوم .

ويعتقد المتقون أن (البيت المقدس) فى لوريتو (Loreto) بإيطاليا إنما هو البيت الذى سكنت فيه مريم مع عيسى فى الناصرة ، وأن الملائكة حملت هذا الكوخ من فلسطين ، حين طرد الأتراك (المسلمون) آخر صليبى منها ، وطارت به فى الهواء ، ثم أنزلته فى دلماشيا سنة ١٢٩١ ، ثم طارت فوق البحر الأدرياتى إلى غابات أنكونا (اللاورتوم) التى اشتق منها اسم هذه القرية .

وحدث فى سنة ١٢٩٩ أن أعلن البابا بنيفاس الثامن أن سيقام عيد كبير سنة ١٣٠٠ ، وعرض أن يغفر جميع ذنوب من يأتون للتعبد فى كنيسة القديس بطرس (الفاتيكان) فى ذلك العام ، ويقال إن عدد من دخل أبواب روما من الغرباء فى كل يوم من أيام هذه السنة لم يكن يقل عن مائتى ألف ، وإن مليونى زائر مع كل منهم نذر يناسبه وضعوا ما معهم

من الكنوز أمام قبر القديس بطرس ، وقد بلغت هذه الكنوز من الكثرة حداً شغل قسيسين ظلا يعملان بالمجارف ليلاً ونهاراً لجمع النقود .

* أما القانون الكنسى فقد نشأ شيئاً فشيئاً من العادات القديمة ، ومن فقرات فى الكتاب المقدس ، وآراء آباء الكنيسة ، وقوانين روما ، أو القبائل المتبربرة ، وقرارات مجلس الكنيسة ، وقرارات البابوات وآرائهم ، وعدلت أجزاء من قانون جستنيان لكى تشرف على سلوك رجال الدين ، وأعيدت صياغة بعضها لكى تتفق مع آراء الكنيسة فى الزواج ، والطلاق ، والوصايا .. وصيغت قوانين الكنيسة الرومانية فى صيغتها النهائية التى كانت عليها فى العصور الوسطى على يد جراتيان ، حوالى سنة ١١٤٨ .

وبهذا لم يقتصر القانون الكنسى على البحث فى تكوين الكنيسة ، وعقائدها ، وأعمالها ، بل اهتم بغير المسيحيين المقيمين فى البلاد المسيحية ، وبالطرق التى تستخدم عند النظر فى أمر الإلحاد ، وفى القضاء على الملحدين ، وفى تنظيم الحروب الصليبية ، وفى انتهاك حرمة المعابد ، والرتب الكهنوتية ، والربا ، والأثمان العادلة ، وقد أعد تنظيم المدارس والجامعات ، وتنظيم المحاكم الكنسية والبابوية ، وحق استخدام الطرد من الدين واللعنة والحرمان ، والعلاقة بين المحاكم المدنية والكنسية ، وبين الدولة والكنيسة .

وهكذا ، تداخلت فيه كثير من أمور الدولة والدين ، فيما عدا (حق الدم) ، إذ لم تعط الكنيسة حق الحكم بالإعدام ، (لكنها مارست هذا الحق قتلاً وشنقاً وصلباً وحرقاً ، أفراداً وجماعات ، إبان محاكم التفتيش) .

واحتفظ البابا بالحرية المطلقة فى تفسير قانون الكنيسة وإعادة النظر فيه ، وتوسيعه ، وإعفاء من يرى إعفاءه ، وكان هو المحكمة العليا التى تستأنف إليها أحكام محاكم الأسقفيات ، وكان هو وحده الذى يغفر الذنوب الخطيرة ، أو يصدر صكوك الغفران الكبرى أو يسلك شخصاً فى زمرة القديسين ، وكان على جميع القساوسة بعد سنة ١٠٥٩ أن يقسموا يمين الطاعة له ، وأن يقبلوا رقابة مندوبى البابا على شئونهم ، وكانت بلاد كثيرة مثل سردينيا وصقلية ، وانجلترا ، والمجر ، وأسبانيا ، تعترف بأنه سيدها الإقطاعى ، وترسل إليه الجزية ، وكان فى وسعه أن يرقب بعينيه ، ويحرك بيديه ،كل جزء من أجزاء مملكته ، عن طريق الأساقفة والقساوسة والرهبان المنبثين فى كل مكان ، فقد كانوا هيئتى المخابرات والإدارة فى أدق ما يقومان به من نشاط .

فى الطريق إلى توماس ..

إذا كنا على ثقة من أن للتاريخ دوراته ، وأن الحضارة تنشأ من بقية حضارات سابقة ، وجب أن نثق بأن للعقل الجمعي دوراته ، نشوءاً ، وارتقاء، وهبوطاً ، وضعفاً .. ومن خلال الضعف وسيطرة الخرافة والخيال الأسطورى تلتمع قطرات ضوء لا تلبث أن تتسع شيئاً فشيئاً ، حتى تقيم كياناً حضارياً جديداً .

ومن نقاط الضوء كان أنسلم (١٠٣٣ ـ ١١٠٩) أحد أشراف إيطاليا .

عين رئيساً لديربك (Bec) فى نورمنديه سنة ١٠٧٨ ، ثم رئيس أساقفة كانتربرى (١٠٩٣ ـ ١١٠٩) ، وقد جعل من ديربك أكبر المدارس التعليمية فى الغرب ، كما جعل من كانتربرى مركز إشعاع ديني وفكرى .

قيل : كان زاهداً ظريفاً ، لا يرغب فى شيء سوى التفكير والصلاة .

قال رسل (تاريخ الفلسفة الغربية جـ ٢ ص ١٨٢/١٨١) هذا الراهب الإيطالى كان يتبع مبادئ جريجورى السابع ، ومن ثم وقع فى نزاع مع الملك .

ابتكر (الحجة الوجودية) برهاناً على وجود الله ، وصورتها التى وضعها فيها (إننا نعرف الله بأنه أعظم موضوع ممكن للفكر، وإذا كان ثمة موضوع للفكر لا يقابله مسمى موجود ، كان هنالك موضوع آخر للفكر ، شبيه به تماماً، يتصف بالوجود ، فيكون أعظم ، وإذن فلابد أن يكون أعظم ما يطرأ على الفكر من موضوعات متصفاً بالوجود ، وإلا لأمكن أن يكون هناك ما هو أعظم منه ، وإذن فالله موجود) .

ولم يحدث أن قبل رجال اللاهوت هذه الحجة ، ووجه إليها النقد حينئذ، ثم أسدل عليها الستار ، حتى جاء النصف الثاني من القرن الثالث عشر فدحضها توما الأكوينى ، لكن ديكارت أحياها بعد تعديلها ، ورأى ليبنتز أن من الممكن تصحيحها بإضافة ملحق لها يبرهن على أن الله (ممكن) ، واعتقد كانت أنه قد هدمها هدماً لا قيام لها بعده .. ومع ذلك تراها تكمن فى فلسفة هيجل وأتباعه ، وتظهر فى مبدأ برادلى القائل : (إن ما يمكن وجوده ، وما يتحتم وجوده ، موجود) .

ويرى أنسلم العقل خاضعاً للإيمان ، وهو يقول فى ذلك : (إننى أومن لكى أفهم) ، فهو يتبع أوغسطين فى العقيدة بأنه بغير إيمان يستحيل على الإنسان أن يفهم .

ويقول : (إن آراءنا فى الخير ، والعدالة ، والحق ـ نسبية ، ولا معنى لها إلا إذا قورنت بخير مطلق ، أو عدالة مطلقة ، أو حق مطلق ، وإذا لم يوجد هذا الحق المطلق فلن يكون لنا مقياس أكيد لحكم ، وبذلك تصبح علومنا وأخلاقنا على السواء جوفاء عديمة الأساس ، والله ـ وهو الخير المطلق ، والعدل المطلق ، والحق المطلق ـ هو هذا المطلق المنقذ ، وهو الغرض الذى لابد منه فى حياتنا) .

ويقال إن يوحنا الإسكتلندى قال أشياء كهذه ، ومصدرهما المشترك أفلاطون ، فالقديس أنسلم ـ كسابقيه فى الفلسفة المسيحية ـ يجرى مع النزعة الأفلاطونية أكثر ما يتجه مع النزعة الأرسطية .

ويقول أنسلم : (إن عصيان أبوينا الأوليين كان ذنباً غير محدود ، لأنه ذنب فى حق كائن غير محدود ، وإنه قلب النظام الخلقى للعالم كله ، ولا شىء يمكن أن يوازن ويمحو ذلك الذنب غير المحدود إلا التكفير عنه تكفيراً غير محدود ، ومن أجل هذا صار الإله إنساناً لكى يعيد إلى العالم توازنه الأخلاقى) .

ويروى كرين برنتن(أفكار ورجال ص ٢٤٧/٢٤٦) عن أنسلم : أنّ خطيئة آدم ضد الإله لا يمكن محوها بأى نوع من أنواع المحاسبة التجارية، ولا يمكن قط محوها بأى تبادل تجارى مع الشيطان ، إن الإنسان مدين لربه بالصلاح ، ولكنه فى حالة سقوطه لا يستطيع ألبتة أن يقوم بهذا الصلاح ، وإنما يستطيع يسوع كإله أن يخطو الخطوة الأولى نحو سد الدين الذى سده فعلاً كإنسان مكابد .

كان يسوع بغير إثم ، ربّـا وإنساناً ، ومن ثم فقد كان بوسعه أن يكفر فى حرية عن خطيئة آدم ، أو قل إنه كان بوسعه أن يخفف بشفاعته من غضب الله مع أبنائه، وهو غضب له ما يبرره .. وذلك حتى يستطيع الناس أن يخطو الخطوة الأولى نحو الكمال ، وهى الخطوة التى كانت تستحيل عليهم بغير هذا .

وهذا معنى دقيق ، وهو عند كثير من أصحاب العقول الحديثة خلو من المعنى ، لكنه محاولة إرضاء عنصر التفكير عند الإنسان .

وأقول مرة أخرى إنه من الأيسر لنا أن نردد قول ترتوليان : إن يسوع يخلص بطريقة

يجب أن تبقى دائماً سحيقة لا يسبر غورها الإنسان الذى يربط بين الألفاظ فى تفكيره .

خلط المؤرخ الأمريكى الكبير بين فكره وفكر أنسلم ، وانتهى نهـاية تحسب عليه لا له ، فمـا دام أصحاب العقـول الحـديثة يرون (قصـة الخـلاص) خلواً من المعنى ، فإن (الطريقة) التى (يجب أن تبقى دائماً سحيقة لا يسبر غورها الإنسان الذى يربط بين الألفاظ فى تفكيره) ـ وهو بطبيعة التفكير لابد أن يربط بين الألفاظ ـ تصبح (هذه الطريقة) غير إنسانية ، أو غير موضوعية ، لأنها بعيدة من التصديق ، وبعيدة من الواقع !! .

إن العلة الرئيسية فى نقل قول بولس، وجعله مسلمة ، أو معتقداً ، وفاته وفات أنسلم أن صورة الإله إنساناً من أجل تكفير خطيئـة أوقع الله فيها الإنسان تتنافى مع (الخير المطلق ، والعدل المطلق، والحق المطلق)، فما ذنب البشرية التى تحملت عبء الخطيئة منذ آدم إلى ظهور عيسى ؟. أما كان الأجدر بالعـدل المطلق أن يعـالج الأمر عقب (الخطيئة) مباشرة بهداية آدم إلى التوبة ، كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليـه** ﴾ [البقرة : ٣٧] ـ ﴿ **ثم اجتباه ربه فتـاب عليه وهدى** ﴾ [طه : ١٢٢] .

ألم تكن هذه الخطيئة سبب خلافة الله فى الأرض ؟ أى أنها نقلت الإنسـان من السلبية إلى الإيجابية ، من كونه عالة غير منتج إلى فاتح آفاق رحبة من العلم والمدنية ، من خلال الكشف والتجريب والاختراع ؟.

* كان أنسلم أستاذ القـديس أبلار (١٠٧٩ ـ ١١٤٢) الذى أشـار فى كتـابه : (فى وحدة الإله والتثليث) إلى أن (وحدة الله هى النقطة الوحيدة التى يتفق فيها أعظم الأديان وأعظم الفلاسـفة ، ففى الله الواحد الأحد تشهد قدرته بوصفه الأقنوم الأول ، وحكمته بوصفه الأقنوم الثانى ، ونعمته وإحسانه وحبه بوصفه الأقنوم الثالث ، وهذه كلها نواح أو أعراض من الجوهر القدسى ، ولكن جميع أفعال الله تتضمن وتجمع فى الوقت عينه قدرته وحكمته وحبه) .

لقد استبدل أبلار بالثالوث المسيحى هذا الثالوث العقلى ، وتوسع ـ كما فعل ابن عربى الأندلسى ـ فرأى أن هذه العقول العظيمة السابقة للمسيح لم تفتها أسباب النجاة ، وأصر على أن الله يفيض حبه على جميع الناس ، وفيهم اليهود والكفار ، وهو بهذا هدم فكرة (الخطيئة الأولى) كلية ، وزاد فجعل رحمة الله الواسعـة لا تضيق بأحد ، وهـذا

ما ألح عليه ابن عربى فى كتابيه « الفتوحات » و « فصوص الحكم » .

ومضى أبلار يدافع عن تحكيم العقل فى أمور الدين ، وقال إن الملحدين يجب أن يردوا عن إلحادهم بالعقل والمنطق ، لا بالعنف ، وإن الذين يوصفون بالإيمان بلا فهم إنما يسعون ــ فى كثير من الأحيان ــ لستر عجزهم عن أن يعلموا الدين تعليماً يدركه العقل .

* وجاء وليم الكوشى (١٠٨٠ ــ ١١٥٤تقريباً) .. كان ملماً بكتب أبقراط ، ولكريشيوس ، وحنين بن إسحق ، وقسطنطين الأفريقى ، بل ديمقريطس أيضاً ، فنهج نهج أبلار فى قضية الثالوث ، وقال :

(فى الألوهية قدرة ، وحكمة ، وإرادة ، وهى التى يسميها القديسون أقانيم ثلاثة) .

هذا فى الوقت الذى كان الأسقف جلبرت ده لابريه (١٠٧٠ ــ ١١٥٤) يقول ــ بعد أن تعلم ودرس فى شارتر وفى باريس ــ (إن طبيعة الله بعيدة عن إدراك العقل البشرى بعداً يتحتم معه أن يؤخذ كل قول عنها على أنه تشبيه أو مجازاً ، لا أكثر) .. ثم أكد وحدة الله تأكيداً جعل التثليث يبدو مجازاً ليس غير .

أما سيجر (١٢٣٥ ــ ١٢٨١تقريباً) ، فقد كان قساً من غير رجال الأديرة ، نقل عن الكندى والفارابى ، والغزالى ، وابن سينا ، وابن باجه ، وابن جبيرول ، وابن ميمون ، وانتهى إلى أن دورة التاريخ دورة فكرية وأن (جميع الحادثات الأرضية تحددها فى نهاية الأمر تجمعات النجوم ، وبما أن عدد التجمعات الممكن حدوثها محدودة ، فإن كل تجمع لابد أن يتكرر بصورته نفسها المرة بعد المرة ، فى زمن لا نهائى ، تكراراً تعقبه حتماً نفس النتائج التى أعقبته من قبل ، وبذلك تعود نفس الأنواع ، ونفس الآراء ، والقوانين ، والأديان) .

وهو بهذا يبعد تماماً عما يمكن أن يختص بنبى أو رسول ، لأن كل شيء ، وكل كائن محكوم بالدورة الفلكية ، فلا خطيئة تحكم أفعال البشرية ، ولا حاجة إلى تجسد إلهى لرفع هذه الخطيئة ، إنما هو نظام فلكى صنعه الخالق سبحانه وتعالى ، ونفض يديه بعد ذلك من كل ما يجرى .

وبقى جيوفينى دى فدانزا التسكانى (١٢٢١ ــ ١٢٧٤) أن يعرف الله عن طريق الفلسفة ، لأنه موجود حى ، الإحساس به خير من تحديده ، ورأى أن الخير أسمى من الحقيقة ، وأن الفضائل الساذجة تعلو على كل العلوم .

وهو بهذا نزه الله عن التجسيد ، والتأنس ، والصلب ، واحتفظ بعلاقتنا به عن طريق الإحساس (الفطرى) الخالى من غرور العقل وادعاءاته ، وأوهام الحضارة .

* * وفى هذا الوقت كان البرتوس مجنس (١٢٠١ ـ ١٢٨٠) يهتم برعاية تلميذه توماس أكويناس (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) .. ولد البرتوس فى لانتج بسوابيا (Swabia) ، ثم درس فى بدوا ، وانضم إلى الرهبان الدومينيكيين، واشتغل بالتدريس فى مدارس الدومنيك، وفى السادسة والسبعين من عمره ترك أمر الدير، وتفرغ للدفاع عن عقيدة تلميذه المتوفى توماس أكويناس، وعن ذكراه ، فى جامعة باريس .

كان فى وسعه أن يتابع تعليقاته على أرسطو، بعد أن كتب رسالة طويلة مؤلفة من اثنى عشر (كتاباً) فى الثناء على مريم العذراء المباركة ، قال فيها : (إن مريم كانت ملمة إلماماً كاملاً بالنحو ، والبيان ، والمنطق ، والحساب ، والهندسة ، والموسيقى ، والفلك) .

ومثل هذ القول ـ تعليقاً على كتابات أرسطو ـ يبين بعض الخلل الذى أصاب تلميذه أكويناس .

وصدق ديورانت : (لسنا نجافى الحقيقة إذا قلنا إنه لولا أليرت لما وجد توماس) .

ولد أكويناس بقصر أبيه فى روكاسكا ، بين نابلى وروما ، وتلقى تعليمه فى دير جبل كسينو القريب من مسقط رأسه ، ثم درس فى جامعة نابلى خمس سنين ، وكانت الجامعة تموج بالمؤثرات اليونانية والعربية والعبرية ، وانضم إلى الرهبان الدومنيكيين سنة ١٢٤٤ ، ثم ذهب إلى باريس ليدرس اللاهوت .

كان يقتبس من ابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، وإسحاق إسرائيل ، وابن جبيرول، وابن ميمون .

ولاشك فى أن أى طالب لا يستطيع فهم فلسفة القرن الثالث عشر المدرسية من غير أن يدرس ما سبقها من فلسفات المسلمين واليهود .

وهو يتفق مع ابن ميمون فى أن فى مقدور العقل البشرى أن يثبت وجود الله ، لكنه ليس فى مقدوره أن يسمو لمعرفة صفاته .. وكان يتبع خطاً ابن ميمون فى بحث أزلية العالم.

وبعد أن اعترف بأن التثليث ، والتجسد ، والافتداء ، ويوم الحساب ، لا يمكن إثباتها عن طريق العقل ـ تقبل حكم العقل فى جميع المسائل الأخرى تقبلاً كاملاً لا تردد فيه ، حتى ارتاع أتباع أوغسطين ، وكان ينزع إلى مبادئ الصوفية فى اعترافه بأن بعض العقائد المسيحية فوق متناول العقل البشرى .

ومن ترانيمه :

وفى ليلة العشاء الأخير ، والرسل لا يزالون مضطجعين .

مراعين كل ما تقضى به الشريعة القديمة فى شأن الطعام الذى وضعته الشريعة .

الطعام الذى يطعمه الاثنا عشر مجتمعين يقدمه لنفسه بيديه .

إن الكلمة التى تجسدت تحيل الخبز بكلمة إلى لحمه .

والنبيذ يصبح دم المسيح ، وإذا عجزت الحواس أن ترى .

فليقو الطهر فى القلب بالإيمان وحده .

مثل هذه الترنيمة إذا أخذت مأخذ الشعر فلا ضير ، أما إذا أخذت معتقداً ، فإن كثيراً من المفكرين المسيحيين ، وبخاصة التنويريين ـ أساقفة وكهنة وفلاسفة ـ ينكرون هذا كل الإنكار .. ثم إن هذه الترنيمة تنافى قوله : إن ما عدا (التثليث والتجسيد والافتداء ويوم الحساب) يتقبل حكم العقل فيه (قبولاً كاملاً لا تردد فيه) ، فهل يمكن للعقل أن يصدق تحويل الخبز إلى لحم ، والنبيذ إلى دم ، لمجرد أن أحد رجال الكنيسة قدمهما ، أو قرأ عليهما من تعاويذه ؟ وعلى فرض أنه إذا كان فى قلب أحد ذرة من إيمان تصبح له القدرة على تغيير النواميس ، بحيث يقول للجبل انتقل فينتقل ، أكان كل الذين يقدمون العشاء الأخير فوق مستوى الشبهات ؟.

يقول أكويناس إن المعرفة نتاج طبيعى ، يحصل عليها الإنسان من حواس الجسم الخارجية ، ومن الحاسة الداخلية المعروفة بالشعور بالذات ، وهى معرفة محدودة ، غاية فى القصور ، فما من عالم قد عرف حتى وقتنا هذا حقيقة الذبابة ، ولكن المعرفة فى داخل حدودها خليقة بأن يوثق بها ، ولا حاجة بنا لأن يتولانا الغضب من أن العالم الخارجى قد يكون كله خداعاً فى خداع .

وإذا كان العقل يستمد كل معلوماتنا الطبيعية من الحواس ، فإن معرفته المباشرة للأشياء الخارجية عنه مقصورة على الأجسام ، أى على عالم الحس ، أو المحسوس ، وليس فى مقدوره أن يعرف من طريق مباشر العالم الذى فوق المحسوس ، عالم ما وراء الطبيعة .

أما العالم الثالث ، عالم ما فوق الطبيعة ، حيث يوجد الله ، فليس فى مقدور عقل الإنسان أن يعرف عنه شيئاً، إلا من طريق الوحى الإلهى ، وفى وسعنا أن نعرف بطريق الفهم الطبيعى أن الله موجود. وأنه واحد ، لأن وجوده ووحدانيته يتلألآن فى عجائب العالم وحسن تنظيمه ، ولكنا لا نستطيع بعقلنا وحده أن نعرف جوهره، أو حقيقة التثليث ، وحتى علم الملائكة قاصر ومحدود ، وإلا كانوا آلهة .

وكما أن من الحمق أن يقول الفلاح إن نظريات الفلسفة كاذبة ، لأنه يعجز عن فهمها ، كذلك يكون من الحمق أن يرفض الإنسان الإيمان بالوحى الإلهى ، بحجة أنه يبدو له فى بعض النقاط مناقضاً لمعلومات الإنسان الطبيعية ، وعلينا أن نثق بأنه لو كانت معلوماتنا كاملة لما كان ثمة تناقض بين الوحى والفلسفة .

ومن الخطأ أن نقول إن قضية ما يمكن أن تكون خاطئة فى الفلسفة وصحيحة فى الدين ، وذلك لأن الحقائق كلها تأتى من عند الله ، وهى واحدة ، غير أنه يحسن بنا أن نفرق بين ما نفهمه عن طريق العقل، وما نعتقده عن طريق الإيمان ، لأن ميدانى الفلسفة والتصور ميدانان منفصلان .

* كل هذه المقدمات التى نقلها ديورانت (قصة الحضارة مج ٤ ج٦ ١٢٦/١٢٧) عن أكويناس ، ونقلها أكويناس عن غيره ، اتخذها الفلاسفة سبيلاً لتحرير العقل ، واتخذها أكويناس سبيلاً لتقييده. فقال: (يجب على العلماء والفلاسفة ، كما يجب على الفلاحين أن ينحنوا أمام قرارات الكنيسة، ومن واجبنا أن نهتدى بهديها فى كل شيء ، لأنها هى المكان الذى أودع الله فيه الحكمة الإلهية) ، وقد أعطى البابا (الحق فى أن يصدر أحكاماً نهائية فى شئون الدين ، حتى يأخذها الناس جميعاً بإيمان لا يتزعزع) ، وبغير هذا لا مفر من الفوضى العقلية، والأخلاقية ، والاجتماعية .

ولو أنه درس تاريخ البابوات ، أو راجع موقف البابوات منه ، لما جعل لهم هذا الحق المطلق .. إن هذا الحق يتنافى مع الجزم بأن (من المستحيل على أى مخلوق ـ بمقتضى

قوانين ما وراء الطبيعة ـ أن يكون كاملاً ، وإن حرية الإنسان فى أن يأثم هى الثمن الذى يجب عليه أن يؤديه نظير حريته فى الاختيار ، وإذا سلب الإنسان حرية الإرادة أصبح مجرد آلة ذات حركة ذاتية لا تسمو على الخير والشر ، بل تنحط دونهما ، ولا تكون لها كرامة أكثر من أنها آلة .

ثم إنه يقول : (إن أرقى ما نستطيع تحصيله من معرفة عن الله فى هذه الحياة أن نعرف أنه فوق كل ما يمكن أن يدور فى خلدنا عنه) ، و (لا نستطيع أن نعرف ما هو الله ، بل نعرف فقط ما لا يمكن أن يكونه) .

وهذا القول يتنافى مع قوله : (والرجل والمرأة كلاهما صوّرا فى صورة الله) .

كيف يتحدث عن (صورة الله) ، ونحن (لا نستطيع أن نعرف ما هو الله) ؟ ثم إذا كانا (فى صورة الله) فكيف أصبح الرجل أرقى من المرأة ، لأن (الأب هو المبدأ الفعال ، على حين أن الأم هى المبدأ المنفعل ، أو المادى ، فهى تقدم مادة الجسم التى لا صورة لها ، والتى تتلقى صورتها عن طريق القوة المكونة التى فى منّى الأب) .

إن (الرجل أشبه بالله من المرأة ، والرجل هو مبدأ المرأة وغايتها ، كما أن الله هو مبدأ الكون وغايته ، وهى تحتاج إلى الرجل فى كل شىء ، أما هو فلا يحتاجها إلا للتناسل ، والرجل قادر على أن يؤدى جميع الواجبات أحسن من أداء المرأة ، لا يستثنى من هذا العناية بالبيت ، فهى لا تصلح لأن تشغل أى منصب هام فى الكنيسة أو الدولة ، وهى جزء من الرجل ، أو إن شئت الدقة فهى ضلع من ضلوعه ، وعليها أن تنظر إلى الرجل نظرتها إلى سيدها الطبيعى ، وأن تقبل إرشاداته ، وتخضع لتقويمه وتأديبه ، وبهذه الطريقة تؤدى رسالتها ، وتحظى بسعادتها) .

* لقد مشى الرجل شوطاً فى أذيال الفكر الإسلامى ، لكنه خاض فيما ورث من نصوص (العهد القديم) ، ونصوص (العهد الجديد) .. حاول أن يلعب على الحبلين فوقع بينهما .

ومع هذا ، فله أفكار تتمتع بحظ من الحرية ، والتوفيق ، والانتقاء ، أو (الاقتباس) من الفكر الرائج فى المجتمع الإسلامى ، وإن كان ما يلبث أن يفسد (جوهرها) بما يضيف إليه .

يقول : (إن الشر ليس موجوداً إيجابياً ، لأن كل حقيقة ـ بوصفها حقيقة ـ خير ، وليس الشر إلا غياب صفة أو صفات مقدرة ، يجب أن تكون موجودة فى الكائن بطبيعته ، أو هى الحرمان من هذه الصفة المقدرة ، فليس شراً فى الرجل ألا يكون له جناحان ، لكن شراً ألا تكون له يدان ، مع أنه ليس من الشر فى الطائر ألا تكون له يدان) .

(كل شيء طيب ، كما خلقه الله ، لكن الله نفسه لا يستطيع أن ينقل كما له اللانهائى إلى مخلوقاته) .

(والله يجيز بعض الشرور بقصد الوصول إلى بعض الغايات الخيرة ، أو لمنع شرور أشد منهـا) .

بهذا الفهم يصبح كل من الرجل والمرأة (ميسراً لما خلق له) ، ومن ثم لا يسهل تقديم أحدهما على الآخر ، إلا من حيث (خيريته) ، لأن لكل دوره فى الحياة فإذا أحسن أداءه تقدم فى (جنسه) ، ما دمنا متساويين فى الخضوع (لنظام العقل) الذى هو (التوفيق الصحيح بين الوسائل والغايات . وهو ـ فيما يختص بالإنسان ـ تكييف السلوك ، بحيث يؤدى إلى السعادة السرمدية ، والله يهبنا حرية ارتكاب الخطأ ، لكنه يهبنا أيضاً ـ بوحيه الإلهى ـ الشعور بالصواب والخطأ ، وهذا الضمير الغريزى ذو سلطان مطلق يجب أن يطاع ، مهما تكن النتيجة ، فإذا أمرت الكنيسة إنساناً بشيء يخالف ضميره وجب عليه أن يعصى أمرها ، وإذا حدثه ضميره بأن الإيمان بالمسيح شر وجب عليه أن ينفر من هذا الدين) .

وهذا القول ـ إن كان مستمداً من قول الرسول محمد ﷺ (استفت قلبك) ـ فإن الاستفتاء ليس على إطلاقه ، لأن ثمة هواجس شيطانية ، وعوامل الهوى كثيراً ما تزيف مفهوم (الضمير) الذى هو غريزة الخير والإيمان ، ثم كيف يلتقى هذا مع طلب الانحناء أمام (قرارات الكنيسة) وأن البابا أعطى (الحق فى أن يصدر أحكاماً نهائية فى شئون الدين) ؟! .

* وما يزال توماس يتأرجح بين الصواب والخطأ ، بين حسن الفهم وسوئه ، لما يقع عليه من أفكار الآخرين .

إنه يعترف بأن الملكية لا تتعارض مع القوانين الطبيعية ، لكن (الإنسان يجب ألا يمتلك الأشياء الخارجية على أنها ملكه الخاص ، بل على أنها ملك عام ، وبذلك يكون على استعداد لأن ينقلها إلى غيره من الناس إذا احتاجوا إليها) ، و (كل ما يمتلكه بعض الناس أكثر من حاجتهم إنما يقصد به ـ حسب القانون الطبيعي ـ مساعدة الفقراء) ، و (إذا لم يوجد علاج آخر ، فإن من حق الإنسان أن يسد حاجته من ملك غيره بالاستيلاء عليه سراً أو جهراً) !!.

لم يفكر الفيلسوف أكويناس فى حدود (الحاجة) عندالآخرين ، ومن الذى يملك هذا التحديد ، وكيف يتم الاستيلاء على أموال الآخرين سراً أو جهراً ، أليس فى هذا دعوة إلى السرقة ، أو إلى الثورة المسلحة على الكنيسة ، أغنى مؤسسة عالمية ؟! .

ويرى أن (من الخير إخضاع السذج للعقلاء ، لأن من لهم أجسام قوية وعقول ضعيفة قد أريد لهم ـ بحكم الطبيعة ـ أن يكونوا أرقاء) !!.

ما هو معيار قوة الجسم وقوة العقل ، أليس الغلبة ؟. وهل الغلبة تعتمد على القوة المادية أو العقلية ؟ أليس للحيلة والخداع والغدر نصيب ؟! أيكون من حق من يحمل سلاحاً أن يسترق من لا سلاح معه؟! أليس هذا دعوة إلى أن تظل الأبدى على (الزناد) ؟ إن الثور يملك قوة الجسم ، والفيلسوف يملك قوة العقل ، وكلاهما لا حيلة له أمام طفل أو مجنون يملك مسدساً ، أو أنبوبة مادة حارقة ، وقد يستطيع الطفل أو المجنون أن يشعل النار فى قرية ، أو يسمم بئراً تستقى منه قبيلة بأكملها .

ومن خير أقباسه : (بما أن الخليقة كلها قد نشأت من الله ، فإنها ستعود إلى الله ، والنفس البشرية هى منحة من كرمه ، لا تستريح حتى تعود فتنضم إلى مصدرها ، وهكذا تتم الدورة المقدسة ، دورة الخلق والعودة) .

و (أعظم مايناله الناجون من السعادة هو رؤية الله ، وليس معنى هذا أنهم سيفهمونه ، إذ لا يفهم اللانهائى غير اللانهائى ، بيد أن المنعمين ـ بما ينفخ فيهم من النعمة الإلهية ـ سوف يشهدون جوهر الله) .

ولا أدرى كيف يرون (جوهر الله) ثم لا يفهمونه ، فالرؤية ـ بمنطقه السابق عن المعرفة ـ سبيل إلى الفهم .

* وبسبب هذا الاضطراب بين المنقول والمعقول أصدر أسقف باريس سنة ١٢٧٧ – بإيعاز من البابا يوحنا الحادى والعشرين – مرسوماً باعتبار ٢١٩ قضية من قضايا توماس خروجاً على الدين .

وبعد مائة عام أقنع الرهبان الدومنيك البابا يوحنا الثانى والعشرين أن توماس من القديسين ، وكان تقديسه سنة ١٣٢٣ انتصاراً لفلسفته ، ووجد المتصوفة من ذلك الوقت فى كتابه (الخلاصة) أعمق وأوضح عرض للحياة الفكرية الصوفية .

ولما عقد مجلس ترنت (١٥٤٥ – ١٥٦٣) وضع كتاب (الخلاصة) على المذبح إلى جانب الكتاب المقدس ، وكتاب القوانين الكنسية .

وقرر البابا ليو الثالث عشر سنة ١٨٧٩ والبابا بندكت الخامس عشر سنة ١٩٢١ أن تكون مؤلفات توماس الفلسفة الرسمية للكنيسة الكاثوليكية .. وهذه الفلسفة تدرس الآن فى جميع كليات الروم الكاثوليك ، وكسبت لها أنصاراً جداً فى الوقت الحاضر – قصة الحضارة مج ٤ ج ٦ ص ١٤٦/١٤٧ .

* ويأتى الفيلسوف الإنجليزى برتراندرسل فى كتابه (تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٣٥/٢٥٠) ليعيد تقديم فيلسوف الكنيسة ، فيقول : كان ذا علم حقيقى بأرسطو ، فقد أمدّه صديقه وليم الموربيكى بترجمات من اليونانية ، وكتب هو تعليقات على ما قرأ .

كره الأفلاطونية ، حتى فى صورتها التى تبدت بها عند أوغسطين ، ونجح فى إقناع الكنيسة بأن فلسفة أرسطو أحق من فلسفة أفلاطون ، لتكون أساساً لفلسفة مسيحية .

جاء فى كتابه (الحجة على الكافرين) : (إن العقل الطبيعى أداة ناقصة فيما يختص بالله ، ففى مقدوره أن يبرهن على بعض جوانب العقيدة دون بعضها الآخر ، فى مقدوره أن يثبت وجود الله ، وخلود الروح ، لكنه لا يستطيع أن يثبت « الثالوث » ، ولا « التجسيد » ، ولا « يوم الحساب » فكل ما يمكن البرهنة عليه هو – إلى هذا الحد – متفق مع العقيدة المسيحية ، وليس فى الوحى ما يضاد العقل ، ولكن لابد من فصل أجزاء العقيدة التى يمكن البرهنة عليها بالعقل عن أجزائها التى لا يمكن البرهنة عليها بمثل هذا البرهان) .

(إن البرهان على وجود الله – كما جاء عند أرسطو – قائم على حجة المحرك الذى لا يتحرك ، ولكن هذه الحجة عند أرسطو تنتهى إلى ٤٧ أو ٥٥ إلهاً ، فهنـاك أشياء تتحرك

بغيرها فقط ، وأشياء أخرى تحرك غيرها وتتحرك بغيرها معاً ـ وكل ما يتحرك يحركه شيء سواه ، ولما كان التسلسل اللانهائي مستحيلاً ، فلابد أن نصل عند نقطة ما ، إلى شيء يحرك الأشياء الأخرى ، دون أن يتحرك هو ، وهذا المحرك الذى لا يتحرك هو الله) .

(والله هو جوهر نفسه ، لأنه إذا لم يكن كذلك ، لما كان كائناً بسيطاً ، بل كائناً مركباً من جوهر ووجود ، ففى الله لا فرق بين جوهر ووجود ، وليس فى الله حوادث عارضة ، ويستحيل أن تتجزأ أجزاؤه بفروق جوهرية ، وهو لا يقع تحت جنس من الأجناس ، ولذا استحال تعريفه ، لكنه لا ينقصه كمال أى جنس من الأجناس ، فالأشياء تشبه الله من بعض نواحيها ، ولا تشبهه من بعض نواحيها ، ولأن يقال إن الأشياء تشبه الله أنسب من أن يقال إن الله يشبه الأشياء) .

(والله خيّر ، وهو عبارة عن خير نفسه ، فهو الخير فى كل ما يوصف بالخير ، وهو عاقل ، وأفعاله العقلية هى نفسها جوهره ، فهو يعقل بجوهره ، وهو يعلم نفسه علماً كاملاً) .

(وعلى الرغم من أن العقل الإلهى لا تركيب فيه ، فالله يعقل أشياء كثيرة ، وقد يبدو ذلك إشكالاً عسيراً ، لكن حل الإشكال هو أن الأشياء التى يعقلها ليس لها وجود متميز ، ولا هى كائنة بذاتها ، كما ظن أفلاطون ، لأن صور الأشياء الطبيعية لا يمكن وجودها ولا تصورها بالعقل وهى مستقلة عن المادة ، ومع ذلك فلابد لله أن يعقل الصور قبل الخلق ، ليخلق الأشياء على غرارها ، وحل هذه المشكلة هو كما يأتى : « إن فكرة العقل الإلهى الذى به يعقل الله نفسه هى بنفسها فكرة كلمة الله ، وهى ليست فقط صورة لله وهو معقول، بل هى كذلك صورة لكل الأشياء التى يكون الجوهر الإلهى شبيهاً بها ، وبناء على ذلك ففى إمكان الله أن يتصور بعقله أشياء كثيرة ، وذلك بكونه يتصور نوعاً واحداً معقولاً ، وهو الجوهر الإلهى ، وبكونه كذلك يعزم عزمة واحدة معقولة ، وهى الكلمة الإلهية ») .

(إن الله يعقل الأشياء كلها فى لحظة بعينها ، وليست معرفته تقوم على ترابط المعانى ، كلا ، ولا هى تنتقل من فكرة إلى فكرة ، أو تلحق الحجة بالحجة ، فالله هو الحقيقة نفسها ، « ولابد من فهم هذه العبارة بمعناها الحرفى ») .

(إن الله يعرف الجزئيات ، باعتباره سبباً لها ، وهو يعرف الأشياء التي ليست موجودة وجوداً عقلياً ، كما يعرف الصانع الشيء المصنوع قبل أن يتم صناعته ، وهو يعرف الأشياء العرضية التي ستقع في المستقبل ، لأنه يرى كل شيء في الزمان كأنه واقع في الوقت الحاضر ، وذلك لأنه هو نفسه خارج عن حدود الزمان ، وهو يعرف ما يدور في عقولنا ، وما تعتزمه إرادتنا ، ويعرف الأشياء التي لا نهاية لعددها ، على الرغم من أن ذلك فوق مقدورنا نحن البشر ، وهو يعرف الأشياء التوافه ، لأنه ليس ثمة شيء تافه من كل نواحيه ، إذ إن لكل شيء جانباً شريفاً ، وإلا فلو كان الأمر غير ذلك لما عرف الله غير نفسه ، وفضلاً عن ذلك فإن نظام الكون غاية في السمو ، ويستحيل معرفة هذا النظام بغير معرفة كل شيء حتى التوافه ، وأخيراً فإن الله يعلم الأشياء الشريرة ، لأن معرفة أي شيء مما يتصف بالخير يتضمن معرفة ضده وهو الشر) .

(والله إرادة حرة ، ويمكن أن نجد المبرر العقلي لكل إرادة يريدها ، دون أن يكون هنالك سبب يستلزم حدوث تلك الإرادة ، وهو لا يريد أشياء مستحيلة في ذاتها) .

(فيستحيل عليه أن يكون جسماً ، أو أن يغير نفسه ، ويستحيل عليه أن يخفق ، وأن يلحقه التعب ، وأن ينسى ، وأن يندم ، وأن يغضب ، وأن يحزن ، ويستحيل عليه أن يجعل إنساناً بغير روح ، أو أن يجعل زوايا المثلث لا تساوي قائمتين ، إنه يستحيل أن ينسخ الماضي ، وأن يرتكب الآثام ، وأن يخلق إلهاً آخر ، أو أن يجعل من نفسه كائناً غير موجود) .

كأني بالفقرة الأخيرة قد نقلها عن غيره دون وعي ديني ، وإلا حق عليه أن يكذب كثيراً مما جاء في العهد القديم عن الله (يهوه) ، وما عقده (قانون الإيمان) من عقائد حول التجسيد والفداء والتثليث .

لقد ذهب مذهب القديس أوغسطين وغيره من سلالة بولس بإدانة خطيئة آدم التي توارثها أبناؤه ، مما استدعى تجسد الله في يسوع ثم صلبه وموته وقيامته من أجل أن يحمل أوزار هذه الخطيئة .

فالقول بأن هذه الخطيئة (تضيع على مقترفها خاتمته الأخيرة إلى أبد الآبدين) لولا (الفداء) ، ولولا (التعميد) ، وأخيراً لولا (الاعتراف) .. هذا القول هو الذي جر على

المسيحية كل هذا (الاضطراب) الفكرى ، وكل هذه الانشقاقات التى أحدثتها المجامع المسكونية ، وكل هذه الطقوس (الوثنية) التى قد يقوم بها قساوسة أشرار ، وتحتفظ بقداستها ، وفق تعاليم الكنيسة ، مما أفسح المجال لكثير من المفارقات الغريبة الرهيبة .

ويعلق ول ديورانت على (شطحات) أكويناس (الفلسفية)بقوله : (لست بمستطيع أن أرى فيه من الجدارة ما يستحق به أن يوضع على قدم المساواة مع خيرة الفلاسفة ، سواء فى ذلك اليونان والمحدثون) .

* * *

على حد السيف ..

كان النشاط الإسلامي غربي الإمبراطورية الرومانية مثار إزعاج وقلق للدولة المسيحية ، لكن استمرار الانتصارات الإسلامية أحدث قدراً من التبلد والتمزق داخل الكيان الإمبراطوري المشغول دائماً بغارات القبائل الوثنية الوحشية ، والمشغول دائماً بغارات المسلمين المتكررة على القسطنطينية ، وبغارات الخزر والسلاف والموسكوف والقوزاق على شرق وشمال الإمبراطورية .

أخذت الهوة بين المسيحية اللاتينية واليونانية تزداد عمقاً ، بسبب ما كان بين المذهبين في هذه القرون الوسطى من اختلاف في اللغة والطقوس والعقائد ، وكان مثلهما في هذا كمثل جنس من أجناس الكائنات الحية انقسم في المكان ، وتنوع على توالي الأيام ، فقد كانت الطقوس ، والأثواب الكهنونية ، والآنية ، والزخارف المقدسة ، في الكنيسة اليونانية ، أشد تعقيداً ، وأكثر زخرفاً ، وأعظم عناية بالناحية الفنية من مثيلاتها في الغرب .. كان ذراعا الصليب اليوناني مثلاً متساويتين ، وكان اليونان يصلون وهم وقوف ، أما اللاتين فكانوا يصلون راكعين ، وكان اليونان يعمدون أطفالهم بأن يغمروهم في الماء المقدس ، أما اللاتين فكانوا يرشون الماء عليهم ، وكان الزواج محرماً على القساوسة اللاتين مباحاً للقساوسة اليونان ، وكان القسيسون اللاتين يحلقون لحاهم ، على حين كان اليونان يرسلونها إرسالاً يخلع عليهم مظهر الوقار والأناة وطول التفكير ، وتخصص رجال الدين اللاتين في الشئون السياسية ، أما اليونان فقصروا نشاطهم على أمور الدين ، وكانت الزندقة تنشأ على الدوام تقريباً في بلاد الشرق الذى ورث عن اليونان شغفهم بتحديد ما لا حد له .

وكان الأباطرة الألمان يدعون أن سلطتهم مقدسة ، لأنها من ضرورات النظام الاجتماعي ، ألم يقل الرسول بولس : إن السلطات القائمة مقدرة من عند الله ؟ أليسوا هم ــ كما يقول البابوات أنفسهم ــ ورثة إمبراطورية روما ؟ فهم المدافعون عن حرية الجزء ، كما يدافع جريجورى عن وحدة الكل ، وعن النظام فيه .. وكانوا يعترفون اعترافاً صريحاً بسلطة الكنيسة في الشئون الروحية فقط . ويبقى لهم سلطان الدولة في الشئون الزمنية أو الدنيوية .. هذا على حين كان جريجورى السابع (١٠٧٣ ــ ١٠٨٥) يرى أن هذه ثنائية مخلة بالنظام ، وأن الاعتبارات الروحية يجب أن تعلو على الشئون المادية ، كما تعلو الشمس على القمر .. ألم يعترف ملوك فرنسا وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة اعترافاً ضمنياً

بأن السلطة الروحية مصدر السلطة الزمنية وصاحبة السيادة عليها ، حين ارتضوا أن يمسحهم البابوات أو يثبتوهم في مناصبهم ؟ إن الكنيسة ـ بوصفها نظاماً إلهياً ـ خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية ، ومن حق البابا وواجبه ـ بوصفه خليفة الله في أرضه ـ أن يخلع الملوك غير الصالحين، وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام ، أو تنصيبهم ، حسب مقتضيات الأحوال .

* وقد تناول توينبي هذه القضية في (مختصر دراسة للتاريخ ج ٣ ص ٢٠٧/٢٠٨) فقال : إن إحدى المنح الرهيبة التي تواجه عقيدة ما ، كامنة في تبرير وجودها ، فالعقيدة تدأب في الكفاح على الأرض بقصد اجتذاب هذا العالم إلى ملكوت الرب ، ويعني هذا أن لا مناص للكنيسة من أن تهتم بالأمور الدنيوية اهتمامها بالمسائل الروحية ، وبالتالي لا محيص لها عن أن تقيم نفسها على الأرض كنظام دنيوي ، عندئذ تجد الكنيسة نفسها مرغمة على تغطية عريها الأثيري بلحاء مادي ، حتى تحقق رسالتها الروحية في بيئة نافرة .

إنه لا يمكن إصلاح الإكليروس دون إحكام نظام الكنيسة ، ولا يمكن إحكام نظام الكنيسة من غير مجابهة سلطان الدولة ، وإذا كانت وظائف الكنيسة والدولة ـ خلال عصر الإقطاع ـ متشابكة معقدة ، فقد شق تحديد الخط الفاصل بين الدولة والكنيسة تحديداً ترضى عنه الكنيسة ، من غير تطاول على مجال سلطان الدولة ، على نحو ينفر الدولة ، وهكذا نشب الصراع الذي بدأ بسلاح المنشورات ، ثم استفحل الأمر ، فكان استخدام المال والسلاح .

وأراد ديورانت أن يستثني دور القديسين بندكت وجريجوري الكبير اللذين عكفا على هدف روحاني، تبلور في التسامي بالحياة الديرية في العالم الغربي ، وأثنى على هذين الرجلين العزوفين عن الدنيا لأنهما حققا ـ إلى جانب عملهما الروحي ـ مشروعات اقتصادية كانت فوق طاقة رجال السياسة ، وذكر أن المؤرخين المسيحيين والماركسيين على السواء يحمدون مآثرهما في الميدان الاقتصادي .

* * حين ظهر شارل مارتل (المطرقة) ، استطاع أن يغير اتجاه الريح ، وأن يبعث الأمل والطموح ، ويجمع شمل الإمبراطورية الواسعة الأرجاء حول هدف موحد ، ظل عدة قرون الشغل الشاغل لكل مسيحي (يوريتاني) ، ولكل مسيحي معامر .

كان شارل بالاسم ناظراً للقصر الملكي ، ودوق أستراسيا ، حكم غالة كلها تحت سلطان كلونير الرابع (٧١٧ ـ ٧١٩) ، وهو الذي صد بعزيمته غارات الغاليين، مستعيناً

بالفريزيين والسكسون ، وهو الذى صد المسلمين عند (تور) وردهم عن أوربا ، وأعان بونيفاس وغيره من المبشرين على تنصير ألمانيا ، لكنه حين اشتدت حاجته إلى المال صادر أراضى الكنيسة ، وباع مناصب الأساقفة لقواد الجيش ، وأسكن جيوشه الأديرة ، وقطع عنق راهب ، وحكم عليه فى مائة منشور وخطبة منبرية بأن مأواه الجحيم . لكنه مع ذلك ظل البطل التاريخى العظيم الذى استطاع أن يقص شوارب الأسد، ومن ثم غفرت له الكنيسة جرأته عليها ، وعبثه بمقدساتها ، وعملت على استغلال انتصاره (القدرى) أحسن استغلال .

* وحدث فى ٢٦ ديسمبر ٧٩٥ أن اختير ليو الثالث بابا ، ولم يكن شعب روما يحبه ، إذ كان يتهمه بعدة خصال خبيثة ، وقد هاجمه العامة فى ٢٥ أبريل ٧٩٩ ، وأساءوا معاملته ، وسجنوه فى دير ، بعد أن سملوا عينيه ، وقطعوا لسانه ، لكنه هرب من سجنه ، واتجه إلى شارلمان فى بادر بورن ، وطلب إليه أن يحميه .

كان شارلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤) أعظم ملوك العصور الوسطى ، فأحسن استقباله ، وأعاده إلى منصبه ، مع حرس مسلح ، وتم إسقاط التهم ضده ، بعد أن أقسم أنه لم يرتكبها .

وفى ٢٤ نوفمبر ٨٠٠ دخل شارلمان روما ، إبان الاحتفال بعيد الميلاد ، ولما ركع للصلاة أمام مذبح القديس بطرس بالعباءة اليونانية القصيرة والصندلين ، وهما لباس كبراء الرومان من قبل ، أى أن الإمبراطور المسيحى كان أقرب إلى الوثنية ، حتى وهو تحت سقف (الفاتيكان) .. لكن البابا ليو استطاع بحركة مسرحية أشبه بحركة شارل مارتل فى (تور) فأخرج ـ على حين غفلة ـ تاجاً مطعماً بالجواهر ، ووضعه على رأس الملك ، فنادت الجماهير : (يحيا شارل الأفخم الذى توجه الله إمبراطوراً عظيماً للرومان ، لينشر بينهم السلام) ، ومسح البابا رأس الملك بالزيت المقدس ، وحيا شارلمان ، ونادى به إمبراطوراً وأغسطس ، وتقدم إليه بمراسم الولاء التى ظلت محتفظاً بها للإمبراطور الشرقى منذ سنة ٤٧٦ [1] .

وكان لتتويج شارلمان نتائج دامت ألف عام ، فقد قوى البابوية والأساقفة ، إذ جعل السلطة المدنية مستمدة من إلهية الكنيسة .. وأتاحت حوادث سنة ٨٠٠ لجريجورى السابع

---

(١) هذه الأحداث تشكك فى رواية المؤرخ اجتهارد عن سمل عينيه وقطع لسانه ، إلا إذا كانت الأحداث قام بها مندوب عن البابا ، أو أن البابا استعان بغيره .

وإنوسنت الثالث أن يقيما كنيسة أقوى ، وأعانت شارلمان على البارونات الغضاب وغيرهم ، لأنها جعلته ولياً لله في أرضه ، وأيدت أعظم التأييد نظرية حق الملوك الإلهي في الحكم .. وأصبحت المراسيم الإمبراطورية في المهام الرسمية أن يلبس الإمبراطور أثواباً مزركشة ، ذات مشبك ذهبي ، وحذاءين مرصعين بالجواهر ، وتاجاً من الذهب والجوهر ، وكان على زائريه أن يسجدوا له ، ليقبلوا قدميه أو ركبتيه .

ويقال إن شارلمان لم يكن راضياً عما صنع ليو ، وأنه قال : (لو أنه عرف أن هذا سيحدث لما دخل الكنيسة) .

وذكر ولز في (معالم التاريخ الإنسانية ج ٣ ص ٨٦١/٨٥٧) أنه كان يحول في خاطر شارلمان أن يتزوج من الإمبراطورة إيريني التي كانت تحكم القسطنطينية ، وبذا يصبح عاهل الإمبراطوريتين الشرقية والغربية ، لكنه أصبح مضطراً إلى قبول اللقب على الشاكلة التي رسمها ليو الثالث ، أي بوصفه صنيعة البابا ، مما أغضب القسطنطينية ، وأكد انفصال روما عن الكنيسة البيزنطية ، وكانت بيزنطة غير راغبة في الاعتراف بلقب شارلمان الإمبراطوري .

لكن حدث سنة ٨١١ أن حلت بالإمبراطورية البيزنطية كارثة عظيمة ، إذ إن البلغار الوثنيين ـ بقيادة أميرهم كروم (Krum) (٨٠٢ ـ ٨١٥) ـ دحروا وشتتوا جيش الإمبراطور نقفور الذي أصبحت جمجمته كأساً لكروم ، وفتح هؤلاء القوم القسم الأكبر من شبه جزيرة البلقان ، وفي سنة ٨١٢ اعترف رسمياً بشارلمان إمبراطوراً وأغسطس على يد مندوبين بيزنطيين.. وبذلك تكون إمبراطورية روما التي ماتت على يد أودواكر(Odoacer) سنة ٤٧٦ قد بعثت من جديد باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

وقد أوصى شارلمان ابنه وخليفته لويس الورع (٨١٤ ـ ٨٤٠) بأن يأخذ التاج من المذبح ويتوج نفسه بنفسه ، لكن لويس الورع كان أتقى من أن يتمسك بهذه التعليمات عندما اعترض البابا .

يقول جيبون : إن هارون الرشيد أرسل إلى شارلمان على أيدي سفرائه فسطاطاً فاخراً ، وساعة مائية (أورملية) ، وفيلا ، ومفاتيح الناووس المقدس ، اعترافاً بأن شارلمان حامي المسيحيين وممتلكاتهم .

* لم تكن حياة شارلمان الخاصة فوق مستوى الشبهات ، مما يفسر سبب تأييده (ليو) الخبيث .

كان بربرياً مليئاً بالحيوية ، يربطه التحالف مع الكنيسة من الوجهة السياسية ، غير أنه لم يكلف نفسه عبء التقوى الشخصية الذى يهظه بغير موجب ، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة ، لكنه افتتح نهضة أدبية ، وكان منحلاً فى حياته ، مغرماً بابنتيه [1] غراماً جاوز الحدود ، فقد أقنعهما بعدم الزواج ، وقال إنه لا يطيق فراقهما ، فكان أن ارتميا فى أحضان العشاق ، وجاءنا بأبناء غير شرعيين ، وكان بوسع الإمبراطور أن يزوجهما ويبقيهما فى قصره ، أو قريباً منه ، لكن ـ لأمر ما ـ اختار لهما حياة البغاء ، بنفس سمحة طيبة ، لأنه نفسه جرى على سنة أسلافه ، فاتخذ أربع زوجات ، واحدة بعد الأخرى ، وأربع عشيقات ، إذ كانت حيويته الموفورة تدفعه إلى مزيد من التمتع بمفاتن النساء ، وقد ولدت نساؤه ثمانية عشر من البنين والبنات ، منهم أربعة غير شرعيين ، وغض من فى حاشيته ومن في روما من رجال الدين أبصارهم عن تحلل رجل مسيحى من قيد الأخلاق ، لأنه كان قادراً على الإمساك بعصا الميزان ، بعد أن عانت الإمبراطورية من الانفجارات الداخلية أكثر مما عانت من تآكل حدودها .

وقد عاش اثنين وسبعين عاماً ، حكم منها سبعة وأربعين ، ولما مات سنة ٨١٤ دفن تحت قبة كاتدرائية آخن ، مرتدياً أثوابه الإمبراطورية .. وما لبث العالم أن أسماه شارلمان (Charlemagne) أو شارل العظيم ، ولما حل عام ١١٦٥ ، ومحا الزمن مساوئه ، ضمته الكنيسة إلى زمرة الصالحين المنعمين .

وبعد انحلال إمبراطورية شارلمان ترك البابا ولا حامى له ، تتهدده بيزنطة والعرب الذين استولوا على صقلية ، وتحرش به نبلاء روما الشرسون ، ومن أقوى هؤلاء النبلاء امرأتان هما ثيودورا وماروزيا ، أم وابنتها تعاقبتا في الاحتفال بقلعة سان أنجلو التى استولى عليها ثيوفيلاكت زوج ثيودورا النبيل ، كما استولى على معظم سلطة البابا الزمنية .. وكانت هاتان المرأتان من الجرأة والدناءة والخلاعة ، كأى أمير ذكر فى ذلك الزمان ، والمؤرخون يسبونهما بأقبح الصفات ، وقد قبضت ماروزيا على البابا يوحنا العاشر ، وسجنته سنة ٩٢٨ ، وسرعان ما توفى فى سجنه ، أما أمها ثيودورا فكانت خليلة لهذا البابا . ونصبت ماروزيا ابناً غير شرعى لها على عرش البابوية ، باسم يوحنا الحادى عشر ، ومن بعده شغل كرسى البابوية حفيدها يوحنا الثانى عشر .

وإن ما دونه جيبون عن سلوك يوحنا الثانى عشر أسوأ مادُوِّن من سلوك ، وقد جرد هذا

(١) رسل يتكلم عن بنتين ، وديورانت يتكلم عن بنات .

البابا من منصبه على يد الإمبراطور الألمانى الجديد أوتو الذى عبر جبال الألب ، وانحدر إلى إيطاليا ليتوج سنة ٩٦٢ .

* وبموجب تبادل الأنخاب بين السلطتين الروحيــة والزمنية ، ازداد سلطان رجال الدين ، بعد أن حرص الملوك على اتخاذ الدين مطية إلى السلطان ، واتخاذ رجال الدين دعائم لممارسة هذا السلطان ، وفى مقابل خدمات الكنيسة سمح لها بمد أطماعها ، فكان أن انقلبت عطية الفرنجة للكنيسة ظهراً لبطن ، فأخضع رجال الدين فى فرنسا ملوكها شيئاً فشيئاً لسلطانهم ، وبينما كانت إمبراطورية شارلمان تتدهور كان نفوذ البابوية فى ازدياد .

كان الأساقفة ـ فى بادئ الأمر ـ أكثر الناس إفادة من ضعف الملوك الفرنسيين والألمان ومن منازعاتهم ، ذلك أن رؤساء الأساقفة تحالفوا مع الملوك فى ألمانيا، فنالوا بفضل هذ التحالف أملاكاً واسعة ، وحصل الأساقفة والقساوسة على سلطات إقطاعية كادوا يستقلون بها عن البابوات ، ويلوح أن غضب الأساقفة الألمان واستياءهم من استبداد رؤسائهم كان منشأ (الأحكام البابوية الكاذبة) ، وهى مجموعة الأحكام التى قوت فيما بعد سلطات البابوية ، وكانت تهدف ـ فى بادئ الأمر ـ إلى تقرير حق الأساقفة فى أن يستأنفوا أحكام مطارنتهم إلى البابوات أنفسهم .

وأغلب الظن أن هذه (الأحكام) جمعت فى مدينة مينز سنة ٨٤٢ ، وكان واضعها قس فرنسى ، وكانت غاية فى البراعة ، تشمل ـ بالإضافة إلى القرارات الموثوق بها الصادرة من المجامع الدينية أو البابوات ـ عدداً من المراسيم والخطابات ، تعزوها إلى البابوات، مبتدئة من كلمنت الأول (٩١ ـ ١٠٠) إلى ملخيادس (٣١١ ـ ٣١٤) .

وتدل الشواهد على أن البابوات جميعاً ، حتى الأولين منهم ، كانوا يدعون أنهم أصحاب السلطان الأعلى ، بوصفهم خلفاء المسيح فى الأرض .

وبدا أن خروج البابا عن سيادة بيزنطة ، بتتويجه شرلمان ، لم يكن إلا تفريراً مرتقباً من زمن بعيد لحق يرجع فى أصله إلى مؤسس الإمبراطورية الشرقية نفسه .

وظل البابوات ثمانية قرون كاملة يفترضون صحة الوثائق ، ويستخدمونها لتوطيد أركان سياستهم ، وقد كشف لورنزوفلا سنة ١٤٤٠ ـ بما لا يترك مجالاً للشك ـ ما فى هذه الأحكام الكاذبة من تزوير ، ولهذا فإن جميع الطوائف مجمعة ـ فى هذه الأيام ـ على أن هذه الوثائق التى كانت مناراً للجدل وثائق مزورة .

* ومن خلال (الأحكام البابوية الكاذبة) ، لما دفن إدوارد المعترف (١٠٤٢ـ

١٠٦٦) فى مقبرة وستمنستر ، واختير هارولد ملكاً على انجلترا، جاءت الأخبار بأن وليم دوق نورمنديه يطالب بالعرش ، ويستعد للحرب ، بحجة أن إدوارد قد وعده سنة ١٠٥١أن يوصى له بتاج انجلترا ، جزاء له على إيوائه وحمايته فى نورمنديه ثلاثين عاماً .

ولجأ وليم إلى البابا ، فحانت الفرصة لتأكيد حق البابوات فى تتويج الملوك ، فحكم ألكسندر الثانى بأن هارولد مغتصب ، وحرمه ومناصريه من الكنيسة المسيحية ، وأعلن أن وليم صاحب الحق الشرعى فى عرش انجلترا ، وبارك غزوة وليم المرتقبة ، وبعث إليه بعلم مدشن وخاتم يحتوى على شعرة من رأس القديس بطرس داخل ماسة .

انهزم هارولد فى صراعه مع وليم ، وتم تتويج وليم الأول ملكاً على انجلترا ، فى يوم عيد الميلاد من سنة ١٠٦٦ ، ومن ثم أصبح تدخل الكنيسة فى صراع الملوك سنة متبعة .

وقد أطمع (تدخل الكنيسة) رجال الدين فى الحصول على مكاسب خاصة ، وعلى (متع) غير مشروعة ، وصار الجيش الإقطاعى يمثل التداخل الوثيق بين السلطتين الزمنية والدينية .. فقد انقسم الجيش انقساماً دقيقاً إلى طبقة فوق طبقة ، حسب درجات الشرف والمنزلة ، فالأمير ، والمركيز ، والكونت ، ورئيس الأساقفة ، هم قواد الجيش ، والبارون ، والسيد ، والأسقف ، ورئيس الدير ، هم رؤساء الفرق .

* وفيما بين سنتى ١١٧٤ ، ١١٨٢ ألف القس أندرو رسالة فى الحب ودوائه ، كأنه أراد أن يقطع الشعرة الفاصلة بين رجل الدين ورجل الدنيا، جاء فيها أن محاكم الحب كلها أجمعت على واحد وعشرين قانوناً ، منها :

١ ــ لا يمكن أن يتخذ الزواج حجة لرفض الحب .

٢ ــ لا يستطيع إنسان أن يحب اثنين فى وقت واحد .

٣ ــ لايمكن أن يظل كل الحب على حالة واحدة ، فهو إما أن يزيد ، أو أن ينقص .

٤ ــ المنة التى يسديها صاحبها مرغماً تافهة .

٥ ــ لا يليق بالرجل أن يحب النساء اللائى لا يحببن إلا بقصد الزواج .

٦ ــ إن السهولة المفرطة فى نيل الحبيب تحقر الحب ، أما الصعاب فترفع من قدره .

٧ ــ إذا بدأ الحب يتناقص فسرعان ما يزول ، وقلما يعود .

٨ ــ يزداد الحب دائماً بتأثير الغيرة .

٩ ــ الذى يقع فريسة الحب لا ينام إلا قليلاً ، ولا يأكل إلا قليلاً .

١٠ ــ المحب لا يضن بشىء على حبيبه .

قد تسهل المقارنة بين ما فعل أندرو وما فعل ابن حزم فى (طوق الحمامة) ، لكن شتان بين الهدفين ، وما أدى إليه كل منهما، ذلك لأن ابن حزم حصّن دراسته (الأدبية) بمنطق (الفقيه) ، لكن أندرو جعل (محاكم الحب) هذه أجزاء من ندوات تقيمها نساء طبقة الأشراف ، وإن كان رجال هذه الطبقة لم يكونوا يعبئون بها ، لأنهم تجاوزوا هذه المرحلة من القوانين (الرومانسية) إلى معايشة الواقع الداعر المثير .

* ما جاءت سنة ١٠٧٥ حتى قبض النجاح فى أنحاء العالم الغربى للمعركة الدينية المزدوجة ضد الفساد الجنسى والمالى فى أوساط رجال الدين ، فظفرت الشجاعة المعنوية للبابوية الرومانية بنصر مؤزر فى ميدان كانت سمعتها فيه قبل ذلك بنصف قرن من أسوأ ما عرف ، ويرجع هذا النصر إلى هيلدبراند الذى قاتل فى سبيل إحراز النصر ، سواء فى مناطق ما وراء الألب أو خلف العرش البابوى ، إلى أن حمله جهاده فى نهاية الأمر إلى المنصب الذى رفعه من الوحل ، كما أنه قاتل بكل سلاح وصل إلى يده، مادياً كان أو روحياً ، واتخذ عند لحظة انتصاره فى السنة الثالثة لتوليه عرش البابوية باسم جريجورى السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥) خطوة يقال إنه لم يكن مناص من اتخاذها ، فقد نقل فى تلك السنة ميدان المعركة ضد التسرى والسيمونية (الاتجار بالمقدسات والرتب والوظائف) إلى معركة ضد اشتراك الأمراء فى تنصيب رجال الدين .

كان المتبع حتى عصر هيلدبراند أن يتطلب تعيين موظفى الكنيسة ذوى الرتبة الأسقفية تصديق عدة جهات مختلفة ، وكان من قواعد النظام الكنسى البدائية أن يتم انتخاب الأسقف بواسطة كهنة أبروشيته وشعبها ، وأن تتم رسامته بواسطة عدد محدود من أساقفة المقاطعة ، ولم تحاول السلطة الزمنية قط ـ منذ قيام النظام ، بعد تحول الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية ـ أن تسلب امتيازات الأساقفة من هذا النوع ، أو أن تتحدى ـ من الوجهة النظرية ـ حقوق الكهنة والشعب الانتخابية ، وانحصر الدور الذى كانت تؤديه السلطة الزمنية ـ بحكم الواقع ، ودون إخلال بمسألة معنى الوقف من الناحية القانونية ـ فى ترشيح المرشحين ، وفى ممارسة حق الاعتراض على الانتخابات ، ويبدو أن هيلدبراند نفسه قد اعترف بهذا الحق فى أكثر من مناسبة .

ثم إن القضية التقليدية لممارسة درجة ما من هيمنة السلطة الزمنية على التعيينات الكنسية ـ قد عززتها منذ القرن الحادى عشر اعتبارات تتسم بمنحاها العملى ، مدارها أن رجال الكنيسة لبثوا وقتاً طويلاً ، وبدرجة تتزايد يوماً بعد آخر ـ يقومون بالواجبات الدينية

والدنيوية على السواء ، ولم تحل سنة ١٠٧٥ حتى كان أكثر وظائف بلاد المسيحية الغربية في أيدى رجال الدين الذى كانوا يحتفظون بهذه السلطة ، بفضل النظام الإقطاعى .. وترتب على ذلك أن أصبح إعفاء رجال الدين من (تلبيس) الأمراء إياهم يعنى هدم سلطان الأمراء فى أماكن كثيرة داخلة فى سلطانهم ، وبذلك تتحول الكنيسة إلى سلطة مدنية ، بالإضافة إلى قوتها الدينية ، فتصبح دولة داخل الدولة .

وتبدى النتائج البعيدة المدى التى ترتبت على فعل هيلدبراند خطورة هذا الفعل ، فلقد جازف فى هذه المسألة بكل النفوذ الذى كان قد ظفر به للبابوية ، فى غضون الثلاثين سنة السابقة ، لكنه سلك الطريق المعوج ، ولم يتمكن أى من خلفائه من استعادة الطريق السليم ـ عن توينبى (مختصر دراسة للتاريخ ـ ج ٢ ص ١٣٧/١٣٤) .

* فى سنة ١٠٧٥ أصدر مجمع من الأساقفة الطليان فى روما برئاسة جريجورى السابع قرارات تحرم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج رجال الدين ، وتعيين رجال جدد فى المناصب الكنسية بدلاً من المخالفين ، وأسرع جريجورى ـ بعد صدور هذه القرارات ـ فحرم خمسة أساقفة ، للمتاجرة بالرتب الكهنوتية، وكان هؤلاء الخمسة من مستشارى هنرى الرابع ، إمبراطور ألمانيا (١٠٥٦ ـ ١١٠٦) ، ثم أوقف أسقفى بافيا وتورين ، وخلع أسقف بياسنزا ، وأمر هرمان أسقف بامبرج بالحضور إلى روما ليبرئ نفسه من التهمة الخاصة بالمتاجرة فى الرتب الكهنوتية ، ولما حاول هرمان رشوة رجال المحكمة البابوية خلعه جريجورى .

وكان أن تحدى هنرى إجراءات جريجورى ، وعين بعض الأساقفة ، فأرسل إليه جريجورى سنة ١٠٧٥ رسالة شفوية ينذره بالحرمان إذا ظل يتجاهل قرارات مجمع روما المقدس ، فعقد هنرى فى ورمز (٢٤ يناير ١٠٧٦) مجلساً من الأساقفة الألمان ، جرى فيه اتهام جريجورى بالفسق ، والسحر ، والقسوة ، وبأنه وصل إلى كرسى البابوية بالرشوة والعنف .. وعرض على المجلس خلع البابا ، فوافق بالإجماع ، وأيده مجلس آخر من أساقفة لمبارديا ، وأرسل قرار الخلع إلى جريجورى فى مجمع مقدس بروما فى ٢١ فبراير ١٠٧٦ ، وكان القرار مذيلاً بعبارة (من هنرى الملك بأمر الله ، لا بالاغتصاب ، إلى هيلدبراند الراهب المزيف ، لا البابا) ، وكان الرد حرمان الأساقفة الذين وقعوا قرار ورمز ، وأصدر البابا حكماً مثلثاً بحرمان هنرى ، ولعنه ، وخلعه ، وأعفى رعاياه من يمين الطاعة له فى ٢٢ فبراير ١٠٧٦ ، فرد هنرى على هذا الحكم بأن أقنع أساقفة أو ترخت بأن يصبّوا

اللعنات من منبر الكنيسة على رأس جريجورى (الراهب الحانث) .

وشجع هذا الموقف الأمراء والأشراف الألمان على تقوية سلطتهم الإقطاعية ضد الملك ، فاجتمعوا فى تريبور (١٦ أكتوبر ١٠٧٦) ووافقوا على حرمان الإمبراطور ، وأعلنوا أنه إذا لم يحصل على مغفرة البابا قبل ٢٢ فبراير ١٠٧٧ فإنهم سيرشحون خلفاً له .. وكان أن خضع هنرى .

وفى ٢٥ يناير ١٠٧٧ سار هنرى إلى كانوسا ــ حيث يقيم جريجورى ــ وليس معه إلا أفراد من حاشيته ، ووقف بباب القصر حافياً ليس عليه إلا أثواب بالية من الصوف ، يتوسل والخوف يملأ قلبه أن يغفر له ، ويعفو عنه ، (وظل يفعل هذا ثلاثة أيام رثى فيها كل من حولنا لشقوته ، وجاءوا يشفعون له بدموعهم وصلواتهم ، فرفعنا أمر الحرمان عنه ، وقبلناه مرة أخرى فى حظيرة الكنيسة) ــ من رسالة جريجورى إلى الأمراء الألمان .

وكان الأمراء الألمان قد نادوا برودلف أمير سوابيا ملكاً ، وظلت البلاد عامين تمزقها الحروب الداخلية ، وظل جريجورى يتذبذب بين تأييد أحد الملكين ، ثم أعلن تأييده لرودلف ، وعرض فى مارس ١٠٨٠ على كل من يتطوع تحت راية رودلف أن يغفر له خطاياه .

جمع هنرى مجلساً من الأساقفة والأعيان ، وخلع جريجورى ، وأيد قرار الخلع مجلس من أساقفة ألمانيا وشمالى إيطاليا ، وسير جيشاً استولى على جزء كبير من روما ، فيه كنيسة القديس بطرس ، ففر جريجورى مع النورمانديين الذين جاءوا لإنقاذه ، واجتاحوا روما سلباً ونهباً .. وتم تعيين جيبير بابا باسم كليمنت الثالث فى ٢٤ مارس١٠٨٤ ، وتوج كليمنت هنرى إمبراطوراً ، وظل هنرى سيد روما عاماً كاملاً ، بينما مات جريجورى منفياً فى ٢٥ مايو ١٠٨٥ .

* * *

الحروب الصليبية ..

فشلت كل المجامع التى عقدت منذ مجمع نيقية أيام قسطنطين فى تحقيق مهامها ، إلا بمقدار ما تحدث فورة اللبن حين يغلى ، ومن ثم اتخذ البابوات من الحروب ـ كما هى عادة الملوك ـ وسيلة لإلهاء الشعب ، وإلى امتصاص غضبه ، وإلى استلاب قوته أيضاً ، وكما تقول الحكمة المشهورة (جَوِّع كلبك يتبعك) فإن الحروب أسرع وسائل التجويع ، وإنهاك القوى ، والإذلال ، وصهر جميع الطاقات فى بوتقة (النصر) المزعوم ، أو فى مقبرة (المجد) الموهوم .

ومن ثم كانت الحروب الصليبية أوسع بوتقة ، وأعمق مقبرة .

يوجز ويلز فى كتابه (معالم التاريخ الإنسانية ج ٣ ص ٨٨٢) الدواعى الأولى للحروب الصليبية فى :

١ ـ كانت هناك الخطة الهادئة المضبوطة التقدير التى رسمتها الكنيسة اللاتينية الطموحة لإخضاع الكنيسة البيزنطية الخاضعة للإمبراطور ، والحلول محلها .

٢ ـ كانت غريزة النهب التى لا حد لها لدى (النورماندبين) الذين كانوا يمزقون إيطاليا إرباً ، ويبعثرونها أشلاء ، وسرعان ما حوّلت وجهتها إلى عالم مغانم جديد أوفر ثراء .

٣ ـ كان يخيم على الجموع التى ولت وجهها شطر الشرق لون من الكراهية الناجمة عن الخوف التى أججتها دعوات الدعاة الخانقة والبالغة فى فظاعات وقساوات (الكفرة) .

٤ ـ كان السلاجقة والفاطميون (غير المتسامحين) عقبة كأداء فى سبيل تجارة جنوة والبندقية صوب الشرق ، فلم يكن بد من فتح هذه المسالك المغلقة (طريق بغداد وحلب ومصر) عنوة .

٥ ـ حدث فى (١٠٩٤ ـ ١٠٩٥) وباء ومجاعة امتدا من نهر الشلت (Scheldt) إلى بوهيميا ، وترتب عليهما خلل اجتماعى بليغ .. يقول المستر أرنست باركر : (لا عجب إذن أن ينطلق نحو الشرق تيار من الهجرة شأن ما يحدث فى الأزمنة الحديثة ، من انسياب الناس نحو منطقة الذهب حديثة الكشف) .

هذا ، مع ملاحظة أن التاريخ يهتم بتدوين الظواهر والأعراض أكثر من التيارات التحتية ، لأنها الأدلة المادية التي يسهل الإمساك بها .

* دعا البابا سلفستر الثاني العالم المسيحي لإنقاذ بيت المقدس ، ونزلت حملة مخففة في بلاد الشام حوالي سنة ١٠٠١ ، ولم يمنع النزاع المرير القائم بين جريجوري السابع وهنري الرابع البابا من أن يقول بأعلى صوت : (إن تعريض حياتي للخطر في سبيل تخليص الأماكن المقدسة لأفضل عندي من حكم العالم كله) .

وقام بطرس الناسك يدعو للحروب الصليبية بين العامة ، كان يقص عليهم ـ إن صدقاً وإن كذباً ـ قصة حجه إلى بيت المقدس ، ويحدثهم عن التدمير المنطوي على الاستهانة البالغة ، الذي أنزله السلاجقة بالقبر المقدس الذي استولوا عليه في زمن قريب ، ويحدثهم عن ضروب الغصب والابتزاز الجائر ، والفظائع الوحشية ، والقساوات المتعمدة التي ينزلونها بالحجاج المسيحيين .

طوف هذا الرجل حافي القدمين ، في ثياب خشنة ، ممتطياً حماراً ، حاملاً صليباً ضخماً ، أنحاء فرنسا وألمانيا ، يخطب في كل مكان ، مستثيراً جماهير حاشدة في كنيسة أو سوق أو ميدان .

وأخذ البابا سلفستر الثاني يطوف بشمالي إيطاليا وجنوبي فرنسا ، يستطلع طلع الزعماء ، ويضمن المعونة لما هو مقدم عليه ، ومن خطبه :

(يا شعب الفرنجة ، شعب الله المختار المحبوب ، إن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله ـ يقصد المسلمين ـ قد طغى وبغى في تلك البلاد ، بلاد المسيحيين ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب، وبالحرائق .. فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ، ربنا ومنقذنا ، الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التي لوثت ودنست) .

وظل البابا النشيط يتنقل بين المدن ، يخطب فيها ، ويأخذ على عاتقه أن يحل جميع الصليبيين من جميع القيود التي تعوقهم عن الانضمام إلى المقاتلين ، ولم يلق في عمله هذا مقاومة جدية ، فحرر رقيق الأرض ، وحرر التابع الإقطاعي ـ طول مدة الحرب ـ مما عليه من الولاء لسيده ، ومنح الصليبيين جميعاً ميزة المحاكم الكنسية ، لا المحاكم الإقطاعية ، وضمن لهم مدة غيابهم حماية الكنيسة لأملاكهم .

الحرب الصليبية الأولى (١٠٩٥ ـ ١٠٩٩) :

انضوت جماعات غفيرة تحت لواء الحرب ، مدفوعة إلى هذا بمغريات جمة ، منها : أن كل من يخر صريعاً تغفر له كل ذنوبه ، وأذن لأرقاء الأرض أن يغادروا الأراضى التى ارتبطوا بها ، وأعفى سكان المدن من الضرائب ، وأجلت ديون المدينين.

وتوسع البابا فى سلطانه ، فأطلق سراح المسجونين ، وخفف أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم بها ، إذا خدموا طوال حياتهم فى فلسطين .

وكانت أول القوات التى سارت شرقاً جماهير غفيرة من أناس غير منظمين غير مؤهلين للقتال ، حاولوا أن يتخذوا من وادى الدانوب طريقاً ، ثم ينحرفوا جنوباً إلى القسطنطينية .. فلما صاروا بين ظهرانى الأجانب لم يبد عليهم أنهم ضلوا الطريق إلى بلاد (الكفرة) فارتكبت جماعتان من الغوغاء ، هما مقدمة الحملة ، من ضروب التجاوز ما أثار المجريين للقضاء عليهم ، فأعملوا فيهم السيف ذبحاً وتقتيلاً ، وأخذ حشد ثالث فى عمل مذبحة كبيرة بين يهود أرض الراين ، ثم تمزق ذلك الجمع أيضاً فى بلاد المجر ، واخترق حشدان آخران أوروبا ـ بقيادة بطرس الناسك ـ ووصلا إلى القسطنطينية ، ودأبوا على طول الطريق ينهبون وينتهكون الحرمات ، فحملهم الإمبراطور أليكسيوس بالسفن عبر البسفور ، وهناك ذبحهم السلاجقة على بكرة أبيهم سنة ١٠٩٦ .

ثم جاء دور القوات المنظمة سنة ١٠٩٧ المخصصة للحملة الصليبية الأولى ، جاءت من فرنسا ونورماندى وفلاندرز وانجلترا وجنوب إيطاليا وصقلية ، وكان النورمانديون عصب الحملة ، فعبروا البسفور ، واستولوا على نيقيا التى اختطفها أليكسيوس منهم قبل أن ينهبوها .

ثم واصلوا مسيرهم على نفس طريق الإسكندر الأكبر ، مخترقين البوابة القيليقية ، تاركين الأتراك فى قونية غير مهزمين ، مجتازين ميدان معركة إيسوس ، مواصلين السير إلى أنطاكية التى استولوا عليها ، بعد حصار قارب العام ، ثم هزموا جيشاً جاء من الموصل لنجدتها .

وظل قسم كبير من الصليبيين فى أنطاكية ، وأخذ ثلاثون ألفاً طريقهم إلى فلسطين .

وبعد حروب دامت ثلاث سنوات ، وقف اثنا عشر ألفاً فى يونية سنة ١٠٩٩ أمام أسوار أورشليم ، تستبد بهم البهجة والإنهاك .

وفي الخامس عشر من يولية تسلقوا أسوار المدينة ، وتم لهم النصر على حامية من ألف رجل ، فكان أن قطعت رءوس عدد كبير من المسلمين ، وقتل غيرهم رمياً بالسهام ، أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم يعذبون عدة أيام ، ثم أحرقوا في النار .. وكان النساء يقتلن بالسيوف والحراب ، والأطفال الرضع يختطفون من ثدى أمهاتهم ، ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تهشم رءوسهم بدقها بالعمد ، وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا في المدينة، أما اليهود الذين بقوا أحياء ، فقد سيقوا إلى كنيس ، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء ـ قصة الحضارة مج ٤ ج ٤ ص ٢٥/١٤ .

وفي سنة ١١٠١ وصلت الأمداد بفضل الأساطيل التجارية لكل من البندقية وجنوة ، مما ساعد على امتداد سلطان مملكة بيت المقدس .

الحرب الصليبية الثانية (١١٤٦ ـ ١١٤٨) :

كان خليفة بغداد عاجزاً عن تلبية نداء الجماهير الساخطة على غزو فلسطين ، لكن عماد الدين زنكى أمير الموصل الذى ولد عبداً رقيقاً لبى الدعوة ، وزحف بجيشه الحسن القيادة في عام ١١٤٤ ، وانتزع من المسيحيين المعقل الشرقي ، وبعد أشهر استعاد الرها ، وضمها إلى حظيرة الإسلام ، واغتيل زنكى ، وخلفه ابنه نور الدين الذى كان يماثله في شجاعته ، ويفوقه في قدرته ، وكانت أخبار هذه الحوادث هي التي أثارت أوربا ، ودفعتها إلى الحرب الصليبية الثانية .

استغاث القديس برنار بالبابا يوجينوس الثالث ، لينادى مرة أخرى بحمل السلاح ، وكان يوجينوس وقتئذ في صراع مع الخارجين على الدين في روما نفسها ، فطلب إلى برنار أن يتولى بنفسه الدعوة .

اتخذ برنار سبيله إلى الملك لويس السابع ، وأقنعه بأن يحمل الصليب .

واستطاع بحماسته وفصاحته أن يقنع الإمبراطور كونراد الثاني بأن الحرب الصليبية هي القضية الوحيدة التي يستطاع بها توحيد البلاد التي مزقتها الحزبية .. وانضم كثير من النبلاء إلى كونراد .

وأخذ جيش كونراد الألماني طريقه في عيد الفصح سنة ١١٤٧ .

ووصل لويس إلى بيت المقدس ، ومعه النساء ، وليس معه جيش ، كما وصل إليها كونراد بفلول جيش مزقه المسلمون والجوع وسوء الرعاية الصحية والإنهاك في الطريق .

حشد الملكان من هذه الفلول وممن كان فى القدس من الجنود جيشاً مرتجلاً، وزحفا به على دمشق ، ونشب النزاع – أثناء الحصار – بين النبلاء على الطائفة التى تحكم المدينة بعد سقوطها .

ولما ترامت الأنباء ، بأن أميرى حلب والموصل يزحفان بجيش كبير انقسم الجيش الصليبى إلى جماعات فرت إلى أنطاكية أو عكا أو بيت المقدس ، وهزم كونراد ، وأصيب بالمرض ، ورجع مسربلاً بالعار إلى ألمانيا ، وعاد معظم الفرسان الفرنسيين ، وبقى لويس فى فلسطين عاماً آخر يحج فيه إلى الأضرحة المقدسة .

وشرع النقاد يهاجمون القديس برنار ، ويصفونه بأنه خيالى متهور .

وفى هـذا الحين نشأت حضارة جـديدة عجيبة – كما يقول ديورانت مج ٤ ج ٤ ص ٣٤ – فى سوريا وفلسطين المسيحيتين ، ذلك أن الأوربيين الذين استوطنوا هـذين البلدين ، منذ سنة ١٠٩٩ ، قد تزيوا شيئاً فشيئاً بالزى الشرقى ، فلبسوا العمامة والقفطان اللذين يوائمان المناخ ، وزاد اتصـالهم بمن يعيشون فى تلك البـلاد من المسلمين ، فقل ما بينهما من تنافر ، وصار التجار المسلمون يدخلون الأراضى المسيحية ، والأطباء المسلمون واليهود يعالجون مرضى المسيحيين ، وجعل كلا الفريقين يؤدى شعائره بكامل الحرية ، وأمن المسافرون فى تنقلاتهم ، وتزوج الصليبيون من المسيحيات السوريات ، وأصبحت اللغة العربية وسيلة التخاطب لعامة السكان وتبادل الأمراء المسلمون والمسيحيون العون ضد منافسيهم من أبناء ملتهم ، ونمت صلات المودة الشخصية بين الطرفين .

الحرب الصليبية الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢) :

كان احتفاظ المسيحيين بمدائن صور وأنطاكية وطرابلس قد ترك فى قلوبهم أثارة من الأمل ، وكانت الأساطيل الإيطالية لا تزال تسيطر على مياه البحر المتوسط ، متأهبة لنقل الصليبيين إذا أدوا لها أجرها .

ذهب وليم كبير أساقفة صور إلى أوربا يستثير حمية المغامرين ، وتأثر بدعوته فردريك باربا روسا الإمبراطور الألمانى ، وهو فى السادسة والسبعين من عمره ، وزحف بجيشه سنة ١١٨٩ وخلع عليه العالم المسيحى اسم موسى الثانى الذى سيشق الطريق إلى الأرض الموعودة ، لكن المسلمين تخاطفوا جنوده ، فغرق هو فى نهر سالف الصغير بقلقيلية سنة ١١٩٠ ، ولم ينج من جيشه إلا قليل انضموا إلى حصار عكا .. ثم أصيب فيليب أغسطس

بالحمى ، فعاد إلى فرنسا ، وترك وراءه قوة مؤلفة من عشرة آلاف رجل ، وأصبح ريتشارد (قلب الأسد) القائد الوحيد للحملة الصليبية الثالثة ، وكان ـ كما قال جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) ـ أول ما بدأ به أنه قتل ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم له ، بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم ، ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب مما أثار صلاح الدين الأيوبى النبيل الذى رحم نصارى القدس فلم يمسهم بأذى ، بل بذل الأمان للصليبيين ـ كما قال بورجا صاحب (تاريخ الحروب الصليبية) ـ ووفى لهم بجميع عهوده ، وجاد المسلمون على أعدائهم ، ووطئوهم مهاد رأفتهم ، حتى إن الملك العادل ـ شقيق السلطان ـ أطلق سراح ألف أسير ، ومن على جميع الأرمن ، وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة ، وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن ، وأمد صلاح الدين قلب الأسد بالمرطبات والأدوية والأزواد أثناء مرضه .. وبهذا استطاع أن يروض كبرياءه ، ويزيف آماله، فمات سنة ١١٩٣ ولم يتجاوز الخامسة والخمسين .

الحرب الصليبية الرابعة (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤) :

كان غرق بارباروسا ، وفرار فيليب أغسطس ، وإخفاق ريتشارد، ودسائس الفرسان المسيحيين فى الأرض المقدسة ، والنزاع الذى جَدّ بين فرسان المستشفى وفرسان المعبد ، وتجدد الحرب بين انجلترا وفرنسا ، كل هذا حطم كبرياء أوروبا ، وأذلها ، وأضعف ثقة العالم المسيحى .. لكن موت صلاح الدين ، وانقسام دولته من بعده ، بعث الآمال من جديد فى العالم المسيحى .. ولم يكد إنوسنت الثالث يجلس على عرش البابوية (١١٩٨ ـ ١٢١٦) حتى أخذ يطالب بحملة جديدة ، وقال إن حملة توجه إلى مصر مقدر لها الفوز بفضل سيطرة الإيطاليين على البحر المتوسط ، ثم تتخذ مصر الغنية الخصبة قاعدة للزحف على بيت المقدس .

وتجمعت الجيوش الجديدة فى مدينة البندقية ، صيف ١٢٠٢ ، لكن مدينة القسطنطينية الغنية أثارت النهم ، فأتوا فيها بضروب من السلب والنهب ، ما لم تشهده روما على أيدى الوندال أو القوط ، واستولوا على كل ماراقهم فيها من قصور ، وكنوز فى البيوت والكنائس .. وعاد معظم الصليبيين مثقلين بالغنائم ، وأقام بعضهم فى الممتلكات الجديدة ، ولم يصل منهم إلى فلسطين إلا حفنة قليلة لم تعمل عملاً ما .

إخفاق الحملات الصليبية ما بين (١٢١١ ـ ١٢٩١) :

في سنة ١٢١٢ قام شاب ألماني ، يدعى نقولاس ، بإعلان أن الله قد أمره أن يقود إلى الأرض المقدسة حملة صليبية مؤلفة من الأطفال ، وبرغم معارضة الكثيرين خرج في حشد من ثلاثين ألف طفل ، ما لبثوا أن تناوشتهم الذئاب واللصوص والجوع والصقيع ، ولم تجد البقية سفناً تنقلهم إلى فلسطين ، فقفل بعضهم راجعاً ، واستقر آخرون في جنوه يتعلمون أساليب التجارة .

وفي العام نفسه قدم إلى فيليب أغسطس راع في الثانية عشرة من عمره ، يدعى استيفن ، وقال إن المسيح ظهر له وهو يرعى غنمه ، وأمره أن يقود حملة من الأطفال إلى فلسطين ، فأمره الملك أن يعود إلى غنمه ، لكن عشرين ألفاً من الغلمان ساروا وراءه إلى مرسيليا ، وأقلتهم سبع سفن غرقت اثنتان بمن فيها ، وجيء بالباقين إلى تونس ومصر ، حيث بيعوا رقيقاً .

وبعد ثلاث سنين وجه إنوسنت الثالث دعوة أخرى لاستعادة الأرض المقدسة عن طريق مصر ، وأفلحت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة أندرو ملك المجر سنة ١٢١٧ في الوصول إلى دمياط التي سقطت بعد حصار دام عاماً كاملاً ، ثم ضغط عليهم الملك الكامل سلطان مصر وسوريا ، فجلا جميع الجنود الصليبيين عن أرض مصر ، بعد أن تأخر وصول النجدة بقيادة فردريك ملك ألمانيا الذي شغلته نزاعات داخلية من أن يبر بقسم اليمين الصليبي .. فلما كان عام ١٢٢٨ زحف فردريك الذي كان مطروداً من حظيرة الدين على رأس الحملة الصليبية السادسة ، ولما وصل إلى فلسطين لم يجد أية معونة ممن فيها من المسيحيين الصالحين ، وبعد محادثات ومجاملات مع الملك الكامل عقدت معاهدة سنة ١٢٢٩ تنازل فيها الملك الكامل عن كثير من المدن الفلسطينية في مقابل سلام يدوم عشر سنين وعشرة أشهر، وهكذا أفلح الإمبراطور الطريد فيما عجز عنه المسيحيون المقيمون في مائة عام كاملة .

ولما رجع فردريك إلى بلاده استولى المسيحيون المقيمون في فلسطين على بيت المقدس ، وعقدوا حلفاً بين القوة المسيحية في آسيا وبين أمير دمشق المسلم ، ضد سلطان مصر المسلم سنة ١٢٤٤ ، فاستنجد سلطان مصر بمسلمي خوارزم ، واستولوا على بيت المقدس ، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها .

وبعد شهرين هزم بيبرس المسيحيين في غزة ، وسقطت مدينة بيت المقدس مرة أخرى في أيدي المسلمين .

ثم نظم لويس التاسع ، أو القديس لويس ، ملك فرنسا ، الحملة الصليبية السابعة ، إذ لبس شارة الصليب بعد زمن قليل من سقوط بيت المقدس ، وسعى في إيقاف الصراع بين إنوسنت الرابع وفردريك الثانى ، حتى تلقى الحملة الصليبية تأييد أوروبا متحدة ، لكن إنوسنت رفض وساطته ، ثم سعى إلى تأييد المغول ضد المسلمين ، لكن خان المغول الأعظم طلب خضوع البلاد المسيحية للمغول ، فلما حل عام ١٢٤٨ سارت حملة لويس إلى دمياط ، واستولت عليها بعد قليل ، ثم ما لبث أن منى بهزيمة ساحقة عند المنصورة ، وتم أسر لويس مع عشرة آلاف من رجاله ، ثم قبل فداء الملك .

وثارت حمية لويس من جديد فى شيخوخته ، فلبس شارة الصليب سنة ١٢٦٧ ، وحذا حذوه أبناؤه الثلاثة ، لكن النبلاء الفرنسيين لم يوافقوه على خطته ، فنزل فى تونس ليحمل أميرها على اعتناق المسيحية ، ثم يأخذ طريقه إلى مصر، ولم تكد قدماه تطآن أرض أفريقيا حتى مات ، وهو يردد لفظ (بيت المقدس) سنة ١٢٧٠ .

وحلت بالمسيحية كارثة كبرى ، حين نهب بعض المغامرين قافلة للمسلمين فى بلاد الشام ، وشنقوا تسعة عشر من التجار المسلمين ، ونهبوا بعض البلاد الإسلامية ، فزحف السلطان خليل بن السلطان قلاوون على عكا ، أقوى المعاقل المسيحية ، واستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة وأربعين يوماً ، وتم قتل وأسر ستين ألفاً سنة ١٢٩١ ، وسرعان ما سقطت بقية المدن ، وهرب كثيرون من الصليبيين إلى جزيرة قبرص التى أصبحت ملجأ بقايا الصليبيين بالشرق .

وظل بعض المغامرين قرنين من الزمان يقدمون على محاولات غير مجدية ، حتى أيقنت أوروبا بنهاية الحروب الصليبية .

* ومن هنا كانت الحملات الصليبية بعد موت صلاح الدين ملهاة مأساوية على مستوى الفريقين ، إذ لم يكن مجال للقيم ، أو القدرات السياسية والعسكرية ، ولم يعد الأمر أن كانت عصابات مسيحية مسلحة ومساومات إسلامية قليلة الحيلة .

لقد ابتذلت فكرة الحروب الصليبية لكثرة ما استعملت ، وتفاهة ما استخدمت فيه ـ كما قال ويلز (معالم التاريخ الإنسانية ج ٣ ص ٨٩٠) ـ فكلما تنازع البابا مع شخص من الناس ، أو إذا شاء هو أن يضعف من قوة الإمبراطور الخطرة بتوجيه مجهوداته وراء البحار ، راح يدعو إلى حرب صليبية .

وبعد حروب قرنين من الزمان بقيت بيت المقدس في أيدى المماليك ، وقل عدد الحجاج المسيحيين إلى تلك المدينة ، وزادت مخاوفهم .

ضاعت هيبة أباطرة الغرب ، لعجزهم عن استرداد الأرض المقدسة ، ولنزاعهم مع البابوية التى أعلنت شأنها الحروب الصليبية .

وأعاد فرسان المعبد تنظيم صفوفهم فى فرنسا ، بعد أن أخرجوا من آسيا ، وإذ كانت لهم أملاك واسعة غنية فى جميع أنحاء أوروبا ، وإذ كانت أموالهم معفاة من الضرائب ، فقد صاروا يستثمرون أموالهم بالربا ، ويكونون قوة اقتصادية . ولما أثاروا غضب فيليب الجميل قبض على جميع من كان منهم فى فرنسا سنة ١٣١٠ ، واتهمهم أخلاقياً ودينيا ووطنياً ، فسجنوا وعذبوا أشد العذاب ، وصودرت أملاكهم ، وتم إلغاء نظام فرسان المعبد سنة ١٣١٢ .

وكان مندوبو البابا يدخلون كل قطر وأبروشية يحثون الناس على التطوع للحروب الصليبية ، ويجمعون لها الأموال ، ويبيعون صكوك الغفران ، حتى أصبح للأديرة ضياع واسعة ، ولما أن انحطت مكانة الكنيسة بسبب إخفاق الحروب الصليبية ، أضحت هذه الثروات هدفاً واضحاً لأطماع الملوك ، وغضب الشعب ، وثرثرة النقاد ، حتى قيل إن إخفاق الحروب الصليبية يدحض ادعاء البابا أنه نائب الله أو ممثله فى أرضه .

ومن نتائج الحروب الصليبية القضاء على احتكار اليهود للتجارة فى البضائع الشرقية خلال أوربا كلها ، وتحول هذه التجارة إلى أيدى المسيحيين .

* * *

آخر المد جَزْر ..

ظلت الكنيسة الرومانية صاحبة السلطة العليا في أوروبا ، من موت شارلمان سنة ٨١٤ إلى موت بنيفاس الثامن سنة ١٣٠٣ ، أى خمسة قرون تقريباً .

وخلال هذه الفترة كان الحرص على قيام دولة عالمية (كاثوليكية) ، مقرها عرش القديس بطرس (الفاتيكان) ، حيث يستطيع (الشعب) المسيحي ـ مهما يكن من ضيق عرش القديس بطرس ـ أن يتطلع منه بعين (قاربة) ، ومن ورائها أحقاب طوال .. وحيث تصدر قرارات أكثر قبولاً عند الناس في سلام ، وأيسر تنفيذاً ، عن طريق حبر من الأحبار ، يجله جميع سكان أوروبا الغربية ، ويرون أنه خليفة الله في أرضه .

كانت محاولة ليو الثالث مع شارلمان في مقدمة عرض هذا السلطان .

ولما جلس هنرى الثانى على عرش انجلترا سنة ١١٥٤ ، وتولى البابوية في العام نفسه إنجليزى باسم البابا هدريان الرابع (١١٥٤ ـ ١١٥٩) ، وكان من أسرة وضيعة في انجلترا ، بعث هنرى الثانى ـ بعد عام من تولية هدريان ـ جون السلزبرى إلى روما يرثى فيها حال أيرلنده ، من الفوضى السياسية ، والاضمحلال الأدبى ، والانحطاط الخلقى ، وعدم الاستقلال الدينى ، وسأل البابا أن يسمح له بالاستيلاء على هذه الجزيرة التى تسودها النزعة الفردية ، ويعيد إليها النظام الاجتماعى ، ويرغمها على طاعة البابا ، فأجابه البابا إلى طلبه ، وأصدر مرسوماً بابوياً يمنح فيه أيرلنده لهنرى ، مشترطاً عليه أن يعيد إليها الحكومة النظامية ، وأن يجعل رجال الدين الأيرلنديين أكثر تعاوناً مع روما ، وأن يفرض بنساً واحداً فى كل عام على كل بيت فى أيرلنده ، يؤدى إلى كرسى القديس بطرس .

وحين تولى إسكندر الثالث (١١٥٩ ـ ١١٨١) عرش البابوية ، أرغم هنرى الثانى على أن يسير حافى القدمين إلى قبر بكت (Becket) ، وأن يتلقى هناك درساً فى الطاعة من قساوسة كنتربرى .

وكان كفاح الإسكندر زمناً طويلاً هو الذى مهد السبيل أمام إنوسنت الثالث (١١٨١ ـ ١٢١٩) الذى انهمك فى توسيع سلطانه ، وإدارة أعماله ، حتى أنهك قواه ، وهو يقول : (ليس لدى متسع من الوقت أفكر فيه فى الشئون السماوية ، بل إنى قلما أجد وقتاً للتنفس) .

كان إنوسنت شديد الحرص على أبهة الاحتفالات البابوية وفخامتها ، ولم ينزل قط عن قلامة ظفر من جلال منصبه وعظمته .. كان قوى الإيمان بأنه هو وارث السلطات التى يعتقد الناس عامة أن المسيح وهبها للحواريين وللكنيسة ، وفى هذا يقول : (إن المسيح لم يترك لبطرس حكم الكنيسة كلها فحسب ، بل ترك حكم العالم بأجمعه) .. لهذا كان يصر على أنه إذا ما تعارضت السلطة الروحية مع السلطة الزمنية ، وجب أن تسمو السلطة الروحية على السلطة الزمنية ، كما تسمو الشمس على القمر ، وكان يستمسك بالمثل الأعلى الذى استمسك به جريجورى السابع ، وهو أن على الحكومات أن ترضى بأن يكون لها مكان فى دولة عالمية ، يتولى البابا رئاستها ، على أن تكون له الكلمة العليا فى جميع الشئون القضائية ، والأخلاقية ، والعقائد الوثنية .. ولهذا اندفع فى سلسلة من المغامرات والنزاعات الخطيرة انتهت بإرغام رؤساء الحكومات الأوروبية على الاعتراف بسيادته عليهم .

أما فردريك الأول (١١٥٢ ـ ١١٩٠) ، باربا روسا ، سيد السلام ، فقد أعاد إلى ألمانيا زعامة العالم المسيحى ، بما كان يتمتع به من عقل سديد ، وعزيمة ماضية ، ودماثة ، وتمسك بأهداب الفضيلة ، وحرص على خير الدولة ، فقضى على المنازعات والاضطرابات والجرائم ، وكان له دور فى الحروب الصليبية .

هذا الباربا روسا كان يتوق إلى أن يتوجه البابا إمبراطوراً فى مقابل أن يساعده على الرومان المتمردين، والنورمان الشاكسين .

وقدم الملك الشاب إلى نيبى (Nepi) القريبة من روما ، حيث التقى بالبابا الجديد ، هدريان الرابع ، وأغفل (الشعيرة المقدسة) ، القاضية بأن يمسك الحاكم الزمنى زمام جواد البابا ، وركابه ، ويساعده على النزول ، وبذلك نزل هدريان إلى الأرض بدون مساعدة ، فأبى على فردريك (قبلة السلام) ، وتاج الإمبراطورية ، إلا إذا أدى هذه الشعيرة .

جرت مناقشات بين أعوان الطرفين ، ثم خضع فردريك ، وأمسك بزمام جواد البابا وركابه ، وظل من ذلك الحين يتحدث عن الإمبراطورية الرومانية (المقدسة) راجياً من وراء هذا أن يعترف العالم بأن الإمبراطور والبابا هما النائبان عن الله فى الأرض ، فى حين كان البابا يسعى إلى أن يسلم الإمبراطور بحق البابوات فى أن يتصرفوا فى عروش الملوك .

ولا ريب فى أن باربا روسا وجد تعاطفاً ضد البابا بسبب سلوكه القويم ، وحرصه على خدمة بلاده ، وانتصاره للسلام ، ومن ثم خلع الشعب عليه من الصفات ما بلغ مبلغ

الأسطورة ، فقيل إنه لم يمت بحق ، كل مافى الأمر أنه كان نائماً فى جبال كيفهوزر ، وكان فى مقدور الناس أن يروا لحيته الطويلة تنمو ، مخترقة ما يغطيه من الرخام ، وسوف يستيقظ فى يوم ، وينفض الثرى عن كتفيه ، ويعيد إلى ألمانيا القوة والنظام، ولما أنشأ بسمارك دولة ألمانيا الموحدة ، قال هذا الشعب الفخور : إنه هو بارباروسا نهض ظافراً من قبره .

ومثل هذه الأسطورة لاتترجم شوق الشعب إلى مخلص من (عهود الضعف الألمانية) فحسب ، بل هى تعبير عن الهوان الذى أصاب أوروبا جميعاً ، بسبب من تسلط رجال الدين وجشعهم ، وتحالف النبلاء ورجال الإقطاع على استنزاف الطاقة البشرية لصالح كل من السلطتين الروحية والزمنية .

ولما خرج لويس التاسع إلى الحرب الصليبية سنة ١٢٤٨ اشتد هنرى الثالث ملك انجلترا فى مطالبه من فرنسا ، واستعد لغزوها ، فأنذر البابا إنوسنت الرابع (١٢٤٣ ـ ١٢٥٤) انجلترا بالحرمان ، إذا أصر هنرى على موقفه ، وكان أن نكص هنرى على عقبيه .

* كان فى وسع الكنيسة أن تستغل هذا النفوذ لخير الشعوب ، ورفع آصار الاستبداد الواقع بها ، لكنها تحالفت مع الأقوى ، واستعانت بالنبلاء والإقطاعيين لزيادة مكاسبها المادية ، مستهينة بكل قيمة ، حتى إنها راهنت دائماً على الحصان الأسود .

عرف المغول أنهم لا يستطيعون إخضاع روسيا بالقوة وحدها ، فاصطلحوا مع الكنيسة الروسية ، وحَمَوْا ، ممتلكاتها ورجالها ، وأعفوا هذه الممتلكات وهؤلاء الرجال من الضرائب وجعلوا الإعدام عقاباً لمن ينتهك حرماتها ، فدعت الكنيسة الله جهراً أن يهب المغول السلامة .

أراد آلاف من الروس أن يضمنوا لأنفسهم الأمن والسلام وسط عواصف الرعب فترهبوا .

وتوالت الهبات على المؤسسات الدينية ، حتى أثرت الكنيسة الروسية ثراء فاحشاً ، وسط الفقر الذى يسود البلاد ، ونمت روح الخضوع والاستسلام ، وتهيأ الأمر لاستبداد تسلط على البلاد قروناً ـ قصة الحضارة مج ٤ ج ٤ ص ١٦٠ .

من هنا كانت صيحة بييردوبوا (١٢٥٥ ـ ١٣١٢) فى رسالتين من رسائله (ملتمس مقدم من الشعب الفرنسى إلى الملك ـ فيليب ـ ضد البابا بنيفاس) سنة ١٢٩٤ .

عرض دوبرا آراء تكشف عن الثغرة الواسعة التى كانت تفصل ـ فى ذلك الوقت ـ عقلية رجال القانون عن عقلية رجال الكنيسة فى فرنسا ، وقال : إن الكنيسة يجب ألا تحبس عليها الأموال ، وأن تجرى عليها من الآن معونة مالية من الدولة ، ويجب أن تفصل الكنيسة الفرنسية عن روما ، وأن تجرد البابوية من جميع السلطات الزمنية ، وأن تكون الدولة صاحبة السلطة العليا ، كما طالب بأن يتاح للنساء جميع ما يتاح للرجال من فرص التعليم ، وأن يتساوين مع الرجال فى جميع الحقوق السياسية .

وجاء وليم الفاتح ونصب بلافرانك (Pla Franc) (١٠٦٦ ـ ١٠٨٧) كبيراً لأساقفة كانتربرى ، وكبيراً لوزراء الملك ، فوجد هذا النورماندى القدير المرن رجال الدين الأنجلو سكسون مولعين بالصيد ، ولعب النرد ، والزواج ، فاستبدل بهم قساوسة ، وأساقفة ، ورؤساء أديرة من النورمان ، ووضع دستوراً جديداً للأديرة ، ورفع مستوى رجال الدين الإنجليز أخلاقياً وعقلياً ، وأصدر وليم ـ بإيعاز منه ـ قراراً بفصل المحاكم الكنسية عن المحاكم المدنية ، وتعهد بأن تنفذ الدولة كل ما تحكم به المحاكم الكنسية من عقوبات ، وأمر بأن تجبى العشور من الشعب لمعونة الكنيسة ، وطلب ألا يذاع أو ينفذ قرار بابوى ، أو رسالة بابوية ، فى انجلترا ، بغير موافقته ، وألا يدخل انجلترا مبعوث من قبل البابا إلا بإذن ملكى .

وفى انجلترا كذلك اضطر الأشراف الملك جون (١١٩٩ ـ ١٢١٦) ـ وهو أخو رتشارد قلب الأسد ـ إلى توقيع العهد الأعظم (الماجنا كارتا) ، أشهر وثيقة فى التاريخ الإنجليزى سنة ١٢١٥ ، وجاء فيها : (إننا نمنح جميع الأحرار فى مملكتنا ، عنا وعن ورثتنا أبد الدهر ، جميع الحريات المدونة فيما بعد : لا يقبض على رجل حر ، أو يسجن ، أو ينزع ملكه ، أو يخرج من حماية القانون ، أو ينفى ، أو يؤذى بأى نوع من الإيذاء ـ إلا بناء عن محاكمة قانونية ، أمام أقرانه المساوين له فى المدينة .. يتمتع جميع التجار بحق الدخول فى انجلترا ، والإقامة فيها ، والمرور بها براً أو بحراً ، سالمين ، مؤمنين للشراء والبيع ، دون أن تفرض عليهم ضرائب غير عادلة) .

و (العهد الأعظم) أساس الحريات التى يتمتع بها العالم الناطق بالإنجليزية فى هذه الأيام ، برغم ما فيه من العيوب ، لأنه للإقطاع ، لا للديمقراطية ، إذ ينص على حقوق النبلاء ورجال الدين أكثر مما ينص على حقوق الشعب كله ، لكنه قرر عدم إطالة الحبس

بلا محاكمة ، كما أقر نظام المحلفين ، وأعطى البرلمان الناشيء سلطة على الملك ، اتخذتها الأمة ـ فيما بعد ـ سلاحاً لمقاومة الاستبداد ، والعمل على أن تكون الملكية دستورية مقيدة .

وكان أن سارع البابا إنوسنت الثالث ـ تأييداً للملك جون ـ فأعلن أن العهد باطل ، لا قيمة له ، ودعا جون ألا يخضع لشروطه ، كما دعا الأشراف ألا ينفذوها ، فلما رفض البارونات إطاعة أمر البابا أصد قراراً بحرمانهم هم وأهل لندن والثغور الخمسة .

وفى سنة ١٢٥١ ثار الفلاحون فى فرنسا وفلاندرز على ما كان من استبداد الملاك ، سواء أكانوا من رجال الدين أو من غيرهم ، وكانت حرب ثورية شبيهة بالحروب الصليبية ، قادها واعظ غير مرخص لقّب (بسيد بلاد المجر) ، وزحفوا من فلاندرز إلى باريس ، وانضم إليهم المتذمرون من الفلاحين والصعاليك فى المدن ، حتى بلغوا مائة ألف رجل أو يزيدون ، مسلحين بالهراوات والخناجر والفئوس والحراب والسيوف ، نددوا بفساد الحكم ، واستبداد الأغنياء بالفقراء ، ونفاق القساوسة والرهبان وشرههم ، وذبحوا من عارضهم من القساوسة ، ولما وصلوا إلى أورليان ذبحوا عشرات من رجال الدين وطلبة الجامعة ، لكن رجال الشرطة تغلبوا عليهم فى تلك المدينة ، وفى بوردو أعدم زعماؤهم ، وصيد الباقون أحياء كما تصاد الكلاب الضالة ، وفر بعضهم إلى انجلترا ، وقاموا فيها بفتنة بين الفلاحين ، سرعان ما أحيط بها .

وبهذا أخذت الأرض الأوروبية تتحرك بشدة إيذاناً بمخاض جديد .

* * *

ضراوة المادة ..

لما تركت الأسر الغنية والأرستقراطية الدين الوثنى ، واعتنقت المسيحية ، كان للكنيسة الرومانية نصيب متزايد من الثروة التى وردت إلى عاصمة الدولة الغربية ، ولشد ما دهش أميانوس حين وجد أن أسقف روما يعيش عيشة الأمراء فى قصر لاتران (Lateran) ، ويمشى فى المدينة بمظاهر الأبهة الإمبراطورية ، وازدانت المدينة وقتئذ بالكنائس الفخمة ، ونشأ فيها مجتمع دينى راق ، اختلط فيه رجال الدين الظرفاء اختلاطاً ممتعاً بالغانيات الموسرات ، وساعدوهن على أن يكتبن وصاياهن لصالح الكنيسة .

وكان كثيرون يودعون أموالهم أمانات فى الأديرة والكنائس ، وكانت الكنائس تقرض من أموالها الأفراد والهيئات ، إذ كانت بمثابة مصارف عقارية .

ومنذ سنة ١٠٧٠ والكنيسة تقرض الملاك نظير حصة من ريع الأرض ، وتحصل على رهون تضمن ماتقدمه من قروض .. وكان ديرسانت أندريه فى فرنسا يقوم بعمل مصرفى ، يستأجر المرابين اليهود ليؤدوا له عملياته المالية ، وكان رهبان المعبد يقرضون المال بفوائد للملوك ، والأمراء والأشراف ، والفرسان ، والكنائس والمطارنة .

هذا ، مع أن الربا وجد من يحرمه خلال التراث المسيحى الطويل .

هاجم السيد المسيح الأغنياء ، والصيارفة ، وعارض آباء الكنيسة الأول الأعمال التجارية والربا فى روما .

وحرمت مجامع نيقية ٣٢٥ ، وأورلبان ٥٣٨ ، وماسون وكليشى ٦٢٦ ــ على رجال الدين أن يقرضوا المال بفوائد ، وتوسعت قوانين شارلمان سنة ٧٨٩ ، ومجالس الكنيسة التى عقدت فى القرن التاسع ــ فى هذا التحريم ، حتى شمل غير رجال الدين ، فلما عاد القانون الرومانى إلى الوجود فى القرن الثانى عشر ، شجعت عودته (الشراح) فى بولونيا على الدفاع عن الربا ، وأيدوا حججهم بما جاء فى قانون جستنيان ، ولكن مجلس لاتران الثالث سنة ١١٧٩ جدد التحريم ، وقرر أن (الذين يجهرون بالربا لا يقبلون فى العشاء الربانى وإذا ماتوا ــ وهم على إثمهم ــ لا يدفنون فى مدافن المسيحيين ، وليس لقسيس أن يقبل صدقاتهم) .

لكن إنوسنت الثالث أشار سنة ١٢٠٦ بأن (يعهد ببائنة الزوجة ــ فى بعض

الحالات ـ إلى تاجر من التجار ، لكى تحصل منها على دخل ، بطريق الكسب الشريف) ، غير أن جريجورى التاسع عاد إلى القول بأن (الرباهو كل ما يناله الإنسان من كسب نظير قرض) وظل هذا الرأى قانون الكنيسة الرومانية حتى سنة ١٩١٧ ، ومع هذا شكا البابا ألكسندر الثالث سنة ١١٦٣ من أن (كثيرين من رجال الدين ـ وبخاصة في الأديرة ـ يقرضون المال لمن هم في حاجة إليه ، ويرتهنون أملاكهم ضماناً له ، ثم يحصلون على ثمار هذه الأملاك المرتهنة ، مضافة إلى رأس المال المقرض ، وإن كانوا يحجمون عن الربا المألوف ، لأنه محرم تحريماً صريحاً) .

وجهر إنوسنت الثالث سنة ١٢٠٨ بأنه لو طرد جميع المرابين من الكنيسة ـ كما يتطلب ذلك القانون الكنسي ـ لوجب إغلاق الكنائس جميعها .

واضطرت الكنيسة إلى أن تكيف نفسها وفق الظروف الواقعية ، فقدم القديس توماس أكويناس سنة ١٢٥٠ بمبدأ كهنوتى جديد ، قال فيه : (إن من يستثمر ماله فى مشروع تجارى يحق له شرعاً أن ينال نصيباً من ربحه ، إذا شارك فعلا فى التعرض للخسارة) ، وفسرت الخسارة بأنها تشمل التأخر فى أداء الدين عن تاريخ معين مشروط ، وارتضى القديس بونا فنتورا والبابا إنوسنت الرابع هذا المبدأ ، وتوسعا فيه ، حتى قالا بشرعية أداء عوض للدائن نظير ما يصيبه من الخسارة ، لعدم انتفاعه برأس ماله .. وأقر البابا مارتن الخامس سنة ١٤٢٥ شرعية بيع الريع ، ثم ألغت معظم الدول الأوروبية بعد سنة ١٤٠٠ ما وضعته من القوانين لتحريم الربا ، ولم يكن تحريم الكنيسة إلا كلاماً مهملاً يتفق الناس جميعاً على إغفاله ـ قصة الحضارة مج ٤ ج ٤ ص ١٠٤/١٠٨ .

* من أجل هذا وغيره من صور الفساد ، هاجم القديس جيروم (٣٤٠ ـ ٤١٠) القساوسة الرومان الذين كان فى مقدورهم أن يرفعوه بتأييدهم إلى كرسى البابوية ، وسخر من القسيسين الذين يجرون وراء الوصايا ، ويستيقظون قبل طلوع الفجر ليزوروا النساء قبل أن يقمن من فراشهن ، وندد بزواج القساوسة ، وبشذوذهم الجنسى ـ قصة الحضارة مج٤ ج ١ ص ١٠٩ .

وكتب جيروم (الحكيم المبجل صاحب الاسم المقدس) يقول : (الكهنة الذين ينجحون فى الوصول إلى بيوت الأرستقراطيين ، ويخدعون النساء الغريرات ، الذين يسعون للرسامة لمجرد أن يشاهدوا النساء بحرية أكثر ـ لا يفكرون فى شيء سوى ملابسهم ، يتعطرون ، ويصقلون أحذيتهم، يجعدون شعورهم ، وتلمع أصابعهم بالخواتم ، إنهم عرسان

أكثر منهم إكليروس ، داماسوس نفسه ـ البابا الذى كان جيروم سكرتيراً له ـ كان معروفاً بأنه الرجل الذى دغدغ آذان السيدات) .

ووصف التدرج غير الطبيعى فى وظائف الكنيسة ، والفساد الذى عشش فى أكنافها ، بقوله :

(من كان بالأمس طالباً تحت التمرين هو اليوم أسقف ، وآخر يتنقل أثناء الليل من مدرج الملهى إلى الكنيسة ، وإنسان قضى الليل فى السيرك يقف أمام المذبح صباح اليوم التالى ، وآخر كان من وقت قريب من أنصار المسارح هو الآن مكرس العذارى فى الكنيسة ، والمهتم برعايتهن) ـ تاريخ الكنيسة ج ٣ ص ١٣٦ .

وحاول أميانوس المؤرخ الوثنى أن يكون منصفاً مع المسيحية ، لكنه صدم لما علم أن ١٣٧ جثة وجدت فى كنيسة مسيحية بعد المعركة الانتخابية بين الشخصين المتنازعين على البابوية : داما سيوس ويورسينوس ، وكتب أن أساقفة روما (لا يشكون من متاعب مالية ، يغتنون من تقدمات النساء المتزوجات ، يركبون العربات ، ويلبسون أفخر الثياب ، ويتبذخون فى الأعياد ، ولائمهم أفخر من ولائم الملوك) .

وعندما استقال غريغوريوس النازينزى من منصبه أسقفاً للقسطنطينية ، قال : (لم أكن أدرى أننا يجب أن ننافس القناصل والحكام ، والقادة المشهورين ، أو أن بطوننا كان يجب أن تشتهى طعام الفقراء ، وننفق ضرورياتهم على التنعم ، ونتجشأ فوق المذابح ، لم أكن أعلم أنه يلزم أن نمتطى الخيول الجميلة ، ونسافر فى عربات فاخرة ، بالمواكب أمامنا ، والكل يهتف ويفسح لنا الطريق ، كما لو كنا حيوانات برية ، وإننى لآسف لهذا الحرمان ، وعلى الأقل لقد انتهت هذه الأمور بالنسبة لى) ـ تاريخ الكنيسة ج ٣ ص ١٣٧ .

* * إذا كان طريق الشر عادة يبدأ بخطوة ، فإن طريق رجال الدين يبدأ بمنزلق لا يكلفهم أكثر من الجلوس عند بدايته العليا ، ثم يتركون أنفسهم ، فإذا الهاوية أقرب ما تكون .

أطلق ثيوفيلوس الأول إمبراطور الشرق (٨٢٩ ـ ٨٤٢) العنان لذوقه الغريب الشاذ ، وافتتانه بالعظمة إلى أقصى حدود الافتتان ، فى قصره بمجنورا (Magnaura) ، فقد كانت تشرف على العرش شجرة ذهبية تجثم على غصونها وعلى العرش نفسه طيور من الذهب ، وترقد على جانبى المقعد الملكى حيوانات خرافية مجنحة ذهبية ، وعلى الأرض آساد أقدامها

تحت قدميـه ، فإذا ما مثل بين يديه سفير أجنبى قامت الحيوانات الخرافية ، ووقفت الآساد الذهبية ، وهزت أذيالها وزأرت ، وغنت الطيور أغانى آلية .

يقول ول ديوات (قصة الحضارة مج ٤ ج ٣ ص ١٨٣) ، وكانت هذه السخافات كلها صوراً مطابقة من مثيلاتها التى كانت فى قصر هارون الرشيد ببغداد .. ولعل ول ديورانت تأثر بما جاء فى ألف ليلة وليلة ، لأن التاريخ لم يتحدث عن النوافير المزخرفة إلا فى عهد المتوكل ، أما الشجرة الذهبية فقدذكرت فى عهد المقتدر ، ومهما يكن من شيء فعصر هارون لم يخل من فساد ، ومن فساد كبير أيضاً .

وما فعله ثيوفيلوس وغيره كان مشجعاً رجال الدين على القفز من فوق جميع الأسوار ، وليس (الانزلاق) فقط ، لأنه إذا كان الدين يمكن أن يخيف أبناء الدنيا ، فإنه يعد أهم أسلحة رجال الدين فى استباحة الموبقات ، لأنهم بعد أن أطالوا عشرته ، ألفوه وروضوه ، ثم ركبوا ظهره .

وإذا كانت تقوى الأباطرة والأثرياء سبباً فى اتساع الأديرة ، وكثرة عددها ، بما كان يهب هؤلاء وأولاء لهـا من الهبات فى أثناء حيـاتهم ، ويوصون لها به من المال والعقار بعد وفاتهم .

وإذا كانت إخافة الرجال والنساء ــ من أعلى الطبقات ــ بنُذر الموت ، تدفعهم إلى الأديرة ، يسترضون ربهم بما يقدمون من ثروات تعفى بعد ذلك من الضرائب ، وقد ينزلون عن أملاكهم ، مقابل راتب سنوى .

وإذا كانت أديرة كثيرة ادعت أن بها مخلفات القديسين الأجلاء ، وأن لها السيطرة على ما لهذه المخلفات من قدرة على فعل المعجزات ، ومن هذه المعجزات القدرة على استثمار المال ليدر أرباحاً طائلة .

إذا كان هذا كله فإن (القانون لا يحمى المغفلين) ، ومن حق المهرة القادرين على أن (يشذبوا) الأغصان التالفة ، والنتوءات (الضارة) ، ليسمدوا بها (أرض الله) ، ويستنبتوا حدائق ذات بهجة ، تزخر بالحور والقيان ، وتلهج بالتراتيل الدينية ، وبأحدث الحفلات الموسيقية !!.

وكان الظن أن هذا الجو (الروحانى) الجميل يساعد على ترويض الغرائز ، وتهذيب النفوس ، وترقيق المشاعر، لكن نجد أن هذا الترف الفاحش لم يكن إلا وجهاً من وجوه الفساد منقوشاً على أحد جدران (الفاتيكان) العظيم !!.

وصدق من قال : (لو كان لابن آدم واديان من ذهب وفضة لابتغى ثالثاً) .

* كان مصدر إيراد الكنيسة الأساسى هـو أراضيها التى حصلت عليها بالهبة أو الوصية ، وبالبيع أو إغلاق الرهن ، أو بإصلاح الأراضى البور بأيدى الرهبان أو غيرها من الجماعات الدينية ، وكان ينتظر من كل مالك ـ حسب السنن الإقطاعية ـ أن يوصى حين مماته بجزء من ماله للكنيسة ، وكان الذين لا يفعلون هذا يرتاب فى صدق إيمانهم ، ويتعرضون لعدم الدفن فى الأراضى المخصصة للموتى الصالحين .

ومن هذا الطريق حصلت الكنيسة على كثير من الأراضى ، حتى صارت أملاك كنيسة روما ـ كما يقول صاحب (مواقف من تاريخ الكنيسة ص ١٠١/٦٣) ـ ألفاً وثمانمائة ميل مربع فى أرض لم تقع تحت يد البرابرة ، وقد أشرف البابا على إدارة هذه المزارع الواسعة بتشغيل كتبة يشرفون على الحسابات وبجهود عبيد يفلحون الأرض ، آلوا إلى الكنيسة من السادة الذين وهبوا الأرض .

وحرصاً على مزيد من الثروة ، أصدر البابا إسكندر الثالث سنة ١١٧٠ قراراً يحرم على أى إنسان عمل وصية صحيحة من الوجهة القانونية إلا فى حضرة قسيس ، وينص على أن كل موثق من غير رجال الدين يجرؤ على كتابة وصية ـ بغير هذا الشرط ـ يطرد من حظيرة الدين ، وكانت الكنيسة وحدها هى المختصة بإثبات صحة الوصايا وكانت الهبات أو الوصايا لكنيسة ما ـ فى نظر الناس ـ هى أول الطريق الموثوق به للنجاة من المطهر .

وكانت بعض الأديرة تجامل المحسنين إليها ، فتمنحهم نصيباً من تخفيف عـذاب المطهر ، وهو التخفيف الذى ناله الرهبان ، بفضل صلواتهم وصالح أعمالهم ، ولم يكتف الصليبيون ببيع أراضيهم للكنيسة بأثمان بخسة ، ليحصلوا على ما يحتاجون من المال ، بل إنهم استدانوا من الهيئات الكنسية بضمان أراضيهم أو برهنها .. ومن الناس من ورثتهم الكنيسة لعدم وجود ورثة لهم .. ولقد حاولت (ما تلدا) دوقة تسكانيا أن توصى للكنيسة بما يبلغ ربع مساحة إيطاليا كلها ، ولما أراد أمراء إيطاليا الاستيلاء على أرض الكنيسة جند البابا يوحنا الثالث والعشرين جيشاً لمحاربتهم .

وإذ كانت أملاك الكنيسة لا تنتقـل إلى غيـرها ، وكانت معفـاة مـن الضـرائب (الزمنية) حتى سنة ١٢٠٠ ، فقد أخذت هذه الأملاك تنمو باطراد ، ومن ثم كان أمراً مألوفاً أن يمتلك أحد الأديرة عدة آلاف من الضيـاع ، بما تشمله من نحو اثنتى عشرة

بلدة ، بل تشمل أحياناً مدينة كبرى أو اثنتين ، فقد كان أسقف (لانجر) مثلاً يملك المقاطعة كلها ، وكان دير القديس مارتن في (تور) بحكم عشرين ألفاً من أرقاء الأرض ، وكان أسقف بولونيا يمتلك ألفي ضيعة ، وكان لدير (لاس هو لجاس) في أسبانيا أربع وستون بلدة ، وكانت الكنيسة في قشتالة تمتلك سنة ١٢٠٠ ربع الأراضي الزراعية ، وكانت الكنيسة الإنجليزية تمتلك خمس أراضي انجلترا ، وتمتلك الكنيسة في كل من فرنسا وألمانيا نصف أراضي الدولة ، وكذلك في لتوانيا .

وفرض البابوات على كل أسقف ـ في أول اختياره لمنصبه ـ ضريبة تعادل من الوجهة النظرية جميع إيراده في السنة الأولى ، وكان الشأن نفسه مع رؤساء الأساقفة ، أما كل مطران يتولى أبروشية فإنه يدفع مرتب السنوات الخمس الأولى للبابا [١] .

وكان كل بيت مسيحي يرسل إلى الكرسي البابوي بنساً سنوياً .

وكان ثمة رسوم على القضايا التي تعرض على المحاكم البابوية .

وتقاضت الكنيسة رسوماً على المعمودية والزواج والجنازات .

وكان البابوات يدعون لأنفسهم حق الخروج على القانون الكنسي ، ويتقاضون عن هذا الطريق أموالاً طائلة ، بسبب تحريم الحلال ، وإحلال الحرام ، لصالح ذوي النفوذ والسلطان .

وقد حسب دخل الكرسي البابوي سنة ١٢٥٠ فكان أكثر من دخل رؤساء الدول الأوروبية جميعاً .

وقد تلقى البابا سنة ١٢٥٢ من انجلترا ثلاثة أمثال إيراد التاج .

ولما مات البطريرك أليكسيس : (١٠٢٨ ـ ١٠٥٠) وجد في حجراته مخبأً يحتوي مائة ألف رطل من الفضة ـ قصة الحضارة مج ٤ ج ٥ ص ٦٨ ومج٧ ج ٢ ص ١٧١ .

ويقول صاحب (فتح العرب لمصر ص ٤٥ ـ ٦٠) : إن الكنيسة كانت تملك أسطولاً من السفن التجارية ، وقيل إن إحدى تلك السفن ساقتها الريح عن طريقها ، وكان عليها عشرون ألف مدّ من القمح ، فبلغت السفينة سواحل بريطانيا ، وكان بها قحط شديد ، ثم عادت من هناك تحمل القصدير ، فباعه الربان في (بنطابولس) .

---

(١) يهوّن هذا ما تفعله مكاتب (التسفير) إلى البلاد العربية ، ونظام (الكفالة) داخل بلاد الخليج .

وذكر أن جمعاً من السفن يبلغ ثلاث عشرة سفينة تحمل كل منها عشرة آلاف مُدّ من القمح ـ ذهب كل ما فيها ضياعاً في البحر الأدرياتي ، أثناء عاصفة ، وكانت كلها ملكاً للكنيسة ، وتحمل عدا القمح حمولة أخرى من الفضة والمنسوجات الدقيقة ، وسوى ذلك من ثمين المتاع .

ولا يمكن أن يشك أحد في أن الكنيسة كان لها قسط من تجارة القمح العظيمة التي كانت رائجة بين الإسكندرية والقسطنطينية ، وكان جستنيان قد أعاد لها نظامها ورواجها .

وكان للكنيسة فوق ربح هذه التجارة ، وفوق ما كان الناس يهبونها طائعين مختارين أوقافٌ من أرض الزراعة تؤتي أموالاً عظيمة .

بذل (حنا الرحوم) مطران الإسكندرية ـ في سبيل إعادة الكنائس في بيت المقدس إلى سابق عهدها ، بعد تخريب القدس ـ ما يقال إنه بلغ ألف عدل من القمح والخضر ، وألف بغل ، وألف سفينة من السمك المملح ، وألف خابية من الخمر ، وألف رطل من الحديد ، وألف صانع .

وقد كتب (حنا) إلى (مودستوس) في خطاب له : (أعتذر إليك أني لا أستطيع أن أرسل شيئاً جديراً بكنائس المسيح ، وما كان أحب إلى أن أجيء فأعمل بيدي في بناء كنيسة القيامة) .

ويروى أنه أرسل عيراً محملة بالذهب والقمح والثياب ، وما إلى ذلك مع رجل اسمه (كريسيوس) .

* وكان لابد أن تؤتي هذه الثروات شروراً .

وإذا صح قول الإمبراطور جوليان : (ليس هناك حيوان مفترس أشد ضراوة من عالم لاهوت غاضب) ـ فإن تاريخ البابوات يؤكد أن ضرواة رجال اللاهوت لا تقف عند شرّة الغضب ، ونزوة الرغب ، لهذا لا نشك أدنى شك فيما رواه صاحب (مواقف من تاريخ الكنيسة ص١٠١) من أن (الفرسان حملوا البابوات في كراسي من ذهب على الأكتاف) ولعل الذهب كان أبسط مظاهر الضراوة البابوية .

قال مواطن أسباني : (أرى أننا نادراً ما نحصل على شيء من خدام المسيح إلا بالمال ، في العماد بالمال ، في الزواج بالمال ، الاعتراف بالمال ، سر المسحة الأخيرة بالمال ، لا يدقون الأجراس بدون المال ، مراسم الدفن بالمال) .

كان هناك محصلون من قبل البابا سافروا إلى الأرياف يطالبون بعشر دخل الكاهن ، وكانت المراكز والوظائف الكنسية لمن يدفع أكثر .. الضرائب كانت تفرض سنوياً على رؤساء الدول ، وإذا سافر البابا أو احتفل بأحد الأعياد تفرض ضريبة إضافية .. ويقدرون أن الكنيسة فى انجلترا تلقت وأنفقت ربع الدخل القومى .

هذا .. وفى الوقت الذى استشرى فيه التضخم ، وساءت الأحوال الاقتصادية ، بسبب الحروب الدينية التى خاضتها أوروبا (١٥٦٣ ـ ١٥٩٤) كانت المنظمة الغنية الوحيدة هى الكنيسة الكاثوليكية التى انضوى سنة ١٦٠٠ تحت لوائها ٩٤ ألفاً من رجال الدين ، و ٨٠ ألف راهبة ، و ٧٠ ألف راهب أو أخ ، و ٢٫٥٠٠ يسوعى .. ونشكو مر الشكوى من جيش الجراد ، مع أنه لا يغزو الأرض الخضراء إلا مرة واحدة خلال عدة أعوام ، ويمكن مقاومته بالقرع على الصفيح .

* * *

قفزة فوق السور ..

يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ٥ ج ٤ ص ٧٦) : (ليس ثمة ميدان يمكن أن يتعرض فيه المؤرخ لتأثير أهوائه وميوله ، فيضل ، ويصدر أحكاماً خاطئة ـ كالميدان الذى يطرقه حين يريد التحقق من المستوى الأخلاقى لعصر من العصور ، اللهم إلا إذا كان هذا الميدان هو ميدان البحث فى أسباب ضعف العقيدة الدينية ، وهو ميدان وثيق الصلة بميدان الأخلاق ، ففى كلتا الحالتين يكون أكثر ما يسترعى نظره هو الاستثناء غير المألوف الذى يؤثر فى النفس بمظهره ، فيصرف الإنسان عن الأحوال المألوفة التى لا تسجلها صفحات التاريخ ، وإذا ما أقبل على المشكلة التى أمامه ، ولديه فكرة يريد أن يثبتها ، كالفكرة القائلة بأن التشكك فى أمور الدين يؤدى إلى الانحلال الأخلاقى ـ نقول إنه إذا أقبل على المشكلة بهذه الفكرة زادت الحقائق انطماساً ، فيعجز عن تبين الحقيقة كلها ، هذا إلى أن الحادثات المسجلة قد تفسر بالنقيضين ، ويكاد يستطيع قارئها أن يثبت بها أى شىء ، حسب ما يختاره من تلك الحادثات ، مدفوعاً إلى ذلك بميله وهواه) .

لكن الشواهد التى قدمتها الكنيسة لم تقف بالمسيحيين عند حدود الشك ، بل كانت الغالبية العظمى تقف على الشاطئ الآخر ، ممتلئة بأنواع شتى من الانفعالات المضادة التى تحولت فى نهاية الأمر إلى التسليم بأن دور الكنيسة قد انتهى ، أو أن الكنيسة ملك لمن يسكنونها دون سواهم ، وأن على (الآخرين) أن يسيحوا فى الأرض ، يؤكدون وجودهم بما يفرزه هذا الوجود من تجاوزات .

فى سنة ٨٩٧ أمر البابا استيفن السادس أن تخرج جثة البابا فورموسوس (Formosus) (٨٩١ ـ ٨٩٦) من قبرها ، وترتدى الملابس الأرجوانية ، وتحاكم أمام مجلس كنسى ، بتهمة مخالفتها بعض قوانين الكنيسة ، ثم يحكم بإدانتها ، وتجرد من ثيابها الكهنوتية ، وتبتر بعض أعضائها ، وتلقى فى نهر التيبر .

وثارت فى نفس العام ثورة سياسية فى روما ، خلع على أثرها استيفن من منصبه ، وقتل فى السجن خنقاً .

وظل كرسى البابوية عدة سنين ـ بعد ذلك الوقت ـ لا ينال إلا بالرشا أو القتل ، أو

رغبات النساء ذوات المقام السامي والخلق الدنيء .

* وبقيت أسرة ثيوفيلاكت ، أحد كبار الموظفين في قصر البابا ، ترفع البابوات إلى كراسيهم ، وتنزلهم عنها ، كما يحلو لها ، ونجحت ابنته مروزيا في اختيار عشيقها سرجيوس الثالث لكرسي البابوية (٩٠٤ ـ ٩١١) . كما أفلحت زوجته ثيودورا في تنصيب البابا يوحنا العاشر (٩١٤ ـ ٩٢٨) ، وقد اتهم يوحنا هذا بأنه عشيق ثيودورا .. وظلت مروزيا تستمتع بعدد من العشاق ، حتى تزوجت جويدو دوق تسكانيا ، وأخذا يتآمران لخلع يوحنا ، وعملا على قتل أخيه بطرس أمام عينيه ، ثم زج البابا في السجن حيث مات.. ثم رفعت مروزيا سنة ٩٣١ يوحنا الحادي عشر (٩٣١ ـ ٩٣٥) إلى كرسي البابوية ، وكان يشاع أنه ابن لها غير شرعي من سرجيوس الثالث .. وفي سنة ٩٣٢ سجن ابنها ألبريك يوحنا هذا في قلعة سانت أنجيلو ، وسمح له أن يصرف من سجنه شئون البابوية الروحية ، وظل ألبريك يحكم روما اثنتين وعشرين سنة ، كان فيها الطاغية المسيطر على جمهورية رومانية ، وأوصى ـ وهو على فراش الموت ـ أن يخلفه ابنه أكتافيان .. وحمل رجال الدين والشعب على أن يعدوه باختيار أكتافيان بابا بعد موت أجابتوس الثاني ، وتم له ما أراد ، فأصبح حفيد مروزيا هو البابا يوحنا الثاني عشر ، وامتازت ولايته بضروب من التهتك والدعارة في قصر لاتيران .

* دعا إمبراطور ألمانيا ـ أتو الأول ـ الذى توّجه يوحنا الثاني عشر سنة ٩٦٢ إلى محاكمة البابا أمام مجلس كنسي ، فاتهم الكرادلة يوحنا بأنه حصل على رشا نظير تنصيب الأساقفة ، وأنه عين غلاماً في العاشرة أسقفاً ، وأنه زنى بخليلة أبيه ، وضاجع أرملته ، وابنة أختها ، وأنه حول قصر البابا إلى ماخور للدعارة .

رفض البابا يوحنا أن يحضر أمام المجلس ، أو أن يجيب عن هذه التهم ، وخرج للصيد ، فقرر المجلس خلعه ، واختار بالإجماع مرشح (أتو) لكرسي البابوية ، الذى أصبح ليو الثامن (٩٦٣ ـ ٩٦٥) ، وهو من غير رجال الدين .. ولما رجع (أتو) إلى ألمانيا قبض يوحنا على زعماء الحزب الجمهوري في روما ، وبتر أعضاءهم ، وعاد إلى كرسي البابوية سنة ٩٦٤ ، ولما مات يوحنا في نفس العام اختار الرومان بندكت الخامس لكرسي البابوية ، وأغفلوا شأن ليو ، فعاد (أتو) من ألمانيا وخلع بندكت ، وأعاد ليو .. ولما مات ليو

اختـار (أتو) يوحنا الثالث عشر خليفة له (٩٦٥ ـ ٩٧٢) ، وبعد موته تولى بندكت السادس (٩٧٣ ـ ٩٧٤) ، أمر البابوية ، فسجنه أحد أشراف روما ، وخنقه في سجنه .

ثم تولى بونيفازيو فرنكون أمر البابوية شهراً ، كان هو الذى ولى نفسه ، وفر إلى القسطنطينية محملاً بكنوز البابوية ، أو بما استطاع حمله منها ، ثم عاد بعد تسع سنين ، وقتل البابا يوحنا الرابع عشر (٩٨٣ ـ ٩٨٤) ، وجلس على كرسى البابوية ، ومات ميتة هادئة فى فراشه سنة ٩٨٥ .

ثم جرى صراع بين كريسنتيوس الزعيم الرومانى ، وبين أتو الثالث ، إمبراطور ألمانيا ، حول تنصيب البابا ، انتهى إلى خلع يوحنا السادس عشر ، البابا الذى عينه كريسنتيوس ، وسمل عينيه ، وقطع لسانه ، وجدع أنفه ، وأمر أن يطاف به فى شوارع روما ، على ظهر حمار ، ووجهه نحو ذنبه ، ثم قطعت رءوس كريسنتيوس واثنى عشر من أعوانه ، وعلقت أجسادهم على أسوار سانت أنجليو سنة ٩٩٨ ، وتولى مرشح (أتو) أمر البابوية .

* واستمرت المتاجرة بالمناصب الكنسية ، حتى إن أم جوبيرت أف نوجن سعت فى تعيين ابنها قساً ، وهو فى الحادية عشرة من عمره ، وجعل ذوو المطامع يقدمون مبالغ طائلة للرؤساء الزمنيين ، ليظفروا بهذه المناصب ، وقد عين غلام فى العاشرة من عمره رئيس أساقفة فى نربونه نظير مائة ألف صليدى .

وكتب فيليب الأول ملك فرنسا إلى رجل أخفق فى الحصول على منصب رئيس أساقفة : (اتركنى أجنى المال من منافسك ، ثم حاول أن تسقطه باتهامه بابتياع منصبه ، وسنرى بعد ذلك كيف نرضيك) .

وأصحبت كثير من مناصب الأساقفة ميراثاً لبعض الأسر الشريفة ، تختص بها الصغار من أبنائها ، أو غير الشرعيين منهم ، وكان بعض البارونات فى ألمانيا يمتلك ثمانى أسقفيات يورثها أبناءه .

يزعم أحد الكرادلة الألمان ، حوالى سنة ١٠٤٨ ، أن الذين يبتاعون كراسى الأساقفة ومناصب الكنيسة قد باعوا الواجهات الرخامية فى الكنائس ، وألواح القرميد فى سقفها ، ليحصلوا من ثمنها على ما أدوه ثمناً لمناصبهم .

وكان الذين ينالون المناصب بهذه الوسائل من رجال الدنيا ، لا من رجال الدين ،

يعيشون عيشة المترفين ، ويشنون الحروب ، ويغمضون أعينهم عن الرشا في المحاكم الأسقفية ، ويعينون أقاربهم في المناصب الكنسية .

وأدى هذا الفساد إلى أن (ليو التاسع) (١٠٤٩ ـ ١٠٥٤) وجد أن كرسي الرسول بطرس قد افتقر ، لكثرة ما أوصى به رجال الدين من أملاك الكنيسة لأبنائهم ، ولاستيلاء الأعيان على ضياع الكنيسة ، وسطو قطاع الطرق على الحجاج الذين يأتون إلى روما بالأدعية ، والملتمسات ، والنذور .

* ويقول رسل (تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٢٠/٢١٨) عن البابا إنوسنت الثالث (١١٦٠ ـ ١٢١٦) : هو الشخصية الرئيسية في بداية القرن ، فهو سياسي بارع ، ذو حيوية لا تنفد ، يؤمن إيماناً راسخاً بمطالب البابوية المتطرفة ، لكنه لم يكن يتحلى بالتواضع المسيحي .

عند تنصيبه وعظ الناس بآية من الإنجيل : (انظر إني نصبتك اليوم على الأمم والممالك ، لتسحق وتحطم ، وتبيد وتخلع ، ثم لتبني وتزرع) . وأطلق على نفسه ملك الملوك ، وأمير الأمراء ، وقسيساً إلى أبد الآبدين ، بناء على أمر ملكي صادق .. ولم يدع فرصة مواتية تفلت من يده ، مما عساه أن يحقق له هذا الرأي الذي ارتآه في نفسه .

كان أول بابا عظيم خلا من عنصر القداسة ، وقد وضع قانون الكنيسة في صيغة تزيد من سلطة رجالها ، يقول ولترفون درفوا جلويد : (إن هذا التشريع هو أسود كتاب أخرجته الجحيم) .

وقد زعم أن ما جاء في (متى ١٦ : ١٩) : (وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات) إنما ينطبق على (أفا البابا) ، فقد دعى آخرون لجزء من المسئولية ، لكن بطرس وحده اتخذ لنفسه كمال القوة : (أنت إذن ترى من هو هذا الخادم المعين رئيساً على أهل البيت ، إنه حقاً نائب يسوع المسيح خليفة بطرس ، ممسوح من الرب إله فرعون ، وسيط بين الله والإنسان ، أدنى من الله ، لكن أعلى من الإنسان ، الذي يحاكم الجميع ولا يحكمه أحد .. إنه القمر يستمد نوره من الشمس ، وهو في الحقيقة أدنى من الشمس، في الحجم والنوع ، وبنفس الطريقة تستمد القوة الملكية مقامها من السلطة البابوية) .

وبناء على هذا التصور ، حين حاول جون ملك انجلترا (١١٩٩ ـ ١٢١٦) أن

يختار شخصية معينة رئيساً لأساقفة كنتربرى ، غير الذى رشحه البابا ، هدد إنوسنت بحظر إقامة كل الخدمات الدينية فى المنطقة ، وفرض إرادته عن طريق مراسم الحرمان ، فسار الملك جون ليلاً فى شوارع كنتربرى ، حافى القدمين ، وركع كى يتلقى الجلدات من الرهبان ، ورضى أن يدفع ضريبة سنوية للفاتيكان .

كان إنوسنت رجل سياسة ، وكان جون ملكاً ضعيفاً ، ومن ثم كانت الحكمة تقتضى (اضرب المربوط يخاف السايب) .

* وقد مهد بونيفاس الثامن (١٢٢٧ ـ ١٣٠٣) لتسنُّمه عرش البابوية سنة ١٢٩٤ بأن أقنع البابا سلستين الخامس أن ينزل عن العرش ، بعد أن جلس عليه خمسة أشهر ، وكان هذا عملاً لم يسبق له مثيل ، وأحاط بونيفاس بالكراهية طول حياته .

أراد أن يحبط كل تدبير لإعادة سلستين ، فأمر أن يحجز هذا الشيخ البالغ ثمانين عاماً فى روما ، ولما فر سلستين قبض عليه ، ثم فر مرة أخرى ، وجعل يجول فى أنحاء أبوليا ، حتى وصل إلى البحر الأدرياتى ، ثم حاول العبور إلى دمياط ، لكن قاربه تحطم ، وقذفه البحر إلى إيطاليا ، وسيق إلى بونيفاس ، فحكم عليه بالسجن فى حجرة ضيقة فى فرنتيفو ، ومات فى سجنه بعد عشرة أشهر سنة ١٢٩٦ .

وفى سنة ١٣٠٠ أقام عيداً أباح فيه للكاثوليك جميعاً ممن زاروا روما ، وقاموا فيها بحفلات معينة ـ أن يفعلوا ما شاءوا بدون قيود ، فكان من جراء ذلك أن تدفقت مبالغ جسيمة من المال فى خزائن الكنيسة ، وفى جيوب الشعب الرومانى ، وكان مثل هـذا العيد (اليوبيل) يقام كل مائة سنة ، لكن المكسب المترتب على إقامته قد بلغ من الجسامة حداً جعلهم يقصرون الأمد ، بحيث جعلوه خمسين عاماً فقط ، ثم قصروا الأمد فجعلوه خمسة وعشرين عاماً ، وهذا ما لا يزال معمولاً به حتى اليوم ، وقد أتاح يوبيل سنة ١٣٠٠ فرصة للبابا أن يظهر فى أوج ازدهاره ، ولذلك فقد يكون من المناسب اتخاذه تاريخاً لبدء تدهور البابوية ـ رسل (تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٧٥) .

كان بونيفاس موغلاً فى التحزب لأنصاره، كما كان مسرفاً فى حبه جمع المال، ولذلك اشتدت به الرغبة فى أن يحتفظ لنفسه بالرقابة على أكبر عدد ممكن من الموارد المالية ، واتهم بالزندقة ، وربما كان اتهامه على أساس صحيح ـ كما يقول رسل المصدر

السابق ص ٢٧٦ ـ والظاهر أنه كان من أتباع ابن رشد ؟! .

ولما كان على نزاع مع الملك الفرنسي فيليب الرابع أصدر مرسوماً سنة ١٣٠٢ عن طريق مجلس المطارنة ، جاء فيه : (إنه لا توجد إلا كنيسة واحدة ، لانجاة لأحد خارجها ، وليس للمسيح إلا جسد واحد ، له رأس واحد ، لا رأسان ، وأن هذا الرأس هو المسيح ، وممثله البابا الروماني ، وإن هناك سيفين ، أي قوتين : القوة الروحية ، والقوة الزمنية ، الأول تحمله الكنيسة ، والثاني يحمله الملك نائباً عن الكنيسة ، لكنه يحمله تبعاً لإرادة القس ، وبإذن منه ، والسلطة الروحية أقوى ، فوق السلطة الزمنية ، ومن حقها أن ترشدها إلى أسمى غاياتها ، وأن تحاكمها إذا ارتكبت إثماً) .

وفي سنة ١٣٠٣ بينما كان على وشك إصدار قرار الحرمان ضد الملك ، فاجأه غليوم دي نوجاريه في قصر أجداده في أنايني (Anayny) واعتقله ، وقد دخل هذا المندوب عن الملك الفرنسي القصر عنوة ، وسار حتى بلغ مخدع البابا المرتاع ، وكان راقداً في فراشه ، وبيده صليب ، وألقى عليه سيلاً من الوعيد والإهانة ، وأُطلق أهل المدينة سراح البابا بعد ذلك بيوم أو بعض يوم ، وأعادوه إلى روما ، لكن بعض أفراد عائلة أورسيني اعتقلوه وسجنوه ، ولم تنقض أسابيع حتى مات في سجنه .

ومن المثير أن أحداً من حكام إيطاليا وألمانيا وانجلترا لم يبد موقفاً معادياً لهذه المعاملة الفظة من قبل فرنسا ضد البابا .. ولم يجرؤ بابا بعد ذلك على معارضة ملك فرنسا .

وقد عين الملك فيليب بابا فرنسياً هو كليمنت الخامس ، من أهل جاسكون ، انتخبه الكرادلة سنة ١٣٠٥ ، وكان رئيس أساقفة بوردو .. لم يتهاون قط في تمثيله الحزب الفرنسي في الكنيسة ، ولم يحدث له إبان توليه البابوية أن ذهب إلى إيطاليا ، فقد توج في ليون ، وفي سنة ١٣٠٩ استقر في أفينون ، حيث أقام البابوات ما يقرب من سبعين عاماً .

ولما احتاج فيليب إلى مال لحروبه مع الإنجليز ، وللثورة الفلمنكية ، وللنفقات التي اقتضتها حكومته ، وقد أخذ نشاطها يزداد زيادة مطردة ـ نهب أصحاب الأموال في لمبارديا ، واضطهد اليهود حتى ابتز منهم كل ما أمكن الحصول عليه ، ثم عن له ـ بمعونة البابا ـ أن يستولي على الأراضي الفسيحة التي كان (فرسان المعبد) يمتلكونها في فرنسا ، فضلاً عما في أيديهم من رءوس الأموال .

كانت الخطة أن تكشف الكنيسة عن زندقة زل فيها فرسان المعبد ، بحيث تقع أملاكهم غنيمة يقتسمها الملك والبابا ، وقبض على كل فرسان المعبد البارزين في فرنسا ، في يوم معلوم سنة ١٣٠٧ ، ووجهت إليهم التهم التي لا أساس لها ، وعذبوا ضروب التعذيب ، وانتهى الأمر بأن ألغى البابا تلك الهيئة سنة ١٣١٣ وصودرت أملاكهم كلها .

وفي سنة ١٣١٠ عمل كليمنت على محاكمة بونيفاس بعد موته ، وكثرت اتهاماته بالتجديف ، وبالفسق والفجور ، والاتصال السحرى بقوى الظلام ، عن طريق كرادلة ورؤساء أديرة ، وانتهت المحاكمة سنة ١٣١١ ، بعد أن أثارت ثائرة بعض رجال الدين الذين تعاطفوا مع البابا الراحل ، يقيناً منهم أنه لولا فيليب لما تمت هذه المحاكمة .

وقد استمر مقر البابوية في أفينيون الفرنسية سبعين عاماً ، وعرفت هذه الفترة (بالسبى البابلى) .

قال بترارك الكاتب الشاعر الإيطالي عن بابوات أفنيون :

(هنا يحكم خلفاء صيادى الجليل الفقراء ، لقد تناسوا تماماً أصولهم .

هنا في بابل ـ أفنيون ـ موطن كل الرذائل والتعاسة ، لا تقوى ، ولا إيمان ، لا وقار لا خوف من الله .

لا شيء مقدس ، لا شيء عادل .

باختصار ، كل أمثلة العقوق والشرور التي يعرضها عليكم العالم تتجمع هنا) ـ تاريخ الكنيسة ج ٤ ص ٣٠/٢٨ .

وقد رأى بترارك أن من الخير له ـ بعد انتخاب البابا الجديد ، كليمنت السادس سنة ١٣٤٢ ـ أن يعود إلى أفينيون ليقدم له تحياته ، ويعرض عليه أمانيه ، وجرى كليمنت على السنة القديمة ، سنة منح هبة ـ وهي عبارة عن إيراد بعض أملاك الكنيسة لمن يؤيدونها من الكتاب والفنانين ـ فوهب الشاعر رياسة دير بالقرب من بيزا ، ثم عينه سنة ١٣٤٦ أسقفاً في بارما ، ثم أرسله في بعثة إلى نابلى ، حيث التقى بحاكم من أصعب حكام زمانه مراساً ، وأقواهم شكيمة .

وقد انتهى عهد أفينيون سنة ١٣٧٧ ، عندما عاد البابا جريجورى الحادى عشر إلى

قصر الفاتيكان بروما ، لكن جريجورى لم يحمل معه عطف الكنيسة بأسرها ، إذ كان كثير من الكرادلة فرنسى الأصل ، وكانت عاداتهم ومشاربهم شديدة الارتباط بأفنيون ، فلما مات جريجورى الحادى عشر سنة ١٣٧٨ ، وانتخب الإيطالى إربان السادس ، أعلن هؤلاء الكرادلة المنشقون أن الانتخاب باطل ، وانتخبوا بابا آخر ، هو كليمنت السابع .

ويسمى هذا الانقسام بالصدع الكبير ، وظل البابوات فى روما ، وبقيت كل الدول المعادية لفرنسا ـ ألمانيا وانجلترا وهنغاريا وبولندا وشمالى أوربا ـ موالية لهم ، على حين استمر البابوات المضادون فى أفينيون تناصرهم فرنسا واسكتلنده وأسبانيا والبرتغال وبعض أمراء ألمانيا ، وكان كل بابا من الجانبين يحرم أنصار منافسه ويلعنهم ، حتى لقد عدت المسيحية بأجمعها ملعونة أثناء ذلك الزمان لعناً صحيحاً كاملاً بهذا المعيار أو ذلك ، وقد استمر هـذا (الصدع) المثير ما بين (١٣٧٨ ـ ١٤١٧) ـ معالم التاريخ الإنسانية ج ٣ ص ٩١٤ .

* كان جان فرانسوا ، الملقب دى رتز فيما بعد ، مساعد رئيس أساقفة باريس ، وخليفته المنتظر ، والحريص على الظفر بقبعة الكردينالية ـ يعاشر ثلاث خليلات .. وكتب فى مذكراته : (لم ألعب دور الناذر نفسه للدين ، لأنى لم أستطع أن أعرف على وجه اليقين كم من الزمن سأستطيع لعب دور المزيف ، وحين أعجزنى العيش دون صلة غرامية محرمة ، اتصلت بمدام بومرو ، وكانت شابة لعوباً ، لها العدد الكبير من العشاق ، لا فى بيتها فحسب ، بل فى مكان عبادتها أيضاً ، بحيث كانت صلات غيرى المكشوفة معها ستاراً لصلتى بها .. واستقر رأيى على التمادى فى خطاياى ، لكننى كنت مصمماً كل التصميم على القيام بواجبات مهنتى الدينية بأمانة ، وعلى بذل قصاراى فى تخليص نفوس غيرى ، وإن لم أكترث لخلاص نفسى) .

هذا مثال صريح للاضطراب النفسى الذى أصاب (جمهور رجال الدين) ، على جميع المستويات ، ومن ثم رفض رؤساء الأديرة فى أسقفية كولونى سنة ١٣٧٢ أن يؤدّوا العشور إلى البابا جريجورى الحادى عشر ، ليس احتجاجاً على أن (الكرسى الرسولى قد انحط إلى الدرك الأسفل من الاحتقار ، حتى بدا أن المذهب الكاثوليكى فى تلك الديار مهدد بأشد الأخطار) ـ بل لأن العشور لم تعد تخدم الهدف الذى فرضت له ، وصارت عوناً على مزيد من الانحطاط .

وقد سخرت ميلان من البابوات علانية ، ولما أرسل إليها إربان الخامس سنة ١٣٦٢ مندوبين يحملان قرارات الحرمان ، أرغمهما (برنابو) الحاكم على أن يأكلا القرارات بما فيها من رقوق ، وخيوط حريرية ، وأختام من الرصاص .

وحدث أن أخذ ابن أخ للمندوب البابوى فى بروجيا يطارد امرأة متزوجة ، مطاردة بلغ من عنفها أن سقطت المرأة من نافذة ، وهى تحاول الفرار منه ، وقضت نحبها ، ولما جاء وفد إلى المندوب البابوى يطلب إليه عقاب ابن أخيه ، رد عليه بقوله : (علام هذه الجلبة كلها ، هل تظنون أن الفرنسى خصى ؟!) .

واتهم جريجورى الحادى عشر ـ وهو ابن أخى كليمنت السادس ـ أهل فلورنس بأنهم يتزعمون الثورة عليه ، وأمرهم بالخضوع للمندوب البابوى ، فلما عصوا أمره حرمهم من الدين ، ومنع إقامة الخدمات الدينية فى مدينتهم ، وأصدر مرسوماً يعلن أن جميع الفلورنسيين خارجون على القانون ، وأحل لأى إنسان فى أى مكان أن يستولى على أملاكهم ، ويتخذهم أرقاء .. وكان رد فلورنس أن صادرت جميع أملاك الكنيسة الموجودة فى أراضيها ، وهدمت مبانى محكمة التفتيش ، وأغلقت أبواب المحاكم البابوية ، وزجت فى السجن القساوسة المعاندين ، وشنقت بعضهم ، وبعثت بنداء إلى أهل روما تدعوهم فيه أن ينضموا إلى الثورة ، ويقضوا على جميع ما للكنيسة فى إيطاليا من سلطة زمنية

وكان أن استخدم البابا الجنود البريطانيين المرتزقة فى إخضاع الثائرين بوحشية رهيبة ، فكتبت القديسة كاترين السينائية إلى البابا تقول :

(نعم ، إن عليك أن تسترد الأملاك التى خسرتها الكنيسة ، لكن عليك أكثر من هذا أن تسترد جميع الخراف التى هى كنز الكنيسة الحقيقى ، والتى تحل بها الفاقة بحق إذا خسرتها .. عليك أن تضرب الناس بسلاح الصلاح والحب والسلام ، فإن فعلت كسبت به أكثر مما تكسب بسلاح الحرب) .

* * *

شهـــادات ..

(لم يكن العالم المسيحى فى العصور الوسطى يقل عنه فى عصرنا اللادينى الحاضر ، امتلاء بالشهوات الجنسية والعنف ، وإدمان الخمر ، والقسوة ، والفظاظة ، والدنس ، والشره ، والسطو، والخيانة ، والتزوير .

وإذا وازنا بين مسيحية العصور الوسطى والإمبراطورية الرومانية ، من نيرفا إلى أورليوس ، حكمنا بأن هذه المسيحية قد رجعت بالناس إلى الوراء ، من الناحية الأخلاقية) ـ قصة الحضارة مج ٤ ج ٥ ص ٢١٨ .

يقول الأسقف جروستستي ـ وهو من أكثر أحبار ذلك العصرحصافة ـ للبابا : (إن الكاثوليك في جملتهم أحلاف الشيطان) .

ويقول روجربيكن (١٢١٤ ـ ١٢٤٩ تقريباً) عن عصره : (لم يوجد قط ما يماثله فى الجهل ، لأن فيه من الرذائل ما لا مثيل له فى أى عصر سابق، فيه الفساد الذى لا حّد له ، والعهر ، والنهم ، ومع ذلك فإن لدينا التعميد، ولدينا وحى المسيح ، ولهذا ، فإن كثيرين يعتقدون أن أوان المسيح الدجال قد آن ، وأن نهاية الحياة قد اقتربت) .

ويقول دلتشينو النوفارى : إن البابوات جميعاً ـ من أيام سلفستر (٣١٤ ـ ٣٣٥) ـ كانوا غير مخلصين للمسيح إذا استثنينا منهم سلستين الخامس ، وكان الرهبان : بندكت ، وفرانسيس ، ودومنيك ـ قد بذلوا محاولات نبيلة لتخليص الكنيسة من عبادة المال ، وإعادتها إلى عبادة الله ، ولكنهم أخفقوا فى هذه المحاولات ، وأضحت البابوية من عهد بنيفاس الثامن هى العاهر التى وصفها سفر الرؤيا) .

تزعم دلتشينو طائفة من الإخوان تدعى (إخوان بارما الرسوليين) ، رفضت سلطان البابوات ، ولما أمر كليمنت الخامس محكمة التفتيش أن تحاكمهم رفضوا المثول أمامها ، وسلحوا أنفسهم ، ولما سار إليهم جيش محكمة التفتيش قاتلوا ، حتى سقط منهم ألف ، وهم يحاربون وحرق منهم عدة آلاف سنة ١٣٠٤ ، وفيهم مرجريتا أخت دلتشينو الذى استبقى هو وزميله (لتجينوا) ليحاكما محاكمة خاصة ، وأركبا عربة طافت بهما

فرتشيللى، وقطع لحمهما جزءاً فجزءا بالكلاليب أثناء هذا الموكب ، وانتزعت أطرافهما وأعضاء تناسلهما ، ثم تركا ليموتا .

وقال روجر أسكام العالم الإنجليزى ، حين زار روما سنة ١٥٥٠ : (لقد كنت يوماً ما فى إيطاليا نفسها ، لكنى أحمد الله ، إذ لم أقم فيها أكثر من تسعة أيام ، ومع هذا شاهدت فى هذا الزمن القصير ، وفى مدينة واحدة ، من الانغماس فى الذنوب ، والتحرر من قيود الأخلاق أكثر مما سمعته يقال فى تسعة أعوام عن بلدتنا النبيلة لندن ، لقد رأيت هناك أن فى مقدور المرء أن يرتكب الخطايا دون أن يتعرض للعقاب ، ودون أن يهتم بخطاياه أى إنسان ، وقد أوتى من الحرية فى ارتكابها بقدر ما أوتى ساكن لندن من حرية فى أن يختار ـ دون لوم ـ أن يلبس حذاء أو خفاً) .

ولما زار لوثر إيطاليا سنة ١٥١١ قال من فوره : (إذا كان هناك جحيم فإن روما قد بنيت من فوقه ، وهذا ما سمعته فى روما نفسها) .

إن إيطاليا كانت أكثر من غيرها فساداً ، لأنها كانت أكثر ثراء ، وأضعف حكماً ، وأقل خضوعاً لسلطان القانون ، وكانت أكثر رقياً فى ذلك التطور الذهنى الذى يؤدى فى العادة إلى التحلل من القيود الأخلاقية .

يقول جوتشياردينى : (إن الحبر الأعظم ليوصف بالصلاح ، ويمتدح ، إذا لم يكن أكثر شراً من غيره من الناس) .

وكتب الحبر الأسبانى ألفارو بلايو ـ وهو من أنصار البابوية الموالين لهـا ـ رسالة فى (رثاء الكنيسة) ، يظهر فيها أسفه ، ويقول : (كلما دخلت حجرات رجال الدين فى البلاط البابوى ، رأيت السماسرة والقساوسة منهمكين فى وزن المال وحده ، وهو مكدس أمامهم أكداساً .. إن الذئاب هى المسيطرة على الكنيسة ، وهى تطعم من دماء القطعان المسيحية) .

وكتب إدوارد الثالث ملك انجلترا ـ وكان هو نفسه بارعاً فى فرض الضرائب ـ يندد بكليمنت السادس: إن (خليفة الرسل إنما جاء ليقود خراف الرب إلى المرعى لا ليجزها) .

وترتب على جز الخـراف ـ دون رحـمة ـ أن سخطت الجماهير ، وأعلنت عن سخطها ، بمطاردة الجباة البابويين ، والقبض عليهم ، وسجنهم ، وبتر أطرافهم ، وشنقهم فى بعض الأحيان .. واستولى على الولايات البابوية رؤساء جند مغامرون ، يظهرون الطاعة

للبابوات ، ويحتفظون لأنفسهم بكثير من إيراد هذه الولايات .. وعمدت فلورنس سنة ١٣٧٦ إلى مصادرة كل ما للكنيسة من أملاك فى أراضيها ، وأغفلت محاكم الأبروشيات ، وهدمت أبنية محاكم التفتيش ، وزجت فى السجون من قاوم من القساوسة ، أو قتلتهم شنقاً ، وأهابت بإيطاليا أن تضع حداً لمطالبها الدنيوية .

وأقسم قساوسة كولونى ، وبن ، وأكسانتن ، وميتز ، سنة ١٣٧٢ : ألا يؤدوا العشور التى طلبها جريجورى الحادى عشر ، واتفق رؤساء الأديرة في كومونى ، وأعلنوا على الملأ أن (الكرسى الرسولى قد انحط إلى درجة من الاحتقار ، تجعل المذهب الكاثوليكى يبدو معرضاً لأشد الأخطار) .

وفى فرنسا حل الخراب بكثير من أملاك الكنيسة ، بسبب ما أصابها من كوارث الحرب ، والموت الأسود ، ونهب اللصوص وقطاع الطرق ، وما كان يفرضه عليها جباة البابا ، وهجر كثير من الأساقفة أبروشياتهم .

وفى حوالى سنة ١٤٢٠ قال القديس برناردينو : (إن كثيراً من الناس ـ إذا ما نظروا إلى ما يرتكبه الرهبان والإخوان والراهبات وغير هؤلاء من رجال الدين ـ لتشمئز نفوسهم ، بل إنهم كثيراً ما يتزعزع إيمانهم ، فلا يؤمنون بشيء أعلى من أسقف منازلهم ، ولا يرون أن ما ورد في الكتب عن الدين صادق صحيح ، بل يعتقدون بأنه من اختراع الآدميين ، وليس وحياً من عند الله ، فهم يحتقرون القربان المقدس ، ولا يؤمنون بوجود الروح ، ولا يخشون عذاب النار ، ولا يرغبون فى نعيم الجنة ، بل إن أهم ما تتعلق به قلوبهم هو الأشياء الزائلة ، ويعملون على أن يكون هذا العالم الأرضى هو جنتهم) .

وقال مكيافيلى : (لو أن الدين المسيحي قد احتفظ به كما صدر عن مؤسسه ، لكانت دول العالم المسيحى أكثر اتحاداً ، وأعظم سعادة مما هى الآن ، وليس أدل على ضعفه من أن أقرب الناس إلى الكنيسة الرومانية التى هى صاحبة السلطة العليا فى هذا الدين هم أقل الناس تديناً ، وأن من يمعن النظر فى المبادئ التى يقوم عليها هذا الدين ، ويرى ما بين هذه المبادئ وبين شعائرها الحاضرة وعاداتها من فرق كبير ـ ليحكم من فوره بأن انهيارها ، أو يوم القصاص منها ، لآت عن قريب) .

وقال باستور فى كتابه : (تاريخ البابوات ج ٧ ص ٢٩٣) : (إن من أسباب سقوط الكنيسة الألمانية ثراءها الفاحش الذى كانت زيادته غير المشروعة مما أثار حسد غير رجال

الدين ، وبغضهم ، كما كان له أسوأ الأثر في رجال الكنيسة أنفسهم) .

في ألمانيا وجه مجلس نورمبرج سنة ١٥٢٢ إلى الكنيسة مائة تهمة ، منها أنها تملك نصف ثروة ألمانيا .

وقد قرر مؤرخ كاثوليكي نصيب الكنيسة بثلث أموال ألمانيا ، وخمس أموال فرنسا .. لكن مدعياً عمومياً في برلمان فرنسا قدر ثروة الكنيسة سنة ١٥٠٢ بثلاثة أرباع أموال فرنسا كلها .

أما في إيطاليا فإن ثلث شبه الجزيرة كان ملكاً للكنيسة ، هذا فضلاً عما كان لها من الأملاك القيمة في غير (الولايات البابوية) .

ويقول أسقف تورشيلو سنة ١٤٥٨ : (إن أخلاق رجال الدين فاسدة ، يشمئز منها العلمانيون ، وأصبح المنتمون إلى طوائف الرهبان الأربع التي أسست في القرن الثالث عشر - وهي طوائف الفرنسيسكان ، والدومنيك ، ورهبان الكرمل ، والأوغسطينيين - أصبح المنتمون إلى هذه الطوائف كلها ، ما عدا الأخيرة ، مستهترين في أخلاقهم ، شديدي الاستخفاف بما يتطلبه مركزهم من تقى وحسن نظام) .

وإذا كان آلاف الرهبان والإخوان قد استغنوا عن العمل اليدوي ، بفضل ما تجمع لهم من ثروات ، فقد أهمل هؤلاء الخدمات الدينية ، وخرجوا من صوامعهم يجوسون خلال الديار ، ويتعاطون الخمور في الحانات ، ويتخذون لهم عشيقات .

قال جون بروميارد : وهو راهب دومنيكي ، من رهبان القرن الرابع عشر ، عن إخوانه :

(إن أولئك الذين من واجبهم أن يكونوا آباء للفقراء ، يشتهون ألذ الطعام ، ويستمتعون بنوم الضحى ، ويمنون على الناس بحضورهم صلاة الصباح أو القداس، وتراهم منهمكين في الطعام والشراب ، إذا لم نقل في الدنس والأقذار ، حتى لقد أصبحت مجامع رجال الدين مواخير للفجار ، ومجمعات من مهرجين) .

وكرر أرازمس تلك التهمة نفسها بعد مائة عام من ذلك الوقت ، فقال : (إن كثيراً من أديرة الرجال والنساء قلما تختلف عن المواخير العامة) .

ولما أرسل جاي جونيو من قبل البابا لإصلاح أديرة البندكتيين في فرنسا ، كتب

تقريباً سنة ١٥٠٣ يقول : إن كثيراً من الرهبان يلعبون الميسر ، ويكثرون السباب ، ويترددون على الحانات ، ويتسلحون بالسيوف ، ويجمعون الأموال ، (ويحيون حياة السكيرين) ، وهم أكثر تعلقاً بالدنيا من رجال الدنيا أنفسهم ، ولو أنى أردت أن أقص كل ما وقعت عليه عيناى لملأت بذلك صحفاً طوالاً .

ويقول البابا ليو العاشر سنة ١٥١٦ : (لقد وصل اضطراب الأمور في أديرة فرنسا ، وحياة الاستهتار التي يحياها الرهبان إلى حد لم يبق لهم معه أى احترام عند الملوك أو الأمراء أو المتدينين من الناس) .

ويقول باستور : (إن احتقار غير رجال الدين وكراهيتهم للكهنة الفاسدين كان من أقوى العوامل فى مروق الكثيرين من الدين) .

ويقول أحد أساقفة لندن سنة ١٥١٥ : (إن الناس بميلون إلى الإلحاد ميلاً بلغ من سوء العاقبة والانحطاط حداً جعلهم يندددون بكل رجل من رجال الدين ، وإن لم يكن يقل طهراً وبراءة عن هابيل) .

ويقول أرازمس : (إن لقب قس أو كاهن أو راهب أصبح يعد من أشد الإهانات) ــ قصة الحضارة مج ٦ ج ١ ص ٥٣/٣٦ .

ويقول الناقدون إن عجز مالية البابوات لا يرجع إلى النفقات المشروعة ، بل إلى ضروب البذخ التي كانت سائدة فى بلاط البابوات وصنائعهم .. كان كليمنت السادس مثلاً محوطاً بأقاربه من الذكور والإناث ، يرتدون أثمن الثياب والفراء ، وبطائفة من الفرسان والأتباع والجنود المسلحين ، والقساوسة والأطباء ، عددهم قرابة أربعمائة شخص ، يطعمون ويكتسون ويسكنون ويتقاضون مرتبات من (بابا) مولع بالإسراف ، لم يعرف ماذا يتطلبه جمع المال .

يقول جويوم دوران : أسقف مندى فى رسالة إلى مجلس فيينا : (إن كنيسة الله المقدسة ، وخاصة كنيسة روما ، أقدسها جميعاً ــ قد ساءت سمعتها فى كل مكان) .

ومن الأمور التي تلوكها الألسنة أن جميع المسيحيين يتخذون رجال الدين أسوأ قدوة لهم في الجشع ، لأن هؤلاء الرجال يأكلون من موائد أشد ترفاً ، وأعظم فخامة ، وأكثر صحافاً ، من موائد الأمراء والملوك .

يقول بترارك فى (أفينون) مقر البابا :

(بابل العاصية ، جحيم الأرض ، بالوعة الرذيلة ، مستودع أقذار العالم ، لا تجد فيها إيماناً ، ولا إحساناً ، ولا ديناً ، ولا خوفاً من الله .. لقد تجمعت فيها جميع أقذار العالم وخبائثه .. ترى كبار السن من رجالها يندفعون غير مبالين إلى أحضان فينوس ، لا يبالون بكبر سنهم أو كرامتهم أو مالهم من سلطان ، يرتكبون كل عار ،كأن مجدهم كله لا يعتمد على صليب المسيح ، بل يقوم على المآكل والمشرب ، والسكر والدعارة.. فالفسق ومضاجعة المحارم ، وهتك الأعراض ، والزنا ، هى أعظم المباهج لدى رؤساء الكنائس) .

ويقول أنطونيو كبير أساقفة فلورنس سنة ١٤٣٠ : (أما قساوسة الأبروشيات فلا يعنى منهم أحد بالقطيع الذى يرعونه بل كل ما يعنون به هو أصواف ذلك القطيع وألبانه) .

وتحدث بوكاشيو عما فى حياة رجال الدين من دعارة وقذارة ، ومن انغماس فى الملذات ، طبيعية كانت أو غير طبيعية .

ووصف ماستشيو الرهبان والإخوان بأنهم (خدم الشيطان) ، منغمسون فى الفسق واللواط والشره ، وبيع الوظائف الدينية ، والخروج على الدين ، وقال إنه وجد رجال الجيش أرقى خلقاً من رجال الدين .

وأفرغ ديكا بوجيو كل ما عرفه من ألفاظ السباب فى التشنيع على فساد أخلاق الرهبان والقسيسين ونفاقهم وشرههم وجهلهم وغطرستهم .

وقال فولينجو : كانت أديرة الرجال والنساء متقاربة قرباً يسمح لمن فيها الاشتراك من حين لآخر فى فراش واحد .

وقد انعكس هذا الجو الموبوء على قلم الفنان المبدع جيفرى تشوسر فى (حكايات كانتربرى) ، فجاء فى مقدمة هذه الحكايات عن الشخصيات التى تناولها كتابه :

١ ـ هناك راهب وظيفته الإشراف على أملاك الدير ، ولم يكن هناك من يفضله فى ذلك ، كما كان مشغوفاً بكل أنواع الصيد ، فهو رجل كامل الرجولة ، جدير بأن يكون رئيس دير ، فى حظيرته الكثير من الجياد الأصيلة ، وإذا امتطى جواداً له كان الناس يسمعون جلجلة لجامه يعلو فوق صفير الريح ، ويسمعونها بوضوح كأنها ناقوس الكنيسة

التى كانت تابعة للدير الذى كان يرأسه ، ولم يهتم ذلك الراهب كثيراً بقواعد الرهبنة ، التى وضعها القديس ماوروس أو القديس بندكتوس ، بحجة أنها قواعد عتيقة صارمة ، وكان جل اهتمامه ينصب على العالم الحديث ، ولم يكن يهتم بتلك الآية التى تقول : (إن الصيادين ليسوا من الأتقياء ، وإن الرهبان خارج الدير كالأسماك خارج الماء) .

كان الراهب فارساً صياداً ممتازاً ، لديه من كلاب الصيد ما يجرى بسرعة الطير ، وكان لا هم له إلا صيد الأرنب البرى ومطاردته ، عن طريق التصنت إلى وقع أقدامه على الأرض، وفى سبيل ذلك كان ينفق كل ما يتجمع لديه .

٢ ـ وكان هناك راهب جوال مرح لعوب ، كان من خصاله أن يجمع تبرعات من أجل الدير ، فى حدود إقليمية محددة ، كما كان مظهره ينم عن الوقار ، على أنه لم يكن له نظير فى الطرق الرهبانية الأربعة فى الدعابة ولغة المغازلة ، وكم من فتاة أشرف على تزويجها على نفقته الخاصة ، خشية الفضيحة والعار ، على أنه كان عماداً شريفاً للطريقة الرهبانية التى ينتمى إليها ، كما كان محبوباً جداً فى كل المنطقة ، وتربطه صداقة حميمة بأعيانها من أصحاب الأراضى ، وكان يرفع الكلفة مع سيدات فضليات كثيرات بالمدن .

كان قوياً كبطل من أبطال المصارعة ، وكان يعرف جيداً كل خان بالمدينة ، بل كل صاحب خان ، وكل ساق للخمور . ولم يكن يتردد إلا على الأغنياء ، أو بائعى الطعام والشراب ، وكان دائماً مع كل شخص ينتظر أن يجنى منه فائدة . كان يستطيع أن يظهر من الهيام أكثر ما يفعل كلب ينبح طالباً أنثاه .

٣ ـ وكان بائع وجيه لشهادات الغفران من دير رونسفال فى لندن .

كان قد خاط فوق قبعته صورة لوجه المسيح ، وكان كيسه يتدلى أمامه فوق حجره ، مترعاً بشهادات الغفران الآتية توا من روما .

ويلاحظ أنه لم يكن له نظير فى بيع شهادات الغفران ، من مدينة برويك فى أقصى الشمال حتى مدينة وير (Ware) فى الجنوب ، وكان فى حقيبته كيس وسادة يقول إنه قطعة من خمار السيدة العذراء ، وقال أيضاً إنه كان لديه خرقة من قلع زورق بطرس الرسول ، عندما حاول أن يمشى فوق الماء حتى رفعه يسوع المسيح ، وكان لديه صليب من النحاس الأصفر مرصع بالأحجار الكريمة ، كما كان لديه أيضاً فى زجاجة بعض عظام الخنزير ، بصفتها آثاراً مقدسة ، وكان يستغل هذه الآثار فى ابتزاز المال من أى شخص فقير

يقطن في الريف ، حتى يستطيع أن يأخذ منه أكثر مما يكتسب هذا المسكين في شهرين اثنين ، وهكذا كان في وسعه ـ عن طريق الرياء والخداع أن يضحك عليه ، وأن يجعل من الناس جميعاً قروداً يداعبها .

لم يكتف شوسر بعرض حكايات هؤلاء الأشخاص وغيرهم ممن يسيئون إلى الدين ، بل اهتم بامرأة تزوجت بخمسة أزواج عند بوابة الكنيسة ، وكان لها تفسير خاص لشريعة السيد المسيح : (قولوا لى : لأى غرض خلقت أدوات التناسل ، ولماذا خلقت بهذه الطريقة فائقة المهارة ؟ تأكدوا أيها السادة أنها لم تخلق من أجل لا شيء .. من أجل هذا سأستعمل أداتى فى الزوجية ، بنفس الحرية التى خلقها الله لى من أجلها ، وإذا أظهرت التمنع فليصبنى الله بالتعاسة والبؤس) .

* وتحتوى سجلات الأديرة على عشرين مجلداً من المحاكمات ، بسبب الاتصال الجنسى بين الرهبان والراهبات .

كان دير موبويسون شديد الانحلال ، وقد استعمله هنرى الرابع مكان لقائه بخليلته جابرييل دستريه ، وكانت رئيسته محاطة ببناتها غير الشرعيات ، وكانت الراهبات تغادرن الدير دون قيد ، ليلقين ويراقصن رهبان دير مجاور .

ويتحدث أرتينو عن راهبات البندقية حديثاً يخجل الإنسان من أن ينطق به .

وتقول القديسة كاترين السينائية : (إنك أينما وليت وجهك ـ سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين ، أو الطوائف الدينية المختلفة ، أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا ، سواء كانوا صغاراً فى السن أو كباراً ـ لم تر إلا شراً ورذيلة تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة) .

ويقول مؤرخ كاثوليكى صريح : (إن من الخطأ أن يظن المرء أن القساوسة كانوا فى روما أكثر فساداً منهم فى غيرها من المدن ، ذلك أن لدينا من الوثائق ما يثبت بالدليل القاطع فساد أخلاق القسيسين فى كل مدينة تقريباً من مدن شبه الجزيرة الإيطالية ، بل إن الحال فى كثير من الأماكن ـ كالبندقية مثلاً ـ كانت أسوأ كثيراً منها فى روما ، فلا عجب ـ والحال هذه ـ إذا تضاءل نفوذ رجال الدين ، كما يشهد بذلك الكتاب المعاصرون) .

إن الدين ـ حتى بين الطبقات غير المتعلمة ـ فقد بعض ما كان له من سلطان على

الحياة الأخلاقية ، وكانت نسبة متزايدة من السكان قد نبذت العقيدة القائلة بأن القانون الأخلاقي موحى به من الله ، وكاد يبدو للناس أن الوصايا العشر من وضع البشر ، وبهذا فقد القانون الأخلاقي ما كان له من رهبة وقوة ، فلم يعبأ أحد بالمحرمات ، وحل محلها قانون طلب المغانم ، وانتهاب اللذات ، مما ضعف شعور الناس بالخطيئة ، وتحرر الضمير من القيود ، وأخذ كل إنسان يفعل ما يشتهيه ، وما يقدر عليه .

* عاد اللواط إلى الظهور أثناء الحروب الصليبية ، وفي إثر عزلة الرهبان والراهبات .. وكانت المسيحية قد أفلحت في مهاجمة هذا الداء .

كتب هنري رئيس دير كليرفو ، عن فرنسا سنة ١١٧٧ : (إن سدوم القديمة قد أخذت تقوم فوق أنقاضها) .. واتهم فيليب الجميل رهبان المعبد بانتشار اللواط بينهم .. وفي كتب التوبة الدينية التي تصف وسائل التكفير عن الذنوب ذكر لضروب الفحش ، من بينها البهيمة .. وكانت طائفة كثيرة التنوع من البهائم موضع صلات جنسية بالآدميين .. وفي سجلات البرلمان الإنجليزي ذكر لطائفة من الكلاب ، والماعز، والخنازير ، والإوز ، حرقت حية هي ومن ارتكب معها الفحشاء من الآدميين .. كذلك كثرت مضاجعة المحارم.

وكان الاغتصاب شائعاً ، رغم ما يتعرض له المغتصب من أشد ضروب العقاب ، وكان الفرسان الذين يخدمون النساء ، أو الفتيات الكريمات المولد ، نظير قبلة أو لمسة من أيديهن يسلون أنفسهم بخادمات هؤلاء السيدات والفتيات ، ومن أولئك السيدات من لم يكن يستطعن النوم مرتاحات الضمائر إلا إذا هيأن بأنفسهن هذه التسلية .

يقول لانور لاندري : إن رجال الطبقة الأشراف التي ينتمي إليها كانوا يفسقون في الكنائس ، بل على (المذبح) نفسه ، ويتحدث عن (ملكتين استمتعتا ببهجتهما الآثمة ، وبلذتهما داخل الكنيسة ، أثناء الصلاة المقدسة ، في يوم خميس الصعود ، أثناء الصيام) .

وكان بعض الذاهبات إلى الحج يكسبن نفقة الطريق ـ كما يقول الأسقف بنيفاس ـ ببيع أجسادهن في المدن القائمة في طريقهن .. وكان كل جيش يتعقبه جيش آخر من العاهرات ، لا يقل خطراً عن جيش أعدائه .

يقول ألبرت من أهل إيكس (Aix) : (إن الصليبيين كان بين صفوفهم حشد كبير من النساء في ثياب الرجال يسافرن معهم ، دون أن يميزن عنهم ، ويغتنمن الفرصة التي تتاح لهم مع الرجال) .

وكتب القديس أوغسطين : (إذا امتنعت العاهرات والمواخير ، اضطربت الدنيا من شدة الشبق) .

ووافقه على هذا القديس توماس أكويناس الذى أباح الرقص فى حفلات العرس ، أو فى الاحتفالات بقدوم غائب، أو بنصر قومى، لأن (الرقص - إذا كنت فى حدود الأدب - رياضة بدنية مفيدة للصحة) .

وقد كان فى روما - كما قال الأسقف دوران الثانى سنة ١٣١١ - مواخير بالقرب من الفاتيكان ، وقد أحاز رجال البابا إقامتها نظير ما يتقاضون من الأجور .

ويروى أن أساقفة ستزا سبورج ماينزكانوا يحصلون على دخول من المواخير، بل إن أسقف فيرتسبورج أعطى ماخوراً تابعاً للبلدية إلى جراف فون هيتنبرج ، باعتباره إقطاعية تدر دخلاً .

وفى هذا الإطار كان الرهبان يزورون العهود ليكسبوا بها منحاً من الملوك لأديرتهم ، وقد زور لافرنك ، رئيس أساقفة كنتربرى - كما تقول المحكمة البابوية - عهداً يثبت به قدم كرسيه الدينى .

وقد وصل هذا الاستهتار بالقيم الدينية إلى أن كانت مدن فرنسية تحتفل فى الرابع عشر من يناير بعيد الحمار ، فتركب فتاة جميلة حماراً ، لعلها تمثل أم المسيح أثناء فرارها إلى مصر ، ثم يقاد الحمار إلى كنيسة ، وينحنى ، ويثنى ركبته اليمنى احتراماً وتجلة ، ويوقف بجانب المذبح ، ويستمع إلى قداس وترانيم يتغنى فيها بمديحه ، فإذا انتهت الصلاة نهق القس والمصلون ثلاث مرات تكريماً لهذا الحيوان الذى أنجى أم المسيح من هيرودس ، وحمل عيسى إلى أورشليم - قصة الحضارة مج ٤ ج ٥ ص٢١٥ .

وانعكس هذا الاستهتار الغبى على القانون .

كان القانون الإنجليزى يعاقب الجارية السارقة بإرغام ثمانين جارية على أن تؤدى كل واحدة منهن غرامة . وأن تأتى بثلاث حزم من الوقود ، وتحرق السارقة حية .

ويقول سالمبينى الراهب الإيطالى فى تاريخه الإخبارى : إن المساجين كانوا يعاملون بوحشية : لا يسهل تصديقها (فقد كانوا يربطون رءوس بعض الرجال بحبل ومخلة ، ويشدون الحبل بقوة تخرج عيونهم من أوقابها ، وتسقطها على خدودهم ، ومنهم من كانوا

يعذبون بصنوف العذاب أشنع من هذه ، وأشد منها رهبة ، أخجل من ذكرها ، وآخرون كانوا يجلسون وأيديهم مشدودة خلف ظهورهم ، ويضعون تحت أقدامهم أوعية مملوءة بالفحم الملتهب ، أو يربطون أيديهم بأرجلهم حول حفرة ، كما يربط الحمل وهو ينقل إلى القصاب ، ويبقونهم معلقين على هذا النحو طوال النهار ، من غير طعام أو شراب ، أو كانوا يحكون قصبات أرجلهم بقطعة خشنة من الخشب حتى يظهر عظم الساق عارياً من اللحم) (١) .

* وكان لابد أن يثمر الاستهتار الديني والعنف القانوني إلى ألوان من الخرافات والأوهام .

كان سكان إيطاليا يعتقدون أن كثيراً من الأشياء من مخلفات المسيح والرسل حقاً ، وقد بلغت هذه المخلفات من الكثرة درجة يستطيع الإنسان معها أن يجد في الكنائس الرومانية في عهد النهضة أشياء تمثل جميع مناظر الأناجيل ، فواحدة منها تدعى أن بها قطعة من قماش الطفل يسوع ، وأخرى تقول إن بها عود دريس من مزود بيت لحم ، وثالثة تزعم أنها تضم من الأرغفة والسمك التي تضاعف عدها ، ورابعة تدعى أن بها المائدة التي استخدمت في العشاء الأخير ، وواحدة تعتقد أن بها صورة العذراء التي رسمها الملائكة للقديس لوقا ، وكانت كنائس البندقية تعرض جسم القديس مرقص ، وقطعة من ذراع القديس جورج ، وإحدى أذني القديس بولس ، وبعض السمك المحمر الذي أكل منه القديس لورنس ، وبعض الحجارة التي قتلت القديس استيفن (٢) .

وكان الاعتقاد السائد أن لكل جسم ، بل لكل عدد وكل حرف ، قوة سحرية .

يقول أرتينو : إن بعض العاهرات الرومانيات كن يطعمن عشاقهن لحم الجثث البشرية المتعفنة - يسرقنه من المقابر - ليقوين به الباه عندهم .

---

(١) كأن سالميني ينقل صفحات من التاريخ العربي ، ابتداء من الحجاج وداود بن علي إلى عبد الناصر وصدام حسين

(٢) انتقل هذا التقليد الخرافي إلى المجتمع الإسلامي ، فادعت عدة بلاد ملكيتها لجثمان الحسين بن علي، وزعمت مساجد أنها تضم شعرة أو موضع قدم أو شيئا مما ملكه الرسول محمد ﷺ ، وفي سوريا وجدت ضريحاً لسيدنا يحيى عليه السلام زعم بعضهم أن رأس يحيى بعد أن قطعت ورقصت بها سالومي ظلت تتدحرج حتى وصلت إلى حمص ، لتكون في حماية مسجد خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وحين جادلت في هذا كدت أدفن في نفس المكان .

وكانت الرقى تستخدم لألف غرض ، وكانت الأرواح الخيرة والشريرة تملأ الهواء ، ومن العفاريت طائفة تملك من العلم الخفي ما يستطيع به المرء أن يحقق ما يريد ، إذا استطاع أن يستميلها إليه بطريقة خاصة .

وأصدر إنوسنت الثامن سنة ١٤٨٤ مرسوماً بابوياً يحرم فيه الالتجاء إلى الساحرات ، ويسلم فيه بصحة ما يدعينه من القوى ، ويعزو إليهن بعض العواصف والأوبئة ، وشكا من أن بعض المسيحيين الذين حادوا عن الشعائر الدينية الصحيحة كانوا قد اتصلوا اتصالاً جسمياً بالشياطين ، وأنهم استعانوا بالرقى ، والعبارات السحرية المشجعة ، واللعنات ، وغيرها من الفنون الشيطانية ، فأوقعوا ضرراً شديداً ببعض الرجال والنساء والأطفال والحيوانات ، وأشار البابا على عمال محاكم التفتيش أن يكونوا يقظين حذرين من هذه الأعمال .

وقد ظلت الكنيسة قروناً تؤمن بإمكان تأثير الشياطين في الآدميين ، وقد قوى افتراض البابا بوجود السحر الاعتقاد بصحة هذا التأثير ، وكان التحذير الذى وجهه لأعضاء محكمة التفتيش من عوامل اضطهاد الساحرات .

حدث في العام الأول بعد هذا المرسوم أن حرقت إحدى وأربعون امرأة في (كومو) وحدها ، بتهمة أنهن ساحرات وأحرق ١٤٠ امرأة في بريشيا بنفس التهمة ، وفي سنة ١٥١٤ في بابوية ليو أحرقت ثلاثمائة في (كومو) .

وأخذ الأمر يتفاقم حتى اتخذ صورة وباء في طبيعته وكثرة المصابين به ، وقال الناس إن ٢٥ ألفاً حضروا (سَبْتاً) للساحرات على سهل قريب من بريشيا .. وفي سنة ١٥١٨ أحرق عمال محكمة التفتيش سبعين ساحرة من أهل ذلك الإقليم ، وزج آلاف في سجون المحكمة ، واحتج مجلس السيادة في بريشيا على زج الناس جملة في السجون ، وحال دون الاستمرار في قتل السحرة ، فما كان من (ليو) إلا أن أصدر مرسوماً في ١٥ فبراير ١٥٢١ يأمر فيه بحرمان أى موظف يأبى أن ينفذ ـ دون تحقيق أو جدل ـ أحكام محكمة التفتيش ، ووقف جميع الخدمات الدينية بين أية جماعة تمتنع عن هذا التنفيذ .

وكثيراً ما كان الكتاب يستجيبون لسخافات بيئتهم .. ها هو بجيو مثلاً يرتع ويمرح وسط النذر وغرائب المخلوقات ، كالفرسان الذين لارءوس لهم ، والذين يهاجرون من كومو إلى ألمانيا ، أو آلهة البحار الملتحين الذين يخرجون من أعماق البحار ليختطفوا النساء الحسان من الشواطئ .. وها هو مكيافللي المتشكك في الدين لا يستبعد أن يكون الهواء مليئاً

بالأرواح ، ويجهر باعتقاده أن الحوادث الخطيرة تسبقها وتدل عليها خوارق الطبيعة ، والنبوءات ، والوحي ، والعلامات التي تظهر في السماء .. وكان أهل فلورنس يعتقدون أن جميع الحوادث الخطيرة تقع يوم السبت ، وأن السير إلى الحرب في شوارع معينة من المدينة يجر مصائب لا نجاة منها .

وقد بلغ انتشار العقيدة القائلة بأن النجوم تسيطر على مقادير البشر حداً جعل كثيراً من أساتذة الجامعات في إيطاليا يصدرون في كل عام تنبؤات قائمة على أساس التنجيم .. لكن التنجيم مع ذلك كان ينطوي على شئ من التطلع نحو النظرة العلمية إلى الكون ، وكان فيه إلى حد ما مهرب من الاعتقاد بوجود كون تسيطر عليه نزعات الشياطين ، ويهدف إلى العثور على قانون طبيعي شامل ينسق المظاهر الطبيعية ، ويوفق بينها .

وكان آلاف من الحجاج المخلصين يهرعون كل عام ـ في أيام النهضة ، كما يفعل كثيرون اليوم ـ لزيارة (البيت المقدس) وهو بيت يقال إن مريم ويوسف وعيسى كانوا يسكنونه في الناصرة ، ثم نقلته الملائكة ـ كما تقول القصة العجيبة ـ إلى دلماشيا أولاً سنة ١٢٩١ ، ثم عبرت به البحر الأدرياتي سنة ١٢٩٤ إلى أجمة من الغار قريبة من ريكاناتي ، وقد أقيم حول البيت الحجري الصغير سور من الرخام ، من تصميم الفنان برامنتي ، وأضاف إليه أندرياسانسوفينو زخارف في صورة تماثيل ، ثم شيد جوبليانو دامايانو ، وجوبليانو داساجلو ـ سنة ١٤٢٨ وما بعدها ـ فوق هذا البيت كنيسة ، ووضع على مذبح داخل (البيت المقدس) تمثال لمريم والطفل ، مصنوع من خشب الأرز الأسود ، يقال إنه من صنع الفنان لوقا الإنجيلي .. ولما احترق هذا التمثال سنة ١٩٢١ وضعت في مكانه صورة أخرى منه ، مزينة بالجواهر والحجارة الكريمة .

* ومن أجل انتشار الفساد البابوي ، وتجاوز القيم الأخلاقية بصورة عامة ، ومن أجل اختلاط المفاهيم الدينية والطقوس الكنسية بما هو غريب عليها ، مما تفرزه البيئة الفاسدة من أساطير وأوهام ـ أنشأ سادوليتو ، وجيبرتي ، وكارفا ، وغيرهم من رجال الكنيسة سنة ١٥١٧ (محراب الحب القدسي) ، ليكون مركزاً لأتقياء الرحال الذين يريدون ملجأ مما في روما من انهماك وثني في مفاتن الدنيا .

وتشكلت طوائف أخرى أخذت هذا المأخذ ، وبخاصة طائفة الكابوتشين ، فقد رأى أحد الرهبان الفرنسيس المتزمتين القديس فرنسيس في رؤيا يقول له : (أحب أن تتبع

قاعدتى بنصها ، بنصها ، بنصها) ، فلبس قلنسوة مستدقة ذات أركان مربعة ، علم أن القديس فرنسيس كان يلبسها ، وسافر إلى روما ، وحصل على إذن من البابا كليمنت السابع سنة ١٥٢٨ بإنشاء فرع جديد من طائفة الرهبان الفرنسيس ، والتزمت الطائفة باللباس الخشن، والحفاء طول العام ، والعيش على الخبز والخضر والفاكهة والماء ، مع مراعاة فروض الصيام الدقيق، والنوم فى صوامع ضيقة ، فى أكواخ من الخشب والطين ، وعدم السفر إلا راجلين .

* * هذه الخرافات جميعاً أو ما هو على شاكلتها ، تروج الآن فى المجتمع الحديث مسيحية وإسلامية ، وتنتشر كثير من المطبوعات التى تتحدث عن السحر والجن والنجوم ، وتأثير هذا كله فى مسيرة الحياة ، وعلاج كثير من المؤثرات بالرقى والتعاويذ والمجالس الروحية وقراءة الكتب المقدسة .. وإن كثيراً من هذه الخرافات يقع فى حبائلها قادة كثير من الدول وكثير من الجيوش ، مما يفيد أن المسارات الروحية تسلك مسالك غير المسارات العقلية ، ومن اليسير جداً أن تجد من يخلط بين المسارات الروحية والعقلية ، ومن يحاول التوفيق بينهما ، ومن يكفر بأحدهما أو كليهما !!.

* * *

سلوك البابوات ..

تم اختيار إربان السادس بابا سنة ١٣٧٨ ، فى ظروف ووسائل غير طبيعية ، فحكم روما والكنيسة بنشاط استبدادى عنيف .. عين أعضاء مجلس الشيوخ وكبار موظفى الدولة ، وأخضع العاصمة الثائرة المضطربة للطاعة والنظام ، وروع الكرادلة بعزمه على إصلاح الكنيسة ، وأنه سيبدأ الإصلاح من أعلى ، وألقى موعظة فى الكرادلة ندد فيها بفساد أخلاقهم وأخلاق كبار رجال الدين ، ولم يترك نقيصة إلا رماهم بها ، وأمرهم ألا يقبلوا معاشاً ، وأن يقوموا بجميع الأعمال التى تحال إلى المحاكم البابوية دون أجور أو هدايا ، أياً كان نوعها .. فلما احتج الكردينال أرسينى (Orsini) قال له البابا : إنه أبله لا يعقل ، ولما اعترض عليه الكردينال ليموج هجم عليه يريد أن يضربه .. فبعثت إليه القديسة كاترين ، (إن التطرف يهدم ولا يبنى ، وإنى أستحلفك بحق الرب المصلوب أن تكبح بعض الشيء جماح هذه الحركات السريعة التى تدفعك إليها طبيعتك) .

أصمّ البابا أذنيه ، وأعلن عزمه على تعيين عدد من الكرادلة الإيطاليين ، يكفى لأن يجعل لإيطاليا الأغلبية فى مجلس الكرادلة .

اجتمع الكرادلة الفرنسيون فى أنانينى ، وأصدروا منشوراً فى التاسع من أغسطس ١٣٧٩ يعلنون فيه أن انتخاب إربان باطل ، لأنه تم تحت ضغط غوغاء روما ، وانضم إليهم جميع الكرادلة الإيطاليين ، وأعلن المجمع ـ على بكرة أبيه ـ فى ٢٠ سبتمبر أن روبرت الجنيفى هو البابا الحق ، واتخذ روبرت مقامه فى أفنيون ، وتسمى باسم كليمنت السابع ، أما إربان فقد تمسك بمنصبه ، وظل مقيماً فى روما .

نددت القديسة كاترين بكليمنت السابع ، وقالت إنه يهوذا .

وادعت كلتا الطائفتين أن القربان المقدس الذى تقدمه الطائفة الأخرى باطل ، وأن الأطفال الذين تعمدهم ، والتائبين الذين تتلقى اعترافاتهم ، والموتى الذين تمسحهم ، يبقون فى حالة من الخطيئة الأخلاقية ملقين فى الجحيم ، أو فى الأعراف ، إذا عاجلهم الموت .

ولما ائتمر كثيرون من كرادلة إربان الجدد عليه ليقتلوه ، لأنه عاجز شديد الخطورة ، أمر بالقبض على سبعة منهم ، وعذبهم ، ثم أعدمهم سنة ١٣٨٥ .

ولم يحسم موته سنة ١٣٨٩ النزاع ، لأن الكرادلة الأربعة عشر الذين بقوا فى معسكره اختاروا لمنصب البابوية بيرو ثوما تشيلى الذى تسمى باسم بونيفاس التاسع .

ولما مات كلمنت السابع سنة ١٣٩٤ ، رشح كرادلة أفنيون بيرو ده لونا ليكون هو بندكت الثالث عشر .

وظلت لعبة الكرادلة والبابوات حتى تدخل شارل السادس ملك فرنسا ، وتم عقد مؤتمر فى بيزا فى ٢٥ مارس ١٤٠٩ .

اجتمع فى هذا المجلس ستة وعشرون كردينالاً ، وأربعة بطارقة ، واثنا عشر من رؤساء الأساقفة ، وثمانون أسقفاً ، وسبعة وثمانون من رؤساء الأديرة ، ورؤساء جميع طوائف الرهبان الكبرى ، ومندوبون عن جميع الجامعات الكبيرة ، وثلاثمائة من رجال القانون الكنسى ، وسفراء من قبل جميع الحكومات الأوربية ، ما عدا حكومات هنغاريا ، ونابلى ، وأسبانيا ، واسكنديناوه ، واسكتلنده ، وأعلن المجلس أنه كنسى (مشروع حسب قانون الكنيسة) ، ومسكونى عالمى ، (يمثل العالم المسيحى كله) ، وهى دعوى أغفلت الأرثوذكسية اليونانية والروسية وبطريركية الإسكندرية وأديس أبابا .

دعا هذا المجلس كلا من بندكت وجريجورى للمثول أمامه ، فلم يلب أحدهما الدعوة ، فأعلن المجلس خلعهما ، ونادى بكردينال ميلان بابا باسم إسكندر الخامس سنة ١٤٠٩ .

وبهذا أسفرت النتيجة عن ثلاثة بابوات ، ولم يساعد موت إسكندر الخامس سنة ١٤١٠ على المصالحة فتم اختيار يوحنا الثالث والعشرون خلفاً له .

وكان بونيفاس التاسع قد عين بلدسارى الكوسائى مندوباً بابوياً على بولونيا ، فحكمها كما يحكم رؤساء الجند المغامرون حكماً مطلقاً ، لم يراع ذمة ولا ضميراً ، فرض الضرائب على كل شيء ، بما فى ذلك العهر ، والميسر ، والربا .. ويتهمه أمين سره الخاص بأنه أغوى مائتى عذراء وامرأة متزوجة وأرملة وراهبة ، وشكل قوة من الجند تدين له هو نفسه بالولاء .

* بعد أن أصبح سجسمند ملكاً على الرومان سنة ١٤١١ دعا البابا يوحنا الثالث والعشرين إلى عقد المجلس العام فى بيز ، فلما تباطأ أرغمه على أن يدعو المجلس العام إلى الانعقاد فى مدينة كنستاس ، بعيداً من الضغوط الإيطالية ، ولقابليتها للنفوذ الإمبراطورى .

وما كاد المجلس يضع جدول أعماله حتى فوجئ بانسحاب البابا الذى دعاه ، بعد أن علم أن أعداءه سيعرضون على المجلس سجلاً بجرائمه ، وتبذله ، وفر من كنستاس فى زى سائس فى العشرين من مارس ١٤١٥ .

وفى السادس من أبريل اتخذ المجلس قراراً بأن (أى إنسان ـ مهما تكن مرتبته ، أو صفته ، أو منزلته ، بما فى ذلك البابا ـ يأبى أن يطيع الأوامر ، والقوانين ، والفروض ، والقواعد التى يقرها هذا المجلس المقدس ، أو أى مجلس آخر ينعقد انعقاداً صحيحاً ، بقصد القضاء على الانشقاق ، أو إصلاح الكنيسة ـ يضع نفسه تحت طائلة العقاب الحق .. وستتخذ ـ إذا اقتضى الأمر ـ وسائل أخرى للاستعانة بها فى تطبيق العدالة) .

واحتج كثير من الكرادلة على هذا القرار ، خشية القضاء على حق مجتمع الكرادلة فى انتخاب البابا ، لكن المجلس تغلب على معارضتهم ، وأوفد لجنة إلى يوحنا الثالث والعشرين تدعوه إلى التخلى عن البابوية ، فلم يجب جواباً صريحاً ، وفى ١٥ مايو عرضت على المجلس التهم الأربع والخمسون التى وجهت إليه ، وهى تنص على أنه كافر ، كاذب ، متجر بالمقدسات والمناصب الكهنوتية ، خائن ، غادر ، فاسق ، لص .. وكانت هناك ست عشرة تهمة أخرى استبعدت لشدة قسوتها (؟!) .

وفى التاسع والعشرين من مايو قرر المجلس خلعه ، وأمر سجسمند بأن يسجن فى قلعة هيدلبرج ، طوال انعقاد المجلس ، وأفرج عنه سنة ١٤١٨ .

ورغم مراوغة جريجورى فقد اضطر إلى الاستقالة فى يولية ١٤١٥ ، وأيد صحة من عينهم المجلس فى مناصبهم ، واختير حاكماً على أنكونا ، حيث عاش فى هدوء ، حتى وافته منيته .

أما بندكت فقد أصر على المقاومة ، لكن كرادلته تخلوا عنه ، وتصالحوا مع المجلس ، وتم خلعه فى السادس والعشرين من يوليه ، وأوى إلى قصر أسرته فى بلنسية ، حتى مات فى التسعين .

وفى السابع عشر من نوفمبر اختارت لجنة المجلس الانتخابية الكردينال أودنى كولنا لمنصب البابوية ، وتسمى باسم مارتن الخامس ، وارتضاه العالم المسيحي ، وبهذا انقضت تسع وثلاثون سنة من الانشقاق .

* جرى مارتن على السنة السيئة التى جرى عليها أسلافه ، فعين فى المناصب ذات المرتب الضخم والسلطان الكبير أقاربه من آل كولنا . ولم يجد طريقة يحصل على ما يلزمه من المال إلا بيع المناصب والخدمات الدينية ، إذ كان المال فى نظره ألزم للكنيسة من الإصلاح

وفى سنة ١٤٣٠ بعث مندوب ألمانى فى روما إلى أميره رسالة جاء فيها : (أصبح الشره صاحب السلطان الأعلى فى البلاط البابوى ، وهو يبتكر فى كل يوم لنفسه أساليب جديدة لابتزاز المال من ألمانيا ، بدعوى أداء أجور رجال الدين وهذا هو سبب الأصوات التى ترتفع بالتذمر والسخط) .

إن البابوية كانت حكومة أكثر مما كانت ديناً ، وكان لابد أن يكون البابوات رجال حكم ، ومحاربين فى بعض الأحيان ـ قصة الحضارة مج ٥ ج ٣ ص ١٧ .

* ولما تولى يوجنيوس الرابع أمر البابوية جعل آل كولنا أعداء له أقوياء ، فقد اعتقد أن مارتن أقطع هذه الأسرة كثيراً من أملاك الكنيسة ، وأمر أن ترد إليها أجزاء كثيرة من هذه الأملاك ، فشن آل كولنا الحرب على البابا ، وانتهزوا فرصة عدم استجابته لأوامر المجلس الأعلى الذى عقد فى مدينة بازل سنة ١٤٣١ ، فدبروا ثورة فى المدينة ، وأقاموا حكومة جمهورية سنة ١٤٣٤ ، ففر يوجنيوس فى قارب صغير سار به نحو مصب نهر التّيبر ، بينما كان العامة يرشقونه بالسهام ، وبالحراب والحجارة ، واتخذ له ملجأ فى فلورنس ، ثم فى بولونيا ، وظل منفياً هو وحكومته عن روما تسع سنين .

وكانت الغالبية العظمى من المندوبين الذين حضروا مجلس بازل من الفرنسيين ، وكان غرضهم ـ كما قال أسقف تور فى صراحة ـ إما أن ينتزعوا الكرسى الرسولى من الإيطاليين ، وإما أن يجردوه من سلطانه ، بحيث لايهمهم بعدئذ أين يكون مقره .. وعملاً بهذه القاعدة استولى المجلس على امتيازات البابوية فأصدر هو صكوك الغفران ، ومنح الإعفاءات من الفروض الدينية ، وعين الموظفين الدينيين ، وطلب أن تؤدى له، لا للبابا ،

باكورة مرتبات رجال الدين ، فأصدر يوجنيوس قراراً بحل المجلس ، ورد عليه المجلس بإعلان خلعه سنة ١٤٣٩ ، واختار أمديوس الثامن من سافوى بابا ، باسم فيلكس الخامس ، وبهذا تجدد الانشقاق البابوى مرة أخرى .

وقد وصف كبير أساقفة براج البابا بأنه (وحش سفر الرؤيا) .

ولاح أن صَرْح الكنيسة كله قد تحطم ، وأصبح لا يرجى رأب صدعه .

* ولما تولى كلكستس الثالث (١٤٥٥ ـ ١٤٥٨) أمر البابوية منح ردريجو بورجيا أكثر المناصب كسباً في البلاط البابوى ، وكان ردريجو رجلاً صريحاً مستهتراً في أمور عشيقاته ، وفى سنة ١٤٥٧ عينه نائب رئيس الحكومة البابوية ، ثم عينه في العام نفسه قائداً عاماً للقوات البابوية .

* وكان بيوس الثاني (١٤٥٨ ـ ١٤٦٤) ـ قبل أن يصبح بابا ـ يتَنَقّل بين المناصب الدينية والسياسية ، وبين صدور النساء ، كأنه يقوم بالتدريب على القيام بمهام البابوية وبمهام الحياة الزوجية ، وقد أنجب عدداً من الأبناء غير الشرعيين ، وبرر سلوكه بأنه (ليس أكثر قداسة من داود ولا حكمة من سليمان) .

كان بوسعه أن يقتبس من الكتاب المقدس ما يبرر تصرفاته ، وكتب رواية من طراز كتابات بوكاشيو ، ترجمت إلى اللغات الأوروبية كلها ، وكان هذا من عوامل ترقيته إلى مقام البابوية ـ قصة الحضارة مج ٥ ج ٢ ص ٤٣ .

كانت له علاقة بالإمبراطور الألماني فردريك الثالث ، وقد بعث به الإمبراطور رسولاً إلى البابا سنة ١٤٤٥ ، فاستحوذ بفصاحته على قلب البابا ، فعفا عنه ، ثم رسم قسيساً سنة ١٤٤٦ ، وأيقظت زياراته روما حبه لإيطاليا ، فأحكم علاقته ببلاط البابا سنة ١٤٥٥ ، وكان قد عين أسقفاً لسِنْيا سنة ١٤٥٤ . وفى سنة ١٤٥٦ أصبح كردينالاً بكولومبتى ، وفى سنة ١٤٥٨ اختير بابا للفاتيكان ، وعاش عيشة بسيطة يراعى فيها جوانب الاقتصاد ، حتى كسب قلوب الناس ، وفى سنة ١٤٦٣ أصدر قراراً يستنكر فيه ماضيه ، ويضرع إلى الله وإلى الكنيسة أن يغفرا له أخطاءه وذنوبه ، كما أصدر نداء إلى الكرادلة يقول : (يقول الناس إننا نسعى وراء اللذة ، وجمع الثراء ، وإننا متغطرسون ، نمتطى البغال السمينة ، والأمهار الجميلة ، ونجر أذيال أثوابنا من خلفنا ونطل بوجوهنا المستديرة المكتنزة من تحت

القبعة الحمراء ، والقلنسوة البيضاء ، ونربى الكلاب للصيد ، وننفق الكثير من المال على الممثلات والطفيليين والطفيليات ، ونضن بالقليل على شئون الدين، وإن لهم بعض الحق فيما يقولون ، ذلك أن من بين الكرادلة وغيرهم من الموظفين في بلاطنا من يحبون هذا النوع من الحياة ، وإذا شئتم الحقيقة قلت لكم إن الترف والأبهة الكاذبة زاد في بلاطنا على الحد ، وهذا هو الذى يجعل الناس يمقتوننا مقتاً يمنعهم من أن يستمعوا لنا ، حتى حين ننطق بما هو حق ومعقول) .

وفى سنة ١٤٦١ وجه إلى السلطان العثمانى دعوة حارة لقبول إنجيل المسيح بحجة أنه (إذا انضممت إلينا فلن يلبث الشرق كله أن يعتنق الدين المسيحى ، إن إرادة واحدة تستطيع أن تبسط لواء السلم على العالم كله) !! .

* ولما دخل بولس الثانى ـ (١٤٦٤ ـ ١٤٧١) المجمع المقدس الذى اختاره بابا تعهد بأنه إذا اختير سيشنّ الحرب على الأتراك (المسلمين) ، كما تعهد غيره من البابوات ، وأن يعقد مجلساً عاماً ، وأن يحدد عدد الكرادلة بأربعة وعشرين ، وألا يتجاوز عدد أقارب البابا من بينهم كردينالاً واحداً ، وألا يرفع أحداً إلى مرتبة الكردينالية ، إذا لم يبلغ سن الثلاثين ، وأن يستشير الكرادلة فى جميع الشئون الخطيرة .. فلما تم انتخابه نبذ كل ما أخذه على نفسه من مواثيق ، بحجة أنها تناقض التقاليد والسلطات المرعية التى رفع الزمان شأنها ، واسترضى الكرادلة بأن جعل أدنى حد لإيرادهم السنوى أربعة آلاف فلورين (مائة ألف دولار تقريباً) .

كان يلبس تاجاً بابوياً تزيد قيمته على قيمة قصر من القصور ، وكان ـ وهو كردينال ـ يشغل أوقاته فى صناعة الجواهر ، والميداليات ، والحلى المنقوشة التى كان يتجلى بها ثراؤه بأجل المظاهر ، وقد جمعت هذه كلها مع مخلفات الفن القديم فى قصر سان ماركو الفخم الذى بناه لنفسه عند قاعدة الكبتول .

* وكان سكستس (Sixtus) الرابع (١٤٧١ ـ ١٤٨٤) قليل الثقة بالغرباء ، لهذا حبَا أبناء إخوته الجشعين مناصب تدر عليهم المال ، وتكسبهم السلطان .. وكان بترو رياريو ، أحب أبناء إخوته إليه ، مولعاً بالترف والشهوات الحسية لدرجة أن ما أغدقه

عليه البابا من مال وفير لم يف بالتزاماته الفاجرة ، مع أنه كان راهباً متسولاً معدماً ، وقد عينه سكستس كردينالاً سنة ١٤٧١ وهو في الخامسة والعشرين ، ومنحه أسقفيات تريفيزو ، وسنجاليا ، وإسبالاتو ، وفلورنس ، كما ولاه مراكز أخرى عالية الشأن ، دَرّت عليه دخلاً قدره ستون ألف دوقة (مليون ونصف مليون دولار تقريباً) ، وكان بيترو ينفق هذا الدخل كله وأكثر منه في شراء آنية من الذهب والفضة ، والثياب الجميلة ، والسجف المنقوشة ، والأقمشة المطرزة ، وعلى الحاشية المفخمة ، وحيوانات الصيد ، وعلى مناصرة المصورين والشعراء والعلماء .

وأخل السلطان بعقله ، فقام برحلة في فلورنس ، وبولونيا ، وفيرار ، والبندقية ، وميلان ـ كرم فيها كما يكرم كل أمير يجرى في عروقه الدم الملكي .. كان يعرض عشيقاته برتدين أفخم الثياب والحلى ، في الوقت الذى كان يعد العدة ليكون البابا بعد عمه، لكنه توفى قبل أن يعود إلى روما سنة ١٤٧٤ ، وكان لم يزل في الثامنة والعشرين ، بعد أن أنفق مائتى ألف دوقة في عامين ، وبعد أن استدان ستين ألفاً أخرى .

وعين أخوه جيرولامو قائداً لجيوش البابا ، وسيداً لإمولا ، وفرلى .

وعين ابن أخ آخر مديراً لشرطة روما ، ولما مات خلفه أخوه جيوفني في هذا المنصب .

وكان أقدر أبناء الإخوة جميعاً جوليانا دلاروفيرى ، الذى صار البابا يوليوس الثانى .

كان سكستس قساً استعمارياً شديد الشكيمة ، يحب الفن ، والحرب ، والسلطان ، ويعمل لنيل مآربه دون وخز ضمير ، أو مراعاة آداب .

احتكر لنفسه بيع الغلال في جميع الولايات البابوية ، وكان يبيع أحسنها خارج هذه الولايات ، ويجنى أرباحاً طائلة .

وخلف وراءه رغم هذه المكاسب وغيرها ـ ديوناً يبلغ مجموعها (٣٫٧٥٠٫٠٠٠ دولار تقريباً) .

وكان له نصيب كبير في الانحلال الأخلاقي بإيطاليا ، إذ استجاب لدواعى هذا الانحلال ، وكان هو الذى نَصب توركويمادا رئيساً لمحكمة التفتيش الأسبانية ، وهو الذى أثار في روما وباء الهجاء والإباحية ، فخول محكمة التفتيش الحق في أن تحرم طبع أى كتاب لا ترغب في طبعه .

ومن مآثره أن لورندسو رأس وفداً من أهل فلورنس ليهنئ البابا بارتقائه العرش البابوى ، فرد سكستس على هذه التهنئة بأن رفض تعيين ممثل بيت مديتشى مديراً للأموال البابوية تحدياً للورندسو .

ولما علم أن فلورنس تحاول ابتياع مدينة إيمولا تعجل بشرائها ، ونقل من فلورنس إلى باتسى الامتيازات التى تدر الربح الموفور ، الناتج عن تصريف شئون المالية البابوية .

ثم عين أحد أعداء المديتشيين حاكماً لإيمولا ، وآخر كبيراً لأساقفة بيزا التى كانت من أملاك فلورنس .

وكان أن رد لورندسو على ذلك بوسائل أدت إلى انهيار شركة باتسى ، وأمر بيزا بعدم تمكين كبير الأساقفة (البابوى) من مباشرة عمله .. فتآمر البابا مع آل باتسى على اغتيال لورندسو أثناء القداس الذى سيقام فى الكنيسة الكبرى يوم عيد الفصح سنة ١٤٧٨ .

ذهب لورندسو إلى الكنيسة لا يحمل سلاحاً ، ولا يصحب حرساً ، وبينما كان القس يرفع يده بالقربان المقدس تم طعن لورندسو فى صدره حتى سقط على الأرض ، وظل المتآمرون يكيلون له طعنات يتلقاها بذراعيه ، حتى أقبل أصدقاؤه ، وفر المتآمرون .

وفى هذه الأثناء زحف كبير الأساقفة (البابوى) وياقوبو دى باتسى بمجموعة من المسلحين على قصر فيتشيو ، وهم يهتفون ضد آل مديتشى لإثارة الجمهور ، لكن الشعب أحاط بهم ، وشنق كبير الأساقفة ، فأصدر البابا قراراً بحرمان لورندسو وكبار حكام فلورنس ، وأوقف جميع الخدمات الدينية فى كافة أملاك الولاية .

احتج عدد من رجال الدين على قرار الحرمان ، وأصدروا وثيقة يندون فيها بالبابا، وضمنوها أشنع السباب .

تحالف البابا مع نابلى لحرب فلورنس سنة ١٤٧٩ ، وتم الانتصار على فلورنس ، وفرضت عليها ضرائب فادحة .. لكن لورندسو عقد صلحاً مع نابلى ، فاضطر البابا إلى المصالحة ، وأصبح لورندسو سيد تسكانيا كلها .

* ولما تولى البابا إنوسنت الثامن (١٤٨٤ ـ ١٤٩٢) أقنعه لورندسو أن يرسم ابنه

جيوفني كردينالاً ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان هدف البابا أن يملأ خزائنه من طلاب المناصب الكبيرة ، وزاد فأنشأ مناصب جديدة عرضها للبيع، زاد عدد الكرادلة وعدد أمناء البابوية ، وحصل بذلك على مبالغ طائلة ، ثم رفع عدد حاملى الأختام إلى اثنين وخمسين ، مع أن واحداً يكفى لمهر القرارات البابوية بخاتم من الرصاص ، وجنى من كل واحد ٢٥٠٠ دوقة .

وكان أصحاب هذه المناصب يعوضون ما أدوه بمرتبهم الضخم ، وبابتزاز المال بكل وسيلة ممكنة .

وبدا أن كل شيء يمكن شراؤه فى روما من الإعفاء من الأحكام القضائية إلى مقام البابوية نفسه .

ذكر ألفيسورا أن رجلاً ضاجع ابنتيه ، ثم قتلهما ، فعفى عنه مقابل ٨٠٠ دوقة ، ولما سئل الكردينال بورجيا قال : (إن الله لا يريد أن يموت الآثم ، بل يريد أن يعيش ويدفع الثمن) .

وكان فرانشيسكو تشيبو وغداً (يشق طريقه إلى بيوت الآخرين لأغراض دنيئة) ، ويحرص على أن يستولي على قدر كبير من الغرامات التى تحصلها المحاكم الكنسية فى روما ، لينفقه فى الميسر ، وقد خسر فى إحدى الليالى ١٤ ألف دوقة (٣٥٠ ألف دولار تقريباً) ، كسبها منه الكردينال روفائيل رياردو ، ثم شكا إلى البابا أنه خدع فى اللعب ، وحاول البابا أن يسترد له ما خسر ، لكن الكردينال ادعى أنه أنفقه .

يقول باستور المؤرخ الكاثوليكى : (يبدو أن الكرادلة كانوا يحسبون أن أثوابهم الكهنوتية ليست إلا زينة تتطلبها مراتبهم ، وكانوا يصيدون ويقامرون ، ويقيمون الولائم ، وضروب التسلية الفخمة ، ويشتركون فى جميع ضروب المرح التمثيلى الذى تجرى به المساخر المقنعة وينغمسون فى الفساد الخلقى الطليق من كل قيد ، وينطبق ذلك أكثر على ردريجو بورجيا) .

* أصبح ردريجو بورجيا كردينالاً وهو فى الخامسة والعشرين سنة ١٤٥٦ ، ولما بلغ السادسة والعشرين عين نائباً لقاضى القضاة ، أى رئيساً للحكومة البابوية .

رافق بيوس الثانى إلى أنكونا سنة ١٤٦٤ ، وهناك أصيب بمرض تناسلى (لأنه لم

ينم بمفرده) ، كما يقول الطبيب .

ثم عقد حوالى سنة ١٤٦٦ علاقة نسائية مع فانتساده كاتانى، وكانت فى الرابعة والعشرين، متزوجة ، وقد هجرها زوجها سنة ١٤٦٨ ، فولدت لردريجو (الذى أصبح قساً) أربعة أبنـاء ، نسبوا جميعـاً إلى فانتسا على شاهـد قبـرها ، واعتـرف بهـم ردريجو فى أوقات مختلفـة .

وقد نجح ردريجو فى ترقية أبنائه فى المناصب الكنسية ، كما نجح فى الحصول على كرسى البابوية .

كان معاصروه ينظرون إلى خطيئاته ــ قبل أن يصبح بابا ــ على أنها آثام مرذولة ، حسب القوانين الكنسية ، لكنها ــ بالنسبة للجو الأخلاقى السائد ــ مما يتسامح فيه .

وقد عين مرتين نائباً لرئيس المحكمة البابوية ، وقضى فى هذا المنصب خمساً وثلاثين سنة ، خلال حكم خمسة بابوات .

وتم انتخابه بابا بإجماع الآراء سنة ١٤٩٢ ، وتسمى باسم (الإسكندر الذى لا يقهر)، وكانت هذه (بداية وثنية لولاية دينية وثنيـة) ــ قصة الحضارة مج ٥ ج ٣ ص ٨٣/٧٩ .

ومنذ جلس إسكندر السادس (١٤٩٢ ــ ١٥٠٣) على عرش البابوية ، وهو يحرص على إرضاء إركولى حاكم فيرارا ، لأنه كان يهدف إلى جعل ابنته لكريدسيا دوقة فيرارا ، فلما عرض على إركولى أن يتزوج ولى عهده ألفونسو من لكريدسيا قابل إركولى هذا العرض بفتور ، لأن سمعة لكريدسيا لم تكن طاهرة ، ثم قبل الاقتراح بعد مساومات ملحة من البابا الذى منح ابنته بائنـة تبلغ مليوناً وربع المليون من الدولارات تقريباً ، كما عرض تخفيض الجـزية السنوية التى تؤديهـا فيرارا للبـابوية ، وأن تكون فيرارا لألفـونسـو وورثتـه إلى الأبد .

وحدث أن افتتن اثنان من إخوة ألفونسو بإحدى وصيفات لكريدسيا ، تدعى إنجيلا ، مما أدى إلى قتل أحدهما .

وقد زاد البابا عدد الكردينالات ليحقق مكاسب مادية ، منهم واحد فى الحادية عشرة وآخر فى الخامسة عشرة ، وعين ابنه سيزارى كردينالاً ، وكان فى الثانية عشرة ، كما عين

ألسندرو فرنيزى ، لأن أخته جوبليا كانت عشيقة البابا ، وكانت جميلة رائعة سماها أحد الظرفاء (عروس المسيح) ، وقد ولدت له طفلة ، كما ولدت له امرأة أخرى سنة ١٤٩٨ طفلاً ، اسمه رومانس .

وقد لامت روما البابا لوماً عنيفاً على مغامراته النسائية ، ولوماً عنيفاً على توفير الثراء والمناصب لأبنائه ، وحقدت عليه لتعيينه فى مناصب الدولة حشداً كبيراً من الأسبان ، كان مظهرهم الأجنبى ، ولغتهم الأجنبية ، مثاراً لغضب الإيطاليين ، وكان عدد كبير من الأسبان أقارب البابا قد هرعوا إلى روما ، حتى لم تعد مائة بابوية تكفى هذا الحشد من أبناء عمومته ، كما يقول أحد المؤرخين .

لقد رفع إلى مقام الكردينالية تسعة عشر أسبانياً ، وأحاط نفسه بخدم ومساعدين قطلانيين ، حتى لقبه الإيطاليون (البابا الهجين) ، يشيرون إلى أنه انحدر من يهود أسبانيين اعتنقوا المسيحية .

وقد اتهم بمضاجعة ابنته لكريدسيا ، وقيل إنه ينافس أبناءه فى عشقها ، وكان إذا غاب عن روما عهد إليها تصريف أمر البابوية وفض رسائله .

وأدى نهمه للمال إلى استيلائه على ضياع الموتى من الكرادلة ، واستغل عيد سنة ١٥٠٠ فكان الإعفاء من الواجبات الدينية ، والإذن بالطلاق ، يستغلان فى المساومات السياسية والصفقات المادية .. وأراد أن يزيد حفلات العيد جلالاً فعين اثنى عشر كردينالاً جديداً ، بلغ مجموع ما أدوه ١٢٠ ألف دوقة ، ثم عين سنة ١٥٠٣ تسعة كرادلة ، حصل منهم على مبالغ طائلة ، وأنشأ فى هذه السنة ثمانين منصباً فى الحكومة البابوية ، لا حاجة إليها ، بيع كل منصب بسبعمائة وستين دوقة ، حتى قيل (إن المفاتيح ومذابح الكنيسة ، والمسيح ، يبيعها الإسكندر ، وحق له أن يبيعها ، فقد أدى هو ثمنها) .

وفى سنة ١٥٠٣ أقام احتفالاً فى الفاتيكان مثلت فيه مسلاة ، واستمتع بضروب من الملاهى ، وحوله مجموعة من النساء رائعات الجمال ، يجلسن على مقاعد منخفضة عند قدميه .

ولما قتل ابنه جيوفنى بيد أخيه سيزارى ، بسبب تفضيل جيوفنى على إخوته ، حين وهبه دوقية غنية فى أسبانيا ، جلس البابا يتلقى العزاء ، وهو يقول : (إن هذه المصيبة أكبر المصائب التى يمكن أن تحل به عقاباً من عند الله) .

* لم يخلق سيزارى ليكون من رجال الدين ، لكن الإسكندر عينه كبيراً لأساقفة بلنسية سنة ١٤٩٢ ، ثم كردينالاً سنة ١٤٩٣ ، وتدرج في المناصب الكهنوتية ، لكنه لم يصبح قساً ، ولما كان قانون الكنيسة يحرم الأبناء غير الشرعيين من الكردينالية ، فقد أعلن الإسكندر بمرسوم صدر في ١٩ سبتمبر ١٤٩٣ أنه ابن شرعي لفانتسا ودارينانو ، مع أن البابا سكستس الرابع وصفه في مرسوم أصدره في ١٦ أغسطس ١٤٨٢ بأنه ابن (رودريجو الأسقف ونائب رئيس المحكمة) ، وغض الجمهور النظر عن هذا التناقض ، واكتفى بالابتسام .

سافر سيزارى إلى نابلى سنة ١٤٩٧ ـ بعد مقتل أخيه بقليل ـ مندوباً من قبل البابا ، وكان من حظه أن توج ملكاً ، فلما عاد إلى روما ألح على أبيه أن يسمح له بالتخلى عن منصبه الكنسى ، ولم تكن ثمة وسيلة إلا أن يعترف الإسكندر صراحة أمام مجمع الكرادلة بأن سيزارى ابن له غير شرعي ، وأعقبه إعلان في ١٧ أغسطس ١٤٩٨ يقول : إن تعيين النغل الشاب كردينالاً مخالف للقانون .

ولما عادت إلى سيزارى بنوته غير الشرعية انهمك في الأعمال السياسية ، وأراد الإسكندر تزويجه من ابنة ملك نابلى ، لكن الملك تردد في الموافقة ، فسعى البابا إلى فرنسا لتعينه على استعادة الولايات البابوية ، ومنها نابلى ، وكانت فرصة لويس الثانى عشر لإبطال زواج أرغم عليه في شبابه ، فأرسل الإسكندر ابنه سيزارى إلى فرنسا يحمل إلى الملك مرسوماً بالطلاق ومائتى ألف دوقة يخطب بها زوجة له ، سر لويس بالطلاق وبإذن البابا له أن يتزوج من آن البريطانية أرملة شارل الثامن ، فعرض على سيزارى يد شارلوت دالبرت أخت ملك نبره ، ومنح سيزارى لقب دوق فلنتوا وديوا ، وهما مقاطعتان فرنسيتان للبابوية عليهما بعض الحقوق .

وكان من عادة الإسكندر وولده أن يعتقلا الأغنياء من رجال الكنيسة لتهم تذاع عنهم ، ثم يطلقاهم إذا أدوا مبالغ كبيرة فدية أو غرامة .

يقول كل من سفيرى البندقية وفلورنس : إن اليهود كثيراً ما كانوا يعتقلون متهمين بالإلحاد ، وإن الطريقة الوحيدة التى يثبتون بها إيمانهم هى أداء مبالغ طائلة للخزانة البابوية .

وتتهم شائعات آل بورجيا بتسميم الكرادلة ، تعجيلاً بعودة أملاكهم إلى الكنيسة .

وتورد يوميات بيركهارد رئيس التشريفات في عهد الإسكندر ، بتاريخ ١٠ أكتوبر ١٥٠١ ، وصفاً لعشاء في جناح سيزاري في قصر الفاتيكان ، أخذت فيه العاهرات يجرين وراء عدد من الكستناءات نثرت على الأرض ، والإسكندر ولكريدسيا يتلهيان بهذا المنظر .

* وصف أحد الكتاب لكريدسيا بأنها (ابنة البابا ، وزوجته ، وزوجة ابنه) ، فكيف كان هذا ؟!.

تزوجت وهي في الثالثة عشرة من نائب حاكم ميلان سنة ١٤٩٣ ، وكان وقتئذ في السادسة والعشرين ، وأخذ الإسكندر يشبع حبه الأبوى بتهيئة بيت الزوجين في قصر الكردينال دسينو القريب من الفاتيكان .

وفي ١٤ يونية ١٤٩٧ طلب الإسكندر تطليق ابنته ، لأن الزوج طلب أن يقيم في بيزارو ، وادعى أن الزوج عنين ، لأن القانون الكنسي لا يبيح الانفصال إلا بهذه الحجة .

ولما قتل أخوها جيوفني اتهم زوجها بقتله ، لأنه حاول إغواءها ، وأنكر الزوج أنه عنين ، وأعلن أن الإسكندر كان يضاجع ابنته .

تشكلت لجنة بابوية من اثنين من الكرادلة أكدت أن لكريدسيا عذراء ، وأرغم الزوج على توقيع وثيقة رسمية يعترف فيها بأن الزواج لم يبلغ غايته ، ورد إلى لكريدسيا بائنتها التي بلغ قدرها ٣١ ألف دوقة .

سعى الإسكندر مرة أخرى إلى ملك نابلي لتتزوج لكريدسيا من ابنه وولي عهده ، فوافق الملك ، وكانت في الثامنة عشرة ، والزوج في السابعة عشرة .. وتبادل سيزاري وزوج أخته الكراهية ، فعمل على قتله ، لكن الزوج نجا من المحاولة الأولى بعد إصابته بجروح غائرة ، فجرى قتله خنقاً .

وعرض الإسكندر على دوق فيرارا أن يزوجها من ابنه ، على أمل أن تصبح فيرارا ولاية بابوية ، وتمت الخطبة في سبتمبر ١٥٠١ ، ورافقت العروس حاشية من ١٨٠ شخصاً ، بينهم خمسة أساقفة ، وحمل جهازها على عربات صنعت من أجل هذه الرحلة ، وعلى مائة وخمسين بغلاً ، وكان من هذا الجهاز حلة قيمتها (حوالى ١٨٧٥٠٠ دولار) ،

وقبعة قيمتها (حوالي ١١ ألف دولار) ، و٢٠٠ صورة كلفت كل منها (حوالي ١٢٠٠ دولاراً) .

* في ١٨ أغسطس ١٥٠٣ أصيب البابا بالحمى ، وقضى أجله .

قال الثرثارون : إنهم رأوا شيطاناً صغيراً يحمل روحه إلى الجحيم .

وقال جوتشياردينى : (تجمع أهل روما بسرعة ، وتزاحموا حول جثة البابا فى كنيسة القديس بطرس ، ولم يكن فى مقدورهم أن يشبعوا عيونهم من منظر ذلك الأفعوان الهالك الذى طمس على قلوب العالم كله ، وأعمى بصائره بمطامعه التى تجاوزت كل حد ، وبغدّره البغيض ، وبما ارتكب من أعمال القسوة الرهيبة التى لا يحصى لها عدد ، وفجوره الوحشي ، وعرضه للبيع كل ما هو مقدس وغير مقدس) .

وقال باستور الأمين : (إن الناس بوجه عام يصفونه بأنه حيوان ، لا إنسان ، ويلصقون به كل أنواع الجرائم الشنيعة ، لكن البحث النقدى الحديث يحكم عليه حكماً أعدل من هذا .. لكنا نقول إنه وإن كان من واجبنا أن نكون حذرين فى قبول هذا كله ، فإن ما ثبت عليه من هذه التهم ليضطرنا إلى رفض ما يبذل فى هذه الأيام من محاولات ترمى إلى تبرئته ، لأن فى هذه المحاولات عبثاً بالحقيقة لا يليق) .

أما سفنرولا (١٤٩٢ ـ ١٥٣٤) الخطيب الراهب ورئيس دير سان ماركو فقد كتب إلى ملوك فرنسا وأسبانيا وألمانيا والمجر يدعو إلى عقد مؤتمر عام لإصلاح الكنيسة ، يقول :

(إن الكنيسة غاصة بكل ما هو ممقوت ومرذول ، من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ، ومع ذلك فأنتم لا تكتفون بالسكوت عن إصلاح مساوئها ، بل إنكم تقدمون الولاء والخشوع للمتسببين فى هذه الرذائل التى تدنسها ، وقد غضب الله من هذا أشد الغضب ، وترك الكنيسة زمناً طويلاً من غير راع) .

(إن الإسكندر هذا ليس بابا ، ولا يمكن أن يكون بابا ، لأنه يغض الطرف عن الخطيئة المهلكة ، خطيئة الاتجار بالمقدسات والمناصب الكهنونية التى ابتاع بها كرسى البابوية ، وهو فى كل يوم يبيع المناصب الكنسية لصاحب أكبر عطاء ، وإذا غضضنا النظر عن آثامه الأخرى البادية للعيان ، فإنى أعلن على رءوس الأشهاد أنه ليس مسيحياً ، ولا يؤمن بالله) .

* خلفه جوليانو دلاروفيرى باسم يوليوس الثانى (١٥٠٣ ـ ١٥١٣) ، وهو ابن أخ لسكستس الرابع ، وقد وصل إلى الكردينالية فى السابعة والعشرين من عمره ، وظل فيها قلقاً ساخطاً ثلاثاً وثلاثين سنة .

كانت له ثلاث بنات غير شرعيات ، لكن مشاغله في محاربة الإسكندر لم تتح له إظهار العطف الأبوى .

كان يكره الإسكندر ، ويسميه نصاباً ، ومغتصباً ، وقد بذل كل ما فى وسعه لخلعه ، حتى إنه استعدى فرنسا على إيطاليا ، ودعاها لغزوها من أجل هذه الغاية .

وارتكب نفس الخطأ الذى ارتكبه الإسكندر ، حين استعان بفرنسا وألمانيا وأسبانيا ، على أعدائه الإيطاليين ، ووافقت فرنسا على إرسال ثمانية آلاف جندى ، نظير تعيين ثلاثة من رجالها فى مناصب الكرادلة .

وقد شَهر به جوتشياردينى ، لأنه (جاء للكرسى الرسولى بدولة استخدم فيها قوة السلاح ، وسفك فيها دماء المسيحيين ، بدل أن يعنى بالحياة الصالحة) .

أراد أن ينشئ لعظامه تابوتاً يشهد حجمه وفخامته بما له من عظمة ، ويخلدها للأجيال من بعده ، وعرض ميكل أنجلو أن يكون هذا القبر أثراً ضخماً ، طوله سبع وعشرون قدماً ، وعرضه ثمانى عشرة ، يزينه أربعون تمثالاً ، يرمز بعضها إلى الولايات البابوية التى استردت ، ويمثل بعضها فنون التصوير ، والهندسة المعمارية ، والنحت ، والشعر والفلسفة ، واللاهوت ، وترمز تماثيل أخرى إلى أسلافه الكبار ، كموسى مثلاً ، ومنها اثنان يمثلان ملكين ، أحدهما يبكى لانتقال يوليوس من الأرض ، والآخر يبتسم لدخوله الجنة ، وفى أعلى هذا النُّصب الضخم ينشأ تابوت جميل يحفظ فيه رفات البابا ، واقترح أن تنقش على أوجه هـذا النصب نقوش من البرنز ، تروى جلائل أعمال البابا في الحرب ، والحكم ، والفن ، وكان فى النية إقامة هذا كله عند منبر كنيسة القديس بطرس ، وكان هذا المشروع يتطلب أطناناً من الرخام ، وآلاف الدوقات ، وإلى سنين طويلة ، تقتطع من حياة المثال ، ووافق البابا على المشروع ، وأعطى أنجلو ألفى دوقة ، ليبتاع الرخام المطلوب ، وأرسله إلى كراراً ليختار أحسن عروق الرخام .

وحدث خلاف بين البابا وأنجلو حول التمويل ، فطرد أنجلو فى غلظة ، فمضى إلى

فلورنس ، لكن البابا جّد فى طلبه ، وأصر أنجلو على موقفه ، وجرت مفاوضات انتهت بعودة أنجلو ، (وعفا عن أنجلو بألفاظ خشنة غليظة ، وعهد إليه بمهمة تتفق مع ما جبل عليه البابا من الصفات ، فقـال له : أريد منك أن تجعل تمثالى ضخماً ، وأن تصبه من البرنز ، وأنا أريد أن أقيمه على واجهة سان بترونيو) .

وأقيم التمثال فى مكان فوق المدخل الرئيسى للكنيسة فى فبراير ١٥٠٨ ، وعاد ميكل إلى فلورنس ، وبعد ثلاث سنين صهر التمثال لتصنع منه مدافع .

* وخلفه ليو العاشر (١٥١٣ ـ ١٥٢١) ، وهو جيوفنى بن لورندسو ده مديتشى الداهية السياسى ، وقد أخذ والده يعده لذلك منذ مولده ، فما لبث أن تولى مناصب ذات أجر بدون عمل ، إذ عين وصياً على بعض أملاك الكنيسة ، على أن يكون له الفائض من ريعها ، وفى سن الثامنة عين رئيساً لدير فون دوس فى فرنسا ، وكبيراً للموثقين البابويين ، وفى سن التاسعة كانت له رياسة دير باستيانو ذات الإيراد الضخم . فلما بلغ العاشرة حلق شعر رأسه ، على عادة الطقوس الكنسية ، وفى الحادية عشرة كان رئيساً لدير مانتى كسينو ذى الذكريات التاريخية .

وقبل أن يصل إلى كرسى البابوية كان قد اجتمع له ستة عشر من هذه المناصب .

ولما بلغ الثالثة عشرة التحق بالجامعة التى أنشأها والده فى بيزا ، وظل بها ثلاث سنوات يدرس الفلسفة واللاهوت والقانون الكنسى والمدنى ، وفى هـذه الأثناء عين كردينالاً ، وهو لم يزل بعد فى الرابعة عشرة .

ولما بلغ السادسة عشرة سمح له علناً أن ينضم إلى مجمع الكرادلة فى روما .

وبدأت الأقدار تعاكسه حين عينه يوليوس الثانى مندوباً بابوياً يحكم بولونيا وإقليم رومانيا سنة ١٥١١ ، ورافقه الجيش البباوى إلى رافنا ، وخاض المعركة ـ وهو أعزل ـ يشجع الجند ، ويشد عزائمهم .

واشترك مع أخيه جوليانو فى إعادة آل مديتشى إلى سلطانهم سنة ١٥١٢ ، ثم استدعى بعد أشهر ليشترك فى اختيار من يخلف يوليوس على عرش البابوية .

واحتدم النقاش أسبوعاً اختير بعده جيوفنى بابا فى ١١ مارس ١٥١٣ ، ولم يكن قد

تجاوز السابعة والثلاثين ، ولم يكن بعد قد رسم قساً ، فتدورك هذا النقص فى ١٥ مارس .

وفى عهده عين المغنى جيريل مرينو كبير أساقفة ، ووصلت جوقة المرنمين فى الفاتيكان ، بفضل رعايته وتشجيعه ، إلى درجة من السمو لم يسبق لها مثيل .

وسار على نهج أبيه فى فلورنس ، فعنى بالضرورات والكماليات ، واستخدم الفنانين لينظموا له المواكب الفخمة ، وشجع الاحتفالات المقنعة فى عيد المساخر ، وسمح بإقامة مصارعات الثيران التى جاء بها آل بورجيا ، فى ميدان القديس بطرس نفسه .

كان الكرادلة وقتئذ أغنى من الأشراف القدامى ، بفضل ما حباهم به البابوات ، وخاصة ليو نفسه ، من المناصب التى جاءتهم بالإيرادات من جميع أنحاء العالم المسيحى اللاتينى .

كان دخل بعض الكرادلة يبلغ (نحو ٣٥٠ ألف دولار) ، فسكنوا القصور الفخمة التى قام على خدمتها مئات الخدم ، وتزدان بكل ما عرف فى ذلك الوقت من روائع الفن والترف . لم يكونوا يرون أنهم رجال دين ، بقدر ما كانوا رجال حكم ، ودبلوماسيين ، ومديرين .. لقد كانوا هم مجلس الشيوخ الرومانى ، وكان يحيون حياة أعضاء مجلس الشيوخ ، ويسخرون من أولئك الذى يتطلبون فيهم حياة التقى والعفة التى يحياها القسس .

وقد أحاطوا أنفسهم بالعلماء والموسيقيين ، والشعراء ، والأدباء ، وكانوا من حين لحين يتناولون العشاء مع محاظى البلاط ، ويأسفون لأن ندواتهم تخلو من النساء .

وفى ٥ نوفمبر ١٥١٣ أصدر ليو مرسوماً بضم معهدين من معاهد العلم افتقرا إلى المال ، هما كلية القصر المقدس (الفاتيكان) ، وكلية المدينة ، وأصبح المعهدان من ذلك الوقت هما جامعة روما ، وخصص لهما بناء ، وسخا فى الإنفاق .

ولما نبغ الشاعر فرانشيسكو ماريا ملدسا ، من أهل مودينا ، لجأ إلى البابا ليو ، تاركاً أهله ، فلما مات البابا انضم فى بولونيا إلى حاشية الكردينال إيوليتوده مديتشى الذى كان فى بلاطه ثلاثمائة شاعر وموسيقى وفكه .

وحذا كلمنت السابع حذو ليو فى رعاية الشاعر ماركو جيرولامو صاحب ملحمة الكرستياده ، فى حياة المسيح ، وحباه بمنصب أسقف ليعيش منه ، لكن كليمنت مات قبل أن تنشر الملحمة سنة ١٥٣٥ ، وكان جيرولامو راهباً حين بدأها ، وأسقفاً حين فرغ

منها ، وقد مزجها بالأساطير اليونانية والرومانية القديمة التي كانت تملأ الجو في أيام ليو .

وأنشأ ليو مناصب جديدة باعها بنحو (١١٫١١٢٫٥٠٠ دولار) .

ومع هذا كان يقترض من مصارف روما بفائدة تبلغ ٤٠ ٪ ، بسبب إهماله في إدارة الشئون المالية البابوية، ورهن ضماناً لهذه القروض صحافة الفضية ، وطنافس جدران قصره، وجواهره وقلما كان يفكر في الاقتصاد في الإنفاق ، فإذا اقتصد كان على حساب جامعة روما ، ومجمعه العلمي اليوناني ، ولم تحل سنة ١٥١٧ حتى أغلق المجمع .

كان ينفق بلا حساب على الأديرة والمستشفيات والمعاهد الخيرية ، في أرجاء العالم المسيحي ، ويغدق المال والألقاب على آل مديتشي ، ويولم الولائم الفخمة لأضيافه ، يقدم فيها الأطعمة الشهية النادرة ، حتى قيل : (لقد التهم ليو ثلاثة بابوات : أموال يوليوس الثاني، وإيراد ليو ، ودخل من خلفه) .

ولما زار مدينته المحبوبة فلورنس سنة ١٥١٣ ، خرج أهل المدينة جميعاً ، ليشهدوا مركبة نصره التي زخرفها ورسم صورها بنتورمو ، وهي تمر تحت أقواس عظيمة منصوبة في الشارع الرئيسي ، ومن خلفها سبع عربات أخرى يستقلها من يمثلون سبعة أشخاص كبار في التاريخ الروماني ، وفي آخرها غلام عار مغطى بالذهب ، يرمز إلى حلول العصر الذهبي بمجيء ليو ، لكن الغلام توفى بعد انتهاء الموكب من تأثير الطلاء الذهبي .

* وخلال هذه المحنة أعلن وليم الأكامي أن (الكنيسة ـ في اعتقاده ـ هي جماعة المؤمنين ، وأن الكل ذو سلطان على أي جزء من أجزائه ، وأن في مقدور هذا الكل أن يعهد بسلطانه إلى مجلس عام يجب أن يكون له اختيار البابا ، أو تعذيره ، أو خلعه) .

وقال هنريخ فن لانجنشتين أستاذ اللاهوت في جامعة باريس ، في رسالة عنوانها : (مجالس السلام) سنة ١٣٨١ : (ليس ثمة وسيلة لإنقاذ الكنيسة من الفوضى التي أخذت تدك قواعدها ، إلا قيام سلطة غير البابوات ، تعلو على سلطة الكرادلة ، وليست هذه السلطة إلا سلطة المجلس العام) .

وقال بيرنى عن البابوية في عهد كليمنت السابع (١٥٢٣ ـ ١٥٣٤) :

(بابوية تتألف من التحيات ، والمناقشات ، والاعتبارات ، والمجاملات) .

(ومن عبـارات : أكثر من هذا ، ومن ثم ، ونعم ، وحسن ، وربمـا ، وقد يكون ، وما إليها من الألفاظ المتناقضة) .

(ومن قدمين ثقيلتين كالرصاص ، وحياد بارد خامل) .

(وإن شئت الحق الصريح ، فإنك ستعيش لترى البابا أوريان ، وقد نودى به قديساً بفضل هذه البابوية) .

وفي يوم خميس الصعود ـ بينما كان كليمنت يمنح بركته لجموع محتشدة تبلغ عشرة آلاف نفس ، أمام كنيسة القديس بطرس ـ صعد شخص متعصب متهور ، لا يلبس إلا ميدعة من الجلد ، فوق تمثال القديس بولس ، وصاح في وجه البابا : (أيها النغل اللائط ، إن روما ستدمر بسبب خطاياك ، فكفر عن ذنوبك ، وارجع عن غيك ، وإذا لم تصدقني فسترى بعد أربعة أشهر ما يحل بها) .

وفي مساء عيد الفصح أخذ الزاهد الناسك بارتولميو كاروسي يطـوف في الشوارع صائحاً : (روما ، كفرى عن ذنوبك ، إنهم سيعاملونك كما عامل الله سدوم وعمورة) .

وقدم جورج فن فرندسبرج الزعيم التيرولي المغامر على رأس جيش من الألمان المرتزقة ، وخرج بوربون على رأس جيش من ميلان ، وانضم إلى جيش فرند سبرج .. ففر كليمنت ومعظم الكرادلة المقيمين في المدينة ومئات الموطفين إلى قلعة سانت أنجيلو ، حيث حاول تشيليني وغيره أن يوقفوا زحف الغزاة بنيران المدفعية ، لكن ما لبثت المدينة أن أصبحت تحت رحمة الغزاة ، فاندفعوا في شوارعها يقتلون كل من لقوا ، واشتد تعطشهم للدماء ، فدخلوا مستشفى سانتوا سبيرتو وملجأ اليتامى فيه ، وذبحوا كل المرضى تقريباً ، ثم توجهوا إلى كنيسة القديس بطرس، وذبحوا من لجئوا إلى هذا الحرم المقدس، ونهبوا كل ما استطاعوا الوصـول إليه من الكنائس والأديرة ، وحولوا بعضهـا إلى اسطبلات لخيولهم ، وجردت كنيسة القديس بطرس والفاتيكان من كل ما فيها ، وربطت الخيول في حجرة رفائيل ، ونهب كل بيت في روما ، وحرق كثير منها .

يقول جونتشياردينى : إن بعض الكرادلة (أركبوا دواب قذرة حقيرة ، وأديرت وجوههم نحو ذيولها ، وعليهم ملابس مناصبهم وشاراتهم ، وطاف الغوغاء بهم في شوارع المدينة ، معرضين لأقسى ضروب السخرية والاحتقار ، وعذب من لم يستطع جمع كل ما طلب إليه من مال الفداء تعذيباً قضى عليه) .

وكان الدمار الذى حاق بالكتب ، والمخطوطات ، ونفائس الفنون ، يجل عن الوصف .

واستطاع أمير أورنج أن ينقذ مكتبة الفاتيكان ، باتخاذها مقر قيادته ، على حين التهمت النيران كثيراً من مكتبات الأديرة والمكتبات الخاصة .

ودام السلب والنهب ثمانية أيام ، كان كليمنت خلالها يشاهد بعينيه من أبراج سانت أنجيلو ، كما توسل أيوب المعذب ، وامتنع عن حلق لحيته ، وظل سجيناً فى القلعة سبعة أشهر ، حتى ٧ ديسمبر ١٥٢٧ .

* كان الطاعون قد فشا فى روما سنة ١٥٢٢ ، أى منذ تولى أدريان السادس (١٥٢٢ - ١٥٢٣) ، وأنقص عدد سكانها إلى ٥٥ ألفاً .. وما من شك فى أن حوادث القتل والانتحار والهرب أثناء القتال ، قد أنقصهم إلى أقل من ٤٠ ألفاً .. وفى شهر يولية ١٥٢٧ جاء الطاعون مرة أخرى ، فى أشد شهور العام قيظاً ، وانضم القحط والجحافل المخربة ، فأصبحت روما مدينة الرعب والفزع والخراب ، وامتلأت الكنائس والشوارع مرة أخرى بجثث الموتى ، ترك الكثير منها يتعفن ، وكانت الروائح الكريهة المنبعثة من الرمم والأقذار قوية إلى حد لم يطقه السجانون والمساجين ، ففروا من أسوار القلعة إلى حجراتها ، وفى داخل الحصن مات الكثيرون من الوباء ، وكان من بينهم خدم البابا ، ولم يفرق الطاعون بين الأهليين والغزاة ، وأهلك الزهرى والملاريا وسوء التغذية نصف عدد الجيش .

وقد شجع هذا هنرى الثامن ملك فرنسا على عقد حلف مضاد لحلف شارل الأسبانى ، وتم إطلاق سراح البابا ، بعد أن دفع للجيش الإمبراطورى ١١٢ألف دوقة ، وبعد أن قدم الرهائن ضماناً لحسن سلوكه ، وبعد أن منح الإمبراطور شارل عشر إيراد الكنيسة فى مملكة نابلى .

وعند وفاة كليمنت فى ٢٥ سبتمبر ١٥٣٤ كانت انجلترا ، والدنمرك ، والسويد ، ونصف ألمانيا ، وجزء من سويسرا ، قد انفصلت انفصالاً تاماً عن الكنيسة ، وكانت إيطاليا قد خضعت لأسبانيا خضوعاً شديد الخطر على التفكير الحر ، والحياة الحرة التى تميزت بهما النهضة ، خيراً كان أو شراً ، وما من شك فى أن كليمنت كان عهده شر العهود كلها فى تاريخ الكنيسة ، وكم من مرة دنس الغوغاء قبره - قصة الحضارة مج ٥ ج ٤ ص ٢١٩/١٩٩ .

وقد أضعف إذلال كليمنت ما كان يشعر به الناس ـ فيما وراء الألب ـ من احترام للبابوات ، وهيأ عقولهم للخروج على سلطان الكنيسة الكاثوليكية .

وفى زمن كليمنت ألف أريتينو مسرحية (المومس) ، وقد سلك فيها النهج الذى سارت عليه معظم الملاهى الإيطالية فى عهد النهضة ، فقد جرت على التقاليد اللاتينية التى تجعل الخدم يسخرون من أسيادهم ، ويحيكون لهم ما يريدون من الدسائس ، ويعملون لهم قوادين ، ويتولون عنهم التفكير، غير أن أريتينو أضاف إلى ذلك سخريته وفكاهته الفاجرة الفاحشة ، وعلاقته الوثيقة بالعاهرات ، وكراهيته لحاشية الملوك والأمراء ، وخاصة حاشية البابا ، ووصفه الصادق الطليق للحياة ، كما شاهدها فى المواخير ، وفى قصور روما .. وقد أزاح الستار عن حاجة رجل البلاط إلى النفاق ، والتذبذب ، والتذلل ، والملق ، وعرف النميمة بأنها (قول الحق) .

وقد آثر الإمبراطور هذا (الأريتينو) ابن الحذاء ، على جميع الحاضرين من الكتاب والفنانين فى حاشيته ، فاختاره للركوب إلى جانبه وهو يطوف المدينة ، وقال له : (إن كل سمَــيْذَ ع فى أسبانيا يعرف كتابتك ، ويقرأ كل ما يصدر منها فور طبعه) .

ولأن ابن الحذاء كان يستطيع أن يجعل لغته ستاراً لحمأة من الأقذار ، ولأنه كان مجرداً من صفات الرجولة ، دفن فى كنيسة سان لوكا ، كأنه لم يكن أكبر داعية للفجور ، وأكثر الناس اقترافاً له ، حتى كتب أحد الظرفاء على شاهد قبره : (هنا يرقد الشاعر الذى لم يترك أحـداً لم يتحدث عنه بالسوء إلا الله ، وقال معـتذراً : « إننى لم أعـرفه قط » .

* ولما تولى البابا بولس الثالث أمر البابوية بذل جهوداً جادة لإصلاح الكنيسة .

ثم جاء يوليوس الثالث (١٥٥٠ ـ ١٥٥٥) فاستمتع بالبابوية فى إسراف لطيف ، وكأن حركة الإصلاح الدينى ماتت بموت لوثر ، خرج للصيد ، واحتفظ بندماء البلاط ، وقامر بمبالغ كبيرة ، ورعى مصارعة الثيران ، ورقى لمنصب الكردينالية تابعـاً له يعنى بنسانه ، وأعطى روما آخر رشفة من وثنية النهضة .

ثم ارتقى كارفا كرسى البابوية سنة ١٥٥٥ باسم بولس الرابع ، فاشتد فى الالتزام بآداب الكنيسة ، وأصدر عدة مراسيم ضد المرابين ، والممثلين ، والبغايا ، وقرر إعدام

القوادين ، واتخذت روما مظهراً من التقوى والفضيلة لا يلائم طبيعتها .

(واكتسبت محكمة التفتيش بفضل صرامته الخارقة سمعة واسعة ، بحيث لم يكن هناك كرسي قضاء آخر في الأرض يتوقع الناس منه إصدار أحكام أشد بشاعة وإرهاباً) ، على حد قول الكردينال سيريباندو ، ووسع اختصاص محكمة التفتيش حتى شمل التجديف ، والمتاجرة بالرتب الكهنوتية ، واللواط ، والزواج المتعدد ، وهتك العرض ، والقوادة ، وانتهاك نظم الكنيسة في الصوم ، وغير هذه الذنوب التي لا تمت للهرطقة بسبب .

ومن ثم احتفلت روما بموته أربعة أيام من الشغب المرح ، حطمت خلالها الجماهير تمثاله ، وجرت في الشوارع لتغرقه في نهر التيبر ، وأحرقت مباني محكمة التفتيش ، وأطلقت سجناءها ، وأتلفت وثائقها .

* * *

نــذر الشــر ..

حوالى سنة ١٣٢٤ كتب أجستينو ترينفو ، المشمول برعاية يوحنا الثـانى والعشرين ، رداً على الهجمات الموجهة إلى البابوية ، يقول : « إن سلطان البابا من سلطان الله ، وهو نائب فى الأرض ، وإن طاعته واجبة ، فمهما يكن ذنبه فإن سلطانه لا يعلو عليه إلا سلطان الله وحده ، وهو أعلى من سلطان جميع ملوك الأرض ، ومن حقه أن يخلع الملوك والأباطرة إذا شاء ، وإن عارض فى ذلك رعاياهم ، أو منتخبوهم ، ومن حقه أن يلغى قرارات الحكام الدنيويين ، وألا يعبأ بدساتير الدول ، وكل ما يصدره الأمراء من قرارات تظل غير ذات أثر إلا إذا وافق البابا عليه ، والبابا أعلى مقاماً من الملائكة، وهو خليق أن يعظم كما تعظم العذراء ، ويعظم القديسون » .

وقد ارتضى البابا يوحنا كل هذا ، لأنه فى رأيه النتيجة المنطقية لما يعتقده الناس كافة من أن الكنيسة قد أنشأها ابن الله ، وعمل بهذ المبدأ لا يتحول عنه .. بل ربما قبله لما يعرفه من نفاق الآخرين لكل ذى سلطان ، ومن (حقه) أن يرخى عنان هذا النفاق ، عساه يساعده على كسب جماهير الكنيسة ، ويستر ما ظهر من عوراتها ، ولا ضير فى أن يلعب الرجل العاقل بالورقة الرابحة فى الوقت الذى أخذت فيه نذر الشر تهب على الكنيسة من كل جانب .

وقبل أن يكون يوحنا الثالث والعشرون (بابا) ، كان نائباً عن البابا ، فحكم بولونيا حكم زعماء العصابات المغامرين ، فرض الضرائب على كل شىء ، حتى على العاهرات ، وأغوى مائتى عذراء وزوجة وأرملة وراهبة .

كانت (صكوك الغفران) أنجح بدعة ، وأقوى الأدلة على انتشار الفساد .

كان يسمح لموزعى هذه الصكوك الاحتفاظ بقدر مما تدره من مال (عمولة) ، ومن أجل ترويجها أغفل كثير من الموزعين الإصرار على توبة من يبتاعونها ، أو الاعتراف بذنوبهم أو صلواتهم ، وتركوا لهم الحرية فى أن يفسروا الصكوك بأنها تعفى من كل هـذا ، بل من الغفـران على يد القساوسة ، وأنهم يستطيعون الاعتمـاد على ما يقدمون من مال .

يقول « توماس جسكوني » مدير جامعة أكسفورد : يقول المذنب في هذه الأيام : (لست أبالي كم أرتكب من الذنوب أمام الله ، لأن من السهل علي أن أتخلص من كل ذنوبي ، ومما يترتب عليها من العقاب ، بالمغفرة ، وصكوك الغفران التي يمنحني إياها البابا نظير أربعة بنسات أو ستة ، كأنها أكسبها في لعبة مع من يمنحني الغفران) .

وأدى التنافس على بيع صكوك الغفران إلى النزول بقيمتها ، نظير بنسين تارة ، وجرعة من الخمر تارة ، وقد تكون نظير استئجار عاهر ، أو ارتكاب جريمة اللواط .

كان الراهب الدومينيكاني ، جوهان تيتزل ، يعمل منذ سنة ١٥٠٠ في توزيع الصكوك ، وكان يلقى عون رجال الدين المحليين ، وكانت صورة الصكوك التي يروج لها تقول :

(ألا فليرحمك الرب يسوع المسيح ، ويغفر لك ، بفضل ما لقي من آلام مقدسة .. وإني بتفويض منه ، **ومن رسوليه المباركين بطرس وبولس ، ومن البابا المقدس** ، منح لي ، وعهد إلي ، في هذه الأجزاء ، أن أحلك أولاً من كل لوم ديني ، مهما كانت الطريقة التي تعرضت لها ، ثم من كل خطاياك ، ومن كل تجاوز للحدود ، وكل إفراط في الملذات ، **مهما بلغت من الجسامة** ، بل حتى من أي إثم تحتفظ بتقريره وإدراكه السُّدة البابوية ، وأعيدك إلى القربان المقدس للكنيسة ، وإلى البراءة والطهر اللذين حزتهما في العماد ، ولهذا ، فإنك عندما تموت ستغلق أمامك أبواب العذاب ، وتفتح لك جنة النعيم ، وإذا لم تمت الآن فإن هذا الفضل سوف يظل في أوج قوته ، عندما تصبح على وشك الموت باسم الآب والابن والروح القدس) .

يقول مؤرخ كاثوليكي : ليس من شك في أن تيتزل أعلن طبقاً لما كان يتصوره من العقيدة المسيحية ، وفق التعليمات المخولة له ، أنه لا داعي لشيء سوى تقديم المال ، للحصول على صك غفران للميت ، في غير حاجة إلى الندم ، أو الاعتراف ، ومن تعاليمه أيضاً ، طبقاً للرأي الذي كان يعتنقه ، أن صك الغفران يمكن أن يمنح لأي روح معينة ، فيكون له أثر لا يخيب ، وبناء على هذا الغرض ، فإن مما لاشك فيه أن مذهبه كان متفقاً مع هذا المثل السائر (ما إن ترن قطع النقود في الخزانة ، حتى تقفز الروح من نار المطهر) .

وكتب ما يكونيوس ـ وهو راهب فرنسيسكانى ـ تقريباً سنة ١٥١٧ يقول :

(إن ما قاله هذا الراهب الجاهل ـ تيتزل ـ وبَشر به ، أمر لا يصدق ، لقد أعطى خطابات مختومة ضمنها أن الخطايا التى يعتزم المرء أن يرتكبها سوف تغفر له ، وقال : إن البابا يملك سلطاناً يفوق سلطان الرسل والملائكة والقديسين ، بل يفوق سلطان مريم العذراء نفسها ، لأن هؤلاء جميعاً أتباع المسيح ، أما البابا فإنه ندٌّ للمسيح) .

وذكر لوثر أن تيتزل قال : (إذا حدث المستحيل ، واغتصب رجل أم الرب ، فإن صك الغفران كفيل بأن يمحو عنه هذا الإثم) .

وألف لوثر باللاتينية خمساً وتسعين رسالة ، أطلق عليها اسم (بحث فى بيان قوة صكوك الغفران) جاء فيها :

(إن سهولة إصدار صكوك الغفران ، والاتجار فيها على نطاق واسع ، قد أضعف الإحساس بالندم الذى يجب أن يثيره ارتكاب الإثم ، وجعل الخطيئة تبدو أمراً تافهاً يمكن تسويته ودياً ، بصفقة تعقد مع بائع يتاجر بالغفران) .

ومع أنها (صفقة تجارية) تهدف أصلاً لتحقيق التوبة ، فإن لوثر نفسه قد فتح فى نفس الوقت سبيل اتهامه بأنه يعتبر الأخلاق مسألة لا تستحق الاكتراث ، وذلك بتأويله مسألة التبرير ، كما علمه بولس ، وجعل التعرض للخطيئة متوقفاً على المصادفة المحضة .

إن لوثر لم ينكر السلطة البابوية فى غفران الخطايا ، بل إنه سلم بسلطة البابا فى إحلال إعفاء النادم المعترف من العقوبات الدنيوية التى يفرضها عليه رجال الكنيسة .

كانت وجهة نظر لوثر أن سلطة البابا في تحرير الأرواح من المطهر، أو فى تقليل مدة عقابها ـ تتوقف لا على السلطة التى تمثلها مفاتيح بطرس الرسول ، والتى لا تصل إلى أبعد من القبر ، بل (تتوقف على تأثير الشفاعة لصلوات البابا ، وهى قد تسمع ، وقد لا تسمع) .

يضاف إلى هذا أن لوثر قال : (إن كل المسيحيين يشاركون آلياً فى خزينة الفضائل التى كسبها المسيح ، والقديسون ، حتى وإن لم ينص خطاب بابوى بالغفران على منحهم مثل هذا النصيب) ، وأعفى البابوات من مسئولية مبالغة الوعاظ ، لكنه أردف فى خبث :

(إن التبشير المطلق العنان بالغفران يجعل من الصعب على المتعلمين أن ينقلوا الاحترام الواجب للبابا ، من التساؤلات الذكية اللماحة للعامة ، لم لا يفرغ البابا مطهراً للحب المقدس ، والحاجة الملحة للأرواح الهائمة هناك ، إذا كان يفتدى عدداً من الأرواح ، من أجل المال التعس الذى يبنى به كنيسة ؟!) _ قصة الحضارة مج ٦ ج ٣ ص ٨/٥ .

وكتب كارلشتادت ١٥٢ مقالاً ضد صكوك الغفران سنة ١٥١٧ .

وعندما نشر الأسقف بريسونيه سنة ١٥٢٣ على أبواب كاتدرائيته كتاباً للبابا عن صكوك الغفران ، مزقه جان لكلير ، وكان يعمل فى تمشيط الصوف ، ووضع مكانه إعلاناً يصف البابا بأنه مناهض للمسيحية ، فقبض عليه ، ووسم بالنار على جبهته سنة ١٥٢٥ ، بناء على أمر المجلس النيابى لباريس ، فانتقل إلى ميتز ، وهناك حطم التماثيل الدينية التى كان من المقرر أن يمر أمامها موكب لتقديم البخور ، فقبض عليه ، وقطعت يده اليمنى ، وجدع أنفه ، وانتزعت حلمتا ثدييه بملقط ، وربط رأسه بشريط من الحديد المحمى إلى درجة الاحمرار ، وأحرق حياً سنة ١٥٢٦ .

وفى سنة ١٥٤٣ أبلغ الجواسيس الأسقف جاردنر أن هنرى فيلمر قال : (إذا كان الرب موجوداً حقاً فى « القربان المقدس » فإنى أكون قد أكلت فى حياتى عشرين رباً) ، وأن روبرت تستوود حذر القديس عند رفع (القربان المقدس) من أن يترك الرب يسقط .

* كان الجو العام يحمل نذراً رهيبة لدرجة أن كبير الأساقفة جيمستوس بليثو كتب سنة ١٤٠٠ رسالة بعنوان (القوانين) اقترح فيها أن تحل ديانة الإغريق القدماء محل المسيحية .

وقد صحب جيمستوس هذا الإمبراطور جون الثامن إلى فرارا وفلورنس سنة ١٤٣٨ ، لحضور المجلس الذى انفقت فيه الكنيستان اليونانية والرومانية فى علوم الدين وفى السياسة .

وفى فلورنس حاضر جيمستوس عن أفلاطون لصفوة من المستمعين .

ويسخر ول ديورانت من هذا القس الكبير ، قائلاً : لأن هذا (الفيلسوف) كان من دارسى فكر أفلاطون ، وفكر زرادشت ، ولم ينشط فى علوم الدين ، أصبح كبير أساقفة _ قصة الحضارة مج ٦ ج ٢ ص ٢٦ _

وسخرية ديورانت لا تعنى أن هذا (الفيلسوف) انفرد بهذه الصفة ، أو تعنى السخرية من فيلسوف صار كبير أساقفة ، بل من الجهل الذى ساد رجال الدين بأمور دينهم ، لدرجة أن يدعو كبير منهم إلى التخلى عن المسيحية من أجل الوثنية .. ولعل جيمستوس لم يقترح الديانة الوثنية إلا ليقول إن المسيحية صارت أحطر وثنية من الوثنية اليونانية .

إن أشد هجاء فى هذا العهد تضمنته مسرحية (سفينة الحمقى) بقلم سباستيان برانت ، ولم يكن فى وسع أحد أن يتوقع عملاً يشيع فيه مثل هذا المرح والسخر من أستاذ فى القانون والأدب الكلاسى فى بازل .

وإذا كان برانت قد مسّ بسوطه رجال الدين (برفق) فإن توماس مورنر ـ وهو راهب فرنشيسكانى ـ هاجم الرهبان والراهبات والقسس والأساقفة ، بهجاء فاق فى حدته وغلظته وذكائه هجاء برانت .. قال مورنر : إن القس يعنى بالمال أكثر من الدين ، وهو يتملق رعايا أبروشيته من أجل دانق ، ثم يدفع قدراً مما جمعه إلى الأسقف التابع له ، ليسمح له باتخاذ خليلة ، أما الراهبات فإنهن يمارسن الحب خفية ، والراهبة التى تنجب أكبر عدد من الأولاد تختار رئيسة للدير .

وقد تميز أولريخ فون هوتن بالهجاء العنيف الذى قضى على كل أمل فى أن تصلح الكنيسة من نفسها ، ودعا إلى الثورة الصريحة .

قال : (إن الفضيلة وبركات السماء تباع فى روما ، بل إن فى وسعك أن تشترى الحق ، وفى أن ترتكب ما شئت من الخطايا فى المستقبل ، وليس من شك فى أنك تكون معتوهاً لو تمسكت بالأخلاق الطيبة ، فالناس العقلاء سيكونون أشراراً) .

وفى سخرية مرحة أهدى إلى البابا ليو العاشر سنة ١٥١٧ طبعة جديدة من (رسالة فالا المدمرة عن « هبة قسطنطين » الخيالية) ، وأكد للبابا أن أغلب أسلافه من البابوات كانوا طغاة مستبدين ، ولصوصاً ، ومغتصبين ، وأنهم حولوا الجزاء فى العالم الآخر إلى دخل خاص .

وفى سنة ١٥١٧توج الإمبراطور مكسمليان هوتن أميراً للشعراء .

وعندما وصل هوتن إلى أوجسبورج سنة ١٥١٨ تحول بقصائده ضد نداء ليو بجمع الأموال للحرب الصليبية ، وأعرب عن أمله فى أن يذهب الجباة إلى الوطن بحقائب خاوية ،

وقال : (إن تحرير ألمانيا من روما أشد إلحاحاً من صد الأتراك) .

وفى سنة ١٥٢٠ أصدر هوتن سلسلتين من محاورات منظومة ، لعبت دوراً لا يفوقه إلا مؤلفات لوثر ، وفيهـا وصف روما بأنهـا (دودة ضخمة تمتص الدماء) ، وصرح بأن (البابا زعيم لص ، وأن عصابته تحمل اسم الكنيسة .. وروما بحر من الدنس ، وحمأة من القذارة ، وبالوعة ليس لها قرار من الظلم ، ألا يجدر بنا أن نتقاطر من كل حدب وصوب ، لنقوم بإزالة هذه اللعنة الشائنة التى حاقت بالبشرية ؟!) .

* وفى سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه دعى مجمع ترنت سنة ١٥٤٥ ، وامتدت جلساته حتى سنة ١٥٦٣ ، مما يفيد صعوبة التوصل إلى قرارات تحفظ ما بقى من (ورقة التين) .. وأخيراً أصدر قرارات تدافع عن صكوك الغفران ، وعن أهمية القداس فى تحويل الخبز إلى لحم والخمر إلى دم ، وتحظر زواج الإكليروس ، وتؤكد أن الكنيسة وحدها هى المفسر اللائق للكتاب المقدس ، وتصادر نشر أو حيازة أية كتابات بروتستانتية .

وكأن المجمع المقدس أراد إطفاء النار فصب زيتاً .

* * *

وانهارت السدود !!

خلت المدن الإيطالية قرنين من الزمان توجه قواتها ، وحذقها ، ودهاءها ، وغدرها ، فى صراع داخلى ، حتى أصبح مستحيلاً عليها أن تضم شملها للوقوف أمام عدو مشترك .

ومع أن إيطاليا هى التى أنجبت الرجل الذى أعاد كشف أمريكا ، فإن أسبانيا هى التى أمدته بالمال ، واقتفت تجارتها خطاه ، وصحب الذهب عودته ، وازدهرت الأمم الواقعة على شاطئ الأطلنطى ، ولم يعد البحر المتوسط الموطن المحبب للاقتصاد الأوربى .

وبينما كانت إيطاليا منقسمة إلى نظم اقتصادية متعادية ، ودول سياسية متحاربة ، كان تطور الاقتصاد فى المجتمعات الأوربية الأخرى ، برغم هذه المجتمعات على الانتقال من عهد الإمارات الإقطاعية إلى عهد الدول الملكية ، ويقدم المال اللازم لهذا الانتقال .

وساعد على جفاف موارد إيطاليا قلة عدد الحجاج ، ونقص إيراد الكنيسة من الأمم الشمالية ، بعد أن نشأت التجارة الأوربية مع أمريكا التى أغنت البلاد الواقعة على المحيط ، وبعد أن أخذت التجارة الألمانية تأخذ طريقها فى بحر الرين إلى مصبه فى بحر الشمال ، واستقلت تجارياً عن إيطاليا ، بل أخذت طريق الاستقلال الدينى تبعاً للاستقلال التجارى .

ونتيجة الانهيار الاقتصادى ضعف نفوذ الكنيسة ، وتطلعت أوربا إلى الخلاص من قيودها ، وكسب الإصلاح الدينى أنصاراً كثيرين ، وأوشك صرح الكثلكة أن يتصدع من أساسه .. وكان أن سلكت الكنيسة مسلك أى دولة يتعرض كيانها للخطر ، فبدلت خطتها من التسامح والحرية إلى تحفظ الخائف المرتاع ، وفرضت قيوداً شديدة على التفكير ، والبحث ، والنشر ، والجدل الدينى ، وكانت السيطرة الأسبانية تفرض الآراء الدينية والسياسية معاً ، وكان لها نصيب فى تحويل كثلكة عصر النهضة المتسامحة إلى تزمت كنسى صارم ، وبخاصة بعد مجلس ترنت (١٥٤٥ ـ ١٥٦٣) ، وجرى البابوات بعد كليمنت السابع على سنَّة الأسبان ، وهى توحيد الكنيسة والدولة ، واستخدام القوة الناشئة عن هذا التوحيد فى السيطرة الصارمة على الحياة الدينية والعقلية . وكانت حدة الجدل الدينى ، وتزمت المبادئ الكلفنية ، واضطهاد المذهبين المتعاديين فى انجلترا ـ مشجعاً على

وجود تعسف مقابل فى إيطاليا .

اتسع نطاق الرقابة على المطبوعات التى بدأت أيام البابا سكستس الرابع ، فوضعت سنة ١٥٥٩ قوائم بالكتب المحرمة لخطرها على الدين والأخلاق ، وأنشىء مجلس لوضع قوائم التحريم سنة ١٥٧١ ، ويسّر استعمال الطباعة أعمال الرقابة ، إذ إن مراقبة المطابع العامة أيسر من مراقبة الناسخين .

ومع أن الكنيسة الأسبانية كانت حليفاً للدولة ، فإنها لم تدخل باباً روما فى حسابها إلا قليلاً ، وتقدمت بمطالب كثيرة لإصلاح البابوية عندما أعطتها إسكندر السادس الذى لم يعترف بالإصلاح .

وفى سنة ١٥١٣ حرّم الكردينال أكزيمينس نشر صكوك الغفران التى قدمها يوليوس الثانى فى أسبانيا لإعادة بناء كنيسة القديس بطرس ، ونتج عن ذلك أن عدّ الملك رئيساً للكنيسة الأسبانية .

وتراكمت فى الكنيسة الألمانية أوعية ، وكئوس قداس ، وجفان ، وتماثيل من الذهب والفضة ـ مما أسال لعاب الأمراء ، فسعوا إلى إصلاح دينى ، يساعد على تصفية ثروة الكنيسة .

واتخذ جوهان فيسيل ـ الذى مات فى السجن سنة ١٤٨١ ـ الكتاب المقدس الحَكَم الوحيد على العقيدة ، وجعل الإيمان المصدر الوحيد للخلاص ، أما ما هو عن الاعتراف ، والحل ، والحرم ، وصكوك الغفران ، والمطهر ، فقد وضعه على محك النقد والمناقشة .

وفى سنة ١٥٢٢ قال لوثر : (لو كنت قرأت مؤلفات فيسيل من قبل ، لظن أعدائى أن لوثر قد اقتبس كل شىء منه ، إذ إن آراءنا تتفق إلى حد كبير) .

ومع ذلك ، كان الدين فى جملته يزدهر فى ألمانيا ، وكانت الغالبية العظمى من المحافظين الذين يجمعون بين التقوى والحظايا والكئوس..كادت الأسرة أن تكون كنيسة تقوم الأم بمهمة الواعظ ، والأب بدور القسيس ، والجميع يكثرون من الصلاة ، ولا يخلو بيت من الكتب الخاصة بالتعبد .

وعندما أصبح الكردينال بيكو لومينى سنة ١٤٥٨ البابا بيوس الثانى ، طلب من ديترفون إيزنبورج مبلغ ٢٠٫٥٠٠ جيلدر ، قبل أن يؤيد ترشيحه لمنصب كبير أساقفة ماينز

سنة ١٤٥٩ ، فما كان من ديتر إلا أن رفض بحجة أنه أكثر مما كان يدفع من قبل ، فأصدر البابا قراراً بحرمانه من غفران الكنيسة ، لكن ديتر تجاهل هذا الحرمان ، وأيده أمراء ألمان ، وصار صراع بين مؤيدى ديتر ومؤيدى البابا ، انتهى بتعيين أدولف الناساوى مكانه .. وشكا الإمبراطور مكسمليان سنة ١٥٠٠ من أن البابا سحب من ألمانيا دخلاً يزيد مائة مرة عما يستطيع هو نفسه أن يجبيه منها ، وفي سنة ١٥١٠ ـ وكان الإمبراطور فى حرب مع البابا يوليوس الثانى ـ طلب من عالم الإنسانيات ويمفيلنج إعداد قائمة بشكاوى ألمانيا ضد البابوية ، وفكر فى فصل الكنيسة الألمانية عن روما .

* صار نداء (الموت للقساوسة) يتردد فى كل مكان .

وانضم بعض الرهبان والقساوسة إلى حملة الهجوم ، وأثاروا أبروشياتهم ضد الترف الذى يعيش فيه كبار رجال الدين .

وجاء الحجاج العائدون من يوبيل ١٥٠٠ إلى ألمانيا بقصص مثيرة ، بولغ فى كثير منها عن البابوات المنحلين، والسموم البابوية ، وصخب الكرادلة ، وعن وثنية وخسة العامة ، وأقسم كثير من الألمان أن يسحقوا هذا الطغيان ، باسم الدين ، كما فعل أسلافهم سنة ٤٧٦ ، وتذكر آخرون ما لقيه الإمبراطور هنرى الرابع على يد البابا جريجورى السابع من إذلال فى كانوسا ، ورأوا أن الوقت قد حان للانتقام .

وساعد على الثورة نفى البابا فى أفنيون ، والانقسام فى صفوف البابوية ، وانهيار النظم فى الأديرة ، وترف البطارقة ، وفساد مجالس القضاء الرومانية ، وأخلاقيات إسكندر السادس ، وحروب يوليوس الثانى ، ومرح وترف ليو العاشر ، والاتجار فى المخلفات المقدسة ، وبيع صكوك الغفران ، وانتصار الإسلام فى الحروب الصليبية ، وامتداد سلطان الأتراك إلى وسط أوربا ، وازدياد الاتصال بالعقائد غير المسيحية ، وتدفق العلم العربى والفلسفة العربية ، وظهور فلسفة سكوتس اللاعقلانية ، وشك أوكهام ، وفشل حركة التوفيق فى الإصلاح ، والكشف عن الحضارة الوثنية القديمة ، واكتشاف أمريكا ، واختراع الطباعة ، وانتشار التعليم ، وترجمة الكتاب المقدس إلى لغات الشعوب ، والثراء الفاحش فى ألمانيا وانجلترا ، واستقلالهما الاقتصادى ، ونمو طبقة متوسطة ترفض التسليم بقيود رجال الدين ومزاعمهم .

* وفى فرنسا أخذت الثورة المطردة مأخذ الكبرياء ، والحرص على السيادة القومية ،

فتحدى فيليب الرابع سلطان البابا بنيفاس الثامن على أملاك الكنيسة ، ونجح فى تحديه ، وزج مندوبو الملك بالبابا في سجن إيتان ، حيث قضى ثلاثة أيام ، لم يلبث بعدها أن مات سنة ١٣٠٣ .. بعد هذا خرج الحكام الزمنيون على سلطان البابوات ، وبخاصة بعد أن اختار فيليب الرابع رجلاً فرنسياً لكرسي البابوية ، وأقنعه أن ينتقل بالكرسى البابوى إلى مدينة أفينيون على نهر الرون ، وظل البابوات ثمانية وستين عاماً بيادق وسجناء فى أيدي فرنسا ، مما أسقط هيبة البابوية ، واحترامها على المستوى الكاثوليكى .

وقد تسامح فرنسيس الأول (١٥١٥ ـ ١٥٥٩) مع الدعاية اللوثرية ، ما دامت لا تهدد بقيام فتنة اجتماعية أو سياسية .. ولعل تسامحه مع البروتستانت كان سلاحاً ضد البابا الذى يميل لشارل الخامس ملك أسبانيا ، لكن ما لبثت ثورة الفلاحين فى ألمانيا التى ارتبطت بالدعاية البروتستانتية ـ أن أفزعت فرنسيس : فأمر الأساقفة بسحق الحركة اللوثرية فى فرنسا .

كان مزاج الملك يتغير تبعاً لتغير دبلوماسيته .. فى سنة ١٥٣٢ غضب لتعاون كليمنت السابع مع شارل الخامس ، فقدم عروضاً للأمراء الألمان اللوثريين ، وعندما احتجت السوربون ، نفى زعماءها من باريس .

وفى أكتوبر ١٥٣٣ كان على وفاق مع كليمنت ، فوعد باتخاذ إجراءات فعالة ضد الفرنسيين البروتستانت .

ولما اشتدت حدة نزاعه مع الإمبراطور شارل أرسل سنة ١٥٣٤ جيودى بلاى المناصر للإصلاح إلى فيتنبرج ، ليطلب من ملانكتون أن يتوصل بصيغة توفيق بين العقيدة القديمة والأفكار الجديدة ، وبهذا يصبح فى الإمكان عقد تحالف بين ألمانيا البروتستانتية وفرنسا الكاثوليكية .

وفى يناير ١٥٣٥ أعلن فرنسيس أنه سيقطع رءوس أولاده إذا اكتشف أنهم يطوون جوانحهم على مثل هذه الهرطقات الخارجة على الدين ، وفى عشية تلك الليلة أحرق ستة من البروتستانت في باريس .

وقبل أن ينصرم العام ، كان فرنسيس يخطب ودّ البروتستانت الألمان من جديد ، وكتب بنفسه إلى ملانكتون فى ٢٣ يونية ١٥٣٥ يدعوه إلى الحضور (والتباحث مع بعض المبرزين من الدكاترة عندنا ، عن الوسيلة لإعادة توطيد دعائم ذلك التناسق السامى فى الكنيسة) .

وفى ٧ أكتوبر ١٥٤٦ اكتشف جماعة لوثرية صغيرة مجتمعة فى (سو) برئاسة بيير لكلير ، شقيق جان الذى وسم بالنار ، فعذب أربعة عشر من الجماعة ، وأحرقوا ، كما أحرق ثمانية منهم بعد انتزاع ألسنتهم .

* هذا الاضطراب السياسى الدينى الذى أدى إلى حروب دينية اشتعلت فى أوربا كلها ـ اصطلى بها البابوات فى الدرجة الأولى ، وقد دخلوا شركاء فى هذه الحروب ، يغيرون ولاءاتهم مع تغير رياح السياسة ، على أمل أن يعيدوا قدراً من هيبة (الكرسى الرسولى) ، وأن يعيدوا ملء خزائنهم .. لكن الحروب زادت من العزلة الدينية ، ومن الخراب المادى .. وقد استوجب هذا فرض ضرائب عديدة على رجال الدين ، وعلى الأديرة والأبروشيات .

كانوا يطلبون إلى كل من يعين فى مناصب الكنيسة الإدارية نصف ما يحصل عليه من منصبه فى العام الأول ، ثم عشر ما يحصل عليه فى الأعوام التالية ، وكان على كبير الأساقفة أن يؤدى إلى البابا مبلغاً كبيراً ، نظير الطيلسان ، وهو شريط من الصوف الأبيض ، يعد رمزاً لسلطانه ، وتوكيداً له ، وإذا مات كردينال أو كبير أساقفة أو أسقف أو رئيس دير عادت أملاكه إلى البابوية .. وخلال الفترة بين موت أحد رجال الدين وتعيين خلفه ، كان البابوات يستولون على إيراد منصبه ، وكانوا يهتمون بإطالة هذه الفترة حتى ينالوا أكثر ما يستطيعون .. وكان كل حكم يصدره مكتب البابوية الإدارى (الكيوريا) أو كل نفع يسديه ، يقتضى عطية قيمة ، مقابل ما حصل عليه صاحبه من نفع ، وكان الحكم ـ غالباً ـ رهناً بقيمة العطية .

وفى سنة ١٣٧٢ أقسم رجال الدين فى كولونى ، وبون ، واكسانتن ، وماينز ، ألا يدفعوا مال الصدقات الذى فرضه عليهم جريجورى الحادى عشر .

* وأكثر ما كان يضايق الإنجليز هو انتقال الثروة من الكنيسة الإنجليزية إلى البابوات ، وبخاصة حين انتقلت البابوية إلى أفنيون ، أى إلى فرنسا العدو التاريخى للإنجليز ، وقد قدرت الثروة الإنجليزية التى حصل عليها البابا بأكثر من التى حصلت عليها الدولة أو الملك .

وتألف فى البلاط الملكى حزب مناهض لرجال الدين ، وسنت شرائع تجعل القسط الذى تسهم به الكنيسة فى نفقات الدولة أكبر مما كان .

ولما كان عام ١٣٣٣ أبى إدوارد الثانى أن يستمر فى أداء الجزية التى كان قد تعهد بأدائها للبابوات الملك جون .

وضيقت القوانين الإنجليزية التى صدرت سنة ١٣٥١ و ١٣٥٣ سلطان رجال الدين فى شئون الاقتصاد والقضاء ، بينما احتفظ الملوك فى فرنسا ـ بعد إلغاء قرار بورج التنظيمى سنة ١٥١٦ ـ بحقهم فى ترشيح كبار الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وكبار الرهبان .. وأصرت دولة البندقية على أن تعين من يشغلون المناصب الكنسية العالية فى الأقاليم التابعة لها .. وفى أسبانيا انتزع فرديناند وإيزابيلا من البابوات حق تعيين من يشغلون كثيراً من المناصب الدينية الشاغرة .

وفى الإمبراطورية الرومانية المقدسة ـ حيث تمسك جريجورى السابع بحق البابوات فى تعيين رجال الدين رغم معارضة هنرى الرابع ـ سلم سكستس الرابع إلى الأباطرة الحق فى تعيين ثلاثمائة ممن يشغلون المناصب الدينية ، وتعيين سبعة أساقفة ، وكثيراً ما كان الملوك يسيئون استخدام هذا الحق .

* وفى السنة التى ارتقى فيها هنرى الثامن العرش الإنجليزى (١٥٠٩ ـ ١٥٤٥) أنفق كوليه ـ واعظ الملك فى كنيسة القديس بولس ـ جانباً من الثروة التى ورثها عن أبيه لتأسيس مدرسة القديس بولس ، واختير نحو ١٥٠ صبياً لكى يتعلموا الأدب الكلاسى واللاهوت المسيحى ، وعلم الأخلاق ، وخالف كوليه التقاليد ، فعين مدرسين علمانيين فى المدرسة ، وكانت أول مدرسة غير إكليروسية فى أوربا .

وفى هذه الأثناء كان توماس ولزى قساً ، عينه ليو (البابا) رئيساً لأساقفة يورك سنة ١٥١٤ ، وكردينالا سنة ١٥١٥ ، وعينه هنرى حاجباً سنة ١٥١٥ ، وقد استطاع هذا القس بذكائه وبمهارته السياسية أن يكون ـ كما يقول إرازموس ـ (الملك الثانى) ، وقدر مؤرخ كاثوليكى أن ولزى كان يتلقى فى أوج مجده ثلث دخول الكنيسة فى انجلترا .

وحوالى سنة ١٥١٩ أبلغ رتشارد فوكس ولزى أن رجال الدين فى أسقفية ونشستر كانوا قد ترددوا إلى هاوية كبيرة من الفسق والفساد ، إلى حد أنه يئس أن يشهد فى حياته أية محاولة لإصلاح دينى .

وارتاب قساوسة الأبروشيات فى أن ترقياتهم تتوقف على مقدار مقتنياتهم ، فأخذوا يغتصبون ضرائب العشور أكثر مما فعلوا من قبل ، وكان بعضهم يستولى على عشر دجاج الفلاح وإنتاجه من البيض واللبن والجبن والفاكهة ، بل من الأجور التى كانت تدفع لمعاونته ، وكل إنسان لا يترك فى وصيته ميراثاً للكنيسة يتعرض لخطر عظيم ، بحرمانه من

الدفن طبقاً للطقوس المسيحية ، مع ما يترتب على ذلك من نتائج مروعة .. وبعد قليل كانت الكنيسة تملك - وفقاً لتقدير كاثوليكى محافظ - حوالى خمس الأملاك الإنجليزية .

وفى سنة ١٥٢١ أصدر هنرى الثامن كتابه المشهور (قضية المقدسات السبعة ضد مارتن لوثر) ، واعتقد كثيرون أن ولزى هو المؤلف الحقيقى ، وفى سنة ١٥٢٥ رد لوثر على ذلك (الحمار الأحمق) ، و (ذلك المجنون الهائج) ، (ملك الأكاذيب ، الملك الذى بحكم انجلترا بغضب الله) .

وقد مكن هنرى من نفسه بعد أن تزوج أرملة أخيه أرثر (كاترين أرجون) ، وكانت تكبره بسبع سنوات ، ولم تنجب له ولداً يخلفه على العرش ، فكل من ولدتهم ماتوا إلا ابنة واحدة تسمى مارى .

ثم وقع فى حب (آن بولين) ، وكانت رغبته فى الزواج منها من أجل الولد ، إذ كان كاثوليكياً أميناً ، فسعى إلى البابا كليمندس السابع ليفسخ زواجه من كاترين ، على أساس أنه كان زواجاً غير قانونى ، وسعى ولزى لدى البابا فى ذلك ، لكن الإمبراطور شارل الخامس - وكان ابن عم كاترين - حذر البابا ، فلجأ الملك إلى رجال الجامعة ليجدوا مخرجاً قانونياً مستغلاً قول تندال : (الحاكم مسئول أمام الله وحده ، طاعة الرعية للحاكم من طاعة الله .. سيطرة الكنيسة على أمراء أوربا لم يكن عاراً فقط ، وشيئاً قبيحاً ، بل تحويلاً وقلباً للنظام الإلهى : ملك واحد ، قانون واحد ، هو قضاء الله فى كل دولة) .

اتهم الملك إكليروس انجلترا بكسر القانون فى اعترافهم بسلطة البابا ، وفرض عليهم غرامة فادحة ، مع الإقرار بأن الملك هو (السيد الوحيد الأعلى ، وبقدر ما يسمح قانون المسيح فالملك هو الرئيس الأعظم) ، ثم أمر البرلمان أن يحظر دفع الضرائب السنوية للبابوية إلا بإذن الملك .

وأعلن كرانمر الذى صار رئيس أساقفة كانتربرى أن زواج هنرى من كاترين باطل وملغى .

كان هنرى قد تزوج سراً من آن بولين التى أصبحت بعد ذلك ملكة انجلترا ، وولدت له إليزابث الملكة سنة ١٥٥٨ .

أصدر البابا كليمندس السابع قراراً بحرمان الملك من عضوية الكنيسة .

أعلنت محافل الأساقفة فى انجلترا عدم صلاحية سلطة البابا فى انجلترا .

وفى سنة ١٥٣٤ أجاز البرلمان قرار السيادة بأن هنرى الرئيس الأعلى الوحيد لكنيسة انجلترا ، وتم اضطهاد المخالفين .

وفى عهد هنرى ظهرت أول نسخة كاملة بالإنجليزية فى زيورخ سنة ١٥٣٥ ، ونشرت سنة ١٥٣٩ فى طبعات منقحة ، وأمر كروموبل أن يوضع هذا (الكتاب المقدس العظيم) فى كل كنيسة إنجليزية ، ومنح هنرى (بدافع من الكرم والطيبة الملكيين) المواطنين امتياز تلاوة الكتاب المقدس فى بيوتهم .

وترتب على هذا أن صار لكل قرية مفسرون هواة ، وتجادل المتعصبون حوله فى الكنائس ، وتضاربوا فى الحانات ، ومنح أزواج زوجاتهم أوامر قصائية بالطلاق ، وتزوج آخرون أكثر من زوجة .

أسف الملك ، وحث المجلس النيابى سنة ١٥٤٣ على س قاعدة لا تجيز حيازة الكتاب المقدس إلا للنبلاء وكبار الملاك ، ولا يجوز لغير القسيس الوعظ به ، أو الجدال فيه علناً .

وفى سنة ١٥٣٩ أعلن الملك والمجلس النيابى والمجمع الإكليروسى أن كل من ينكر شفاهاً أو كتابة الحضور الحقيقى للمسيح ، يتعرض للموت حرقاً ، دون أن تتاح له فرصة لإنكار ما قال ، أو للاعتراف ، أو الغفران .

وأعلن أن كل الزيجات التى عقدها القساوسة حتى وقت صدور (قانون المبادئ الستة لسنة ١٥٣٩)باطلة ، وأى قسيس يحتفظ بزوجته بعد ذلك يعد مرتكباً جريمة الخيانة العظمى .

وقد ساعدت هذه الخلافات على انتشار البروتستانتية .

ولما مات هنرى وخلفه ابنه الصغير إدوارد السادس الذى نشأ على الطريقة البروتستانتية ، توجهت الرعية تحت حكمه القصير إلى الكنيسة البروتستانتية .. وفى عهده سنة ١٥٥١ ، وضع الأسقف كرانمر الذى كان الذراع اليمنى للملك هنرى الثامن اثنتين وأربعين مادة للتوفيق بين الأطراف المتباعدة ، لكنه نبذ المبادئ الأخلاقية الكاثوليكية ، وأجاز للقسيس أن يتزوج .

وكان إدوارد الذى تعلم على يد كرانمر يؤمن بإخلاص أن القداس أشد ضروب عبادة الأوثان كفراً ، وقد قبل مسروراً القرار الذى اتخذه المجلس الملكى باحتيار عمه ،

إدوارد سيمور ، وصياً عليه ، حتى يبلغ السن القانونية .

وأصدر المجلس النيابى سنة ١٥٤٧ ـ برئاسة سومرست ـ أمراً بنزع كل صورة على جدار كنيسة ، أو نافذتها ، تشيد بذكر نبى أو حوارى أو قديس ، (حتى لا تبقى هناك أى ذكرى له نفسه) .. وشمل الأمر تحطيم الزجاج الملون فى الكنائس ، وسحق التماثيل ، واستبدال الشعارات الملكية بالصلبان .

ولما مات إدوارد سنة ١٥٥٣ جاءت أخته مارى التى نشأت كاثوليكية ، فتحولت الكنيسة إلى الكاثوليكية الرومانية ، وحكم على كرانمر بالإحراق ، واستشهد كثيرون ، وألغى البرلمان القوانين التى سبق أن أجازها ، وصادق على إعادة الاتحاد مع روما ، والعودة إلى الأم المقدسة الكنيسة .

وماتت مارى سنة ١٥٥٨ فخلفتها أختها الصغرى إليزابث (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣) التى احتلت مكانة كبيرة فى قلوب الإنجليز البروتستانت ، إذ تم فى عهدها الاعتراف بالكنيسة الوطنية ، وصدر قانون يضع التاج مكان البابا ، كما صدر قانون بتوحيد العبادة فى جميع أنحاء المملكة ، ووضعت المبادئ التسعة والثلاثون التى لا تزال ميثاق الكنيسة الإنجليزية ، وارتدت الرعية إلى الصلاة بالإنجليزية ، وإلى أصول دينية تستبعد الأسرار المقدسة .

فى ٢٩ أبريل ١٥٥٩صدر قانون السيادة الذى نص على أن تكون إليزابث الحاكم الأعلى لانجلترا فى المسائل الروحية والزمنية ، ووضع (قسم السيادة) الذى يعترف بالسيادة الدينية للملكة ، ويؤدى هذا القسم كل رجال الدين والمحامين والمعلمين وخريجى الجامعات والحكام والقضاة ، وكل موظفى الكنيسة والتاج ، وعهد إلى محكمة كنسية ذات سلطة عليا تختار الحكومة أعضاءها بإجراء التعيينات الكبرى فى الكنيسة ، واتخاذ القرارات الكنسية ، وأى دفاع عن سلطة البابا على انجلترا كان عقابه السجن أو الموت ، وفى سنة ١٥٩٠ صارت كل الكنائس بروتستانتية .

ولما تولى جيمس الأول ملك انجلترا (١٦٠٣ ـ ١٦١٤) أعلن فى البرلمان سنة ١٦٠٩ : (أن مقام الملكية هو أسمى شيء على الأرض ، لأن الملوك لا يقومون مقام الله على الأرض ، ويجلسون على عرش الله فحسب ، بل إن الله نفسه يسميهم آلهة أو أرباباً .. إن الملوك يسمون بحق آلهة ، لأنهم يمارسون شيئاً شبيهاً بالسلطة الإلهية على الأرض ، فإنكم لو تدبرتم فى صفات الله لوجدتموها مجتمعة ، ومتفقة فى شخص الملك ، إن الله

قادر على الخلق أو التدمير والإفناء ، على البناء والهدم ، وفق مشيئته ، يبعث الحياة أو يرسل الموت ، يحاسب كل الناس ولا يحاسبه أحد ، وللملوك نفس القدرة أو القوة ، إنهم يصنعون رعاياهم أو يحطمونهم ، ولهم القدرة ، ولهم الكلمة العليا على كل رعاياهم ، وفي كل الأمور ، لا يحاسبهم إلا الله وحده) .

واستجابة لهذا الوهم العابث قرر أسقف لندن أن الملك ملهم من الله ، (وأنه لم ير له مثيل منذ عهد المسيح) !!.

* وفي اسكتلنده قام مبعوث بابوي في نهاية القرن الخامس عشر بإبلاغ البابا أن دخل الكنيسة صار يعادل كل الدخول الأخرى مجتمعة ، وكان الوعاظ وأوساط الناس يكادون يحتكرون معرفة القراءة والكتابة .

كتب هيلير بلوك الكاثوليكي المتزمت : (إن فساد الكنيسة الذي استفحل شره في كل مكان في سائر أوربا ، في القرن الخامس عشر ، قد وصل في اسكتلنده إلى درجة لم تعرف في أي مكان آخر) .

كان للكردينال بيتون ثمانية أبناء سفاحاً .

ونتيجة هذا الفساد المنتشر بسبب التجاوزات الكنسية ، كتب الفيلسوف جون نوكس (١٥٠٥ ـ ١٥٥٩) ـ وهو قس بروتستانتي ـ يقول : (إننا نقصد بعبادة الأوثان القداس ، والتوسل بالقديسين ، وعبادة الصور ، والاحتفاظ بها ، وكل عبادة للرب لا يحتويها كتابه المقدس) .

ورأى نوكس أن الإصحاح الثالث عشر من (سفر تثنية) لا يزال سارى المفعول ، وفسره حرفياً ، فكل هرطيق يجب أن يعدم ، والمدن التي تغلب عليها الهرطقة يجب أن يقتص منها بالسيف ، وتدمر تماماً ، ويقضى على ما فيها من ماشية ، وكل بيت فيها يجب أن يحرق .

كان نوكس ـ ضيقاً بما يجرى حوله ـ وقف على الطرف الآخر ، يدعو إلى (يشوع) جديد ، يقضى على الأخضر واليابس ، ويعيد البناء من جديد ، متجاهلاً ـ وهو الفيلسوف ـ أن العنف يولد العنف ، فيمن حوله ، أو يؤثر في نفس صاحبه ، بحيث يتحول إلى شيطان أصم أعمى ، لا يرى ولا يسمع إلا وساوسه ، من خلال ظلام نفسه الفزعة من كل شيء ، المرتابة في كل شيء ، ومن ثم هو في حالة طيش مستمر ، وضراوة لا تنتهي .

* ما إن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت تقوى الناس قد جعلت الكنيسة تسيطر على اقتصاد اسكنديناوه ، كانت الكنيسة تمتلك نصف الأرض في الدنمرك ، وكان يفلحها مستأجرون في منزلة تقترب من الرق ، وكانت كوبنهاجن نفسها إقطاعية للكنيسة ، ورجال الإكليروس والنبلاء يتمتعون بالإعفاء من ضرائب الأرض ، النبلاء لأنهم اشتركوا في الحرب على نفقتهم الخاصة ، ورجال الإكليروس لأنهم نظموا العبادة والأخلاق والتعليم والبر .

وفي سنة ١٥٢٧ نادى جوستافوس ملك السويد في مجلس فستيريس بالإصلاح الديني علناً .

وتحولت الأديار - في ختام مجلس فستيريس - إلى إقطاعيات للملك ، وإن سمح للرهبان بالإفادة منها ، وتقرر إعادة كل الأملاك التي منحها النبلاء للكنيسة ، منذ سنة ١٤٥٤ إلى ورثة الواهبين ، وأن يسلم الأساقفة قصورهم إلى التاج ، وحرم على الأساقفة أن يسعوا إلى تأييد البابا لتعيينهم ، وتقرر أن يسلم رجال الإكليروس إلى الدولة كل دخل ليست شعائرهم الدينية في حاجة إليه ، ووضع حد للاعتراف السرى ، وتقرر أن تعتمد العظات كلها على الكتاب المقدس وحده .

* وفي سنة ١٥٥٢ صوت المجلس النيابي البولندي ، داعياً إلى الحرية الدينية لكل العقائد التي تعتمد على (كلمة الله الخالصة) ، وأسبغ صفة الشرعية على زواج رجال الإكليروس ، ومناولة القربان المقدس بالخبز والنبيذ .

وفي سنة ١٥٦١ أصدرت (حركة القائلين بوحدة الكنيسة) اعترافاً بالعقيدة ، وقصروا الألوهية الكاملة على الرب الآب ، لكنهم جاهروا بالإيمان بالمولد الخارق للمسيح ، ووحيه الإلهي ، ومعجزاته ، وبعثه ، وصعوده ، ورفضوا التسليم بالخطيئة الأولى ، وبتكفير المسيح عن خطايا البشر ، وسلموا بالتعميد والقربان المقدس كرمزين فقط ، ولقنوا الناس أن الخلاص يتوقف فوق كل شيء على العمل الواعي بتعاليم المسيح .

* وفي روسيا عملت الكنيسة على تقوية الورع عن طريق فن العمارة ، والرسوم الحائطية ، والأيقونات ، والعظات القوية ، وحفلات التنويم المغناطيسي ، والتراتيم التي يشترك فيها عدد كبير من المرتلين .

كانت الأديرة كثيرة ضخمة ، من ذلك أن (دير الثالوث المقدس) الذي أسسه

القديس سرجيوس سنة ١٣٣٥ ، كان قد جمع فى سنة ١٦٠٠ من الأراضى الشاسعة ما يحتاج إلى أكثر من مائة ألف فلاح . وبما أن الفلاح كان مرتبطاً قانوناً بالأرض على أساس أنه وسيلة النهوض بالزراعة ، وأن قانوناً صدر بشأن تنظيم الرق ـ فقد أصبحت الكنيسة الروسية مالكة للرقيق .

واستغلت الكنيسة شعور الخشية من الله فى أرض شاسعة ، تلتف بعباءة عبيد الأرض ، فأصبحت الحاكم الفعلى ، على حين كان سلطان إيفان (القيصر) محدوداً ، وكانت قواعد الطقوس الدينية ـ إن لم تكن قواعد الفضيلة والأخلاق ـ تقيد الجميع ، حتى القيصر نفسه .

فى يوم أحد من سنة ١٥٦٨ ـ أثناء الصلاة ـ رفض فيليب ، مطران موسكو ، أن يمنح إيفان البركة التى توسل إليه فى طلبها ، وتكرر الطلب ثلاث مرات ، دون جدوى ، ولما سأل أتباع القيصر عن سبب هذا الرفض ، أخذ فيليب يعدد جرائم إيفان وفسوقه حتى صاح القيصر : (هدئ من روعك ، وامنحنى البركة) ، فأجاب المطران : (إن سكوتى يوقعك فى الخطيئة ، ويستوجب هلاكك) ، فغادر إيفان المكان ساخطاً .

هذا على حين أنه فى سنة ١٥٨١ جند سيمون ستروجانوف ٦٠٠ من القوزاق ، وأرسلهم تحت قيادة إرماك تيمو فيفتش لغزو قبائل أوستياك (من الفنلنديين والماجيار فى غرب سيبيريا) ، وقد تم له ذلك ، وأصبحت سيبريا الغربية جزءاً من المملكة الروسية المتضخمة .. ولقد مجدت الكنيسة الروسية إرماك الذى كان من قطاع الطرق ، وضمته إلى قائمة القديسين ، لا لأنه قام بعمل وطنى مجيد ، بل لأنه وسع من سلطان الكنيسة ، وفتح أمامها مجالاً أكبر لزيادة دخلها .

وكان إيفان الرابع قد خلف من زوجته السابعة والأخيرة ابناً آخر ، هو ديمترى إيفانوفتش ، ورغبة فى تجنيب الطفل أخطار الدسائس ، أرسله وأمه للإقامة على بعد ١٢٠ ميلاً من موسكو .

وفى سنة ١٥٩١ قضى الطفل نحبه بطريقة لم يتم التحقق منها ، وقيل إن الطفل قطع حلقومه فى نوبة صرع ، لكن الأم وجهت الاتهام إلى جودونوف الحاكم الفعلى لروسيا ، من خلف عباءة فيودور إيفانوفيتش ، الابن الهزيل لإيفان الرابع (الرهيب) ، وأجبرت الأم على الترهب ، ونفى أقرباؤها من موسكو ،

وأضيـف ديمتـرى إلى قائمـة القـديسـين الأرثـوذكـس !!.

وفي سنة ١٦٠٣ ظهر في بولنده شاب ادعى أنه ديمترى (الذى ذكر أنه قتل) الوريث الشرعى لعـرش فيودور إيفانوفيتش ، وقال بوريس جـودونوف الحاكم المستبد الواثق من نفسـه : إن هـذا الشـاب ليس إلا جريشكا أوتربيف الراهب الذى جـرد من ردائه الكهنوتى ، والذى كان من قبل في خدمة آل رومانوف ، لكن بولندا التى كانت تخشى توسع روسيا ، سرها أن تجد بينها من يطالب بالتاج الموسكوفى ، وهو متزوج من بولندية ، معتنق الكاثوليكية ، فشجعته ، وحشدت له المتطوعين البولنديين ، وناصره الجزويت .

وفي أكتوبر ١٦٠٤ عبر ديمترى الدنيبر مع أربعة آلاف رجل ، فيهم المنفيون الروس ، وجنود ألمان مرتزقة ، وفرسان بولنديون ، وأيده النبلاء سراً ، وانضم إليه الفلاحون الآبقون ، ورحب الشعب الجائع المقهور بمقدمه .

وفي ١٣ أبريل ١٦٠٥ مـات بوريس فجـأة ، وقتل ابنـه وأرملته ، وفي غمرة النشـوة الوطنيـة توج ديمترى الزائف قيصراً على روسيـا كلهـا ـ قصـة الحضـارة مج ٧ ج ٣ ص ١٢٧ .

ولما مات البطريرك أدريان في أكتوبر ١٧٠٠ امتنع بطرس الأكبـر عـمداً عن تعيين خلف له ، وأصبح هو نفسـه رئيساً للكنيسة ، على نحو ما فعل هنرى الثامن في انجلترا ، وتزعم حركة إصلاح دينى فى روسيا ، وظل منصب البطريرك شاغراً إحدى وعشرين سنة ، فحرمت الكنيسة الأرثوذكسية زعيماً يتصدى لإصلاحات بطرس .

وفي سنة ١٧٢١ ألغى المنصب ، وأحل مكانه (مجمع مقدس) من رجال الكنيسة ، يعينه القيصر ، ويخضع لوكيل علمانى .. وقد تم نقل إدارة الممتلكات الكنسية إلى إحدى المؤسسات الحكومية ، واختزال اختصاص المحاكم الكنسية ، وأخضع تعيين الأساقفة لتصديق الحكومة ، ومنعت مراسيم أخرى رسامة المتعصبين ، أو المتصوفين ، وحدت من عدد مراكزصنع المعجزات ، وقضى على الرجال ألا يأخذوا فى الرهبنة قبل الثلاثين ، وعلى النساء قبل الخمسين ، وتقرر إلزام الرهبان بالقيام بعمل نافع ، وحصرت ممتلكات الأديرة ، وترك بعض الإيراد للأديار ، وخصص الباقى لإنشاء المدارس والمستشفيات .

* * *

التَشـرْذم..

- بداية التشرذم .
- اللولارد .. ثورة بوهيميا .
- اللوثرية والأسر البابلى للكنيسة .
- الحمامة والخفاش .
- الجزويت .. وجزاء سنمار !!.
- مزيد من التشرذم .

* * *



بـداية التشـرذم ..

يقول ويلز (معالم التاريخ الإنسانية ج ٣ ص ٩٠٣/٩٠٢) : إن البابوات لم تعد لهم رغبة في رؤية مملكة الرب موطدة في قلوب الناس ، فقد نسوا ذلك الأمر ، وأصبحوا يرغبون في رؤية قوى الكنيسة التي هي قوتهم هم ، متسلطة على شئون البشر ، وكانوا في سبيل توطيد تلك القوة على أتم الاستعداد للمساومة مع أي جهة ، وعلى أي شيء ، حتى البغض والشهوات المستقرة في قلوب البشر .

ونظراً لأن كثيراً منهم كانوا يسرون الريبة في سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم ، وصحته المطلقة ، لم يسمحوا بأية مناقشة فيه .. كانوا لا يتقبلون أسئلة ، ولا يتسامحون في مخالفة ، لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم ، بل لأنهم كانوا غير واثقين منها ، وكانوا يريدون ممن حولهم موافقتهم على رأيهم ، لأسباب تتصل بالسياسة .

وقد تجلى في الكنيسة ـ عندما وافى القرن الثالث عشر ـ ما يساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التي تنخر بناء مدعياتها بأكمله ، وقد تجعله أثراً بعد عين ، فلم تكن تستشعر أي اطمئنان نفسي ، وكانت تتصيد الهراطقة في كل مكان ، كما تبحث العجائز الخائفات ـ كما يقال ـ عن اللصوص تحت الأسرة وفي الدواليب ، قبل الهجوع في فراشهن .

لكن الشكوك والمخاوف لم تحرك إلا الساخطين والغيورين على سلامة الكنيسة . بناء ومعتقداً ، وإن كانت الشكوك والمخاوف قد شوهت مواقف هؤلاء الساخطين الغيورين ، ودفعت بهم إلى التطرف أحياناً في صورة من صور الدفاع عن النفس ، وإلى سلوك شعاب لم تكن لهم في حساب .

* * *

الوالدونيون ..

أتباع (بطرس والدو) المتحمس الديني الذي بدأ سنة ١١٧٠ حملة دينية في سبيل مراعاة شريعة المسيح ، وقد تنازل عن كل متاعه للفقراء ، وأنشأ جماعة (فقراء ليون) الذين عاشوا حياة الفقر والفضيلة الصارمة .

كان اختلاف أفكارهم عن الأصول الجوهرية المسيحية من الضآلة بحيث جعلهم يحسبون أنفسهم مسيحيين مخلصين ، كانوا يعيشون عيشة فضيلة وطهر ظاهر فى عصر طافح بالعنف والفوضى والرذيلة ، بَيْد أنهم أظهروا الشك فى صحة مبادئ روما ، وفى التفسير الصحيح للكتاب المقدس ، وكانوا يرون فى يسوع ثائراً على قسوة رب (العهد القديم) ، وليس ابناً له بدين بعنفه ودمويته .

ظفروا فى بداية أمرهم بموافقة البابا على نشاطهم ، لكنهم أسرفوا فى مهاجمتهم دعارة رجال الكنيسة ، فحكم عليهم (مجلس فيرونا) سنة ١١٨٤ بالإدانة ، وكان أن قرروا أن كل رجل طيب يستطيع أن يعظ ، وأن يبشر بتعاليم الكتاب المقدس ، وعينوا لأنفسهم قساوسة ، واستغنوا عن خدمات القساوسة الكاثوليك ، وانتشروا حتى لمبارديا وبوهيميا .

فزعت الكنيسة بسبب هذه (الزندقة) ، واتخذت إجراءات مشددة لقمعها .

كان إنوسنت الثالث يرى أنهم يستحقون الموت ، لأنهم خانوا المسيح ، وحرض على حرب صليبية ضدهم ، وأذن لكل نذل لئيم ، أو متشرد أثيم ــ كما يقول ولز (معالم التاريخ الإنسانية ج ٣ ص ٩٠٤) ــ أن ينضم إلى الجيش ، وأن يعمل السيف والنار ، ويغتصب الحرائر ، ويرتكب كل ما يمكن أن يتصوره العقل من بشاعة .. ودعا ملك فرنسا أن يشن حملة دينية على (ألبيجنسيين) الذين ارتبطوا بالوالدونيين ارتباطاً وثيقاً ، وقد تم ذلك فعلاً سنة ١٢٠٩ ، إذ حدثت مذبحة مروعة بعد الاستيلاء على (كاركاسون) .. وأنشأ جريجورى التاسع سنة ١٢٣٣ محاكم التفتيش لتضطلع بهذا الواجب ، ولم يكن للمتهمين فى محاكم التفتيش بعد سنة ١٢٥٤ حق الاستعانة بمن يدافع عنهم ، وإذا ما حكم على المتهم بالإثم صودرت أملاكه ، وأسلموه إلى رجال السلطة المدنية مشفوعاً بالدعاء له ، لعل حياته تنجو من الموت .. وقد نجحت محاكم التفتيش فى القضاء على هذه (النابتة) قضاء تاماً .

ويؤكد رسل (تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٢٧/٢٢٥) أن مذهبهم جاء من آسيا ، عن طريق البلقان ، وكان له أنصار كثيرون في شمالى إيطاليا ، كما كان مذهب الكثرة الغالبة فى جنوبى فرنسا بما فى ذلك الأشراف الذين أرادوا ذريعة لأخذ أرض الكنيسة .

ومع أن القساوسة شوهوا اتجاهات الكثاريين (الوالدونيين) فلدينا كثير من أخبارهم يوشك أن يكون صدقه موضع اليقين ، فالظاهر أنهم كانوا ثنائيين ، وأنهم ـ كالغنوصيين ـ يعتبرون (يهوا) المذكور فى (العهد القديم) كائناً خبيثاً ، وأما الإله الحق فلا يبدو إلا فى (العهد الجديد) ، وذهبوا إلى أن المادة شر بالضرورة ، وأن أرباب الفضيلة لا تنشر أجسادهم يوم البعث ، وأما أصحاب الشر فسيعانون من تناسخ أرواحهم فى أجساد حيوانية .

كانوا نباتيين ، يحرمون أكل اللحم والبيض والجبن واللبن ، وكانوا يأكلون الأسماك لأنها لا تتوالد بالتناسل الجنسي ، كما يعتقدون ، وكرهوا العلاقة الجنسية بكافة ضروبها ، وقالوا إن الزواج شر من الزنا ، لأنه مستمر ولا يتنافى مع الذوق العام ، ولم يروا ما يمنع الانتحار ، وقبلوا (العهد الجديد) بحرفيته ، ولم يجيزوا حلف الأيمان ، وقيل إن أحدهم اتهم بالزندقة ، فدافع عن نفسه بأنه أكل اللحم ، وكذب وحلف يميناً ، وكان كاثوليكياً طيباً .

وقيل إن مبادئ هذه الزندقة انتقلت عن طريق الصليبيين .. وحدث سنة ١١٦٧ أن عقد الكثاريون (الوالدونيون) مجلساً بالقرب من تولوز حضره مندوبون من بلغاريا ، ولا تزال طائفة منهم باقية إلى يومنا هذا فى الأجزاء النائية من وديان الألب ، وفى الولايات المتحدة .

ولو أنا صدّقنا قول رسل فى معتقد هؤلاء القوم لنسبنا (مدخولاتهم) الهرطقية إلى تشويه الكنيسة ، وإلى المعاناة التى استبدت بهم زمناً طويلاً .

الفرنسيسكان ..

كان القديس فرنسيس الأسيسي (١١٨١ ـ ١٢٢٦) أحب الرجال الذين شهدهم التاريخ إلى قلوب الناس .. كان من أسرة موسرة ، طريفاً مترفاً مرحاً ، مر برجل أبرص ، فانفعل ونزل عن دابته ، وقبّل المريض ، ثم نزل عن كل ما وهبته الحياة من متعة ودعة ، وانطلق يطلب الله ، فى خدمة المرضى والبائسين ، وبخاصة المصابين بالجذام ، وكانوا كثيرين فى إيطاليا .

انضمت إليه جموع غفيرة من الأتباع ، وبذا ظهر أول الرهبان فى (عقْد) الرهبنة الفرنسيسكانية ، وأقيم عقد من النساء المتبتلات المخلصات إلى جوار عقد الإخوة الرهبان .

سافر يعظ الناس فى مصر وفلسطين مبشراً بدعوته ، دون أن يعترض المسلمون طريقه ،

مع أن ذلك حدث إبان الحرب الصليبية الخامسة .

ارتابت الكنيسة فى أمر الجماعة ، ثم اعترف بها البابا إنوسنت الثالث سنة ١٢١٠ تقريباً ، ومضى جريجورى التاسع في تأييدها ، وكان صديقاً للقديس فرنسيس .

عارض فرنسيس فى أن يكون لأتباعه بيوت أو كنائس ، إلا ما تهيئه لهم ضيافة عابرة ، وسافر سنة ١٢١٩ إلى الشرق مبشراً بمبادئه فى حضرة السلطان الذى أكرم وفادته ، ولما عاد وجد الطائفة قد أقامت لها داراً ، فتألم لذلك ، غير أن البابا أقنعه بالقبول ، وبعد موته اعترف به جريجورى قديساً .

وقد نزل بالطائفة بعد موته ما أصاب غيرها من الطوائف ، إذ جلد كثير من أبرز المتحمسين للبساطة ، وسجن آخرون ، وقتل من قتل ، وقضى الأخ برنار (أول تلاميذه) عاماً فى الغابات والجبال ، مطارداً كالوحوش .

وظل فريق يجاهد طوال القرن الثالث عشر ضد عنف الكنيسة ، وفى سنة ١٣١٨ أحرق أربعة منهم ، وهم أحياء ، فى مرسيليا ، بوصفهم هراطقة لا يرجى لهم صلاح ، مع أن أكثر زعماء محاكم التفتيش فى كثير من البلدان كانوا من الفرنسيسكان .

يقول ويلز (معالم التاريخ الإنسانية ج ٣ص ٩٠٧) : يبدو أن الفارق بين تعاليم القديس فرنسيس وبين تعاليم (والدو) كان ضئيلاً ، إذ كان كلاهما متوقداً حماسة لروح يسوع الناصرى ، إلا أن القديس فرنسيس كان يبذل قصارى جهده ليكون باراً بالكنيسة ، على حين خرج عليها والدو ، لكن كلا منهما كان مثالاً لثوران الضمير على السلطة المستبدة ، وعلى الإجراءات التى تتبعها الكنيسة ، ومن الجلى أن الكنيسة وضعت الطائفتين فى قفص واحد .

ويقول توما السلانوى ـ كما ذكر رسل ـ إنه كان بين القديسين أكثر من قديس ، وبين الآثمين كان واحداً منهم .. لو كان للشيطان وجود لهيأ له مستقبل الطائفة فرصة لا مثيل لها ، بعد أن رأس الطائفة (الأخ إلياس) الذى تقلّب فى النعيم ، وأجاز الابتعاد عن الفقر ابتعاداً تاماً ، وزج بالفرنسيسكان فى حروب دينية مع طوائف أخرى ـ تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٣١ .

الدومنيكان ..

يقول رسل (تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٣٣/٢٣٢) : لست أعرف فى القديس دومنيك من آثار الخصائص البشرية إلا اعترافه لجوردان السكسونى بأنه كان يحب التحدث إلى الشابات من النساء أكثر من العجائز .

وقد أنشئت الطائفة الدومنيكية سنة ١٢١٥ ، وأعان على إنشائها إنوسنت الثالث ، وسرعان ما انتشرت ، وأدت خدمة جليلة للإنسانية بإخلاصها للعلم ، ولم يكن هذا جزءاً من خطتها ، غير أن هذه القاعدة لم تراع إلا سنة ١٢٥٩ ، إذ بذل دومنيك كل مجهود لتيسير الحياة العلمية لأبناء الجماعة ، وكانت محاولة للتوفيق بين أرسطو والمسيح ، قام بها من أبناء الجماعة ألبرت الكبير ، وتوما الأكوينى .

* * *

اللولارد .. ثورة بوهيميا

جون ويكلف (١٣٢٠ ـ ١٣٨٤) أول المصلحين الإنجليز .. ولد في (هسول) القريبة من قرية (ويكلف) ، من أعمال مقاطعة بوركشير .. درس في جامعة أكسفورد ، وصار فيها أستاذاً للاهوت ، وقضى سنة ١٣٦٠ رئيساً لكلية بالبول ، ورسم قسيساً ، وتلقى من البابوات عدداً من المناصب أو المرتبات من كنائس الأبروشيات ، لكنه خلال هذه الفترة ظل يدرس في الجامعة ، وكان نشاطه الأدبي كبيراً ، إلى حد روّع معاصريه ، فقد كتب رسائل في الفلسفة المدرسية عما وراء الطبيعة ، وعن اللاهوت، والمنطق ، وكتب مجلدين في فن الجدل ، وأربعة مجلدات في المواعظ ، ورسائل أخرى قصيرة متنوعة .

وكان أن استسلم لمنطق أوغسطين وفصاحته ، وبنى عقيدته على مبدأ الجبرية ، وفي ذلك يقول :

(إن الله يمنح بركته ورحمته لمن يشاء ، وقد كتب على كل إنسان مصيره المحتوم في الأزل قبل مولده ، كتب عليه الخسران أو النجاة إلى الأبد ، وليست الأعمال الصالحة هي التي تنجي صاحبها ، بل إنها تدل على أن من يعملها قد تلقى رحمة الله ونعمته ، وأنه ممن اختارهم وخصهم بهذه النعمة وتلك الرحمة ، ونحن نصدر في أعمالنا حسبما قسم الله لنا) .

(ومن ثم كانت العلاقة القائمة بين الإنسان والله علاقة مباشرة ، لا تحتاج إلى وسيط ، ولذلك يجب أن يرفض كل ما تدعيه الكنيسة ، أو يدعيه قس من أن تكون هي أو هو واسطة لابد منها ، وبهذا المعنى يكون كل مسيحي قسيساً ، وليس في حاجة إلى ترسيم) .

وبناء على هذا يكون انحراف الكنيسة عن دعوة المسيح ، واتجارها باسمه ، (لأنه واضح مما جاء في الكتاب المقدس أن المسيح قد قصد ألا يكون للحواريين ، ولمن خلفهم، ولمن رسموا بعدهم ، مندوبين عنهم ـ ألا يكون لهؤلاء جميعاً أملاك ما ، وإذن فكل كنيسة ، وكل قس يمتلكان شيئاً ، يعصيان أوامر الله ، آثمان) .

ويستهويه هذا المبدأ الديني ، فيسعى إلى تعميمه ، ويهدم الجدار الفاصل بين الفضيلة وغيرها ، فيقول : (المجتمع الذى تعمه الفضيلة لا يكون فيه ملك فردى ، ولا قانون يضعه الإنسان ، وتسنه الكنيسة أو الدولة) .

ونسى أنه (تلقى من البابوات عدداً من المناصب أو المرتبات من كنائس الأبروشيات) وأنه كان يتقاضى أجراً من الجامعة ، وأجوراً من مطبوعاته ، لكن على فرض أنه كان يهب هذا كله للفقراء ، فإن هدم الملكية من جذورها ، وليس (تذويب الفوارق بين الطبقات) ، يخدم الفئة المسيطرة ، وإن هدم القوانين الوضعية ، دون تقديم البديل السماوى ، ومن يحسن القيام على هذا البديل السماوى ـ يؤدى إلى فوضى ، أهون منها قانون الغابة الذى تحكمه الفطرة ، وإشباع الغريزة ، والتوازن البيئى .

ثم إن هذا الداعى إلى(رفض) الكنيسة ، نظماً ومبادئ ، ورفض الدولة ، نظماً ومبادئ ، حين رفض البرلمان سنة ١٣٦٦ أن يؤدى الخراج الذى نعهد الملك حون أن يؤديه للبابا ـ عين ويكلف قساً فى خدمة الملك ، أى فى خدمة الدولة التى يرفض قوانينها ، أو يدعو إلى رفضها ، ليعد دفاعاً عن هذا العمل ، وعينه إدوارد الثالث سنة ١٣٧٤ رئيساً لكنيسة أبروشية لوتردورث ، ويبدو أنه قصد بذلك أن يكون إيرادها ـ وهو نظام كنسى ـ أجراً له ، يحتفظ به لنفسه .. ثم عين ويكلف سنة ١٣٧٦ عضواً فى اللجنة المكلفة بمباحثة عمال البابا فى بروج ، بشأن موقف انجلترا من أداء الخراج ، ولما اقترح جون جونت أن تصادر الحكومة بعض أملاك الكنيسة ، دعا ويكلف إلى الدفاع عن هذا الاقتراح فى سلسلة من الخطب الدينية يلقيها فى لندن ، ولبى ويكلف الدعوة فى سبتمبر ١٣٧٦ ، وكان انحيازه للدولة ضد الكنيسة دليلاً على أن إنكاره للقوانين الوضعية بعامة إنما المقصود به النيل من الكنيسة ليس غير .

وقد جاء فى دفاعه : (إن البابا لا يستطيع أن يطلب هذا المال إلا على سبيل الصدقة ، ولما كان أهل البلاد أولى من غيرهم بهذه الصدقات ، فإن توجيه صدقات الدولة إلى البلاد الخارجية ـ إذا كانت البلاد نفسها فى حاجة إليها ـ يخرج بها عن نطاق الصدقات ، ويجعلها حماقة وبلاهة) .

(إن الدولة الإنجليزية ـ بنص الكتاب المقدس ـ يجب أن تكون هيئة واحدة ، وأن يكون رجال الدين واللوردات والسكان العاديون أعضاء فى هذه الهيئة) .

وبهذا المنطق تنحصر دائرة الفاتيكان فى كنيسة القديس بطرس وما حولها ، أو بصورة أوسع فى الولايات البابوية ، كما نصت (هبة قسطنطين) الزائفة ، وكأن ويكلف كان يعالج القضية من منطلق وطنى .

وفى مارس ١٣٧٨ ظهر ويكلف أمام مجلس الأساقفة فى لامث ، ليدافع عن آرائه ، ولما أوشك النقاش أن يبدأ تلقى كبير الأساقفة رسالة من والدة إدوارد الثانى تستنكر فيها أى قرار بإدانة ويكلف .

وشجع هذا الموقف ويكلف على أن يزداد عنفاً ، فقال : (إن كثيرين من رجال الدين يدنسون أعراض الزوجات والعذارى والأرامل والراهبات ، بكل ضروب الفسق والفجور) ، وطالب بمحاكمة رجال الدين على جرائمهم أمام المحاكم المدنية .

أما أحبار انجلترا فقد اتهمهم بأنهم (ينتزعون من الفقراء أرزاقهم ، ولا يقاومون الظلم) ، وبأنهم (يقدرون البنس الدنس أكثر مما يقدرون دم المسيح الثمين) ، وبأنهم (لا يصلون إلا ادعاء ورياء ، ويأخذون الأجر عن كل صلاة يقومون بها ، ويحيون حياة الترف ، فيمتطون الجياد الثمينة ، ذات السرج المصنوعة من الفضة والذهب) ، وبأنهم (نهابون ، خبثاء ، ثعالب ماكرة ، ذئاب ناهشة ، نهمون شرهون ، شياطين ، قردة) .

وهو بهذا سبق لوثر فى لغة السباب التى اشتهر بها ، ولعل كليهما اتخذ من بعض أنبياء بنى إسرائيل مثلاًوقدوة ، وما أشبه الليلة بالبارحة التى دفعت أرمياء وعاموس وغيرهما إلى الثورة على الفساد الاجتماعى .

إن (الاتجار بالمقدسات منتشر فى جميع أقسام الكنيسة ، وأكثر ما ينتجه هذا الاتجار من الضرر اتجار كنيسة روما ، لأنه أوسع ضروب الاتجار انتشاراً ، تحت ستار ادعاء القداسة ، ولأنه يحرم بلادنا من الرجال والمال أكثر مما يحرمها غيره) .

(إن المسيح لم يكن له مكان يريح فيه رأسه ، أما هذا البابا فيقول عنه الناس إنه يمتلك نصف الإمبراطورية) .

(إن المسيح وحوارييه قد عاشوا فقراء ، وإن من واجب القسيسين أن يعيشوا هم أيضاً فقراء ، أما الرهبان والإخوان فيجب أن يعودوا إلى ما كانت تحتمه عليهم قوانين طوائفهم ، فيبتعدوا عن كل ملك وترف ، والقساوسة يجب أن يبتهجوا حين تنتزع منهم كل أسباب السيادة الزمنية) .

لقد سبق ويكلف لوثر وكلفن ، فأنكر ضرورة الاعتراف الجبرى أمام القس ، ونادى بالعودة إلى الاعتراف الاختيارى العام الذى كان يفضله المسيحيون الأولون .

(لا حاجة إلى الاعتراف السرى أمام القساوسة ، فذلك اعتراف أدخله الشيطان أخيراً فى الدين ، ذلك أن المسيح لم يكن يعمل به ، ولم يعمل به الحواريون ، وبه استحال الناس عبيداً لرجال الدين ، وهو يستخدم الآن لأغراض سياسية واقتصادية ، وبه يستطيع الراهب والراهبة أن يرتكبا الخطيئة معاً) .

(ومن واجبنا أن نرتاب بوجه عام فى صحة العشاء الربانى الذى يقدمه القس الآثم ، أو الخارج على الدين ، كما أن القس ـ صالحاً أو طالحاً ـ لا يستطيع أن يحيل الخبز المقدس والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه) .

وفى سنة ١٣٨١ ألح جون جنت على صديقه ويكلف ألا يذكر شيئاً آخر عن (العشاء الربانى) ، لكن ويكلف رفض ، وأكد آراءه فى اعتراف أصدره بتاريخ ١٠ مايو ١٣٨١ .

وقبل دعوة لوثر إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى الألمانية ، كان ويكلف صادق العزم فى أن يكون الكتاب المقدس فى متناول كل إنجليزى يستطيع القراءة ، ويلوح أنه نفسه قد ترجم أسفار العهد الجديد ، وعهد إلى غيره بترجمة العهد القديم ، وقد تمت هذه الترجمات كلها بعد موته .

يقول ويلز (معالم التاريخ الإنسانية ج ٣ص ٩٠٩) : كان أوسع علماً وأكثر اقتداراً من القديسين فرنسس ودومينيك ، وكان له مؤيدون من ذوى المراكز العالية ، وأتباع كثيرون من أفراد الشعب .

مع أن روما ثارت عليه ، وأمرت بسجنه ، فإنه ظل يقوم بالطقوس الدينية والأسرار المقدسة ، بوصفه قسيس أبروشية .

لكن بمقتضى قرار صدر من مجمع كونستانس سنة ١٤١٥ ، نبشت مقبرته وأحرقت عظامه ، بقرار من الأسقف فلمنج سنة ١٤٢٨ ، بأمر من البابا مارتن الخامس .

يقول رسل (تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٨٥) : ولحق الاضطهاد الشديد بأتباعه فى انجلترا ، وهم اللولارديون ، حتى أزيلوا من الوجود ، ولم تعد لهم بقية تذكر .

* ذكر أحد مؤرخي الأديرة سنة ١٣٨٢أن (اللولارد) أنصار ويكلف (كانوا يتكاثرون بسرعة فائقة ، كالبراعم ، حتى غمروا المملكة بأسرها ومن النادر أن تلقى رجلين دون أن يكون أحدهما من أتباع ويكلف ، ولقد وجدوا بين عمال الصناعة بيئة صالحة ، وبخاصة نساجي نورفولك) .

وفي سنة ١٣٩٥ أحست جماعة اللولارد أنهم بلغوا من القوة حداً أتاح لهم أن يقدموا إلى البرلمان بياناً جزئياً بمبادئهم ، فقد عارضوا عزوبة رجال الدين ، وتحول القربان إلى دم المسيح ولحمه ، وعبادة الصور ، وزيارة القديسين ، والصلوات على أرواح الموتى ، وثروة الكنيسة ، وكثرة الوقوف عليها ، واستخدام رجال الكنيسة في وظائف الحكومة .

وأوصوا في بيانات أخرى بأن الجميع يجب أن يعكفوا على قراءة الكتاب المقدس ، وأن يتبعوا تعاليمه ، باعتبارها فوق مراسيم الكنيسة ، ورفضوا الحرب لأنها مناقضة للمسيحية ، والترف لأنه مناف للأخلاق ، وطالبوا بإصدار قوانين خاصة بالنفقات ، تفرض على الناس العودة إلى البساطة في الغذاء والكساء ، وكرهوا الأيمان ، ووضعوا في مقابل صيغة القسم صيغاً أخرى ، مثل (أنا متأكد أن) أو (إنها الحقيقة) .

* وفي فرنسا نادى بيير ديبوا في رسالة سنة ١٣٠٨ بتجريد البابوية من كل أملاكها الدنيوية ، ومن سلطانها الزمني ، ودعا حكام أوربا إلى رفض الخضوع لسلطان البابا في محاكمهم ، وأن تنفصل الكنيسة الفرنسية عن روما ، وتخضع للسلطة الزمنية والقانون المدني .

وفي إيطاليا ألف مرسيليوس البادوى سنة ١٣٢٤ ، بالتعاون مع جون الجندواني ـ أعظم رسالة أثرت على السياسة في العصور الوسطى ، وهي (المدافع عن السلام) .

وقد برهنت هذه الرسالة على أن السلام في أوربا يقوضه النزاع بين الدولة والكنيسة ، وأنه يمكن استعادة السلام والحفاظ عليه بوضع الكنيسة ـ بكل ممتلكاتها والعاملين بها ـ تحت السلطة الزمنية ، مثل باقي الجماعات والأموال ، ومن الخطأ أن تقتني الكنيسة ممتلكات ، فليس في الكتاب المقدس ما يبرر الاقتناء .

وأثبتت الرسالة خطأ ادعاء البابا أنه يستمد سلطته من بطرس الرسول ، لأن بطرس لم يكن أقوى سلطة من باقي الرسل ، ولم يكن لأساقفة روما ـ في القرون الثلاثة الأولى ـ سلطة تزيد عن سلطة الأساقفة في كثير من العواصم القديمة الأخرى ، وكان يرأس المجالس

العامة الأولى الإمبراطور أو نوابه ، وليس البابا ، وأى مجلس عام ينتخبه شعب العالم المسيحى يجب أن يفسر الكتب المقدسة ، ويعرف العقيدة الكاثوليكية ، ويختار الكرادلة ، وهؤلاء يجب عليهم أن يختاروا البابا ، ويجب على رجال الإكليروس ـ بما فيهم البابا ـ أن يخضعوا للقضاء المدنى ، والقانون ، فى جميع الأمور الدنيوية ، ويجب أن تعين الدولة رجال الإكليروس ، وتمنحهم المرتبات ، وتحدد عدد الكنائس والقسس ، وتستغنى عن القسس ، كلما رأت أنهم غير جديرين بمناصبهم ، وتراقب الهبات الكنسية ، أو المدارس التابعة للكنيسة، ودخلها ، وترفه عن الفقراء من فائض دخل الكنيسة .

وكان جون كولت أكبر أبناء سير هنرى كولت ، تخرج فى أكسفورد ، والتهم بشغف كتب أفلاطون وأفلوطين وشيشرون ، ورحل سنة ١٤٩٣ إلى فرنسا وإيطاليا ، وقابل إرازموس ودوديه فى باريس ، وتأثر بسافونا رولا تأثراً عميقاً فى فلورنس ، وهاله نزق الكرادلة والبابا إسكندر السادس وتحررهم فى روما ، فلما عاد إلى انجلترا ، وورث ثروة أبيه ، آثر حياة الدرس فى اكسفورد ، وكان يمثل معارضة الكنيسة ، مع ولائه لها ، وفى سنة ١٥٠٤ نصب نائباً لمطران كنيسة سانت بول ، ومن هذا المنبر الرفيع عارض بيع مناصب الأسقفية ، والفساد الناجم عن قوامة رجل واحد على موارد كنائس متعددة ، وقال إن أولئك القساوسة البائسين الذين يوجد منهم فى هذا العصر كثرة هائلة ، ليترددون فى الفجور الشنيع ، فهم لا يخشون الخروج من بطن بغى حقيقة إلى هيكل الكنيسة ، وإلى مذبح المسيح ، وإلى الأسرار الإلهية) .

وأخذت موجة (التحدى) فى الانحسار ، فأصدر هنرى الرابع وبرلمانه سنة ١٤٠١ المرسوم الشهير بحرق الذين تحكم عليهم إحدى المحاكم الدينية بالهرطقة ، وتباد جميع كتب الهراطقة ، وفى العام نفسه أحرق وليام سوترى ـ وهو قسيس على مذهب اللولارد ـ بعد أن شد إلى القائمة الخاصة بالإحراق ، وقبض على غيره من أنصار المذهب نفسه ، وأجبروا على تغيير آرائهم .

وفى سنة ١٤٠٧ أعاد أرندل كبير الأساقفة تأكيد سيادة الشريعة ، أو القانون الكنسى ، على كل تشريع وضعى ، وحكم بالهرطقة على رفض أى مرسوم بابوى .

وقدم أمير ويلز إلى هنرى الرابع سنة ١٤٠٦ عريضة تقضى بأن دعوة اللولارد ، وهجومهم على أملاك الأديرة ، يهددان كيان المجتمع بأسره ، فأمر الملك بزيادة التشدد فى ملاحقة الهراطقة .

وفي سنة ١٤١٣ جلس أمير ويلز على العرش باسم هنرى الخامس، ومنح تأييده الكامل لسياسة القمع ، وكان أحد أصدقائه ، سيرجون أولد كاسل ، الذى أبلى أحسن البلاء في الحرب من أجل الأمة ، تسامح مع دعاة اللولارد ، فطالب الأساقفة بمحاكمته ، فامتنع ، ثم وافق بناء على دعوة مكتوبة من الملك ، فمثل أمام الأساقفة سنة ١٤١٣ فى نفس الموضع من كنيسة سانت بول ، حيث حوكم ويكلف قبل ذلك بست وثلاثين سنة، وأدين بالهرطقة ، وسجن في برج لندن ، لكنه فرّ واختفى ثلاث سنوات ، ثم قبض عليه ، وأحرق سنة ١٤١٧ .

وفي سنة ١٤٥٠ نشر ريجنالد تيلوك أسقف تشيستركتابه (كبح جماح اللوم الذى لم يكبح جماحه) ، اقترح الاحتكام إلى العقل فقط ، فيما هو من الخلاف فى أمور الدين ، وجعل يفند بالعقل بعض حجج اللولارد ، لكنه تجاوز فوضع العقل ـ كميزان للحقيقة ـ فوق الكتاب المقدس ، وأضاف أن آباء الكنيسة لا يوثق بهم دائماً ، وأن الرسل لا يد لهم في العقيدة ، فحوكم سنة ١٤٥٧ ، وخير بين الرجوع عن آرائه أو الإعدام حرقاً، فأعلن الرجوع عنها ، وعزل عن رتبته الكنسية، واعتزل الناس في دير كنيسة ثورني ، حتى مات سنة ١٤٦٠ .

* وفي حوالى ١٣٩٦ ألقى عالم تشيكى ، اسمه جون هس (١٣٦٩ ـ ١٤١٥) سلسلة من المحاضرات في جامعة براغ ، تقوم على مبادئ ويكلف ، وعين هس عميداً للجامعة ، وأثارت تعاليمه الكنيسة ، فأصدرت عليه قرار الحرمان سنة ١٤١٢ .

كان هذا إبان (الصدع الكبير) قبيل انعقاد مجلس كونستانس (١٤١٤ـ ١٤١٨) للبحث فيما تردت فيه الكنيسة من فوضى شائنة .

واستدرج هس حتى ذهب إلى كونستانس ، منخدعاً بوعد منهم بضمان سلامته ، وهناك حوكم بتهمة الهرطقة ، وأمر أن يسحب بعض آرائه ، فرفض حتى يقنعوه بخطئه، واعترف في محاكمته بأنه (على ثقة من أن ويكلف سينجو ، ولكن لو اعتقدت أنه سيعذب لتمنيت أن تكون روحى مع روحه) .

كان يرى أن البابا ليس رأس الكنيسة ، ويجب أن يكون الإنجيل ـ لا البابا ـ مرشد المسيحى، وليس البابا معصوماً ، حتى في العقيدة أو الأخلاق ، وقد يكون البابا خاطئاً ، معتاد الخطيئة ، أو هرطيقاً ، لهذا (لا طاعة للبابا إلا إذا اتفقت أوامره مع شريعة المسيح ، وعصيان البابا الخاطئ إنما هو طاعة للمسيح) .

وفى السادس من يوليو ١٤١٥ اجتمع المجلس العام فى كاتدرائية كوستانس ، وأدان كلاً من ويكلف وهس ، فأمر بإحراق كتب هس ، وسلمه للسلطة الزمنية ، وجرد من منصبه الدينى ، وطلب إليه أن يرجع عن آرائه ، وينقذ نفسه ، فأبى ، فأكلته النيران ، وهو يرتل الأناشيد الدينية .

وقد أثار موت هس الذى تناقله الإخباريون إلى بوهيميا ثورة قومية ، فاجتمع نبلاء بوهيميون وموارافيون وأرسلوا إلى مجلس كونستانس فى ٢ سبتمبر ١٤١٥ وثيقة وقعها خمسمائة من أعيان التشيك ، ناصرت هس ، وأنكرت إعدامه .

وصاغ أتباع هس سنة ١٤٢٠ مبادئ براغ الأربعة ، باعتبارها مطالبهم الأساسية ، وهى :

١ ــ أن القربان يجب أن يتناول خمراً كما يتناول خبزاً .

٢ ــ أن الاتجار بالدين يجب أن يعاقب عليه بحزم .

٣ ــ أن (كلمة الله) يجب أن يدعى إليها بلا تراخ ، باعتبارها الأساس الأوحد لحقيقة الدين وشعرته .

٤ ــ أن يوضع حد لاقتناء القساوسة والرهبان الممتلكات المادية .

ورفضت أقلية متطرفة من الثائرين تقديس المخلفات الأثرية ، وعقوبة الإعدام ، والمطهر ، والقداس من أجل الموتى .

وقد وجدت جميع عناصر الإصلاح الدينى اللوثرى فى هذه الثورة الهسية .

وكان الملك ونسلوس الذى عطف على الحركة ، لأنها وعدت بنقل أملاك الكنيسة إلى الدولة ــ قد أصبح يخشى أن تهدد السلطة المدنية تهديدها السلطة الدينية ، وفى المدينة الجديدة التى أضافها إلى براغ لم يعين إلا الذين لا يدينون بالهسية فى المجلس ، وأصدر هؤلاء الرجال قواعد عقوبات قصد بها القضاء على الهراطقة .

وفى ٣٠ يولية ١٤١٩ قام جمهور هسى بموكب فى المدينة الجديدة ، وشق له طريقاً حتى بلغ قاعة المجلس ، وألقى بأعضائه من النوافذ ، ونظم اجتماعاً شعبياً انتخب أعضاء المجلس من أنصار هس ، وأقر ونسلوس المجلس الجديد ، ثم مات بنوبة قلبية سنة ١٤١٩ .

وأعلن البابا مارتن الخامس حملة صليبية ضد الهراطقة البوهيميين ، وزحف

سيجسموند ومعه قوة كبيرة إلى براغ سنة ١٤٢٠ ، ونظم الهسيون جيشاً ، وأرسلت كل مدينة في بوهيميا ومورافيا المتطوعين المتحمسين ، وتم تدريبهم ، فهزموا جيش سيجسموند مرتين ، ومكر المنتصرون ، فساروا ينهبون الأديرة ، ويذبحون الرهبان ، ويرغمون السكان على قبول مبادئ براغ ، وأصبح الألمان الذين رغبوا في البقاء على كاثوليكيتهم - في براغ - الضحايا المفضلة للقوات الهسية ، وعاشت بوهيميا سبعة عشر عاماً (١٤١٩ - ١٤٣٦) بلا ملك .

وتألفت في (تابور) فرقة هسية أخرى ، ذهبت إلى أن المسيحية الحقة تتطلب تنظيماً شيوعياً للحياة .

واستخلص هؤلاء التابوريون الشيوعية من المعتقد بعودة المسيح ، وحكمه ألف سنة ، لا ملكية ، ولا كنيسة ، ولا دولة ، ولا طبقية ، ولا قوانين وضعية ، ولا ضرائب ، ولا زواج ، وكان المعتقد أن المسيح سيسر بحركتهم لأنهم يمهدون الأرض لعودته .

وتحول فلاح بوهيمي - يدعى بيتر تشلجي - إلى فيلسوف ، طالب بمجتمع لا سادة فيه ولا عبيد ، لكن هذه الدعوة لم تناسب مزاج التابوريين ، فانقسموا إلى معتدلين ومتطرفين ، ودعا المتطرفون إلى (مبدأ العرى وشيوعية النساء) ، وتحولت الفرقتان عن الجدل إلى الحرب .

وانضم الهسيون المحافظون إلى الجماعة الأرثوذكسية الباقية في بوهيميا ، وهاجموا التابوريين المنقسمين وألحقوا بهم الهزيمة ، وقضوا على التجربة الشيوعية سنة ١٤٣٤ ، واصطلح مجلس (الدايت) البوهيمي مع سيجسموند ، واعترف به ملكاً سنة ١٤٣٦

* * *

اللوثرية والأسر البابلى للكنيسة

ولد لوثر فى ١٠ نوفمبر ١٤٨٣ ، وفى سنة ١٥١٠ وصف روما بأنها (تدعو للمقت) ، وقال : (إن البابوات أسوأ من الأباطرة الوثنيين ، وإن اثنتى عشرة فتاة عارية كن يقمن بخدمة رجال البلاط البابوى وقت العشاء) .

وفى ربيع ١٥٢٠ نشر موجزاً به ملاحظات عنيفة ، منها :

(إنى أعلن بحرية فى هذه الكتابات أن المناهض للمسيحية الحقيقى يجلس فى معبد الرب ، ويحكم فى روما ، بابل هذه المصبوغة بلون الأرجوان ، وأن مجلس تلك العشيرة الرومانية هو هيكل الشيطان) .

(إذا كنا نقضى على اللصوص بالمشانق ، ونضرب أعناق الناهبين بالسيوف ، ونلقى بالهراطقة فى النار ، فلماذا لا نهاجم أيضاً بالأسلحة أساتذة الدمار هؤلاء ، أعنى هؤلاء الكرادلة ، وهؤلاء البابوات ، وكل هذه البالوعة ، من سدوم الرومانية التى أفسدت كنيسة الرب بلا حدود ، ونغسل أيدينا من دمائهم ؟) .

أصدر ليو العاشر فى ١٥ يونية ١٥٢٠ نشرة أدان فيها ٤١ بياناً للوثر ، وأمر بأن تحرق علناً مؤلفاته التى ظهرت ، وأنذر لوثر بأن يتراجع عن أخطائه ، وأن يعود إلى حظيرة الدين ، وإذا رفض أن يأتى إلى روما فى خلال ستين يوماً ، ويسحب أقواله علناً ، فإنه سوف يبتر من عضوية العالم المسيحى ، بحرمانه من غفران الكنيسة ، وسوف يعرض عنه كل المؤمنين ، باعتباره هرطيقاً ، وسوف تتوقف العبادة فى جميع الأماكن التى يقيم فيها ، وعلى جميع السلطات الزمنية أن نطرده من أملاكها ، أو تسلمه إلى روما) .

كتب لوثر خطاباً مفتوحاً إلى أشراف الأمة الألمانية المسيحية ، بشأن إصلاح طبقة رجال الدين وقال : (أليس هناك فرق حقيقى بين رجال الإكليروس والعلمانيين، إذ إن كل مسيحى يصبح قساً بالتعميد ، ومن ثم فإن على الحكام الزمنيين أن يمارسوا سلطانهم ، دون عائق أو اعتراض ، بغض النظر عما إذا كانوا يسيئون إلى البابا أو الأسقف أو القس .. وكل ما نص عليه القانون الكنسى ، مما يناقض ذلك، من خالص بنات أفكار الوقاحة الرومانية) .

(بمـا أن كل مسيحي يعمد قساً ، فإن له الحق أن يفسر الكتب المقدسة طبقاً لما يراه) .

(يجب أن يكون الكتاب المقدس مرجعنا الأخير للعقيدة ، أو أداء الشعائر ، فالكتاب المقدس لا يقدم أية بينة على حق البابا المطلق فى دعوة مجلس ينشد الحرمان من غفران الكنيسة ، أو التحريم ، أو أن يمنع انعقاد مجلس . إننا يجب أن نستحف بسلوكه ، كأنه تصرف رجل مجنون ونقذفه بحرمانه ، معتمدين فى ذلك على الله ونقمته بقدر الإمكان .

(لقد قرر البعض أن أكثر من ٣٠٠ ألف جولدن تجد طريقها كل عام من ألمانيا إلى إيطاليا . وها نحن أولاء نصل إلى لب الموضوع . كيف يتأتى أن نتسامح فى مثل هذه السرقة ، ومثل هذا السلب لأموالنا على يد البابا ؟) .

(لماذا يتحتم على الكنيسة الألمانية أن تدفع هذه الجزية الدائمة إلى سلطة أجنبية ؟ فليتخلص رجال الدين الألمان من تبعيتهم لروما ، ولينشئوا كنيسة قومية تحت زعامة كبير أساقفة ماينز) .

(يا سيدى المسيح ، أطل علينا من عليائك ، ودع يوم قصاصك يشرق ، ودمر عش الشيطان فى روما) .

وفى ٦ أكتوبر١٥٢٠ أصدر لوثر بيانه (الأسر البابلى للكنيسة) جاء فيها :

(كما قاسى اليهود طويلاً من الأسر فى بابل ، فإن الكنيسة ـ كما أنشأها المسيح ، وكما نص عليها فى العهد الجديد ـ قد تعرضت للأسر ما يزيد على ألف عام ، تحت حكم البابوية فى روما ، وفى خلال تلك الفترة تعرض دين المسيح للفساد فى الإيمان والأخلاقيات والشعائر) .

لقد كان لوثر قلقاً جداً بشأن الآثار السلبية للتبشير بصكوك الغفران ، إذ إن (الطمأنينة الكاذبة الفظيعة يمكن أن تضلل البسطاء ، وتقودهم إلى الاعتقاد بأن نار غضب الله يمكن إطفاؤها بدفعة من المال) .

وجد أعضاء كنيسة يشترون الصكوك ، وقد بدأ بيعها حين استولى ألبرت الذى هو من براندنبرج على أبروشيتين ، كمطران لهما ، مع أنه لم يبلغ العمر القانونى ، وأراد ألبرت أن يستولى على وظيفة ثالثة فوافق البابا على شرط أن يقدم اثنى عشر ألف قطعة (عملة) هدية للرسل الاثنى عشر ـ مواقف من تاريخ الكنيسة ص ١٠٥ .

تحدث لوثر ـ فى خطاب موجه إلى الضمير المسيحى للشعب الألمانى ـ عن (أسوار أريحا الثلاثة) التى أقامتها الكنيسة الرومانية لتحمى نفسها من مواجهة الحق :

١ ـ الادعاء بأن الكنيسة أعلى مقاماً من السلطة المدنية .

٢ ـ الادعاء بأن البابا وحده له السلطان أن يفسر الكتب المقدسة .

٣ ـ الادعاء بأن البابا فقط له حق دعوة مجمع الكنيسة المقدس .

وقد رد على هذه الادعاءات بحق كل مسيحى فيما يدعيه البابا لنفسه ، لأن (لنا معمودية واحدة ، وإنجيلاً واحداً ، وإيماناً واحداً) .

(لذلك : حين تتطلب الضرورة ، ويكون البابا مكدراً للعالم المسيحى ، يجب على أول شخص مقتدر ، بصفته عضواً حقيقياً فى الجسد الكامل ، أن يبذل ما فى وسعه حتى ينعقد مجمع شرعى وحر) .

(الإنسان المسيحى هو السيد الأوفر حرية من الجميع ، ليس خاضعاً لأحد ، بحق الإيمان . الإنسان المسيحى بين الكل هو أعظم خادم يؤدى الواجب ، ومطيع للآخرين ، بفضل المحبة ، فالإيمان والمحبة يكونان السمة الحقيقية للمسيحى ، الإيمان يربطه بالله ، والمحبة تربطه بزميله الإنسان) .

أصدر البابا ليو مرسوماً جاء فى مقدمته :

(قم يارب ، واحكم فى قضيتك ، إن خنزيراً يقتحم كرمك ، قم يا بطرس ، وتبصر فى قضية الكنيسة الرومانية المقدسة ، أم الكنائس المكرسة بالدم ، قم يا بولس ، يا من بتعليمك وموتك أنرت وتنير الكنيسة ، قوموا يا كل القديسين وكل الكنيسة التى هوجم تفسيرها للكتاب المقدس) .

انتقد فيليب سكاف ـ فى كتابه (تاريخ الكنيسة المسيحية) ـ هذا المرسوم بقوله :

(البابا يتكلم كما لو كان هو التجسيد الشخصى للحق ، والقاضى المعصوم لكل شئون الإيمان ، وموزع الكفاءات والجزاءات الأبدية) .

وقال إيرازموس : (إن جريمة لوثر تتضمن المساس بتاج البابا المثلث ومعدة الرهبان) .

ولما تسلم لوثر المرسوم فى ١٠ أكتوبر ١٥٢٠ وزع إعلاناً مضاداً قال فيه :

(إذا لم يتبرأ البابا من المرسوم ، أو يستنكره ، ويعاقب «أيك» وشركاءه الذين يراعون

مثل هذا المرسوم ، عندئذ لا يشك أحد فى أنه عدو الله ، ومضطهد المسيح ، وهادم الكنيسة ، والضد الحقيقى للمسيح) ـ تاريخ الكنيسة ج ٤ ص ١٣٠/١٢٩ .

وفى ١١ أكتوبر ١٥٢٠ سعى ميلتيتز إلى لوثر ، وأقنعه بأن يرسل للبابا ليو خطاباً يتنصل فيه من أى قصد فى مهاجمته شخصياً ، ويعرض القضية باعتدال للإصلاح ، وسوف يحاول ميلتيتز من جانبه أن يكفل له إلغاء النشرة ، فما كان من لوثر إلا أن كتب خطاباً لم يضمنه اعتذاراً ، بل نصيحة (أبوية) إلى خليفة القديس بطرس ، وسليل آل مديتشى البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً ، جاء فيه :

(لقد أصبحت الكنيسة الرومانية أكبر وكر داعر للصوص ، وأعظم المواخير التى يندى لها الجبين ، ومملكة الإثم والموت والجحيم ، ولطالما ساءنى ـ يا صاحب المقام السامى ليو ـ أنك تنصب بابا فى هذه العهود ، لأنك خليق بأيام خير منها) .

(فلا يخدعنك هؤلاء الذين يدعون أنك سيد العالم ، الذين يهرفون بأن لك سلطاناً على السماء ، والجحيم ، والمطهر ، إن الذين يعلون قدرك فوق المجلس ، وفوق الكنيسة العالمية ، يخطئون ، والذين ينسبون إليك الحق فى تفسير الكتاب المقدس يخطئون ، لأنهم ينشدون تحت ستار اسمك أن يرسوا قواعد خبثهم فى الكنيسة) .

وفى نوفمبر ١٥٢٠ كتب (عجالة فى الحرية المسيحية) يقول :

(إن الإيمان وحده ـ لا الأعمال الصالحة ـ هو الذى يخلق المسيحى الصادق ، ويخلصه من عذاب النار ، لأن الإيمان بالمسيح هو الذى يجعل الإنسان صالحاً ، وأعماله الصالحة تترتب على ذلك الإيمان ، « فالشجرة تحمل الثمار ، أما الثمرة فلا تحمل الشجرة ») .

(إن الإنسان الذى تتدفق فضيلته تلقائياً من إيمانه فى غنى عن الأوامر بالاستقامة) .

وعندما علم أن مبعوثى البابا يحرقون كتبه قرر أن يرد عليهم بالمثل ، فأصدر نداء إلى الشباب التقى المثقف فى فيتنبرج ، لكى يتجمع خارج بوابة (الستر) فى المدينة صباح ١٠ ديسمبر ١٥٢٠ ، وهناك أمسك نشرة البابا وقذف بها فى النار ، مع بعض المراسيم الكنسية ومجلدات من لاهوت أصحاب الفلسفة الكلامية .

وفى ١١ ديسمبر أعلن لوثر أنه (لا يمكن لإنسان الخلاص ما لم يتبرأ من حكم البابوية) .

* ضاق الإمبراطور شارل الخامس باندفاع لوثر، فاجتمع بكبار الأمراء فى ١٩إبريل ١٥٢١ ، وقال لهم : (بعد أن استمعت أمس إلى دفاع لوثر المتشبث برأيه ، فإننى آسف لأنى تأخرت طويلاً فى اتخاذ الإجراءات ضده ، وضد تعاليمه الزائفة ، ولسوف أحاكمه على أنه هرطيق سيء السمعة) .

وفى تلك الليلة (١٩ إبريل) ألصق مجهولون على باب قاعة المدينة ، وفى أماكن أخرى من ورمس ـ حيث كان اجتماع المجلس النيابى لإدانة لوثر ـ إعلاناً كبيراً يحمل حذاء الفلاح ، رمز الثورة الاجتماعية .

وفى ٦ مايو قدم الإمبراطور للمجلس النيابى أدلة إدانة لوثر ، ومنها : (أن هذا الشيطان الذى يرتدى مسوح راهب قد جمع الأخطاء القديمة فى بركة آسنة منتنة ، بل وابتدع أخطاء جديدة ، إنه ينكر سلطة الرؤساء ، ويشجع العلمانيين على أن يغسلوا أيديهم فى دم رجال الدين ، وتعاليمه تدعو إلى العصيان ، والانقسام ، والحرب ، والقتل ، والسرقة ، والحرق عمداً ، وإلى انهيار العالم المسيحى ، وهو يحيا حياة بهيمية) .

(لقد أمهلناه واحداً وعشرين يوماً : من ١٥ أبريل .. وعندما تنقضى هذه المهلة فليس لأحد أن يؤويه ، ولسوف يدان أتباعه أيضاً ، أما كتبه فيجب أن تمحى من ذاكرة الإنسان) .

وأخذت ثورة الطلبة والحرفيين والفلاحين طريقها فى عنف ، فأصدر سبالاتان كتابه (تحذير) ، جاء فيه :

(إن العصيان أمر غير معقول ، وهو بصفة عامة يضر الأبرياء أكثر مما يضر الآثمين ، ولذلك فإن العصيان ليس من الصواب فى شيء مهما كان الدافع لأصحاب المصلحة فيه ، ذلك لأن الضرر الذى ينجم عنه يتجاوز دائماً قدر ما يتم من الإصلاح) .

وفى ٢٢ يناير ١٥٢٢ كان أنصار كارلشتادت قد بلغوا حظاً كبيراً من القوة فى المجلس البلدى ، إلى حد أنهم عملوا على إصدار مرسوم يقضى برفع كل الصور من كنائس فيتنبيرج ، وتحريم القداس ، إلا إذا أقيم بالشكل المبسط الذى نادى به كارلشتادت، وأدخل كارلشتادت صورة صلب المسيح ضمن الصور ، وحرم مثل المسيحيين الأوائل عزف الموسيقى فى العبادات ، وقال : (إن ألحان الأرغن الفاجرة تدعو إلى التفكير فى أمور الدنيا) .

وخشى لوثر من تجاوزات الثورة ، فأصدر فى ٩ مارس ١٥٢٢ سلسلة من ثمانى

عظات تدعو بشدة الجامعة والكنائس والمواطنين إلى مراعاة النظام ، (لا تظنوا أن المظالم تمحى بتدمير الهدف الذى يساء التصرف فيه ، إن الناس يمكن أن يضلوا بالنبيذ والنساء ، فهل نحرم شرب النبيذ ، ونقضى على النساء : لقد عبد الناس الشمس والقمر والنجوم ، فهل ننتزعها من السماء ؟ إن الذين يريدون الاحتفاظ بالصور والتماثيل والصلبان وسماع الموسيقى ، أو ترتيل القداس ، يجب ألا يتدخل أحد فى شئونهم) .

وعندما فصل كارلشتادت من وظائفه بقرار مجلس مدينة أعيد تكوينه ، أخذ أبروشية فى أورلاميندبه ، وندد من فوق منبرها بلوثر ، ووصفه بأنه (كاهن نهم .. وبابا فيتنبرج الجديد) .

وفى ١٩ مارس ١٥٢٢ كتب لوثر إلى فنتسل لينك : (إننا ننتصر على الطغيان البابوى الذى طالما سحق ملوكاً وأمراء ، فكيف لا يسهل علينا إذن أن نتغلب على الأمراء أنفسهم ، ونطأهم بنعالنا؟!) .

وذهب إلى أورلا ميندبه ليعظ ضد كارلشتادت ، لكنه أخرج من المدينة ، ورجم بالحجارة والطين .

وفى يوليه ١٥٢٢ دمغ الأباطرة بأنهم (أكبر الذئاب) ، وناشد الألمان الصالحين أن يطردوهم بالقوة : (كان من الخير أن يقتل كل أسقف ، وأن تقتلع جذور كل مؤسسة أو دير ، فهذا أفضل من أن تزهق روح واحدة ، فما بالك بفقد كل الأرواح ، من أجل بهرجهم التافه ، وعبادة الأوثان ، ما فائدة هؤلاء الذين يعيشون غارقين فى الشهوات ، ويتغذون بعرق الآخرين وكدحهم) .

وفى سنة ١٥٢٤ كتب رسالة عاصفة (عن التجارة والربا) ، قال فيها :

(ينبغى أن ينظر الملوك والأمراء إلى هذه الأشياء ، وأن يحرموها بمقتضى قوانين صارمة ، لكننى لم أسمع أن لهم مصلحة فيها ، وهكذا يتحقق قول أشعياء : « لقد أصبح الأمراء رفاقاً للصوص » ، وإنهم ليشنقون اللصوص الذين سرقوا جولدن أو نصف جولدن ، لكنهم يتاجرون مع من يسلبون العالم بأسره ، وهكذا يشنق اللصوص الكبار صغارهم ، وكما قال عضو الشيوخ الرومانى : الأغرار من اللصوص يزج بهم فى السجون ، ويطرحون لآلات التعذيب ، بينما يسير اللصوص المعروفون للناس فى الخارج ، يرفلون فى الحرير ، ويتحلون بالذهب) .

ولما ولى أورليان السادس أمر البابوية أرسل إلى مجلس النواب فى نورمبرج سنة ١٥٢٢

طالباً القبض على لوثر ، ومعترفاً بالأخطاء التي تردت فيها الكنيسة .. قال :

« إننا نعلم تمام العلم أن أموراً كثيرة تستحق المقت ، قد تجمعت حول منصب البابا منذ سنين عديدة ، وقد أسيء استخدام الأشياء المقدسة ، واعتدى على القوانين ، حتى إنه في كل شيء كان هناك تغيير إلى الأسوأ ، فلا عجب إذا كان المرض قد زحف من الرأس إلى الأعضاء ، من البابوات إلى من يلونهم في المناصب ، لقد حدنا نحن جميعاً - من البطارقة ورجال الدين - عن الطريق المستقيم ، ومنذ عهد بعيد لم يعمل واحد منا عملاً صالحاً ، لا أحد بتاتاً » .

الرسالة تفتقر إلى قدر كبير من الدهاء ، إذ ما كان يصح الاعتراف بالأخطاء في رسالة يطلب فيها القبض على رجل يدين هذه الأخطاء ، وإن أساء التعبير عن الإدانة ، كان عليه أن يعاهد العالم المسيحي على إصلاح ما فسد ، وأن يفتح صفحة نقية طاهرة ، ثم يأخذ في هذا الإصلاح ، ويتحين الفرصة المناسبة للنيل من لوثر ، وما أكثر الفرص التي يسوق إليها غرور لوثر وتبجحه وشهوة القتال التي تغلب عليه .

* * بعد أن عين توماس منتسر واعظاً في آلشتدت سنة ١٥٢٢ ، تشبث مطالباً بإبادة الكفار - أي الأرثوذكس أو المحافظين - بحد السيف ، وقال : « إن الكفار لا حق لهم في العيش إلا بقدر ماتسمح لهم بهذه الصفوة » .

واقترح على الأمراء أن يقودوا الشعب في ثورة شيوعية ضد رجال الدين والرأسماليين .

وكان هنريخ بفيفر - وهو راهب سابق - قد بدأ في مدينة ميلهاوزن حركة لانتزاع المجلس البلدي من أيدي الأقلية من الأشراف .

وفي ١٧ مارس ١٥٢٥ خلع أتباع بفيفر ومنتسر المسلحون الأشراف ، وأقاموا مجلساً دائماً يحكم ميلهاوزن .

وطبقاً لما يقوله ميلانكتون ، طرد المتطرفون المظفرون الرهبان ، وجردوا الكنيسة من أملاكها .

وتوقع منتسر مسبقاً مهاجمة الفرق الإمبراطورية ، فنظم جيشاً من العمال والفلاحين ، وأعد طائفة من رجال المدفعية الثقيلة في دير « الرهبان الحفاة » ، وكانت الصيحة التي أطلقها بين رجاله هي « إلى الأمام والحديد ما يزال ساخناً ، واجعلوا سيوفكم دائماً ساخنة بالدماء » .

وفي ٢٤ أغسطس ١٥٢٤ جمع هانزميلر حوله بعض الفلاحين من اشتيلنجن ، بناء على إيحاء من منتسر ، وكون لهم رابطة باسم (الإخوة الإنجيلية) ، وتعهد بتحرير المزارعين في أنحاء ألمانيا ، وسرعان ما انضم إليهم الموظفون الساخطون ، مثل راهب ريخيناو ، وأسقف كونستانس ، وكونتات فرديبورج ولوبفن ومنتفورت وسولتس .

وما إن انتهى عام ١٥٢٤ ، حتى كان هناك حوالي ثلاثين ألف فلاح مدججين بالسلاح ، في جنوب ألمانيا ، رفضوا دفع الضرائب التي فرضتها الدولة ، وضرائب العشور للكنيسة ، والضرائب الإقطاعية ، وأقسموا على الظفر بالحرية أو الموت .

وفي مارس ١٥٢٥ صاغ مندوبو الثوار في ميمينجن - بإرشاد البروتستانت أتباع تسفينجلي ، أو بتأثيره - البنود الاثنى عشر التي أشعلت النار في نصف ألمانيا .

وقد جاء في البند الثالث : (لقد جرت العادة حتى الآن على أن يعتبرنا الناس متاعاً خاصاً لهم ، وهذا أمر يدعو إلى الأسى ، لأن المسيح كفّر عن سيئاتنا جميعاً ، وافتدى بدمه الزكي المراق الأدنياء والعظماء على السواء . ومن ثم فإنه - مما يتفق وتعاليم الكتاب المقدس - يجب أن نكون أحراراً ، ولسوف نكون أحراراً) .

وتشجع زعماء الفلاحين بتصريحات لوثر (نصف الثورية) ، وبعثوا إليه بنسخة من البنود ، وطلبوا إليه تأييدهم ، فرد بكتيب نشر في أبريل ١٥٢٥ ، عنوانه : (تنبيه إلى السلام) ، أثنى فيه على عرض الفلاحين بالخضوع لأي قصاص ينص عليه الكتاب المقدس ، وأنكر أن خطبه ومقالاته كانت تحث على الثورة ، وقال :

(لا يوجد على ظهر البسيطة من نشكره على هذه الثورة الخبيثة إلا أنتم أيها الأمراء والسادة ، وبخاصة أنتم أيها الأساقفة العميان ، والقساوسة والرهبان المجانين ، يا من قست قلوبكم على الإنجيل المقدس ، رغم أنكم تعلمون أن ما جاء به صحيح ، وأنكم لا تستطيعون أن تدحضوه) .

(إن حرية الرجل المسيحي يجب أن نفهم على أنها حرية روحية ، لا تتعارض مع العبودية ، بل ولا الرق) !!.

(إن بندكم الثالث لا يسرى على الإنجيل ، فهذه المادة تساوى بين الناس جميعاً ، وهذا مستحيل ، ذلك لأن مملكة دنيوية لا تستطيع أن تقف على قدميها ، ما لم تكن هناك درجات متفاوتة بين الأشخاص ، بحيث يكون البعض منهم أحراراً ، والبعض مستعبدين ، والبعض سادة ، والآخرون رعايا) .

« تخيروا من الأشراف بعض الكونتات واللوردات . ومن المدن بعض أعضاء المجلس ، وعالجوا هذه الأمور واحسموها بطريقة ودية ، وأنتم أيها السادة تخلوا عن عنادكم ، وأقلعوا عن طغيانكم واضطهادكم ، حتى يتنفس الفقراء من الناس ، ويجدوا متسعاً من العيش ، وعلى الفلاحين بدورهم أن يعلموا أنفسهم ، وأن يتخلوا عن المطالب التي تدق على فهمهم ، وترتفع عن مستوى إدراكهم » .

* كان يتزعم الثورة زعماء مختلفو المشارب ، فلما اشتعلت في ربيع ١٥٢٥ أيدها كثير من رجال الدين ذوي المراتب الدنيا ، الذين كانوا يمقتون السلطة الكهنوتية .

وكانت عصابات الفلاحين تثير الشعب في جميع أنحاء ألمانيا تقريباً ، ونهبت الأديرة ، أو أكرهت على دفع مبالغ كبيرة ، على سبيل الفدية .

وفي وسط هذه الأحداث ـ في منتصف مايو ١٥٢٥ ـ أصدر لوثر كتيباً عنوانه : « معارضة لجموع الفلاحين التي تقوم بالسلب والقتل » ، ورفض التسليم بإجازة الكتاب المقدس المزعومة للشيوع .

وأوصى الحكام البروتستانت بالصلاة والندم والمفاوضة ، ولكن إذا ظل الفلاحون على عنادهم « عندئذ سارعوا بامتشاق السلاح لضرب رقاب هؤلاء الأتباع ، وإذا كان في وسع الحاكم أن يعاقب ولا يفعل ـ حتى لو كان العقاب أن يستل الحياة وبسفك الدماء ـ فإنه يبوء بإثم كل جرائم القتل والشرور التي يرتكبها هؤلاء الأتباع » .

لم يكن لوثر على حظ من الوعي السياسي ، لأن كل مواهبه مقصورة على إعادة صياغة آراء وليم أوكهام ، الفيلسوف الإنجليزي (١٢٨٠ ـ ١٣٤٩) الذي قال فيه : « لاشك أنه القائد ، بل هو أشهر فلاسفة العصر الوسيط » ، أو آراء ويكلف أو أرازموس أو سفنرولا (١٤٩٢ ـ ١٥٣٤) الذي لقبه لوثر بالقديس ، هذا مع قدرته على تطويع نصوص الكتاب المقدس ، والتلويح بهذا كله في وجه رجال الدين من القمة إلى القاعدة ، ومن ثم كان موقفه من الثورة ، والثورة المضادة أقرب إلى من يقترع على السهم الرابح ، بدلاً من أن يقود الجماهير التي تثق فيه إلى مصالحة وطنية .

تحركت القوة الحاكمة بجنود مدربين وأسلحة متفوقة ، وكانت النتيجة أن قتل آلاف من الفلاحين والعمال ، وأعدم كثير من الأسرى ، واختفى « منتسر » ثم قبض عليه وعذب حتى أقر بخطأ وسائله ، ثم قطع رأسه أمام القادة والأمراء ، وصمد « بفيفر » قليلاً ،

ثم أعدم وباقى القواد ، أما المواطنون فقد نالوا العفو ، بعد أن دفعوا فدية طائلة ، ولشدة الحاجة إليهم فى زراعة الأرض، وكما يقول أحد القادة : (أين نجد فلاحين يقومون بالوفاء لأغراضنا إذا قتل كل الثوار ؟!) .

* استمرت الثورة عاماً فى النمسا ، وفى يناير ١٥٢٦ أعلن ميكائيل جاسمايير ـ فى أنحاء التيرول ـ أعظم البرامج الثورية تطرفاً وقال : (يجب القضاء على كل الكفار ـ غير البروتستانت ـ الذين يضطهدون « كلمة الله » الحقة ، أو يظلمون الرجل العادى ، ويجب أن تزال الصور والمزارات من الكنائس ، وألا تتلى القداسات ويجب أن تهدم أسوار المدن ، والأبراج ، والحصون ، وألا تبقى إلا القرى ، وأن يتمتع جميع الناس بالمساواة ، ويجب اختيار الموظفين والقضاة بالاقتراع العام الذى يشترك فيه الذكور البالغون ، كما يجب إيقاف دفع الإيجارات والمكوس للسادة الإقطاعيين فوراً ، وأن تجمع ضرائب العشور لسلطات الكنيسة التى خضعت للإصلاح الدينى ، وللفقراء ، ويجب أن تحول الأديرة إلى مستشفيات ومدارس ، أما المناجم فيجب أن تؤمم ، وعلى الحكومة أن تحدد الأسعار) .

وتم اغتيال جاسمايير فى غرفته بپادوا سنة ١٥٢٨ ، وهلك من الفلاحين وحدهم ١٣٠ ألفاً فى ساحة القتال ، أو على نطع التكفير ، وتم حكم الإعدام فى عشرة آلاف .

وقد دمر الفلاحون مئات القلاع والأديرة ، وأقفرت مئات المدن والقرى من ساكنيها ، أو أصبحت خراباً ، وتشرد ما يزيد على خمسين ألفاً من الفلاحين، أخذوا يهيمون فى الطرقات العامة ، أو يختبئون فى الغابات ، وترملت آلاف النساء ، وتيتم آلاف الأطفال .

وكان أن انقلب الفلاحون ضد الإصلاح الدينى ، وعدوه غواية وخيانة، وأطلقوا على لوثر لقب (الدكتور الكذاب) ، و (المنافق صنيعة الأعداء) .

وظل لوثر سنوات بدون شعبية ، حتى كان لا يجرؤ على الخروج ، ولو لحضور جنازة والده سنة ١٥٣٠ ، وكتب فى ١٥ يونيه ١٥٣٥ يقول : (لقد دنسوا كل ما فعله الله للناس عن طريقى ، والآن ها هم السادة والقساوسة والفلاحون يتجمعون كلهم ضدى ويتوعدوننى بالموت) .

وفى يوليه ١٥٣٥ نشر (خطاباً مفتوحاً بشأن الكتاب الصعب ضد الفلاحين) ، قال فيه : (إن الفلاحين لن يصيخوا السمع ففى آذانهم وقر ، ويجب أن تفتح بطلقات الرصاص ، حتى تقفز رءوسهم من فوق أكتافهم) .

(وأنتم يا من ترفعون أصواتكم مطالبين بالرحمة ، وتمتدحونها شديداً ، لماذا لم تنادوا بها عندما كان الفلاحون ساخطين ، يقتلون ويسرقون ويحرقون وينهبون ، حتى أصبح الناس يفزعون لمرآهم ؟!) .

* * فى سنة ١٥٢٥ استعان لوثر بلوائح خاصة بالرقابة فى ساكسونيا وبراندنبرج لسحق (العقائد الخبيثة) التى يعتنقها اللامعمدانيون وأنصار زونجلى .

وفى سنة ١٥٣٠ نصح ـ فى تفسيره للمزمور الثانى والثمانين ـ الحكومات بإعدام الهراطقة الذين ينادون فى عظاتهم بإثارة الشغب، أو مناهضة الملكية الخاصة .

ولما قبل ميلانكتون ـ صديقه الرقيق الحاشية نسبياً ـ أن يرأس التفتيش العلمانى الذى قمع حركة اللامعمدانيين فى ألمانيا بالسجن أو الموت ، تساءل قائلاً : (لماذا تشفق على أمثال هؤلاء الناس أكثر من الله ؟!) ، ذلك لأنه كان مقتنعاً بأن الله قد قضى على اللامعمدانيين بعذاب جهنم ، وأوصى باعتبار رفض تعميد الطفل ، أو رفض الخطيئة الأصلية ، أو عدم الإيمان بالوجود الحقيقى للمسيح فى القربان المقدس ـ جرائم تستحق العقاب بالإعدام ، وأصر على عقوبة الموت لكل طائفى يعتقد أن الكفرة قد يظفرون بالخلاص ، أو لكل من يشك فى أن الإيمان بالمسيح يمكنه ـ باعتباره الذى كفر عن خطايا البشر ـ أن يغير آثماً بفطرته إلى رجل من الأبرار، وطالب الحكومة بأن تجبر كل الناس على حضور الصلوات الدينية البروتستانتية بانتظام وطالب بالقضاء على كل الكتب التى تعارض أو تعوق انتشار التعاليم اللوثرية .

وفى ١٨ يناير ١٥٣٧ أصدر مجلس مدينة أوجسبورج مرسوماً يحرم العبادة الكاثوليكية، ويقضى بنفى كل من لا يعتنق العقيدة الجديدة بعد ثمانية أعوام .. وبعد انقضاء هذه المهلة بعث المجلس بالجند للاستيلاء على كل الكنائس والأديرة ، وأزيلت كل المذابح والتماثيل ، وأقصى كل القساوسة والرهبان .

وفى سنة ١٥٢٨ ، صدر فى ساكسونيا منشور ـ بناء على طلب لوثر ـ يحرم نشر أو بيع أو قراءة الأدب الزونجلى ، أو اللامعمدانى ، أو التبشير بعقائدهما أو تعليمهما (وهؤلاء الذين يعلمون بارتكاب مخالفات لهذه الأوامر ولا يقومون بالإبلاغ عنها ، يعاقبون بالإعدام ، أو مصادرة ممتلكاتهم) .

وتبنى البروتستانت سياسة الحرمان من غفران الكنيسة .. وأعلن حزب أوجسبرج سنة

١٥٣٠ حق اللوثرية في حرمان كل عضو يرفض الاعتقاد بعقيدة لوثرية أساسية من غفران الكنيسة .

* ولا ريب في أن موقف لوثر المتشدد العنيف من أولئك الذين نهج نهجهم أو نهجوا نهجه ، من الويكلفيين واللامعمدانيين والزونجليين والبيوريتانيين ـ إنما يؤكد عدم إخلاص الرجل للإصلاح الدينى ، بقدر فرض وجوده المطلق على كل ماينبعث من أفكار إصلاحية .

كتب جاهانس كوكلايوس ـ الذى أيد لوثر أول الأمر ثم انقلب عليه ـ فى رسالة إلى لوثر :

(هل تظن أننا نريد العفو أو الدفاع عن آثام رجال الدين وشرهم ؟ نسأل الله النجاة ، إننا نفضل أن نستأصل شأفتهم ، ما دام هذا يمكن أن يتم بطريقة مشروعة ، لكن المسيح لا يعلمنا مثل هذه الطرق التى تعمل بها على تلك الصورة المؤذية مع « خصم المسيح » و « مواخير » و « أعشاش الشيطان » و « الدعارة » وألفاظ سباب أخرى لم يسمع بها أحد من قبل ، فما بالك بالتهديدات بالضرب بالسيف وسفك الدماء والقتل يالوثر ؟ إن المسيح لم يعلمك قط هذه الطريقة فى العمل) .

لقد وصل لوثر إلى الحد الذى عبر عنه الإمبراطور جوليان بقوله :

(ليس هناك حيوان مفترس أشد ضراوة من عالم لاهوت غاضب) ـ قصة الحضارة مج ٦ ج ٣ ص ١٣٦/١٥٠ .

لكن لوثر قد تجاوز انفعال الغضب إلى ضراوة الانتقام ، وصم أذنيه عن كل كلمة إلى العفو والسلام .

فى أول فبراير ١٥٢٩ دعا الإمبراطور شارل ـ بعد أن تصالح مع البابا كليمنت ـ المجلس النيابى فى سبنز إلى الانعقاد ، وأصدر المجلس مرسوماً يسمح بأداء الصلاة وفق مذهب لوثر ، ويقضى بالتسامح في أداء الصلاة الكاثوليكية، في الولايات التى تعتنق مذهب لوثر ، ويحرم الوعظ بمبادئ لوثر أو إقامة الشعائر حسب مذهبه فى الولايات الكاثوليكية ، وأيد تنفيذ مرسوم ورمس ، واعتبار الطوائف الزونجلية واللامعمدانية فى كل مكان خارجة على القانون .

المرسوم صدر فى حيث يمتد سلطان الدولة الرومانية ، ويفسح الطريق أمام اللوثرية ،

حيث ينتشر وجودها ، مع التسامح فى أداء الشعائر الكاثوليكية واللوثرية فى الأماكن التى يقوى فيها نفوذ إحدى الطائفتين ، مع تأييد اللوثرية في مناهضة الزونجلية واللامعمدانية .. وكان على لوثر ـ على سميل (فض الاشتباك) ـ أن يقبل هـذا التنازل الإمبراطورى البابوى .. لكن فى ٢٥ أبريل ١٥٢٩ نشرت (الأقلية) اللوثرية احتجاجاً أعلنوا فيه أن الضمير يحرم عليهم قبول هذا المرسوم !!.

* * ذكر صاحب (قصة الحضارة مج ٦ ج ٣ ص ٥٣/٥٤) أن لوثر (كان أقوى من عرفه التاريخ فى الجدل ، لايصده عنه شيء ، وكانت كل كتاباته تقريباً صراعاً ممتزجاً بعبارات لاذعة ، تفيض سخرية وطعناً) .

(لم يبزه مؤلف ألمانى آخر في وضوح ألفاظه ، أو قوة أسلوبه ، وفى مباشرة عباراته وحدتها اللاذعة ، وفى تشبيهاته الموفقة) .

(كان أول من جعل من الطباعة آلة للدعاية والحرب ، ولم نكن هناك وقتذاك جرائد ولا مجلات) .

(وكان أعظم عمل قام به هو ترجمة الإنجيل إلى الألمانية .. وكانت اللغة الألمانية ذاتها لا تزال تفتقر إلى الدقة والإحكام فى التركيب) .

(نشر العهد القديم بالألمانية ، بمساعدة ميلانكتون وعدد من الباحثين اليهود ، وبرغم عدم دقة الدراسة في هذه الترجمات، فإنها كانت من الأحداث المهمة فى هذا العهد ، فقد افتتحت الأدب الألمانى ، واحتلت اللغة الألمانية الجديدة مكانة رفيعة فى ساكسونيا باعتبارها اللغة الأدبية الألمانية ، ومع ذلك فإن الترجمات كانت غير أدبية عن عمد ، وعلى نهج اللغة الدارجة .. ولا تزال أعمال لوثر أعظم عمل نثرى فى الأدب القومى) .

هذا التقويم يكاد يقتصر على الوجه الخطابى الوعظى لراهب حرج عن آداب الرهبانية إلى الساحة الجماهيرية ، بكل ما تتطلبه الجماهيرية من وسائل الإثارة والاستفزاز والتحدى .. لكن التقويم الفكرى ـ إذا وضعنا فى الاعتبار أن أهم ما نادى به ، ودعا إليه ضد البابوية ، أو إصلاح الكنيسة ـ إنما كان (فكراً) شائعاً بين الناس منذ قرون وعلى يد معاصريه ، ومن أحد عنهم أخذاً مباشراً ـ هذا التقويم الفكرى يكاد يخرج بهذا الخطيب الجماهيرى عن دائرة المفكر ، أو الحكيم أو الملتزم بمبادئ متوازنة .

يقول صاحب (قصة الحضارة مج ٦ ج ٣ص ٥٨) : حذا فى ثورته حذو ويكلف

وهس ، ولم ينتهج أى منهج جديد ، فثورته مثل ثوريتهما تكمن فى رفض البابوية والمجالس الدينية والمراتب الكهنوتية ، والاهتداء بأى شيء آخر للعقيدة غير الكتاب المقدس ، وقد وصف البابا مثلهما بأنه مناهض للمسيحية ، ووجد مثلهما الحماية في رحاب الدولة .

وخارج هذا الإطار الذى أضفى على ذاتيته السباب النابى ، والتحدى الطائش ـ لم يأت هذا (المصلح) الكبير بجديد .

سأله شاب من علماء اللاهوت : أين كان الله قبل خلق العالم ؟ فأجابه : (كان يبنى جهنم لهذه الأرواح الفضولية المعلقة المغرورة من أمثالك) .

ورفض محاولات أرازموس وغيره من دعاة التوفيق بين الكتاب المقدس والعقل ، عن طريق التأويل المجازى ، ورماهم بالإلحاد وقال : (أنت لا تستطيع أن تقبل كلا من الإنجيل والعقل ، فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر .. إن العقل أكبر عدو للإيمان .. إنه أعجز صنائع الشيطان ، كبغي فتك بها الجرب والجذام ، ويجب أن توطأ بالأقدام ، ويقضى عليها هي وحكمتها) .

ولا يعنى هذا القول أكثر من أن الرجل لم تكن لديه القدرة على أن يجادل في صحة ما جاء فى (الكتاب المقدس) ، أو أن يدفع عن (الكتاب المقدس) ما رسم حوله من علامات استفهام ، فالوقوف عند حدود الإيمان ـ مع إلغاء العقل ـ هو رفض للإيمان والعقل معاً ، لأنه كيف يتحقق الإيمان بما لا أعقله ، أو ما أختاره ؟ إن الاختيار موازنة عقلية بين الصواب والخطأ ، بين الخير والشر ، وبدون هذا الاختيار لا يكون إيمان ، بل استسلام .

ولأن الرجل لم تكن لديه القدرة على (الحركة العقلية) ، بالرغم من وصفه بأنه (كان أقوى من عرفه التاريخ بالجدل) ـ نجد الخرافات الشعبية تعشش في رأسه ووجدانه يقول :

(إن كثيراً من الشياطين نهيم فى الغابات والمياه والبرارى ، وفى الأماكن المظلمة المليئة بالبرك ، وهى متأهبة أبداً لإيذاء الناس ، وبعضهم يهيم فى السحب الكثيفة السوداء) (إننى أعرف الشيطان حق المعرفة) .

ويذكر بالتفصيل أحاديث الشياطين بعضهم مع بعض ، وكان أحياناً يفتن الشيطان بالعزف على الناى ، وأحياناً كان يفزع الشيطان (المسكين) بأن يرميه بأقذع السباب .

وكان من عاداته أن يعزو إلى الشيطان الأصوات المخيفة التى تصدر من الجدران ، وهى تتقلص من البرودة فى الليل ، وذلك عندماكان يستيقظ على هذه الأصوات ، وكان فى وسعه أن يستنتج ـ وهو واثق ـ أنها من عمل الشيطان ، وهو يحوم حوله ، وأن يستأنف النوم فى هدوء .

ونسب إلى فعل الشيطان ظواهر مختلفة لا تسر : سقوط البرَد ، الرعد ، الحرب ، الطاعون ، أما الحوادث السعيدة كلها فهى فى نظره من فعل الله ، كأنه واقع تحت تأثير الفكر البرهمى والفكر المجوسى الثنوى .

كان يجد صعوبة فى إدراك ما نسميه القانون الطبيعى ، ويبدو أن كل التراث الشعبى التيتونى عن الطيف الصخاب ، أو الروح التى تحدث ضجة قد صدقه لوثر بحذافيره .

وهو يرى أن الشياطين تؤثر أن تتقمص أجساد الثعابين والقرود ، وأن فى وسع الشياطين أن تضاجع النساء ، وأن تنجب منهن أطفالاً ، ويرى ضرورة إغراق الأطفال الذين يولدون نتيجة هذه العلاقة .

ولا ندرى كيف يمكن التمييز بين ابن الشيطان وابن الإنسان حتى نجرؤ على قتله!!.

وكان يرى فى قدرة الضفادع البرية على الشفاء .

وسلم بصحة السحر والعرافة ، وسخر من التنجيم ، وكان يرى وجوب إحراق الساحرات على السارية ـ قصة الحضارة مج ٦ ج ٣ ص ٦٠ .

قد يعتذر له بأن البيئة كانت تنتشر فيها هذه الخرافات ، لكن كثيرين أنكروها ، ونددوا بمن اعتقدوها ، ثم إن لوثر يجب أن يتميز عن غيره بحكم قيادته ، أما أن يكون شأنه شأن غيره ، فكيف تتحقق القيادة ؟!.

كيف يقود الجماهير الدينية من يرى أن الإنسان بطبعه شرير وميال للإثم ، وأن (أعمال الشر فى الرجل الخير تفوق فى عددها أعمال الخير ، لأنه لا يستطيع أن يهرب من فطرته ، وكما قال بولس : « لا أحد بار ، لا أحد ») .. وعلى فرض ذلك ، فيم تهجمه العنيف على فساد البابوات ؟ أما كان هذا الاعتقاد مبرراً لتخفيف حملته ؟ ألا نرى أنه وقع تحت تأثير ما نسبه (الكتاب المقدس) إلى الأنبياء والرسل منذ آدم ونوح إلى داود وسليمان ؟.

كيف يقود الجماهير الدينية من يقول : (الإنجيل لا يبشر بشىء من الجزاء عن

الأعمال ، وإن من يقول إن الإنجيل نص على أن الأعمال هي وسيلة الخلاص ، أقول له بصراحة تامة إنه كاذب) .

(لا يمكن أن تكفر عن خطايا البشر إلا تضحية المسيح المفتدية ـ آلام ابن الله وموته ـ ولا يمكن أن ينجينا من عذاب جهنم إلا الإيمان بهذ التكفيرالإلهي ، وكما قال بولس للرومان : « إذا كنت نقراً بلسانك أن الرب يسوع ، وإذا كنت تؤمن في قرارة فؤادك بأن الله قد رفعه من بين الموتى ، فإنك سوف تنجو » ، وهذا الإيمان هو الذى « يبرر » ـ يجعل الإنسان باراً ـ على الرغم مما اقترف من ذنوب ، ويجعله صالحاً للخلاص ، وقد قال المسيح نفسه : « كل من يؤمن ويعمّد سوف ينجو ، أما من يكفر فسوف تلحقه اللعنة ») .

ألا تنطبق هذه (التفدية) على البابا وغيره ممن حمل عليهم الراهب الزعيم حملاته الطاغية ؟!.

وما دام (يسوع المسيح ينحني ، ويدع الخاطئ يقفز فوق ظهره) ، فما أيسر أن يتدرب الجميع على القفز ، ما دام المسيح وحده هو الذى يتحمل أخطاء البشر .

وإذا كانت (المسيحية ليست إلا ممارسة متصلة للإحساس بأنك لا ترتكب خطيئة ، على الرغم من أنك تقترفها ، وأن خطاياك إنما توضع على كاهل المسيح) ، إذن فحسبك هذا الإحساس ، ولتملأ الدنيا شروراً وآثاماً ، ولتكن الشيطان نفسه ، (حسبك أن تعرف الحمل الذى يحمل خطايا العالم ، والخطيئة لا يمكن أن تفرق بيننا وبينه ، **حتى لو ارتكبنا ألف جريمة زنا في اليوم ، أو مهما ارتكبنا من جرائم القتل** ، ألا تعد هذه بشرى طيبة أن تعرف إنساناً غارقاً في الخطيئة إلى أذنيه فيأتي الإنجيل يقول له : « كن على ثقة ، وآمن تغفر لك خطاياك من الآن فصاعداً » حالما يقتلع هذا الحائل تغفر لك خطاياك ، وليس ثمة شيء آخر تعمل من أجله) !! .

إذاً ، فما لنا لا نكاثر من الذنوب والآثام ، ونشعل الأرض والسماء والماء ، ما دام الإيمان بالمسيح يحمل عنا خطايانا ، ويسوى بين حوارييه وبين نابليون وهتلر وموسوليني وستالين وترومان وماك آرثر؟!.

وما دام (المرء يضل إذا اشتد فزعه من أن يقترف ذنباً) ، فهيا بنا حتى لا نضل ، إن لنا رخصة أهم من (صكوك الغفران) جاد بها الراهب الزعيم : (عندما يغوينا الشيطان ، فقد يكون من الحكمة أن تستسلم لإغوائه وتقترف ذنباً أو اثنين) ، ولاشك في أن

الحصول على مرضاة الشيطان يؤكد ثقتنا فى قدرة (يسوع المسيح) على تحمل المزيد من الأعباء ، ما دام (يسوع المسيح) لا يتكلف مشقة هذا (التحمل) ، فهو الله أو ابنه ، ولن ينوء أحدهما بفتح باب المغفرة على مصراعيه ، أو على مصاريعه !!.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ـ كما جاء فى رسالة كتبها سنة ١٥٢٥ ـ (إذا كان الله قادراً على كل شىء فلابد أنه السبب الوحيد لكل ما يصدر من أفعال ، بما فيها أعمال الإنسان ، وأنه إذا كان الله عليماً بكل شىء ، فإنه يعرف كل شىء مسبقاً ، وكل شىء لابد أن يحدث كما سبق في علمه ، وعلى ذلك فإن كل الأحداث فى كل زمان قدرت بإرادته تعالى ، وأصبحت قدراً محتوماً للأبد) .

وبهذا يكون الإنسان (مثل كتلة من الخشب ، أو صخرة ، أو كتلة من الصلصال ، أو عمود من الملح) لا يسأل عما يفعل ، لأنه لا يفعل ، وإنما ينسب إليه الفعل فى الظاهر ، فالخير والشر من عمل الله ، ومن ثم فلا ثواب ولا عقاب ، إلا تفضلاً من الله .

ولا غرابة إذن أن يحطم رجل جسد زوجته حتى الموت ، ثم يصيح (الآن تمت إرادة الرب) !!

لقد نسى الراهب الزعيم أن هذا التصور يهدم البناء المسيحى كله ، إذا صح عن السيد المسيح قوله : (ما جئت لأنقض ، بل لأكمل) فإذا كان العهد القديم أساس العهد الجديد ، فإن الوصايا العشر ، وما تبعها من ألوان العقاب تدخل فى باب العبث واللامعقول !!.

* إذا وصلنا إلى هذه الدرجة من اليقين بالمغفرة ، فما جدوى (القربان المقدس) ؟!.

قد يكون من الواجبات أن نشارك فى استعادة صورة (العشاء الأخير) لأن تمثل المسيح فى أى موقف يزيد من إيماننا به ، فإذا كان (القربان المقدس) سيؤدى إلى (أن المسيح يهبط من السماء ـ بمحض إرادته ـ ليكون حاضراً بطريق التجسد مع الخبز والنبيذ فى القربان المقدس) ، لأن (القربان المقدس ليس سحراً كهنوتياً ، ولكنه معجزة إلهية دائماً) ـ فإن أكبر جريمة يقترفها المرء ـ أى مرء ـ فى حق نفسه ، ألا يشاهد (هبوط السيد المسيح من السماء وتحقيق (معجزة إلهية) !!

وبهذا تكون أهمية (القربان المقدس) ممثلة فى حضور مشهد إلهى ، بعيداً كل البعد

من فكرة المغفرة أو التكفير ، لأن المغفرة مضمونة (بالفداء) ، أما هنا فالمجال أسمى ، إنه حال (حضور) ، و (مشاهدة) ، على غير ما نطقت به كتب المتصوفة ، لأن كتب المتصوفة تتحدث عن (استحضار) نفسى ، أما هنا فالحقيقة السماوية (تتجسد) فى واقع مادى !!.

* كان مفهومه عن المرأة تقليدياً وألمانياً ، فالله خلقها للحمل والطهى والصلاة لا لشىء آخر ، وهو القائل : (انتزع النساء من تدبير شئون المنزل تجدهن لا يصلحن لشىء) ، و (إذا أنهك الحمل النساء ، ولقين حتفهن ، فليس فى هذا ضرر ، دعهن يلاقين حتفهن ، ما دمن يحملن فقد خلقن لهذا) .. ولأن هذه وظيفة المرأة فإن (أى امرأة تتزوج من رجل عنين **يجب** أن يسمح لها ـ إذا وافق زوجها ـ **أن تضاجع رجلاً آخر**، لكى تنجب منه طفلاً ، **ويجب** أن يسمح لها بأن **تدعى أن الطفل هو ابن زوجها** ، وإذا أبى الزوج فإنها تستطيع بحق أن تطلق منه) ـ قصة الحضارة مج ٦ ج ٣ ص ٣١ ، ١٣١ .

وما دامت عملية الحمل تستدعى عملية الجماع ، ولعملية الجماع عند الإنسان وظيفة أخرى غير الحمل ـ يصبح من حق زوجة العنين أن تجد (فحلا) يحقق لها الوظيفة الأخرى ، وبخاصة أن العنين ليس وحده (العقيم) ، ففى سبيل الحمل يمكن المرأة أن تبحث عن الفحولة والخصوبة معاً .

أترى كان الراهب الزعيم يبيح لزوجته كاترين فون بورا أن تبحث عن الفحل الخصيب لو أنها لم تنجب له ستة أطفال ؟!

* قالت له زوجته : (أنت فظ يا زوجى العزيز) .

قال : (إن الغصن يمكن أن يقطع بسكين الخبز ، أما شجرة البلوط فتستلزم الفأس) .

ولأنه كان يرى نفسه شجرة بلوط ، وليس ثمة من يجرؤ أو يقوى على قطعها ، فقد أباح لنفسه كل شىء ضد الآخرين ، ولأنه كان يرى عصبية ألمانية تساعده ، وكان ثمة تمزق مسيحى على مستوى الدول ، وعلى مستوى رجال الدين ، فقد سهل عليه أن يتمادى فى عنفه ، دون أن تناله أيدى خصومه ، ولعله كان يتوهم أن ضعف أعدائه بسبب قوته ، لا بسبب الظروف التى تحيط بهم :

(يعتقد الكثيرون أنى شديد الشراسة ضد البابوية ، لكنى على النقيض من ذلك ،

أشكو من أنني ـ للأسف ـ لين العريكة إلى حد كبير ، وكم أود أن أنفث صاعقة ضد البابا والبابوية ، وأن تكون كل ريح صاعقة ولسوف ألعن وأنتهر الأفاقين ، حتى أنوى فى تحدى ، ولن ينالوا منى كلمة مهذبة ، لأننى **لا أستطيع أن أصلى دون أن أصب اللعنات فى الوقت نفسه** ، وإذا كنت مدفوعاً إلى أن أهتف « تبارك اسمك » ، فإننى يجب أن أضيف أن « اسم البابوية ملعون رجيم مغضوب عليه » وإذا كنت أهتف « لتأت مملكتك » فإنى مضطر إلى أن أضيف « البابوية ملعونة ، رجيمة هالكة ، لا محالة » ، والحق أنى أتلو صلواتى شفوياً على هذا النحو كل يوم وسراً فى قلبى ، دون توقف) .

لقد وجد كل التأييد والإعجاب من النبلاء والجماهير ، إذ كانت البابوية تمثل (اللوياثان) ، أو الوحش الأسطورى الذى يتغذى على دماء الآخرين ، وكثيراً ما كانت البابوية تمثل (عداوة شخصية) ، لأنها تحد من نفوذ النبلاء ، وتقتات بما تفرضه من ضرائب وعشور على الفقراء ، وبهذا صار الراهب الزعيم أقرب إلى (شجيع السيما) يزداد حب الناس وتصفيقهم له ، بالرغم من أنه يرتكب أشنع الجرائم ، ولو أن أحد المتفرجين وضع نفسه موضع ضحاياه لتغير الموقف .

* يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ٦ ج ٣ ص ١٨٧ ـ ١٩١) : كانت ثورته الدينية موجهة إلى ممارسة الشعيرة أكثر مما وجهت إلى المبادئ النظرية ، فقد اعترض على الثمن الفادح الذى يدفع مقابل الحصول على صكوك الغفران ، واعترض فيما بعد على استبداد البابوات ، لكنه قبل ـ إلى آخر لحظة من حياته ـ أشق العقائد فى مسيحية المحافظين ، وهى الثالوث ، وولادة العذراء ، والتكفير عن الخطايا ، وحضور المسيح بجسده فى القربان المقدس ، والجحيم ، وجعل بعض هذه العقائد تبدو مستساغة فى نظر الناس أكثر من ذى قبل ، ودافع عن الحق الإلهى للملوك ، إذ يقول : (إن اليد التى تدير السيف الدنيوى ليست يداً بشرية ، وإنما هى يد الرب ، والرب ـ لا الإنسان ـ هو الذى يشنق ، ويحطم الضلوع على دولاب التعذيب ويقطع الرءوس بالمقصلة ، ويجلد بالسياط ، والرب أيضاً هو الذى يشهر الحرب) .

وعندما تقدمت به السن أصبح محافظاً أكثر من الأمراء أنفسهم ، وأقر الإكراه البدنى على العمل ، والضرائب الإقطاعية الباهظة المفروضة على الفلاحين .

واستشهد بآيات من العهد القديم تبريراً للرق : (الأغنام والماشية والعبيد والجوارى كانت كلها ممتلكات ، يجوز لأصحابها أن يبيعوها كما يشاءون ، ومن الخير لو ظل هذا معمولاً به الآن ، لأنه بدون هذا لا يمكن لامرئ أن يكره طبقة الرقيق على العمل ، أو يروضها عليه) .

أراد فيليب الهسى أن يتزوج من مرجريت السالية (Ofsaale) التى كان يعشقها ، لأن زوجته كريستين الساقوية لم تكن وسيمة ، فوافق لوثر وميلانكتون على أن يتم الزواج وألا يباح هذا للجمهور ، ولما تم الزواج ، وتسرب الخبر ، أنكر لوثر أنه تم بموافقته ، وقال : (إن لفظ نعم سراً يجب أن يظل ، لا علناً لصالح المسيح) .

ولما مرض ميلانكتون بسبب هذه الجريمة . قال لوثر : (إن ميلانكتون شعر بحزن عميق بسبب هذه الفضيحة ، أما أنا فإنى سكسونى صعب المراس ، وفلاح صلب العود ، وقد ازداد جلدى علظة) .

وفى سنة ١٥٤٥ كتب خطاباً مقذعاً بعنوان (ضد البابوية فى روما التى أسسها الشيطان) ، وبعدها أصيب بالفالج وفقد النطق ، ومات فى ١٨ فبراير ١٥٤٦ .

* * *

الحمامة والخفاش ..

أرازموس (١٤٦٧ ـ ١٥٣٦ تقريباً) عالم الإنسانيات .. ولد فى روتردام ، أو بالقرب منها ، وهو الابن الثانى غير الشرعى لوالدين غير ميسورين .

مات والده سنة ١٤٨٤ ، وخلف ضيعة متواضعة ، بدد معظمها الأوصياء .

دخل أرازموس أحد الأديرة ، كأى راهب أوغسطينى ، لكن حياة الدير قست عليه ، فأعاره رئيس الدير ليعمل كاتب سر عند أسقف كمبراى .

وقبل أن يرسم قساً سنة ١٤٩٢ ، وأغرى الأسقف على أن يرسله إلى جامعة باريس ، بعد أن خدمه عشر سنوات ، وكان من رأيه أن ألطف طريقة لتعلم الفرنسية أن يأخذها عن بنات الليل .

كتب إلى أسقف كمبراى : (إن كلا من جلدى وكيسى فى حاجة إلى أن يملأا : الأول باللحم ، والثانى بالعملات ، اعمل ما يمليه عليك كرمك) ، فاستجاب له الأسقف ، ولقى من طلبة أغنياء بعض الرعاية ، وبخاصة فى رحلته إلى انجلترا ، فلما عاد إلى فرنسا خاوى الوفاض ، قال : (لقد عانيت من الغرق قبل أن أذهب إلى البحر) .

وبعد شهور فى باريس نشر أول عمل هام له ، وهو مجموعة أقوال مأثورة ، تضم ٨١٨ مثلا أو مشهداً ، معظمها لقدامى المؤلفين ، وأرفق كل قول مأثور بتعليق يمتزج غالبا بالسخرية والهجاء ، ومن ذلك (ورد فى الكتاب المقدس أن القس يلتهمون خطايا الناس ، فيجدون أن الخطايا عسيرة الهضم ، ولابد أن يرتشفوا أحسن الأنبذة للخلاص منها) .

انتشر الكتاب فى طبعات ، كل طبعة يضيف إليها حتى بلغت النصوص المدونة ٣٢٦٠ نصاً .

وفى سنة ١٤٩٧ ألف محاورات شكلية احترافاً لتعليم الأسلوب اللاتينى الحديث .

وزعم أحدهم أن كل الشباب فى فرايبورج أفسدتهم هذه المحاورات ، واعتبر شارل الخامس استخدامها فى المدرسة جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، واتفق لوثر فى الرأى مع الإمبراطور وقال : (سوف أحرم على أولادى قراءة محاورات « أرازموس » ، حتى لو كنت على فراش الموت) .

وظل أرازموس يعانى من الضيق ، مع أنه كان باستطاعته أن يحصل على مرتبات ، وأسقفيات ، بل منصب كاردينال ، لكنه رفض هذه العروض ، وأكب على دراسة الآداب اليونانية والرومانية ، وترجم بعض نصوصها .

كان لوشيان الفيلسوف الشاب الطريف الأقرب إلى نفسه ، والأكثر تشكيلاً لفكره وأسلوبه .

فى زيارة لانجلترا (١٥٠٥ ـ ١٥٠٦) ذهب إلى ضريح سانت توماس فى بكيت بكانتربرى ، فعرض عليه الراهب لبناً قال إنه من ثدى العذراء ، وكان إلى ذلك الوقت يرتدى مسوح راهب أوغسطينى ، ثوباً أسود ، ومعطفاً وقلنسوة وقبعة بيضاء ، يحملها عادة على ذراعه ، لكنه سنة ١٥٠٦ ـ لعله بسبب (لبن العذراء) ـ نبذ هذا الزى ، واستبدل به ثوب كاهن علمانى أقل وضوحاً ، وادعى أنه حصل على إذن من البابا يوليوس الثانى .

ولما تولى هنرى الثامن حكم انجلترا ، كتب إلى أرازموس يقول (بدأ تعارفنا عندما كنت صبياً ، وقد ازداد الاحترام الذى تعلمت أن أكنه لك ، بفضل تنويهك المشرف فى كتاباتك ، وبالطريقة التى استخدمت بها مواهبك فى إبراز الحقيقة المسيحية ، وبما أنك قد حملت هذا العبء وحدك ، فأسعدنا بمعاونتك وحمايتك إلى أقصى حد يمتد إليه سلطانى .. واذكر أنك قلت يوماً إنك ستتخذ من هذا البلد موطناً لك فى شيخوختك ، بعد أن نكون قد تعبت من التجوال ، وإنى لأتوسل إليك بكل ما هو مقدس وصالح أن تفى بوعدك هذا ، ولسنا الآن فى مركز يتيح لنا أن نعرف قيمة علمك أو نصيحتك ، وسوف نعتبر وجودك بيننا أثمن ما نمتلك) .

اتخذ طريقه مرة أخرى فوق جبال الألب إلى باريس فانجلترا ، ومكث هناك خمس سنوات ، لم يتلق خلالها من الملك سوى التحية بين الفينة والفينة ، ظل ينتظر ويتميز غيظاً ، وأخيراً حصل ـ بمعاونة صديق ـ على دخل أبروشية فى كنت ، وصار أستاذاً لليونانية بجامعة كمبردج .

وفى هذه الأثناء كتب كتابه (الثناء على الطيش) ، ثم سافر إلى باريس سنة ١٥١١ لنشره ، وطبع فى حياته أربعين طبعة ، وفى هذا الكتاب نجد البابا يولهوس (المحارب) بعد وفاته ، وقد أغلقت أبواب السماء فى وجهه ، فقد منعه القديس بطرس العنيد من دخولها ، وجرى حوار بين البابا والقديس ، كشف عن تاريخ البابا المغرق فى الفجور .

وفى مارس ١٥١٧ سافر إلى لندن ، وتسلم رسائل البابا ليو التى تحله من التزاماته نحو الدير ، ومن وصمة اللقاطة ، وأضاف ليو إلى الوثائق الرسمية مذكرة شخصية تقول : (ابنى الحبيب ، تمنياتى لك بالصحة ، مع بركاتنا الرسولية ، إن ما من الله عليك من حياة طيبة وخلق قويم ، ولوذعية نادرة ، وأفضال رفيعة ، لا تشهد عليها آثار دراستك التى اشتهرت فى كل مكان فحسب ، بل يشهد عليها أيضاً إجماع آراء معظم المتعلمين ، وقد أثنت عليك رسائل أميرين ذائعى الصيت ، هما ملك انجلترا ، وملك فرنسا الكاثوليكى ، وهذه هيأت لنا سبباً لكى نخصك بمنة فريدة وفضل خاص، ومن ثم أجبنا التماسك ونحن راضون ، ومستعدون لكى نعلن محبتنا الشديدة لك ، عندما تهيىء الفرصة ، إما بنفسك ، أو عندما تسنح بطريق الصدفة ، ونظن بحق أن جهدك المقدس الذى يبذل باستمرار للصالح العام سوف يلقى تشجيعاً ، وقدراً عظيماً من الاهتمام بمكافآت مناسبة) .

* كان الأمل يراود أرازموس فى استعادة السلام بين لوثر والبابا ، وبين البابا والملوك ، وبين الملوك بعضهم مع بعض ــ إذا خفضت كل الأطراف أصواتها .

جاء فى كتابه (الشكوى من السلام) الذى صدر سنة ١٥١٧ : (ليس بين الأساقفة والكرادلة والبابوات ــ وهم كهنة المسيح ــ من يخجل من بدء الحرب التى لعنها المسيح ، ما هو الشيء المشترك بين الخوذة وتاج الأسقف ؟ إن السلام ولو كان جائراً أفضل من الحروب ولو كانت عادلة) .

وأشار فى فبراير ١٥١٩ على فروبين ألا ينشر المزيد من مؤلفات لوثر ، لأنها تفيض بالعبارات الملتهبة .

وكتب فى أبريل إلى الأمير المختار فردريك يحثه على حماية لوثر ، باعتباره رجلاً ارتكب الناس فى حقه الإثم أكثر مما ارتكب هو من آثام .

وفى ٣٠ مايو ١٥١٩ كتب إلى لوثر: (يا أعز أخ لى فى المسيح ، إن رسالتك إلىّ تظهر حدة ذهنك ، وتنبض بروح مسيحية ، قد أسعدتنى أكثر من كل شيء ، أنا لا أستطيع أن أعبر عن مدى الاضطراب الذى تحدثه كتبك هنا ، إن هؤلاء الناس لا يمكن ــ بأى وسيلة ــ ألا يراودهم الشك فى أنى عاونتك فى كتابة مؤلفاتك ، وأنى ــ كما يصفوننى ــ حامل لواء حزبك ، ولقد أقسمت لهم أنى لا أعرفك قط ، وأنى لم أقرأ كتبك ، وأنى لا أستحسن كتاباتك ولا أستهجنها ، ولكن عليهم أن يقرءوها قبل أن يتحدثوا بصوت مرتفع .. وبما أن من المسلم به أنك طاهر الذيل ، فلا محل للتنديد بك ، أو صب اللعنات

عليك ، وأما بالنسبة لي فإنني أشغل نفسي بالأدب ، وأقصر عليه جهودي ، بقدر الإمكان ، وأتحاشى الخلافات الأخرى ولكني ـ بصفة عامة ـ أعتقد أن اللطف مع الخصوم أشد تأثيراً من معاملتهم بالعنف ، ولعل من الحكمة أن تندد بهؤلاء الذين يسيئون استخدام سلطة البابا ، بدلاً من أن تحصي أخطاء البابا نفسه ، وهذا ما يجب عمله مع الملوك والأمراء ، والأنظمة القديمة لا يمكن انتزاعها من جذورها في لحظة ، والمناقشة الهادئة قد تفيد أكثر من الإدانة الجماعية) ـ قصة الحضارة مج ٦ ج ٣ ص ١٥٦ .

وعلى الرغم من هذا الاحتياط والتحفظ في المواجهة ، فإن المشتغلين باللاهوت في (لوفان) استمروا في مهاجمة أرازموس ، باعتباره منبع الفيضان اللوثري .. وترتب على هذا إقصاء أرازموس من كلية لوفان .

دبَّج أرازموس عريضة ـ بمعاونة جوهان فابر الدومنيكاني ـ إلى شارل الخامس ، طالباً أن يقوم شارل وهنري الثامن ولويس الثاني بتعيين محكمة محايدة للفصل في قضية لوثر .

وفي ٦ ديسمبر ١٥٢٠ بعث إلى الكردينال كامبيجيو بحثه على توفير العدالة للوثر : (لقد أدركت أنه كلما كان الإنسان صالحاً كان أقل عداء للوثر .. إن بضعة أشخاص فقط كانوا يصخبون في وجهه خوفاً من أن يجردهم مما في جيوبهم .. هل من الصواب أن تضطهد رجلاً مثل هذا، ليس في حياته ما يشينه ؟) .

(إذا كنا ننشد الحقيقة ، فإن كل امرئ يجب أن يكونَ حراً في أن يقول ما يراه دون خوف ، أو وجل ، وإذا كوفئ المدافعون عن وجهة نظر أحد الطرفين بوضع تيجان الأساقفة على رءوسهم ، وجوزي المدافعون عن وجهة نظر الخصوم بالشنق أو بوضعهم فوق الخوازيق ـ فإن الحقيقة لن تسمع أبداً) .

* لكن لوثر جعل من الصعب على أرازموس أن يشفع له ، إذ كانت لهجة خطابه تزداد عنفاً .

في يوليه ١٥٢٠ دعا لوثر قراءه إلى أن يغسلوا أيديهم في دماء الأساقفة والكرادلة .

وعندما وصل نبأ إحراق لوثرعلناً منشور البابا الذي يقضي بحرمانه من غفران الكنيسة، أقر أرازموس بأنه صدم .

وفي ١٥ يناير ١٥٢١ بعث البابا ليو إلى أرازموس يعرب عن سروره بولائه ، وفي الوقت نفسه أرسل إلى مندوبه بتعليمات أن يعامل عالم الإنسانيات بكل لطف .

وعندما اقترب المجلس النيابى فى ورمس من موعد انعقاده ، طلب أمير ألمانى من أرازموس أن يحف لنجدة لوثر، لكنه رد بأن الأوان قد فات ، وأسف لرفض لوثر الامتثال .

وفى فبراير ١٥٢١ كتب إلى صديق : (الآن ـ وقد هب هذ الرجل ليعالج الأمر على هذا النحو ـ لم يجرؤ أحد على أن يدافع حتى عما أجاد التعبيرعنه ، وقد حذرته ـ منذ ستة شهور خلت ـ أن يحترس من الكراهيـة ، ولقـد نفّرت رسـالته « الأسر البابلى » منه الكثيرين ، وهو يعرض لنا كل يوم أشياء فظيعة) .

وعلى الرغم من تعليمات البابا إلى مندوبه بحسن معاملة أرازموس ، استمر هو وعلماء اللاهوت فى لوفان يهاجمون أرازموس باعتباره نصيراً سرياً للوثر ، فاستاء من ذلك ، وانتقل إلى بازل فى ١٥ نوفمبر ١٥٢١ .

وفى أول ديسمبر ١٥٢٢ كتب البابا أدريان السابع إلى أرازموس : (يتوقف عليك ـ وأسأل الله أن يعينك ـ أن تهدى من أضلهم لوثر عن الطريق المستقيم ، وأن تقف إلى جانب من لا يزالون صامدين ، ولست فى حاجة إلى أن أعرب لك عن مدى غبطتى ، عندما أتلقى ثانية هؤلاء الهراطقة ، دون حاجة إلى قرعهم بعصا القانون الإمبراطورى ، وأنت تعرف إلى أى حد تتنافى مثل هذه الطرق الفظة مع طبيعتى ، أنا لا أزال كعهدك بى عندما كنا ندرس معاً ، تعال إلى فى روما ، وستجد هنا ما تنشده من الكتب ، وستجدنى أنا وآخرين من المستنيرين ، لنتبـادل المشورة ، وإذا فعلت ما أطلبـه فلن تنـدم أبداً) ـ قصة الحضارة مج ٦ ج ٣ ص ١٦١ .

وفى سنة ١٥٢٣مات أدريان الذى تجاوزت نياته الطيبـة حدود قواه ، وأخذ خلفه كليمنت السابع يحث أرازموس على الانخراط فى سلك المناهضين للوثر .

استمر أرازموس يبذل جهوده فى سبيل السلام ، وأوصى كل من بعث إليه رسائل بالتسامح واللطف فى المعاملة ، وأشار على دوق ساكسونيا بمعاملة اللامعمدانيين بالرفق ، وقال (ليس من العدل أن تعاقب بالنار على أى خطأ يرتكب ، ما لم يكن مقترناً بشغب أو بجريمة يعاقب عليها القانون بالإعدام) .

كان يؤيد كل ما فيه إصلاح الكنيسة ، بينما كان يستهجن الإصلاح الدينى ، ولم يستطع أن يروض نفسه على التخلى عن الكنيسة، أو أن يراها مشطورة نصفين : (إنى أتحمل الكنيسة إلى أن أرى كنيسة أفضل) .

وقد راوده الأمل في أن شارل سوف يشجع كليمنت على أن يتصالح مع لوثر ، لكن البابا والإمبراطور لم يكونا على وفاق .

وقد أصيب بصدمة كبيرة عندما دمر الإصلاحيون التماثيل في الكنائس سنة ١٥٢٩ ، مع أنه كان يندد بعبادة التماثيل ، وقال : (يجب أن يعلم الناس أن هذه ليست رموزاً ، ومن الخير ألا يكون هناك شيء منها على الإطلاق، وأن توجه الصلاة إلى المسيح وحده ، وليكن رائدنا الاعتدال في كل الأمور) .

لكن الإصلاحيين اتهموه بأنه قادهم إلى حافة الهاوية ، وأغراهم بأن يقفزوا ، ثم لاذ بالفرار ، ووصفه مجلس مدينة ترنت بأنه هرطيقي فاسد ، وحرمت مؤلفاته على الفقراء الكاثوليك ، وفي سنة ١٧٥٨ وصفه هوراس والبول بأنه (طفيلي متسول لديه القدرة على الوصول إلى الحقيقة ، لكنه يفتقر إلى الشجاعة لكي يعترف بها) .

واتهمه الرهبان المشتغلون باللاهوت بأنه وضع البيضة التي فقست تحت لوثر ، فرد عليهم مستنكراً نعم ، لكن البيضة التي وضعتها خرجت منها دجاجة ، أما البيضة التي فقسها لوثر فقد خرج منها أحد ديوك المصارعة .

كان كلا الرجلين يحترم الآخر ويقدره ، وإن اختلفا في طريقة التفكير ، وفي طريقة التنفيذ .

كان لوثر ثائراً دائماً ، يدفع أمته إلى القضاء على سلطة دولية ، أما أرازموس فكان يكتب إلى صفوة عالمية من خريجي الجامعات ، شديد الحساسية ، يتوق إلى السلام ، يستخدم لغة لاتينية رشيقة ، على حين كان لوثر يتوسط حلبة الملاكمة ، ويتغنى بلغة ألمانية خشنة أيشع ألوان السباب .

في سنة ١٥٢٤ كتب أرازموس يقول : إنه لم يستطع أن يسبر غور لغز الحرية الأخلاقية ، ولا أن يوفق بينها وبين علم الله بكل شيء ، لكن ما من عالم بالإنسانيات يستطيع أن يتقبل العقائد التي تقول بحتمية القدر ، ومذهب الجبر ، دون تضحية بكرامة الإنسان ، أو بالحياة البشرية وقيمتها .

هناك فارق أساسي بين الإصلاح الديني والنهضة .. وقد بدا لأرازموس أن الإله الذي يعاقب على الخطايا التي ترتكبها مخلوقاته ، ولا حيلة لهم في الامتناع عنها ـ وحش لاأخلاق له لا يستحق العبادة أو الثناء ، ونسبة هذا السلوك إلى « الأب الذي في السماء »

كفر فظيع .. ووفق افتراضات لوثر يكون أسوأ المجرمين شهيداً بريئاً ، ذلك أن الرب قد قدر عليه الخطيئة ، ثم حكم عليه بالعذاب في نار جهنم خالداً فيها ، فكيف يستطيع أى مؤمن بحتمية القدر أن يقدم أى جهد خلاق ، أو يعمل على تحسين أحوال البشر ؟.

وقد رد لوثر مدافعاً عن الجبرية سنة ١٥٢٥ بقوله : (إن الإرادة البشرية مثل دابة الحمل ، إذا امتطاها الرب رغبت وانطلقت كما يشاء ، وإذا امتطاها الشيطان انطلقت كما يهوى ، وهى لا تستطيع أن تختار راكبها . والركاب يتنازعون امتلاكها ، والرب يعلم الغيب ، ويعمل كل شىء بإرادة أزلية ، لا تتبدل ، وبهذه الإرادة القاهرة نغوص الإرادة الحرة ، وتتفتت فى التراب) ـ قصة الحضارة مج ٦ ج ٣ ص ١٦٤/١٦٣ .

* * أما زونجلى (١٤٨٤ ـ ١٥٣١) فقد رسم قساً سنة ١٥٠٦ ، بعد أن حصل على درجة الماجستير ، وهو فى الثانية والعشرين ، واحتفل بإقامة أول قداس له فى فيلد هاوس ، وسط أقاربه ، واشترى بمائة جيلدر جمعت له وظيفة راعى أبروشية فى جلاروس . وقرأ بحماسة مؤلفات هوميروس وبندار وديمقريطس وبلوتارك وشيشرون وسنيكا وتاسيتوس ، وكتب تعليقاً على مؤلفات لوسيان الشكاك الفكه ، وتبادل الرسائل مع بيكوديلا ميراندولا وأرازموس (أعظم فيلسوف وعالم لاهوت) فى رأيه .

ونادى سنة ١٥١٧ باعتناق دين يعتمد على الكتاب المقدس فحسب ، وأبلغ كبير الأساقفة الكردينال ما تهويس شينر أن فى الكتاب المقدس إجازة ضعيفة للبابوية ، وفى أغسطس ١٥١٨ هاجم بيع صكوك الغفران .

وفى ١٠ ديسمبر ١٥١٨ قبل الدعوة لتنصيبه (قسيساً للشعب) فى جروسمنستر ، أو الكنيسة الكبرى فى زيورخ .

ونصب سنة ١٥٢١ كبيراً لأساقفة جروسمنستر ، وأصبح من القوة بحيث نادى بالإصلاح الدينى ، وإن كانت روح الإصلاح الدينى قد تحققت فى زيورخ وجنيف قبل ظهور أفكار لوثر بسبع سنوات ، إذ وافق البابا يوليوس الثانى فى سنة ١٥١٠ على أن يدير الأديرة مجلس المدينة فى جنيف ، وأن يضع قواعد الأخلاق العامة فى نطاق سلطته ، مقابل الحصول على بعض الفرق من جنيف لتأييد البابا فى موقفه من بعض ملوك أوروبا ، وبخاصة هنرى الثامن .

ولقد استفزته ثورة لوثر ورسائله ورسالة هس (عن الكنيسة) ، فما إن حل عام

١٥٢٠ حتى كان يهاجم علناً الرهبانية ، والمطهر ، والتوسل بالقديسين ، وبرهن أكثر من هذا على أن دفع ضرائب العشور للكنيسة يجب أن يكون بمحض الاختيار ، كما جاء في الكتاب المقدس ، وأيده مجلس المقاطعة .

وفي ١٥٢١ أقنع المجلس بمنع تطوع الجنود السويسريين في صفوف الفرنسيين ، وبعد عام امتد الخطر إلى كل الدول الأجنبية ، ولما لم يجد في الكتاب المقدس نصاً يحرم اللحم في الصوم الكبير ، فقد سمح لرعايا أبروشيّته بأن يتجاهلوا أوامر الكنيسة الخاصة بهذا الصوم .

والتمس هو وعشرة من القساوسة سنة ١٥٢٢ من الأسقف كونستانس أن يضع حداً لفجور رجال الدين ، وذلك بأن يسمح بزواج رجال الكهنوت ، وكان في ذلك الحين يتخذ من(آنارا ينهارد) عشيقة أو زوجة في الخفاء ، وتزوجها علناً سنة ١٥٢٤ ، قبل زواج لوثر من (كاترين) بعام .

وفي ٢٥ يناير ١٥٢٣ تقدم بسبعة وستين بنداً أو وصية للمناقشة في مجلس زيورخ الذي احتشد له ٦٠٠ مندوب .. ومن هذه البنود .

١ـ المسيحيون غير ملزمين بأية أعمال لم يأمر بها المسيح ، ويمكنهم أن يأكلوا في جميع الأوقات كل أنواع الطعام .

٢ ـ كل ما يبيحه الله ولم يحرمه حلال ، ومن ثم فإن الزواج مباح لكل الناس.

٣ ـ ليس أعظم من تحريم الزواج على القساوسة ، بينما يباح لهم اتخاذ حظايا ، على شريطة دفع غرامة .. ياللعار !!.

٤ ـ إن الكتاب المقدس لا يعرف شيئاً عن المطهر .

وافق المجلس على هذه البنود ، وأعلن أن زونجلي برىء من الهرطقة ، وأمر كل رجال الكهنوت في زيورخ بأن تكون عظاتهم مقصورة على ما يجدون له سنداً في الكتاب المقدس .

وهنا تولت الدولة أمر الكنيسة ، كما حدث بألمانيا في عهد لوثر .

واتفق في الرأى مع لوثر وكلفن في موضوع القدر :

(كل حادث ، وبالتالي المصير الأزلي لكل فرد قدّره الله ، ولابد أن ينفذ ، كما قدر سبحانه ، لكن الله لم يقدر اللعنة الأبدية إلا على الذين أعرضوا عن آيات الإنجيل التي

بسطت عليهم ، وكل طفل « من أبوين مسيحيين » يموت يكتب له الخلاص ، حتى ولو لم يعمد ، لأنه أصغر من أن يرتكب خطيئة ، وجهنم حق ، أما المطهر فهو خرافة «مهنة مربحة لمن ابتدعوه» ، وليس في الكتاب المقدس إشارة عنه ، أما القرابين المقدسة فإنها ليست وسائل معجزة ، بل رموز نافعة لرحمة الله ، والاعتراف السرى لا ضرورة له ، وليس في وسع قسيس أن يغفر لأحد خطيئته ، فالله وحده هو الغفور ، وإن كان من المفيد غالباً أن نسر بمتاعبنا إلى قسيس ، وليس العشاء الربانى أكلاً فعليًا لجسد المسيح ، لكنه رمز لاتحاد الروح بالرب ، والفرد بالجماعة المسيحية) .

فكر متقدم جداً بالنسبة لما ورد عن لوثر وكلفن .

وبهذا الفكر المتقدم أمر مجلس مدينة زيورخ برفع كل الصور الدينية ومخالفات القديسين والزينات من كنائس المدينة ، وأبعدت آلات الأرغن ، وأغلقت أديرة الرهبان والراهبات ، أو حولت إلى مستشفيات أو مدارس ، وألغيت أعياد القديسين ، واختفت طقوس الحج ، والماء المقدس ، والقداسات التى تقام للموتى .

وبهذا خطا الإصلاح الدينى فى عهد زونجلى فى زيورخ خطوات فاقت ما صنعه لوثر فى فيتنبرج ، وأصبحت الكنيسة والدولة منظمة واحدة ، على رأسها زونجلى ، بصفة غير رسمية .

وانقسمت مقاطعات الاتحاد السويسرى ، مؤيدة ومعارضة .

وفى ١٦ يوليه ١٥٢٤ وافقت كل المقاطعات على إقصاء زيورح من المجالس النيابية الاتحادية فى المستقبل ، ما عدا شافهاوزن ، وردت زيورخ وزونجلى على هذا بإرسال مبشرين إلى مقاطعة تورجادو، لإعلان الإصلاح الدينى ، مما أدى إلى مصادمات وإعدامات ألهبت روحاً عسكرية بين الطرفين .. وهددت ست مقاطعات بترك الاتحاد إذا لم يوقع العقاب على زيورخ .

وفى ٨ فبراير ١٥٢٩ اجتمع بمدينة بازل ثمانمائة رجل فى كنيسة الفرنسيسكان وبعثوا إلى مجلس المدينة يلتمسون تحريم القداس ، وعزل كل الكثالكة من مناصبهم ، وسريان دستور أكثر ديمقراطية .

وفى اليوم التالى قدم مقدمو الالتماس إلى السوق مدججين بالسلاح ، وعندما حل الظهر ولم يصل المجلس إلى قرار ، تحرك الحشد نحو الكنائس بالمطارق وحطموا كل التماثيل الدينية التى وجدوها .

وصف أرازوس الواقعة فى خطاب إلى بيركهايمر ، جاء فيه :

(لقد رفع الحدادون والعمال كل الصور من الكنائس ، وانهالوا بالشتائم على تماثيل القديسين والصليب نفسه ، بصورة تدعو إلى الدهشة ، لعدم حدوث معجزة ، بعد أن رأينا كيف اعتاد الناس حدوث الكثير منها ، عندما يساء إلى القديسين أدنى إساءة ، إنهم لم يبقوا على تمثال واحد فى الكنائس أو فى الدهاليز أو فى الأروقة ، أو فى الأديرة ، وطمست الصور الجدارية بواسطة تغطيتها بطبقة من الجير ، وألقى فى النار بكل ما يمكن حرقه ، ودق الباقى حتى استحال إلى شظايا ، ولم يستبق شىء بدافع الحب أو المال) .

وصوت المجلس بإلغاء القداس إلغاء كاملاً .

وفى مايو ١٥٢٩ أحرق على الخازوق مبشر بروتستانتى من زيورخ ، حاول أن يقدم عظاته فى مدينة شفيتز ، فأقنع زونجلى مجلس مدينة زيورخ بإعلان الحرب ورسم الخطة بنفسه وتولى أمر القيادة .

جرت مفاوضات بين الطرفين استمرت ستة عشر يوماً ، ووقعت اتفاقية للسلام فى ٢٤ يونية ١٥٢٩ تعد انتصاراً لزونجلى ، إذ وافقت المقاطعات على دفع تعويض لزيورخ ، وحظر مهاجمة أى الطرفين للآخر ، بسبب الخلافات الدينية .

وجرت محاولات للتوفيق بين زونجلى وأنصاره ولوثر وأنصاره ، وتقابل الطرفان فى ٢٩ سبتمبر ١٥٢٩ ، ورفض لوثر أن يصافح اليد التى مدها إليه زونجلى ، وقال : (إن روحك تختلف عن روحنا) .

وفى سنة ١٥٣١ وجه زونجلى إلى فرنسيس الأول رسالة (عرض موجز وواضح للعقيدة المسيحية) ، عبر فيها عن اقتناعه (الأرازموسى) بأن أى مسيحى سوف يجد عند وصوله إلى الفردوس كثيراً من اليهود والوثنيين الأجلاء ، إنه لن يجد آدم وإبراهيم وإسحاق وموسى وأشعيا فحسب ، لكنه سيجد أيضاً هرقل وتيزيوس وسقراط وأرستيد ونوما وكاميلوس وكاتو الكبير والصغير وسيبيو الكبير والصغير ، (وباختصار ليس هناك رجل صالح ، ولا عقل مقدس ، ولا روح مخلصة ، منذ بداية العالم إلى نهايته ، لن نراها هناك مع الله ، ماذا يمكن أن نتصور أنه أكثر بهجة للنفس ، ومسرة للفؤاد ، وسموا بالروح . من هذا المنظر) .

ذعر لوثر لهذه الفقرة إلى حد أنه انتهى إلى أن زونجلى لابد أن يكون (وثنياً) ،

واتفق الأسقف بوسويه مع لوثر ، واستشهد بهذه الفقرة على أن زونجلى كافر ، لا أمل فى إصلاحه .

وفى ١٥ مايو ١٥٣١ اجتمع مجلس من زيورخ وحلفائها ، وصوّت لإكراه المقاطعات الكاثوليكية على السماح بحرية الوعظ على أرضها ، وعندما رفضت اقترح زونجلى إعلان الحرب عليها ، غير أن حلفاءه آثروا أن يفرضوا عليها حصاراً اقتصادياً ، فما كان من المقاطعات الكاثوليكية إلا أن أمسكت عن الواردات ، وأعلنت الحرب .

وفى ١١ أكتوبر ١٥٣١ تقابل الجيشان ، وحمل زونجلى العلم ، وكان بين ٥٠٠ رجل قتلوا من زيورخ ، ومزق جسده أربعة أجزاء ، وأحرق .

وعندما سمع لوثر بموت زونجلى هتف (هذا حكم السماء على كافر ، وانتصار لنا) .!!.

* * أما جون كلفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) فقد أخذ مأخذ لوثر ، لكن فى أسلوب تعليمى هادىء بعيد من الفوضوية الهمجية التى اتسم بها أسلوب لوثر .

فى سنة ١٥٣٦ نشر كتاباً باللاتينية ، باسم (مبادئ الدين المسيحى) ، ظل يزيد صفحاته حتى بلغت ١١١٨ ، ضمنه السؤال الذى يتردد على أقلام جميع الفلاسفة ورجال الدين ، وهو : (لماذا شاء الله النجاة لبعض الناس ، والعذاب لآخرين ، دون اعتبار لما قدموه من أعمال ؟) .

وأجاب بكلمات بولس : (لأنه قال لموسى : إنى أتغمد برحمتى من أشاء ، وأعفو عمن أشاء) .

وأضاف (وطبقاً لهذا نؤكد أن الرب قدر بمشيئة أزلية لا تتبدل من يكتب له الخلاص ، ومن يحكم عليه بالعذاب والهلاك ، ونؤكد أن هذه المشيئة ـ فيما يختص بالاختيار ـ تقوم على رحمته التى يتغمد بها من يشاء ، دون اعتبار لما يستحقه الإنسان ، ولكن الذين حكم عليهم بالعذاب فى النار أغلق دونهم باب الحياة ، بمقتضى حكم عادل لا سبيل إلى نقضه ، ويدق على الفهم) .

إذن (لماذا يقرر الرب بصورة تحكمية مصير الأرواح منذ الأزل ؟) .

أجاب (لكى يزيد من إعجابنا بمجده ، بعرض قوته) .

وهذا ما يسمى (بالتعيين السابق) الذى وصفه جون ويسلى ـ بعد مائتى سنة ـ

بقوله : (إن هذه العقيدة تجعل كل الكرازة عبثاً ، وتهدم القداسة والاطمئنان فى الدين ، والغيرة للعمل الصالح ، نعم ، وتهدم كل الإعلان المسيحى بتورطها فى متناقضات مهلكة ، إنها عقيدة ملأى بالتجديف ، لأنها تظهر ربنا المبارك منافقاً ومخادعاً للناس ، كشخص يخلو من الإخلاص العام ، حيث يهزأ بمخلوقاته التى لا حول لها ، بتقديم ما لا ينوى قط تقديمه ، فيقول شيئاً ، ويعنى شيئاً آخر ، إنها تهدم كل صفات الله ، عدله ورحمته وحقه ، نعم إنها تجعل الله كلى القداسة كأنه أردأ من الشيطان ، وكأنه أكثر تلفيقاً ، وأكثر قسوة) ـ تاريخ الكنيسة ج ٤ ص ٢٥٤ .

ويعلق كرين برنتن (أفكار ورجال ص ٤٠٤/٤٠٥) بقوله : إن قدرية كلفن أقوى أثراً وأشد صرامة ، من قدرية القديس أوغسطين .. إن مقاومتى لما أريد أن أفعل مقاومة لله ، فإن كنت أريد الفاحشة فإن الله هو الذى أراد لى ذلك ، وإذا كان لى خلاص فإنما يرجع كله إلى نعمته ، وليس لذلك الوهم الذى أسميه الضمير شأن بمسيرة الأمور ، وإذن فمن حقى أن أرتكب الآثام بقلب مطمئن .

إن قولك (إننى أعلم أن كل ما أفعله إنما أفعله لأن الله يريد ذلك) هو فى الواقع زعم منك بأنك تدرك ما يريد الله ، وأنك مساو لله ، ولست مجرد آلة عاجزة ، إن الثقة بالخلاص هى أكبر آثام الكبرياء ، وهى النقيض المباشر للتواضع الذى هو من أسس المسيحية المتينة .

وبناء على هذا المنطق لا حاجة إلى مطهر ، أو منزل فى منتصف الطريق ، يقضى فيه المرء سنوات يتعذب بالنار ، حتى يمحو سيئاته ، ومن ثم فلا جدوى من الصلوات من أجل الموتى .

* يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ٦ ج ٣ ص ٢١٥) : لم تكن عبقرية كلفن تكمن فى أنه يأتى بأفكار جديدة ، ولكن فى تطوير آراء من سبقوه إلى نتائج منطقية (هدامة) ، والتعبير عن هذه النتائج ببلاغة تضارع بلاغة أوغسطين ، وبصياغة تضميناتها العملية بمنهج يقوم على التشريع الكهنوتى .

أخذ عن لوثر عقيدة التبرير أو الاختيار بالإيمان ، وعن زونجلى التفسير الروحى للقربان المقدس ، وعن بوسر الآراء المتناقضة عن مشيئة الله ، باعتبارها سبباً لكل ما يحدث ، والحاجة إلى ورع عملى قوى ، باعتباره امتحاناً وشاهداً على الاختيار .

ووصلت معظم تلك العقائد ـ عن طريقه ـ في صيغة أخف إلى التراث الكاثوليكي ، وأضفى عليها أهمية شديدة ، ولم يعبأ بالعناصر المعوضة المخففة في عقيدة القرون الوسطى .

ويقول برنتن (أفكار ورجال ص ٤٠٣/٤٠٨) : كان إله كلفن يتصف بالصفات التقليدية للإله الأوحد ، كان قادراً على كل شيء ، عليماً بكل شيء ، كله خير ، غير أنه اتصف بكل هذه الصفات إلى درجة الكمال ، إلى درجة غير إنسانية .. إنه لا يقع خارج الزمان والمكان ، لكنه خالق الزمان والمكان ، وخالق كل ما يجرى خلالهما ، وهو على علم سابق مطلق كامل بكل ما خلق ، وليس للمرء أى اختيار فيما يفعل ، وقد قدر الله كل شيء من قبل ، وهو الذى أراد ودبر سقوط آدم وما ترتب عليه ، ولأن الله لا يمكن أن يفعل إلا الخير ، فإن خطيئة آدم لابد أن تكون عند الله خيراً .

ويقول برنتن : الكلفني لا يقبل أن يرتكب الآثم إثمه طواعية إذا استطاع ذلك ، وذلك بالرغم من أن المنطق الصارم يقول بأن الله قد أراد للآثم أن يأثم ، وحيثما كان الكلفنيون في الحكم كانوا يراقبون السلوك الذى يعدونه إثماً ، ويحرمونه ، ويوقعون عليه العقـــوبات .

إن الكلفني ليس المتصوف الذى يسعى إلى سحق الإدراك الحسى ، واعتزال هذه الدنيا ، إنما هو يسعى إلى أن يختار من بين شهواته الدنيوية تلك التى تقربه من الخلاص ، وإلى أن يكبت أو يحد من تلك التى لا تقربه ، الكلفني يعد الدنيا مكاناً جدياًجداً ، الضحك فيه خروج على النظام ، وإن أكثر المسرات التى يألفها الجنس البشرى ـ كالموسيقى الخفيفة ، والرقص والميسر ، وفاخر الثياب ، والشراب ، وارتياد الملاعب وغيرها ـ هى ذلك النشاط الذى يحبه الشيطان .

* عاد كلفن إلى أبروشية جنيف ـ بعـد نفيـه إلى استراسبرج ـ في ١٤ سبتمبر ١٥٤١ ، وصـــار واعظـاً ومدبراً وأستاذاً للاهـوت ، ومشـرفاً على الكنائس والمدارس، ومستشاراً للمجالس البلدية ، وضابطاً للأخلاق العامة ، ومنظماً للطقوس الدينية في الكنيسة .

وألف كهان الأبروشيات في جنيف ـ تحت إشرافه ـ (الجماعة المبجلة) التى حكمت الكنيسـة ، ودربت المرشحين للخدمة الدينيـة ، ولم يسمح لأحـد بالوعظ في جنيف ، دون أن يخول ذلك من الجماعة .

وأصبح القساوسة الجدد تحت رئاسته أقوى منهم فى أى نظام للقساوسة عرف منذ عهد إسرائيل القديمة ، وفيما بين سنتى ١٥٤٢، ١٥٦٤ نفذ حكم الإعدام فى ثمانية وخمسين من السحرة ، ونفى ستة وسبعون ، بسبب مخالفتهم القانون الجديد .

وأرسل فى عام واحد إلى سارية الإحراق ، وبناء على ما أشار به مجمع الكرادلة ، أربع عشرة سيدة ، بتهمة إغوائهن للشيطان أن يصيب جنيف بالطاعون .

إن لوثر (الثور الهائج) ـ كما يقول ول ديورانت ـ كان يعمل من خلال كلفن ، بعد ترويضه أتم ترويض ، بحيث كان يبقر ضحاياه بقرنين أملسين ، أجيد غسلهما ، وأجيد استخدامهما .

* ميكائيل سرفتيوس (١٥١١ ـ ١٥٥٣) ، كان متأثراً بالفكر اليهودى والإسلامى وبنقد الساميين للمسيحية ، اكتشف البروتستانتية وأحبها .

فى ١٧ يوليه ١٥٣٢ أصدرت محكمة التفتيش فى تولوز أمراً بالقبض عليه ، وفى ١٧ يونيه ١٥٥٣ أدانته المحكمة المدنية ، وأمرت بأن يحرق حياً على نار بطيئة .

فى ١٣أغسطس ١٥٥٣ حضر الصلاة بالكنيسة ليتحرم بها ، لكن كلفن أمر بالقبض عليه ، ونفذ الحكم فيه فى ٢٧ أكتوبر ١٥٥٣ ، بعد أن أوثق بسلاسل حديدية .

ارتفعت أصوات تدافع عن سرفتيوس . وفى سنة ١٩٠٣ أقيم نصب تذكارى له فى تشامبل ، شارك فى نفقاته المجمع الدينى لكنيسة جنيف !! .

* * *

الجزويت .. وجـزاء سنمار !!

كان اجناتيوس لويولا (١٤٩١ ـ ١٥٥٢) أحد ثمانية أبناء وخمس بنات للدون بلتران دى أويتز اللويولى الذى ينتمى إلى طبقة النبلاء الأسبان ، وقد ربى الصبى ليكون جنديا ، لذلك لم يتلق من التعليم المدرسي إلا القليل ، ولم يبد ميلاً للدين .

أمضى أربع سنوات في الخدمة العسكرية انتهت بكسر ساقه ، وخلال فترة العلاج والنقاهة قرأ كثيراً من الكتب التى وجدت فى قلعة بانبلونه ، وكانت كلها كتباً دينية ، تتحدث عن أساطير القديسين ، فتكونت فى عقله فكرة مؤداها (أن أنبل الحروب هى حرب مسيحية ضد الإسلام) .

أخذ ينتقل بين أسبانيا وإيطاليا وفرنسا ، ويدرس الفلسفة والعلوم اللاهوتية واللغة اللاتينية ، ويعلم طلاب المعرفة ، ويدرب نفسه على الحياة الروحية ، ممارساً ضروب التقشف .

فى ١٥ أغسطس ١٥٣٤ اجتمع مع تسعة طلاب فى باريس داخل كنيسة بمونمارتر، ونذروا حياة العفة والفقر، وأخذوا عهداً على أنفسهم بالذهاب إلى الأراضى المقدسة ، والعيش فيها ، بعد قضاء عامين آخرين فى الدرس .

وفى سنة ١٥٣٩ طلب لويولا إلى الكردينال كونتاريل أن يرفع إلى البابا بولس الثالث مواد تنظيم جماعة (الجزويت) ، وأن يلتمس تثبيته للفرقة ، باعتبارها طريقة دينية جديدة .

وبمقتضى المرسوم البابوى المسمى (لأجل تنظيم الكنيسة المجاهدة) تم إنشاء ما سماه (جماعة يسوع) ـ ٢٧ سبتمبر ١٥٤٠ ـ وسمى أعضاءها (الإكليريكيين النظاميين فى جماعة يسوع) ، ولم يظهر اسم (الجزويت) إلا سنة ١٥٤٤ .

وفى ١٧ أبريل ١٥٤١ انتخب لويولا قائداً ، وظل عدة سنوات بعد انتخابه يغسل الأطباق ، ويؤدى أحقر الأعمال ؛ وقد جعل مقامه فى روما ، فيما بقى من عمره ، وأصبحت روما المقر الدائم للجماعة ، وبعد طول التفكير والتجربة وضع (دستور) الجماعة بين سنتى ١٥٤٧ ـ ١٥٥٢ وهو ـ بعد تغييرات طفيفة ـ قانون الجزويت اليوم .

يقضى الدستور أن على طالبى عضوية الجماعة أن يقضوا فترة اختبار لمدة عامين ،

يدربون على هدف الجماعة ، ونظامها ، ويمارسون الرياضة الروحية ، ويؤدون الأشغال الحقيرة ، ويخضعون للرؤساء فى طاعة مقدسة مطلقة ، (إننا نرى الأسود أبيض ، إذا كان رئيسنا يقول إنه كذلك) ، ومن ثم فعليهم أن يتخلوا عن إرادتهم الفردية ، ويرتضوا أن يؤمروا كما يؤمر الجند ، وينقلوا كأنهم الجثث ، وأن ينقلوا إلى رؤسائهم أخطاء زملائهم ، وألا يجدوا غضاضة فى نقل أخطائهم إلى رؤسائهم .

وبعد فترة الاختبار يدخلون الطبقة الثانية ، إخوة علمانيين ، أو مدرسين مؤهلين ، يبتغون القسوسية ، ويدرسون الرياضيات والآداب القديمة ، والفلسفة واللاهوت ، ويعلمون فى المدارس والكليات .. ومن يجوزون مزيداً من الاختبارات يدخلون الطبقة الثالثة ، طبقة (المساعدين) المؤهلين ، وبعض هؤلاء قد يرقون إلى طبقة (المنذورين) ، وكلهم قساوسة يضطلعون بأى عمل أو بعثة يكلها إليهم البابا .

وللعضو حق الاحتفاظ بما كان يمتلك حين دخوله الطريقة ، ولكن كل دخل يأتيه منها يكون من حق الجماعة التى تكون الوريثة فى النهاية ، وكل المقتنيات والأنشطة الجزويتية يجب أن تكرس لمجد الله .

وما لبثت الطريقة أن ازدادت حجماً وقوة ، بعد أن انضم إليها فرنسيس بورجيا ، دوق جانديا ، ووهبها ثروته ، ويوم أصبح هذا الرجل قائدها الثالث سنة ١٥٦٥ كانت تضم ٣٫٥٥٠ عضواً يعيشون فى ١٣٠ بيتاً فى ثمانية عشر إقليماً أو دولة .

وقد أوفدت مبعوثيها إلى الهند والصين واليابان والدنيا الجديدة ، وقد عانوا أشد المشقات فى سبيل نشر دعوتهم .

وقبل وفاة لويولا كان هناك مائة كلية يسوعية .. وبفضل التعليم والدبلوماسية والتفانى فى العمل ، وبفضل الحماسة والتنظيم والتنسيق بين الأهداف والوسائل ـ أفلح الجزويت فى صد المد البروتستانتى ، واستردوا للكنيسة جانباً كبيراً من ألمانيا ومعظم المجر ، وبوهيميا ، وكل بولنده المسيحية .

وقد أصبح اليسوعيون ـ كما سماهم النقاد ـ على مدى قرن من الزمان ، أقوى جماعة من رجال الدين فى الكنيسة الكاثوليكية وما وافى عام ١٥٧٥ حتى كانوا قد أسسوا فى فرنسا وحدها اثنتى عشرة كلية ، وسرعان ما سيطروا على تعليم الشباب فى فرنسا ، ولمدة مائتى عام اختار ملوك فرنسا كهنة اعترافهم من بينهم ، وحذا سائر الحكام حذوهم .

وبهذه الوسيلة وغيرها بات لهؤلاء اليسوعيين أبلغ الأثر فى تاريخ أوروبا كلها .

* ومنذ بداية عهد اليسوعيين فى باريس ، كان البرلمان والسوربون يقاومانهم .. وفى سنة ١٥٩٤ اتهمهم برلمان باريس بأنهم كانوا وراء محاولة جان شاتيل الاعتداء على حياة هنرى الرابع .. وفى سنة ١٦١٠ اتهمهم البرلمان بتحريض رافياك على قتل الملك ، وأيد هذا الاتهام بالإشارة إلى بحث اليسوعى الأسبانى ماريانا الذى دافع فيه عن مشروعية قتل الملوك فى ظروف معينة .

لكن جماعة يسوع ازدادت عدداً وقوة وسلطاناً ، وسيطرت على سياسات لويس الرابع عشر الدينية ، وأدت به إلى مهاجمة الجانسنيين فى بورت رويال ، على أنهم كلفنيون تحت شعار أنهم كاثوليك ، ولا تزال الأقلية المتعلمة تذكر (الرسائل الإقليمية) التى كتبها بسكال سنة ١٦٥٦ ، ومع ذلك فإنه فى سنة ١٧٤٩ كانت جماعة يسوع تضم ٣٣٥٠ عضواً فى فرنسا من بينهم ١٧٦٣ كاهناً ، وبرزوا بين رجال الدين فى فرنسا بوصفهم أحسن العلماء والباحثين وأبرع اللاهوتيين، وأفصح الوعاظ ، وأتقى المدافعين عن الكنيسة ، وأنشطهم ، وأنجحهم ، وأسهموا فى كثير من العلوم ، وأثروا فى تطوير الفنون ، وكانوا أفضل المعلمين فى أوروبا .

لقد أنشئوا وبنوا عقول ديكارت وموليير وفولتير وديدرو ، وكانوا يأملون ـ بالأناة والصبر ـ فى أن يعيدوا هؤلاء المتشككين إلى حظيرة الدين .

* أعلن الكردينال برنيس أن قمع حركة اليسوعيين فى فرنسا يرجع أساساً إلى امتناع كهنة الاعتراف اليسوعيين عن منح البركة والغفران لمدام بومبادور ، على الرغم من توكيدانها بأن علاقتها بلويس الخامس عشر لم تعد جسدية ، وردد الملك صدى استيائها .

كان داميين حاول قتل الملك ، ولم يكن لليسوعيين علاقة ظاهرة بهذه المحاولة ، لكن كان لداميين كاهن اعتراف يسوعى .. وأخذ الملك يصغى إلى شوازيل ، وإلى غيره ، ممن يعادون الكنيسة ، فرأى أن الوقت قد حان لتخلص الدولة من ربقة وصاية الكنيسة ، وإقامة نظام اجتماعى أخلاقى مستقل عن رجال الدين النزاعين إلى تعويق انتشار المعرفة ، وعن لاهوت العصور الوسطى .. وإذا كانت دولة البرتغال الصغيرة الغارقة فى الخرافة قد تجاسرت على طرد اليسوعيين ، فلم لا تقدم فرنسا المستنيرة على هذا ؟.

وبعد هزيمة الفرنسيين على يد فردريك فى روسباخ ، وبعد أن وصلت أقدار فرنسا إلى

الحضيض ، وأصبح منظر الجنود المقعدين العاجزين مألوفاً فى باريس ، بات اليسوعيون هدفاً للنكات والشائعات والافتراءات المشوهة للسمعة ، إلى حد الاتهام باللواط ، وبالانهماك فى متاع الدنيا ، وبجمع الثروة ، وبالهرطقة ، وبالعمالة لدولة أجنبية.

ولما كانت غالبية برلمان باريس من الجانسنيين ، واتضح ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ أن اليسوعيين هم الذين دفعوا لويس الرابع عشر إلى تعقب الجانسنيين ـ فقد حانت فرصة الانتقام .

وهيأ اليسوعيون لبرلمان باريس هذه الفرصة ، إذ كانوا لعدة أجيال قد اشتغلوا بالتجارة والصناعة لتمويل معاهدهم اللاهوتية وكلياتهم وبعثاتهم التبشيرية ، واحتكروا فى روما كثيراً من أنواع الإنتاج والحرف ، والصناعات ، وفى أنجرز بفرنسا أسسوا مصنعاً لتكرير السكر ، واحتفظوا بمراكز تجارية فى كثير من الأراضى الأجنبية ، مثل جوا ، وكانوا من أغنى المقاولين فى مستعمرات أسبانيا والبرتغال فى أمريكا .. جأرت المشروعات الخاصة بالشكوى من هذه المنافسة .. وكان الأب أنطوان دى لافالت الرئيس الأعلى لليسوعيين فى جزر الأنتيل أدار باسم الجماعة مزارع واسعة فى جزر الهند الغربية ، واستخدم آلافاً من المواطنين السود ، وصدر السكر والبن إلى أوروبا ، وفى سنة ١٧٥٥ اقترض مبالغ ضخمة من مصارف مرسيليا ، ولسداد هذا القرض أرسل إلى فرنسا سفناً محملة بالبضائع ، تقدر قيمتها بخمسة ملايين دولار ، لكن البوارج الإنجليزية استولت عليها فى بداية حرب السنين السبع ، وأملاً فى تعويض هذه الخسائر اقترض لافالت مبالغ أكبر ، لكنه أخفق ، وأعلن إفلاسه ، وهو مدين بمبلغ ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ فرنك .. طالب الدائنون بالدفع ، وطلبوا إلى جماعة اليسوعيين الاعتراف بمسئوليتها عن ديون لافالت ، فلما رفضوا باعتبار عمل لافالت كان تصرفاً فردياً ، انتهز البرلمان الفرصة ليقوم بفحص دستور الجماعة ، وقوانينها ومستنداتها التى تكشف عن تنظيمها وأنشطتها [1] .

وفى ٨ مايو ١٧٥٥ أصدر البرلمان حكماً فى مصلحة الشاكين ، وأمر الجماعة بتسوية كل ديون لافالت ، فشرع اليسوعيون فى عمل تسويات مع الدائنين ، لكن فى ٨ يولية قدم الراهب ترى (Terray) إلى البرلمان تقريراً عن (المذهب الخلقى والعملى لجماعة اليسوعيين) ، وعلى أساس هذا التقرير أصدر البرلمان فى ٦ أغسطس قرارين ، قضى أحدهما بإحراق عدد كبير من مطبوعات اليسوعيين فى القرنين السابقين ، لأنها

(١) ويقولون فى مصر : إن التاريخ لا يعيد نفسه ، وإن اختلفت الديار ، مع أن طبيعة السلطة واحدة !! .

تعلم مبـادئ (بغيضة تدعو إلى سفك الدماء) ، وتهدد أمن المواطنين والملوك ، كما حرم الانضمام إلى الجماعة (بعد الآن) فى فرنسا كما قضى بأنه فى أول أبريل ١٧٦٢ يجب إغلاق كل مدارس اليسوعيين ، اللهم إلا تلك التى تحصل على ترخيص من البرلمان باستمرار الدراسة فيها ، أما القرار الثانى فأتاح تقديم الشكاوى ضد سوء استخدام السلطة فى الجماعة أو بواسطتها .

* رفض البابا كليمنت الثالث عشر ولورنزو رتشى رئيس اليسوعيين اقتراحاً من الملك أن تفوض كل سلطات البابا فى فرنسا إلى خمسة من القساوسة الإقليميين ، يقسمون اليمين على طاعة القانون الفرنسى ، ومواد قانون سنة ١٦٨٢ التى أحلت الكنيسة الفرنسية من الخضوع للبابا ، وقال كل من البابا ورتشى : (فليبق اليسوعيون كما هم ، أو لا يبقون مطلقاً) .. ولمصلحة جماعة اليسوعيين أهاب كليمنت برجال الدين الفرنسيين مباشرة تأييد موقفه ، وفى هذا خرق للقانون الفرنسى .

دخلت البرلمانات الإقليمية حلبة الصراع ، وأضافت بعض التقارير التى تلقتها مزيداً من الاتهامات ضد اليسوعيين .

وفى ١٥ فبراير ١٧٦٢ أمر برلمان روان كل اليسوعيين فى نورمندى بإخلاء دورهم وكلياتهم ، وعزل كل المديرين الأجانب ، وقبول القانون الفرنسى .. وصدرت قرارات مماثلة فى عدة أقاليم ، وفى أول أبريل أمر برلمان باريس بتنفيذ قراراته ، ونقل إدارة المدارس اليسوعية فى دائرة اختصاصه إلى مديرين آخرين .

قدمت الملكة وبناتها والدوفين وغيرهم من حزب المتدينين فى الحاشية التماسهم من أجل اليسوعيين لكن شوازيل وبمبادور نصحا الملك بالإذعان للبرلمان ، وإغلاق المدارس اليسوعية

وفى ٦ أغسطس ١٧٦٢ أعلن أن جماعة يسوع لا تلتئم مع قوانين فرنسا ، وأن الأيمان التى أقسمها الأعضاء طعنت ولاءهم للملك ، وأن خضوع الجماعة لسلطة أجنبية (البابا) جعل منها هيئة أجنبية داخل الدولة ، وبناء على ذلك أصدر البرلمان أمراً بحل الجماعة فى فرنسا ، وتخلى كل الجزويت ــ خلال ثمانية أيام ــ عن كل ممتلكاتهم ، ومصادرتها لصالح الملك ، وبلغت قيمة الممتلكات التى صودرت ٥٨ مليوناً من الفرنكات .

استنكر كريستوف دى بومونت رئيس أساقفة باريس تصرفات البرلمان بشدة ، وعبرت

مجموعة من رجال الدين الفرنسيين سنة ١٧٦٥ عن حزنها وأسفها لحل الجماعة ، ودعت إلى إعادتها ، وأعلن البابا كليمنت فى مرسومه الرسولى براءة اليسوعيين ، فعد ذلك تدخلاً فى شئون فرنسا ، وأحرق المرسوم فى عدة دول .

وفى ١٧٦٧ قرر البرلمان مغادرة كل اليسوعيين أرض فرنسا ، وتبرأ قليل منهم من الطائفة ، وبقوا فى فرنسا .

وعبر دالمبير في كتابه : (تاريخ القضاء على اليسوعيين) عن ابتهاجه بمصيرهم بقوله :

(إن القضاء على جماعة يسوع سيعود بأكبر النفع على العقل ، شريطة ألا يرقى تعصب الجانسنيين إلى مستوى تعصب اليسوعيين .. وإذا كان لنا أن نختار بين هاتين الطائفتين ، فإننا نؤثر جماعة يسوع التى هى أقل طغياناً وجوراً ، فإن الجزويت الذين يخدمون الناس ، ويتكيفون معهم ، شريطة ألا يعلن المرء عداءه لهم ـ أجاروا للمرء أن يفكر كيفما شاء ، أما الجانسنيون فإنهم يفرضون على كل الناس أن يفكروا كما يفكرون هم ، ولو قدر لهم أن يسودوا ، لتحكّموا فى طرق التفكير والتعبير والسلوك) .

وكأنما أراد برلمان باريس الذى يسيطر عليه الجانسنيون أن يعلن عن توجهه الاستبدادى ، فأصدر سنة ١٧٦٢ ـ نفس العام الذى حلت فيه جماعة اليسوعيين ـ أمراً بإحراق (إميل القرن الثامن عشر) لروسو ، وهو كتاب لا يتعارض مع الدين نسبياً ، وفى سنة ١٧٦٥ أمر ذات البرلمان بحرق قاموس فولتير الفلسفي .

وعندما حل البابا كليمنت الرابع عشر جماعة يسوع بأسرها سنة ١٧٧٣ أبَى فردريك السماح بنشر المرسوم البابوى فى مملكته ، وظل اليسوعيون يحتفظون بممتلكاتهم ونشاطهم فى بروسيا وسيليزيا .

* أدى طرد اليسوعيين من البرتغال سنة ١٧٥٩ ، ومن فرنسا (١٧٦٤ ـ ١٧٦٧) ومن أسبانيا ونابلى سنة ١٧٦٧ ، إلى أن يواصلوا نشاطهم وسط وشمالي إيطاليا ، وفى سيليزيا وبروسيا وبولنده ، وفى ٧ فبراير ١٧٦٨ طردوا من دوقية بارما البوربونية ، وأضيفوا إلى حشد اللاجئين فى ولايات الكنيسة ، واحتج البابا كليمنت الثالث عشر بأن بارما إقطاعية بابوية ، وهدد الدوق فرديناند السادس ووزراءه بالحرم ، إذا نفذ مرسوم الطرد ، فلما أصروا أصدر مرسوماً أعلن فيه مصادرة رتبة الدوق ولقبه وإلغاءهما .

شنت الحكومات الكاثوليكية فى أسبانيا ونابلى وفرنسا حرباً على البابوية ، واستولى نانونتشى على مدينتى بنيفنتو وبونتيتكورفو البابويتين ، واحتلت فرنسا أفنيون .. وفى ١٠ ديسمبر ١٧٦٨ قدم السفير الفرنسى فى روما ـ باسم فرنسا ونابلى وأسبانيا ـ إلى البابا بسحب المرسوم الموجه ضد بارما ، وإلغاء جمعية اليسوعيين ، فانهار الحبر الأعظم تحت وطأة هذا الإنذار ، ودعا لعقد مجمع من المطارنة والمبعوثين فى ٣ فبراير ١٧٦٩ لدراسة الأمر ، وفى ٢ فبراير خر صريعاً بانفجار عرق فى دماغه ، وهو بعد فى السادسة والسبعين .

وفى ١٩ مايو ١٧٦٩ انتخب كليمنت الرابع عشر بإجماع الكرادلة الأربعين ، وكان فى الثالثة والستين .

فألفى نفسه واقعاً تحت رحمة الدول الكاثوليكية ، إذ أصدر شوازيل المسيطر على الحكومة الفرنسية إنذاراً بأنه (إذا لم يستطع البابا التوصل إلى تفاهم مع فرنسا ، ففى استطاعته أن يعتبر كل علاقاته معها منتهية) .. وخضع كليمنت ، حتى يعيد ترتيب أوراقه ، فكتب إلى الملك شارل الثالث ملك أسبانيا (١٧٥٩ ـ ١٧٨٨) (سأرفع إلى حكمة جلالتكم وذكائكم خطة للقضاء المبرم على الجمعية) ، وأمر مساعديه بمراجعة السجلات ، وتلخيص تاريخ (الجمعية) وإنجازاتها وجرائمها المزعومة ، ورفض التسليم بما طالب به شوازيل ، ثم أذعن فى النهاية .

هذا بينما كانت أسبانيا تعدُّ للقضاء على (الجمعية) .

* لقد اكتشف الملك مواهب الكونت أراندا ، فعينه رئيساً لمجلس قشتالة ، كان أراندا قد درس التنظيم العسكرى فى بروسيا ، واتصل باليسوعيين الفرنسيين ، واستطاع كسب الملك فى إجراء إصلاحات دينية .

أخذ أراندا ومساعده المثقف كامبومانيس فى الاستعداد سراً لضرب اليسوعيين ضربة مفاجئة ، فأرسل رسائل مختومة ممهورة بتوقيع الملك فى مطلع ١٧٦٧ إلى الموظفين فى جميع أرجاء الإمبراطورية ، مشفوعة بالأمر بعدم فضها إلا فى ٣١ مارس فى أسبانيا ، وفى ٢ أبريل فى المستعمرات ، وإلا كان الموت عقاب المخالفين .

وفى ٣١ مارس استيقظ اليسوعيون الأسبان ليجدوا بيوتهم ومدارسهم يطوقها الجنود ، ويجدوا أنفسهم معتقلين ، وأمروا بالرحيل فى هدوء ، غير مصطحبين سوى ما يطيقون حمله ، أما سائر ممتلكاتهم فقد صادرتها الدولة ، ومنح كل ميعد معاشاً صغيراً ، يوقف إن

عارض فى طرده ، ثم أخذوا تحت الحراسة العسكرية فى عربات إلى أقرب ميناء ، وأركبوا السفن إلى إيطاليا .. وبعث شارل إلى البابا كليمنت الثالث عشر يخبره بأنه (بنقلهم إلى الأراضى الكنسية ، ليظلوا تحت إشراف قداسته الحكيم العاجل .. وإنى لأرجو من قداستكم ألا تعتبروا هذا القرار إلا احتياطاً مدنياً لا غنى عنه ، لم أتخذه إلا بعد البحث الناضج والتفكير العميق) .

ولقى اليسوعيون فى غضون هذا الوقت النفى المماثل من نابلى وبارما وأمريكا الأسبانية والفلبين .

ناشد البابا الملك شارل أن يلغى هذه المراسيم التى سيصعق العالم المسيحى كله لا محالة ، لما فيها من مباغتة وقسوة ، فأجاب شارل : (إننى ــ لرغبتى فى أن أعفى العالم من فضيحة كبرى ــ سأظل ما حييت مخبئاً فى قلبى سر المؤامرة النكراء التى اقتضت هذه الصرامة ، وينبغى لقداستكم أن تصدقوا كلمتى ، فسلامة حياتى تفرض على الصمت العميق) .

وفى ٢١ يولية ١٧٧٣ وقع البابا كليمنت الرابع عشر رسالته التاريخية التى جاء فى ختامها : (.. فإننا بعد الفحص المتأنى ، ونتيجة لمعرفتنا الخاصة ، وبحكم كمال سلطتنا الرسولية ــ نحل ونلغى ، بمقتضى هذه الرسالة البابوية ، جمعية اليسوعيين ، ونبطل ونلغى كل مناصبها ووظائفها وإداراتها ، ودورها ، ومدارسها، وكلياتها ، وخلواتها ، وملاجئها ، وسائر المؤسسات التى تخصها ، على أى وجه كان ، وفى أى إقليم أو مملكة أو دولة لها وجود فيها) .

وبعد عام من هذا المرسوم ، أو يزيد قليلاً ، أسلم الروح ، وكثرت الشائعات بأن عقله اختل فى الشهور الأخيرة ، وتولى بعده بيوس السادس فى ١٥ فبراير ١٧٧٥ ، ورتب حلاً وسطاً لليسوعيين مع فردريك الرابع ، وفى سنة ١٧٩٣ انضم للحلف المعادى لفرنسا الثائرة ، فلما دخل جيش نابليون روما سنة ١٧٩٨طالب البابا بالتخلى عن كل سلطاته الزمنية ، فأبى ، فاعتقل ، وظل فى السجن حتى توفى فى ٢٩ أغسطس ١٧٩٩ ، أما خليفته بيوس السابع ، فقد جعل رد جمعية اليسوعيين إلى سابق عهدها سنة ١٨١٤ جزءاً من انتصار التحالف على نابليون .

الجانسنيون ..

وللدور الذى لعبه الجانسنيون فى محنة الجزويت نلقى ضوءاً على هذه الجماعة .

كان كورنيليس جانسن هولندياً ، التحق بجامعة لوفان الكاثوليكية سنة ١٦٠٢ ، وفى سنة ١٦١٦ كان رئيساً لبيت الطلاب الهولنديين فى لوفان ، وهاجم لاهوت اليسوعيين فى حرية الإرادة ، وبشر بيبوريتانية صوفية ، وصار أستاذاً لتفسير الكتاب المقدس بلوفان ، وأسقفاً لأيبر .

ترك عند موته سنة ١٦٣٨ رسالة كبيرة - لم يتم إنجازها - بعنوان (أوغسطينوس) ، ما لبثت بعد نشرها سنة ١٦٤٠ أن أصبحت البرنامج العقائدى « للبور - رويال » ، ومثار الجدل اللاهوتى الكاثوليكى الفرنسى طوال قرن تقريباً .

لقد قبل جانسن الجبرية قبولاً تاماً ، كما قبلها أوغسطين ولوثر وكلفن من قبل ، حتى قبل أن يخلق الله العالم اختار - تعالى - أولئك الذين يسعى أن يخلصوا ، وقرر من ينبغى أن يهلكوا ، وأعمال البشر الصالحة - وإن تكن ذات قيمة - لا يمكن أن تكسبهم الخلاص ، دون معونة من النعمة الإلهية ، وقليلون هم الذين سيخلصون حتى بين القلة الصالحة .

وبناء على هذا ، فإن إرادة الإنسان ليست حرة ، فقد فقدت حريتها بخطيئة آدم (!!) وأصبحت طبيعة الإنسان الآن فاسدة فساداً يعجزه عن تخليص نفسه ، ولا يمكن أن يخلصه غير نعمة الله التى اكتسبها بموت المسيح ، أما دفاع اليسوعيين عن حرية الإرادة فقد بدا لجانسن أنه يغالى فى دور الأعمال الصالحة فى نيل الخلاص ، ويجعل موت المسيح ذلك الموت الذى افتدى الخطاة أمراً لا ضرورة له تقريباً .. ثم نبه جانسن إلى أننا يجب ألا نأخذ المنطق مأخذ الجد الشديد ، فالعقل ملكة أدنى من الإيمان الواثق المسلم ، تماماً كما أن الممارسات الطقسية ضرب من الدين أدنى من اتصال النفس المباشر بالله .

وقد أدان البابا أوربان الثامن سنة ١٦٤٢ العقيدة العامة التى انطوى عليها كتاب جانسن (أوغسطينوس) .

وأصدر إنوسنت العاشر سنة ١٦٥٣ مرسوماً يحكم بالهرطقة على خمس قضايا وردت فى هذا الكتاب .

واحتج الجانسنيون بأن القضايا بهذا الوصف لم ترد عن جانسن .

وقد بزر الجانسنيون فى مجال الأعمال والمهن والقانون ، بالرغم من معاركهم الطويلة مع اليسوعيين وكادوا يهيمنون على البرلمان فى باريس وغيره من البرلمانات .. وبعد موت زعيمهم اللاهوتى المتقشف فرانسوا دى باريس سنة ١٧٢٧ ، حج الجانسنيون المتحمسون إلى مقبرته في سان ميدارد ، وهناك جلدوا أنفسهم بالسياط حتى أصابت بعضهم نوبات من التشنج ، ومن ثم سموا (المتشنجين) ، وتوجعوا وبكوا وابتهلوا إلى الله أن يمس عليهم بالشفاء ، وادعى كثير منهم أنهم برئوا بمعجزة ، وبعد ثلاثة أعوام من هذه الأحداث أغلقت السلطات هذه المقابر ، وكما قال فولتير : (حرم على الله بأمر من الملك أن يأتى بمعجزات هناك) ، وانقطعت التشنجات .

واستجابة لإلحاح الأساقفة الفرنسيين أصدر البابا الإسكندر السابع فى ١٦ أكتوبر ١٦٥٦ مرسوماً يلزم جميع رجال الكنيسة الفرنسية بالتوقيع على الصيغة التالية :

(إنى أخضع بإخلاص لدستور البابا إنوسنت العاشر المؤرخ فى ٢١ مايو ١٦٥٣ حسب معناه الحقيقى الذى هو دستور أبينا الأقدس البابا الإسكندر السابع المؤرخ فى ٦ أكتوبر ١٦٥٦ ، وأقر بأنى ملتزم فى ضميرى بطاعة هذين الدستورين ، وأدين بقلبى وفمى التعليم الوارد فى قضايا كورنيلس جانسن الخمس المحتواة فى كتابه المعنون : « أوغسطينوس ») .

وفى سنة ١٧٠٥ أصدر البابا كليمنت الحادى عشر إدانة صريحة للجانسنية ، ولم يبق على قيد الحياة فى (البور - رويال) آنئذ سوى خمس وعشرين راهبة ، أصغرهن فى الستين ، وترقب الملك موتهن بفارغ الصبر .

وفى ٢٩ أغسطس ١٧٠٩ أحاط الجند بالدير ، وأطلعوا الراهبات على رسالة ملكية مختومة ، تأمر بتفريقهن فوراً ، وسمح لهن بخمس عشرة دقيقة يجمعن فيها أمتعتهن ، ودفعن داخل مركبات ، وشتتن فى مختلف الأديار .

وفى سنة ١٧١٠ هدمت مبانى الدير الشهير[1] ، وسويت بالتراب .

* * *

(١) كان على بعد ستة عشر ميلاً من باريس ، فى مكان وطىء تكتنفه المستنقعات ، وتحت قيادة الأم أنجيليك صار له دور كبير بعد أن أخذ بالآداب الجانسنية .

مزيد من التشرذم ..

اللامعمداتيون ..

هم دعاة إعادة التعميد بعد البلوغ ، ليكون تلقى المسيحية عن علم واختيار .

وقد انشعبت هذه الطائفة إلى طوائف ، أما الذين اتبعوا (هانزدنك) و (لودفيج هيتزر) فقد أنكروا ألوهية المسيح ، فهو فى نظرهم ليس إلا أشد الناس ورعاً ، وقد كفّر عن خطايانا ، لا بعذابه فوق الصليب ، ولكن لأنه كان قدوة لنا في حياته .. ورفع (دنك) من قدر ضمير الفرد ، وجعله فوق الكنيسة والدولة ، بل والكتاب المقدس ذاته ، واتبع معظم اللامعمدانيين منهجاً تطهرياً ، يتسم بتزمت الأخلاق ، وبساطة السلوك والزى ، ولقد شجعهم رأى لوثر المتهور القائل بحرية المسيحيين، فأدانوا كل حكم يقوم على العنف واستنكروا كل مقاومة للحكومة بالعنف ، ورفضوا قبول الخدمة العسكرية ، على أساس أن المرء يرتكب إثماً لاشك فيه إذا قضى على حياة إنسان ، وأبوا أن يحلفوا اليمين مثل المسيحيين الأوائل ، ولم يستثنوا يمين الولاء للأمير أو الملك .. ونادوا بشيوعية الأمتعة ، وقيل إنهم اقترحوا شيوعية الأزواج ، ودافعوا عن مبدأ العون الاختيارى المتبادل ، وتمسكوا بأن الشيوعية سوف تكون آلية وشاملة فى ملكوت السماء ، واستلهموا سفر الرؤيا ، وتوقعوا عودة المسيح المبكرة ـ بصفة يقينية ـ إلى الأرض ، وحدد بعضهم اليوم والساعة .

وتكونت طائفة منهم فى زيورخ باسم (الروحانيين) أو (الإخوان) ، أخذت تبشر بالتعميد عند البلوغ ، وبمجىء المسيح ، ورفضت الاعتراف بالكنيسة والدولة ، واقترحت وضع نهاية لتقاضى الفائدة والضرائب والمشور ، وإلغاء الخدمة العسكرية ، وتحريم حلف اليمين .

وقد شجع النجاح الذى أحرزته حرب الفلاحين فى ربيع ١٥٢٥ طبقات الملاك فى المدن السويسرية على اتخاذ إجراءات قمع شديدة ، فأمر مجلس زيورخ ـ بعد فشل ثورة الفلاحين ـ بزج كل المعمدانيين المتشبثين بآرائهم فى سجن البرج ، ليعيشوا على الخبز القفار والماء (حتى يموتوا وتبلى أجسادهم) ، وأغرق هانز ، أما هيتزر فقد قطع رأسه فى كونستانس بتهمة اللامعمدانية والزنا .

وفى ١٥٢٨ أصدر شارل الخامس مرسوماً ينص على أن إعادة التعميد يعد جريمة

عظمى ، وصدق مجلس سبيير (Speyer) النيابى على هذا المرسوم سنة ١٥٢٩ ، وأمر بإعدام اللامعمدانيين أينما وجدوا ، وحالما يقبض عليهم ، كما يقضى على الوحوش المفترسة ، دون أية محاكمة .

وما إن حل عام ١٥٣٠ حتى لم يبق فى سويسرا إلا عصابات سرية لايؤبه لها .

يقول سباستيان فرانك أحد المعاصرين : إنه ما حل عام ١٥٣٠ حتى كان قد أعدم ٢٠٠٠ لامعمدانى ، وفى إنزيشام إحدى مدن الألزاس أعدم ٦٠٠ ، وفى سالزبورج سمح لمن تاب منهم بأنه يقطع رأسه قبل وضعه على المحرقة ، أما الذين لم يتوبوا فقد شويت أجسادهم على نار بطيئة سنة ١٥٢٨ .

وأسس هوت وأتباعه مركزاً شيوعياً فى أوسترالينز . واقتصر هؤلاء اللامعمدانيون على فلاحة الأرض والأعمال الصغيرة ، وحافظوا على شيوعيتهم زهاء قرن تقريباً ، وأسبغ الأشراف من ملاك الأرض حمايتهم عليهم ، لأنهم كانوا مصدر ثراء لضياعهم .

وفى الأراضى المنخفضة بشر ملشيور هوفمان ـ وهو دباغ من سوابيا ـ بإنجيل لا معمدانى ، لافى نجاحاً فائقاً ، وانتهى تلميذه جان ماتيس فى ليدن إلى الرأى القائل بأنه لن يكون فى الوسع الانتظار فى أناة لمجىء أورشليم جديدة ، بل تجب المبادرة إلى تحقيقها فوراً ، وبالقوة إذا لزم الأمر.. وأوفد فى أرجاء هولندة اثنى عشر رسولاً لإعلان الأخبار السارة ، وكان أقدرهم حائك صغير السن ، عرف باسم جون الليدينى الذى سعى إلى الثورة بالرغم من عدم تأييد اللامعمدانيين الألمان والهولنديين.

وسيطر الثوار على منستر فى ١٠ فبراير ١٥٣٤ ، وفى أبريل أصبح جون الليدينى حاكم المدينة .. لكن مالبثت المدينة أن سقطت فى ٢٤ يونية ١٥٣٥ ، وربط الليدينى واثنان من أنصاره على الساريات ، وخمش كل جزء من أجسادهم بكماشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار ، حتى أصيب بالغثيان من كانوا وقوفاً فى السوق من الرائحة المنتنة ، وشدت ألسنتهم حتى تدلت من أفواههم ، وأخيراً طعنت قلوبهم بالخناجر .

البيوريتانز ..

كانوا علم معرفة بأفكار ويكلف وجون نوكس وكلفن ، وقد اتخذوا من الإنجيل دليلاً لا يخطىء ، فلم يجدوا فيه شيئاً عن السلطات الأسقفية ، والملابس الكهنوتية التى نقلتها إليزابث عن الكنيسة الرومانية إلى الكنيسة الإنجيليكانية .. ورفضوا أية رقابة من الدولة على

الكنيسة ، وتمنوا أن تكون لديانتهم الرقابة على الدولة .

وفى حوالى سنة ١٥٦٤ طالب (البيوريتانز) المتطهرون بتطهير المذهب البروتستانتى الإنجليزى من كل الطقوس والعادات غير الواردة فى (العهد الجديد) ، وتمسكوا بنظريات القضاء والقدر ، والاصطفاء ، واللعنة الأبدية ، وأحسوا أنه لا مهرب من الجحيم إلا بإخضاع كل نواحى الحياة للدين والأخلاق .

ومن رأيهم أن السيد المسيح كان قد استن أن يعهد بالسلطة الكنسية إلى الكهنة وكبار السن من العلمانيين .

وأسست أول أبروشية إنجليزية – على هذه المبادئ – فى واندزورث (Wandsworth) سنة ١٥٧٢ ، وكانت كنائس (مشيخيات) مماثلة فى المقاطعات الشرقية والوسطى .. وفى هذا الوقت كانت أغلبية البروتستانت فى لندن وفى مجلس العموم من البيوريتانز .

واستحسن الحرفيون فى لندن هجوم البيوريتانز على النظام الأسقفى وعلى الطقوس ، ونظر رجال الأعمال فى العاصمة إلى البيوريتانية على أنها حصن منيع للبروتستانتية ضد الكاثوليكية ، وحتى المقربون إلى الملكة وجدوا بعض الخير فى البيوريتانية .. لكن إليزابث أحست بأن هذه الحركة تهدد كل التسوية التى دبرتها لتهدئة الصراع الدينى ، فشجعت الأساقفة على التشكيل بمثيرى الفتنة ، وأوقف رئيس الأساقفة باركر مطبوعاتهم ، وأخرس ألسنتهم فى الكنائس ، ومنع اجتماعاتهم . وكان البيوريتانز من رجال الدين ينظمون اجتماعات للمناقشة العامة فى نصوص الكتب المقدسة ، فأمرت إليزابث باركر بوضع حد لهذه المواعظ .

وأصدر البرلمان سنة ١٥٩٣ قانوناً ينص على أن كل من يعترض على السيادة الدينية للملكة ، أو يتغيب عمداً عن الصلوات فى الكنيسة الإنجليكانية ، أو يشهد اجتماعات أو صلوات سرية غير مشروعة ، أو لقاءات تحت ستار ممارسة العقيدة أو ادعاء ممارستها – يعاقب بالسجن ، فإذا لم يتعهد بالتزام العقيدة الرسمية فعليه أن يغادر انجلترا دون رجعة ، وإلا كان جزاءه الموت .

كانت المسارح قد أغلقت سنة ١٦٤٢ بسبب الحرب ، وظلت مغلقة حتى سنة ١٦٥٦ بسبب شغب البيوريتانز واستنكارهم لها ، وحرم سباق الخيل ، ومصارعة الديكة ، ومباريات المصارعة ، ومطاردة الدببة أو الثيران ، إلى حد أن الضابط البيوريتانى نيوسن قتل كل الدببة فى لندن ، ليتأكد من أنها لن تطارد بعد الآن ، واقتلعت أعمدة مايو التى زينت

بالأشرطة والزهـور ، وكان الجمال شبهـة ، والنساء مصدر غـواية وإغـراء ، لأنهن سبب طرد الإنسان من الجنـة .. ونفروا من الموسيقى ما عـدا التراتيل الدينية وقضوا على الفـن فى الكنائس .

الكويكرز ..

فرع بيوريتانى ، تمثلت فيه فضائل الطائفة ، وكانت خشية الله والخوف من الشيطان قويين جداً فيهم ، إلى حد يصيب أجسادهم برعدة .

أسس هذه الجماعة جورج فوكس(١٦٢٤ ـ ١٦٩١)بعد أن اشمأز ـ وهو شاب ـ من منظر بعض رجال الدين السكارى ، فصمم أن يجدَّ فى طلب حياة مسيحية على أعلى مستوى ، بحيث تقاوم التحلل الخلقى الذى انتشر فى انجلترا بعد الحرب الأهلية .

كان له سنة ١٦٤٦ (اختبار روحى تغييرى) ، فقد توصل إلى اعتقاد راسخ بأن كل إنسان يتلقى من الرب مقداراً من النور ، وأنه إذا اتبع النور الداخلى فسوف يؤدى به إلى نور الحياة وإلى الحق الروحى ، وإذا كان الله يظهر نفسه فى الكتاب المقدس فإنه يظهر نفسه أيضاً فى النور الداخلى ، وأن على الناس لبلوغ الغفران والخلاص إطاعة هذا الضياء ، والعمل على إظهاره للعيان ، عن طريق المحبة والتجاوز عن الإساءة ، ومقابلة الشر بالخير ، ويتفرع عن هذه المبادئ تقرير جمعية الأصدقاء (الكويكرز) عدم مشروعية الحرب مهما بلغت دواعيها ، ذلك لأن الحرب شر يخالف طبيعة الرب ، لأن الله محبة ، ويجب عدم إطاعة الشر ، بل القضاء عليه ، عن طريق تعريضه لضياء الرب فى القلوب ، أو بواسطة التسامح .. عندما كانت الشرطة تهاجم هذه الجماعة وتعتدى على أفرادها ، كانوا يمتنعون عن إبداء أية مقاومة .. من هنا قيل إن غاندى تأثر بهذه الجمعية .

ومن بين هذه المبادئ نبت مذهب فوكس الذى رفض كثيراً من نظم الكنيسة وممارستها ، فلا حاجة إلى خدام مخصوصين ، فكل إنسان خادم نفسه ، ولا حاجة إلى ممارسة خدمة الأسرار المقدسة خارجياً .. وقال فى تعليل اسم الكويكرز : (إن القاضى بينت ـ من دربى ـ هو أول من أطلق علينا هذا الاسم ، لأننا كنا نأمرهم بالاهتزاز عند ذكر كلمة الله ، وهذا كان سنة ١٦٥٠) ، أما الاسم الذى أطلقوه على طائفتهم فهـو « أنصار الحق » ، ثم « مجتمع الأصحاب » أو الأصدقاء .

قال روبرت باركلى ـ وهو أحدهم ـ سنة ١٦٧٩ :

(إن قوة الله سوف تقتحم الاجتماع الشامل ، ومن ثم سوف يكون هناك جهد باطنى ، حين يحاول كل فرد أن يقهر قوى الشر فى النفوس ، إلى حد أنه بإعمال هاتين القوتين المتعارضتين ، وكأنهما تياران متضادان ، يجهد الإنسان نفسه ، وكأنه فى يوم المعركة ، ومن هذا يكون اهتزاز الجسم وحركته فى معظم الناس ، إن لم يكن كلهم ، وهى هزات وحركات تنتهى ـ بعد أن تسود قوى الحق من الوخزات والأنات ـ بصوت رخيم من الشكر والحمد ، ومن هنا أطلق اسم الكويكرز أى المهتزين ، علينا ، وكان هذا من باب اللوم والتأنيب والسخرية فى بادئ الأمر) .

ترك جورج فوكس عمله وأهله (بأمر من الله) ، ومضى فى (رحلة روحية) قال عنها :

(بينما كنت أسير فى الحقول قال لى الله : اسمك مكتوب فى سجل الحياة لدى المسيح الذى وجد قبل خلق العالم) .

ووقر فى نفسه أنه من بين القلة التى اختارها الله قبل الخليقة لتتلقى نعمته ورحمته وبركته الأبدية ، وأحس آنئذ أنه مساو لأى إنسان ، وما منعه زهوه بهذا الاصطفاء الإلهى (أن أخلع قبعتى لأى إنسان ، حقيراً أو أميراً ، وأنتم فى حاجة إلى أيها الرجال والنساء ، دون اعتبار لغنى أو فقير ، عظيم ، أو حقير) .

وفى (دربى) تحدث مهاجماً الكنائس والأسرار المقدسة ، فحكم عليه بالسجن سنة ١٦٥٠ ، ومن سجنه كتب إلى القضاة والحكام ، معترضاً على عقوبة الإعدام .

هاجمه البيوريتانيون والمشيخيون والإنجليكانيون لأنه نبذ الأسرار المقدسة والكنائس والقساوسة ، وأرسل أتباعه إلى السجون ، لا لأنهم انتهكوا حرمة العبادات العامة ، وأغروا الجنود بالكف عن الاشتراك فى الحرب ، فحسب ، بل لأنهم رفضوا كذلك يمين الولاء للحكومة .

اجتمع كرومويل مع فوكس فى لقاء ودّى سنة ١٦٥٤ ، وفى سنة ١٦٥٧ أصدر (حامى الحمى) توجيهاته بالإفراج عن المسجونين من الكويكرز ، كما أصدر تعليماته إلى القضاة بحسن معاملتهم ، لأنهم (أشخاص واقعون تحت وهم شديد) .

كانوا لا يخاطبون أحداً إلا بضمير المفرد (أنت) ، ونبذوا الأسماء الوثنية لأيام الأسبوع ، وشهور السنة ، وكانوا يقولون مثلاً : (اليوم الأول من الشهر السادس) ، وأقاموا

الصلوات في العراء ، أو بين الجدران ، بنفس السهولة واليسر وطيب النفس ، وكان كل فرد يدعي ليخبر بما أوحي إليه الروح القدس أن يقول ، ثم يروح الجميع بعد ذلك في صمت يكلله الجلال والخشوع .

في سنة ١٦٦٠ بلغ عدد الكويكرز في انجلترا ستين ألف (صديق) ، وبسبب ما اشتهروا به من أمانة وكياسة وجدّ وبعد من الإسراف — ارتفعت مكانتهم الاجتماعية .

أنصار المساواة ..

نشأ هذا الحزب سنة ١٦٤٧ في (البرلمان الطويل) ، يدعو إلى إزالة الفوارق بين الناس ، لأنه لا مبرر لأن يكون هناك أغنياء وفقراء ، وأن ينضور بعض الناس جوعاً ، على حين يموت آخرون من التخمة .

وفي إبريل ١٦٤٩ ظهر (نبي) يدعي وليم إفرارد (Evrard) قاد أربعة من الرجال إلى تل سان جورج في (سرى) ، ووضعوا أيديهم على أرض غير مشغولة ، وفلحوها ، ونثروا البذور ، ودعوا الناس إليها ، وتسمّوا (جماعة الأخيار) .

وفي ٢٦ إبريل أصدر أحدهم ، وهو جيرارد ونستانلي ، بياناً تحت عنوان (لواء نصير المساواة الصادق يتقدم إلى الأمام) ، جاء فيه : (في البدء جعل العقل — الخالق العظيم — الأرض ملكاً مشتركاً للحيوان والإنسان ، لكن الإنسان فيما بعد عميت بصيرته ، فأصبح عبداً أكثر خضوعاً لبني جنسه من خضوع حيوانات الحقل لشخصه هو ، وجرى التصرف في الأرض بالبيع والشراء ، وأحاطها الحكام بالحواجز والأسياج ، وبقيت في حوزة فئة قليلة من الناس، وكل ملاك الأرض لصوص ، ولن تنقطع الجريمة والكراهية والبغضاء ، ما لم تسترد الملكية العامة المشتركة) .

وفي قانون الحرية سنة ١٦٥٢ توسل ونستانلي إلى جمهورية كرومويل (١٦٤٩ — ١٦٦٠) أن تقيم مجتمعاً لا يوجد فيه بيع ولا شراء ، ولا محامون ، ولا أغنياء ولا فقراء ، يجبر فيه الجميع على العمل حتى سن الأربعين ، وبعد ذلك يعفون من الكدح ، ويباح حق الانتخاب لكل البالغين من الذكور ، ويكون الزواج مدنياً ، والطلاق مباحاً ، وتخلى حزب (أنصار المساواة) عن مشروعهم ، لكن أفكارهم نفذت إلى عقول الفقراء الإنجليز ، وربما عبرت القنال إلى فرنسا ، وعبرت المحيط إلى أمريكا .

الهيجونوت ..

كان الهيجونوت وغيرهم من البروتستانت الفرنسيين يعدون خارجين على القانون .. ومن ثم فزوجة البروتستانتي ـ في نظر القانون ـ عاهر ، وأبناؤها غير شرعيين ، لا حق لهم في الميراث .

وفي عهد لويس الخامس عشر شنت ضدهم عدة حملات اضطهاد وتعذيب .

وفي سنة ١٧١٧ قبض على أربعة وسبعين فرنسياً يقيمون الشعائر البروتستانتية ، وأرسلوا للتجديف في القواديس ، أو المراكب الشراعية ، وزج بزوجاتهم في السجن .

وقضى مرسوم صدر سنة ١٧٢٤ بعقوبة الإعدام على الوعاظ البروتستانت ، وبمصادرة أملاك كل من يشهد اجتماعات البروتستانت ، مع إرسال الرجال للتجديف في السفن الشراعية ، وحلق شعور النساء واعتقالهن .

وفي سنة ١٧٤٩ أمر برلمان بوردو بالتفريق بين ٤٦ زوجاً وزوجة ، تم زواجهم وفق الطقوس البروتستانتية ، وكان يتم انتزاع الأطفال الذين يشتبه في أن آباءهم من البروتستانت لتنشئتهم على الكاثوليكية .

وفيما بين عامي ١٧٤٧ ـ ١٧٥٣ سجن نحو ٦٠٠ بروتستانتي ، وحكم على ٨٠٠ آخرين بعقوبات مختلفة .

وفي سنة ١٧٥٢ شنق في مونبلييه الواعظ البروتستانتي بينز ، البالغ من العمر ستة وعشرين عاماً .

وبقي في فرنسا مليون ونصف من البروتستانت ، بعدما واصل مازاران سياسة ريشيليو وطورها في حماية حرية الهيجونوت الدينية ، ماداموا مطيعين سياسياً ، وقدر كولبير نشاطهم التجاري والصناعي .

وفي سنة ١٦٦٠ طلب مجمع إكليريكي إلى الملك أن يغلق جميع الكليات والمستشفيات الهيجونية ، وأن يحرم الهيجونوت من الوظائف العامة .

وفي سنة ١٦٦٤ جعلت الترقية إلى طبقة معلمي الحرف ، في الطوائف الصناعية ، عسيرة إلا على الكاثوليك .

وفي سنة ١٦٦٥ سمح للصبيان في الرابعة عشرة والبنات في الثانية عشرة بقبول اعتناق الكاثوليكية ، وترك آبائهم الذين يلزمون بأن يدفعوا لهم راتباً سنوياً لإعالتهم .

وفى سنة ١٦٦٦ حظر على الهيجونوت إنشاء كليات جديدة ، أو الاحتفاظ بمعاهد لتعليم أبناء الأشراف .

وفى سنة ١٦٦٩ تقرر اعتبار هجرة الهيجونوت جريمة يعاقب عليها المهاجر بالاعتقال إذا وقع فى قبضة السلطات ، ومصادرة بضائعه ، وكان كل من ساعد هيجونوتيا على الهجرة عرضة للحكم بتشغيله فى سفن الأسرى مدى الحياة .

وفى سنة ١٦٧٠ أوصى المجمع الإكليريكى بأن يعتبر الأطفال الذين بلغوا السابعة من عمرهم قادرين قانونياً على إنكار الهرطقة الهيجونوتية ، وأن الذين ينكرونها على هذا النحو ينبغى فصلهم عن آبائهم .

وفى سنة ١٦٧٥ طالب بأن يعلن بطلان الزيجات المختلطة ، وأن يعتبر نسل هذه الزيجات غير شرعى .

وفى سنة ١٦٧٠ تقريباً كتب لويس الرابع عشر فى مذكراته :

(قد آمنت أن خير وسيلة لتقليل عدد الهيجونوت فى مملكتى تدريجياً ، هو عدم الضغط عليهم بأى قيد صارم جديد . والأمر بمراعاة ما حصلوا عليه من أسلافى ، دون منحهم أكثر منه ، وقصر تنفيذه فى أضيق الحدود التى تجيزها العدالة واللياقة) .

ولما كان لويس فى حاجة إلى المال ينفقه على الحرب ، وعلى وسائل الترف وأبهة الملك ، فقد قدم رجال الدين منحاً كثيرة شريطة الاستجابة لمطالبهم ، وأعانت أسباب أخرى على إصدار مراسيم تحرم على البروتستانت العبادة فى معظم مقاطعة جكس ، قرب الحدود السويسرية ، بحجة أن جكس ضمت إلى فرنسا ، وكان يعيش فى هذا الإقليم سبعة عشر ألف بروتستانتى .

وفى سنة ١٦٨١ أمر (لوفوا) وزير الحرب المدبرين العسكريين لإقليمى بواتو وليموزان بأن ينزلوا خيّالتهم مساكن الهيجونوت ، لا سيما الأثرياء منهم ، وفى بواتو راح الجنود يسرقون الهيجونوت ويضربونهم ويهتكون أعراضهم .

وأدى هذا الاضطهاد إلى تظاهر أغلب الهيجونوت باعتناق الكاثوليكية . وهجر الألوف بيوتهم وأملاكهم ، عابرين الحدود ، متحدّين القوانين .

وخلال السنوات ١٦٨٣ ـ ١٦٨٥ أغلقت ٥٧٠ كنيسة من كنائس الهيجونوت البالغ عددها ٨١٥ وهدم الكثير منها .

وحين حاول الهيجونوت العبادة على أنقاض الكنائس المهدمة عدوا عصاة متمردين على الدولة .

وفي ١٧ أكتوبر ١٦٨٥ ألغي مرسوم نانت ، على أساس أن فرنسا أصبحت كلها كاثوليكية ، وحظر على الهيجونوت إقامة شعائرهم أو فتح مدارسهم ، وصدر الأمر بهدم كل أمكنة العبادة الهيجونوتية ، وتحويلها إلى كنائس كاثوليكية ، وأمر رجال الدين الهيجونوت بالرحيل عن فرنسا خلال أربعة عشر يوماً ، وحرمت هجرة غيرهم .

وأذن للجنود باقتراف كل جريمة غير القتل فكان يصب الماء المغلى فى حلوقهم ، وتضرب بطون أقدامهم ، وتنتف لحاهم ، وتحرق أذرعهم وسيقانهم بلهب الشموع ، ويكرهون على قبض الجمر الملتهب ، وألزم النساء بالوقوف عرايا وسط المارة الذين يسخرون بهن ويمتهنون كرامتهن .

وقد أدى هذا الاضطهاد إلى القضاء جزئياً على حركة التعمير الكبرى التى أدخلها كولبير على الاقتصاد الفرنسي ، ونزحت الصناعات التى جاهد فى سبيل تنميتها ، وساعد على توحيد أوربا البروتستانتية ضد فرنسا .

الميثودية ..

أسس هذه الحركة فى أكسفورد سنة ١٧٢٩ جون وسلى (١٧٠٣ ـ ١٧٩١) وأخوه .

كان الدين فى انجلترا أحط منزلة مما كان في أي فترة سابقة ، فلم يكن يختلف إلى الكنيسة من أعضاء مجلس العموم أكثر من خمسة .

وكان عمال المدن مهملين إهمالاً كلياً تقريباً من الإكليروس الإنجليكانى (كان هناك فرقة ضخمة تتألف من أدنى الطبقات ، أفرادها بعيدون من متناول التعليم ، أو الدين ، لا دين لهم ، ولم يعلموا ديناً قط) .

ومن ثم أحيا جون وسلي وجورج هوايتفيلد العقائد والآداب البيوريتانية إحياء قوياً ، وأسسا الكنيسة الميثودية .

وفى سنة ١٧٢٦ عين جون زميلاً بكلية لنكولن ، وفى سنة ١٧٢٨ رسم قسيساً إنجليكانياً .

وأخذ تشارلز وسلى يجمع فى أكسفورد جماعة من نحو خمسة عشر طالباً ومعلماً ، اعتزموا ممارسة المسيحية بدقة منهجية ، فخلع عليهم أعداؤهم ـ تهكماً وازدراء ـ اسمَيْ (النادى المقدس) و (الميثوديين) .

وفى سنة ١٧٣٥ دعا الجنرال أوجلثورب الأخوين جون وتشارلز لبرافقاه مبعوثين دينيين إلى جورجيا ، فلما وصلوا فى ٥ فبراير ١٧٣٦ أصبح تشارلز سكرتيراً للحاكم أوجلثورب ، وجون راعياً للجالية الجديدة ، ومرسلاً للهنود الحمر المجاورين .

كان جون لا يزال (كنسياً طقسياً شديد التزمت) ، لهذا أقصى عن تناول القربان رجلاً كريماً اعترف بأنه من المنشقين ، وأبى أن يقرأ صلاة الجنازة على مستعمر لم ينكر مذهبه المنشق قبل موته ، وحرم على النساء من رعيته أن يلبسن الملابس الغالية أو الحلى الذهبية ، وأقنع الحاكم أن يحرم صيد السمك وقنص الحيوان يوم الأحد .

أما جورج هوايتفيلد الذى ولد لصاحب نزل بجلوستر سنة ١٧١٤ فقد عمل سنة أو أكثر ساقى خمر لنزلاء أبيه ، ثم شق طريقه إلى كلية بمبروك بأكسفورد ، وكان من الرعيل الأول فى (النادى المقدس) وتبع الوسليين إلى جورجيا سنة ١٧٣٨ ، لكنه عاد إلى انجلترا فى خريف ذلك العام ، ليُرَسّم قسيساً إنجليكانياً .. وقرب (برستل) وعظ عمال مناجم الفحم الذين ندر أن جرءوا على دخول كنيسة ، أو اهتموا بدخولها .. كان صوته من الوضوح والقوة بحيث كان يصل إلى مسامع عشرين ألفاً ، وأثرت مقدرته الخطابية المشبوبة فى هؤلاء الرجال المتحجرين المرهقين ، حتى أسال دموعهم ، وكانت الجموع تتبعه أينما ذهب .

وفى سنة ١٧٦٩ قام بزيارته الثامنة للمستعمرات ، ومات بولاية ماساتشوستس فى العام التالى .

وحين عاد جون وسلى من هيرنوت أخذ بأسلوب هوايتفيلد فى الوعظ بالحقول والشوارع .

وفى حين كان هوايتفيلد يعظ الجمع وينصرف عنه ، كان وسلى ينظم أتباعه فى جماعات صغيرة ، فى المدينة بعد المدينة ، ويرشدهم إلى الثبات والاستمرار .. كانت اجتماعاتهم إحياء للقاءات المحبة التى استنها المسيحيون الأولون : أعياد من الفرحة الدينية

ومحبة الجماعة ، يعترف بعضهم لبعض بخطاياهم ، ويخضعون لفحص حياتهم الخلقية ، ويشتركون في الصلاة وترتيل التراتيل الورعة .

وفي هذه الجماعات المتحمسة درب جون وسلي وعاظاً علمانيين حملوا البشارة الجديدة إلى حيث لا يستطيع القادة البقاء ، فقد انتشر هؤلاء (المساعدون) ـ دون رسامة ودون أبروشيات محددة ، بمنبر أو بغير منبر ـ في أرجاء انجلترا واسكتلنده ، وويلز ، وأوصلوا مخاوف وآمال اللاهوت البروتستانتي إلى الطبقات العاملة .

كان وسلي نفسه يسافر إلى أقصى أركان انجلترا راكباً جواداً أو مركبة أو راجلاً ، وكثيراً ما كان يقطع ستين ميلاً في اليوم على مدى أربعين عاماً ، يعظ في كل مكان ، في سفينة ، في مركب ، في سجن ، في فندق .. حيث يتاح له .

كانت العقيدة البيوريتانية أساس وعظه ، لقد رفض الجبرية التي قبلها هوايتفيلد ، وأصر على ما دان به الجناح الأرمنيوسي من الكنيسة الرسمية ، وهو أن للإنسان من حرية الإرادة ما يكفيه لتقرير ما يختاره أو يرفضه من النعمة الإلهية ، ورفض كل لجوء إلى العقل، وأحس أن الدين يصل إلى أبعد ما يصل إليه المنطق الذي صنعه الإنسان ، وأنه يعتمد على الوحي الإلهي ، والاقتناع الباطن ، ولكنه ابتعد عن الصوفية ، بحجة أنها تترك كل شيء لله ، ولا تحفز الإنسان إلى التقوى النشيطة ، وشارك طبقته وزمانه معظم خرافاتهما .. كان يؤمن بالأشباح، والأصل الشيطاني للأصوات الغريبة، وبحقيقة السحر وإجرامه ، وقال : إن التخلي عن الإيمان بوجود السحر معناه التخلي عن الإيمان بالكتاب المقدس ، ولم يساوره شك في المعجزات ، وذهب إلى أنها تحدث كل يوم من أتباعه ، فكان الصداع ، أو الورم المؤلم ، أو الفتق الشديد ، أو الساق المكسورة ـ تشفى بصلواته ، أو صلوات الجماعة الميثودية ، وحكى عن فتاة كاثوليكية كانت تفقد بصرها كلما قرأت كتاب القداس الكاثوليكي ، لكنها تستعيده دائماً حين تقرأ العهد الجديد ، وقد قبل روايات النساء اللاتي زعمن أنهن رأين الملائكة أو المسيح ، أو الجنة أو النار ، وسجل في يومينه عدداً من الحالات التي عوقب بها خصوم الميثودية بعقوبات خارقة ، وتنبئنا اليومية عن خطاة غلبهم الألم البدني بعد سماعه ، فراحوا يتقلبون على الأرض من فرط العذاب ، بينما ركع مؤمنون آخرون إلى جوارهم ، وصلوا لخلاصهم من مس الشيطان .

وقد فسر وسلي التشنجات التي تصيب بعض المرضى بأنها مس شيطاني أعقبه شفاء إلهي .

إنه سمح بلعب الورق ، لكنه رأى من الإثم الذهاب إلى المهرجانات ، ولبس الحلي والملابس الغالية ، والاختلاف إلى المسرح ، أو المرقص ، ولم يخصص وقتاً للعب في المدرسة التي أنشأها في كنجزوود ، لأن (من يلعب وهو طفل سوف يلعب وهو رجل) .

كان يشك في أي نشاط لا ينتمي إلى الأخلاق المسيحية ، وعلى كل الفنون أن تخدم الهدف الأسمى لحياة مقدسة .

وقد اعتبر نفسه وكيلاً عن الله لصالح الفقراء ، وعندما كانت ترد إليه أموال التبرعات أو بيع الكتب كان يوزعها على المحتاجين ، وفي سنة ١٧٦٣ فتح مطعماً لتوزيع الحساء على المعدمين .. كتب مرة لأخته : (لا يستمر المال في حوزتي ، إنه يحرقني إذا بقي ، إني أنفضه من يدي لئلا يجد طريقه إلى قلبي) .

دعم (جمعية لإصلاح السلوك) واحتج على قسوة معاملة الحكومة الإنجليزية لأسرى الحرب الفرنسيين ، وهاجم تجارة الرقيق .

* قدر المحافظون وسلي ، لأنه أنقذ البريطانيين من الربوبية والإلحاد ، وحول تطلعات الفقراء من الثورة الاجتماعية إلى الخلاص الفردي ، ومن عالم مثالي على هذه الأرض إلى فردوس بعد الممات .

وكان وسلي يميل إلى المحافظة في السياسة ، وقد تقدم طبقنه في المطالبة ببعض الإصلاحات التي طال إغفالها ، فندد بنظام (الدوائر العفنة) ، وبتفاوت التمثيل النيابي في البرلمان ، وبفساد السياسة الإنجليزية الصارخ ، وبوحشية الرق ، وبأهوال السجون .

عارض أي انفراج في القوانين الموجهة ضد الكاثوليك ، ورفض الرأي بأن رسامة القسس لا تكون قانونية إلا على يد أسقف في سلسلة الأساقفة الرسوليين ، ورسم بنفسه قساوسة لإسكتلنده وأمريكا .

وحين قال (العالم أبروشيتي) كان يقصد أنه سيعظ حيثما شاء ، دون إذن أسقفي ، وفي الوقت نفسه كان يحض على عدم مخاصمة الإكليروس الإنجليكاني .

ومن هنا لقى مذهبه معاناة أقل على يد الكنيسة الرسمية مما لقى من العامة الذين لم يطيقوا الطرق الجديدة فى التبشير بالأفكار القديمة .

لقد هوجم وعاظ الهواء الطلق من غوغاء أسعدهم أن يكونوا قساة دون وعى أو ألم .. وفى مونموث ضرب واعظ علمانى بصخرة على رأسه فمات .. وفى ودنز برى حطموا جميع بيوت الميثودبين ، وآذوا نساءهم ، وضربوا رجالهم فلما ظهر وسلى طالبوا بدمه ، وصفقوا للذين ضربوه بالهـراوات .. وفى بولتن أغار جمع غاضب على البيت الذى كان يعظ فيـه ، فواصل عظته وسط وابل من البيض والحجارة .. وفى ديفيزيه صوبت طلمبة مائية على مسكن تشارلز وسلى ، وأطلقت الكلاب البولدوج على أتباعه .

ولما مات وسلى سنة ١٧٩١ كان أتباعه ٧٩ ألفاً فى انجلترا و ٤٠ ألفاً فى أمريكا الشمالية .

وفى سنة ١٩٥٧ بلغ عددهم مليونين ونصف المليون فى انجلترا ، واثنى عشر مليوناً فى أمريكا الشمالية ، و ٤٠ مليوناً فى العالم .

* يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ٩ ج ١ ص ١٩٧) : إن الميثودية كانت خطوة إلى الوراء ، لأن عقيدتها قامت على الخوف ، وشعائرها على العاطفة ، وأدانت العقل بوصفه فخاً للإنسان ، وعلقت كل آمالها على الإيمان فى الصراع الكبير بين الإيمان والعقل ، ولم تضع ثقتها فى تقدم المعرفة والعلم ، وتجاهلت أو احتقرت (التنوير) الذى أخذ يشعل النار فى فرنسا ، وشعرت الميثودية أن هدف الحياة ومعناها الوحيد هو الهروب من الهلاك الأبدى ، عن طريق الإيمان بالموت الفادى الذى ماته المسيح .

المـورمـون ..

أسس هذه الجماعة فى نيويورك سنة ١٨٣٠ جوزيف سميث (١٨٠٥ ـ ١٨٤٤) ، بعد أن ادعى أنه تلقى رؤيا خاصة من الله مطبوعة على لوحات من ذهب ، هذه اللوحات التى أصبحت ـ بعد ترجمتها ـ كتاباً مقدساً للمورمون ، بجانب ترجمة خاصة للكتاب المقدس ، طبعة الملك جيمس .

زعم سميث أنه نبى الدين الجديد ، لكنه استشهد سنة ١٨٤٤ على يد جمـاعة

معادية ، فتولى برجهام يوغ قيادة الجماعة ، ووطدوا أنفسهم ناحية الغرب فى مدينة سولت ليك .

وفى السنوات الأولى مارست الجماعة تعدد الزوجات ، وزعمت أن هناك آلهة أخرى ، وأن فى استطاعة البشر أن يصيروا آلهة ، والآلهة تصير بشراً ، كما زعمت أن كنيسة المورمون هى الكنيسة الوحيدة الحقيقية وأن الكنيسة المسيحية بجملتها مارقة .

يقول صاحب (تاريخ الكنيسة ج ٥ ص ١٢٠) . والمورمون من أكثر المجتمعات الأمريكية استقراراً ومحافظة على القديم ، تربية أطفالهم تتم بكل دقة ، لديهم محظورات قاسية ضد التدخين والمسكر والشاى والقهوة .

هم مواطنون مجتهدون ، يوثق بهم ، يحتفظون بمستوى تعليمى رفيع ، لهم كنائسهم وكلياتهم ، وكثيراً ما يختارون لمراكز حكومية أمريكية هامة ، وخدم عدد منهم فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة .

* * *

النار تأكل نفسها..

- أصابع مشتعلة .
- دولة داخل الدولة .
- كاليجولا يحمل راية المسيح .
- كلاب الله تنهش تعاليم المسيح .

* * *



أصابع مشتعلة ..

كان فيليب قد عين مرجريت دوقة بارما نائبة له فى الأراضى الوطيئة (١٥٥٩ ـ ١٥٦٧) ، وهى ابنة غير شرعية لشارل الخامس من أم فلمنكية ، وانتشرت فى عهدها محاكم التفتيش .. كان فيليب يراقبها ـ وهو فى أسبانيا ـ ويشجع على استمرارها ، ويبعث إليها بأسماء الهراطقة المشتبه فيهم ، وما كان يمر يوم دون إعدام .

أثارت هذه الأعمال الوحشية حفيظة برتلان لبلاس ، فهاجم كاتدرائية تورنى ، أثناء قداس عيد الميلاد ، اندفع إلى المذبح ، وانتزع القربان المقدس من يد القسيس ، ووطئه بقدميه ، وصاح فى حضور المصلين : (أيها المضَلَّلون ، هل تظنون أن هذا هو المسيح إلهكم ومخلصكم ؟) ، وكان أن عذب الرجل ، فأحرقت يده اليمنى وقدمه ، حتى لم يبق منهما إلا العظام ، وقطع لسانه ، وعلق فوق نار ، وشوى على مهل ، حتى لفظ أنفاسه . وفى (ليل) أحرق روبرت أوجيبه وزوجته وأبناؤه ، لأنهم قالوا بأن عادة القربان المقدس ليست إلا تجديفاً وثنياً .

وأول قاض للتحقيق ، وعضو محكمة التفتيش فى أسبانيا الذى يضرب به المثل فى القسوة والتعصب الذميم ، هو بيتر تيتلمان الذى اتهمه مجلس مدينة بريجز بأنه متوحش ، انتزع الناس من بيوتهم ، وحاكمهم دون أية ضوابط قانونية ، وأجبرهم على أن ينطقوا بما يريد ، وحكم عليهم بالإعدام .

والقضاة فى الفلاندرز وجهوا إلى الملك فيليب كتاباً مثيراً يرجون فيه وضع حد لهذه الأعمال الشائنة التى يقوم بها تيتلمان ، لكن فيليب أيده وشجعه ، وأمر مارجريت أن تنفذ دون رحمة ولا إبطاء القرارات التى أصدرها أخيراً مجمع ترنت سنة ١٥٦٤ .

وفى أكتوبر ١٥٦٥ أرسل فيليب توجيهاته الصريحة إلى وكلاء محكمة التفتيش : (أعدموا كل المسجونين ، ولا تتركوا لهم فرصة للإفلات ، نتيجة تقصير القضاة وضعفهم وعقيدتهم الفاسدة ، وإذا قعد الجبن ببعضهم عن تنفيذ المراسيم فإنى أستبدل بهم رجالاً أكثر جرأة وحماسة) .

رفض أوراغ ـ عضو مجلس الدولة ، ومستشار مرجريت ـ وغيره من النبلاء وكثير من القضاة تطبيق المراسيم .. وانهالت نشرات البروتستانت وإعلاناتهم يستنكرون فيها

الاضطهاد .. واشتم التجار الأجانب رائحة الثورة فى الجو ، فبدءوا ينزحون من الأراضى الوطيئة ، وأغلقت المخازن ، وكدست البضائع ، وخيم شبح الموت على أنتورب ، وفر كثير من البروتستانت إلى انجلترا وألمانيا .

واعتنق كثير من صغار النبلاء المذهب البروتستانتى خفية .. وفى ديسمبر ١٥٦٥ اجتمع بعض هؤلاء ، وحرروا (وثيقة) يستنكرون فيها إدخال محاكم التفتيش إلى بلادهم ، وشكلوا عصبة تعهدت بإخراجها من البلاد .

وفى إبريل ١٥٦٦ سار ٤٠٠ من صغار النبلاء إلى قصر مرجريت ، وقدموا (ملتمساً) بأن تطلب إلى الملك أن يضع حداً لمحاكم التفتيش والمراسيم فى الأراضى الوطيئة، وأن توقف تطبيق المراسيم حتى يصل جواب الملك ، فأجابت بأنها سترسل ظلامتهم إلى الملك ، لكن ليس من سلطتها أن توقف تطبيق المراسيم ، وأنها ستبذل كل ما فى وسعها للتخفيف من مفعولها .

فى ٣١ يولية ١٥٦٦ كتب الملك إليها بموافقته على إلغاء محاكم التفتيش الأسقفية فى الأراضى الوطيئة ، وبأنه يصدر عفواً عاماً عمن توصى هى بالعفو عنه .

انتهز اللوثريون والكلفنيون واللامعمدانيون فرصة هدوء العاصفة ليجهروا بعبادتهم ، وعاد المهاجرون أفواجاً من انجلترا وألمانيا وسويسرا ، وقام الوعاظ من مختلف الطبقات ـ الرهبان ، وعلماء اللاهوت ، وصانعو القبعات ، وممشطو شعر الخيل ، ودباغو الجلود ـ يخطبون فى الجموع الغفيرة ، وكثير منهم مسلحون ، وكلهم يرتلون المزامير ، ويهتفون : (فليحيا المتسولون .. التى أصبحت صيحة الحرب فى الثورة ، بعد أن جرى وصف أصحاب الملتمس ، على لسان أحد مستشارى مرجريت ، بأنهم متسولون) ـ قصة الحضارة مج ٧ ج ٣ ص ١١ .

أمرت مرجريت حكام أنتورب بمنع هذه التجمعات ، لأنها خطر على البلاد ، فأجابوا بأن قواتهم المسلحة غير كافية ، ولا يعتمد عليها .

طلبت مرجريت إلى وليم أوراغ أن يشخص إلى المدينة ، لإجراء تسوية سلمية بين الكاثوليك والبروتستانت ، فعمل على تهدئة الأمور ، بحض الوعاظ على قصر اجتماعاتهم على الضواحى ، وألا يحمل المجتمعون سلاحاً .

وفى ٩ أغسطس ١٥٦٦ وقع فيليب وثيقة رسمية ، أعلن فيها أن العرض الذى قدمه

للعفو العام قد انتزع منه رغم إرادته ، وأنه لا يلزمه بشيء .

وفي ١٣ أغسطس أكد للبابا أن إيقاف محاكم التفتيش مرهون بموافقة البابا .

وبتحريض من الوعاظ انطلقت الجماهير البروتستانتية إلى الكنائس والكاتدرائيات الكاثوليكية يحربون ويدمرون ، وانتشر الهياج في أمستردام وليدن ودلفت وأوترخت وغيرها من المدن في المقاطعات الشمالية واستنكر معظم البروتستانت ما يجرى ، وإن برر بعضهم أن تحطيم التماثيل والصور أقل إجراماً من إحراق الأحياء (الهراطقة) .

بات فيليب يتحين الفرصة للانتقام ، لكن مرجريت التي تواجه الجماهير المسلحة والزعماء المغامرين ، أحست بأنها مرغمة على بعض التنازلات ، فوقعت في ٢٣ أغسطس مع ممثلي (المتسولين) اتفاقاً تتاح بمقتضاه العبادة الكلفنية في الأماكن التي كانت تمارس فيها ، بشرط عدم التعرض للطقوس الكاثوليكية ، وألا يحمل البروتستانت سلاحاً خارج بيوتهم .

لم يقنع كل من وليم أورانج وملك أسبانيا بهذه الهدنة ، فقصد أورانج في ٢٢ إبريل ١٥٦٧ إلى ألمانيا ، يلتمس المدد من الرجال والمال ، وبعد ذلك بأيام ، غادر (دوق ألفا) أسبانيا مفوضاً من قبل فيليب .

شق ألفا طريقه إلى إيطاليا ، فجمع صفوة الجند من الحاميات الأسبانية في نابلي وميلان ، ليشكل جيشاً قوامه عشرة آلاف ، زودهم بأحدث العدة والعتاد ، وأثلج صدورهم بألفين من بنات الهوى أحسن اختيارهن .

واستأذنت مرجريت في الاستقالة ، فأجابها الملك ، وأقام نائبه ـ الحاكم الجديد ـ في قلعة أنتورب ، وأعد نفسه لتطهير الأراضي الوطيئة من الهرطقة ، وألقى القبض على مستشاري مرجريت ، وعين في ٧ سبتمبر ١٥٦٧ (مجلس الفلائل) الذي سماه البروتستانت (مجلس الدم) ، واحتفظ ألفا لنفسه بالقرار الحاسم في أي موضوع يعنيه ، وأمر المجلس بالبحث عن المشتبه فيهم واعتقالهم ، ومحاكمتهم سرًا ، وحظرت الهجرة ، وأعدم ربابنة السفن الذين يساعدون عليها شنقاً

كان الحكم بالإعدام يصدر بالجملة ، وفي يناير ١٥٦٨ أعدم ٨٤ من سكان فالنسيان، وسرعان ما دخل الثكل كل بيت ، وندر من كان يجرؤ على الاحتجاج .

وأصدر (مجلس الدم) قراراً باتهام الأمير وليم أورانج وأخيه لويس وزوج أخته كونت

فان دن برج والبارون مونتيني وغيرهم من الزعماء بتشجيع الهرطقة والثورة ، وكان مونتيني لا يزال فى أسبانيا فسجنه فيليب ، وكان ابن وليم أورانج طالباً فى جامعة لوفان ، فاعتقل وأرسل إلى أسبانيا ، وصدر إعلان بأن وليم خارج على القانون ، أحل قتله لأى إنسان ، دون التعرض لعقاب .

عمل وليم أورانج (الذى كان ما يزال كاثوليكياً) على تنظيم جيش ، ووجه أخاه لويس إلى أن يحذو حذوه ، والتمس العون من الأمراء اللوثريين ، فلم يتحمسوا لإجابته ، وأمسكت الملكة إليزابث عن مساعدته فى حذر ، لكن الأموال جاءته من الأقاليم الشمالية ، وباع هو مجوهراته ومطرزاته وأثاثه الفاخرة وآنيته الفضية . وجمع مبلغاً مكنه من إعداد عدد كبير من المرتزقة ، ووضع خطة العمل لثلاثة جيوش فى وقت واحد ، وبدأت (حرب الثمانين عاماً) التى خاضتها الأراضى الوطيئة فى ثبات ومثابرة ، حتى قدر لها النصر سنة ١٦٤٨

كانت الضرائب والإجراءات التى اتخذت لفرضها من عوامل هزيمة ألفا ، فقد أخذ الجميع كاثوليك وبروتستانت يتذمرون ويقاومون .

ولما استولت إليزابث على الأموال التى كانت فى طريقها إليه من جنوة استولى على الممتلكات الإنجليزية فى الأراضى الوطيئة ، وحظر التجارة مع انجلترا ، فردت إليزابث بمصادرة بضائع الأراضى الوطيئة فى انجلترا ، وتحويل التجارة الإنجليزية إلى همبورج ، وسرعان ما أحست الأراضى الوطيئة بوطأة الكساد الاقتصادى .

وفى مارس ١٥٦٨ قامت عصابة من الفدائيين (المتسولين المتطرفين) بنهب الكنائس والأديار وقطع أنوف القساوسة والرهبان أو آذانهم ، وتشكلت عصابة أخرى للعمل فى البحر .. فأحس (دوق ألفا) بأن الريح غير مواتية له ، وأن التيار قد انقلب ضده ، فطلب تنحيته ، وتباهى بأنه قتل ١٨ ألف ثائر .

وقدر أسقف نامور أن (ألفا) فى سبع سنين ألحق بالكاثوليكية من الأذى أكثر مما فعلته البروتستانتية .

قبلت استقالة ألفا ، وحل محله دون لويس دى ركسويسانس الذى رجا فيليب أن يرخص له فى إصدار عفو عام ، باستثناء الهراطقة العنيدين ، مع السماح لهم بالهجرة ، وإلغاء ضريبة العشرة فى المائة على البيوع .. ولم ير وليم أورانج فى هذه المقترحات إلا لعبة لكسب الوقت .

مات ركسويسانس أثناء حصار زيركزى فى ٥ مارس ١٥٧٦ ، وعين الملك أخاه غير الشقيق ، دون جوان النمسوى ، فى هذا المنصب البغيض ، لكنه لم يصل إلى لكسمبورج إلا فى نوفمبر .. وفى هذه الأثناء وقع ممثلو هولنده وزيلنده (قانون التهدئة) الذى خول (وليم) السلطة العليا فى البر والبحر ، وحق التعيين فى الوظائف السياسية ، وعند الضرورة حق العهد بحماية الاتحاد إلى أمير أجنبى ، وأهاب وليم بسائر المقاطعات أن تشارك فى طرد الأسبان من الأراضى الوطيئة ، ووعد بحرية العقيدة والفكر للكاثوليك والبروتستانت على حد سواء .

وبدأت الحرب البحرية لإنهاك القوة الأسبانية ، وتبديد إمكانياتها .

وفى سنة ١٦٢٨ أسر أسطول هولندى صغير أسطولاً لأسبانيا كان يحمل الذهب من المكسيك .

وفى سنة ١٦٣١ هاجم أسطول هولندى آخر ١٣ سفينة أسبانية فى نهر سلاك ، فدمرها ، وأسر خمسة آلاف رجل ، وحاول الأسبان استعادة السيطرة على ثغور الأرض الوطيئة من الهولنديين ، فأعدوا أسطولاً من ٧٧ سفينة ، عليها ٢٤ ألف رجل ، فهاجمه أمير البحر مارتن ترومب فى القتال الإنجليزى – فى ٢١ أكتوبر ١٦٣٩ – بخمس وسبعين سفينة ، فأغرق وأعطب وأسر كل الأسطول الأسبانى ، فيما عدا سبع سفن ، وقتل أو أغرق خمسة عشر ألف ملاح أسبانى .

* لقد أنهكت أسبانيا فى حرب الثمانين عاماً ، لهذا قررت أن تنزل للهولنديين ، حتى تتفرغ للحرب مع فرنسا .

وفى سنة ١٧٦٨ حد من سلطة ديوان التفتيش فى رقابة المطبوعات ، بشرط الحصول على التصديق الملكى على جميع المراسيم المحرمة للكتب قبل تنفيذها .

وفى سنة ١٧٧٠ أمر الملك محكمة الديوان بأن تقتصر على الهرطقة والارتداد ، دون غيرهما ، وألا تسجن إنساناً ما لم يثبت ذنبه على نحو قاطع .

وفى سنة ١٧٨٤ أمر الملك بأن تعرض عليه إجراءات الديوان الخاصة بكبار النبلاء ، وأعضاء مجلس الوزراء ، والموظفين الملكيين ، لمراجعتها ، ثم عين رئيساً عاماً للديوان أبدى موقفاً أكثر تحرراً بإزاء خلافات الفكر .

** فى ١٣ ديسمبر ١٥٦٠ افتتح لوبيتال ، مستشار ملكة فرنسا (كاترين دى

مديتشى) مجلس طبقات الأمة فى أورليان ، فقال : (إن وظيفة الحكومة هى حفظ السلام والنظام والعدالة بين جميع المواطنين ، دون تمييز ، ودون نظر لآرائهم الدينية .. ومن المرغوب فيه أن يكون الفرنسيون جميعاً على دين واحد ، لأن هذا من شأنه أن يعين على الوحدة والقوة القوميتين ، لكن إذا لم يكن فى الاستطاعة بلوغ مثل هذا الاتفاق العام بالوسائل السلمية ، فالتسامح إذن خير وأبقى ، فمن ذا الذى يعرف ما الهرطقة ، وما الحق ؟ أنت تقول إن دينك أفضل الدينين ، وأنا كذلك أقول عن دينى ، فهل اعتناقى رأيك معقول أكثر من اعتناقك رأيى ؟.

فلْننبذ إذن هذه الأسماء الشيطانية ، وهذه البطاقات الحزبية ، والشيع والتحريضات على الفتنة ، دعونا نغير أسماءنا إلى مسيحيين ، بدلاً من اللوثريين ، والهيجونوت ، والكاثوليك) .

وفى ٢٨ يناير ١٥٦١ أفرجت الملكة عن جميع الأشخاص الذين اعتقلوا بسبب (جرائم) دينية ، وأمرت بإنهاء كل الاضطهادات بسبب الدين ، حتى إخطار آخر .

ومع هذا تفجر الشعب فى باريس ، وروان ، وبوفيه ، وغيرها ، فأصدرت الملكة (مرسوم يوليه ١٥٦١) ، الذى حظر العنف وخدمات الهيجونوت الدينية العلنية .. وتجاهل الهيجونوت المرسوم ، وهاجموا المواكب الكاثوليكية فى مختلف المدن ، ودخلوا الكنائس الكاثوليكية ، وأحرقوا الآثار والرفات المقدسة ، وحطموا التماثيل .

وفى مونبلييه ، فى خريف ١٥٦١ ، نهبت الكنائس والديورة الستون كلها ، وقتل كثير من القساوسة .

وفى مونتوبن ، أحرق دير (كلير الفقيرة) ، وشُتتت الراهبات ، ونصحن أن يجدن أزواجاً لهن .

وفى نيم . طرد الهيجونوت جميع القساوسة ، واستولوا على كل الكنائس الكاثوليكية ، أو دمروها ، وأحرقوا الكاتدرائية ، وداسوا القربان المقدس فى فبراير ١٥٦٣ .

أما فى لانجدوك وجيين ، فكان الهيجونوت يستولون على الكنائس والأملاك الكاثوليكية ، ويطردون الكهنة .

ولم يكن الهيجونوت أقل عنفاً من الكاثوليك ، وإن امتازوا فى الفضائل الشخصية .

مذبحة بارتولوميو :

في صباح ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ ـ وهو عيد القديس بارتولوميو ـ بلغ التذامر والعدوان بين الهيجونوت والكاثوليك حد تجييش الأنصار ، من داخل السلطة وخارجها ، وجرى القتل والتخريب في عدة مدن ، وسقط عدد من كبار الرجال ، وحذت الأقاليم حذو باريس بأسلوب الهواة ، فارتكبت المذابح الجنونية ، بوحي الأنباء الواردة من العاصمة ، في ليون ، وديجون ، وأورليان ، وبلوا ، وتور ، وتروا ، ومو ، وبورج ، وأنجيه ، وروان ، وتولوز ، بين ٢٤ و ٢٦ أغسطس ، وحسب جاك دنو ٨٠٠ ضحية في ليون ، وألفاً في أورليان ، وقد شجع الملك على هذه الإبادة ، ثم نهى عنها .

وفي ٢٦ أغسطس ذهب الملك إلى قصر العدالة في موكب رسمي مخترقاً الشوارع التي ما زالت الجثث مبعثرة فيها ، وشهد لبرلمان باريس في فخر أنه أمر بالمذبحة .

وأغلب الظن أن الأقاليم ساهمت بخمسة آلاف ضحية ، وباريس بنحو ألفين ، وإن كان بعضهم وصل بالضحايا إلى ثلاثين ألفاً .

كتب الممثل البابوي في باريس إلى روما يقول : (أهنئ قداسة البابا من أعماق قلبي ، على أن الله جل جلاله شاء في مستهل بابويته أن يوجه شئون هذه المملكة توجيهاً غاية في التوفيق والنبل ، وأن يبسط حمايته على الملك والملكة الأم ، حتى يستأصلا هذا الوباء بكثير من الحكمة ، وفي اللحظة المناسبة ، حين كان كل المتمردين محبوسين في القفص) .

وحين وصل النبأ إلى روما ، نفح كردينال اللورين حامله ألف كراون ، وهو يهتز طرباً ، وسرعان ما أضيئت روما كلها ، وأطلقت المدفعية من قلعة سانت أنجلو ، وقرعت الأجراس في ابتهاج ، وحضر جريجوري الثالث عشر وكرادلته قداساً مهيباً ، لشكر الله على (هذا الرضى الرائع الذي أبداه للشعب المسيحي) ، والذي أنقذ فرنسا والكرسي البابوي المقدس من خطر عظيم ، وأمر البابا بضرب ميدالية خاصة تذكاراً لهزيمة الهيجونوت أو ذبحهم ، وعهد إلى فازاري أن يرسم في الصالة الملكية بالفاتيكان صورة للمذبحة تحمل هذه العبارة : (البابا يوافق على قتل كوليل) ـ زعيم الهيجونوت الذي قتله جند الملك شارل التاسع ، بعد محاولة اغتيال متبادلة ـ قصة الحضارة مج ٧ ج ٢ ص ٢٠١ .

* * وفي سنة ١٥٨٢ عدّد راع لوثري ، يدعى نيفاندر ، أربعين خصيصة من

خصائص الذئاب ، وزعم أنها بالضبط السمات المميزة للكلفينيين .. ثم وصف الميتات الرهيبة التي لقيها أعداء اللوثريين ، وقال إن زونجلي حين خر صريعاً في المعركة ، قطع جسده سيورا ، واستعمل الجنود شحمه في تشحيم أحذيتهم ، لأنه كان رجلاً بدينا .

وجاء في نشرة لوثرية سنة ١٥٩٠ : (إن أراد أحد أن يقال له في بضع كلمات أية مادة من مواد الإيمان نقاتل عليها جنس الأفاعي الكلفنية الشيطاني ، كان الجواب : كلها بلا استثناء ، ذلك لأنهم ليسوا مسيحيين ، بل يهوداً ومسلمين ومعمدين) .

وفي سوق فرانكفورت كتب ستانسلاوس رسكيوس سنة ١٥٩٢ : (لقد لاحظنا منذ سنين أن الكتب التي يؤلفها البروتستانت ضد البروتستانت ثلاثة أمثال تلك التي يؤلفها البروتستانت ضد الكاثوليك) .

وقال كاتب بروتستانتي سنة ١٦١٠ في معرض الرثاء لهذا الحال : (إن هؤلاء اللاهوتيين المسعورين قد جعلوا الحرب المدمرة الناشبة بين المسيحيين المنشقين على البابوية من الهول والاتساع بحيث لا تبدو بارقة أمل في أن يكف كل هذا الصراخ والقذف والشتم واللعن والحرم ، قبل مجيء اليوم الآخر) .

ولما أدرك البروتستانت آخر المطاف أن انقساماتهم الداخلية أشبه بعملية انتحارية ، وجهوا منابرهم وأقلامهم ضد عدوهم الروماني ، ومهدت حرب الكلام والمداد لحرب المدافع والدماء ، وتفاقم التقاذف بالمطاعن ، حتى قارب نشوة القتل ، ودخلت قاموس اللاهوت ألفاظ ، كالروث ، والنفاية ، والحمار ، والخنزير ، والبغي ، والزنيم .

وفي سنة ١٥٦٥ اتهم الكاتب الكاثوليكي يوهان ناس اللوثريين بممارسة القتل والسرقة ، والغش ، والكذب ، والشره ، والسكر ، ومضاجعة المحارم ، والجريمة ، دون ما خشية ، لأن الإيمان ـ في زعمهم ـ يبرر كل الأشياء ، ورجح أن تكون كل امرأة لوثرية مومساً .

وقد اعتبر الكاثوليك هلاك البروتستانت الأبدي إحدى بديهيات اللاهوت .

وفي سنة ١٥٧٦ كتب أندرياس لانج الواعظ اللوثري : (إن البابويين كغيرهم من الترك ـ المسلمين ـ واليهود والوثنيين ، هم خارج نطاق النعمة الإلهية ، ومغفرة الخطايا ، والخلاص ، لقد كتب عليهم العويل والبكاء وصرير الأسنان إلى الأبد ، في نار الجحيم المشتعل وكبريتها) .

وكان اليسوعيون أهدافاً محببة ، فرموا – في مئات الرسوم الهزلية ، والنشرات والكتب ، والقصائد – باللواط ، والزنا ، والبهيمية .

وأعلن يسوعيو كولونيا أن الهراطقة العنيديين الذين يبثون الانشقاق في كل مكان ، في الأقاليم الكاثوليكية . (يجب أن يعاقبوا كما يعاقب اللصوص والسارقون والقتلة ، لا ، بل بأشد مما يعاقب به هؤلاء المجرمون ، فهؤلاء لا يؤذون سوى الجسد ، أما أولئك فيزجّون بالنفوس في الهلاك الأبدي) .

ويمثل هذه الروح ناشد الكلفني داود باريتز) أستاذ اللاهوت بهايدلبرج سنة ١٦١٨ ، جميع الأمراء البروتستانت أن يشنوا حرباً صليبية على البابوية ، وفي حملة كهذه يجب (ألا يتحرجوا من أي ضرب من ضروب القسوة أو العقاب) قصة الحضارة مج ٧ ج ٣ ص ١٨٩/١٩٤ .

* وفي ٥ ديسمبر ١٥٦٠ مات فرانسوا الثاني – بعد حكم دام سنتين – وفكرت ماري التي صارت أرملة ، وهي في الثامنة عشرة ، أن تأوي إلى ضيعة في تورين ، لأنها أحبت فرنسا ، لكن اسكتلنده في تلك الأثناء تحولت إلى البروتستانتية ، وكانت على شفا ضياعها حليفة لفرنسا ، فرأت الحكومة الفرنسية أن من واجب ماري أن تذهب إلى أدنبره ، وتقود وطنها الأصلي إلى التحالف مع فرنسا ، وإلى العقيدة الكاثوليكية من جديد .

وفي ١٤ أغسطس ١٥٦١ أبحرت ماري ، مودعة فرنسا بالدموع ، بعد أن دعاها برلمان اسكتلنده لتتبوأ عرشها ، وبعد أن كتبت هي إلى زعماء الأشراف مؤكدة إخلاصها لاسكتلنده .

وقبل عودة ماري بعام ، أخرج نوكس ومعاونوه كتاباً في قواعد السلوك والنظام يحدد مذهبهم وأهدافهم ، فالديانة لا تعني إلا البروتستانتية ، والربانيون والأتقياء لا يقصد بهم إلا الكلفنيون وحدهم ، أما الوثنية فإنها تشمل القداس والتضرع إلى القديسين ، وعبادة الصور .

وبذلت ماري جهداً مضنياً لمواجهة اللوردات الجشعين ، والوعاظ المعادين ، والإكليروس الكاثوليكي المتفسخ الذي لم يرع حرمة عقيدتها التي تدعو إلى الثقة فيهم .

وفوضت موري ولثنجتون في تدبير شئون المملكة ، وبدا لبعض الوقت أنه حتى المشكلة الدينية قد وجدت حلاً ، بفضل تنازلات الملكة ، ولما حثها مندوبو البابا على إعادة

الكاثوليكية ديناً رسمياً للبلاد ، أجابت بأن هذا مستحيل في الوقت الراهن ، وإلا تدخلت إليزابث بالقوة .

ورغبة في تهدئة خواطر البروتستانت الإسكتلنديين ، أصدرت في ٢٦ أغسطس ١٥٦١ بياناً يحرم فيه على الكاثوليك محاولة إحداث أية تغييرات في الديانة القائمة ، لكنها طلبت أن يرخص لها هي نفسها في ممارسة الشعائر سراً ، وأن يقام القداس في الكنيسة الملكية الخاصة .

وفي يوم الأحد ٢٤ أغسطس أقيم القداس هناك ، وتجمع نفر قليل من البروتستانت خارجها يطالبون (بإعدام القسيس الذي يعبد الأصنام) .. لكن موري حال دون دخولهم الكنيسة ، على حين اقتاد معاونوه القسيس إلى مكان آمن .

وفي يوم الأحد التالي استنكر نوكس سماح اللوردات بالقداس ، وأعلن إلى جماعة المصلين في كنيسته أن قداساً واحداً كان أكثر إساءة من عشرة آلاف عدو مسلحين .

وأرسلت الملكة في طلبه ، تستعطفه ، وتناشده التسامح .

وفي سترلنج طرد القساوسة الذين أرادوا أن يقيموا لها القداس ، والدم ينزف من رءوسهم ، على حين انفجرت هي باكية ، حيرة وعجزاً ، واجتمعت الجمعية العامة للكنيسة الوطنية الاسكتلندية ، وطالبت بمنعها من حضور أي قداس في أي مكان .

وفي عيد الفصح ١٥٦٣ قبض الموظفون المحليون على عدة قساوسة كاثوليك ، خالفوا القانون بإقامة القداس ، وهددوهم بالموت لوثنيتهم ، وسجن بعضهم ، وهرب آخرون ، واختفوا في الغابات ، فأرسلت ماري في طلب نوكس ، وتوسطت للإفراج عن القساوسة المسجونين ، فأجابها بأنها إذا طبقت القانون فإنه يكفل لها انصياع البروتستانت وطاعتهم .. وبأمر منها حوكم أسقف سانت أندروز وسبعة وأربعون أسقفاً آخرون ، لإقامتهم القداس ، وحكم عليهم بالسجن .

وعلم نوكس أن ولثنجتون يحاول عقد زواج بين ماري ودون كارلوس ، ابن فيليب الثاني ملك أسبانيا ، فأعلن معارضته هذا الزواج ، لأنه بعد ضربة قاضية على البروتستانتية في اسكتلنده .

استدعته الملكة ، وقالت : (ما شأنك بزواجي ؟ ومن أنت في هذه الدولة ؟) ، فأجاب : (مهما كنت حقيراً في عينيك ياسيدتي ، فقد اختارني الله عضواً نافعاً فيها) ، فانفجرت ماري باكية ، وأمرته بالانصراف .

وفي أكتوبر ١٥٦٣ أحاط بالكنيسة الملكية جمع من الناس احتجاجاً على القداس الذى كان على وشك أن يقام ، ودخل أندرو أرمسترونج وباتريك كرانزتون إلى الكنيسة ، وأرهبا القسيس حتى انصرف ، فأمرت الملكة بمحاكمة هذين الرجلين ، بتهمة اقتحام حرمها الخاص ، فناشد نوكس (الإخوة من كل الطبقات) بشهود المحكمة ، وحكم مجلس الملكة بأن هذه الدعوة خيانة عظمى ، ودعا نوكس للمثول أمامها للمحاكمة .

وفي ٢١ ديسمبر ١٥٦٣ حضر نوكس ، واجتمع حشد من مؤيديه ملأ الفناء ، حتى وصل إلى قاعة المحكمة ، وانتهى الأمر بتبرئة نوكس ، وقالت الملكة : (تستطيع يا مستر نوكس أن تعود إلى دارك الليلة) ، فأجابها : (أدعوا الله أن يطهر قلبك من رجس البابوية) .

* * كان محرماً على الكاثوليك في انجلترا ـ ولو أنهم كانوا لا يزالون يشكلون الأغلبية ـ أن يقيموا صلواتهم ، أو يكون لهم أدب كاثوليكي ، وحطمت الصور المقدسة في الكنائس بأمر الحكومة ، كما أزيلت المذابح ، وأرسل ستة من طلبة أكسفورد إلى (البرج) لمقاومتهم إزالة صليب يمثل صلب المسيح من كنيسة كليتهم ، وخضع معظم الكاثوليك للتعليمات الجديدة في حزن وأسى ، لكن عدداً كبيراً منهم آثر دفع الغرامة على حضور الطقوس الإنجليكانية ، وجمع المجلس الملكي نحو خمسين ألفاً من هؤلاء (العصاة المتمردين) في انجلترا سنة ١٥٨٠ ، وشكا الأساقفة الإنجليكانيون إلى الحكومة من أن القداس كان يقام في بيوت خاصة ، وأن الكاثوليكية بدأت تكون عبادة عامة ، وأنه كان من الخطر ـ في بعض الجهات المتحمسة ـ أن يكون المرء بروتستانتياً ، ووبخت إليزابث رئيس الأساقفة باركيز على تراخيه سنة ١٥٦٥ ، ومن ثم طبقت القوانين بشكل أشد صرامة ، وأودع السجن الكاثوليك الذين حضروا القداس في كنيسة سفير أسبانيا ، وفتشت البيوت في لندن ، وأمر الأجانب الذين وجدوا فيها بالإدلاء ببيان عن ديانتهم ، وطلب إلى الحكام أن يعاقبوا كل من يوجد في حوزته كتب المذهب الروماني الكاثوليكي سنة ١٥٦٧ .

وأصبح الصراع الديني على أشده ، عندما أصدر البابا بيوس الخامس مرسوماً سنة ١٥٧٠ ، لم يحرم إليزابث من الكنيسة فحسب ، بل أحل رعاياها من الولاء لها ، وحرم عليهم الامتثال لأوامرها وقوانينها ، ومنع انتشار المرسوم في أسبانيا وفرنسا اللتين كانتا تخطبان ود انجلترا آنذاك ، لكن نسخة منه وضعت بطريقة سرية على باب مقر الأسقف البروتستانتي في لندن ، وسرعان ما كشف المجرم وأعدم ، وعندما ووجه وزراء الملكة بهذا

الإعلان للحرب طلبوا إلى البرلمان سنّ قوانين أشد صرامة ضد الكاثوليك . وصدرت تشريعات تنص على أنه يعتبر من الجرائم التي يعاقب مرتكبوها بالإعدام : قذف الملكة بأنها هرطيقة ، أو منشقة ، أو مغتصبة ، أو طاغية ، أو إدخال مرسوم بابوى إلى انجلترا ، أو تحويل بروتستانتى إلى الكنيسة الرومانية .. وفوضت الملكة المحكمة العليا في اختيار آراء أى فرد مشتبه فيه ، وأن تعاقب على أية مخالفة لأى قانون لم يعاقب عليها من قبل ، بما فى ذلك الفسق أو الزنا .

وأصدر البرلمان سنة ١٥٨١ قانوناً ينص على أن الارتداد إلى الكاثوليكية سوف يعاقب بتهمة الخيانة العظمى ، وأن أى قسيس يقيم قداساً يعاقب بغرامة قدرها مئتا مارك ، مع السجن لمدة عام ، وأن من يمتنع عن حضور الصلوات الإنجليكانية يعاقب بدفع عشرين جنيهاً فى الشهر ، وكان العجز عن دفع الغرامة يستدعى الاعتقال ومصادرة الأملاك ، وسرعان ما امتلأت السجون بالكاثوليك إلى حد أن القلاع القديمة استعملت سجوناً .

وطلب البرلمان إلى القساوسة الذين رسموا منذ يونية ١٥٥٩ ، وامتنعوا عن أداء (قسم السيادة) أن يغادروا البلاد خلال أربعين يوماً ، وإلا أعدموا بتهمة التآمر الموسوم بالخيانة العظمى ، وشنق كل من آووهم أو أخفوهم ، وبمقتضى هذا القانون وغيره أعدم فى عهد إليزابث ١٢٣ قسيساً ، و٦٠ من العلمانيين ، وربما قضى مائتان فى السجون .

احتج بعض البروتستانت على قسوة هذا التشريع ، وارتد بعضهم إلى الكاثوليكية .

وفى سنة ١٦٣٣ عين الملك شارل الإنجليكانى البارز وليم لود رئيساً لأساقفة كنتربرى، وعضواً فى وزارة الخزانة ، ومن قصره فى لامبث شرع فى إعادة تشكيل الطقوس والأخلاقيات الإنجليزية ، وفرض غرامات فادحة على المتهمين بالزنا ، وطرد المحامين والباعة الجائلين والمثرثرين من أبهاء (محكمة اللجنة العليا) التى أقامتها إليزابث كهيئة قضائية ، وحرم الكهنة الذين رفضوا الطقوس الجديدة من رواتبهم ، أما الكتاب والخطباء الذين نقدوها مراراً وارتابوا فى العقيدة المسيحية ، أو عارضوا نظام الأساقفة ، فكانوا يحرمون من الكنيسة ، ويوضعون فى آلة تعذيب خشبية ، تقيد فيها رجلا المذنب ويداه ، أو تقطع أذناه .

وكان من ضحاياه الكاهن البيوريتانى اسكندرليتون ، الذى قيد فى الأغلال ، وسجن فى مكان موحش ، لمدة خمسة أسابيع ، فى زنزانة (مليئة بالجرذان والفئران ، معرضة للثلوج والأمطار) ، حتى تساقط شعر رأسه ، وتقشّر جلده ، وربط إلى خازوق ، وتلقى ستاً وثلاثين جلدة على ظهره العارى ، ووضع فى آلة تعذيب (المشهرة) لمدة ساعتين ، فى

صقيع نوفمبر وجليده ، ودمغ بسمة العار فى وجهه ، وشق أنفه ، وقطعت أذناه ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة ، ذلك لأنه قال فى كتاب ألفه : إن نظام الأساقفة نظام شيطانى معاد للمسيحية .

وتكررت هذه المحاكمات البالغة العنف ، حتى إن امرأة سجنت أحد عشر عاماً ، لأنها أصرت على أن يوم السبت يوم راحة وعبادة .

كان الكاثوليك لا يستطيعون شراء أرض أو وراثتها إلا بالتحايل القانونى ، ويدفعون ضرائب مضاعفة على أملاكهم ، وقد حظر عليهم الخدمة فى الجيش والبحرية أو احتراف المحاماة ، والتصويت أو الترشيح للبرلمان ، وجميع المناصب الحكومية .

وفى سنة ١٧٧٨ قدم السير جورج سافيل للبرلمان مشروع قانون هدفه (التخفيف عن الكاثوليك) ، بحيث يبيح لهم شراء الأرض ، ووراثتها ، والتطوع فى القوات المسلحة ، دون التخلى عن مذهبهم ، وأجيز المشروع ، ولم يلق معارضة تذكر من الأساقفة الإنجليكان فى مجلس اللوردات ، ولم يكن ينطبق إلا على انجلترا .

وفى سنة ١٧٧٩ اقترح اللورد نورث تطبيقه على اسكتلنده ، فاندلعت الفتن فى إدنبره وجلاسكو وأحرقت عدة بيوت يسكنها الكاثوليك ، وسويت بالأرض ، ونهبت وحطمت حوانيت التجار الكاثوليك ، كذلك هوجمت بيوت البروتستانت الذين أعربوا عن عطفهم على الكاثوليك ، مثل المؤرخ روبرتسن ، ولم يخمد أوار الفتنة إلا حين أذاع قضاة إدنبره أن قانون التخفيف عن الكاثوليك لن يطبق فى اسكتلنده .

ثم تبنى عضو اسكتلندى فى البرلمان ، يدعى جورج جوردن ، قضية (لابابوية فى انجلترا) ..

وفى ٢٩ مايو ١٧٨٠ رأس اجتماعاً لـ (جمعية البروتستانت) التى خططت لمسيرة جماهيرية ، لتقديم ملتمس بإلغاء قانون التخفيف الصادر فى ١٧٧٨ .. وفى ٢ يونيو أحاط ستون ألف رجل يرتدون أشرطة زرقاء معقودة بقبعاتهم بمبنى البرلمان ، واعتدى على كثير من الأعضاء ، وهم فى طريقهم إلى المبنى ، وحطمت مركبات اللوردات ، ووصل بعض اللوردات النبلاء إلى كراسيهم بغير باروكاتهم ، شعثاً يرتعدون خوفاً ، ودخل جوردون وثمانية من أتباعه مجلس العموم ، وقدموا ملتمساً ، قيل إنه يحمل مائة وعشرين ألف توقيع يدعو لإلغاء القانون .

وأتلفت محتويات كنيستين كاثوليكيتين، وكوم أثاثهما فى نار أشعلت فى الشوارع .

وفي ٦ يونيو عاد الغوغاء إلى التجمع ، واقتحموا سجن نيوجيت وأطلقوا سراح السجناء ، واستولوا على ترسانة سلاح ، وساروا وهم مسلحون مخترقين شوارع العاصمة ، وتحصن النبلاء بمتاريس في بيوتهم ، ورفض قضاة لندن أن يأمروا الحرس بإطلاق النار .

واستنفر جورج الثالث ميليشيا المواطنين ، وأمرهم بإطلاق النار على من يلجأ إلى العنف .

وفي ٩ يونيو اندلعت الفتنة من جديد ، ونهبت البيوت ، وأحرقت ، سواء الكاثوليكية أو البروتستانتية ، ومنع جنود الإطفاء من إخماد الحريق ، وتغلب الجنود على الفتنة بعد أن قتلوا ٢٨٥ رجلاً ، وجرحوا ١٧٣ ، وقبضوا على ١٣٥ من المشاغبين ، وشنق واحد وعشرون .

* * في أيرلنده كان الدين هو القضية الطاغية ، وقد حرم المنشقون ـ المشيخيون ، والبيوريتان ، والمعمدانيون ـ من تقلد الوظائف الحكومية ، ومن عضوية البرلمان ، بمقتضى (قانون الاختبار)الذى اشترط فى الموظف أو عضو البرلمان قبول سر التناول ، طبقاً للطقس الإنجليكاني ، أما قانون التسامح الصادر فى ١٦٨٩ فلم يطبق على أيرلنده ، وعبثاً احتج المشيخيون على هذه القيود ، وهاجر الألوف منهم إلى أمريكا ، حيث قاتل كثير منهم بإخلاص فى صفوف جيوش الثوار .

كان ثمانون فى المائة من سكان أيرلنده من الكاثوليك ، لكن لم يكن جائزاً انتخاب أى كاثوليكى لعضوية البرلمان ، ولم يكن يملك أرضاً منهم إلا قلة ، وكان المستأجرون البروتستانت يعطون إيجارات مدى الحياة ، أما إيجارات الكاثوليك فلا تمتد أكثر من إحدى وثلاثين سنة ، وكان عليهم أن يدفعوا ثلثى أرباحهم إيجاراً ، ولم يسمح بالمدارس الكاثوليكية ، لكن المسئولين لم يطبقوا القانون الذى حرم على الأيرلنديين التماس التعليم خارج وطنهم ، وقبل بعض الطلاب الكاثوليك فى كلية ترنتى ، لكنهم لم يستطيعوا الحصول على درجة علمية ، وسمح بالعبادة الكاثوليكية ، لكن لم يكن لهم وسائل شرعية لإعداد القساوسة الكاثوليك .

من أجل هذا كله قال فولتير : إن الأمراء الذين أقاموا العقيدة الدينية ، أو تولوا حمايتها ، أو غيروها ، قلّ أن كان لديهم فى قرارة أنفسهم شيء منها .

كما سخر مما يسمى (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) بقوله :

« إنها لم تكن إمبراطورية ، ولا رومانية ، ولا مقدسة » .

دولة داخل الدولة ..

يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ٦ ج ٦ ص٢٦٠-٢٦٢/٢٦٢) : لم تكن المشكلة الحقيقية التي تواجه العقل الحديث ذلك الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولا بين الإصلاح الديني والنهضة ، إنها بين المسيحية والتنوير ، هذه الحقبة التي ليس من اليسير تحديد تاريخها ، والتي بدأت بفرنسيس بيكون ، وعقدت آمالها على العقل والعلم والفلسفة.

وكما كان الفن ركيزة النهضة ، والدين روح الإصلاح البروتستانتي ، كذلك أصبح العلم والفلسفة إلهي التنوير .

ومن وجهة النظر هذه كانت النهضة تسير في الخط المباشر للتطور العقلي الأوربي ، وأفضت إلى الاستنارة ، أما حركة الإصلاح البروتستانتي فكانت انحرافاً عن ذلك الخط ، ورفضاً للعقل ، وتأكيداً جديداً للإيمان الوسيط .

إن الدين يكون في أفضل حالاته إذا اضطر للعيش في ظروف المنافسة ، وهو ينزع إلى التعصب متى وحيثما افتقر إلى التحدي ، وغدا السيد الأعلى ، وأعظم ما جادت به حركة الإصلاح البروتستانتي هو تزويدها أوربا وأمريكا بتلك المنافسة الدينية التي تشحذ همة كل مذهب ، وتنبهه إلى التسامح ، وتهب عقولنا الهشة لذة الحرية وامتحانها. أ . هـ .

وهذا قول لا يسهل قبوله ، إذ إن خيوطاً كثيرة تشابكت ، وتداخلت أضواء كابية بظلال داكنة ، فعمل رجال الدين في خدمة المستعمرين وتجار الرقيق ، وكان نشر الدين المسيحي في كل من أفريقيا وأمريكا واستراليا ، بل والصين واليابان مقدمة وركيزة ـ شأن الأعمال التجارية ـ لقدوم الغزاة ، بل إن معظم النشاط الديني في أوروبا كان يتحرك بحركة أمثال إليزابث وشارل الخامس وهنرى الثامن وفردريك الأكبر وبطرس الأكبر وكاترين الثانية ، وهل كانت الحروب الصليبية التي أشعلها البابوات لتتحرك إلا بحركة الملوك ؟! وهل كان أكثر رجال الدين يمارسون بحق نشاطاً دينياً ؟! حسبنا ما سبق من صفحات عن سلوك البابوات والكرادلة ، ليتبين أن الدين لم يكن إلا وسيلة دنيوية لاستغلال الجماهير التي لا تملك إلا آذاناً خرقاء ، وقلوباً هواء .

* حسب لاكروا أن فرنسا سنة ١٧٦٣ كان فيها ١٨ رئيس أساقفة و ١٠٩ أساقفة ،

و٤٠ ألف قسيس ، و٥٠ ألف مساعد قسيس ، و٢٧ ألف رئيس دير ، و١٢ ألف كاهن ، و٢٠ ألف كاتب من رجال الدين ، ومائة ألف راهب وراهبة وعضو أخوية دينية .. ومن بين ٧٤٠ ديراً كان هناك ٦٢٥ ديراً يتولى شئونها مساعد ورؤساء أديار ، لمصلحة رؤساء أديار متغيبين عنها ، وكانوا يتمتعون باللقب ، وبنصف أو ثلثي دخل الدير ، دون أن يكون مطلوباً منهم أن يحيوا حياة كنسية .

ورغبة من الأسرات ذوات الألقاب في عدم تفتيت ممتلكاتهم بالتوريث ، كفلت لصغار أبنائها المناصب الأسقفية ومناصب رؤساء الأديار ، حتى إنه في سنة ١٧٨٩ لم يكن من بين المائة والثلاثين أسقفاً في فرنسا إلا واحد فقط من الأفراد غير ذوى الألقاب ، وأدخل أبناء الأسرات العريقة معهم إلى الكنيسة عاداتهم التى درجوا عليها في التمتع بترف الدنيا وزخرفها ، ومن ذلك أن الأمير الكردينال إدوارد دى روهان كان في القداس يرتدى ثوباً كهنوتياً له حواش من المخرمات المعقودة ، قدرت قيمته بمائة ألف جنية ، وكانت أدوات طبخه من الفضة الخالصة

وقضى كثير من الأساقفة معظم حياتهم في فرساى أو باريس ، مشاركين البلاط الملكى مباهجه ومسراته ومباذله ، فاحتفظوا بقدم في الدنيا وقدم في الآخرة .

وكان للأساقفة ورؤساء الأديار حقوق السادة الإقطاعيين وواجباتهم، إلى حد تقديم ثور لخدمة أبقارهم ، وكانت ممتلكاتهم الشاسعة التى كانت تضم أحياناً مدناً بأسرها ، تدار كما تدار الممتلكات الإقطاعية .

وجمعت الكنيسة سنوياً ـ مع شيء من الاعتدال ومراعاة الظروف ـ العشور عن نتاج كل مالك أرض وماشيته ، بالإضافة إلى الهبات والوصية والتوريث ، ودخول العقارات الثابتة .

وكان للأم أوربنى ـ رئيسة دير للراهبات ـ عربة تجرها أربعة جياد ، وكانت تستقبل في جناحها الفاخر أفراداً من الجنسين ، وكانت الراهبات في ألكس ترتدين التنورات ذوات الأطواق الواسعة والأردية الحريرية المبطنة بالفرو ، وكن في أديار أخرى يتناولن العشاء ويرقصن مع ضباط من المعسكرات المجاورة .

* كانت الكنيسة ـ بعد الملك وجيشه ـ أقوى وأغنى سلطة في فرنسا ، كانت تمتلك ـ طبقاً لمختلف التقديرات ـ ما بين ٦ ٪ و ٢٠ ٪ من الأرض ، وثلث الثروة ، وكان دخل أسقف (سنس) السنوى ٧٠ ألف جنيه ، وأسقف بوفيه ٩٠ ألفاً ، ورئيس أساقفة

روان ١٠٠ ألف ، ورئيس أساقفة ناربون ١٩٠ ألفاً ، ورئيس أساقفة باريس ٢٠٠ ألف ، أما رئيس أساقفة ستراسبورج فقد أربى دخله السنوى على مليون جنيه .. ولم تدفع الكنيسة أية ضرائب عن شيء من ممتلكاتها أو دخلها ، لكن رجال الدين كانوا يقررون ـ بصفة دورية فى المجامع الوطنية ـ إعانة اختيارية للدولة ، وفى سنة ١٧٧٣ بلغ هذه الإعانة ستة عشر مليون جنيه .

وفى سنة ١٧٤٩ اقترح المراقب المالى العام أن يستبدل بهذه المنحة الاختيارية ضريبة مباشرة سنوية قدرها ٥٪ من مجموع الدخل ، تفرض على الكنيسة ، وعلى عامة الناس ، فقاوم الاقتراح رجال الدين فى غضب شديد ، كذلك اقترح تحريم التوريث بالوصية للكنيسة ، دون موافقة الدولة ، وإلغاء المؤسسات الدينية التى قامت منذ سنة ١٦٣٦ ، دون ترخيص من الملك ، ومطالبة شاغلى الرتب الكنسية ذوات الدخل بتقديم تقرير عن مواردهم إلى الحكومة ، وأبت جمعية انعقدت من رجال الدين الامتثال لهذه القرارات .

وحاول فولتير تشجيع المراقب المالى والملك ، فأصدر كتيباً عنوانه (صوت الحكمة وصوت الشعب) . حرض فيه الحكومة على أن تفرض سيطرتها على الكنيسة ، وأن تحول دون أن تكون الكنيسة دولة داخل الدولة ، وأن تعهد إلى فلاسفة فرنسا بالدفاع عن الملك والوزراء ضد كل خرافة ، لكن لويس الخامس عشر لم ير سبباً يدعوه إلى الاعتقاد فى قدرة الفلسفة على مواجهة الدين ، وأدرك أن نصف سيادته وسلطانه يتركز على مسحة بالزيت المقدس، وتتويجه بأيدى رجال الدين ، ليصبح نائب الله الذى يتحدث بمقتضى التفويض الإلهى .

* وفى سنة ١٦٩٨ عين أندريه هركيل دى فيلرى أسقفاً فى فريجيس ، ثم مؤدباً للملك سنة ١٧١٥ ، وسرعان ما أصبح ذا تأثير شديد على عقل الصبى .. واعتقد ميشيليه وسانت بيف أن فليرى أضعف شخصية الملك الصغير ، بإطلاق العنان لرغباته وشهواته فى ابتهاج خال من الهموم والتفكير ، ورباه على مساندة اليسوعيين .

كان فليرى من الذكاء والدهاء بحيث جعل فرنسا تود أن تراه على رأس الإدارة فيها ، وأصبح سنة ١٧٢٦ الوزير الأول فى كل الشئون إلا اللقب .. ولم ينس أنه قسيس ، فألغى ضريبة الـ ٢٪ فيما يتعلق برجال الكنيسة ، وطلب إليهم أن يساندوه لينصب كردينالاً ، حتى يكون له حق الصدارة والأسبقية على الأدواق فى مجلس الدولة ، فكان له ما أراد ، ومنذ ذلك الحين لم يخف حقيقة أنه يحكم فرنسا .

وبعد اتساع التجارة الداخلية والخارجية ألغى ضريبة الـ ٢ ٪ على الدخل بالنسبة لجميع الطبقات ، وخفف ضريبة الأملاك على الفلاحين ، وأعاد حق انتخاب الموظفين الرسميين إلى المدن الكبيرة والصغيرة .. لكنه أقر السخرة التي فرضت على الفلاحين العمل دون مقابل إلا الطعام ، وأسس مدارس عسكرية لأبناء الأرستقراطية ، وأهمل إصلاح البحرية بشكل مخل ، مما جعل المستعمرات الفرنسية تحت رحمة الأساطيل الإنجليزية .

* ولقد واكب توسع الكنيسة في ملكياتها توسع رجال الكنيسة في المباذل والمفاسد ، لدرجة أنه في عهد لويس السادس عشر بلغت ملكيتها ٦ ٪ من الأرض ، وأملاكاً أخرى تقدر بأربعة ملايين جنيه تقريباً ، تغل دخلاً سنوياً قدره ١٢٠ مليوناً يضاف إلى هذا ١٢٣ مليون جنيه من العشور التي تجبى على غلات الأرض وماشيتها . وكانت هذه الدخول في نظر الكنيسة لازمة لأداء مختلف وظائفها .

ومن ثم ـ كما قال توكفيل ـ كانت الكنيسة مكروهة ، (لا لأن القساوسة زعموا أنهم ينظمون شئون العالم الآخر ، بل لأنهم كانوا ملاكاً للأرض ، وأصحاب ضياع وعشور، وحكاماً في هذا العالم) .

ولم تقف كراهيتهم عند هذا الحد ، لأن (الإخوة الرماديين) الفرنسيسكان كانوا ـ كما قال رئيس أساقفة تور سنة ١٧٧٨ ـ (في حالة انحطاط في هذا الإقليم ، يشكو الأساقفة من خلاعتهم ، وما في حياتهم من فوضى) .

وصرح الأب بونفاكس سنة ١٧٨٩ بأن (أخطر فضيحة ، والفضيحة التي ستجر أوخم العواقب ، هي الهجر التام تقريباً للتعليم الديني في المدارس العامة) ، وذلك بسبب تخلي رجال الدين عن دورهم الرئيسي في الحياة ، لدرجة أن لويس السادس عشر رفض أن يكلف قسيساً بتعليم ولده ، مخافة أن يفقده إيمانه .

لقد كان هم رجال الدين ، بسبب أطماعهم المادية ، أن يفتك بعضهم ببعض ، أو يوقع بعضهم ببعض .

في يوليه ١٧٧٥ التمس مؤتمر من رجال الدين الكاثوليك من الملك أن يحظر اجتماعات البروتستانت ، وزيجاتهم ، وتعليمهم ، وأن يحرم البروتستانت من جميع المناصب العامة ، كذلك طلب خفض السن التي يسمح فيها بنذر الرهبنة إلى السادسة عشرة ، لكن طورجو الوزير الفرنسي ناشد لويس السادس عشر إغفال هذه الاقتراحات .

وبمبادرة خاصة من فيرميان رئيس أساقفة سالزبورج ، ضيق على البروتستانت في أسقفيته ، حتى حمل ثلاثين ألفاً على الهجرة .

* * أما الكنيسة الأسبانية فقد ادعت الحق فى نصيب مربح من جملة الناتج القومى ، بوصفها الحارس الإلهى للوضع الراهن ، وقد قدر مصدر أسبانى موثوق أن دخلها السنوى بعد الضرائب بلغ ١٫١٠١٫٧٥٣٫٠٠٠ ريال ، ودخل الدولة كان يبلغ ١٫٣٧١٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال ، وكان ثلث إيرادها يأتيها من الأرض ، ومبالغ طائلة تجمعها من العشور وبواكير الثمار ، ومبالغ أخرى من مراسيم العماد ، والزيجات ، والجنائز ، والقداديس على أرواح الموتى ، والحلل الديرية التى تباع للأتقياء الذين يظنون أنهم إن ماتوا وعليهم هذه الأرواب فقد يتسللون إلى الجنة دون مساءلة ، وأتى الرهبان المستجدون بمزيد من المال بلغ ٣٥ مليون ريال ، على أن أواسط القساوسة كانوا فقراء ، لكثرة عددهم ، فقد كان فى أسبانيا ٩١٫٢٥٨ من رجال الكهنوت ، منهم ١٦٫٤٨١ قساً ، ٢٫٩٤٣ راهباً يسوعياً .. وفى سنة ١٧٩٧ كان ستون ألف راهب ، وثلاثون ألف راهبة ، يعيشون فى ثلاثة آلاف دير ، وكان رئيس أساقفة أشبيليه وموظفوه البالغون ٢٣٥ مساعداً يتمتعون بدخل سنوى مقداره ستة ملايين ريال ، أما رئيس أساقفة طليطلة ـ وكان له متمائة مساعد ـ فبلغ دخله تسعة ملايين ريال ، وهنا ـ كما فى إيطاليا والنمسا ـ لم تثر ثروة رجال الدين أى احتجاج من الشعب ، فالكاتدرائية من صنعهم ، وقد أحبوا أن يروها فى زينة بهية .

وقد ضرب تدين الأسبان المثل والقدوة للعالم المسيحى ، فلم يلق اللاهوت الكاثوليكى ـ فى مكان آخر فى القرن الثامن عشر ـ مثل هذا الإيمان الشامل به ولا شهدت الطقوس الكاثوليكية مثل هذا الاحترام الشديد ، ونافست الممارسات الدينية السعى وراء العيش ، ولعلها فاقت السعى وراء الجنس باعتبارها جزءا من الحياة .

وكان أفراد الشعب ـ بما فيهم البغايا ـ يرسمون علامة الصليب مراراً وتكراراً كل يوم ، وفاقت عبادة العذراء عبادة المسيح ، وانتشرت صورها وتماثيلها فى كل مكان .

كانت المواكب الدينية كثيرة ، مثيرة ، غنية بالألوان ، وكان فى الامتناع عن الركوع ـ إذا مر موكب ـ مجازفة بالاعتقال أو الاعتداء .

لقد كان المسيح ملكاً ، ومريم ملكة ، والإحساس بالحضرة الإلهية فى كل لحظة من لحظات اليقظة جزءا من صميم الحياة .

وتجد فى كل مكان القساوسة والرهبان والإخوة غير متسامحين ، غير راضين عن مباهج الحياة والحب ، كما فى إيطاليا أو فرنسا ، بل يلقون جواً من اكتئاب الجريكو على كل شىء ، إلا مصارعة الثيران .

كان في أسبانيا ٩,٠٨٨ ديراً ، و٣٢,٠٠٠ أخ دومنيكي وفرنسيسكاني ، وعدد متزايد من اليسوعيين ، وكانت الكنائس معتمة ، تزخر بالرفات الرهيبة ، وتزدان بالمرعبات الواقعية في فنها ، أما قصص القديسين ومعجزاتهم فهي الشعر الذي يعتز به الشعب ، وحبب الناس في التصوف أغاني القديس يوحنا الصليبي وكتابات القديسة تريزا .

كان الشعب يرقب في شغف حرق المهرطقين ، ويجود بكل ما يملك دفاعاً عن العقيدة ، وكأن الأمة كانت تحس بأنه ما لم يكن إيمانها صادقاً فإن الحيـاة تصبح سخفاً لا معنى له ـ قصة الحضارة مج ٧ ج ٢ ص ٨١ .

* بينما كانت نسبة رجال الكنيسة إلى الشعب في فرنسا ـ في هذا القرن « الثامن عشر » ـ واحداً إلى مائتي نفس ، كانت النسبة في روما واحدا لكل خمس عشرة ، وفي بولونيا واحداً لكل سبع عشرة ، وفي نابلي وتورين واحداً لكل ثمان وعشرين .. (لقد استفحل عدد الإكليروس ، بحيث أصبح لزاماً على الأمـراء أن يتخذوا الإجـراءات للحد مـن عددهم ، وإلا ابتلعوا الدولة بأسرها ، فأي ضرورة لأن يهيمن على أصغر القرى الإيطالية خمسـون قسيسـاً أو ستون ؟ إن العدد الضخم من أبراج الكنائس والأديرة يحجب نور الشمس ، وهناك مدن يبلغ فيهـا العـدد خمسـة وعشرين ديراً لرهبان أو راهبات الدومنيكان، وسبع مجامع لليسـوعيين ، ومثلها للتياتين ، ونحو عشرين أو ثلاثين ديراً للإخوة الفرنسيسكان ، وما لا يقل عن خمسين ديراً آخر لطوائف دينية مختلفة ، هذا فضلاً عن أربعمائة أو خمسمائة كنيسة ومصلى) ـ قصة الحضارة مج ١٠ ج ٢ ص ١٧ .

ولعل هذه الأرقام خضعت للمبالغة .. ومع أن الرهبـان كـانوا فقـراء نسبياً ، فإن الإكليروس كانوا في جملتهم يملكون ثروة تفوق ثروة النبلاء .كان الإكليروس في نابلي يحصلون على ثلث الموارد ، وفي دوقية بارما كان للإكليروس نصف الأرض ، وفي تسكانيا ثلاثة أرباع الأرض ، وفي البندقية أضافت الوصايا الجديدة إلى الكنيسة ما بين (١٧٥٥ ـ ١٧٦٥) مـا قيمتـه ٣,٣٠٠,٠٠٠ دوقاتية ، وكـان بعض الكرادلة والأسـاقفة من أغنى الرجال ، كانوا أبناء مديرين وحكام . ولم يكونوا قسيسين إلا أحياناً .

وكان الشعب فخوراً ببهاء كنائسه وأديرته وأحباره ، وبدت لهم مساهماتهم ثمناً زهيداً يدفعونه لقاء النظام الذي وفره الدين للأسرة والدولة ، وكان في كل بيت تمثال أو صورة للمسيح المصلوب ، وآخر للعذراء ، وأمامهما تركع الأسرة كلها في صلاة كل مساء .

كان القساوسة الواعون لمفاتن النساء لا يغالون في إدانة الخطايا ، وأغضوا عن مظاهر التحلل في الكرنفالات .

وكان البغايا فى السبوت يوقدن الشموع أمام العذراء ، ويودعن نقوداً لتراتيل القداس .

وقد أدهش دبروس ـ وهو يشاهد تمثيلية فى فيرونا ـ أن يرى التمثيل يتوقف ، حين دقت أجراس الكنائس ، معلنة موعد الصلاة ، وركع كل الممثلين وصلوا ، وقامت ممثلة كانت تتصنع الإغماء فى المسرحية ، لتشارك فى الصلاة ، ثم عادت إلى إغمائها .

حقاً ندر أن أحب الناس ديناً حبــاً جماً ، كما أحب الإيطاليون الكثلكة فى إيطاليا ، لأن بعضهم كانوا جانسنيِّــين فى دخيلة أنفسهم ، برغم أوامر البابا .

وكانت جماعة اليسوعيين سنة ١٧٣٠ تضم نحو ٢٣ ألف عضو ، منهم ٣٫٦٢٢ فى إيطاليـا ، نصفهم قساوسة ، ولم يكن هنــاك قط تناسب بين سلطانهم وعـددهم ، فكثيراً ماأثروا فى السياسة الداخلية والدولة ، بحكم كونهم آباء الاعتراف للملوك والملكات والأسر المرموقة ، وكانوا أحياناً أكثر القوى إلحاحاً ـ بعد جماهير الشعب ـ فى اضطهاد الهراطقة ، ومع ذلك كانوا أكثر اللاهوتيين تحرراً .

وقد وجد الملوك فى جماعة اليسوعيين ـ أثناء صراعات السيادة بين الدول القومية والكنيســة ـ عدواً هو أشد أعدائهم دهـاء وصبراً ، ومن ثم صحت نيتهم على القضــاء عليهـا .

* وفى البندقية قبل الناس الدين على أنه عادة لاشعورية من عادات الشعائر والإيمان ، وكانوا يلهون أكثر مما يصلون ، بسبب من رواجهم التجارى ، وكثرة ترحلهم .

وصف أحدهم الحياة فى البندقية بقوله : (فى الصباح قداس صغير ، وبعد الغداء لعبة قمار صغيرة ، وفى المساء امرأة صغيرة) .

كان الشباب يذهبــون إلى الكنيسة ، ليدققــوا النظر فى النساء ، وكان النساء ترتدين (الديكولتيه) الذى يكشف عن نحورهن وظهورهن ، وكانت الحرب بين الدين والجنس تنتهى لصالح الجنس .

أجازت الحكومة البغاء المنظم إجراء وقائياً ، واشتهرت غوانى البندقية بجمالهن ، ودماثة طباعهن ، وفخامة ثيابهن ، وبذخ مسـاكنهن ، وكان عدد الغوانى كبيراً ، لكنه لم يف بحاجة الراغبين ، فانغمس المتزوجات فى علاقات طائشة ، غير مكتفيات بالمرافقين من (السادة الخدام) ، واختلف بعضهن إلى المجتمعات العامة ، لتيسير اللقاءات الغرامية .

افتتح أول ناد للقمار سنة ١٦٣٨ ، وسرعان ما تكاثرت الأندية ، وهرع إليها جميع الطبقات .

وعنى المتأنقون من الشباب بلباسهم وشعرهم وعطرهم ، حتى صعب تمييز جنسهم ، وعينت العصريات بأبراج عجيبة من الشعر الطبيعي والمستعار فوق رءوسهن ، وتحلى الرجال بالجواهر والحلى النفيسة .

وفى كرنفال الأسبوع السابق للصوم الكبير كان البنادقة يتدفقون على الميادين بملابس فاقعة الألوان ، وتروج سوق البغايا ، وتكون رقصات الدمى ، والسير على الحبال ، وتجلب الحيوانات الغريبة ، كوحيد القرن ، لتسير في المهرجان ، وتقرع أجراس الكنائس .

* * في روسيا كان للدين سلطان كبير ، لأن الفقر كان مدقعاً ، ولأن تجار الأمل وجدوا مشترين كثيرين ، واقتصرت الشكوكية على طبقة تقرأ الفرنسية ، وكان للماسونية أتباع كثيرون فى هذه الطبقة ، أما سكان الريف وأكثر سكان المدن ، فكانوا يحيون فى عالم قوامه التدين الذى يشيع فيه الخوف ، يتخيلون الشياطين تحيط بهم ، ويرسمون الصليب مراراً كل يوم ، ويتضرعون للقديسين متشفعين ، ويتعبدون لرفاتهم ، يرهبون المعجزات ، ويرتعدون فرقاً من النُذر ، ويخرون سجداً أمام الصور المقدسة ، ويولولون بترانيم حزينة باكية .

كان للكنائس أجراس ضخمة ، أقام بوريس جودونوف جرساً بلغ وزنه ٤٣٢ ألف رطل ، فبزته آنا إيفانوفنا الإمبراطورة بصب جرس يزن ٨٨٢ ألف رطل ، وعمرت الكنائس بالمصلين ، وكانت الطقوس أكثر مهابة ووقاراً ، والصلوات أكثر حماسة ووجداً ، أما القساوسة – وكل منهم يلقب بالبابا – فكانت لهم لحى وشعر مرسل وأردية قاتمة تصل إلى أقدامهم ، وقلما كانوا يختلطون بالنبلاء أو رجال البلاط ، بل يعيشون فى بساطة متواضعة ، متبتلين فى أديرتهم ، أو متزوجين في دورهم ، وكان رؤساء الأديرة يحكمون الرهبان ، والرئيسات يحكمن الراهبات ، وكان الكهنة غير الرهبان يخضعون للأساقفة ، وهؤلاء لرؤساء الأساقفة ، وهؤلاء للمطارنة الإقليميين ، وهؤلاء للبطريرك فى موسكو ، والكنيسة بجملتها تعترف برئيس الدولة رأساً لها ، خارج الكنيسة عشرات الملل والنحل تتنافس في التصوف والتقوى والكراهية .

* وفى الدنمرك سيطرت الكنيسة على المنابر والمطابع ، فحرمت الرقابة الصارمة التى امتدت من ١٥٣٧ إلى ١٨٤٩ كل ما يطبع أو يقال ، مما لا يتفق والتعاليم اللوثرية القويمة ، وصودر كثير من الكتب غير اللاهوتية كقصة جوته (آلام فرتر) ، لأنها خطر يهدد الأخلاق العامة ، وزاد من القيود المعطلة لنمو الأدب استعمال الألمانية فى البلاط ، واللاتينية في الجامعات ، والفرنسية في الآداب البحتة التى لا يكاد يوجد منها شيء .

كاليجولا .. يحمل راية المسيح !!

كان فردريك الثانى ـ فى القرن الثالث عشر ـ يستقدم إلى بلاده الصناع اليهود ، ليشرفوا على صناعة الحرير التابعة للدولة فى صقلية ، وكان اليهود فى تلك الجزيرة وفى غيرها من البلاد يشتغلون فى الصناعات المعدنية ، وبخاصة فى الصياغة ، وصناعة الحلى ، وظلوا يعملون فى مناجم القصدير فى كورنوول إلى سنة ١٢٩٠ ، وانتظم الصناع اليهود فى أوروبا الجنوبية فى طوائف للحرف قوية .. كانوا ينافسون الصناع المسيحيين منافسة شديدة ، أما فى أوروبا الشمالية فقد احتكرت طوائف الحرف المسيحية كثيراً من الصناعات ، وأخذت الدول المختلفة ، واحدة إثر الأخرى ، تحمل على اليهود ، وتحرم اشتغالهم حدادين ونجارين وخياطين وحذائين وطحانين وخبازين وأطباء ، كما حرمت عليهم بيع الخمور والدقيق والزبد والزيت فى الأسواق وابتياع مساكن خارج الأحياء اليهودية .

وإزاء هذه القيود الثقيلة لجأ اليهود إلى التجارة فى غير هذه المحرمات .. كان اليهودى الجوال معروفاً بين المدن والقرى فى كل سوق ومولد ، لقد تخصص اليهود فى التجارة الدولية وكادوا يحتكرونها .. كانت أحمالهم وقوافلهم وسفائنهم تجتاز الصحارى والجبال والبحار ، وأعانهم على التجارة الدولية مهارتهم فى تعلم اللغات .

قال ابن خرداذبة ، صاحب البريد فى الدولة العباسية سنة ٨٧٠ م ، فى كتابه : (المسالك والممالك) عن التجار اليهود الذين يتكلمون الفارسية واليونانية والعربية والفرنجية والأسبانية والصقلية ، ووصف المسالك البرية والبحرية التى يسلكونها بين أسبانيا وإيطاليا ومصر والهند والصين ، يحملون الخصيان والعبيد والحرير المطرز والغراء والفراء والسيوف إلى بلاد الشرق الأقصى ، ويعودون محملين بالمسك والند والكافور والتوابل والمنسوجات الحريرية .

* ثم كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، واستيلاء أساطيل البندقية وجنوه على بلاد البحر المتوسط ، فأصبحت للتجار الإيطاليين ميزة على اليهود ، وقضى على زعامة اليهود التجارية فى القرن الحادى عشر .

كانت مدينة البندقية ـ قبل الحروب الصليبية ـ قد حرمت نقل التجارة اليهودية على سفنها، ثم تم إغلاق الموانئ الواقعة على بحر الشمال وبحر البلطيق فى وجه التجارة اليهودية .

وقبـل أن يحـل القـرن الثـانى عشر أضحى الجـزء الأكبر من التجارة اليهـودية تجـارة محليـة .

وحدث فى سنة ١١٩٨ ـ حين كان الاستعداد للحرب الصليبية الرابعة ـ أن أمر البابا إنوسنت الثالث جميع الأمراء المسيحيين بإلغاء جميع فوائد القروض التى يطالب بها اليهود مدينيهم المسيحيين .. وأعفى لويس التـاسع ، ملك فرنسا القديس ، جميع رعـاياه من ثلث ما كانوا مدينين به لليهود .. وكان الملوك الإنجليز يصدرون خطابات إعفاء ، يلغون بمقتضاها فائدة الدين ، أو رأس المال ، أو كليهمـا ، لرعاياهم المدينين لليهود ، مع أن اليهود كانوا أحياناً هم الذين يمولون المملكة .. وفى سنة ١٢١٠ أمر الملك يوحنا أن يزج فى السجون يهود انجلترا جميعاً ـ رجالاً ونساء وأطفالاً ـ ثم جمعت منهم ضريبة للملك، وعذب الذين ظن أنهم لم يبوحوا بكل ممتلكاتهم بأن اقتلعت كل يوم سن من أسنانهم ، حتى يقروا بحقيقة مدخراتهم .

واتهم هنرى الثالث سنة ١٢٣٠ اليهـود بقطع جـزء من عملة الدولة ، فصـادر ثلث ما يمتلكه يهود انجلترا من ثروة منقـولة ، ولمـا تبين أن هذه وسيلة مريحة أعادها سنة ١٢٣١ ، ولما استدان من دوق كورنوول رهن له جميع يهود انجلترا ضماناً لدينه .

وفى عهد إدوارد الأول شنق مائتان وثمانون من المرابين اليهود ، وطيف بجثثهم فى شوارع لندن ، وقتل عدد آخر فى المقاطعات الإنجليزية ، وصودرت أملاك مئات منهم لصالح الدولة .

* ولما نمت الشئون الاقتصادية المسيحية ، وغزا التجار ورجال المصارف من غير اليهود ميادين كان اليهود هم المسيطرين عليها من قبل ـ أثارت المنافسة الاقتصادية الأحقاد فى الصدور ، وأخذ بعض المرابين المسيحيين يبذرون بذور الحقد على السامية ، وكان اليهود الذين يشغلون مناصب رسمية ، وبخاصة فى المصالح المالية ، للحكومات المسيحية هدفاً طبيعياً لمن يكرهون الضرائب واليهود كليهما ، وتأصلت هذه الأحقاد الاقتصادية والدينية ، فأصبح كل ما هو يهودى بغيضاً لبعض المسيحيين ، وكل ما هو مسيحى بغيضاً لبعض اليهود .. أخذ المسيحيون يعيبون على اليهود عزلتهم التى كانت رد فعل لموقف الآخرين منهم .. وبدت ملامح اليهود ولغتهم وآدابهم وشعائرهم وأطعمتهم كريهة غريبة .. ثم إن اليهود كانوا يفطرون حين يصوم المسيحيون ، ويصومون حين يفطرون ، وظل يوم السبت يوم راحة اليهود وصلواتهم ، على حين صار يوم الأحد يوم راحة المسيحيين وصلواتهم ،

وكان اليهود يحتفلون بنجاتهم السعيدة من مصر في عيد الفصح القريب من يوم الجمعة الحزينة عند المسيحيين ، ولم تكن الشريعة اليهودية تبيح أكل طعام مسه أبد غير يهودية ، أو يشربون خمراً عصرته ، أو يستعملون آنية لمستها ، أو أن يتزوجوا من غير يهوديات ، وكان المسيحي يفسر هذه القواعد التي نشأت قبل نشأة المسيحية تفسيراً عدوانياً ، ويرد على هذا بأن اليهودي لا يمتاز بنظافة الجسم والثياب والطعام .

ونشأت عن العزلة المتبادلة أقاصيص سخيفة محزنة .. كان الرومان يتهمون المسيحيين بأنهم يذبحون أطفال الوثنيين ، ليقدموا دماءهم في السر قرباناً لإلههم ، وفي القرن الثاني عشر اتهم المسيحيون اليهـود باختطاف الأطفال ليقدموهم قرباناً ليهوه ، وليتخذوا دماءهم دواء ، أو ليستعملوه في صنع فطير عيد الفصح ، كما اتهم اليهود بتسميم الآبار التي يشرب منها المسيحيون ، وبسرقة الرقاق المقدس ليثقبوه ويخرجوا منه دم المسيح .. ورد اليهود بدعاوى أخرى عن المسيحيين ، وعن مولد المسيح ونشأته .

* كان موقف الكنيسة من هذه الأحداث يختلف باختلاف الأمكنة ، ففي إيطاليا كان اليهود يعدون بمثابة (حراس الشريعة) الواردة في العهد القديم ، وأنهم شهود أحياء على صحة الكتاب المقدس من الناحية التاريخية ، وأنهم شهود على (غضب الله) على من لا يدينون بوصاياه .. لكن مجالس الكنيسة كانت تعمل على زيادة متاعب الحياة اليهودية، فقانون ثيودوسيوس الصادر سنة ٤٣٩ ، ومجلس كليرمنت سنة ٥٣٥ ، ومجلس طليطلة سنة ٥٨٩ ـ كلها حرمت تعيين اليهود في المناصب التي من حق شاغليها توقيع عقوبة على المسيحيين .. وأقر مجلس أورليان سنة ٥٣٨ ألا يخرج اليهود من بيوتهم طوال الأسبوع المقدس ، وحرم استخدامهم في المناصب العامة ، وحرّم مجلس لاتران الثالث سنة ١١٧٩ على القابلات أو المرضعات المسيحيات أن يخدمن اليهود ، وندد مجلس بزيير سنة ١٢٤٦ باستخدام المسيحيين أطبـاء يهوداً .. وأعلنت بعض المجـالس إلغـاء كل زواج تم بين المسيحيين واليهـود .

ولما دعا البابا أربان الثاني إلى الحرب الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ رأى بعض المسيحيين أن يقتلوا يهود أوروبا ، قبل أن يخرجوا لقتال الأتراك في أورشليم .. وزعم أحد الرهبان أن نقشا على الضريح المقدس في أورشليم بجعل تنصير اليهود فريضة أخلاقية على جميع المسيحيين .. كانت الخطة الصليبية أن يتم الزحف جنوباً بمحاذاة نهر الراين ، حيث توجد أغنى مواطن اليهود في أوروبا الشمالية .. ولما وصل الصليبيون إلى أسبير في ٣٠ مايو

١٠٩٦ ، جروا أحد عشر يهودياً إلى إحدى الكنائس ، وأمروهم أن يقبلوا التعميد ، فلما أبوا قتلوهم . وفي مينز خبأ كبير الأساقفة ١٣٠٠ يهودى في سراديبه ، لكن الصليبيين اقتحموها وقتلوا ١٠١٤ ، وتم إخفاء الباقى فى الكنيسة الكبرى ، وفي كولونى أحرق الغوغاء الحي اليهودى ، وقتلوا من وقع في أيديهم .. وبلغ مجموع من قتل من اليهود في مذبحة وورمز نحو ثمانمائة ، وحدثت مذابح مثلها في متز ورنجز برج وبراغ .

وأشار القديس بطرس المبجل ، رئيس كلونى ، على لويس السابع ملك فرنسا أن يبدأ بمهاجمة اليهود الفرنسيين . واكتفى لويس التاسع بفرض ضرائب باهظة على أغنيائهم .

وذبح اليهود في كارنتا ، ورامرو ، وسلى (Sully) ، وفي بوهيميا .

وفي بادن حدثت مذبحة سنة ١٢٣٥ ، كذلك في بلتز القريبة من برلين سنة ١٢٤٣ ، وفي ميونخ سنة ١٢٨٥ ، وفي روثنجن سنة ١٢٩٨ .

وإبان الاحتفال بتتويج رتشارد الأول سنة ١١٩٠ حدثت مذبحة في لنكولن ، واستامفورد ، ولن (Linn).

وفي سنة ١٢٥٥ تكررت المأساة في لنكولن، لمجرد إشاعة قتل أحد الغلمان ، فهاجمت عصابات مسلحة مقر اليهود ، وقبضوا على الكوهن ، وشدوه في ذيل جواد ، ثم شنقوه ، وشنقوا عدداً كبيراً معه .

وكادت المذابح في لندن تمحو وجود اليهود ، كذلك في كنتربرى ، ونورثمبتن ، وونشستر ، وورسستر ، ولنكولن ، وكيمبردج ، ما بين ١٢٥٧ ، ١٢٦٧ ، وأخيرا أمر إدوارد الأول من بقى من اليهود بمغادرة البلاد ، وكانوا حوالى ستة عشر ألفاً ، غرق كثير منهم في القنال الإنجليزى ، وسرق ملاحو السفن متاعهم وأموالهم ، فلما وصل بعضهم إلى فرنسا ، أمرتهم الحكومة الفرنسية بمغادرة البلاد قبل بداية الصوم الكبير سنة ١٢٩١ .

وفي سنة ١٢٣٦ دخل الصليبيون الأحياء اليهودية في أنجو ، وبواتو ، وبوردو ، وأنجوليم ، وداسوا بحوافر خيولهم ثلاثة آلاف منهم .

وفي سنة ١٢٥٤ نفى اليهود من فرنسا ، وصودرت أملاكهم ومعابدهم ــ قصة الحضارة مج ٤ ج ٣ ص ٩٣/٦٠ .

* وفي أسبانيا لم يصفح عن اليهود قط ، فقد اضطهدوا على مدى ألف عام ، وخضعوا لضرائب مهينة وقروض مغتصبة ، وللتعميد الإجبارى ، ولمصادرة الأموال

والاغتيال ، وأرغموا على سماع العظات المسيحية ، وعلى التنصر ، وأمروا أن يرتدوا شارة مميزة ، كانت في العادة دائرة حمراء توضع على الكتف ، ولم يسمح لأطبائهم أن يعالجوا المسيحيين ومن عاشر منهم مسيحية يقتل .. وفي مدينة ستلا سنة ١٣٢٨ حرّض راهب فرنسيسكاني على قتل اليهود ، فتم حرق خمسة آلاف ، وحرقت منازلهم .

وفي سنة ١٣٩١ أثارت عظات فرنان مارتنيز الجماهير ، فقتل كل من رفض التنصير من اليهـود .

وآثر آلاف من اليهود الأسبان التعميد للخلاص مما ينزل بهم ، واستطاع هؤلاء المتنصرون أن يشقوا طريقهم في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية ، وظل مصير غير المعمدين معلقاً حوالي مائتين وخمسة وثلاثين عاماً ، في أسبانيا المسيحية ، إذ كيف تتحقق الوحدة الدينية مع وجودهم .. رأى توركيمادا استحالة بقائهم ، وأوصى بإكراههم على التنصر أو نفيهم لكن فرديناند خشي تأثير نفيهم على التجارة والمال ، بسبب قدرة العبرانيين في هذا المجال ، لكنه أخبر أن اليهود يحاولون إعادة المتنصرين إلى اليهودية ، واتهم طبيبه رباس ألتس ــ وهو يهودي معمد ــ أنه يحمل كرة ذهبية بها صورة توحي بتنجيس الصليب ومع أنه برىء من هذه التهمة أُحرق سنة ١٤٨٨ ، وزيفت رسائل من يهود القسطنطينية إلى يهود أسبانيا بسرقة المسيحيين ودس السم لهم ، وتكررت اتهامات باطلة أحرق على أثرها عدد من اليهود .

وكان سقوط غرناطة في ٥ نوفمبر١٤٩١ مشجعاً على اتخاذ قرار حاسم ضد اليهود .

وفي ٣٠ مارس ١٤٩٢ وقع فرديناند وإيزبلا مرسوماً يقول : (على جميع اليهود غير المعمدين ــ أياً كانت أعمارهم أو أحوالهم ــ أن يتركوا أسبانيا في موعد غايته ٣١ مايو، ولا يسمح لهم بالعودة ، ومن يفعل عقوبته الإعدام) .

وكان عليهم أن يتخلصوا من ممتلكاتهم في هذه الفترة القصيرة بأي ثمن ، وأن يأخذوا معهم المتاع المنقول ، وصكوك المعاملات ، والذهب والفضة .

وهكذا انتقلت أموال اليهود إلى أيدي المسيحيين بأقل قيمة ، ووضع المسيحيون أيديهم على المعابد ، وحولوها إلى كنائس ، وتحولت مدافن اليهود إلى مراع ، وذابت في أشهر قليلة ثروات تكدست في قرون ، وقبل خمسون ألفاً التنصر ، وترك أسبانيا أكثر من مائة ألف في موكب طويل كئيب .

وكانت البرتغال أكثر الأهداف ملاءمة للمهاجرين ، ففيها جماعة يهودية كبيرة ،

وبلغ بعضهم مكانة كبيرة من الثراء والسلطة .. لكن جون الثاني أفزعه أن يتدفق على بلاده هذا (الوباء) الكبير ، فمنحهم ثمانية أشهر يرحلون بعدها .

وتفشي الطاعون بين المهاجرين ، فيسر لهم جون الرحيل على سفن بأجور زهيدة ، بيـد أن الربابنة عبثوا بهؤلاء المهاجرين سرقة واغتصاباً ، وألقـوا بكثير منهم على شـواطئ غير مأهـولة .

وبعد انتهاء مهلة الثمانية أشهر باع جون الثاني من بقوا بيع الرقيق ، وانتزع الأطفال دون الخامسة عشرة من ذويهم ، وأرسلوا إلى جزر القديس توماس لينشئوا تنشئة مسيحية .

ولما خطب مانويل ـ خليفة جون الثاني ـ إيزابلا ابنة فرديناند وإيزابلا، اشترط ملكا أسبانيا أن ينفى جميع اليهود غير المعمدين من البرتغال ، فأمر سنة ١٤٩٦ جميع اليهود في مملكته أن يتنصروا أو يطردوا .

التمست الكثرة العظمى مـن منفيي السفارديم[١] ملاذاً في بلاد المسلمين ، وكونوا أو انضموا إلى مستوطنات يهـودية في شمـالي أفريقيـا ، وسالونيك، والقاهرة، والآستـانة ، وأدرنة ، وأزمير ، وحلب ، وإيران ، وفي هذه المواطن بلغ اليهود مكاناً مرموقاً ، أطباء ، أو مشاركين في شئون الدولة .

وفي سنة ١٥٩٥ أعرب أسـقف أسبانيا عن ارتيـاحه ، لأن اليـهـود المتنصرين أمكن استيعابهم بنجاح ، وصاروا مسيحيين أتقياء ، لكن ديوان التفتيش لم يوافقـه على هذا الرأي ، وفي سنة ١٦٥٤ تم إحراق عشرة في كوينكا ، واثني عشر في غرناطة ، وفي سنة ١٦٦٠ قبض على ٨١ في أشبيليه وأحرق سبعـة ، وذلك بتهمة ممـارسة الشعائر اليهودية سراً .

وفي سنة ١٦٨٠ أعرب شـارل الثـاني ، ملك أسبـانيا ، عن رغبته في أن يشـهـد احتفالاًبحرق المهرطقين ، فتطوع صناع مدريد وبنوا مدرجاً للمشهد المقدس ، وكان يشجع بعضهم بعضاً على الإسراع بألوان من الحض الديني ، وحضر شارل وعروسه الشابة في كل أبهة الملك ، وحوكم ١٢٠ سجيناً ، وأحرق ٢١ حتى الموت في مرجل في الميدان الكبير ، وكان هذا أعظم وأفخم احتفال بحرق المهرطقين في تاريخ أسبانيا ، ونشر كتاب من ٣٠٨

---

(١) ورد لفظ (سفارد) في التوراة اسماً لإقليم في غربي آسيا ، نزل فيه اليهود بعد استيلاء البابليين على أورشليم ، وفي تاريخ لاحق أصبحت الكلمة عبرياً تطلق على أسبانيا ، وصار يهود أسبانيا (سفارديم) .

صفحات فى تخليد الحدث .

* * أضافت الروح القومية المنبعثة نغمة جديدة إلى أنشودة البغض والكراهية ، وذهبت كل أمة إلى أنها بحاجة إلى وحدة عرقية ودينية ، فطالبت بامتصاص اليهود فيها ، أو تحولهم عن دينهم .

وكانت عدة مجالس كنسية ، كما كان بعض البابوات يكرهون اليهود بشكل عدوانى ، وحرم مجلس فيينا سنة ١٣١١ أى تعامل بين المسيحيين واليهود .. واسْتن مجلس زمورا سنة ١٣١٣ قاعدة بأن يبقوا فى حالة خضوع وعبودية .

وجدد مجلس بال (١٤٣١ ـ١٤٣٣) القوانين الكنسية التى تحرم على المسيحيين معاشرة اليهود ، أو خدمتهم ، أو استخدامهم أطباء ، وصدرت التعليمات إلى السلطات الدينية بعزل اليهود فى أحياء مستقلة ، وإلزامهم بوضع شارة مميزة والتحقق من حضورهم عظات تهدف إلى تنصيرهم .

وأصدر البابا يوجينوس الرابع مرسوماً يقضى بأنه إذا وجد يهودى يقرأ التلمود ، تصادر أملاكه .

وفوض البابا نيقولا الخامس القديس يوحنا كابسترانوا سنة ١٤٤٧ ليراقب تنفيذ مرسوم البابا سلفه ، وليضع يده على ممتلكات أى طبيب يهودى تولى علاج مسيحى .

وفى تولوز اعتصم نحو ٥٠٠ من اليهود بأحد الأبراج ، فحاصرهم حشد من الغوغاء ، وخيروا بين التعميد والموت ، ولما أدرك المحاصرون عبث المقاومة لجئوا إلى الانتحار .

وبمثل هـذه الطريقة استؤصل نحو ١٢٠ جالية يهودية فى جنوب فرنسا وشمال أسبانيا .

وفى سنة ١٣٢١ أحرق فى شيفون ١٢٠ يهودياً بتهمة تسميم الآبار .

وفى سنة ١٣٣٦ أعلن أحد المتعصبين الألمان أنه تلقى وحياً من الله يأمره بقتل اليهود ثأراً لموت المسيح ، فتجمع حوله نحو خمسة آلاف فلاح ، أطلقوا على أنفسهم اسم (Armleder) نسبة لشريط من الجلد ربطوه حول أذرعهم ، وجاسوا خلال الألزاس وأراضى الراين ، وقتلوا كل يهودى عثروا عليه ، واجتاحت حمى القتل بافاريا ، وبوهيميا ، ومورافيا ، والنمسا سنة ١٣٣٧ .

وكان الموت الأسود كارثة خاصة حلت باليهود فى العالم المسيحى .. لقد أودى

الطاعون نفسه بحياة المغول والمسلمين واليهود فى آسيا ، وهناك لم يفكر أحد فى اتهام اليهود، لكن فى أوروبا الغربية جنّ جنون الناس لهول الوباء ، وما أحدثه من دمار فاتهم اليهود بتسميم الآبار ، فى محاولة لاستئصال المسيحيين ، ونسج الخيال المسعور كثيراً من التفاصيل ، فقيل إن يهود طليطلة أرسلوا رسلهم بصناديق ملأى بالسم من السحالى والعظاءات وقلوب المسيحيين ، إلى جميع الجاليات فى أوروبا ، مع توجيهات بإلقاء هذه السموم المركزة فى الآبار والعيون .

وساد بين المسيحيين الاعتقاد بأن الطاعون لم يمس اليهود بسوء ، وربما كانت الحمى أقل فتكاً باليهود ، بسبب الوسائل الصحية والرعاية الطبية ، فانتشرت المذابح الرهيبة فى فرنسا وألمانيا وأسبانيا .

وفى استراسبورج عمل المجلس البلدى على نفى كل اليهود ، بتوجيه من الأسقف ، فرأى الجمهور أن هذا غير كاف ، وطرد المجلس ، وعين مجلساً غيره ، أمر بالقبض على كل يهود المدينة ، ومن فر منهم إلى الريف لقى حتفه على أيدى الفلاحين ، وفرض عليهم التعميد ، ومن رفض أحرق فى ١٤فبراير ١٤٣٩ .

وبلغ مجموع من أبيدوا نحو ٥١٠ جاليات يهودية فى أوروبا .. فى سرقسطة ـ مثلاً ـ عاش واحد من كل خمسة بعد الموت الأسود ، وما صاحبه من اضطهاد ، وقدر لى (Lea) أن ثلاثة آلاف يهودى قتلوا فى أرفورت ، واثنى عشر ألفاً فى بافاريا ، وفى فيينا ـ بناء على نصيحة الحبّر جونه ـ تجمع كل اليهود فى المعبد ، وقتلوا أنفسهم بأيديهم ، وحدث هذا الانتحار الجماعى فى ورمس ، وأوبنهايم ، وكرمز ، وفرانكفورت ، وحمل الذعر آلاف اليهود على الفرار إلى بولنده وتركيا .

وفى سنة ١٣٨٥ أودع السجون كل اليهود فى مدن (العصبة السوانية) ، وعددها ٣٦ مدينة ، ثم أطلقوا سراحهم ، بعد إلغاء كل الديون التى لليهود ، وتكرر هذا الإجراء فى مدن أخرى مع النفى والقتل .

وفى سنة ١٤٤٨ أخذ يوحنا كابسترانوا ممثل البابا نيقولا الخامس ـ فى ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسيلزيا وبولنده ـ بإلقاء عظاته الملتهبة ، متهماً اليهود بقتل الأطفال ، وتدنيس القربان ، مما أشعل نيران الغضب ضدهم .

وفى برسلاو سجن عدد من اليهود ، بناء على طلب يوحنا الذى أشرف بنفسه على

تعذيبهم ، للحصول على اعتراف بجرائم لم يرتكبوها ، وعلى أساس هذا الاعتراف أعدم أربعون حرقاً فى ٢ يوليه ١٤٥٣ ، ونفى الباقون ، وعمد الأبناء بالقوة ، وضم يوحنا إلى قائمة القديسين .

ولما عثر على جثة طفل فى الثالثة قرب بيت أحد اليهود فى ترنت ـ شمالى إيطاليا ـ سنة ١٤٧٥ أعلن الراهب الفرنسيسكانى برنادينو أوف فلتر أن اليهود قتلوه ، فألقى الأسقف بكل يهود ترنت فى السجن ، واعترف بعضهم ـ تحت وطأة التعذيب ـ بأنهم ذبحوه ، وشربوا دمه ، باعتبار أن هذا من طقوس عيد الفصح ، فأحرق يهود ترنت حتى الموت ، وحفظ جثمان الطفل (سيمون الصغير) ، وعرض على أنه (بقايا مقدسة) ، وحج إليه آلاف المؤمنين !!.

وفى سنة١٥٢٠ شجع ليو الثالث على طبع التلمود لأول مرة فى البندقية ، لكن جوليوس الثالث أمر محكمة التفتيش بإحراق نسخ التلمود الموجودة فى إيطاليا سنة ١٥٥٣ ، واقتحمت بيوت اليهود ، وأخذت آلاف النسخ ، واشتعلت النيران فى الكتب اليهودية فى روما ، وبولونيا ، ورافنا ، وفيرارا ، وبادوا ، والبندقية ، ومانتوا ، على أن ميلان رفضت الإذعان لمرسوم الإحراق، وناشدت الجمعيات اليهودية البابا أن يلغي مرسومه، فظل يماطل، ولما جاء بيوس الرابع أقر طبع التلمود مع خضوعه للرقابة ، وبهذا خضعت للرقابة كل مطبوعاتهم .

* وفرض بول الرابع (١٥٥٥ ـ ١٥٥٩) على كل معبد أن يسهم بعشر دوقات (نحو ٢٥٠ دولاراً) فى إقامة دار للمتنصرين ، يتلقى فيها اليهود تعاليم المسيحية ، وحرم على اليهود استخدام خدم أو ممرضات مسيحيات ، أو علاج مرضى مسيحيين ، أو أن يبيعوا المسيحيين شيئاً ، أو أن يقيموا مع المسيحيين أية علاقات أو معاملات . وهدمت كل المعابد اليهودية فى روما إلا واحداً ، وحرم على اليهودى أن يمتلك عقاراً ، وإذا كان لأحدهم عقار فعليه أن يبيعه فى خلال ستة أشهر .. وبهذا بيعت أملاك اليهود بأثمان بخسة .

وفى روما سنة ١٥٥٥ انحصر اليهود فى حى منعزل (Ghetto) عاش فيه عشرة آلاف شخص، فى كيلو متر مربع ، شغلت فيه عدة أسر حجرة واحدة ، وتعرض الحى ـ بسبب انخفاض أرضه ـ لفيضان نهر التيبر ، حتى صار مستنقعاً ملوثاً بالطاعون ، وأحيط الحى بأسوار كئيبة ، تغلق أبوابها فى منتصف الليل ، وتفتح عند الفجر .

وفى أيام الأحد والعطلات المسيحية تظل مغلقة طول اليوم ، وألزم اليهود بلبس زى

تميز خارج هذا (الجيتو) ، للرجال قبعة صفراء ، وللنسوة خمار وشارة صفراء .

وأقيمت أحياء منعزلة أخرى في فلورنس ، وسيينا ، وبمرسوم من البابا في أنكونا ، وبولونيا ، وكانت تسمى هناك (الجحيم) .

وأصدر بول الرابع أمراً سرياً بوضع كل المرتدين في أنكونا في سجون محكمة التفتيش ، ومصادرة أملاكهم ، وأحرق هناك أربعة وعشرون رجلاً وامرأة واحدة ، بتهمة أنهم هراطقة مرتدون سنة ١٥٥٦ ، وأرسل ٢٧ يهودياً للتجديف على السفن الشراعية إلى الأبد ـ قصة الحضارة مج ٦ ج ٥ ص ١٥٨/١٤٦ .

وأمر بيوس الخامس سنة ١٥٦٦ جميع السلطات الكاثوليكية بأن تطبق تطبيقاً كاملاً كل ما فرض على اليهود من قيود وحدود دينية ، فلابد منذ الآن أن يقصروا على أحياء معزولة عزلاً مادياً عن السكان المسيحيين ، وعليهم أن يلبسوا شعاراً أو ثوباً مميزاً ، ولاحق لهم في ملك الأرض ، ولا في أن يكون لهم أكثر من مجمع واحد في أية مدينة .. وفي سنة ١٥٦٩ ـ بمقتضى مرسوم بابوي اتهم اليهود بالربا والقوادة والشعوذة وفنون السحر ـ أمر بيوس الخامس بطرد جميع اليهود من الولايات البابوية ، فيما عدا مدينتي روما ، وأنكونا ، وحرم جريجوري الثالث عشر سنة١٥٨١على المسيحيين استخدام الأطباء اليهود ، وأمر بمصادرة الكتب العبرية ، وجدد سنة ١٥٨٤ إلزام اليهود بالاستماع إلى مواعظ بقصد هدايتهم إلى المسيحية .

وفي سنة ١٥٩٣ جدد كليمنت الثامن مرسوم الطرد الذي ألغاه سكستوس الخامس سنة ١٥٨٦ .

وما إن حل عام ١٦٤٠ حتى كان جميع يهود إيطاليا يسكنون (الجيتو) ، فإذا بارحوه كان عليهم أن يلبسوا شارة تدل على سبطهم ، وحرموا من الاشتغال بالزراعة ، والانتماء إلى الطوائف الحرفية .

وقد وصف مونتيني ـ أثناء جولته في أوروبا سنة ١٥٨١ ـ كيف كان اليهود في السبت يلزمون بإرسال ستين من شبابهم إلى كنيسة سانت أنجيلو في بسكيريا ليستمعوا إلى عظات تحض على اعتناق المسيحية .

وقد شهد جون إيفلين احتفالاً كهذا في روما في ٧ يناير ١٦٤٥ ، ولاحظ أن (الاهتداء أمر نادر جداً) .

أما فى فرنسا فقد كان اليهود ـ من الناحية النظرية ـ خاضعين لجميع القيود التى طلب بيوس الخامس فرضها عليهم ، لكن أهمية الدور الذى يقومون به فى الصناعة والتجارة والمالية أكسبتهم تسامحاً صامتاً .

وقد أكد كولبير فى أحد أوامره المزايا التى تحصل عليها مرسيليا من مشروعات اليهود التجارية .

وظن بعض النقاد أن شكسبير كتب (تاجر البندقية) ، استجابة لاقتراح من فرقته بالإفادة من عاصفة العداء للسامية التى أثارتها فى انجلترا حديثاً قضية رودريجو لوبيز الذى أعدم سنة ١٥٩٤ ، لما قيل عن محاولته تسميم الملكة إليزابيث ، وقد ولد لوبيز هذا فى البرتغال لأبوين يهوديين ، وأقام بلندن سنة ١٥٥٩ ، وشق طريقه إلى التفوق فى مهنة الطب ، واستخدم إيرل ليستر طبيبا له ، فاهتم بمساعدته على التخلص من أعدائه بالسم .

وفى سنة ١٥٨٦ أصبح كبير أطباء الملكة ، وأثار عداء إيرل إسكس الثانى ، لأنه أفشى سر علله ، حين كان يعالجه .

وفى سنة ١٥٩٣ قبض على استفان داجاما فى بيت لوبيز بتهمة التآمر على أنطونيو المطالب بعرش البرتغال .

وجاء فى بعض الاعترافات أن لوبيز اشترك فى مؤامرة ضد إليزابث ، فلما وضع لوبيز على آلة التعذيب اعترف بأنه تلقى وكتم عرضاً بخمسين ألف دوقاتية ليدس السم للملكة ، فشنق هو واثنان آخران ، وأفرغت أحشاؤهم وقطعوا أرباعاً .

وأخرج شكسبير مسرحيته بعد هذا الإعدام بشهرين ، ولوحظ أن اسم ضحية شيلوك كان أنطونيو .

* لقد تغلغلت أفكار العبرانيين القدماء ومشاعرهم فى فكر البيوريتان وعباراتهم ، وبدت لهم حروب اليهود صورة سابقة لحروبهم مع تشارلز الأول ، وكان يهوه رب الجنود ـ على نحو ما ـ أنسب لحاجاتهم من ملك السلام الذى جاء وصفه فى العهد الجديد ، ورسم الكثير من الكتائب البيوريتانية أسد يهوذا على راياتهم ، وسار أعوان كرومويل إلى المعركة ، وهم يتغنون بأغان كتابية ، وإذ قبل البيوريتان أدب التوراة على أنه كلمة الله بحذافيرها ، فإنهم أحسوا بأنهم مضطرون إلى الاعتراف باليهود مختارين من الله ، ليكونوا المتسلمين المباشرين لوحيه ، وأخبر واعظ منهم شعب كنيسته أن اليهود ينبغى أن يظلوا مكرمين باعتبارهم مختارى الله ، وشعر كثير من البيوريتان أن تأكيد المسيح الصريح لناموس

موسى يرجح رفض بولس إياه ، وحملوا المسيحيين المتمسكين بالكتاب المقدس على الالتزام بممارسة ذلك الناموس ، واقترح اللواء توماس هاريسون ـ أحد قادة البيوريتان المتصلين بكرومويل ـ جعل الشريعة الموسوية جزءاً من القانون الإنجليزى .

وفى سنة ١٦٤٩ قدم مشروع قانون لمجلس العموم تغيير يوم الرب من الأحد الوثنى إلى السبت اليهودى ، فالإنجليز هم الآن أيضاً ـ فى رأى البيوريتان ـ شعب الله المختار .

* وبعد أن وصل منسى بن إسرائيل [١] إلى انجلترا بقليل استقبله كرومويل ، ووضع مسكناً فى لندن تحت تصرفه ، وقدم منسى ملتمساً ، ونشر إعلاناً عن طريق الصحف ، بالمبررات الدينية والاقتصادية الداعية للإذن بدخول اليهود انجلترا ، وأكد للمسيحيين أن اليهود لا يبذلون محاولات ليفتنوا الناس عن دينهم ، واختتم طلبه بالسماح بدخول اليهود بعدة شروط : أن يقسموا بيمين الولاء للمملكة ، وأن يمنحوا الحرية الدينية ، وأن يقضى أحبارهم وقوانينهم فى خلافاتهم ، دون إضرار بالقانون والمصالح الإنجليزية .

وكان كرومويل ميالاً لإجابة طلبه ، فقال : (إن تعاطفى عظيم مع هذا الشعب المسكين الذى اختاره الله ، وأعطانا ناموسه) .

وفى ٢٤ديسمبر ١٦٥٥ جمع كرومويل فى هوايتهول مؤتمراً من الفقهاء وكبار الموظفين ورجال الدين للبحث فى قبول اليهود ، ودافع هو شخصياً عن الفكرة بقوة ، مؤكداً الجانب الدينى والاقتصادى ، لكن الرأى العام كان معادياً لقبولهم عداء طاغياً ، فما لبث أن ذاعت شائعات تزعم أن اليهود إذا سمح لهم بدخول انجلترا سيحولون كاتدرائية القديس بولس إلى مجمع يهودى .

ونشر منسى سنة ١٦٥٦ (دفاعاً) ناشد فيه روح الإنصاف فى الشعب الإنجليزى .

وطرح كرومويل المشكلة جانباً ، فى غمرة جهوده لحماية حكومته وحياته ، وفى هذه الأثناء دخلت أعداد متزايدة بموافقة كرومويل الصامتة .

وفى سنة ١٦٥٧ سمح ليهود لندن ببناء مقبرة خاصة ، وما لبثوا أن افتتحوا مجمعاً ، ومارسوا شعائرهم .

وما أقبلت سنة ١٧١٥حتى كان السماسرة اليهود يعملون فى سوق لندن المالية .

وفى سنة ١٩٠٤ احتفل اليهود الإنجليز بالذكرى الثلاثمائة لمولد منسى ـ قصة

---

(١) كان قبلانياً صوفياً مثالياً ، يحلم بقرب العثور على الأسباط العشرة المفقودة وتوحيدها ، وأنهم ربما كانوا الهنود الحمر ، ربما لتكون أمريكا ميراثاً يهودياً !!.

الحضارة مج ٨ ج ٣ ص١٣٥/١٣٨ .

* وفى فرانكفورت حرم على اليهود أن يبرحوا حيهم إلا لأمر عاجل ، ولم يكن مباحاً لهم استضافة زوار من خارج المدينة ، دون علم القضاة ، وكان عليهم أن يضعوا على ملابسهم شعاراً أو لوناً خاصاً ، وأن تحمل بيوتهم علامات مميزة ، كثيراً ما كانت غريبة قبيحة المنظر ، وقد حاولوا الإعفاء من هذه القيود المذلة عن طريق رشوة موظفى المدينة ، لكن عداء أفراد الشعب البسطاء كان خطراً دائماً يتهدد حياتهم وممتلكاتهم ، ففى سبتمبر ١٦١٤ اقتحم جمع مسيحى حى اليهود ، بينما كان اليهود يؤدون الصلاة ، وبعد النهب والتدمير أجبر ١٣٨٠ يهودياً على مغادرة المدينة ، لا يحملون من المتاع إلا ما يلبسون .

* وتركت حرب الثلاثين يهود ألمانيا فى سلامة نسبية ، إذ أدى انشغال البروتستانت والكاثوليك بالقتال إلى نسيان أمر اليهود ، لكن مالبث لوثر أن أشعل الصدور ضد اليهود بنشرة عن (اليهود وأكاذيبهم) سنة ١٥٤٢ ، أفرغ فيها وابلاً من الحجج ضد اليهود ، ونصح الألمان بإحراق بيوت اليهود ، وإغلاق معابدهم ومدارسهم ، ومصادرة ثرواتهم ، وتجنيد رجالهم ونسائهم فى أعمال السخرة ، وأن يخيروا بين المسيحية وقطع ألسنتهم .

وفى عظة ألقاهـا قبل موته أضاف أن الأطباء اليهـود كانوا يتعمدون تسميم المسيحيين .

وكان لعظات زعيم الإصلاح الدينى أبلغ الأثر فى النفوس ، حتى إن امرأة صعقت حين علمت أن السيدة العذراء من أصل يهـودى ـ قصة الحضارة : مج ٦ ج ٥ ص ١٤٤/٣٢ .

وكان الإمبراطور فرديناند الأول قد فرض لوائح ثقيلة على يهود النمسا ، وطردهم من بوهيميا سنة ١٥٥٩ ، لكن فرديناند الثانى حماهم ، وسمح لهم أن يبنوا مجمعاً فى فيينا ، وأن يخلعوا الشعارات المميزة ، وأباح رجوع اليهود إلى بوهيميا ، وتعهد اليهود بدفع أربعين ألف جولدن كل عام ، إسهاماً فى الحرب الإمبراطورية الكبيرة ، وتهدئة لخواطر المسيحيين المتذمرين من سياسة التسامح ، وفى سنة ١٦٣٥ أمر اليهود فى براغ أن يستمعوا يوم الأحد للعظات المسيحية ، وفرضت الغرامات على من يتهرب أو ينام أثناء العظات .

وأقبل مئات اليهـود من بولندة بعد المذابح المنظمة التى تلت ثورة القوزاق سنة ١٦٤٨ ، وفيما بين عامى ١٦٧٥ ، ١٧٢٠ كان يختلف إلى أسواق ليبزج من تجار اليهـود عدة مئات واستعان الأمراء الألمان بالمهارة اليهودية فى إدارة شئونهم

المالية ، وتنظيم تموين جيوشهم وقصورهم .

وكان من أثر نفوذ الإمبراطورة مارجريت تريزا ، الأسبانية المولد ، اليسوعية الروح ، على زوجها ليوبولد الأول ـ أنه أمر بنفي اليهود من النمسا ، لكن الناخب الأكبر فردريك وليم رحب بكثير من المنفيين في براندنبرج ، ونمت الجالية اليهودية في برلين ، حتى غدت من أكبر الجاليات في أوروبا .

* وكان اليهود ـ في القرن العاشر ـ دخلوا بولنده من ألمانيا ، وتكاثروا تحت حماية الحكومة ، رغم المذابح العارضة ، وفي سنة ١٥٠١ كان نحو خمسين ألف يهودي في بولنده ، وفي سنة ١٦٤٨ بلغوا نصف مليون ، وناصر الأعيان الذين يهيمنون على مجلس الأمة اليهود ، إذ تبينوا فيهم كفاءة خاصة في جمع الإيجارات ، وجباية الضرائب ، وإدارة الضياع ، وكان حكام بولندة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ـ فيما عدا قلة منهم ـ من أكثر ملوك زمانهم تسامحاً ، فأصدر ستيفن باتوري مرسومين سنة ١٥٧٦ يؤكدان الحقوق التجارية لليهود ، ويدمغان تهم القتل الطقسي التي يرمى بها اليهود بأنها افتراءات قاسية لا يسمح بها في المحاكم البولندية ، لكن عداء الشعب اليهودي لم يخف ، فلم ينقض عام على هذين المرسومين حتى هاجم الغوغاء الحي اليهودي في بوزنان ، ونهبوا البيوت ، وقتلوا كثيرين .

وتضافر عاملان لإنهاء هذا العهد الذي توافر فيه حسن نية الحكومة نحو اليهود ، أولهما أن التجار الألمان في بولنده كرهوا منافسة اليهود ، فأشعلوا ثورات شعبية في بوزنان وفيلنو ، حيث هدم مجمع لليهود ، ونهبت البيوت سنة ١٥٩٢ ، وقدموا للملك سنة ١٦١٩ ملتمساً بعدم التسامح مع اليهود ، وظفرت اتهامات اليهود بالقتل الطقسي باعتراف الحكومة .. وفي سنة ١٥٩٨ عثر في لوبلن على جثة صبي في مستنقع ، فأكره ثلاثة يهود بالتعذيب على الاعتراف بأنهم قتلوه ، ثم شنقوا ، وانتزعت أحشاؤهم ، وقطعوا أرباعاً .

ازدادت المؤلفات المعادية السامية ضراوة ، وفي سنة ١٦١٨ نشر سبستيان ميشنسكي كتيباً اسمه (مرآة للتاج البولندي) ، اتهم فيه اليهود بقتل الأطفال ، والسحر ، والسرقة ، والنصب ، والخيانة ، ودعا مجلس الأمة لطرد جميع اليهود من بولنده .

وفي سنة ١٦٢٣ اتهم طبيب بولندي الأطباء اليهود بتسميم الكاثوليك بشكل منظم .

وفي سنة ١٦٤٣ ألزم البرلمان جميع التجار المسيحيين ألا تتجاوز أرباحهم ٧٪ والتجار اليهود ٣٪ فأقبل المسيحيون على الشراء من اليهود فأثروا ، وأثاروا مزيداً من الأحقاد .

وبرغم الكراهية والقيود والشدائد تكاثر اليهود ، وبنوا المعابد والمدارس ، وتناقلوا تقاليدهم التى أعانتهم على الاستقرار والاستمرار .

وفى سنة ١٦٤٨ تفجرت ثورةالقوزاق ضد الملاك البولنديين واللتوانيين ، ولأن اليهود كانوا وكلاء للضياع ، أوصياء للضرائب - تم ذبح الآلاف منهم فى بيرياسلاف ، وبيرياتين ، ولوبنى ، وغيرها ، من المدن سواء كانوا يخدمون النبلاء ، أو لا يخدمون .. يقول مؤرخ روسى : (كان القتل مصحوباً بضروب من التعذيب الهمجى ، فكان الضحايا تسلخ جلودهم أحياناً ، أو يمزقون إرباً ، أو يضربون بالهراوات حتى الموت ، أو يشوون على الجمر ، أو يسلقون بالماء المغلى ، وكان الحكم عليهم بالإبادة الكاملة .. كانت أقل علامة على الرأفة بهم تعد خيانة ، وانتزع القوزاق لفافات الشريعة من المجامع وراحوا يرقصون عليها وهم يشربون الويسكى ، ثم طرحوا عليها اليهود ، وذبحوهم بغير رحمة ، وألقى آلاف الأطفال اليهود فى الآبار أو أحرقوا أحياء) .

وروى أن ستة آلاف يهودى هلكوا فى هذه الثورة فى مدينة نيميروف ، وفى تولشيمن حوصر ألف وخمسمائة فى حديقة عامة ، وخيروا بين المسيحية أو الموت فاختاروا الموت كما زعم مؤرخ يهودى ، وقيل إن عشرة آلاف قتلهم القوزاق أو أسرهم التتار فى مدينة بولونوى .

ونشبت مذابح منظمة أقل شأناً فى مدن أوكرانية .

ولما تحالف القوزاق مع الروس ضد الجيش البولندى سنة ١٦٥٤ تم قتل أو طرد يهود عدة مدن لتوانية وبولندية .

وفى سنة ١٦٥٥ غزا شارل العاشر ملك السويد بولنده ، فتم ذبح اليهود فى جميع أرجاء ولايات بوزنان ، وكاليش ، وكراكاو ، وبيوتركوف - على يد الجيش البولندى الذى تكون حديثاً ، وطرد السويديين ، بحجة أن اليهود استسلموا للغزو السويدى .

وكانت الكوارث التى منى بها اليهود فى بولندة وليتوانيا وروسيا من سنة ١٦٤٨ إلى ١٦٥٨ أفدح الكوارث فى تاريخ يهود أوروبا ، وقد قيل إن حوالى ٣٥ ألف يهودى هلكوا ، و ٥٣١ جالية يهودية أبيدت .

وفى هذا العقد الفاجع بدأت هجرة اليهود الجماعية من الأراضى السلافية إلى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية ، مما أسفر عن توزيع جديد كامل للسكان اليهود على الأرض .

* لم يكن فى روسيا يهود قبل سنة ١٧٧٢ من الناحية القانونية ، فلما طلب سجسموند الثانى سنة ١٥٥٠ من إيفان الرهيب أن يسمح لليهود اللتوانيين بدخول روسيا للمتاجرة ، أجابه بقوله : (ليس من المناسب السماح لليهود بالمجيء إلى روسيا بسلعهم ، لأن شروراً كثيرة تنجم عنهم ، ذلك لأنهم يدخلون الأعشاب السامة إلى مملكتنا ، ويفتنون الروس عن المسيحية ، لهذا ينبغى له ـ الملك ـ ألا يعيد الكتابة عن اليهود) .

ولما احتل الجيش الروسى مدينة الحدود البولندية بولونسك سنة ١٥٦٥ أرسل إيفان أوامره بتحويل اليهود إلى المسيحية أو إغراقهم .

وفى سنة ١٦٩٨ تلقى بطرس الأكبر ـ وهو فى هولنده ، عن طريق عمدة أمستردام ـ ملتمساً مقدماً من اليهود يرجون فيه السماح لهم بدخول روسيا ، فكان جوابه : (عزيزى ويتسن ، إنك تعرف اليهود ، وتعرف أخلاقهم وعاداتهم ، وكذلك تعرف الروس ، وأنا أعرف الاثنين ، وصدقنى أن الوقت لم يحن للجمع بين القوميتين ، فقل لليهود إنى شاكر لهم اقتراحهم ، وإننى مدرك كم ستفيدنى خدماتهم ، لكنى مشفق عليهم أن يعيشوا بين ظهرانى الروس) .

وظلت هذه السياسة الروسية معمولاً بها حتى الملتمس البولندى سنة ١٧٧٢ ـ قصة الحضارة مج ٨ ج ٣ ص ١٤١/١٤٨ .

هكذا تجمعت صورة ذات وجه واحد لأحداث دامية ، دامت نحو مائتى عام !!.

* * *

« كلاب الله »

تنهش تعاليم المسيح !!

سن كتاب (العهد القديم) قانوناً بسيطاً لمعاملة المارقين من الدين ، يقضي بأن يفحص عنهم فحصاً دقيقاً ، فإذا شهد ثلاثة شهود عدول بأنهم (ذهبوا وراء آلهة أخرى) أخرج المارقون من المدينة (ورجموا بالحجارة حتى يموتوا) ـ تثنية صح ١٣ .

(وإذا أغواك سراً أخوك ابن أمك ، أو ابنك ، أو ابنتك ، أو امرأة حضنك ، أو صاحبك الذى مثل نفسك ، قائلاً : نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك .. فلا ترض منه ، ولا تسمع له ، ولا تشفق عينك عليه ، ولا تستره ، بل قتلا تقتله) ـ تثنية صح ١٣ .

(لا تدع ساحرة تعيش) ـ خروج صح ٢٢ .

وقد ورد في (إنجيل يوحنا صح ١٥) أن عيسى ـ عليه السلام ـ ارتضى هذا القول : (إن كان أحد لا يثبت يطرح خارجاً كالغصن فيجف ، ويجمعونه ، ويطرحونه في النار فيحترق) .

وحافظت الجماعات اليهودية ـ في العصور الوسطى من الوجهة النظرية ـ على شريعة الكتاب المقدس الخاصة بالمروق من الدين ، لكنها قلما عملت بها ، واستمسك بها ابن ميمون بلا تحفظ .

وكانت قوانين اليونان ترى المروق من الدين ـ أى الامتناع عن عبادة الآلهة اليونانية ـ جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وهذا هو القانون الذى حكم به على سقراط بالموت .

وطبق أباطرة الروم القوانين الرومانية في العالم البيزنطى ، فحكموا بالإعدام على المانويين وغيرهم من المارقين .

ثم كثر التسامح فى البلاد الغربية ، خلال العصور المظلمة ، وهى التى كان أبناؤها لا يكادون يتحدون الكنيسة ، قال ليو التاسع : إن الحرمان من الدين يجب أن يكون هو العقاب الوحيد الذى يوقع على المارقين .

ولما انتشر الإلحاد في القرن الثاني عشر قال بعض رجال الكنيسة : إن حرمان الملحدين يجب أن يعقبه نفى الدولة إياهم ، أو سجنهم .

وكان آخر ما فعلته الكنيسة أن أخذت في القرن الثالث عشر قانون ألد أعدائها ، فردريك الثانى ، وهو أن يكون الإعدام عقوبة الضلال .

كانت الكنيسة تنظر إلى الضلال كما تنظر الدولة إلى الخيانة ، أى إنه عمل يراد به تقويض أسس النظام الاجتماعى ، وفي ذلك يقول إنوسنت الثالث : (إن القانون المدنى يعاقب الخونة بمصادرة أملاكهم وإعدامهم ، وهذا يؤكد حقنا فى أن يحرم من الدين من يخونون دين المسيح ، وأن تصادر أملاكهم ، ذلك لأن الإساءة للذات العلية المقدسة جريمة أبشع من الإساءة إلى جلالة الملك) .

إن الضال خائن يقوض أسس المسيحية ، وهى مشتبكة في حرب طاحنة مع الإسلام ، هـذا بالإضافة إلى أنه إذا أجيز لكل إنسان أن يفسر الكتاب المقدس حسب ما يراه عقله (مهما يكن قاصراً) ، وينشىء لنفسه الصورة التى يرتضيها من صور المسيحية ، فإن الدين الذى حفظ لأوروبا قانونها الأخلاقي لن يلبث أن ينهار ويتفرق إلى مائة عقيدة ، ويفقد ما له من أثر ، بوصفه قوة اجتماعية تربط الآدميين المتوحشين بفطرتهم ، وتحلق منهم مجتمعاً وحضارة .

ولقد عاقب الغوغاء الضالين ، قبل أن تشرع الكنيسة في اضطهادهم ، بل لقد كان المتدينون يشكون لين الكنيسة المفرط مع الضالين ، وكانوا أحياناً يختطفون المنشقين من أيدى القساوسة الذين يحمونهم

واشتركت الدولة على كره منها في اضطهاد الضالين ، لأنها كانت تخشى غضب الكنيسة ، كما كانت تخشى أن يكون الضلال الدينى مرتبطاً بتطرف سياسى ، لهذا أمر هنرى السادس ، إمبراطور ألمانيا سنة ١١٩٤ ، أن ينزل بالضالين أشد العقاب ، وأن تصادر أملاكهم ، وأصدر أتو الرابع سنة ١٢١٠ ، ولويس الثامن ملك فرنسا سنة ١٢٢٦ ، وأصدرت مدينتا فلورنس سنة ١٢٢٧ ، وميلان سنة ١٢٢٨ مراسيم شبيهة بمرسوم هنرى .. وكان أشد قوانين الاضطهاد هو القانون الذى سنه فردريك الثانى ـ فيما بين ١٢٢٠ ، ١٢٣٩ ـ وقضى بأن يسلم الضالون الذى تحكم عليهم الكنيسة إلى ولاة الأمور المحليين وأن يحرقوا أحياء ، فإذا ما رجعوا عن ضلالهم نجوا من الموت ، وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ، ثم صودرت أملاكهم ، وحرم ورثتهم من ميراثهم ، وظل أبناؤهم محرومين من حق الاختيار لأى منصب ذى دخل أو كرامة ، إلا إذا كفروا عن ذنوب آبائهم بالتبليغ عن غيرهم من الضالين ، وقضى القانون بأن تحرق بيوت الضالين ، ولا يعاد بناؤها قط .

وأضاف لويس التاسع (القديس) أحكاماً مشابهة إلى قوانين فرنسا .

وقد استغل هذا التيار استغلالاً فاحشاً ، فبعث الكونت فيليب صاحب فلاندرز سنة ١١٨٣ هو ورئيس أساقفة ريمس عدداً كبيراً من النبلاء ، ورجال الدين ، والفرسان والفلاحين ، والفتيات ، والمتزوجات ، والأرامل ، إلى حيث أحرقوا أحياء ، بعد أن صادرا أملاكهم ، واقتسماها بينهما

وطلب إنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ إلى جميع ولاة الأمور المدنيين أن يقسموا علناً بأن (يبيدوا من الأراضى الخاضعة لطاعتهم جميع الضالين الذين عينتهم الكنيسة ، ليلقوا ما يستحقون من العقاب) ، فإذا لم يفعلوا كانوا هم أنفسهم ضالين ، وكل أمير يهمل يخلع ويعفى البابا رعاياه من طاعته .

فلما كان عام ١٢٣١ أدخل جريجورى فى قانون الكنيسة الشرائع التى سنها فردريك سنة ١٢٢٤ ، وبذلك اتفقت الكنيسة والدولة على أن الضالين الذين لا يتوبون خونة ، يجب أن يعاقبوا بالإعدام ، وبهذا أنشئت محكمة التحقيق (التفتيش) رسمياً ، تحت سلطة البابوات .

وبعد سنة ١٢٢٧ أصدر جريجورى وخلفاؤه عدداً متزايداً من المحققين ، أوالمفتشين الخصوصيين ، لمطاردة الضالين ، وكان بفضل أعضاء طوائف الرهبان المتسولين الجدد ، لأن حياتهم البسيطة وإخلاصهم أعون على تحقيق مهامهم من غيرهم من رجال الدين المترفين .. وقد اختير كثير من رهبان الدومنيك لهذا الغرض حتى سموا (كلاب الله) الصيادين ، إذ كانوا يظنون أنهم محاربون يطاردون أعداء المسيح ، وكان منهم ساديون ، مثل روبرت الدومنيكى الذى أرسل فى يوم واحد سنة ١٢٣٩ مائة وثمانين شخصاً ليحرقوا .

وقد أصدر نقولا الثالث سنة ١٢٨٠ مرسوماً بابوياً يقول :

(نعلن بهذ حرمان الضالين ، ونصب عليهم اللعنة .. وإذا ما ندم واحد منهم بعد اعتقاله ، وأراد أن يكفر عن ذنبه ، وجب سجنه مدى الحياة، وكل من يأوى الضالين ، أو يحميهم ، أو يساعدهم ، يحرم من الدين ، وإذا ما بقى إنسان محروماً عاماً كاملاً ويوماً حرم من حماية القانون .. وإذا لم يستطع المتهمون بالضلال أن يثبتوا براءتهم طردوا من حظيرة الدين ، فإذا بقوا عاماً كاملاً محرومين حكم عليهم بما يحكم على الضالين ،

وليس لهؤلاء حق استئناف الحكم .. ونحن نحرم على غير رجال الدين جميعهم أن يناقشوا فى مسائل الدين الكاثوليكى ، ومن يفعل ذلك يحرم من الدين ، وعلى كل من يعرف أحداً من الضالين ، أو ممـن يعقدون اجتماعات سرية ، أو ممن لا يؤمنون بعقائد الدين القويم ، أياً كانت ، أن يبلغ ذلك إلى من يفضى إليه باعترافه ، أو إلى شخص آخر يبلغه إلى الأسقف أو المحقق ، فإذا لم يفعل هذا حرم من الدين، والضالون وكل من يأوونهم ، أو يؤيدونهم ، أو يساعدونهم ، وكذلك أبناؤهم حتى الجيل الثانى ـ هؤلاء لا يسمح لهم بتولى المناصب الكنسية.. وها نحن أولاً نحرمهم جميعـاً وأمثالهم من دخلهم إلى أبد الدهـر) .

وقد أجاز إنوسنت الرابع سنة ١٢٥٢ التعذيب ، للحصول على الاعتراف ، حيث يكون القضاة واثقين من جرم المتهم ، ثم أجازه من جاء بعده من الأحبار .

كان التعذيب يستخدم فى كثير من الأحيان لإرغام الشهود على أداء الشهادة ، أو لإجبار الضال المعترف على الإدلاء بأسماء غيره من الضالين .

وكان من أنواع التعذيب الجلد ، والكى بالنار ، والتعذيب بالعـذراء (آلة تمط الجسم) ، والسجن الانفرادى فى جب مظلم ضيق ، وكانت قدما المتهم توضعان أحياناً على الفحم المتقد ، أو كان يشد إلى إطار على شكل مثلث ، ثم تجذب يداه وساقاه بالحبال الملفوفة حول آلة لاوية ، وكان إطعام السجين يقلل أحياناً حتى يضعف جسمه وإرادته ، فيؤثر فيه الوعد والوعيد .

وقد أحرق هنرى أسقف استراسبورج سنة ١٢١٢ ثمانين ضالاً ، كان زعيمهم القس يوحنا يعلن عدم إيمانه بالغفران ، وبالمطهر ، وببقاء رجال الدين بلا زواج ، وقال : إن رجال الدين يجب ألا تكون لهم أملاك .

* فى أول نوفمبر ١٤٧٨ أصدر البابا سكستوس الرابع ـ بناء على رغبة فرديناند وإيزابيلا ـ قراراً يعوض لهم أن يعيّنا ستة قسس ، من حملة الإجازات العليا فى علوم الدين والشريعة ، ليؤلفوا هيئة محكمة التفتيش ، ليحققوا تهم الهرطقة ، ويعاقبوا عليها ، وأبرز ما فى هذا القرار هو إعطاء السلطة لملوك أسبانيا أن يعينوا هيئة محاكم التفتيش التى كانت فى صورها السابقة تختار بواسطة رؤساء فرق الفرنسيسكان والدومنيكان المحلية .

وكان قضاة هذه المحاكم يرشحهم الملوك فقط من الناحية العملية ، ثم يعينهم البابا ، ويستمدون سلطتهم من هذا القرار البابوى ، وظلت المنظمة كهنوتية ووسيلة من وسائل الكنيسة ، وفى الوقت نفسه وسيلة من وسائل الدولة ، وكان على الدولة أن تدفع نفقاتها ، وأن تحصل على دخلها الخالص ، ويراقب الملوك تفاصيل أعمالها ، وإليهم قد تستأنف أحكامها .

وأعطى القضاة سلطة استخدام المعاونين من رجال الدين ومن المدنيين محققين ومنفذين للأحكام ، ووضعت المنظمة برمتها ـ بعد سنة ١٤٨٣ ـ تحت إمرة وكالة حكومية .

وشرعت محكمة التفتيش القوانين والإجراءات الخاصة بها . وكانت قبل أن تقيم قضاءها فى مدينة من المدن تذيع فى الشعب ـ عن طريق منابر الكنائس ـ منشوراً دينياً (يطالب كل من له علم بهرطقة أن يكشف عنها لرجال التفتيش ، وشجع كل امرئ على أن يكون شاهداً ، ليبلغ عن جيرانه وأصدقائه وأقاربه) .

وإذا اقتنعت المحكمة بإدانة شخص فإنها تصدر أمراً بالقبض عليه فى سجن انفرادى ، حيث لا يسمح لغير عملاء محكمة التفتيش بالتحدث إليه ، ولا يزوره أحد من أقاربه ، وكان يقيد بالسلاسل عادة ، ويطلب إليه أن يحضر معه فراشه وملابسه ، وأن يدفع جميع نفقات حبسه وطعامه ، فإذا لم يقدم المال الكافى لهذا الغرض فإنه يباع القدر المناسب من متاعه ليفى بالمبلغ المطلوب ، أما باقى أمتعته فيحجز بوساطة مندوبى محكمة التفتيش ، حتى لا يخبأ ، أو يتنازل عنه هرباً من المصادرة .

كانت المحاكمة سرية ، وعلى المدافع عن نفسه أن يقسم على أنه لن يفشى أية واقعة من الوقائع فى حالة إطلاق سراحه ، ولا يستدعى شهود إثبات التهمة عليه ، ولا يذكر له اسم أحد ، وبرر قضاة التفتيش هذا الإجراء بأنه ضرورى لحماية المبلغ ، ولم يكن المتهم يخبر أولاً عن التهم الموجهة ضده ، وإنما يستدعى لمجرد الاعتراف بتقصيره (كما تقضى بذلك العقيدة والعبادة الصحيحتان) ، وأن يشى بكل الأشخاص الذين يتهمون بالهرطقة فإن أقنع اعترافه المحكمة فقد يصدر عليه حكم غير الإعدام ، وإذا أبى الاعتراف كان يعذب ليكره عليه .

ولم يكن الاعتراف بالذنب مانعاً من التعذيب ، حتى يعترف عن شركائه في الهرطقة أو الجريمة ، وربما عذب الشهود المتناقضون للكشف عمن يذكر الحقيقة ، وقد يعذب العبيد ليقيموا الدليل على سادتهم ، ولم يكن هناك حد في السن ينقذ الضحايا ، ذلك أن فتيات في الثالثة عشرة ونسوة في الثمانين قد ألزمن العذراء .

وقد اتهم الموتى كثيراً بالهرطقة ، وحوكموا وحكم عليهم بالمصادرة ، فيفقد الورثة ميراثهم ، وكان المبلغون عن الهراطقة الموتى يمنحون من ٣٠٪ إلى ٥٠٪ من المتحصل ، ودفعت الأسر المفزعة من هذه المحاكمات ذات الأثر الرجعي للمبلغين – في بعض الأحيان – (مصالحات) ، تأميناً لهم من مصادرة ميراثهم ، فأصبحت الثروة خطراً على صاحبها ، وإغراء للمبلغين والمفتشين والحكومة .

وكانت العقوبة القصوى هي الإحراق ، وهي للذين حكم عليهم بأنهم اقترفوا هرطقة عظيمة ، ولم يعترفوا قبل بدء المحاكمة ، ولأولئك الذين اعترفوا في الوقت المناسب ، وخففت عنهم العقوبة ، أو صفح عنهم ، لكنهم ارتدوا إلى الهرطقة ، وهذه العقوبة كانت تقع على الموتى ، بنبش قبورهم وإحراق عظامهم .

وكان الإجراء أول أمره بسيطاً ، فإن الذين يحكم بإعدامهم يقادون إلى الساحة العامة ، ويوثقون بأربطة على كومة من الحطب ، بينما يجلس قضاة التفتيش في أبهة على منصة مواجهة ، ويطلب للمرة الأخيرة إلى المحكوم عليه أن يدلي باعترافه ، وتقرأ عليه الأحكام ، وتشعل النيران ، ويبلغ الفزع منتهاه ، بيد أن كثرة الإحراق ، وفقد بعض تأثيره النفسي ، جعل الاحتفال أكثر تعقيداً ورهبة ، وعني بإظهاره في إخراج مسرحي كبير ، كان يحدد ميعاد الاحتفال موافقاً لحفل تنصيب ملك أو زواجه أو زيارته ، أو زيارة أمير أسباني ، وكان يدعى موظفو البلديات والحكومة ، وهيئة محكمة التفتيش ، والقسس والرهبان المحليون .

وكان يساق المسجونون وسط الجموع الغفيرة إلى إحدى الساحات الكبيرة ، وفيهم الدجالون والمجدفون في الدين والهراطقة والمرتدون ، ثم أضيف إليهم البروتستانت .. وينتظم الموكب أحياناً دمى تمثل المحكوم عليهم غيابياً ، أو صناديق تحمل عظام الذين حكم عليهم بعد الموت . وفي الساحة مدرج مرتفع أو أكثر يجلس فيه قضاة محكمة التفتيش

ورجال الدين من قساوسة ورهبان ، وموظفو المدينة والدولة ، يرأسهم الملك بين حين وآخر ، وتذاع عظة يؤمر بعدها جميع الحضور بترديد يمين الطاعة لحكام محكمة التفتيش المقدس . وعهد بنكر ويحارب الهرطقة بجميع أشكالها وفى كل مكان ، ثم يساق المسجونون واحداً واحداً أمام المحكمة ، وتتلى عليهم الأحكام الخاصة بهم .

ثم يساقون إلى خارج المدينة ، وسط حشود تجمعت من أماكن بعيدة ، حتى إذا وصلوا إلى مكان التنفيذ شنق المعترفون ثم أحرقوا ، بينما يحرق المعاندون أحياء ، وتظل النيران تغذى بالوقود ، حتى تصير العظام رماداً ، ينتثر على الحقول والجداول ، ثم يعود القساوسة والمشاهدون إلى مذابحهم ودورهم مقتنعين بأن قرباناً قدم استعطافاً لإله غاضب من الهرطقة ، وهكذا أعيد القربان البشرى !!.

واحتفل بأول محرقة أثمرتها محكمة التفتيش فى منطقة أشبيلية فى ٦ فبراير ١٤٨١ ، بإحراق ستة من الرجال والنساء . وما إن جاء الرابع من نوفمبر للعام نفسه حتى كان قد أحرق ٢٩٨ فرداً ، وسجن مدى الحياة تسعة وسبعون .

صارت محكمة التفتيش سلطة تضارع سلطة الملوك .

وفى سنة ١٤٨٢ أصدر البابا سكستوس الرابع منشوراً بابوياً ، شكا فيه من أن المفتشين يبدون طمعاً فى الحصول على الذهب أكثر من الإخلاص للدين ، وأنهم سجنوا وأحرقوا مسيحيين مؤمنين ، بشهادة مريبة من أعدائهم وعبيدهم .

ويلاحظ أن المتنصرين أنفقوا بسخاء فى سبيل الحصول على البراءة .. فقد أخذ المتنصرون اليائسون يصبون المال صباً فى مدينة روما ، من أجل الحصول على فتاوى شرعية وبراءة من استدعاء محكمة التفتيش لهم ، أو حكمها عليهم ، وقبلت هذه الأموال ، وصدرت الفتاوى ، بيد أن المفتشين الأسبان الذين يبسط الملك عليهم حمايته ــ تجاهلوها ، ولأن البابوات كانوا فى حاجة إلى حماية فرديناند ، وإلى المنحة السنوية الأسبانية ــ لم يصروا على تلك الفتاوى .

وقد قدر ليورنت الأمين العام لمحكمة التفتيش (١٧٨٩ ــ ١٨٠١) أن ضحايا محكمة التفتيش بين سنتى ١٤٨٠ و ١٤٨٨ بلغوا ثمانية آلاف وثمانمائة أحرقوا ، و٩٦٫٤٩٠ عوقبوا ، وبين سنتى ١٤٨٠ ١٥٠٨ أحرق ٣١٫٩١٢ ، وحكم بعقوبات صارمة على ٢٩١٫٠٩٤ .

وهذا كله بدعوى تخليص أسبانيا من الهرطقة الصريحة .

* وامتد البلاء إلى من بقى من المسلمين ، بعد سقوط آخر معاقلهم ، إذ لم يوافق الكردينال اكسميتس على منح المسلمين الحرية الدينية فى غرناطة ، وألح على الملكة إيزابيلا أن تصدر مرسوماً سنة ١٤٩٩ يخير المسلمين بين التنصر ومغادرة أسبانيا ، وذهب بنفسه إلى غرناطة ، ونصب المحارق العامة التى التهمت جميع الكتب والمخطوطات العربية التى وصلت يده إليها ، وأشرف على التنصير الإجبارى بالجملة .

وخير جميع المسلمين فى قشتالة وليون بمقتضى مرسوم ملكى صدر فى ١٢ فبراير ١٥٠٢ بين الدخول فى المسيحية ومغادرة البلاد ، وحرم على الأطفال الذكور دون الرابعة عشرة والإناث دون الثانية عشرة أن يغادروا أسبانيا مع آبائهم .

وترك أسبانيا إبان القرن السادس عشر ثلاثة ملايين من المسلمين المتظاهرين بالمسيحية ، ووصف الراهب بليدا مرسوم ١٥٠٢ بأنه أمجد حادث فى أسبانيا منذ عهد الرسل .

وقدم خوان دى ريبيرا رئيس أساقفة بلنسية المذكرات إلى فيليب الثالث سنة ١٦٠٢ يحضه فيها على طرد جميع المغاربة الذين تزيد أعمارهم على السابعة ، وقال فى تفسيره للكوارث التى نزلت بأسبانيا بما فيها تدمير الأرمادا ، إنها عقوبات أنزلها الإله لإيوائها الكفار ، فهؤلاء المسيحيون المزيفون يجب ترحيلهم ، أو إرسالهم لسفن العبيد ، أو شحنهم بالمراكب إلى أمريكا ، ليشتغلوا عبيداً فى المناجم . وبرغم احتجاجات البابا ، وبرغم احتجاجات ملاك الأراضى الذين كانوا ينتفعون بهؤلاء (العمال) المغاربة ـ أصدر ليربا سنة ١٦٠٩ مرسوماً أمر فيه جميع مسلمى إقليم بلنسية بأن تقلهم خلال ثلاثة أيام مراكب أعدت لنقلهم إلى أفريقيا ، غير حاملين معهم من المتاع أكثر مما تطيقه ظهورهم .. وأكرهت الأسر اليائسة على بيع أملاكها بخسائر فادحة ، وساروا إلى الموانئ يتعثرون فى شقائهم ، وسرق أكثرهم وقتل عدد كبير ، وهم فى الطريق إلى السفن ، أو وهم على ظهورها .. وفى شتاء ١٦٠٩ جرت حركات طرد أخرى من غير بلنسية ، وهكذا نزعت أملاك ٤٠٠,٠٠٠ من أكثر أرض أسبانيا إنتاجاً ، وكان هذا يعد أمجد منجزات الحكم . غير أن الكنيسة الأسبانية فوجئت بتسلل التصوف الإسلامى إلى الفكر المسيحى ، وكانت تنظر إلى المتصوفة نظرة قاسية ، لأن بعض هؤلاء ادعوا أن صلتهم بالله مباشرة أعفتهم من

حضور الصلاة فى الكنيسة ، وأضفى آخرون على حالات وجدهم الصوفى طمعاً جنسياً مشبوهاً ، وأعلن الواعظ العلمانى بدرو رويز دى الكراز أن الجماع هو اتحاد بالرب حقاً ، وقال الراهب فريسسكو أورتيز مفسراً : إنه عندما يرقد مع زميلة متصوفة جميلة فإنه لا يرتكب من خطايا الجنس ، بل ينعم بمتعة روحية .

وعاملت محكمة التفتيش برفق هؤلاء المتنورين ، واحتفظت بأقسى إجراءاتها ضد البروتستانت الأسبان.

وقد تورط نبلاء من ذوى النفوذ ، ورجال دين من أصحاب الرتب الرفيعة ـ فى بلد الوليد ـ مع الفكر البروتستانتى ، ووشى بهم لمحكمة التفتيش ، وحكم عليهم جميعاً بالإدانة، وأوصى شارل الخامس بعدم إظهار أى رحمة فى معاملتهم، وقطع رءوس التائبين ، وإحراق من يرفضون التوبة .

وفى ٢١ مايو ١٥٥٩ أعدم أربعة عشر من المحكوم عليهم أمام جمع متهلل وتراجع الجميع عما قالوا إلا واحداً ، فعوملوا برفق وقطعت رءوسهم ، أما من رفض التوبة فقد أحرق حياً .



تعليـــق ..

يقول ول ديورانت : إن الفكرة القائلة بأن اضطهاد المعتقـدات لا تأثير له أبداً ـ ضلال ، فقد سحق الألبيجنسيين والهيجونوت فى فرنسا ، والكاثوليك فى انجلترا ، فى عهد إليزابث ، والمسيحيين فى اليابان ، وانتزعت فى القرن السادس عشر الجماعات الصغيرة التى عطفت على البروتستانت فى أسبانيا ، ولعلها قوت ـ من ناحية أخرى ـ البروتستانت فى ألمانيا واسكندبناوه وانجلترا ـ قصة الحضارة : مج ٤ ج ٥ ص ٩٥ /١٠٣ ومج ٦ ج ٢ ص ٧٨/ ٩٠ .

وهذا قول ـ وإن كانت تؤيده شواهد ـ يمكن دحضه بشواهد أخرى ، تؤكد أن البذور قد يطول كمونها ثم لا تلبث أن تنمو ، مستفيدة من عوامل الاضطهاد السابقة ، فتقوى عليها أو تتجنبها ، وفى هذا ما يمكن الإشارة إليه أحياناً بأن التاريخ يعيد نفسه ، ولعل

مسلمي وسط آسيا ـ بعد محنة طالت أكثر من قرن ، تحت أقسى نظام قيصرى وشمولي ـ خير شاهد ، بل إن المحن التى مرت باليهود ـ خلال تاريخهم الطويل ـ أكبر دليل على أن المحن لا تعجل بالقضاء على المعتقدات ، وما تزال فرق دينية ذات تاريخ طويل من الاضطهاد والمصادرة ، بالرغم من صغر حجمها ، وبالرغم من فساد معتقدها ، كالصابئة، والبهائية ، والقاديانية ، والسامرة .

وهـذا ول ديورانت (قصـة الحضارة مج ٦ ج ٥ ص ١٦٥/١٦٤) يتحدث عـن : (اليهود وفن البقاء) ، فيقول :

إن يهود أيبيريا وجدوا من العسير عليهم أن يتقبلوا لغات وأعراف الجاليات اليهودية التى عرضت انضمامها إليهم ، فأقاموا معاهد خاصة بهم ، واحتفظوا بلغتهم الأسبانية أو البرتغالية ، ووجدت فى كثير من المدن تجمعات منفصلة من اليهود الأسبانيين ، أو البرتغاليين ، أو الإيطاليين ، أو اليونانيين ، أو الألمان ، ولكل طائفة حبرها وعاداتها وتقاليدها وأحقادها ، وفى وسط هذه الأزمة أنقذت الأسرة اليهودية شعب اليهود ، فإن الإخلاص المتبادل بين الآباء والأبناء ، وبين الإخوة والأخوات ، هيأ جواً من الاستقرار والأمن ، وانتهت قرون الفوضى فى الأعراف والعادات اليهودية ، عندما أصدر الحبر يوسف كارو ، من صفد ، كتابه : (تنسيق الشريعة) ـ البندقية ١٥٦٥/١٥٦٤ ـ وسجل فيه الدين والقانون والأعراف اليهودية مرة أخرى ، لكن يهود ألمانيا وبولندة أحسوا بأنه لم يول تقاليدهم وتفسيراتهم للقانون إلا عناية يسيرة ، فأضاف الحبر موسى إسرل ـ من كراكاو ـ إلى (تنسيق الشريعة) ، (تنسيق التنسيق) سنة ١٥٧١ ، صاغ فيه خلافات الأشكنازى مع قانون كارو الذى كان فى معظمه أسبانيا ، ويعد هذا التنسيق ـ حتى اليوم ـ مرجع اليهود ذوى العقيدة الصحيحة .

* * *

التنوير بالإلحاد ..

- الربوبيـــــة .
- قصـور المعرفة .. وعجز العقل .
- أفكار فى الساحة .
- زعمـاء الإلحــاد .
- فولتير .
- روسو .
- هجوم مضـاد .

* * *



الربوبيــــة ..

ثمة عوامل كثيرة أدت إلى الخروج على سلطان الدين ، بل إلى الكفر به .

وقد هيأ نمو الثروة لانتشار حياة أبيقورية ، التمست لها فلسفة تبررها ، فمن السهل أن يخدع المرء نفسه بما يريحه من آصار نزواته ، والتهاب ضعفه بشهواته وتطلعاته .

ثم إن كارثة الحروب الدينية ، وخروج رجال الدين على كل المعايير الإنسانية ، شوه مفهوم الدين، وجسد نوعاً من التحدى لكل ما يتظاهر به رجال الكنيسة من ورع وتقوى ، بينما ينشبون مخالبهم القذرة ، وأنيابهم الزرقاء ، فى كل شىء ، حتى فى جسد المسيح ودمه .

وكان ازدياد المعرفة بالأخلاق والفلسفات الوثنية ، وبالعادات والطقوس الآسيوية ، هو البديل الذى حل محل الفكر المسيحى الذى شوهته المجامع ، ومراسيم البابوات ، وسلوك الكثرة الغالبة من رجال الدين ، ابتداء من البابا إلى حارس الكنيسة فى أصغر قرية نائية عن مباهج الحياة .

لم تكن الوثنية أو الفكر اليونانى والفارسى ليشغل المفكرين والفلاسفة ، بفضل الآداب اليونانية والفارسية فحسب ، بل كان الواقع الكنسى المشين ، والآداب الكنسية اللاعقلانية ، والاستجابة الحرة لما توحيه الأساطير القديمة من رموز تفسر كثيراً من القضايا الفكرية والروحية ، ثم الشعور القوى فى عصر النهضة بأن هذا الماضى البعيد لا يتمتع بعطره الساحر، شديد الغموض والجاذبية فحسب ، بل إنه وضع ركائز قوية لانطلاقات حضارية ، حال دونها جدران سميكة من القيود والسدود أظلمت بها الحياة قروناً عديدة ، ولا حيلة لاستعادة هذه الركائز والانطلاق الحضارى بها إلا بتحطيم هذه القيود والسدود .

وكانت الربوبية (Deism) أيسر السبل وأخطرها ، وأقربها إلى منطق القرن الثامن عشر الذى استفاد كثيراً من تجارب القرنين السابقين ، ومن انتصاراتهما ونضحياتهما ، وتحدياتهما ، فالربوبية تدعو إلى الإيمان بدين طبيعى مبنى على العقل ، لا على الوحى ، ويهتم بالناحية الأخلاقية ، منكراً تدخل الخالق فى نواميس الكون .

يقول أنطونى كولنز : لم يكن ثمة أحد يشك فى وجود الله ، حتى جاءت (محاضرات بويل) ، وأخذت على عاتقها إثبات وجوده .

وقد برزت لفظة (ربوبى) سنة ١٦٢٧ فى (رسالة إلى ربوبى) ، لرئيس الشمامسة إدوارد ستللنجفليت ، لكن مطبوعات الربوبيين كانت قد بدأت بكتاب لورد هربرت شربرى (الحقيقة) سنة ١٦٢٤ .

وتابع تشارلز بلونت ، أحد مريدى لورد هربرت رسالته فى كتابه (النفس البشرية) سنة ١٦٨٩ ، وكانت حجته أن كل ديانة إنما كانت من خلق أو ابتداع دجالين أفاكين ، سعوا إلى السلطة السياسية أو الكسب المادى ، وأن الجنة والجحيم كانتا من بين المخترعات التى اصطنعوها للتحكم فى الأهالى واستغلالهم .. إن الروح تموت مع الجسد ، والإنسان والحيوان متشابهان إلى حد أنه (من رأى بعض الكتاب أن الإنسان ليس إلا قرداً مصقولاً) .

وفى كتابه (عظة ديانا إلى أهل إفسوس) أو (منشأ الوثنية) سنة ١٦٨٠ ، جعل بلونت من القساوسة أدوات فى أيدى الطبقات الغنية التى سمنت واكتنزت بفضل كدح الشعب الصابر وسذاجته . وفى دقة ماكرة مؤذية ترجم بلونت كتاب فيلوستراتوسى (حياة أبوللينوس أوف ديانا) ، وحدد أوجه الشبه بين المعجزات المنسوبة إلى صانع الأعاجيب الوثنى والمعجزات المنسوبة إلى المسيحيين ، وأوحى برفق إلى التشكك فيهـا ، وعدم تصديقها جميعاً ، على حد سواء .

وفى (بيان موجز عن ديانة الربوبيين)سنة ١٦٨٦ اقترح بلونت ديانة خالية من أية عبادة أو طقوس اللهم إلا (عبادة الله بحياة فاضلة قائمة على الأخلاق) .

وفى (وحى العقل) سنة ١٦٩٣ أوضح بلوت أن اللاهوت المسيحى قام أول الأمر على توقع خاطئ لانتهاء العالم فى وقت قريب أو مبكر ، وسخر من قصص الكتاب المقدس عن الخليقة ، ومن مولد حواء من ضلع آدم ، ومن الخطيئة الأصلية ، ومن إيقاف يشوع الشمس ، على أنها جميعاً سخافات صبيانية .

وكان يرى أن (كل ما هو ضد الطبيعة فهو ضد العقل ، وكل ما هو ضد العقل فهو سخيف ويجب أن يرفض) ـ قصة الحضارة مج ٨ ج ٤ ص ٣١/٢٩ .

وتابع جون تولاند (١٦٧٠ ـ ١٧٢٢) الحملة ، فى سن السادسة والعشرين أصدر كتاباً غفلاً من اسم المؤلف ، بعنوان (المسيحية لا تكتنفها أسرار) سنة ١٦٩٦ ، وصفه بأنه (رسالة توضح أنه ليس فى الإنجيل شىء ينافى العقل أو يسمو فوق العقل) .

(إننا نعتقد أن العقل هو الأساس الوحيد لكل حقيقة يقينية ، ولا يستثنى من مجال بحث هذا العقل أى وحى أكثر مما تستثنى الظواهر العادية للطبيعة) .

(إن تصديق لاهوت الكتاب المقدس ، أو قبول معنى أى فقرة فيه ، بدون برهان عقلى متماسك واضح - هو سرعة تسليم تستحق اللوم .. نحن نتمسك بأن العقل هو الأساس الوحيد لكل يقيننا) .

(إن الاعتقاد بألوهية الأسفار المقدسة ، أو معنى أية قطعة فيها ، دون برهان عقلانى ، أو حجة دامغة قوية ، إنما هو سذاجة أو سرعة تصديق جديرة باللوم .. ومن المألوف أن يميل بعض الناس إلى سرعة التصديق عن جهل وعن عمد ، لكن الأكثر من هذا أن ما يتوقعون من نفع هو الذى يدفعهم إلى سرعة التصديق) .

كان تولاند عضواً في (الماسونيين الأحرار) التي أسست في لندن سنة ١٧١٧ ، وهذه الجمعية - كما وصفها تولاند - نبذت كل الوحي الخارق للطبيعة ، وقدمت ديناً جديداً يتفق مع الفلسفة ، وقالت بالتماثل بين الله والكون ، واستبدلت بالقديسين فى التقويم المسيحى أبطال الحرية والفكر ، وأجازت الجمعية لأعضائها القيام بالعبادات العامة المألوفة، ما داموا - عن طريق نفوذهم السياسى - يستطيعون الحيلولة دون أن يكون التعصب أمراً مؤذياً ضاراً .

إن الماسونية تجمع شكولاً من الناس والأفكار ، فتصنع الشكوك ، وتحبب المروق، ويتم التفريغ العقلي والروحي ، حتى يسهل إعادة الشحن والامتلاء بما يحيل أعضاءها وسائل طيعة لتحقيق أهداف غير طيبة [١] .

* * ليس عجيباً أن تكون انجلترا فى مقدمة الدول الأوروبية التى حظيت بتجارب الرفض الدينى ، والتخلق الماسونى ، إذ كانت الدولة الأكثر استفادة بالتوسع الاستعمارى ، وبخاصة بعد القضاء على الأسطول الأسبانى ، كما كانت أكثر الدول تبنياً لكل الإرهاصات والتجاوزات والشكوك التى تمخضت بها الأرحام الأوروبية ، كما أنها الدولة التى استفادت من محنة الحروب الدينية التى استمرت عدة عقود .. هذا بالإضافة إلى ما (أوحت) به وثيقة (الماجنا كارتا) من حق الإنسان فى حياة مشمولة بحماية القانون .

قال فولتير : (فى فرنسا ينظر الناس إلى على أنى مقل فى الدين ، وفى انجلترا على أنى مسرف فيه) .

وقال مونتسكيو - بعد أن زار لندن سنة ١٧٣١ - (ليس فى انجلترا دين) .

---

(١) اقرأ فصلا عن الماسونية فى كتابى (الساعة الخامسة والعشرون) - دار الأمين .

وقال اللورد هرفي : (إن خرافة المسيحية قد نسفت الآن ــ سنة ١٧١٨ ــ في انجلترا ، حتى ليكاد أي رجل عصري ، أو ذي مكانة ، يخجل من الاعتراف بمسيحيته ، خجله في الماضي من الجهر بتجرده من أي دين ، وحتى النساء اللاتي كن يفخرن بذكائهن حرصن على أن يفهمن الناس أن الميول المسيحية هي ما يحتقرن الالتزام به) .

كانت الكنيسة الرسمية قد فقدت كرامتها ونفوذها ، بمساندتها الاستيوارتيين ضد الهانوفريين ، وحزب الأحرار المنتصر ، وخضعت الآن للدولة ، وغدا قساوستها أتباعاً أذلاء للطبقة الحاكمة ، وكان القسيس الريفي هو الهدف المفضل لهجو الأدباء ، أو سخرية السوقة .. وقد كرم فيلدنج من شذوا عن هذه القاعدة في شخص القس آدمز ، وغلبت الفوارق الطبقية في الكنائس ، فكان للأغنياء مقاعد خاصة قرب المنبر ، ويجلس عامة الناس أو يقفون في المؤخرة ، فإذا قضيت الصلاة لزم العامة أماكنهم حتى يخرج الكبراء في وقار .

وقد وصف هيوم انجلترا بأنها (استكانت إلى حال من عدم الاكتراث الهادئ بأمور الدين ، لا تجدها في أية أمة من أمم الأرض) .

وفي سنة ١٧١٩ قرر مجمع للقساوسة المشيخيين بأغلبية ٧٧ إلى ٦٩ أن التعهد بالتزام عقيدة الثالوث التقليدية ينبغي ألا يكون شرطاً يفرض على المرشحين رعاة للكنيسة ، وأما الكويكريون فكانوا ينمون في الثراء ، لا في العدد ، وكلما ارتقوا في مدارج المجتمع أصبحوا أكثر تقبلاً لأساليب حياة البشر وذنوبهم .

* كان الملك يعين الأساقفة ، أما القساوسة فكان يعينهم كبار ملاك الأرض ، ويجرون عليهم أرزاقهم .

وقد يبدو أن هجوم الربوبيين على الدين قد هدأت فورته ، إلى حد مكن بيرك من أن يتساءل سنة ١٧٩٠ : (من ممّن ولدوا في السنين الأربعين قرأ كلمة واحدة مما كتب كولنز ، وتولاند ، وتندال ، وتشب ، ومورجن ، إلى آخر تلك السلالة التي سمت نفسها أحرار الفكر ؟) .

لكن هذا لا يعني أن نشاطاً دينياً قد أخذ يدب في أوصال المجتمع الإنجليزي .

كتب بوزويل سنة ١٧٦٣ يقول : (بين رجال الدين كثيرون من غير المؤمنين الذين رأوا الدين مجرد نظام سياسي ، فهم ينظرون إلى الوظيفة الكهنوتية ذات الدخل نظرتهم إلى أي وظيفة مدنية ، ويسهمون بجهودهم للإبقاء على هذا الوهم المفيد) .

وقد وصف جيله سنة ١٧٦٥ ، ناسياً عامة الشعب ، بأنه (عصر اشتد ولع الناس فيه بالشكوكية ، حتى لكأنهم يفاخرون بتضييق دائرة إيمانهم ما استطاعوا) .

وكان سلوين يسخر من الدين فى أكسفورد ، وولكس فى (مدمنام آبى) ، وروت الليدى هستر ستا نهوب أن (بت) الابن (لم يذهب قط إلى الكنيسة فى حياته) ، ولم يكن فرضاً على الواعظ أن يكون مؤمناً بما يعظ .

وقال جيبون (إن إقرارات العقيدة القويمة ، ومواد الإيمان ، يوقعها رجال الدين العصريون بزفرة أو ابتسامة) .

* وقد ساعد على تقويض صرح العقيدة المسيحية فى انجلترا ارتباط الكنيسة بصعود الأحزاب السياسية وهبوطها ، وازدياد الثروة ، ومطالب اللذة فى طبقات المجتمع العليا ، ودولية الأفكار بفضل التجارة والسفر ، والإلمام المتزايد بالأديان والشعوب غير المسيحية ، وتكاثر الملل ، وتبادل النقد فيما بينها ، وتطور العلم ، وازدياد الإيمان بالأسباب الطبيعية والقوانين الثابتة ، والدراسة التاريخية والنقدية للكتاب المقدس ، واستيراد أو ترجمة كتب خطيرة مثل (معجم) بيل ، و (رسالة فى اللاهوت والسياسة) لسبينوزا ، والكف عن رقابة الدولة على المطبوعات سنة ١٦٩٤ ، ومكانة العقل الصاعدة ، والمحاولات الجديدة للفلسفة فى أعمال بيكون وهوبز ولوك ، لتفسير العالم والإنسان تفسيرات طبيعية .. وأهم هذه العوامل حملة الربوبيين المؤلهة لاختزال المسيحية إلى مجرد الإيمان بالله والخلود .

وإذا كانت هذه الحركة قد نمت خلال القرن السابع عشر ، ومطلع الثامن عشر ، بكل من بلونت وتولاند وكولنز ، فقد واصلت سيرها بأثر متراكم فى أعمال هويستن وولستن وتندال ومدلتن وتشب وأنت وغيرهم .

وقد طرد وليم هويستن الذى خلف نيوتن أستاذاً للرياضة فى كمبردج من منصبه ذاك سنة ١٧١٠ ، لإعرابه عن بعض الشكوك فى الثالوث ، فدافع عن أريوسيته فى كتاب : (إحياء المسيحية البدائية) سنة ١٧١٣ ، وأجهد نفسه ليثبت أن تنبؤات العهد القديم لا تشير إلى المسيح ، فلما أقلع المدافعون عن المسيحية عن اتخاذ الحجج من التنبؤات ، وبنوا ألوهية المسيح على المعجزات المروية فى العهد الجديد ، أطلق توماس ولستن ثورته التى خلت من التوقير للمسيحية فى (ستة أحاديث عن معجزات مخلصنا) ــ سنة ١٧٣٠/١٧٢٧ ــ يقول فولتير : (لم يهاجم المسيحية مسيحى قط بهذه الجرأة) ، فقد زعم ولستن أن بعض المعجزات لا تصدق ، وبعضها غير معقول ، ووجد أن مما لا يصدقه العقل أن يلعن المسيح

شجرة تين ، لأنها لم تثمر تيناً فى وقت مبكر من العام ،كوقت الفصح .

وتساءل : ماذا كان مربو الأغنام فاعلين بيسوع لو أنه دفع أغنامهم إلى الموت ، كما فعل بخنازير الجدريين ؟ .

إنهم كانوا (يستصدرون حكماً بإعدامه شنقاً) ، لأن القانون الإنجليزى يعتبر هذا العمل جناية كبرى .. وذهب ولستن إلى أن قصة قيامة المسيح خدعة مفتعلة ، خدع بها الرسل سامعيهم ، وغطى هذا كله بتأكيدات زعم فيها أنه ما زال مسيحياً (قوياً كالصخرة) .

وبلغت دعوى الربوبية ذروتها عند تندال ، زميل كلية (جميع النفوس) بأكسفورد .. فبعد حياة هادئة ، تميزت باعتناقه الكاثوليكية ، ثم تحول عنها ، نشر ـ وهو فى الثالثة والسبعين ـ أول مجلد من كتابه (المسيحية قديمة قدم الخليقة) سنة ١٧٣٠ ، وهذا الكتاب هو الذى ابتعث كتاب الأسقف بطلر (أوجه الشبه بين الدين والطبيعة) ، وكتاب الأسقف باركلى (ألسيفرون) أو الفيلسوف الصغير .

لقد طوف تندال ـ من غير ترفق ـ بكل أوهام اللاهوت ، فتساءل لماذا أعطى الله وحيه لشعب صغير واحد هم اليهود ، وجعله حكراً عليهم أربعة آلاف سنة ، ثم أرسل إليهم ابنه بوحي آخر ، ما زال بعد ألف وسبعمائة سنة مقتصراً على أقلية من الجنس البشرى ؟ فأى نوع من الآلهة يمكن أن يكون هذا الإله الذى استعمل هذه الطرق السقيمة ، بمثل هذه النتائج البطيئة الناقصة؟ وأى إله رهيب هذا الذى عاقب آدم وحواء على طلب المعرفة ، ثم عاقب كل ذراريهم لأنهم ولدوا ؟.

يقال لنا إن السخافات التى يتضمنها الكتاب المقدس سببها أن الله وفق كلامه بلغة سامعيه وأفكارهم ، فيا له من هراء ، لماذا لم يستطع أن يحدثهم بالحقيقة البسيطة بصورة مفهومه ؟ ولم استخدم الكهنة وسطاء له ، بدلاً من أن يتحدث مباشرة إلى نفس كل إنسان ؟ ولم سمح بأن يصبح دينه لشعب بعينه أداة اضطهاد وإرهاب ، وحرب ، لا يخرج منه البشر ـ بعد قرون من هذا التدبير الإلهى ـ أكثر فضيلة منهم عن ذى قبل ، بل جعلهم فى الواقع أشد ضراوة وقسوة مما كانوا فى ظل العبادات الوثنية ؟ أليس فى كونفشيوس أو شيشرون فضيلة أرفع مما فى مسيحية التاريخ ؟ إن الوحي الحقيقى موجود فى الطبيعة ذاتها، وفى عقل الإنسان الممنوح من الله ، والإله الحقيقى هو الإله الذى كشف عنه نيوتن ، المهندس لعالم عجيب ، يعمل بعظمة وجلال ، وفق قانون ثابت ، والفضيلة الحقة هى

حياة العقل فى انسجام مع الطبيعة (فكل من ينظم ميوله الفطرية ، بحيث تؤدى إلى أقصى حد لاستخدام عقله ، وصحة جسده ، ولذات حواسه ، مجتمعة كلها معاً ـ لأن فى هذا سعادته ـ له أن يثق بأنه لا يمكن أن يغضب خالقه الذى إذ يحكم كل الأشياء حسب طبائعها ، فهو لابد يتوقع من مخلوقاته العاقلة أن تسلك وفق هذه الطبائع) .. تلك هى المسيحية الحقة (القديمة قدم الخليقة) .

* * وواصل كونيرز مدلتن الهجوم ، من الناحية التاريخية .. فبعد أن تخرج فى كلية ترنتى بكمبردج رسم قسيساً ، وبينما كان يكيل ضرباته للإيمان السنى ، واصل الممارسات الخارجية للعبادة المسيحية .. وأنذر في (رسالة الدكتور ووتر لاند) ـ سنة ١٧٣١ ـ اللاهوتيين البروتستانت بأن تشبثهم بكل أساطير الكتاب المقدس ، باعتبارها تاريخاً فعلياً ، ليس إلا عملاً انتحارياً ، لأن تقدم المعرفة سوف ينبذ ـ إن عاجلاً أو آجلاً ـ مثل هذه الخرافات ، ويكره المدافعين المسيحيين على التقهقر فى خجل إلى موقف أكثر تواضعاً .

وقد أبهج زملاءه القساوسة حين أرسل إلى انجلترا (رسائل من روما) سنة ١٧٣٩ ، التى بين فيها ـ بتفصيل ينم على علم ودراية ـ رواسب الطقوس الوثنية المتخلفة فى مجموعة الطقوس الكاثوليكية : البخور ، والماء المقدس ، وآثار القديسين ، والمعجزات ، والقرابين المنذورة ، والأنوار القائمة أمام المزارات المقدسة .

وأخيراً أصدر مدلتن أهم أعماله : (تحقيق حر فى القوى الإعجازية المزعوم أنها وجدت فى الكنيسة المسيحية ، خلال العصور المتعاقبة) سنة ١٧٤٨ ، وهو كتاب عده هيوم بعد ذلك أسمى من مقاله (فى المعجزات) ، سنة ١٧٤٧ .. وقد بدأ التسليم بحجية المعجزات المنسوبة فى الأسفار القانونية من العهد الجديد إلى المسيح ورسله ، وأراد أن يظهر فقط أن المعجزات المنسوبة إلى آباء الكنيسة وقديسيها وشهدائها ، بعد القرن الأول الميلادى ، غير جديرة بالتصديق ، ومجرد سرد تلك القصص يكفى للكشف عن سخفها ، وقد أمّن بعض آباء الكنيسة على مثل هذه القصص وهم يعلمون زيفها .

ونقل مدلتن عن مورهايم ، المؤرخ الكنسى العلامة تصريحه بالخوف من أن (الذين يحظون بشىء من العناية كتابات أعظم وأقدس لاهوتيى القرن الرابع ، سيجدونهم كلهم ، وبلا استثناء ، ميالين إلى الخداع والكذب ، كلما اقتضت ذلك مصلحة الدين) .

* أما جورج باركلى الذى نرك بصمته على الفلسفة فى السنوات (١٧٠٩ ـ ١٧١٣) فقد أدلى بدلوه فى (السيفرون) ، أو الفيلسوف الصغير ، سنة ١٧١٣ ، فى

حوار يتألق بالتفكير الجرىء ، والأسلوب المرح ، وألسيفرون هذا يصف نفسه بأنه رجل حر التفكير ، تقدم من التسامح الدينى ، إلى الربوبيـة ، إلى الإلحاد ، وهو الآن يرفض الدين كله ، باعتباره خداعاً يموه به الكهان والحكام على الناس وهو يأبى الإيمان بأى شىء غير الحواس ، والعواطف ، والميول الفطرية .

* أما جوزيف بطلر فكان ألين عوداً ، أكثر رهافة وتهذيباً ، ولما عرضت عليه سنة ١٧٤٧ رئاسة أسقفية كنتربرى ـ وهى أعلى منصب كنسى فى انجلترا ـ رفضها معتذراً بأن قد (فات وقت محاولة دعم كنيسة متداعية) .

وفى سنة ١٧٥١ أعرب عن فزعه (لما أصاب الدين من انحلال شامل فى هذه الأمة ، وتأثيره يبلى أكثر فأكثر فى أذهان الناس ، وعدد الذين يجهرون بالكفر فى ازدياد ، وتحمسهم يتزايد بتزايد عددهم) .

وفى كتابه (وجه الشبه بين الدين الطبيعى والوحى ، وبين تكوين الطبيعة ومسلكها) سنة ١٧٢٦ ـ قصد أن يكون رداً على الربوبيين ، فافترض وجود الله ، وكأن (الدين الطبيعى) الذى يدين به الربوبيون يقتل (إله الطبيعة) ، مخطط العالم ، وصانعه الأعظم ، لكنه رفض الإله الذى صوره الكتاب المقدس ، لأنه إله ظالم ظلماً مبيناً ، لا يتفق أبداً وهذا المفهوم السامى .. ثم لم يمض فى رفضه ـ وأراد أن يبين أن فى الطبيعة من علامات الظلم والقسوة ما لا يقل عن صفات (يهوه) ، كما صوره العهد القديم ، وأنه لاتناقض بين إله الطبيعة وإله الوحى .

وأقام حجته فى وجود الإلهين ، وفى أنهما إله واحد ، على الترجيح والاحتمال ، فقال : (إن عقولنا ناقصة ، وإنها عرضة لكل ضروب الخطأ ، فليس فى إمكاننا أن نصل إلى اليقينية ، لا فى أمر الله ، ولا فى أمر الطبيعة ، وحسبنا الترجيح) .

* * *

قصور المعرفة . . وعجز العقل

كان وليم أوكهام المتوفى سنة ١٣٥٠ تقريباً ـ وهو ما يزال فى زهرة العمر ـ يرى أنه لا داعي لأن يفترض ـ كمصدر ومادة للمعرفة ـ أى شيء أكثر من الحواس إذ تنشأ الذاكرة عن الإحساسات أو تنتعش .. والإدراك (إحساس يفسر من خلال الذاكرة) ، والخيال (ذاكرة متحدة) ، والتوقع (ذاكرة تنعكس) ، والفكرة (ذاكرات تقارن) ، والتجربة (ذاكرات تفسر من خلال الفكرة) .

ومن هنا (لا شيء يمكن أن يكون موضوعاً للحس الداخلى ـ الفكرة ـ إلا إذا كان موضوعاً للحس الخارجي ـ الشعور) .

(وهـذا هو المذهب التجريبى للوك قبـل ظهوره بثلاث مائة عام) ـ قصة الحضارة مج ٦ ج ٢ ص ١٤٣ .

ونظراً لأنه لا يمكن أن يعرف شيء إلا بطريق الإدراك المباشر ، فإنه لا يتيسر لنا الحصول على معرفة واضحة بأن الله موجود ، ولا يمكن للعقل أن يرى أن الله قادر على كل شيء ، أو لاحد لقدرته ، وعالم بكل شيء ، أو لطيف ، أو واحـد ، كما أن العقـل لا يستطيع أن يثبت أن الله ثالث ثلاثة ، أو أن الله تجسد إنساناً ، ليكفر عن خطيئة آدم وحواء بعصيانهما ، أو أن الله حاضر فى القربان المقدس . ثم إن التوحيد ليس مطابقاً للعقل أكثر من الشرك ، وربما يكون هناك أكثر من عالم يحكمها أكثر من إله .

وفى كتابه (مائة لسان) ـ فى علم اللاهوت ـ احتكم إلى مائة عقيدة للكنيسة ، ورأى أن كثيراً منها يؤدى منطقياً إلى نتائج سخيفة ، لا تحتمل ، فمثلاً إذا كانت مريم أم الله ، وكان الله والدنا جميعاً ، فإن مريم تكون أماً لوالدها .

وناقش أوكهام الخلافة الرسولية للبابوات ، وعصمتهم من الخطأ ، وعلى النقيض من ذلك أكد أن كثيراً منهم كانوا هراطقة ، وأن بعضهم كانوا مجرمين ، وطالب بمعاملة رقيقة للهرطقة ، ورأى أن التعبير عن الرأى يجب أن يترك حراً ، إلا بالنسبة لنشر الزيف

المتعمد ، ورأى أن المسيحية فى حاجة إلى العودة من الكنيسة إلى المسيح ، من الثروة والسلطان إلى البساطة فى الحياة ، والخضوع لحكم الشريعة ، ويجب ألا نكون الكنيسة مقصورة على رجال الدين وحدهم ، بل يجب أن تضم المجتمع المسيحى بأسره .

يقول ول ديورانت : لقد (اعترف به كأقوى مفكر في عصره ، وارتجت الجامعات بالجدل حول فلسفته ، وقبل كثير من علماء اللاهوت وجهة نظره فى أن العقائد الأساسية للدين المسيحى لا يمكن إثباتها بالعقل) ـ قصة الحضارة ـ مج ٦ ج ٢ ص ١٤٧ .

* وسلم حسداى بن أبراها كرسكاس(١٣٤٠ ـ ١٣٩١) بأن العقل لا يستطيع أن يوفق بين سابق علم الله وحرية الإنسان ، ومن ثم يجب ألا نرفض الحرية ، بل نرفض العقل ، وينبغى أن نؤمن بالله ، وبالإرادة الحرة والخلود ، من أجل طمأنينة نفوسنا ، وهدوء بالنا ، وسلامة معنوياتنا ، وليست بنا حاجة إلى الادعاء بإثبات هذه المعتقدات عن طريق العقل ، ويجب أن نختار بين عقلنا الفخور الضعيف ، الذى يزعزع الإيمان ، ويورث البأس ، وبين إيماننا المتواضع بكلمة الله ، التى يمكن عن طريقها وحدها أن نحتمل ألوان المهانة والظلم فى الحياة ـ قصة الحضارة مج ٦ ج ٥ ص ١٧٦ .

اختلف حسداى مع أوكهام ، بسبب أن حسداى لم يجعل العقل وحده وسيلة الإيمان ، أو الوسيلة التى نملكها لتقويم كل شيء فى الطبيعة ، كما فعل أوكهام ، لأنه ـ بحكم يهوديته (!!) وبحكم ثقافته الإسلامية (!!) ـ أدرك أن ثمة وسيلة أخرى للمعرفة ، عن طريق الوحى ، أو عن طريق الإلهام ، و (فقه القلب) .. واتفق حسداى مع أوكهام فى الثقة بعجز العقل ، سواء أكان هذا العقل ثمرة (الإحساسات) أو كان مزوداً بإمكانات أخرى لا نعرفها .

ولو أن العقل من صنع (الحواس) فقط لكان أقرب إلى الضلال منه إلى الصواب ، لأن الحواس لا تستطيع أن تنقل المحسوسات نقلاً أميناً ، ولأن المحسوسات ـ ألواناً وروائح وطعوماً وأحجاماً ومقادير وأبعاداً ـ لا يسهل التعرف عليها بالدقة الفاصلة بين الأبيض والأسود من درجات ، وكذلك ما بين الحلو والمالح ، والمحبوب والمكروه ، والخفيف والثقيل ، والكبير والصغير ، والقريب والبعيد .. فإذا أضفنا عامل العاطفة فى نقل المحسوسات اختلط الأمر ، لقدرة العاطفة على تحويل القرد غزالاً ، وضرب الحبيب كأكل الزبيب .

من هنا يصبح العقل الذى هو صنيعة الحواس ـ كما يقال ـ عاجزاً كل العجز عن الوصول إلى الحقيقة الواقعة الملموسة ، فكيف بالحقيقة الكونية ، أو الحقيقة المطلقة ؟!.

* وجاء فرنسيس بيكون ـ (١٥٦١ ـ ١٦٢١) فوضع مفتاح التجريبية فى يد هوبز ولوك ومل وسبنسر بما جاء فى كتابه (الأداة الجديدة)إذ يقول :

(إن الإنسان ـ بوصفه خادم الطبيعة ومفسرها ـ يمكن أن يعمل ويفهم الكثير ، والكثير حقاً ، من مجرى الطبيعة ، ما دام قد لاحظ الطبيعة واقعياً ، أو بفكره .. أما ما وراء هذا فهو لا يستطيع أن يدرك شيئاً أو يعمل شيئاً) .

(إن دقة الطبيعة تفوق أضعافاً مضاعفة دقة الحواس والفهم ، ولذلك فإن كل تلك التأملات والنظرات المموهة ، وكل تلك المظاهر البراقة التى ينغمس الناس فيها ـ بعيدة عن الفرض ، وليس هناك من يلاحظها) .

(إن القياس المنطقى لا يطبق على المبادئ الأولى للعلم ، كما يطبق عبثاً على البديهيات المتوسطة ، لأنه لا يتكافأ مع دقة الطبيعة ، إنه لذلك يتطلب الموافقة على الفرض، ولكنه لا يتملك الموضوع) .

(القياس المنطقى يتألف من فروض ، والفروض من ألفاظ ، والألفاظ من رموز وأفكار ، ومن ثم فإن كانت الأفكار ذاتها مضطربة ـ وهى جذور الموضوع ـ وإذا كانت قد تجردت من الحقائق على عجل ، فإن البناء لا يمكن أن يكون ثابتاً ، ولذلك ، فإن أملنا الوحيد ينحصر فى استقراء حقيقى) .

(إن أفكارنا ـ سواء فى المنطق أو فى الطبيعة ـ تتجرد من الصحة ، والمادة ، والنوع ، والعمل ، والميل ، والجوهر ذاته ، فهى ليست بالأفكار السليمة، وأقل منها سلامة صفات الثقل ، والخفة ، والغزارة ، والندرة ، والرطوبة ، والجفاف ، والتوليد ، والفساد ، والجاذبية ، والنفور ، والعنصر ، والمادة ، والشكل ، وما إليها .. كلها وهمى ، غير محدد التعريف) .

(إن المعرفة الإنسانية ، والقدرة البشرية ، تلتقيان فى الإنسان الواحد ، وحيثما لا يعرف مجرى الطبيعة ، لا يمكن إنتاج الأثر المطلوب .. ولكى تسيطر على الطبيعة ينبغى أن تمتثل لها) .

(إن المعرفة الإنسانية ـ كما نعهدها في أنفسنا ـ إن هي إلا خليط وأكداس لم يتيسر هضمها ، مكونة من كثير من السذاجة ، وسرعة التصديق ، وكثير من المصادفات والأعراض غير الجوهرية ، وكذلك من الأفكار الصبيانية التي تشربناها أول الأمر) .

(إن المنهج الصحيح للاختبار ـ يشعل النور أولاً « بالافتراض » ، ثم بواسطة هذ الضوء ينير الطريق ، بادئاً بالاختبار ترتيباً سليماً ، ومنه يستنتج بديهيات « الثمار الأولى » و « النتائج الموقتة » ، ومن البديهيات الراسخة تبدأ ثانية تجارب جديدة .. إن التجربة نفسها هي التي ستقرر وتحكم) .

ومهما يكن من أمر فإن بيكون كان على حذر من (الفرضيات) ، حيث كانت ـ في الكثير الغالب ـ توحي بها التقاليد ، أو التحيز ، أو الرغبة .. وتجنباً للوقوع في هذا الشرك اقترح استقراء شاقاً ، بتجميع كل الحقائق الوثيقة الصلة بالمسألة ، وتحليل هذه الحقائق ومقارنتها وتصنيفها ، وربطها بعضها ببعض ، ثم (بعملية صحيحة) من (الاستبعاد والنبذ) ، أي التخلص من فرضية بعد أخرى ، على التعاقب ، يمكن الكشف عن (الصيغة) أو القانون الأساسي الضمني ، الذي هو (جوهر الظاهرة) .. إن معرفة (الصيغة) سوف يهيىء تحكماً متزايداً في الحدث ، فيعيد العلم بالتدريج صنع البيئة ، بل من المحتمل صنع الإنسان نفسه .

وحث بيكون على دراسة الغرائز والعواطف ، إذ هي وثيقة الصلة بالذهن ، قدر صلة الرياح بالبحر .

وقال : (إن الذي له زوجة وأولاد يضع عقبات في سبيل النجاح ، لأنهم عوائق في سبيل المغامرات والمشروعات الكبيرة) .

واستنكر تركيز الثروة لأنه يسبب الفتن والثورات ، ومن ثم فالعلاج الرئيسي (هو أن نزيل بكل الوسائل الممكنة السبب المادي ، وهو الحاجة والفاقة ، ونهتم بكل ما يخدم التوسع في التجارة وتوازنها ، وتعزيز الصناعة ، والقضاء على الخمول ، والتبديد ، والتبذير ، بسنّ قوانين الحد من الإنفاق وتنظيمه ، وتحسين التربة ، وعدم إرهاقها ، وتحديد أسعار المبيعات ، وتخفيف الضرائب .. وفوق هذا كله انتهاج سياسة حكيمة في عدم تجميع ثروات الدولة في أيد قليلة .. إن المال مثل السماد ، لا خير فيه إلا إذا انتشر) .

وبهذا الأفق (العملي) الواسع فتح بيكون الطريق إلى الانقلاب الصناعي في انجلترا ، وحسبه أنه القائل : (اضربني إذا شئت ، ولكن اسمعني أولاً) .

إن أخطر ما يصيب الإنسانية هو (الصمم) ، أو أن يسمع الإنسان نفسه ، دون أن يسمع الآخرين ، أو أن يتخذ من أحاسيسه معيار الحكم على ما حوله ، وعلى ما لا تقع عليه حواس .. إن منهج الاستقراء ، ومراجعة الافتراضات ، أقرب الوسائل للصواب ، فيما يتصل بالحواس ، أو بالمدركات الناشئة عن الحواس ، أما ما عدا ذلك فلا سبيل إلا عن طريق (الوحي) ، أو ما هو من طريق (الحدس) والإلهام ، كوسيلة لاغاية ، أو كلون من ألوان المعرفة (الممكنة) .

يقول كرين برنتن (أفكار ورجال ص ٤٢٨) عن هذا المفكر الفيلسوف الواسع الأفق: لم يكن طيباً أو رحيماً ، وكان يطمع في النفوذ والثراء ، وقد انتهت حياته السياسية ــ التي انتهت بوظيفة حامل أختام الملك ــ بالانتهازية وانعدام الضمير ، وأخيراً اتهم بالخيانة ، وقل من العلماء المتأخرين من استطاع أن يعفو عنه باعتباره عالماً سيئاً ، لا يحسن السلوك الذي يبشر به ، لكنه مع ذلك كان ابناً باراً للنهضة الأوروبية ، وإن كان ميلاده قد جاء بعد انقضائها .

كان غزير العلم ، متنوع المواهب ، نشيطاً ، متحمساً للتقدم في كل اتجاه .

* أما ميشيل دي مونتيني (١٥٣٣ ــ ١٥٩٢) فقد شكك في كل شيء ، ونقل عن شيشرون : (ما من شيء سخيف قيل إلا سبق أن قاله أحد الفلاسفة) ، كأنه يقصد أن الاعتماد على العقل وحده مدعاة إلى الزلل، لأن العقل لا يملك إلا مقدرات مادية محدودة ، وما دامت (المعرفة كلها توجه إلينا عن طريق الحواس) فإن الحواس خداعة في تقاريرها ، محدودة في رقعتها .. ومن ثم فإن العقل لا يعتمد عليه ، لأن (باطن الإنسان وظاهره مملوءان ضعفاً وكذباً) .

وقال : (إن الغريزة مرشد أسلم من العقل) ، فانظر إلى الحيوان كيف يحيا بالغريزة حياة ناجحة ــ أحياناً ــ على نحو أحكم من الإنسان . (هناك فرق بين بشر وبشر أكثر كثيراً من الفرق بين البشر والحيوان) ، وليس الإنسان مركزاً للحياة ، كما أن الأرض ليست مركزاً للكون ، ومن التبجح أن يظن الإنسان أن الله يشبهه ، أو أن شئون البشر هي

مركز اهتمام الله ، أو أن العالم وجد ليخدم الإنسان .. ومن السخف أن نظن أن فى استطاعة عقل الإنسان أن يسبر طبعة الله ، (أيها الإنسان الأحمق ، يا من تعجز عن خلق دودة ، لكنك تريد أن تخلق عشرات الأرباب) .

(إن أقل مقدار فيما نجهله هو أكبر مقدار فيما نعرفه) .

(إن الاقتناع باليقينية شاهد واضح على الحمق) .

(ليس هناك وجود ثابت ، لا لكياننا ، ولا للأشياء .. ونحن ، وحكمنا ، وكل الأشياء الفانية الأخرى ، لا تكف عن الدوران ، والتحول ، ثم الزوال) .

منذ الآن (سأفيد نفسى بما أرى ، وأمسك به ، ولا أذهب بعيداً عن الشاطىء) .

(قوانين الضمير لا تنبعث من الله ، بل من العادة ، وما الضمير إلا القلق الذى نحسه حين ننتهك عرف قبيلتنا) .

يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ٧ ج ٢ ص ٢٩١/٢٩٢) : ربما كان بن جونسون يعنى شيكسبير حين اتهم الكتاب الإنجليز بالسرقة من مونتينى ، وقد شعر بيكون بهذا التأثير .. ولعل ديكارت وجد فى (المقالات) لمونتينى الحافز لشكه العام الأول ، أما بسكال فقد أشرف على الجنون ، وهو يحاول إنقاذ إيمانه من تشكيكات مونتينى ، ومن مونتينى انبعث بيل ، وفونتنارج ، وروسو ، وديدرو ، وفولتير ، أما روسو فمن اعترافات مونتينى ومقالاته (فى التعليم) و (فى أكلة لحوم البشر) ، وأما فولتير فمن باقى أعماله كلها .

لقد كان مونتينى جَسَدَ حركة التنوير ، كما كان بيل أباها .

وبفضل مونتينى دخل تحليل العقل والخلق النفسى إلى الأدب الفرنسى ، من كورنى وموليير ولارشفوكو ولا برويير ، إلى أناطول فرانس ، أما ثورو فقد نهل الكثير من هذا المورد ، كذلك استحم فيه إمرسون ، قبل أن يكتب (مقالاته) ، ويمكن أن يقال فى مونتينى ما لا يصدق إلا على قلة من المؤلفين قبل القرن الثامن عشر ، وهو أنه مقروء اليوم كأنه كتب بالأمس .

* أما رينيه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) فقد ولد فى مدينة فرنسية صغيرة سنة ١٥٩٦ ، وتعلم فى إحدى الكليات اليسوعية ، ورغم أنه من أصل فرنسى فقد أمضى الجانب

الأكبر من النصف الأخير من حياته في هولنده ، وهناك قام بتأليف أغلب مؤلفاته الفلسفية التي تضمنت وفرة من الرسائل التي تبادلها مع مفكرين معاصرين له .

وتعد مغادرته هولنده من الأحداث السيئة في تاريخ الفلسفة ، إذ عجل بوفاته سنة ١٦٥٠ ، في سن مبكرة نسبياً (٥٤) سنة ، إذ استجاب لدعوة كرستينا ملكة السويد فسافر إلى استكهولم سنة ١٦٤٩ ، وبعد سنة عاني الأمرين من زمهرير شتاء السويد ، فمات متأثراً بالالتهاب الرئوي .

لم يكن يؤمن بإله عادل قدير فحسب ، بل كان كذلك يؤمن بإرادة إنسانية حرة ، وسط آلية (ميكانيكية) كونية ، ونفس باقية (غير فانية) ، على الرغم من اعتمادها الواضح على جسد فان .

يقول ريتشارد شاخت (رواد الفلسفة الحديثة ص ٢٢) : كل ما قاله في كتاب (المبادئ) لم يرد عن الآتي : (ليس بمقدورنا أن نشك في وجودنا ، ونحن موجودون أثناء قيامنا بالشك ، إذ ثمة تناقض في تصور أن من يفكر لا يكون موجوداً في نفس الوقت الذي يفكر فيه ، ومن ثم فإننا نهتدي إلى النتيجة الآتية « أنا أفكر إذن أنا موجود » ، وتكون هذه النتيجة على رأس اليقينيات جميعاً) .

ومن هذه النقطة استنتج أن العقل ـ لكونه يحتوي على أفكار أعلى مما يستطيع أن يتصورها ـ فلابد أن يكون هناك كائن أعظم هو الذي يغذي العقل بهذه الأفكار .. وبهذه الطريقة اقتنع بوجود الله ، فالإنسان يعتبر الله كائناً كاملاً ، كلي المعرفة ، كلي القدرة ، سرمدياً ، لذلك كان يستحيل على الإنسان أن تكون لديه هذه الفكرة عن الله ما لم يكن الله موجوداً في الحقيقة .

إن فكرة الله ، وفكرة النفس وفكرة المكان والزمان ، وفكرة الحركة ، والبديهيات الرياضية ـ كلها فطرية متأصلة ، بمعنى أن النفس لا تستمدها من الإحساس والخبرة ، بل من جوهرها وعقلانيتها .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الأفكار الفطرية قد تظل لا واعية ، حتى تخرجها الخبرة في صورة واعية ، والنفس حينئذ لا تكون نتاجاً للخبرة ، بل شريكة نشيطة مبدعة في إنتاج الفكر .. إن هذه النفس العقلانية (القدرة على التعقل) واضح أنها غيرمادية ،

وليست لأفكارها طول ولا عرض ، ولا موقع ، ولا وزن ، ولا أية خاصية أخرى من خواص المادة (إنى أنا ـ أى النفس التى أنا بها كما أنا عليه الآن ـ نفس متميزة عن الجسد) إن هذا العقل ، أو النفس غير المادية ، يمكن أن تبقى بعد الجسد ، ولابد أن تبقى .

(إن لدى تصوراً لكائن كامل ، مثالى ، قدير ، عليم ، ضرورى ، خالد ، لكن هذا الذى يوجد أقرب إلى الكمال من هذا الذى لم يوجد ، وعلى ذلك ، فإن الكائن الكامل المثالى يجب أن يكون الوجود من بين صفاته ، ومن الذى كان يستطيع أن يبث فى هذه الفكرة إلا الله سبحانه وتعالى ؟ من المستحيل أن أحمل فى نفسى فكرة الله ، إذا لم يكن الله موجوداً حقاً) .

إن الإيمان يكون منطقى ، خاضع لنظام ، مطيع لقانون ، يمكن التعرف عليه ، وإحصاء ما فيه ـ يصبح أمراً ممكناً ، لا لشيء ، إلا لأن الله موجود .. فإذا افترضنا أن الله خلق المادة ، ووهبها الحركة ، يمكن أن نتصور أن العالم يتطور بعد ذلك ، وفق قوانين الميكانيكا دون تدخل .

(لو كانت معرفتنا تامة كاملة لكان فى مقدورنا أن نحول كل عمليات الحياة ـ باستثناء العقل ذاته ـ إلى قوانين ميكانيكية ، فإن التنفس والهضم ، بل حتى الشعور ، كلها ميكانيكية) .

(إن الله يرتب تفاعل الجسم والعقل بطرق خفية لا يصل إليها إدراكنا المحدود ، وربما ارتأى أن العقل يعمل فى الجسم عن طريق الغدة الصنوبرية الموضوعة بشكل مناسب فى قاع المخ) ـ قصة الحضارة مج ٧ ج ٣ ص ٣٢٦/٣٢٧ .

* * *

أفكار فى الساحـة ..

أقر الفلاسفة إذن بضعف العقل ، وأدركوا أنه من الميسور تضليله بأى منطق فاسد ، أو تفسير خاطئ للخبرة ، وما كان لهم أن ينتظروا شوبنهور لينبئهم بأن العقل عادة خادم للرغبة ، وأداة للإرادة .

إن هيوم الذى هيمن على عصر العقل فى بريطانيا كان أقوى ناقد للعقل ، وربما باستثناء كانت ، واعترف فولتير ـ من آن لآخر ـ بقصور العقل .. واتفق ديدرو وروسو فى أن الوجدان أساسى أكثر من العقل .. واعترف كل فلاسفة القرن الثامن عشر تقريباً بأن غالبية الناس ـ حتى فى أعظم الأمم حضارة ومدنية ـ مرهقون بالحاجيات الاقتصادية ، والكدح فى سبيل العيش إلى درجة لا يجدون معها فسحة من الوقت لتنمية العقل ، وأن جماهير البشر تتحرك وتتأثر بالأهواء والعواطف والحزازات أكثر من تأثيرها بالعقل ـ قصة الحضارة مج ٩ ج ٤ ص ٤/٣ .

ولعلنا نحسن صنعاً باستعراض أفكار بعض رجـالات القرنين السـابع عشر والثـامن عشر ، لنتبين إلى أى حد لم تكن الثقة فى القدرة العقلية يمكن أن تكون مرجعاً دينياً ، أو غير قابلة للمراجعة وإعادة التقويم .

* هذا بسكال (١٦٦٢/١٦٢٣) أعظم كُتَّاب النثر الفرنسى ، وألمع المدافعين عن الدين فى عصر العقل ـ قد أصبح عضواً فى (البور ـ رويال) ، وطلب إليه أن يدافـع عن (البور ـ رويال) ، فنشر سنة ١٦٥٦ رسالتين تحت اسم مستعـار (إلى صـديق فى الأقاليم ، وإلى الآباء اليسوعيين المبجلين عن أخلاقهم وسياساتهم) ، التمس بهما التأييد العام لآراء الجانسنيين فى النعمة الإلهية والخلاص ، قاصداً أن يؤثر فى السوربون ، لتعارض الاقتراع بطرد آرنو ، الذى جرد رسمياً من لقبه ، وطرد .

وحفز الفشل كلا من بسكال وآرنو إلى الهجوم على اليسوعيين ، لأنهم يقوضون الفضيلة بما يعيب اعترافهم من تحلل ، وما يشوب فتاواهم من ثغرات .

وتتابعت رسائله ، وفى الرسالة الثامنة عشرة والأخيرة ـ مارس ١٦٥٧ ـ تحدى البابا نفسه ، ذلك أن الإسكندر السابع أصدر فى أكتوبر ١٦٥٦ تنديداً آخر بالجانسنية ، فذكر بسكال قراءه بأن حكم البابا عرضة للخطأ ، كما أخطأ فى حالة جاليليو ، وأدان البابا

الرسائل فى سبتمبر ١٦٥٧ ، بعد أن انتشرت أفكارها بين المثقفين الفرنسيين .

وقد وصف فولتير الرسائل بأنها (خير ما كتب وظهر فى فرنسا إلى الآن) .

وعكف بسكال على كتابة دفاع مفصل عن الإيمان الدينى يكون بمثابة وصيته الأخيرة ، وقد دونه فى صورة خواطر منفصلة . ولما مات نشرت هذه المادة باسم (خواطر المسيو بسكال عن الدين وغيره من المسائل) سنة ١٦٧٠ ، بعد إخفاء الأجزاء المتشككة ، وبعد تعديل ما يمكن أن يسيء إلى الملك أو الكنيسة . ولم تنشر (الخواطر) فى نصها الكامل الموثق إلا فى القرن التاسع عشر .

ومن هذه الخواطر :

العلم ما هو إلا ادعاء غبى ، فهو مبنى على العقل المبنى على الحواس التى تخدعنا بعشرات الطرق ، وهو محدود بالحدود الضيقة التى تعمل حواسنا داخلها ، وبقصر عمر الجسد قصراً قابلاً للفساد ، وإذا ترك العقل لذاته لم يستطع أن يفهم ، أو يعطى أساساً مكيناً للفضيلة ، أو الأسرة ، أو الدولة ، فكيف بإدراك طبيعة العالم ونظامه الحقيقيين، فضلاً عن فهمه الله ، وفى العرف ـ لا بل فى الخيال والأسطورة ـ حكمة أكثر مما فى العقل ، و (أحكم العقول يتخذ تلك المبادئ التى أدخلها خيال الإنسان يتعجل فى كل مكان ـ مبادئ له) .. وهناك نوعان من الحكمة حكمة الجماهير البسيطة (الجاهلة) التى تعيش بحكمة التقاليد الموروثة والخيال ، أى الطقوس والأساطير ، وحكمة الحكيم الذى نفذ إلى صميم العلم والفلسفة ، ليدرك جهله .. إذن (لا شيء أروح للعقل من أن ينبذ العقل) ، و (الاستخفاف بالفلسفة ملاك الفيلسوف الأصيل) .

من ذا الذى يستطيع أن يفهم ذلك الاتحاد والتفاعل بين جسد واضح المادية وذهن واضح اللامادية ؟.

(ليس هناك شيء أشد استحالة على التصور من أن تعى المادة نفسها) .

إن طبيعة الإنسان التى يمتزج فيها الملاك بالوحش امتزاجاً شديداً تكرر التناقض بين العقل والجسد ، وتذكرنا بالكمير الذى زعمت الأساطير اليونانية أنه عنزة لها رأس أسد وذيل ثعبان .

(يا لهذا الإنسان من كمير !! يا له من بدعة ، ووحش ، وفوضى ، وتناقض ، ومعجزة !! هذا الحكم فى كل شيء ، ونموذج الغباء فى الأرض ، مستودع الحق ، وبالوعة الضلال والشك ، مفخرة الكون ونفايته ، فمن ذا الذى يحل هذا اللغز المعقد ؟) .

ومع هذا ، فقد أنشأ الإنسان من شره وكرهه وغروره دستوراً من القوانين والأخلاق ، ليسيطر على شره ، واشتق من شهوته مثلاً أعلى في الحب . إن (جلال الإنسان عظيم في معرفته أنه شقى) .

إنه تجديف ما بعده تجديف أن نظن أن الحياة والكون بلا معنى ، فالله ومعنى الحياة يشعر بهما القلب لا العقل ، (فإن للقلب مبرراته التى لا يعرفها العقل) ، وخيراً نفعل إن أصغينا إلى قلوبنا ، وإن (وضعنا إيماننا في الوجدان) ، الدين وحده يستطيع أن يرد للحياة معناها ، وللإنسان نبله ، وبدونه نتخبط أعمق من تخبطنا الأول في إحباط عقلى ، وعقم مميت .

كان بسكال جانسنيا مخلصاً ، فاستوحى قلباً نقياً ، واستهدى إيماناً صادقاً ، كما قال ول ديورانت .

قد يكون لعلته الجسدية ـ كما يقول سانت بيف ـ تأثير على فكره ، لكن من ذا الذى سلم جسمه ، أو سلم قلبه ، أو سلم عقله . (كلنا مرضى) ـ كما يقول بسكال ـ (تصور نفراً من الناس يرسفون فى الأغلال ، وقد حكم عليهم جميعاً بالموت ، وفى كل يوم يشنق بعضهم على مرأى من الباقين ، والباقون يتبينون حالهم في حال زملائهم ، ويتبادلون نظرات الحسرة واليأس ، وينتظر كل منهم دوره ، وهذه صورة لحالة الإنسان) .

(إن ساعة من الألم تعلم أفضل من كل الفلاسفة مجتمعين) ، لأن الألم يرقق المشاعر ، ويهذب الأحاسيس ، ويجرد المرء ـ إلى حد ما ـ من سلطان المادة ـ قصة الحضارة مج ٨ ج ١ ص ١٠٦/٩٠ .

* توماس هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩ تقريباً) .. ولد فى ٥ أبريل ١٥٨٨ ، ولما تكتمل مدة الحمل ، وتعزو أمه هذه الولادة المبتسرة إلى فزعها من تهديد الأسطول الأسبانى (الأرمادا) بغزو انجلترا .

مع أنه كان عليلاً في شبابه فقد كان موفور الصحة في شيخوخته ، مارس لعبة التنس وهو فى الخامسة والسبعين ، وعمد إلى المشى فى خفة وسرعة ، حتى يتصبب عرقه .

يعد أقوى فيلسوف أنجبته انجلترا من عهد بيكون ، وقد نبعت هذه الفلسفة من الاستبدادية المطلقة التى انتهجها هنرى الثامن واليزابث فى انجلترا ، وهنرى الرابع وريشيليو فى فرنسا ، كما أنها استمدت بعض القوة من مخالطته أصدقاء من الأدواق والملكيين المهاجرين .

كان مسيحياً يؤمن أن على المسيحيين أن يكون لديهم ـ بصورة عامة ـ إيمان بيسوع المسيح ، وكان يرى ضرورة وجود محرك أول ـ علة أولى وأزلية ـ لكل الأشياء ، هي (الله) .. قد (يعرف الناس طبيعياً أن الله موجود ، وإن كانوا لا يعرفون ماهيته، إن طبيعة الله مغلقة على الأفهام) .

يقول : (ليس ثمة فكرة في عقل الإنسان إلا تولدت ، بادئ ذي بدء ، أو على دفعات ، في أعضاء الحس) .

العالم كله آلة متحركة طبقاً لقانون ، والإنسان في داخله آلة أيضاً ، الأحاسيس تدخل إليه كأنها حركات ، تولد صوراً وأفكاراً ، كل فكرة هي بداية حركة ، تصبح فعلاً إذا لم تعقها فكر أخرى ، وكل فكرة ـ مهما تكن مجردة ـ تحرك الجسم بدرجة ما ، مهما تكن غير منظورة .. والجهاز العصبي عبارة عن تركيب آلي ، لتحويل الحركات الحسية إلى حركة عضلية .. والأرواح موجودة ، لكنها مجرد أشكال دقيقة للمادة .. والنفس والعقل ليسا ماديين ، لكنهما اسمان للعمليات الحيوية للجسم ولأعمال المخ ، أي أنهما ناتجان عن حركات مادية .

وبهذا المنطق المادي يصبح الدين خرافة ، لأن (الخوف من القوة الخفية التي يلفقها العقل ، أو تصورها الأقاصيص ، إذا سمح بانتشاره ، كان الدين ، وإذا لم يسمح كانت الخرافة) .

ومن ثم يخضع مفهوم الخير والشر للرغبات والشهوات ، فالإنسان (يسمي موضوع شهوته أو رغبته خيراً ، وموضوع كراهيته أو نفوره شراً ، لأن هاتين الكلمتين تستعملان دائماً فيما يتعلق بالشخص الذي يستخدمهما ، لأنه ليس ثمة خير أو شر بسيط أو مطلق ، وليس هناك قاعدة عامة للخير أو الشر يمكن استنباطها من طبيعة الأشياء ذاتها) .

وبهذا المنطق المادي يخضع كل شيء للقوة ، وللأمر الواقع ، فالتزام الرعايا نحو الملك يبقى ما بقيت سلطته التي يستطيع بها حمايتهم ، ولا بقاء لهذا الالتزام إذا فقد السلطان .. والثورة دائماً جريمة إلا إذا حققت نجاحاً ، إنها دائماً غير مشروعة وغير عادلة ، لأنها خروج على القانون وعلى العدالة اللذين يحددهما ويحكم بهما الملك ، ولكن إذا أقامت الثورة حكومة مستقرة وفعالة فإن على المواطن أن يلتزم بطاعة السلطة الجديدة .

والملك ـ وإن ادعى أنه يحكم بمقتضى الحق الإلهي ـ يستمد سلطته من الشعب

الذى رضيه ملكاً ، لهذا يجب أن تقيد سلطته جمعية شعبية أو قانون الكنيسة، وإلا أقنعه سكوت الآخرين على التمادى فى فرض سلطانه المطلق .

لكن هوبز يراجع نفسه ، فيرى أن (الحكم المطلق) ضرورى ، لأنه إذا كانت السلطة شركة بين الملك والبرلمان مثلاً فسرعان ما ينشأ النزاع ، ثم الحرب الأهلية ، وتعم الفوضى ، وتتعرض الحياة والممتلكات للخطر ، وحيث إن الأمن والسلام هما الضرورتان الأساسيتان للمجتمع ، فإنه لا ينبغى أن يكون هناك فصل ، بل وحدة كاملة ، وتركيز تام فى السلطات الحكومية ، وحيثما توزعت السلطات لا يكون هناك ملك ، وحيثما لا يكون ملك لا تكون دولة ، وكأن الملك ليس بشراً يصيب ويخطئ ، وتعتريه الآفات والعلل ، وكأن الشعب الذى يستمد منه الملك سلطانه تلاشى وجوده أمام هذا الوحش الخرافى (فرانكنشتين) الذى صنعه .

وبهذا المنطق المطبوع بطابع النظم الحاكمة المعاصرة للفيلسوف تصبح الديمقراطية (أرستقراطية خطباء) ، ومن ثم كان على الحكومة أن تمارس الرقابة على الخطابة والصحافة وعلى المطبوعات والواردات ، ولايجوز أن يكون هناك جدل عقيم حول الحرية الفردية ، والآراء الخاصة ، والضمير ، وينبغى أن يقتلع من الجذور كل ما يهدد سلطان الملك ، والسلام العام .

* أما جون لوك (Locke) (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) الذى يعزى إليه استهلال عصر التنوير ، فقد نشأ ـ كما يقول رسل (حكمة الغرب ج ٢ ص ١٠٨/١٠٩)، نشأة (بيوريتانية) تطهيرية بالمعنى الدقيق .. كان أبوه قد حارب فى صف قوات البرلمان خلال الحرب الأهلية .. وقد التحق لوك بمدرسة وستمنستر سنة ١٦٤٦ ، حيث اكتسب الأساس التقليدى فى الآداب الكلاسيكية ، ثم انتقل بعد ست سنوات إلى أكسفورد ، حيث قضى السنوات الخمس عشرة التالية ، أولاً بوصفه طالباً ، ثم معلماً اللغة اليونانية والفلسفة .. وقابل سنة ١٦٦٦ اللورد أشلى (إيرل شافتسبرى) ، فأصبح صديقاً ومساعداً له حتى سنة ١٦٨٢ ، وعندما عزل شافتسبرى سنة ١٦٧٥ رحل لوك إلى فرنسا ، وعاد بعودة شافتسبرى رئيساً للمجلس الملكى الخاص .

سبق السير روبرت فيلمر ، فأصدر سنة ١٦٥٢ كتابه (ملاحظات على كتاب السياسة لأرسطو) ، ذكر فيه أن الإنسان ولد خاضعاً لعادات الجماعة وقوانينها ، وللحقوق الطبيعية والشرعية للآباء على أولادهم .. إن (الحرية الطبيعية) خرافة رومانسية ، وإنها لخرافة أيضاً

أن الحكومة قامت برضا أفراد الشعب واتفاقهم ، و (الحكومة النيابية) خرافة أخرى ، فالممثل لا يختاره إلا أقلية ضئيلة فى كل دائرة انتخابية ، وكل حكومة هى من أغلبية عن طريق أقلية ، ومن طبيعة الحكومة أن تكون فوق القانون ، فللهيئة التشريعية ـ بمقتضى تعريفها ـ سلطة سن القوانين وتغييرها أو إلغائها ، (وإنا لنخدع أنفسنا إذ راودنا الأمل يوماً فى أن تحكمنا سلطة غير استبدادية) ، وإذا كان للحكومة أن تعتمد على إرادة المحكومين ، فسرعان ما ينتهى الأمر إلى عدم وجود حكومة ألبتة ، فإن كل فرد أو مجموعة أفراد ستزعم لنفسها الحق فى العصيان والتمرد ، وفقاً لما يملى (الضمير) ، وتلك هى الفوضى ، أو حكم الرعاع ، وليس هناك طغيان يمكن أن يقاس بطغيان الجماهير .

لم يزد السير فيلمر على أن ردد ما قاله هوبز ، لكن لوك نحا نحواً آخر ، فقد ذهب إلى أنه بمقتضى العقل توصل الناس إلى اتفاق (عقد اجتماعى) : الواحد منهم مع الآخر ، تنازلوا فيه عن حقوقهم الفردية فى القضاء والعقاب ، لا للملك ، بل للجماعة ككل ، وعلى هذا تكون الجماعة هى السيد ، أو الحاكم الحقيقى ، وهى تختار بأغلبية الأصوات رئيساً أعلى ينفذ مشيئتها ، ويمكن أن يسمى ملكاً ، لكنه مثل أى مواطن آخر ملتزم بطاعة القوانين التى تسنها الجماعة ، فإذا سعى إلى خرقها ، أو المراوغة فى تطبيقها ـ مثل جيمس الثانى ـ كان للجماعة حق سحب السلطة التى منحتها إياه .

لقد كانت هناك شيوعية بدائية ، حين نما الطعام دون زراعة ، واستطاع الإنسان أن يعيش دون كد ولا كدح ، لكن عندما بدأ العمل انتهت الشيوعية ، لأن الإنسان أخذ لنفسه ملكاً خاصاً به ، أى شيئاً ذا قيمة أضفاها عليه جهده هو ، فالعمل إذن هو مصدر ٩٩٪ من كل القيم المادية .

إن المدنية تنمو عن طريق العمل ، ومن ثم عن طريقه نظم الملكية، بوصفها نتاج العمل ، ومن الناحية النظرية ليس لإنسان أن يمتلك أكثر مما يستطيع استخدامه ، لكن اختراع النقود مكنه من بيع فائض نتاج عمله ، مما لم يستطع الانتفاع به ، وعن هذا الطريق ساد التفاوت الكبير ، أو عدم المساواة فى الملكية بين الناس .

واستمرار النظام الاجتماعى والمدنية يستلزم أن تكون حماية الملكية أسمى غرض للدولة ، (وليس فى مقدور السلطة العليا أن تستولى على أى جزء من أملاك الإنسان إلا بموافقته ورضاه) .

إن الشعب فى حل من الطاعة ، إذا كان ثمة محاولات غير مشروعة للاعتداء على حرياته وممتلكاته .

بهذا الفكر السياسى المتفتح حرر جون لوك المجتمع من سلطان الدين ـ كما يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ٨ ج ٤ ص ٥٢/٤٦) ـ ووضع (حجر الزاوية فى النظرية الحديثة للديمقراطية فى انجلترا وأمريكا) ، وانتقلت أفكاره إلى فولتير سنة ١٧٢٩ وإلى مونتسكيو وروسو ، وبرزت فى (إعلان حقوق الإنسان) الذى أصدرته الجمعية التأسيسية للثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ .

وأخذ يكتب رسالته عن (العقل الإنسانى) بعنوان (دراسة فى الفهم البشرى) ، منذ سنة ١٦٧٠ ، وهى (تحفة رائعة فى علم النفس التحليلى) ، بيّن فيها أن العقل هو (قوة الإدراك الحسى) ، هذا الإدراك الذى يشمل :

١ ـ إدراك الأفكار فى عقولنا

٢ ـ إدراك معانى الألفاظ .

٣ ـ إدراك التوافق أو التنافر بين الأفكار .

وبين أن الفكرة تعنى :

١ ـ تأثير الأشياء الخارجية على حواسنا .

٢ ـ الوعى الداخلى بهذا التأثير .

٣ ـ صورة الفكرة أو الذكرى المتصلة بها .

٤ ـ الحركة التى تجمع صوراً منفردة كثيرة ، لتكون مفهوماً عاماً ، أو مجرداً ، أو شاملاً مجموعة من الأشياء المتشابهة .

ومن خلال هذا المفهوم (الحسى) أنكر لوك أن (فكرة الله فطرية أصيلة فينا) ـ كما قال ديكارت ـ لأن بعض القبائل وجدت دون أن تكون لديها فكرة عدالة ، كما أن بعض الذين يعتنقونها تتباين لديهم المفاهيم أو الصور عن الآلهة ، إلى حد يكون معه من الحكمة أن ترفض فكرة (نشوئها بالفطرة أو السليقة) ، وبالمثل ليست هناك (مبادئ عملية فطرية) ليس هناك مفاهيم فطرية ، عما هو صواب ، وما هو خطأ ، فالتاريخ يوضح لنا مجموعة متباينة من الأحكام الخلقية ، مما لا يمكن معه اعتبارها جزءاً من التراث الطبيعى للإنسان ، بل هى تراث اجتماعى ، يختلف من مكان إلى مكان ، ومن زمان إلى زمان .

ولنفرض أن العقل ـ عند الولادة كما يمكن أن يقال ـ صفحة بيضاء خالية من أى رسم أو نقش ، ومن أية أفكار ، فكيف يتأتى تزويده ؟ الجواب بالخبرة ، وعليها تبنى كل المعرفة ، ومنها تستمد فى النهاية ، فكل الأفكار مستمدة من الإحساس والانعكاس على نتائج إحساسنا ، والأحاسيس كلها مادية ، ونتائجها العقلية هى الإدراك الحسى ، وهو (أولى مواهب العقل) .

أما عن العمليات الذهنية ، مثل التفكير والاستنتاج والخوف وغيرها ، مما لا يسهل القول بأنها توجد من نفسها ، ولا نعى كيف تتبع الجسم ، أو كيف يمكن أن يحدثها الجسم ـ فإننا نميل إلى (الظن) بأنها نشاط جوهر ما نسمية (الروح) ، و(بافتراض) جوهر فيه التفكير والمعرفة والشك والقدرة على الحركة وغيرها ، يكون لدينا فكرة واضحة عن الروح ، إذ يفترض (دون أن نعرف ماهيتها) أنها جوهر لتلك الأفكار البسيطة التى نستمدها من الخارج ، أو هى(جوهر لهذه العمليات التى نمارسها فى داخل نفوسنا) .

وحيث إنه (يستحيل علينا ـ بالتأمل فى أفكارنا نحن ، دون وحى أو إلهام ـ أن نكتشف هل زودت القدرة الإلهية بعض أنواع المادة الميالة بطبعها ، بالقدرة على الإدراك والتفكير، أو أن القدرة الإلهية ضمّت إلى المادة الميالة على هذا النحو ، أو ثبتت فيها جوهراً مفكراً غير مادى) ـ فإنه بالنسبة لأفكارنا ليس يبعد عن الفهم أن ندرك أن الله قادر إذا شاء أن يضيف إلى المادة (موهبة للتفكير) ، أكثر من أنه سبحانه يمكن أن يضيف إليها جوهراً آخر فيه موهبة للتفكير .

وبناء على هذا التوجه المنطقى القائم على (الظن ، والافتراض ، والعجز عن التعرف على ماهية الروح ، أو ماهية الإدراك ، والاقتراب من التسليم بأن قدرة الله هى مالكة هذا الأمر) ـ يتبين أنه لم يكن ثمة داع لرفض مقولة ديكارت بأن (فكرة الله فطرية أصيلة فينا) ـ ومن هنا يتبين أن المفكرين فى هذا الزمان كان همهم الأول هو القفز فوق السور ، وإن اندكت رءوسهم ، ثم بعد ذلك ـ إذا بقيت منهم بقية ـ يستشعرون خطأ ما أقدموا عليه ، وإن كان الاعتراف بهذا الخطأ يشوبه قدر كبير من التردد والحياء والمكابرة .

(ينبغى أن يكون العقل أول حكم ومرشد لنا فى كل شىء) . إذ (ليس هناك شىء يناقض أوامر العقل الواضحة البديهية ، أو لا يلتئم معها ، يحق له أن يشجع أو يؤكد على أنه مسألة عقيدة لا دخل للعقل فيها) .

وهذا قـول يناقض آخره أوله ، أو (لا يلتئم معه) ، لأن تحكيم العقل (فى كل شىء) يعنى الجزم بماهية العقل ، أو ماهية الروح القادرة على (تحريك) العقل ، وتزويده بالفكر والإدراك ، وهو ما لم يتحقق ، كما سبق بيانه ، ثم إن (مسألة العقيدة) قد تأخذ طابعاً وراثياً تقليدياً (لا دخل للعقل فيه) ، وكثيراً ما تضلل الحواس ، كما تضلل الأعراف والعادات والطقوس .. وهذا ما يستدعى الاستعانة (بالوحى) ، لا (بالإلهام) ، لتسديد الخطى وتبين الطريق ، لأن (الإلهام) أيضاً يخضع كثيراً للتزييف ، فالهواجس الضارة كثيراً ما تأخذ صورة الإلهام ، ومن هنا يجب (ألا نهلل ونرحب بأية قضية فى توكيد أكبر مما تجيزه الأدلة التى تقوم عليها القضية) ، لأن هذه الأدلة كثيراً ما تخدعنا عن الشهوات والرغائب بقدر ما تنخدع بها ــ قصة الحضارة مج ٨ ج ٤ ص ٦١/٤٦ .

وكما نقل عنه شاخت (رواد الفلسفة الحديثة ص ١٢٤) : (قد يكون من المفيد أن ندعو العقل البشرى إلى المزيد من الحيطة ، قبل الغوص فى المسائل التى تجاوز إدراكه ، وأن يتوقف عن البحث بعد أن يبذل قصارى جهده ، وأن نقنع بالجهل بالقضايا التى يبين بعد الفحص أنها تجاوز قدراتنا) .

ثم يتحدث عن الوجود فينطق بلسان ديكارت : (إننا ندركه بسهولة ، وبقدر كبير من اليقين ، بحيث لا توجد حاجة إلى أى برهان ، فليس هناك ما هو أكثر وضوحاً من وجودنا ، فأنا أفكر وأستنتج وأشعر بالمتعة والألم ، فهل باستطاعة أية حالة من هذه الحالات أن تكون أوضح فى نظرى من وجودى ؟ وإذا عرفت أنى أشك فإنى أدرك إدراكاً مؤكداً وجود الشىء الذى أشك فيه بنفس اليقين الذى أدرك به الفكر الذى أدعوه بالشك ، وبعد ذلك تقنعنا التجربة بأن لدينا معرفة حدسية بوجودنا ، وأن عندنا إدراكاً باطنياً لا يخطئ بأننا كائنون) .

وبهذا (الإدراك الباطنى) يكون الإيمان بوجود الله ، (إن الإنسان يعرف ــ بفضل اليقين الحدسى ــ أن العدم المحض يعجز عن إنتاج كيان حقيقى ، فإذا أمكننا أن نعرف أن هناك كياناً حقيقياً ما فسيكون من البراهين الجلية القول بأن هناك شيئاً ما قد وجد منذ الأزل) .

ويقول : (إن أعمال الطبيعة بكل دقائقها أوفى دليل على وجود الله) هذا حق ، وإذا صدق إيماننا بهذه الحقيقة أمكن الاعتراف بأن الطبيعة من داخلنا ومن خارج نفوسنا تشهد بوجود الله وبقدرته وبعلمه ، وأن كل ما نملك من مقدرات وإمكانيات إنما هو هبات

إلهية ، وفيوض ربانية ، ومن ثم فليس إلا الإيمان والتسليم ، واستغلال مواهبنا وملكاتنا فيما يعود علينا برضوان من الله وفضل .

* أما باروخ سبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) الذى ورث السل عن أمه ، وتولى أبوه تربيته، مستعيناً بزوجة ثالثة ـ فقد حذا حذو أبراهام بن عزرا وآخرين فى الارتياب فى تأليف موسى الأسفار الخمسة الأولى ، وأنكر أن يشوع هو الذى ألف السفر الذى ينسب إليه ، ونسب الأجزاء التاريخية في العهد القديم إلى القسيس الكاتب عزرا فى القرن الخامس قبل الميلاد ، أما سفر أيوب فقد ذهب إلى أنه من عمل الأمميين (الكفار) ، ثم ترجم إلى العبرية .

وتساءل : هل أنبياء العهد القديم صوت الله ؟.

وأجاب : واضح أنهم لم يتفوقوا من حيث المعرفة على الطبقات المثقفة فى زمانهم .

إن العنصر الإلهى فى الأنبياء ليس نبوءاتهم ، بل حياتهم الفاضلة ، والفكرة الرئيسية فى عظاتهم هى أن الدين يكمن فى السلوك القويم ، لا فى الطقوس المرهقة .

هل كانت المعجزات التى دونت فى الكتاب المقدس اضطرابات حقيقية فى مجرى الطبيعة العادى ؟.

أجاب : إن مثل هذه القصص استخدمها مؤلفو الأسفار الخمسة ، لينفذوا إلى أفهام البسطاء من الناس ، ويحثوهم على الفضيلة والتقوى ، ويجدر بنا ألا نأخذها بحروفها .

(حين يقول الكتاب المقدس : إن الأرض مجدبة بسبب خطايا البشر ، أو إن الإيمان يبرئ الأعمى ، يجدر بنا ألا نعير هذا التفاتاً أكثر من التفاتنا إلى قوله ـ الكتاب المقدس ـ إن الرب غاضب على خطايا البشر ، وإنه حزين ، وإنه نادم على وعد أو فعل من خير ، أو إنه عند رؤية علامة يتذكر شيئاً كان قد وعد به ، فإن هذه التعبيرات إما أنها ألقيت إلقاء شاعرياً ، أى من قبيل خيال الشعراء ، أو رويت وفقاً لآراء الكاتب وأهوائه) .

(وينبغى أن نكون على يقين ، كل اليقين ، من أن كل شيء وصفته الأسفار المقدسة وصفاً صادقاً حقيقياً ، حدث حتماً ـ مثل سائر الأشياء ـ وفقاً للقانون الطبيعى ، وأن شيئاً دون فيها مما يمكن إثباته على أسس موضوعة تتنافى مع نظام الطبيعة ، أو يتعذر استنتاجه منها ، فإنه يجدر بنا أن نؤمن بأنه مدسوس على الأسفار المقدسة ، عن طريق أيد مارقة عن الدين فإن أى شيء مناقض للطبيعة مناقض للعقل ، وأى شيء مناقض للعقل سخيف مضحك) .

الله : إن الله هو العلة الشاملة العامة ، لا بمعنى علة سابقة على نتيجتها ، ولكن فقط بمعنى أن سلوك أى شيء ينبع بالضرورة من طبيعته ، والله هو علة كل الأحـداث ، بنفس الطريقـة التى تكون بهـا طبيعة المثلث هى علة خواصـه وسلوكه ، والله حر ، فقط بمعنى أنه غير خاضع لأية علة أو قـوة خارجية ، وأنه غير محكوم إلا بماهيتـه أو طبيعته الخاصة ، ولكنـه (لا يتصرف عن حرية الإرادة) ، وكل أفعاله تحددها وتحكمها ماهيته ، وهذا يعنى أن الطبيعة المتأصلة اللازمة للأشياء وخواصها هى التى تحكم كل الأحداث ، وليس فى الطبيعة خطة ، بمعنى أن الله يرغب فى غاية أو هدف بعينه ، فليس لديه رغبات أو خطط أو مشروعات ، اللهم إلا أن جماع الأشياء تحتوى رغبات وخطط كل الحالات ، ومن ثم خطط ورغبات كل الكائنات الحية ، وليس فى الطبيعة إلا نتائج تتبع بالضرورة عللا سابقة لهـا ، وخواص متأصلة . وليس هناك معجزات ، لأن إرادة الله و (نظام الطبيعة الثابت الذى لا يتـغير) شيء واحـد ، وأى خرق أو اضطراب فى (سلسلة الأحـداث الطبيعية) يكون تناقضاً ذاتياً .

يـكاد لا يخرج هـذا المنطق عن (نظـرية الفيض) ، ما دامت طبيعـة الله كطبيعـة (المثلث) خالية من الإرادة ، ومادامت عملية الخلق تتم بدون (خطة) ، وإذا وصـل الأمر إلى أن يكون الله مجرد (طاقة) فقد تحول كل شيء إلى مادة تتحرك وتتحـول بفعل (الطاقة) الكامنة فيها أزلاً .. ومن هنا يكون الحكم بأزلية المادة ، لأنه لابد للطاقة من وعاء ، وبهذا يتحول مفهوم (قدرة الله هى نفس ماهيته) عن المفهوم (المعتزلى) فى الإسلام إلى مفهوم إلحادى ، يستحيل معه وجود الرسل ، والوحى ، ويصبح الحديث عن الصدفة ، والحظ ، والحسد ، والتلبائى ، وكثير من العلاقات الروحية عبثاً من العبث، بل يصبح اختلاف المعايير مجرد تهيؤات .

الجمـال : (إن الحكم على كمال الأشياء يكون بطبيعتها وقدرتها فحسب.. فهى ليست أكثر أو أقل كمالاً بسبب أنها تسىء إلى حواس الإنسان ، ولا بسبب أنهـا نافعة أو ضارة للطبيعة البشرية .. وبناء على هذا ، فإنه إذا كان فى الطبيعة شيء يبدو لنا سخيفاً أو مضحكاً أو شراً ، فما ذاك إلا لأننا لا ندرك إلا القليل ، بل نكاد نجهل كل الجهل نظام الطبيعة ، وارتباطها بعضها ببعض ، كذلك لأننا نريد أن يكون كل شيء وفقاً لما يمليه عقلنا البشرى ، والواقع أن مايعتبره العقل شراً ليس شراً بالنسبة لنظام الطبيعة وقوانينها ككل ، بل بالنسبة لقوانين عقلنا فقط) .

لا يوجد في الطبيعة جمال ولا قبح ، لأنه (ليس الجمال – إلى حد كبير – صفة فى الشيء المرئى تحدث أثراً فى الرائى .. وإذا كانت أبصارنا أطول أو أقصر ، وإذا كانت تكويناتنا متفاوتة ، فإن ما نراه الآن جميلاً يمكن أن نراه بعد ذلك قبيحاً ، إن أجمل يد نرى بالمجهر ستبدو سخيفة .. أنا لا أنسب إلى الطبيعة الجمال أو التشوه ، ولا النظام أو الفوضى والاضطراب ، وبالنسبة لخيالنا أو تصورنا فقط يمكن أن توصف الأشياء بأنها جميلة أو قبيحة) . وفق حالة شعورية آنية ، قابلة للتغيير .

وحدة الوجود : مادام الله طاقة فإن ثمة شيئاً مجانساً للذهن يختلط بكل المادة ، ويتحول الوجودكله إلى وحدة عن طريق هذه (الطاقة) ، أو النظم الطبيعية التى تحكم حركة المادة .. وبهذا يرى سبينوزا الله فى كل الأشياء ، ويرى كل الأشياء فى الله .

ليست العملية الواقعية تفاعلاً بين حقيقتين أو جوهرين أو عاملين متميزين ، بل هى عمل جوهر واحد ، إذا رئى من الخارج سميناه جسماً ، وإذا رئى من الداخل سميناه ذهناً ، ولكل عملية فى الجسم عملية موازية لها فى الذهن ، لا يمكن أن يحدث شيء فى الجسم إلا أدركه الذهن) ، لكن هذا التلازم الذهنى قد لا يكون فكراً ، بل قد يكون شعوراً ، وقد لا يكون بالضرورة واعياً .. وهكذا يأتى الذى يمشى وهو نائم بسلسلة من الأفعال وهو (غير واع) ، وهذه النظرية تسمى (التوازن السيكوفسيولوجى) ، وهى تفترض عمليات متوازية ، لافى وجودين مختلفين ، بل فى وحدة سيكوفسيولوجية – عقلية جسدية – ترى رؤية مزدوجة .

ومن هنا يتبين أن الله (ذهن) الكون ، أى غير منفصل عنه ، ولا سابق عليه (؟!) .

وهناك شكل ثالث أسمى هو (المعرفة البدهية) ، لا يستمد – فى رأيه – من الإحساس ، بل من وعى واضح متميز مباشر شامل لفكرة ، أو حادث ، باعتباره جزءاً من نظام كونى له قانون .

(فالذهن) تعبير عام ، أو مجرد ، عن تسلسل المدركات الحسية والذاكرات والتصورات والمشاعر وغيرها من الحالات العقلية .

و (فكر الذهن ، والذهن نفسه) ، فى أية لحظة (شيء واحد بعينه) ، كما أنه ليست هناك (ملكات) متميزة مثل العقل ، أو الإرادة ، فهذه أيضاً تعبيرات مجردة عن مجموع المدركات والاختبارات .

الجبـــر : يظن الناس أنفسهم أحراراً ، لأنهم يعون اختياراتهم ورغباتهم ، لكنهم يجهلون العلل التى تؤدى بهم إلى أن يتخيروا ويرغبوا ، ومثل هذا مثل حجر يقذف به فى الفضاء ، فيظن أنه يتحرك ويهوى بمحض إرادته .

(إن أسباباً خارجية تقودنا على غير هـدى فى دروب متشعبة كثيرة ، وكما تسوق الرياح الهـوج عير المواتيـة الأمـواج سوقاً ، فإننا نضطرب ونتردد على غير وعى بالعـاقبة ولا بالمصير) .

حسـب تصوره العام كان ينبغى أن يقول : (إن أسباباً داخلية تقودنا) ، لأن العلل الخارجيـة قد تصادمهـا علل داخليـة ، ومن ثم يتحرك الـكون من الداخل (بالطاقة الإلهيـة) ، ومن الخارج بتأثير الأشياء فى الأشياء ، كتأثير الشمس والهـواء والأوبئة والحروب وغيرها من الأحداث العارضـة ، مع أن المفـروض ـ حسب تصوره العـام ـ كل شىء محكوم من داخله بذهـن كونى .

وبهذا المنطق الجبرى تنهار كل القيم الأخلاقية : الخير والشر ، العدل والظلم ، القانون ، وعمل الشرطة والقضاء ، والعقوبة والجزاء ، بل تسقط كل الأديان ، ويصبح دور الرسل تمثيلية هزلية سخيفة .. هذا إلى أن علامات استفهام كبيرة تنتصب كالصلبان أمام سر اختلاف التوائم ، واختلاف ماتنتجه البذور الواحدة فى التربة الواحدة ، وعوامل الخير والشر الذاتية ، كدواعى الانتقام والإحسان ، والحب والبغض ، والرغبة والرهبة ، والإكبار والاحتقار ، وجميع الدواعى العقلية والعاطفية .

من أجل هذا كله صب عليه المسيحيون اللعنة شيطاناً بين الفلاسفة ، مسيحياً دجالاً سعى لسلب العالم كل معنى ورحمة وأمل ، بل إن المهرطقين أنفسهم أدانوه واستنكروه ، وبغر بيل من وجهـة نظر سبينوزا أن كل الأشياء وكل الناس أشكال من نفس الجوهر الواحد ، أو العلة الواحدة ، أو الله ، وحينئذ ـ كما قال بيل ـ فإن الله هو العامل الحقيقى فى كل الأفعال ، والعلة الحقيقية فى كل الشرور ، وكل الجرائم ، وكل الحروب ، حتى إذا ذبح أحـد الأتراك رجـلاً من المجر كان الله هو الذى قتل نفسه .. أما بركلى فقد قال سنة ١٧٣٢ : إنه (زعيم كبير للكفرة الحدثيين) .. وارتاع هيوم اللا أدرى سنة ١٧٣٩ فى حذر من (الفرضية البشعة) التى جاء بها (هذا الملحد المعروف ، سبينوزا الذى سادت سمعته فى كل الأنحاء) .

* جوتفريد ليبنتز (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) لوثرى ، من هانوفر بألمانيا ، اعتبر نفسه مسيحياً خالصاً ، آمن بالثالوث ، والمعجزات ، والنعمة الإلهية ، وحرية الإرادة ، والخلود ، وهاجم المتساهلين فى عصره ، باعتبارهم مقوضين للنظام الاجتماعى ، كما عمل بدون هوادة للتوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، لكن بدون نتيجة تذكر .

وقد تبرع فوضع خطة لغزو مصر سنة ١٦٧٢ ، كتبها باللاتينية والفرنسية ، وأرسلها إلى الملك لويس الرابع عشر ، مع دعوة إلى الكف عن حروبه الأوربية ، ويستجمع قواه لغزو مصر ، سبيلاً إلى تركيا العثمانية .

حصل على الدكتوراه فى القانون وهو فى العشرين من عمره ، وعرض عليه منصب أستاذ مباشرة تقديراً لرسالته ، وهو على النقيض من سبينوزا ، يرى أن الجسم والذهن يعمل كل منهما مستقلاً عن الآخر ، ومع ذلك يعملان فى تناسق محير ، مثل ساعتين صنعتا ، وملئتا ، ثم بدأتا فى حذق وبراعة إلى درجة أنهما تسجلان الثوانى ، ودقات الساعات ، فى توافق تام ، دون تفاعل أو تأثير متبادل ، وهكذا العمليات الجسدية والنفسانية ، على الرغم من استقلالهما ، دون أن تؤثر إحداهما فى الأخرى ، فإنهما تتوافقان عن طريق (تناسق وجد منذ الأزل بوسيلة إلهية بارعة) .

كان من الواجب أن يعلم أن هذا التناسق لا يمكن أن يتم عن طريق (ساعتين صنعتا وملئتا) فى وقت واحد ، إنما هى ساعة واحدة تحمل فى داخلها القدرة على الحركة والقدرة على الاستمرار وفق مشيئة صانعها ، أو (بوسيلة إلهية بارعة) .

(لابد أن يكون للخالق فى ذاته ، وبدرجة غير متناهية ، كل القوة والعلم والمعرفة والإرادة التى كشفت فى مخلوقاته ، والتدبير الإلهى والآلية الكونية لا يتعارضان ، فالعناية الإلهية تستخدم الآلية لإنجاز عجائبها ، ويستطيع الله أن يربك أو يوقف آلة العالم من آن إلى آن ، ليظهر معجزة أو معجزتين) .

ويستتبع (الكمال الأسمى لله) اختياره (أفضل خطة ممكنة ، بما فيها أعظم تنوع مع أعظم نظام ، وأفضل وضع ومكان وزمان ترتيباً ، وأعظم النتائج توفرها أبسط الوسائل ، وأعظم قوة ، وأعظم سعادة ، وأعظم خير ، فى الأشياء المخلوقة التى سلم بها الكون ، أو أفسح لها مجالاً ، ربما أن كل الأشياء الممكن وجودها تطالب بحق الوجود فى عقل الله بنسبة درجة كمالها، فإن نتيجة كل هذه المطالب التى لابد أن تكون أكمل دنياً ـ ممكنة).

وبهذا تصبح (الإرادة الحرة) للإنسان (غير ملتئمة مع العلم واللاهوت كليهما ، فالعلم يرى فى كل مكان حكم قانون لا يتغير ، والحرية الإنسانية مضيعة فى سابق علم الله ، وفي حتمية كل الأحداث قضاء وقدراً ، لكننا واعون فى عناد وإصرار ، وبشكل مباشر ، أننا أحرار غير مقيدين) .

(إننا على الرغم من عدم قدرتنا على البرهنة على هذه الحرية ـ يجدر بنا أن نقبلها شرطاً أساسياً لأى معنى من معانى المسئولية الأخلاقية ، وبديلاً وحيداً لاعتبار الإنسان آلة فسيولوجية عاجزة بشكل سخيف مضحك) .

يقول ليبنتز عن منهجه (أنا دائماً أبداً فيلسوفاً ، لكنى دائماً أنتهى رجلاً من رجال اللاهوت) .

والحقيقة أن الرجل يتناول قضايا فلسفية بعقلية كهنوتية ، ومن ثم ضاعت الطريق من قدميه ، واتهمه النقاد بسرقات كثيرة واضحة ، فى كل ما كتب أو قال ، وعثروا على علم النفس الذى جاء به عند أفلاطون ، والعدل الإلهى عند الفلاسفة السكولاسيين ، والمونادات (الخلايا) عند برونو ، والميتافيزيقا والأخلاق ، وعلاقة الذهن بالجسم عند سبينوزا ، أما المفكر الألمانى اللامع فى القرن العشرين أوزوالد شبنجلر فقد عد ليبنتز (أعظم عقل فى الفلسفة الغربية بلا نزاع) ـ قصة الحضارة مج ٨ ج ٤ ص ١٧٨/١٨٦ .

يقول رسل (حكمة الغرب ج ٢ ص ٨٨) : (كان يكتب الفلسفة في أوقات فراغه النادرة ، وكانت كتاباته تتعرض للتأخير والانقطاع ، ومن ثم كانت أعماله غير متكاملة ، وكثيراً ما كانت تفتقر إلى الصقل الذى كان يمكن أن يتحقق لو عنى بمراجعتها) .

ويمكن القول إن الرجل كان يقرأ فى الفلسفة ، ويدون خواطره ، لكن شواغله الدبلوماسية والوظيفية لم تكن تعينه على التركيز أو الاستيعاب ، ومن ثم نشأ هذا الخلل فى أكثر ما عرض له .

* ثم جاء (أبو الاستنارة) بييربيل (١٦٤٧ ـ ١٧٠٦) ، وهو ابن قسيس من الهيجونوت ، فسار على نفس الدرب : (فى الفلسفة الصحيحة ، ليست الطبيعة إلا الله نفسه ، يعمل وفق قوانين معينة ، استنها الله سبحانه وتعالى بمحض إرادته ، ومن ثم فإن أعمال الطبيعة هى من آثار قدرة الله وقوته ، مثل المعجزات سواء بسواء ، كما أن هذه الأعمال تدل على وجود قدرة عظمى ، مثل تلك التى تدل عليها المعجزات ، وأن خلق

إنسان وفق قوانين التناسل الطبيعية لا يقل صعوبة عن قيامة إنسان من بين الأموات ـ معجزة المسيح) .

وهذا القول ـ إذا لم يكن للترجمة دخل كبير ـ لا يصوغ القضية صياغة جيدة ، فقياس الخلق (الإبداع) على المعجزة (إعادة الحياة) يضعف من عظمة الخلق ، ثم إن قوله (ليست الطبيعة إلا الله نفسه) يختلف عن القول بأن (أعمال الطبيعة هى من آثار قدرة الله وقوته) ، فالعبارة الأولى تجعل الله فى داخل الطبيعة ، والعبارة الثانية تجعله فى خارجها ، والأولى تجعل الطبيعة أزلية ، على حين تشير الثانية إلى أن الطبيعة (زمنياً) تأتى بعد الوجود الإلهى .

ويلاحظ أن (أبا الاستنارة) تتأرجح عبارته فى كثير مما اقتبس صاحب (قصة الحضارة) من أفكاره ، فهو يقول : (لابد أن نستنتج من الجريمة والفساد وسوء الخلق السائد فى أوروبا أن معظم المسيحيين ملحدون فى قرارة أنفسهم ، إن اليهود والمسلمين والمسيحيين والكفار يختلفون فى عقائدهم الدينية ، لا فى أفعالهم وتصرفاتهم ، وظهر أن المعتقد الدينى ـ والأفكار بصفة خاصة ـ ليس لها إلا تأثير ضئيل على السلوك ، فهذا السلوك ينبع من الرغبات والانفعالات ، وهى عادة أقوى من المعتقدات وأى تأثير كان لتعاليم المسيح على مفهوم الأوروبيين للشجاعة والشرف ؟ ذلك المفهوم الذى اختص بأعظم المديح والثناء الإنسانى الذى يثأر فى عنف وقوة للإساءة والأذى ، والذى يبرع فى فنون الحرب باختراع ما لا يحصى من الآلات ، حتى يكون الحصار أشد فتكاً وإرهاباً وإزعاجاً) .

وخلص بيل من هذا إلى (أن مجتمعاً من الملحدين قد لايكون أسوأ خلقاً من مجتمع من المسيحيين ، ليس الذى يحمل معظمنا على التزام جادة الصواب والنظام هو الخشية من الجحيم ، وهذ أمر بعيد غير يقينى ، قدر خوفنا من رجل الشرطة ، ومن القانون ، ومن إدانة المجتمع لنا ، ومن العار الذى يلحق بنا ، ومن الجلاد ، خل بيننا وبين هذه العوائق تعم الفوضى) .

نسى بيل أن التعاليم الدينية قانون ، وأن من (الشرطة) الإلهية رقيباً وعتيداً ، وأن الثواب والعقاب الإلهيين فى الدنيا والآخرة ، وأن المجتمع أقرب إلى الدين منه إلى الإلحاد ، وأن العار كل العار أن يوصف الإنسان بالمروق من الدين ، وأن الجلاد يسلم إلى الحساب الإلهى الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وإذا كانت قدرة الله متمثلة فى كل

شيء ، كما هو في (الفلسفة الصحيحة) فإن خشية هذه القدرة ، والحرص على طاعتها ، أفعل بكثير من شرطي تجرى عليه هذه القدرة قضاءها وقدرها .

ونسى ما ذهب إليه قبل من أن الملحدين يحتمل أن يكونوا مواطنين صالحين ، مثل المسيحيين ، فنصح بعدم التسامح مع الطوائف التى لا تؤمن بالعناية الإلهية ، وبوجود إله يحاسب ويعاقب ، فإن هؤلاء لا تظهر من نفوسهم خشية الله ، وإن كانت مغروزة فيهم ، ومن ثم قد يجعلون من الصعب تطبيق القانون .

وفي سنة ١٦٩٧ ظهر لبيل فى روتردام مجلدان ضخمان ٢٦٠٠ صفحة تحت اسم (قاموس تاريخي نقدى) ، دراسة نقدية للأشخاص والأماكن والآراء ، فى التاريخ والجغرافيا وعلم الأساطير واللاهوت والأخلاق والأدب والفلسفة ، وكان هذا العمل مقامرة ثقيلة بالحياة وبالحرية ، لأنه احتوى على هرطقات أكثر مما ضم أى كتاب آخر فى هذا القرن .. ربما أكثر من حفيده (موسوعة) ديدرو ودالمبرت سنة ١٧٥١ .

ولم يتضمن (القاموس) أية مقالات عن كل من شيشرون ، وبيكون ، ومونتانى ، وحاليليو ، وهوراس ، ونيرون ، وتوماس مور ، وأغفل العلم والفن إلى حد كبير ، ومن ناحية أخرى أفرد مقالات لأفذاذ غير بارزين ، مثل أكيبا ، أكوستا ، أبرابانل .. ولم تخصص المساحات الكبيرة طبقاً للأهمية التاريخية ، بل تبعاً لرغبة وهوى بيل نفسه .

وفى واحدة من أشهر مقالاته أنكر مذابح الملك داود وخياناته واغتصابه للنساء ، وترك القارئ يعجب ويتساءل ، كما عرض هو نفسه تساؤلات لا تعنى أكثر من أن (العقل البشرى أداة هدم ، لا أداة بناء ، لا يصلح إلا ليبدأ الشك ، ويجول ويتنقل هنا وهناك ليديم الصراع) ، أو ليديم شقاء البشرية ــ قصة الحضارة مج ٨ ج ٤ ص ٩٣/٨٣ .

* شافتسبرى (١٦٧١ ــ ١٧١٣) أنطونى أشلى كوب ، تلميذ لوك ، ومفخرة معلمه ، اعتقد أن المجتمع والدولة ما نشأتا عن عقد اجتماعى ، بل عن (مبدأ القطيع) ، أو نزعة التزامل ، وهى نزعة طبيعية قوية فى معظم البشر ، وهناك (عواطف طبيعية قائمة فى حب الجنس البشرى ، وفى محاولة إرضائه ، والشعور الودى نحوه ، والتعاطف معه .. وتوافر هذه العواطف فى بالغ قوتها معناه توافر الوسائل الأساسية للمتعة الوثنية ، أما الافتقار إليها فهو التعاسة والسقم المحققان) .. وكون المرء (طيباً صالحاً) معناه توجيه كل ميوله ونزعاته توجيهاً مستقيماً ثابتا نحو خير الجماعة ، وكلما كثرت الجماعة التى توحى بهذه

المشاعر وتبثها حسنت حال الناس فيها .. والشعور بهذا التعاطف الاجتماعي و الوعي الأخلاقي ، وهذا شيء فطرى ، لا من حيث المتطلبات النوعية (التي تختلف من جماعة إلى جماعة) ، ولكن من حيث أساسه الغريزى ، (الإحساس بالصواب والخطأ ، وهو فينا أمر طبيعي ، مثل الميل الطبيعي نفسه ، وهو من أول المبادئ في تكويننا) .

من هنا يكون الطيب والجميل شيئاً واحداً ، ما دام الهدف هو (خير الجماعة) ، ويكون الخلق الحسن في (تذوق الجمال واستساغة ما هو مهذب محتشم) ، والقبيح في كل (أعمال معادية لمصلحة المجتمع) ، إذ إنها (تسيء إلى التناسق بين الجزء والكل ، وهو صلاح وجمال معاً ، ويستطيع المرء أن يجعل من حياته عملاً من أعمال الفن ، من الوحدة والتناسق بتنمية إحساس جمالي تكون الأخلاقيات فيه أحد العناصر) ، كما يكون (الحق أيضاً لوناً من ألوان الجمال ، فهو تناسق أجزاء المعرفة مع الكل) .

وبهذا يكون شافتسبرى قد طرح منطقاً ـ طوباويا ـ تطهرياً ، بعيداً عن روح العصر الذى عاش فيه ، أو تمرد عليه .

* جورج باركلي (١٦٨٥ ـ ١٧٥٣) ولد في أيرلنده سنة ١٦٨٥ ، لأسرة إيرلندية إنجليزية ، والتحق وهو في الخامسة عشرة بكلية ترينتي في دبلن ، وفي سنة ١٧٠٧ اختير زميلاً في كليته ، وخلال السنوات التالية نشر الأعمال التي قامت عليها شهرته بوصفه فيلسوفاً ، وقد وصل إلى أوج شهرته قبل أن يبلغ الثلاثين ، وأصبح عميداً لكلية درى (Derry) سنة ١٧٢٤ ، وبدأ يعمل من أجل تشييد كلية التبشير في برمودا ، وأخذ ينشر دعوته بين سكان نيو إنجلند طالباً تأييدهم ، ولما لم يجد العون عاد إلى انجلترا سنة ١٧٣٢ ، وبعد عامين عين أسقفاً لكلوين (Cloyne) ، وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته .

سأل في رسالته (بحث عن نظرية جديدة للرؤية) سنة ١٧٠٩ : هل يستطيع إنسان ولد أعمى أن يميز بعد استرداد بصره ، بالبصر وحده ، بين جسم كروى وآخر مكعب ، إذا كان كلاهما من نفس المادة ، وفي نفس الحجم ؟.

واتفق رأى مولينكس (مدرس في كلية ترينتي ـ دبلن) ولوك سلباً ، وأضاف باركلي تحليله الخاص بأن البصر لا يهيىء لنا إدراكاً حسياً للبعد والحجم والمواقع ، أو الحركات النسبية للأجسام ، إلا بعد التصحيحات التي تجربها حاسة اللمس ، وعن طريق التجارب المتكررة يصبح هذا التصحيح لحظياً تقريباً ، وعندئذ يزودنا البصر بمثل هذا الحكم على

شكل الأجسام المرئية ، وبعدها ، ومكانها ، وحركتها ، كما لو أننا لمسناها .

(إن الإنسان الذى ولد أعمى ، ثم أعيد إليه بصره ، لن يكون لديه أول الأمر أية فكرة عن البعد عن طريق البصر ، فإن الشمس والنجوم ، وأبعد الأجسام وأقربها ـ على حد سواء ـ تبدو في عينه ، لا ، بل فى عقله ، فالأجسام التى تدخل عن طريق البصر ، لا تبدو له ـ كما هى فى الحقيقة ـ إلا مجرد طائفة جديدة من الأفكار والأحاسيس ، كل منها قريب الإحساس بالألم واللذة ، أو أشد الأحاسيس الداخلية فى النفس .. أما حكمنا على الأجسام المدركة بالبصر ، على أى بعد ، أو بدون العقل ، فإنه حكم مبنى تماماً على التجربة) .

واستطرد : (إن إحساساتنا فى الحقيقة لا تسببها المادة الخارجية ، بل القوة الإلهية التى تؤثر في حواسنا ، والروح فقط هى التى تؤثر فى الروح ، والله هو المصدر الوحيد لكل أحاسيسنا وأفكارنا) .

يعلق ول ديورانت (قصة الحضارة مج ٨ ج ٤ هـ ص ٦٩) بأن (أحدث فيزياء) تقول : (إن أحاسيسنا لا تسببها أية « مادة » معروفة ، ولكن تسببها طاقات دقيقة ، جوهرها المادى غير معروف .. وهو افتراضى) أ . هـ .

يمكن القول إن ما تشعه الأجسام من (حراريات) يساعد على تحديد أبعادها ، وما دامت الرؤية تتم عن طريق انعكاس الرؤية الصادرة عن الأجسام إلى العين ، فالقول بضرورة التجربة باللمس يخرج عن رؤية الشىء إلى العلم به ، وهذا هو فرق ما بين رؤية الطفل قبل الإدراك ، وتصحيح هذه الرؤية بعد ذلك ، فالطفل قد يفتح يده ليقبض على الشعاع ، أو على النار ، أو على السكين ، وتختلف فتحة اليد باختلاف المرئى ، فإذا كان كبير الحجم مد يديه معاً ، ولا ريب فى أن الأطفال يتمايزون بمقدار الرؤية ، وبمقدار الإدراك .. ولو أننا وضعنا عدسة مشابهة لعدسة العين لانعكست عليها الأشياء كذلك ، لكنها لا تملك الوسيلة التى تربط بين عدسة العين والخلايا المخية الخاصة بالتدوين والاستدعاء (التذكر) والمقارنة ثم الاستنتاج .. وهذا يعارض ـ دون شك ـ ما وهمه بركلى من اختلاف تقدير المرئيات مع من رد إليه بصره.

ولقد كان ول ديورانت ـ كالعهد به فى تعليقاته ـ فكهاً دقيقاً فى قوله : (إننا لنعجب بدقة نسيج العنكبوت الذى جاء به ـ باركلى ـ ونسلم بأنه منذ أفلاطون لم يكتب أحد مثل هذا الهراء الخلاب) .

زعمـــاء الإلحـــاد ..

المؤرخ النزيه إلى حد الإعجاب ، هنرى مارتن ، وصف شعب فرنسا سنة ١٧٦٢ بأنه جيل ليس لديه أى إيمان بالمسيحية .

وفى سنة ١٧٧٠ قال المحامى العام سيجويه فى تقرير له : (سعى الفلاسفة بإحدى اليدين أن يشلوا العرش ، وباليد الأخرى أن يقلبوا المذبح ، وأن يهدموا الكنائس .. كان غرضهم أن يثيروا الرأى العام ضد النظم المدنية والدينية ، وهذا الانقلاب على حد قولهم قد بدأ بالفعل ، فإن التاريخ والشعر والقصص ، بل القواميس ، قد تسربت إليها عدوى التسمم بالتشكك وعدم التصديق ، ولا تكاد كتاباتهم تنشر حتى تطغى على الأقاليم ، مثل السيل الجارف ، حتى امتدت العدوى إلى المصانع والأكواخ) .

وفى سنة ١٧٧٥ أعلن رئيس أساقفة تولوز أن (الإلحاد الرهيب البشع أصبح الرأى السائد) .

وروى أحد النبلاء كيف أن حلاقه ـ وهو يصفف شعره ـ قال له : (أنت ترى يا سيدى أننى شخص تافه مسكين ، ولكنى مع ذلك لم يعد لى دين مثل أى إنسان آخر) .

ووصف هوراس ولبول الجو الفكرى للصالونات سنة ١٧٦٥ ، فقال : (هناك إله ، وهناك ملك ، يجب القضاء عليهما ، والرجال والنساء جادون فى تدميرهم ، إنهم يظنوننى دنساً ، لأن لدى بقية من إيمان .. والفلاسفة لا يطاقون ، إنهم سطحيون متغطرسون متعصبون ، إنهم لا ينقطعون عن التبشير والدعوة ، وهم يجهرون بالإلحاد ، وقد لا تصدق مبلغ صراحتهم ، فلا تعجب إذن إذا عدت أنا يسوعياً) .

وتحدث ديدرو سنة ١٧٦٩ عن يوم قضاه مع راهبين ، فقال : قرأ أحدهما المسودة الأولى لرسالة حديثة قوية جداً عن الإلحاد ، زاخرة بالأفكار الجديدة الجريئة ، وعلمت فى شيء من الدهشة أن هذه هى النظرية السائدة فى أديارهم .. وبالنسبة للبقية كان هذان الراهبان نموذجاً فذاً للأديار ، وكانا يتحليان بالتفكير والمرح والابتهاج وحسن النية والمعرفة) .

ونهج كل كاتب فى فرنسا تقريباً نهج الفلاسفة ، وسعى إلى كسب رضاهم ، وباتت الفلسفة تحت مئات العنوانات ، وآلاف الشفاه .. (إن عبارة مديح من فولتير أو ديدرو أو دالمبير كانت أثمن وأعظم قيمة من نيل الحظوة عند أى أمير ومن عطفه) ، ووقعت الصالونات والأكاديميات الفرنسية ، بل وزراء الملك نفسه ، أحياناً ، تحت تأثير الفلاسفة .

كتب دارجنسون ، وزير الحربية الفرنسى ، سنة ١٧٥٣ : (قد يكون من الخطأ أن نعزو ضياع الدين فى فرنسا إلى الفلسفة الإنجليزية التى لم تكتسب أكثر من مائة فيلسوف فى باريس ، بدلاً من إرجاعه إلى الكراهية التى أضمرها الفرنسيون لرجال الدين إلى أقصى الحدود) .

وأضاف : (لما كانت أمتنا وقرننا قد استنارا بطريقة متباينة كل التباين ، فإنهما سيسيران إلى حيث ينبغى لهما أن يسيرا ، سيطردان رجال الدين ، ويلغيان مهنة القساوسة ، ويتخلصان من كل الوحى ، وكل الأسرار الغامضة ، فلا يتحدث المرء فى مصلحة رجال الدين ، ولا يساندهم فى دوائر المجتمع ، وإلا كان موضع سخرية واستهزاء ، واعتبر جاسوساً لمحاكم التفتيش ، ويشير القساوسة إلى أنه فى هذا العام نقص عدد أعضاء الجماعات الدينية بمقدار الثلث ، وهجر الناس الكلية اليسوعية ، وانسحب ١٢٠ راهباً من هؤلاء الرهبان الذين ساءت سمعتهم إلى حد كبير) .

وذهب أحد تقارير الشرطة سنة ١٧٤٧ إلى أنه لا يكاد يوجد موظف فى برلمان باريس لا يحتفظ بكتاب أو مخطوط مناف للدين فى بيته ، وعجت مقاهى باريس بالإلحاد ، وكان هجاء رجال الدين والسخرية منهم متعة ظرفاء المدن الذين أشاروا إلى الله بأنه (السيد وجود) ، وانتشرت المطبوعات المعادية لرجال الدين انتشاراً واسعاً ، حتى فى الأقاليم ، ووزع بعض الباعة المتجولين لقاء ربح وفير ، ومن باب إلى باب ـ منشورات عنوانها (أشهر الدجالين الثلاثة) ، يقصد الأنبياء .. ألم ينتقل إلى رجال الدين أنفسهم عدوى الشك الدينى ؟ بل هنا وهناك فى كل مكان عدوى الإلحاد الصريح غير المقنع ـ قصة الحضارة مج ٩ ج ٤ ص ٢٦٢/٢٥٦ و ٩/٧ .

* جان مسلييه (١٦٧٨ ـ ١٧٣٣) كان راعى أبروشية ، وبعد ثلاثين عاماً من حياة هادئة مثالية فى وظيفة الراعى قضى نحبه ، وهو فى الخامسة والخمسين ، موصياً بكل ما يملك لأهالى الأبروشية ، تاركاً ثلاث نسخ من مخطوطة عنوانها (عهدى

الجديد) ، وجهت إحداها إلى شعب الأبروشية ، توسل فيها إليهم على المظروف الذى وضعت فيه المخطوطة أن يغفروا له أن خدم الخطيئة والأهواء طوال مقامه فيهم .

وقد صوت جان إلى جانب العقل وأيده بقوله : (لن أضحى بعقلى ، لأن عقلى وحده يمكننى من التمييز بين الخير والشر ، وبين الحق والضلال .. لن أتخلى عن الخبرة ، لأنها مرشد وهاد أفضل بكثير من الخيال ، أو من سلطان المرشدين الذين أرادوا أن يزودونى به .. لن أرتاب فى حواسى ، ولست أتجاهل أنها يمكن أحياناً أن تؤدى بى إلى الخطأ ، ولكن من جهة أخرى أدرك أنها لن تضللنى دائماً .. إن حواسى تكفى لتصحيح الأحكام والقرارات المتسرعة التى ملت إلى اتخاذها) .

(إن الكتب زاخرة بأشد المديح والثناء ، رياء ونفاقاً ، على العناية الإلهية ، التى أفرطوا فى الثناء على رقابتها اليقظة ، ومهما يكن من أمر ، فإننا إذا تفحصنا كل أجزاء الكرة الأرضية لوجدنا أن الإنسان المتحضر وغير المتحضر ، على السواء ، فى صراع دائم مع العناية الإلهية ، فهو مضطر إلى أن يصد الضربات التى تنزلها فى صورة أعاصير وعواصف وصقيع وبرد وفيضانات وجدب وغيرها من مختلف النازلات التى تجعل كد الإنسان وجده عبر ذى جدوى .. وفى إيجاز أرى أن البشر جميعاً مشغولون باستمرار فى حماية أنفسهم من الحيل الشريرة الخبيثة التى تدبرها هذه العناية الإلهية ، التى يقال إنها ساهرة على توفير السعادة لهم) .

وقد ظل صاحب هذه (العناية الشريرة الخبيثة) لآلاف السنين (مختفياً عن أعين البشر ، واستمع دون استجابة واضحة بريئة لصلوات آلاف الملايين ودعواتهم وثنائهم عليه ، والمفروض أنه حكيم بالغ الحكمة ، ولكن ملكه يسوده الملل والاضطراب والخراب ، والمفروض أنه خير ، لكنه يعاقب كما يعاقب شيطان مجرد من الروح الإنسانية ، والمفروض أنه عادل ، وهو يهيئ للأشرار سبل الرخاء والازدهار ، على حين يتعذب القديسون حتى الموت .. إنه منهمك دائماً فى الخلق والتدمير) .

(إننا نرى فيه متعصباً مبغضاً للبشر ، يعظ البائسين ، فينصحهم بأن يكونوا فقراء ، ويكافحوا الطبيعة ويجحدوها ، ويكرهوا اللذة ، ويلتمسوا الآلام والشقاء ، ويحتقروا أنفسهم ، ويطلب إليهم أن يتخلوا عن الأب والأم وكل أواصر الحياة ليتبعوه ، أية أخلاق كريمة لابد أن تكون سماوية ، لأنها غير عملية بالنسبة للإنسان) .

(وإذا كان لزاماً أن تعبدوا أحداً ، فاعبدوا الشمس ،كما تفعل شعوب أخرى ، فإن الشمس هي الخالق الحقيقي لحياتنا ، وللصحة ، والضوء ، والدفء ، والبهجة والسرور) .

(إن الأنصار المتحمسين لدين يدعو إلى البر والإحسان والتآلف والسلام أثبتوا أنهم أشد ضراوة وقساوة من أكلة لحوم البشر ، أو المتوحشين ، في كل مرة يستثيرهم فيها معلموهم إلى تحطيم إخوتهم ، وليس ثمة جريمة لم يرتكبها الناس في سبيل إرضاء الرب ، أو تسكين سورة غضبه ، أو إقرار خداع الدجالين لحساب كائن لا يوجد إلا في خيالهم) .

(ولكي يتبين الناس مبادئ الأخلاق القويمة ، فإنهم ليسوا بحاجة إلى اللاهوت أو الوحي أو الآلهة ، إنهم ليسوا بحاجة إلا إلى الفطرة السليمة ، وحسن الإدراك ، إنهم ينبغي عليهم أن يتفكروا في أنفسهم ، ويتأملوا طبيعتهم ، ويتدبروا مصالحهم الواضحة ، ويأخذوا بعين الاعتبار هدف المجتمع ، وهدف كل عضو فيه ، ومن ثم يدركون بسهولة أن الفضيلة نعمة ، وأن الرذيلة نقمة على رفاقهم من الكائنات .. الناس أشقياء لمجرد أنهم جهلة ، وهم جهلة لأن كل شيء يتآمر على الحيلولة بينهم وبين الاستنارة ، وهم أشرار لمجرد أن عقلهم لم يتم ولم يتطور بدرجة كافية) .

(لقد طال العهد بمعلمي الناس وهم يركزون أبصارهم على السماء ، فليرجعوا أبصارهم ثانية إلى الأرض ، لقد تعب الذهن البشري من اللاهوت المبهم ، والخرافات السخيفة ، والأسرار العويصة ، والطقوس الصبيانية ، فلينشغل هذا الذهن البشري بعد هذا الإرهاق بالأشياء الطبيعية ، والأهداف ، والأشياء الواضحة ، والحقائق المعقولة ، والمعرفة النافعة) .

(فلتوزع الأمة الملكية توزيعاً عادلاً ، وليشتغل كل إنسان بعمل مناسب ، وليكن الإنتاج قسمة متساوية بينهم ، وليتزوج الرجال النساء ، وليفترقوا متى شاءوا ، ولينشأ أطفالهم معاً في مدارس مشتركة ، وعندئذ تكون ثمة نهاية للنزاع في الأسرة ، ونهاية لحرب الطبقات ، وللفقر ، وهنا تكون المسيحية في النهاية حقيقية صادقة) ـ قصة الحضارة مج ٩ ج ٤ ص ١٧/١٠ .

لقد أسقط مسليبيه الإله ، وأسقط القانون ، ولم يضع في حسابه نوازع الشر

والأطماع ، وطبيعة التملك والتفوق والسيادة ، وظن وهو جالس على بساط الريح يتأمل ويدون أن كلامه هذا سيصل إلى الآذان قبل أن تبعثره الريح ، وقبل أن يتهمه الآخرون بالجنون والغفلة .

إن الرؤية الجانبية (الشخصية) لا يمكن أن تحيط بالحقيقة الكلية ، ولو أنه جرب فعرض أفكاره على شعب الأبروشية قبل أن يموت لأدرك قيمة هذه الأفكار ، حين يمزق القوم وجهه ودبره بمخطوطته وبأشياء أخرى .

* ديفيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦) ـ ولد في إدنبره حيث التحق بالجامعة في سن الثانية عشرة ، وترك الجامعة ولما يبلغ السادسة عشرة ، بعد دراسة برنامج تقليدى في الآداب ، وحاول أن يدرس القانون ، غير أن اهتماماته كانت تكمن في الفلسفة التى قرر في النهاية أن يتخصص فيها .. وفي سنة ١٧٣٤ أبحر إلى فرنسا حيث أقام ثلاث سنوات ، خلالها كتب أشهر مؤلفاته (دراسة في الطبيعة البشرية) في ٦٠٠ صفحة ، وباعتراف هيوم لم يثر هذا الكتاب أى اهتمام على الإطلاق ، ولم يحظ بقراءته غير قلة من الناس ، وقد رفض فيه المبادئ الدينية السائدة ، من أجل هذا أخفق في الحصول على وظيفة أستاذ كرسى الفلسفة بجامعة إدنبره .. وفي سنة ١٧٤٦ التحق بخدمة الجنرال سانت كلير ، وذهب معه إلى النمسا وإيطاليا .. وفي سنة ١٧٤٨ كرس حياته لدراساته .. وفي خلال خمسة عشر عاماً نشر عدداً من المؤلفات في نظرية المعرفة والأخلاق والسياسة ، توجها جميعاً بكتاب في (تاريخ انجلترا) ، جلب له الشهرة والمال معاً .. وفي سنة ١٧٦٣ سافر إلى فرنسا سكرتيراً للسفير البريطاني ، وبعد عامين أصبح أميناً للسفارة ثم قائماً بالأعمال عندما استدعى السفير إلى بلاده .. وفي سنة ١٧٦٦ أصبح وكيلاً لوزارة الخارجية ، وتقاعد سنة ١٧٦٩ ، وقضى سنواته الأخيرة في إدنبره .

يعد ألمع حركة التنوير الإسكتلندية ، وصفه جيمس كوبقلد بقوله : (إن سحنته حيرت علم الفراسة ، وأعيت قدراته في الكشف عن أقل أثر لمواهبه العقلية في ملامح وجهه التى تخلو من المعنى ، كان وجهه عريضاً سميناً ، وفمه واسعاً بغير تعبير البلاهة ، وكانت بدانة جسمه أجدر بأن توحى للناظر بفكرة العمدة آكل الترسة ، لا الفيلسوف المهذب) .

وضع نظرية مفادها أن ما نعرفه تكون من مجموعة انطباعات ، لكننا نخطئ إذ نربطها بنموذج عرضي ، فمجرد أن الحادث (ب) يتبع الحادث (أ) لا يعني أن هناك صلة ضرورية بينهما ، فالعقل الإنساني يفرض نماذج على الأحداث بحكم العادة قد تكون الحقيقة شيئاً مختلفاً تماماً ، لكننا لا نملك وسيلة لمعرفة ما هيتها ، وفي التفكير بهذه الطريقة رأى هيوم أن حجة المؤمنين بالتألية الطبيعي باطلة ، فاعتقادنا بوجود نظام الطبيعة لا يكفي لإثبات منظم للكون (الله) ، لكنه نفسه دليل (بنفس المقدار على وجود الفوضى) ـ تاريخ الكنيسة ج ٥ ص ٤١ .

كان يرى أن العقل عبد ، وينبغي أن يكون عبداً للعواطف (الأداة المثيرة والمنسقة للرغبات) ، ولا يمكن أن يزعم لنفسه أي وظيفة أخرى سوى خدمتها وطاعتها .

وكان يرى أن الفضيلة اسم على أي صفة في الآخرين تعطينا اللذة لأنها تعين على نفعنا ، وأن الرذيلة تطلق على أي صفة بشرية تعطينا الألم (فاللذة والألم ليسا مرافقين ضروريين فحسب للجمال والقبح ، لكنهما يكونان جوهرهما ذاته ، وما الجمال إلا شكل يحدث اللذة ، كما أن القبح بناء للأجزاء يحدث الألم) .

وفي مقاله (في المعجزات) قال : (لن تجد في التاريخ كله معجزة شهد عليها عدد كاف من الناس أوتوا من صادق الإدراك والتعليم والثقافة ما يؤمننا من أي انخداع قد ينخدعون به .. ومن النزاهة التي لا ريب فيها ، وحسن السمعة في أعين البشر ما يجعلهم يخسرون الكثير إذا ضبطوا متلبسين بأي كذبة ، ويشهدون في الوقت نفسه على وقائع وقعت علانية ، وفي جزء مشهور من العالم ، مما يجعل الضبط أمراً لا يمكن تجنبه ، وهذه الظروف كلها لازمة لإعطائنا الثقة الكاملة في شهادة البشر) .

(إنها لقرينة قوية ضد جميع العلاقات الخارقة والإعجازية ما يلاحظ من أنها تكثر على الأخص بين الأمم الجاهلة ، والهمجية .. ومن الغريب أن مثل هذه المعجزات لا تحدث أبداً في أيامنا ، ولكن لا غرابة في أن يكذب الناس في جميع العصور) .

وفي سنة ١٧٥١ ألف (حوارات في الدين الطبيعي) وهذه الحوارات (البلهاء) ـ كما يقول ول ديورانت ـ لم تر النور إلا سنة ١٧٧٩ ، بعد موته بثلاث سنوات .. وقد جاء فيها :

(يخيل إلي أن هذا الإنتاج الفخم ـ العالم ـ لم يتلق آخر اللمسات من خالقه ، فكل جزء فيه ناقص الصقل جداً ، والخطوط التي نفذ بها غاية في الخشونة ، فالرياح مثلاً

تساعد الناس على الملاحة ، ولكن ما أكثر ما تصبح مؤذية ، حين تنقلب زوابع وأعاصير ، والأمطار ضرورية لتغذية جميع نباتات الأرض وحيواناتها ، ولكن ما أكثر ما تكون شحيحة ، وما أكثر ما تكون مسرفة .. ليس في الكون شيء كثير النفع إلا انقلب المرة بعد المرة مؤذياً لإفراطه أو قصوره ، ثم إن الطبيعة ـ لم تتخذ حيطتها بالدقة المطلوبة من جميع ألوان الخلل أو الفوضى) .

(إن حرباً لا يخمد لها أوار تستعر بين جميع الكائنات الحية ، فالضرورة ، والجوع ، والعوز ، تحفز الأقوياء والشجعان ، والخوف والقلق والرعب تقلق الضعفاء والعاجزين ، وأول مدخل للوليد إلى الحياة فيه ألم مبرح له ولأمه المسكينة ، والعجز والضعف والضيق رفقاء كل مرحلة من مراحل تلك الحياة) .

(تأمل ذلك الجيش العرمرم من الحشرات التي تتربى على جسم كل حيوان ، أو تعز حمتها فيه ، وهي تطير من حوله ، كل حيوان يحدق به أعداء يسعون على الدوام إلى إشقائه وتدميره .. والإنسان ألد خصوم الإنسان ، فالقهر ، والظلم ، والاحتقار ، والإهانة ، والعنف ، والإغواء ، والحرب ، والافتراء ، والغدر ، والتزييف ، بهذه يعذب الناس بعضهم بعضاً) .

(العالم لم يكن سوى المحاولة الفجة الأولى لإله طفل أقلع عنها بعد ذلك خجلاً من إنجازه الأعوج ، أو أنه نتاج الشيخوخة والخرف في إله طعن في السن ، **وبعد موته** واصل العالم مسيرته مغامراً ، مدفوعاً بالدفعة والقوة الفعالة الأولى التي تلقاها منه) ـ قصة الحضارة مج ٩ ج ١ ص ٢١٦/٢٠٨ .

* ديدرو بروتيه (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) ، سموه (بروتيه) لأنه مثل إله البحر عند هوميروس ، حاول أن يفلت من أيدي صائديه بالتشكل في مختلف الأشكال . كانت الأفكار زاده وعتاده ، فجمعها وتذوقها وفحصها ، ثم سكبها مشوشة تشويشاً مسرفاً حيثما وجد قرطاساً ، أو آذاناً صاغية : (إني أصبغ أفكاري على الورق ، ولتكن ما تكون) .

وقال : (إني لا أهتم بتشكيل السحب أكثر مني بتبديدها ، وتعطيل القرار أو الحكم ، لا باتخاذه .. أنا لا أقرر ، بل أتساءل ، أترك ذهني يهيم إلى حد السرف ، وأطلق العنان لمتابعة أية فكرة سليمة كانت أو طائشة ، تأتي أو تقفز إلى ذهني أولاً ، وأتعقبها كما يتعقب الشاب الداعر محظية بائسة وهي تبتسم ، وتتلألأ عيناها ، وننظر بازدراء .. إن أفكاري هي محظياتي) .

لم يكن موسوعة متحركة ، بل كان معملاً متنقلاً ، سارت أفكاره معه حيث سار .

كان أكثر ثراء فى الفكر من فولتير لأنه لم يكن ثمة قيود أو ضوابط فى كيانه ، وكان أكثر خيالاً وأقل عقلانية ، وكان أكثر طيشاً وتهوراً ، ولم يكن ناضجاً قط .. يقول فولتير : (إن ديدرو أتون شديد الحرارة إلى درجة يحترق معها كل ما يخبز فيه) ، ومع ذلك خرجت منه أشياء كثيرة لم يكتمل نضجها ولا خبزها ، وكان شديد الحساسية رقيق العاطفة .

افتتن جيته وشيللر ولسنج بكتاباته ، وشارك ستندال وبلزاك ودلاكروا فى الإعجاب به ، وعده كومت أسمى عبقرية فى ذاك العصر المثير ، وأسماه ميشليه (بروميثيوس الحقيقى) .

دعا إلى شيوعية فوضوية بقوله : (إنى مقتنع بأنه لن يتيسر للجنس البشرى أية سعادة حقيقية إلا فى دولة اشتراكية ، ليس فيها ملك ، ولا قاض ولا قسيس ، ولا قوانين ، ولا يكون فيها هذا لك ، وهذا لى ، وليس فيها حق تملك ، وليس فيها رذائل وفضائل) .. فاته أن يقول : وليس فيها بشر ، ولا حيوانات أخرى ، ولا تقلبات طبيعية .

جاء فى قصته (ابن أخى رامو) التى كتبها سنة ١٧٦١ ، وقال فيها جوته : (الكتاب الممتاز الذى ألفه رجل رائع) :

(إننا سوف نندد بالقوانين الوحشية حتى يتم إصلاحها ، ولكننا فى نفس الوقت سنخضع لها .. إن من يكون من سلطته أن ينتهك حرمة قانون سيئ يعطى لكل إنسان غيره الحق فى انتهاك حرمة القانون الصالح .. إنه أقل إزعاجاً أن تكون مجنوناً بين المجانين من أن تكون عاقلاً بمفردك) .. وقد كان مجنوناً بين مجانين حقاً ، لكنه كان أكثر إزعاجاً .

فى سنة ١٧٧٣ تنبأ بأن الإيمان بالله والخضوع للملوك لن يعود لهما وجود فى بحر سنوات قلائل فى كل مكان ، لكنه عاد وتنبأ بأن (الإيمان بوجود الله سيبقى) ، ودافع عن الشعائر الكاثوليكية بقوله :

(إن هؤلاء المتشددين الحمقى لا يدركون مدى تأثير الطقوس المظهرية على الناس ، إنهم لم يشهدوا قط توقير الصليب . فى يوم الجمعة الحزينة ، وحماسة الجماهير فى موكب عيد القربان ، وهى حماسة كانت فى بعض الأحيان تجرفنى أنا نفسى ، إنى لم أر قط هذا الصف الطويل من القساوسة فى ملابسهم الكهنوتية ، ومساعديهم الصغار فى ثيابهم البيضاء ينثرون الزهور أمام القربان المقدس ، ولم أر هذه الجموع الحاشدة التى تسبقهم وتعقبهم فى صمت دينى رهيب ، كما أن كثيراً من الناس ينبطحون على

الأرض ، ولم أسمع قط هذه التراتيل الوقورة التي ينشدها الكهنة ، وترددها في حب وإخلاص الجموع الغفيرة من الرجال والنساء والأطفال إلا اهتز قلبي من الأعماق ، وذرفت عيناى الدموع) .

إذا كان هذا هو تأثير الطقوس ، وهي تمثيليات مسرفة في الدجل، لا شأن لها بالدين ، فكيف إذا كانت هذه الطقوس دينية حقاً ، هي من أمر الله ورسوله !! .

(من رأيي أن العقيدة المسيحية أسخف وأشنع ما تكون في تعاليمها ومبادئها ، كما أنها مستعصية على الفهم ، ميتافيزيقية مربكة إلى أبعد الحدود ، ومن ثم كانت أكثر تعرضاً للانقسامات والتشيع والانشقاقات والهرطقات ، وأكثرها إيذاء وإزعاجاً للهدوء العام ، وخطراً على الملوك والحكام في تسلسل مراتبها الكهنوتية ، واضطهاداتها ، ونظامها العام ، وهي أشد العقائد فتوراً وكآبة وبعداً عن المدنّية ، وعبوساً في طقوسها ، وأشد صبيانية وانطوائية ، وبعداً عن الروح الاجتماعية في أخلاقياتها ، وهي متعصبة لا تحتمل) .

(العقيدة المسيحية أسخف وأشنع ما تكون في تعاليمها ، مبادئها) ، أما (الطقوس المظهرية) ففن من الفنون يهز القلب من الأعماق ، ويملأ العيون بالدموع حباً وإخلاصاً ، وخشية وإجلالاً ، أليس هذا أسلوباً جديداً في النقد (التنويرى) الرصين ؟.

(إن في العالم دلائل كثيرة على التخطيط الذكي ، ألا توجد علامات بنفس القدرعلى أن هذه العناية الإلهية ـ إذا كان لها وجود ـ قادرة على أعظم الإساءات الشيطانية ؟ إني أرى الجنس البشرى مشغولاً باستمرار في حماية نفسه من أحابيل هذه « العناية الإلهية » التي يقال إنها مشغولة في الاهتمام بسعادتهم) .

في سنة ١٧٨٤ مرض ديدرو ، وحاول كاهن سان سولبيس أن يرد المريض إلى حظيرة الإيمان ، فتوسل إليه أن يرجع إلى الكنيسة ، وأنذره بأنه ما لم يتناول الأسرار المقدسة فإنه لن يحظى بدفنه في جبانة عامة ، فقال ديدرو إنني أفهمك يا سيدى الكاهن ، لقد رفضتم دفن فولتير ، لأنه لم يؤمن بلاهوت الدين ، حسناً ، إنهم يستطيعون دفني حين أموت في أى مكان يشاءون ، ولكنني أعلن أنني لا أومن بالآب ، ولا بالروح القدس ، ولا بأى واحد في الأسرة) .

يقول ول ديورانت : لقد كان الشكاك الوحيد الممعن في شكوكيته بين جماعة الفلاسفة ، لأنه تشكك أيضاً في الفلسفة والعقل والتقدم ـ قصة الحضارة مج ٩ ج ٤ ص ١٠٩/٦٥ ومج ١٠ ج ٤ ص ٣٨٢ .

* إيما نويل كانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) ولد في كونجز برج ، ولم يبرح بلدته الأصلية طوال حياته ، مع احتفاظه بنزعة الورع ، مما كان له تأثير في كتابته الأخلاقية .

كان من أضأل الرجال في جيله حجماً ، لا يجاوز طوله خمسة أقدام إلا قليلاً ، يزيده قصراً تقوس إلى الأمام في عموده الفقرى ، وكان يشكو ضعفاً في رئتيه ، ووجعاً في معدته ، وقد طال عمره بفضل تغذية منتظمة معتدلة .. بل يمكن القول : بفضل آرائه المنتظمة المعتدلة ، لأن انعكاس النشاط الفكرى اعتدالاً وتطرفاً على الجهاز العصبى يصيبه بالحركة الإنسيابية الهادئة أو بالتوتر والاضطراب .

درس في جامعة كونجز برج ، بادئاً باللاهوت ، ومنتهياً بالفلسفة التي شعر بأنها اهتماماته الحقيقية ، وظل سنوات يرتزق مدرساً خاصاً لأبناء الأرستقراطيين ، ملاك الأراضى الزراعية ، إلى أن حصل سنة ١٧٧٥ على وظيفة محاضر للفلسفة في كونجز برج ، وفي سنة ١٧٧٥ رقى إلى أستاذ كرسى المنطق والميتافيزيقا ، وظل يشغله حتى وفاته .

عاش حياة شديدة التنظيم والدأب والمثابرة ، وبلغ من انتظام عاداته أن أهل مدينته كانوا يضبطون ساعاتهم على لحظات مروره ، وبفضل هذا التنظيم أفلت من كثير من الأمراض .كان محدثاً بارعاً، يلقى الترحيب في المحافل الاجتماعية ، وكان ليبرالياً في السياسة ، يمثل نوعاً من البروتستانتية غير التقليدية في الدين .. أكسبته مؤلفاته الفلسفية شهرة واسعة ، ولم تكسبه ثروة .

يقول : إن عملية المعرفة تنطوى من جهة على الحواس التي تقتصر على تلقى التجربة الآتية من الخارج ، ومن جهة أخرى على الفهم الذى يربط عناصر الحس هذه معاً ، ولابد من التمييز بين الذهن أو الفهم وبين العقل .

وقد عبر هيجل ـ في مرحلة لاحقة ـ عن هذه الفكرة بقوله : إن العقل هو ما يوحد الناس على حين أن الفهم هو ما يفرقهم .

ويمكن القول إن الناس يكونون متساوين بقدر ما يكونون عقلاء ، أو مالكين لنعمة العقل ، ولكنهم يتفاوتون فيما يتعلق بالفهم ، لأن هذا الأخير تعقل إيجابى يتفاوت الناس فيما يتعلق به تفاوتاً كبيراً ـ رسل (حكمة الغرب ج ٢ ص ١٥٧/١٦٢) .

جاء في كتابه (نقد العقل الخالص) سنة ١٧٨١ : ليس في استطاعتنا بالعقل الخالص ، أو النظرى ، أن نثبت أن نفس الفرد خالدة ، أو أن الإرادة حرة ، أو أن الله موجود ، ولكنا أيضاً لا نستطيع بالعقل الخالص أن ندحض هذه المعتقدات ـ كما خطر لبعض الشكاك أن يفعلوا ـ فالعقل والمقولات مهيأة للتعامل مع الظواهر أو المظاهر فقط ، الظاهرة أو الباطنة ، ولا نستطيع تطبيقها على الشيء في ذاته ، أو على الحقيقة التى من وراء الأحاسيس ، أو النفس التي من وراء الأفكار ، فإذا حاولنا إثبات عقائد الدين ، أو دحضها وقعنا في أغلاط (في البرهان) ، أو مغالطات أو نقائض ، كذلك ينتهى بنا الأمر إلى استحالات كهذه، إذا قلنا إن العالم كان له بداية أو لم يكن ، أو إن الإرادة حرة أو غير حرة ، أو إن كائناً واجباً ، أو كائناً أعلى ، موجود أو غير موجود .

وفى كتابه (نقد العقل العملى) سنة ١٧٨٨ قال : إن حسنا الأخلاقى يستحثنا إلى كمال تحبطه المرة بعد المرة دوافعنا الحسية ، ونحن لا نستطيع تحقيق هذا الكمال فى حياتنا على الأرض ، فإذا كان هناك عدل فى العالم فلابد أن نفترض أننا سنمنح حياة متصلة بعد الموت لاكتمالنا الأخلاقى ، وإذا كان هذا يفترض أيضاً وجود إله عادل ، فإن هذا أيضاً يبرره العقل العملى ، فالسعادة الأرضية لا تتفق دائماً والفضيلة ، ونحن نشعر أن التوازن بين الفضيلة والسعادة سيصبح فى مكان ما ، وهذا لا سبيل إليه إلا إذا افترضنا وجود إله يحقق هذه المصالحة ، وعليه ، فإن وجود سبب للطبيعة كلها متمايز عن الطبيعة ذاتها ، محتوياً مبدأ الانسجام الدقيق بين السعادة والفضيلة ، هذا أيضاً من مسلمات (العقل العملى) .

وفى كتابه (نقد الحكم) سنة ١٧٩٠ قال : نحن نصف بالجمال أى شيء يعطينا تأمله لذة منزهة ، أى لذة مجردة من رغبة شخصية ، فنحن نستمد إشباعاً جمالياً، وجمالياً فقط ، من غروب الشمس ، ومن لوحة لرفائيل ، أو كتدرائية ، أو زهرة ، أو حفلة موسيقية ، أو أغنية ، ولكن لم تعطينا أشياء أو تجارب بعينها هذه اللذة المنزهة ؟ لعل السبب أننا نرى فيها اتحاداً فى الأجزاء يؤدى وظيفته فى كل متناسق ، وفى حالة الليل تلذنا العظمة أو القوة التى لا تهددنا بخطر ، وهكذا نشعر بالجلال فى السماء أو البحر ، إلا إذا هددنا اضطرابها بالخطر .

وقال : إنا لو تخلينا عن كل فكرة فى وجود هدف فى الطبيعة لسلبنا الحياة كل

معناها الأخلاقى ، فتصبح سلسلة حمقاء من ولاءات مؤلمة ، وميتات معذبة ، ليس فيها للفرد ، ولا للأمة ، ولا للنوع ، شيء مؤكد إلا الهزيمة ، فلابد لنا من أن نؤمن بعناية إلهية ، ولو للاحتفاظ بسلامة عقولنا .

وجاء فى كتابه (الدين والعقل) سنة ١٧٩٣ : (لا ريب فى أن أشد التفسيرات كلها سخفاً لذيوع هذا الشر وانتشاره فى جميع أفراد وأجيال نوعنا ـ هو التفسير الذى يصفه ميراثاً منحدراً إلينا من أبوينا الأولين) .. وربما كانت النوازع (الشريرة) قد تأصلت فى الإنسان تأصلاً قوياً ، لأنها كانت ضرورية للبقاء فى الأحوال البدائية ، وهى لا تصبح رذائل إلا فى المدينة فى المجتمع المنظم ، وفيه لا تحتاج إلى القمع ، بل إلى الضبط (فالميول الطبيعية ـ إذا نظرنا إليها فى ذاتها ـ خيرة ، أى أنها لا تلام ، ومحاولة القضاء عليها ليست عديمة الجدوى فحسب ، بل ضارة ، ومستحقة للوم ، والأولى أن نروضها وبدلاً من أن يصطدم بعضها ببعض يمكن أن ينسق بينها لتنسجم فى كل ما يسمى السعادة) .

(والخير الأخلاقى هو أيضاً غريزى ، كما يدل على ذلك الحس الأخلاقى فى جميع الناس ، لكنه فى أول الأمر ليس إلا حاجة لابد من تنميتها بالتعليم الأخلاقى والتهذيب الشاق ، وأفضل الأديان ليس الذى يفوق غيره فى التمسك الدقيق بالعبادة الطقسية ، بل أعظمها تأثيراً فى الناس ليحيوا حياة أخلاقية) .

وقال : (لا يمكن تصور دين لا يحتوى على اعتقاد بحياة آخرة) ، لكن (لا ينبغى أن يكون ضرورياً للمسيحى أن يؤكد إيمانه بالمعجزات أو لاهوت المسيح ، أو بالتكفير عن خطايا البشر بصلب المسيح ، أو بالحكم المقدر على الأرواح بالجنة أو النار ، بالنعمة الإلهية تمنح دون نظر إلى الأعمال الصالحة أو الشريرة) .

حين تنقلب كنيسة إلى مؤسسة لإكراه الناس على الإيمان أو العبادة ، وحين تزعم لنفسها الحق الأوحد فى تفسير الكتاب المقدس ، وتعريف الأخلاقية ، وحين يدعى كهنوتها لنفسه الاتصال وحده بالله والنعمة الإلهية ، وحين تجعل من عبادتها مجموعة طقوس سحرية لا قوة معجزية ، وحين تصبح ذراعاً للحكومة ، وأداة للطغيان الفكرى ، وحين تحاول أن تتسلط على الدولة ، وتستخدم الحكام العلمانيين مطايا للطمع الكهنوتى ـ عندها يثور العقل الحر على كنيسة كهذه ، ويبحث خارجها عن ذلك الدين العقلى

الخالص الذى هو المسعى لبلوغ الحياة الأخلاقية.

بهذا يعد كانت (الضعيف البنية المشوه الخلقة) خير دليل على أن ظاهر المرء لا يدل على باطنه، وأن الحالة النفسية لا تتغير بتغير المرآة إلا عند ضعفاء النفوس فقط ، كما كان خير دليل على أن زعماء الإلحاد الذين بنى عشه فى مدينتهم كانوا أقصر منه قامة ، وأضعف تكويناً ، وأوهن صوتاً ، بالرغم من قصورهم الشامخة ، وبالرغم من أبواقهم الصارخة .

لقد عالج جميع القضايا التى عالجها التنويريون ، ملاحدة وفيزيوقراطيين ، ولكن بأسلوب هادئ ، وعقل سليم ، وإدراك واع ، ومنطق واضح صريح ، وحس أخلاقى مرهف ، وإيمان مطمئن ، ونقد صادق لكل ما يناقض العقل ، ويخدش الوجدان ، وكان بحق اسماً على مسمى ، إيما نويل (الله معنا) .

* جوتهولت ليسنج (١٧٢٩ ـ ١٧٨١) خطا على طريق كانت ، وإن لم يبلغ شأوه ، بالرغم من أن جوته رأى فيه المحرر العظيم ، وأبا التنوير الألمانى ، وقال بعد موته : (فى الحياة كرمناك إلهاً من الآلهة أما الآن ـ وقد مت ـ فإن روحك تسيطر على جميع النفوس) .

نشر مخطوطاً لهرمان رايماروس سنة ١٧٧٨ عن أهداف المسيح وتلاميذه ، جاء فيه لم يصور المسيح ابناً لله ، بل صوفياً متحمساً ، شارك (رأى بعض اليهود فى أن العالم المعروف يومها قد أشرف على النهاية ، وسيعقبه قيام ملكوت الله على الأرض ، وقد فهمه الرسل على هذا النحو ، لأنهم أملوا أن يبوءوا عروشاً فى هذا الملكوت القادم ، فلما انهار الحلم بصرخة المسيح اليائسة على الصليب : (إلهى ، إلهى، لماذا تركتنى؟!) ـ اخترع الرسل خرافة قيامته إخفاء لهزيمته، وصوروه بصورة ديان العالم المكافئ المنتقم .

ومن أشهر ملاحظاته : (ليست الحقيقة التى يملكها الرجل ـ أو يعتقد أنه يملكها ـ هى التى تجعل له قيمة ، بل الجهد المخلص الذى بذله للوصول إليها ، لأنه ليس بامتلاك الحقيقة ، بل بالبحث ، يطور المرء تلك الطاقات التى فيها وحدها كماله المطرد النمو ، فالتملك يجعل العقل راكداً كسولاً متكبراً ، ولو أن الله احتوى فى يمناه الحقيقة كلها ، ولم تحتو يسراه إلا الحافز الدائم الحركة نحو الحقيقة ـ علماً بأننى سأخطئ دائماً أبداً ـ ثم

قال لى « اختر » لأحنيت رأسى فى اتضاع أمام يسراه وقلت : « أبتاه أعطنى هذا ، فالحقيقة الخالصة لك أنت وحدك ») .

* دى هولباخ .. ألمانى ولد فى بافاريا سنة ١٧٢٣ ، نشأ كاثوليكياً ، وفى ليدن درس العلوم ، وتعلم الإنجليزية ، ثم استقر به المقام فى باريس وأصبح من رعايا فرنسا ، وتزوج من أسرة خبيرة بشئون المال ، وحصل على النبالة ، وبلغ دخله السنوى مائتى ألف جنيه ، استغله فى خدمة العلم والفن ، وأصبحت داره (مقهى أوروبا) ، وأعدت مدام دى هولباخ كل يوم خميس ، ويوم أحد ، المائدة لاثنى عشر ضيفاً كانوا على الأغلب من قادة الحرب ضد المسيحية .

كان عقد هذا (الكنيس) ـ كما كان البارون يسمى هذه الاجتماعات ـ يلتئم فى الساعة الثانية ، يتجاذبون أطراف الحديث ويأكلون ، يتحدثون حتى الساعة السابعة أو الثامنة ، ولم يكن هناك موضوعات محظور الخوض فيها .

وبلغ صالون دى هولباخ من الشهرة حداً استخدم معه بعض زوار باريس من الأجانب نفودهم للحصول على دعوة لحضور لقاءاته .. وكان ولبول يسمى هذا الصالون (وكر الفلاسفة) ، لأنه كان يؤذى ذوقه .

وقد ألف دى هولباخ تحفته الرائعة (!!) « منهج الطبيعة » سنة ١٧٧٠ بين فيها (أن حياة الإنسان خط قضت الطبيعة برسمه على سطح الأرض ، دون أن تكون لديه القدرة على الانحراف عنه قيد أنملة ، إنه ولد دون رضاه ، إن كيانه أو تنظيمه لا يتوقف ألبتة على نفسه ، إن الأفكار التى تخالجه تأتى قسراً لا طوعاً ، وعاداته واقعة تحت سيطرة الذين يحملونه على التخلى عنها ، ويتعدل الإنسان ويتغير بلا انقطاع ، نتيجة أسباب وعلل مرئية أو خفية ليس له سلطان عليها ، ولا تحكم فيها ، وهى بالضرورة تنظم أسلوب وجوده ، وتصبغ تفكيره بصبغة معينة ، وتقرر طريقة تصرفه وأفعاله ، فهو طيب أو ردىء ، سعيد أو تعس ، عاقل أو أحمق ، متعقل أو غير متعقل ، دون أن يكون لإرادته دخل فى أى من هذه الحالات المختلفة) .

(إن الإنسان من عمل الطبيعة ، وهو يوجد فى الطبيعة ، خاضع لقوانينها ، ولا يملك تخليص نفسه من هذه القوانين ، ولا يمكنه أن يخطو فيما وراءها خطوة

واحـدة ، حتى فى فكره ، ولذلك ، فإنه بدلاً من البحث خارج العالم عن كائنات توفر له السعادة التى تنكرها عليه الطبيعة يجمل به أن يدرس هذه الطبيعة ، ويعرف قوانينها ، ويتأمل فى قواها ، ويراعى القواعد الثابتة التى تعمل بمقتضاها ، فليطبق الإنسان كل ما يصل إليه على هناءته هو ، ويخضع فى صمت لما تفرضه عليه من الحماية أو الوصاية التى ليس فى مقدور أحد تبديلها و تعييرها ، ويرتضى مبتهجاً أن يتجاهل الأسباب والعلل التى يحول بينه وبينها حجاب كثيف لا يمكن اختراقه ، ويستسلم دون تذمر لقوانين الضرورة الكونية التى يستحيل عليه إدراكها إطلاقاً ، ولا تحرره أبداً من تلك القوانين التى فرضت عليه بحكم ماهيته أو جوهره) .

بهذا تصبح الطبيعة (إلهاً) ، فهى الخالقة ، وهى الحاكمة ، وهى المدبرة ، وما عدا الطبيعة فهو خرافة .

(إن صديق الجنس البشرى لا يمكن أن يكون صديقاً للإله الذى كان فى كل الأوقات سوطاً مسلطاً على الأرض ، إن رسول الطبيعة لن يكون أداة الأوهام المضللة التى تجعل الدنيا مقراً للخداع ، إن من يقدس الحقيقة لن ينسجم مع الزيف والباطل، إنه يعلم أن سعادة الجس البشرى تقتضى ـ بشكل لا رجعة فيه ـ تقويض صرح الخرافة المظلم المغلق من أساسه ، لكى يقيم على أطلاله معبداً للطبيعة ، ملائماً للسلام ، هيكلاً مقدساً للفضيلة ، فإذا ذهبت جهوده أدراج الرياح ، وإذا لم يستطع أن يبث الشجاعة فى الكائنات التى اعتادت أن ترتعد فرائصها جبناً فإن له على الأقل أن يفاخر بتجاسره على أن يقوم بالمحاولة) .

(إن الضمير ليس صوت الله ، بل صوت رجل الشرطة ، إنه رواسب وتراكم آلاف من التحذيرات والأوامر والتأنيبات ، تلقاها الفرد منذ نشأته ، ويمكن تعريف الضمير بأنه معرفتنا بآثار أفعالنا على رفاقنا ثم انعكاسها أو رد فعلها على أنفسنا ، ويمكن أن يكون هذا الضمير موجهاً أو مرشداً زائفاً ، فلربما تشكل هذا الضمير نتيجة تعليم منحرف ، أو خبرة أسئ فهمها ، أو تفكير خاطئ ، أو رأى عام فاسد ، وليس ثمة رذيلة أو جريمة لا يمكن إظهارها فى ثوب الفضيلة عن طريق التعليم ، أو القدوة السيئة ، ومن ثم فإن الزنا ـ مهما يكن من أمر تحريم الدين له ـ عمل يبعث على الفخر ، والتملق الذليل مستساغ فى

البلاط ، واغتصاب النساء والسلب والنهب بين الجنود مكافآت مشروعة للمخاطرة بالحياة وتقطيع الأوصال) ــ قصة الحضارة مج ٩ ج ٤ ص ١٤٩/١٣٣ .

* جوزيف بريستلي ، ولد في بوركشير سنة ١٧٣٣ ، وأكب بنهم على دراسة العلم ، والفلسفة ، واللاهوت ، واللغات ، فتعلم اللاتينية ، واليونانية ، والفرنسية ، والألمانية ، والإيطالية ، والعربية ، وطرفاً من السريانية ، والكلدانية ، وفي الثامنة والعشرين أصبح معلماً في أكاديمية للمنشقين في وارنجتون ، وهناك علم خمس لغات ، ووجد رغم ذلك الوقت ليجرى أبحاثاً أكسبته زمالة في الجمعية الملكية سنة ١٧٧٦ .

التقى بفرانكلن في لندن ، فشجعه على تأليف كتابه (تاريخ الكهرباء ووضعها الراهن) سنة ١٧٧٦ ، وهو مسح جدير بالإعجاب للموضوع بأسره حتى جيله .

وفي سنة ١٧٧٢ عزل أكسيد النتريك وكلوريد الهيدروجين ، وفي سنة ١٧٧٣ النشادر ، وفي سنة ١٧٧٤ ثاني أكسيد الكبريت ، وفي سنة ١٧٧٦ بيروكسيد الآزوت ، وفي ١٥ مارس ١٧٧٥ أرسل إلى الجمعية الملكية خطاباً أذاع فيه كشفه للأكسجين ، وقد وصف طريقته في المجلد الثاني من كتابه (تجارب ومشاهدات في مختلف أنواع الهواء) سنة ١٧٧٥ .

وفي كتابه (تاريخ تحريفات المسيحيين) سنة ١٧٨٢ رفض المعجزات ، وسقوط آدم ، وكفارة المسيح ، وعقيدة الثالوث وذهب إلى أن هذه العقائد كلها تحريفات أدخلت أثناء تطور المسيحية ، إذ لا وجود لها في تعاليم المسيح والرسل الاثنى عشر ، ولم يبق من المسيحية في بريستلي غير الإيمان بالله المبنى على شهادة للقصد الإلهي .

* * *

فولتيـــر ..

فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) رجل عجيب ، امتلك الشهرة والمال ، والفلسفة والأدب ، وعاش حياته بين أشهر الصالونات ، وأفخم قصور الملوك والأمراء .. اشتغل بالسياسة والمسرح ، وتخلى عن كثير من القيم ، حتى عاشر مدام دنيس ، ابنة أخته ، واستولدها ، ولعب أدواراً كثيرة خبيثة ، وأدوارا كثيرة نبيلة ، وسود آلاف الصفحات ، حتى بلغت رسائله وحدها ثمانية وتسعين مجلداً .

قبل أن يصبح مليونيراً وبعده كان يسعى لمصادقة الأقوياء ، اجتماعياً أو سياسياً ، بتملق يقرب من التذلل .

فى (رسالة إلى الكردينال دامو) وصف (معدن الرذائل هذا) بأنه أعظم من الكردينال ريشيليو ، وحين كان يسعى لقبوله فى الأكاديمية الفرنسية ، واحتاج إلى تأييد رجال الدين ، أكد للأب دلاتو الكبير النفوذ أنه يود أن يعيش فى كنف الكنيسة الكاثوليكية المقدسة .

وأكاذيبه المطبوعة تؤلف كتاباً لو جمعت ، وكثير منها لم يطبع ، وغير قابل للنشر.. وقد ذهب إلى أن هذا (الأسلوب) مبرر فى الحرب ، وزعم أن حرب السنين السبع لم تكن غير لهو الملوك ، إذا قيست بحرب الثلاثين عاماً التى خاضها ضد الكنيسة ، والحكومة التى تستطيع أن تزج برجل فى السجن لقوله الصدق ليس فى وسعها أن تشكو بحق إذا كذب .

فى ١٩سبتمبر ١٧٦٤ ـ عندما حمى وطيس معركته مع الكنيسة ـ كتب إلى دالامبير يقول : (حالما يبدو أدنى خطر تفضل بإبلاغى ، لكى أنكر كتاباتى فى الصحف العامة ، بما عهد فىّ من صراحة وبراءة) .. وقد أنكر كل أعماله تقريباً ، باستثناء ملحمة (الهنريادة) ، وقصيدته فى معركة فونتنوا ، (ولعل مسلكه يتبين فى قوله : على المرء أن يظهر الحق للأجيال القادمة بجرأة ، ولمعاصريه بحذر ، ومن العسير جداً التوفيق بين الواجبين) لكنه تجاوز هذا الحد بمواقفه الكثيرة المتناقضة ، وبتذبذبه بين الاعتراف والإنكار ، والتأييد والتنديد ، وهو ما كان من عوامل شهرته ، والتفاف الكثيرين من حوله ،

كأن الرجل ـ بسلوكه المشين وأخلاقياته المكيافيلية ـ إنما كان يمثل روح عصره .

لما سأله كازانوفا : (أتود أن ترى الشعب سيد نفسه ؟) قال : (معاذ الله !!) .

وكتب إلى فردريك ملك ألمانيا : (حين رجونك أن تكون الباعث لفنون اليونان الجميلة ، لم يبلغ رجائى الحد الذى أطلب إليك فيه إعادة الديمقراطية الأثينية ، فأنا لا أحب حكم الرعاع) !! .

كان لا يحب الشعب ، لكنه كان يتملقه ، ليكتسب تأييده ، أو ليرهب به ذوى السلطان الذى يضيقون به ، وكان الشعب شديد الإعجاب به ، لجرأته الشديدة على الكنيسة ، وعلى كل المقدسات ، وما كانت تواتيه هذه الجرأة لمعتقد أو مبدأ يدين به ، بل لأن الرياح كانت تهب على الكنيسة .. ولم يكن من صناع هذه الرياح ، بل كان ممن ركبوا بساطها .

لقد كانت الكنيسة ذات فضل كبير عليه ، إذ وجد من رجالها من أعانه عليها ، وكان نطاحه المستمر لها سبباً فى تقوية قرونه ، حتى وحد السبيل لإخافة كثير من النبلاء ، فمدوا أيديهم إليه ، وأعانوا على أن يقتحم أسواراً أخرى أكثر علواً ، وقد أعانه أسلوبه الساخر المرح الجارح على كسب معارك كثيرة .

كان يرى أن (المسيحيين ـ على مدى خلافاتهم الداخلية منذ عهد قسطنطين ـ أوقعوا بعضهم ببعض من أعمال القسوة ما هو أفدح بكثير مما لاقوه من تعصب الكفار) ـ المسلمين ـ وأن (كنيسة روما دافعت بالعنف عن الإمبراطورية التى كسبتها بالحيلة) ، وأن هذه الإمبراطورية الرومانية المقدسة (لم تكن إمبراطورية ، ولا رومانية ، ولا مقدسة) .

من أجل هذا ملأ قلمه بمداد أسود ، جمع مادته من سويداء قلوب الحاقدين والناقمين والطامعين والشامتين وصانعى شباك الكنيسة والمتورطين فى هذه الشباك ، ومن سويداء قلوب الراهبات اللاتى انحدرن إلى طريق الدعارة ، والرهبان الذين أذابوا مداد صكوك الغفران فى كئوس يبيعونها على قارعة الطريق .

قرأ الفلاسفة ، لكن لم ترقه مناهجهم ، وذهب إلى أن الأقدمين قالوا كل شىء فى الميتافيزيقا ، وفى الأخلاق ، وأننا دائماً نكرر ما قالوا أو نعارضه ، وكل الكتب الحديثة من هذا النوع المعاد المكرور .

في قاموسه الفلسفي كتب في (الإيمان بوجود الله) يقول : (إن المؤمن الموحد الله رجل مقتنع كل الاقتناع بوجود كائن أسمى فاضل قوى معاً ، خلق كل الموجودات ، يعاقب على الخطايا دون قسوة ، ويثيب على صالح الأعمال في رفق وحنان .. إن المؤمن لا يعرف كيف يعاقب الله ، فكيف يثيب، وكيف يعفو ويغفر ، لأنه لم تبلغ به الجرأة حداً يخدع معه نفسه بأنه يدرك كيف بتصرف الله ، ولكنه يعلم أن الله يفعل وأن الله عادل) .

(إنه يحكم على الأشياء التي لا يراها بالأشياء التي يراها ومن ثم فإنه يرى أن هذه العناية الإلهية تحيط بكل مكان ، وبكل زمان) .

وفي رسالة إلى مؤلف (الدجالين الثلاثة) قال : (إذا لم يكن الله موجوداً يجب أن نبتدعه ، ولكن الطبيعة بأسرها تصيح فينا أنه موجود فعلاً) .

وفي كتاب (الملحد والحكيم) قال الحكيم : (تفاقم الإلحاد في إيطاليا في القرن الخامس عشر ، فماذا كانت النتيجة؟ كان من الأمور الشائعة أن تسمم إنساناً وكأنك تدعوه إلى العشاء ، إذن يكون الإيمان بإله يثيب على صالح الأعمال ، ويعاقب على الشرور ، ويغتفر ما دون ذلك من الأخطاء اليسيرة ، من أنفع الأشياء للإنسان.. إن القوانين تراقب الجرائم المعروفة ، لكن الدين يراقب الجرائم الخفية) .

ومع هذا كان الإلحاد يسكن جميع خلاياه ، ويضبط حركة أنفاسه ، ونبض قلبه ، حتى إذا كان في مايو ١٧٧٤ ـ وهو في الثمانين ـ صحا من قبل الفجر ، وصعد مع أحد أصدقائه ، ليشهد مشرق الشمس من تل قريب ، وأربكه جلال الشمس المشرقة وعظمتها ، فركع وصاح : (يا ألله العلى العظيم ، إني أومن) ، لكن ثابت نفسه إليه ، وهو ينهض على قدميه ، وقال : (أما بالنسبة للسيد الابن ، والسيدة الأم ، فتلك مسألة أخرى) .

هل كان ربوبياً ؟ هل كان فزيوقراطياً ؟ أغلب الظن أن الرجل كان كالعلمانيين أو التنويريين اليوم ، لا هم لهم إلا ركوب الموجة ، وما عدا ذلك فقبض الريح ، والكل باطل !!.

* فسر تاريخ اليهود ، فسجل عليهم أخطاءهم بتدقيق وتفصيل ، وندر أن برأهم لعدم كفاية الأدلة على إدانتهم ، ولم يستطع أن يغتفر لليهود إعجابهم المسيحية : (حين أرى المسيحيين يلعنون اليهود ، يخيل إلي أنى أرى أبناء يضربون آباءهم) .. ولم يكد يتبين في

العهد القديم شيئاً سوى سجل للقتل ، والفسق ، والاغتيال بالجملة ، ورأى فى سفر الأمثال (مجموعة من الحكم التافهة ، القذرة ، المهلهلة ، المجردة من الذوق ، أو الهدف) ، أما نشيد الإنشاد فهو (قصيدة حماسية سخيفة) ، على أنه أثنى على اليهود لإنكارهم القديم للخلود ، ولامتناعهم عن التبشير بعقائدهم ، ولتسامحهم النسبى ، فالصدوقيون أنكروا وجود الملائكة لكنهم لم يعانوا أى اضطهاد بسبب هرطقتهم .

وفى سنة ١٧٦٢ نشر (عظة الخمسين) التى كان قد ألفها قبل ذلك بعشر سنوات ، على الأقل ، وكانت أول هجوم مباشر على المسيحية .. حاول فيها التدليل على أن الرب الذى ورد ذكره فى التوراة رب فخور حقود غضوب قاس قاتل ، لا يمكن لإنسان أن يعبده ، وأن داود كان وغداً منغمساً فى الشهوات ، سفاحاً ، فكيف يتسنى لأحد أن يصدق بأن هذا الكتاب تنزيل من عند الله ؟ وكيف تسنى أن يأتى من الأناجيل اللاهوت المسيحى الذى لا يصدق ، والعمل الفذ السهل اليومى الذى يحول الرقاقة إلى جسد المسيح ودمه ، والبقايا التى لا تحصى ، وبيع صكوك الغفران ، والعداوات ، والبغضاء ، والحريق فى الحروب الدينية ؟.

وقد سخر كثيراً من (التثليث) فى كتابه (الملحد والحكيم) فقد سأل الملحد : (هل تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة ، وشخصاً واحداً، وإرادة واحدة ؟ أو أن له طبيعتين وشخصيتين وإرادتين ؟ أم أن له إرادة واحدة وطبيعة واحدة وشخصيتين ؟ أو إرادتين وشخصيتين وطبيعة واحدة ؟) فأمره الحكيم أن ينسى هذه الألغاز ، ويكون مسيحياً طيباً .

وأشار فولتير إلى أن المسيح ـ بخلاف القديس بولس والمسيحيين اللاحقين ـ ظل مخلصاً لليهود ، على الرغم من نقده للفريسيين : (إن هذا الإله الخالد ـ بعد أن جعل نفسه يهودياً ، يتمسك بالديانة اليهودية طيلة حياته ، ويؤدى شعائرها ، ويتردد على المعبد اليهودى ، ولا ينطق بشىء يخالف الشريعة اليهودية ، وكل تلاميذه يهود يؤدون الواجبات اليهودية ـ يقيناً ليس هو الذى أسس الديانة المسيحية .. إن يسوع المسيح لم يبشر بأية خصيصة واحدة من خصائص المسيحية) .

(تأمل فى مختلف التأويلات المسيحية للقربان المقدس ، فالكاثوليك يصرحون بأنهم يأكلون الرب لا الخبز ، واللوثريون يلتهمون الرب والخبز كليهما ، والكلفنيون يأكلون الخبز لا الرب ، وإذا روى أحد شيئاً من مثل هذا الإسفاف والجنون بين الهوتنتوت والكفار لقلنا

إنه يخدعنا ويلعب بعقولنا) .

* هل كان فولتير ضحية ما وصلت إليه المسيحية من شرور وآثام ، أو أن حال المسيحية وافق من نفسه نزوعاً إلى القتال والتشهير والإدانة ؟.

يقول ول ديورانت في رسائله التي تبلغ ثمانية وتسعين مجلداً ـ طبعة تيودور بسترمان ـ وهي في رأي برونتيير (أخلد قسم من إنتاجه كله) : الحق أننا لانجد صفحة مملة في هذا الحشد برمته ، لأننا في هذه الرسائل نسمع أملح محدث في زمانه ، يتكلم بكل ألفة الصديق ، وما من كاتب من قبل ولا من بعد حشد على قلمه المتدفق كل هذا التأدب ، والحيوية ، والسحر ، والرشاقة الكثيرة ، إنها ليست وليمة للذكاء والبلاغة فحسب ، بل للصداقة الحارة ، والشعور الرقيق ، والفكر البتار .

ألا تعد هذه الرسائل دليل إدانة على أن الرجل لا أخلاق له ، وأن رسائله كانت إلى أصدقاء وصديقات وعشيقات ، وأن كثرتها الكاثرة دليل على طواعية قلمه لما يمتلىء به قلبه من نفاق وخداع للآخرين .

إن الصدق قليل العبارة ، ولو أنه حقاً كان يكن قدراً من الاحترام للآخرين لما قسا على (الرعاع) ، ولجرى مداده بقدر من التعاطف مع هؤلاء التعساء المطحونين .. كان روسو في زمانه متحمساً للمساواة ، وكان هلفتيوس يرى أنه لو أتيح للناس كلهم التعلم والفرص المتكافئة لأصبح الجميع بعد قليل متساوين في التعليم والقدرات ، أما هو فصاح : (يا لها من حماقة أن تتصور أن في استطاعة كل إنسان أن يصبح نيوتنا) .

(لكل إنسان الحق في أن يكون له رأيه الخاص في مساواته مع غيره ، ولكن لا يستتبع هذا أن طباخ الكردينال ينبغي أن يأخذ على عاتقه أن يأمر سيده بتجهيز طعامه ، على أن للطباخ أن يقول : إنني إنسان كسيدي سواء بسواء ، فقد ولدت مثله بالدموع ؛ وسأموت مثله في عذاب ، فكلانا يؤدي الوظائف الحيوانية نفسها ، وإذا استولى العثمانيون على روما فأصبحت كردينالاً ، وأصبح سيدي طباخاً ، فإنني سأدخله في خدمتي .. وهذه اللغة معقولة ومنصفة جداً ، لكن إلى أن يستولي السلطان العثماني على روما لابد للطباخ أن يؤدي واجبه ، وإلا انهار المجتمع الإنساني كله) .

إن الرجل يؤمن بالأمر الواقع ، أو باستغلال الفرص المتاحة ، بل إنه يؤمن بأن السعادة

والشقاء (ضريبة دهرية) .. يقول على لسان زائير المسيحية التى أسلمت فى بلاط السلطان أوروزمان فى مسرحية (مأساة زائير) :

(إننا لا نعرف إلا ماتلقناه ، إن أيدى الأبوين اللذين يتوليان تربيتنا وتعليمنا هى التى تنقش على قلوبنا الغضة تلك الأحرف التى ينقحها الزمن ويصقلها ، وتعمل القدرة الإلهية على تثبيتها عميقة فى عقولنا ، ولا يقدر على محوها إلا الله).

ولو أن هذا حقيقة لما كان للتعليم دور ، ولما كانت حاجة إلى الرسل والأنبياء ، ولما خرج القادة والزعماء من الأعشاش يثلون العروش .. بل ما كان لفولتير أن يتحول إلى مليونير ، تخطب وده الملوك والنبلاء وشهيرات النساء .

إنه يقول : انظر إلى حوش المزرعة (إنه يرينا أكمل تمثيلية للملكية ، فما من ملك يضارع الديك ، ذلك أنه إذا مشى شامخاً وسط قطيعه ، فما ذلك لغروره ، لأنه إذا زحف العدو فهو لا يكتفى بإصدار الأمر لرعيته أن تخرج وتقتل فداءه ، إنما هو يذهب بشخصه ، وينظم جنده من خلفه ، ويقاتل إلى آخر نسمة ، فإذا انتصر فهو الذى يترنم بمسبحة الشكر .. وإذا صح أن النحل تحكمها ملكة يخطب ودها جميع رعاياها فتلك حكومة أعظم كمالاً ، حتى من حكومة الديك) .

وفاته أن كل ديك لا يصلح لهذه المهمة ، فثمة صراع بين الديكة حتى يتصدر الأقوى ، ومدام بمبادور التى حكمت ملكاً وملكة ، وعاش فولتير زمناً على مائدتها ، لم تكن نشأتها لتشير إلى ما وصلت إليه .

ومع هذا ، فقد ورد فى رسالته إلى فردريك وليم الأول : (لا يبدو أن من المحتمل الكشف إطلاقاً عن الأصول الأولى للأشياء ، فالفئران التى فرض عليها البقاء فى ثقوب صغيرة من بناء هائل لا تدرى هل البناء خالد أو غير خالد ، أو من بناه ، أو لم بناه ، وما أشبهنا بهذه الفيران والبناء الإلهى الذى بنى الكون ، لم ينبئ أحداً منا قط بسره المكنون فيما أعلم) .

* وصفته كاترين الكبرى ، إمبراطورة روسيا ، بأنه (أشهر رجال عصرنا) .

وكتب فردريك الأكبر ، ملك ألمانيا سنة ١٧٧٥ : (إن الناس يتزاحمون ويتجاذبون على شراء تماثيل فولتير النصفية بمصنع البرسلان) فى برلين (حيث لا ينتجون التماثيل بسرعة تكفى لتلبية الطلب عليها) .

وكانت فرنيه ـ حيث يقيم ـ قد أصبحت كعبة يحج إليها المثقفون الأوربيون ، أما الآن فصارت مزاراً (دينياً) تقريباً .

قالت مدام سوار ، عقب زيارتها فرنيه سنة ١٧٧٥ : (لقد رأيت مسيو فولتير ، إن نشوات القديسة تريزا لم تفق قط تلك التي استشعرتها ، وأنا أرى هذا الرجل العظيم ، فقد بدا لي أنني في حضرة إله ، إله محبوب معبود ، استطعت في غاية اللطف أن أعرب له عن كل عرفاني وكل احترامي) .

وحين مر بجنيف سنة ١٧٧٦ كاد يخنقه الجمع المتحمس الذي التف حوله .

كانت الشهرة قدره ، وقد جرجرت إليه أذيالها معقودة بجلاجل من العار والشنار ، لكنها في أوساط زمنه كانت تدخل في مجال الفروسية والنبالة ، وحرية الفكر ، والسباحة ضد التيار الديني الذي فقـد أدنى تعاطف حتى من الجماهير الكادحة التي يعـد الدين آخر حصونهـا .

* كتب درامته (إيرين) ، ودفعها إلى الكوميدي فرانسيز سنة ١٧٧٨ ، فلما قبلت فكر في الذهاب إلى باريس ليشرف على إخراجها ، وكان ممنوعاً من دخول باريس ، فلما ذاع نبأ وصوله ، أبلغه المركيز جوكور أن لويس السادس عشر تأثر لمجيئه إلى باريس ، لكن مدام د بوليناك جاءت لتؤكد له أن ماري أنطوانيت ستحميه ، ورغب الإكليروس في طرده، واكتفى لويس برفض رجال الملكة السمـاح للكاتب بالمثول في البلاط .. وقد قيل إنه في ١١ فبراير ١٧٧٨ زاره ثلاثمائة من كبار الرجال والنسـاء ، وفي اليوم الخامس والعشرين أصيب بنزيف شديد ، فنفث الدم من فمه وأنفه ، وتم إيقاف النزيف ، إلا أنه ظل يبصق دماً ، فكتب إلى جولتييه ، وحين جاءه كتب فولتير بخط يده : (أنا الموقع أدناه نظراً إلى إصابتي في الشهور الأربعة الماضية بتقيؤ الدم ، ولما كنت عاجزاً وأنا في الرابعة والثمانين، عن جر نفسي إلى الكنيسة ، ولما كان كاهن سان سولبيس يريد أن يضيف إلى حسناته حسنة بإيفاد الأبيه جولتييه إلي ، فقد اعترفت على يديه ، وأعلن أنه إذا قبضني الله إليه فإني أموت على الدين الكاثوليكي الذي ولدت فيه ، مؤملاً في رحمة الله أن تغفر لي كل أخطائي ، وإذا كنت قد صدمت الكنيسة في يوم ما ، فإني أطلب المغفرة من الله ومنها) ـ التوقيع : فولتير في الثاني من مارس ١٧٧٨ في بيت المركيز فيليت ، ووقع المسيو فييلفيل والأبيه منيو (ابن أخت فولتير) على الإقرار بوصفهما شاهدين ، وحمله جولتييـه إلى

رئيس الأساقفة في ضاحيـة كونفلانس ، وإلى كاهن سان سولبيس ، فأعلن كلاهما أنه غير كاف .

وفي ٣ مارس حضر ديدرو ، ودالامبير ، ومارمونتيل ، ليعودوا المريض ، فلما جاءه جولتييه في ذلك اليوم يحمل تعليمات رئيسه بأن يحصل على اعتراف (أقل لبساً وأكثر تفصيلاً) ، قيل له إن فولتير ليس في حالة تسمح له باستقباله ، وتكررت المحاولة .. وفي ١٣ مارس استقبل الكاهن ، لكن الزيارة لم تسفر إلا عن تبادل المجاملات ، فقد توقف النزيف ، وشعر فولتير أنه يستعيد عافيته ، وفترت تقواه .

وبعـد ظهر ٣٠ مارس ذهب إلى اللوفـر ليحضر اجتماعاً للأكاديمية ، فرافق عربتـه (من بيته حتى الأكاديمية حشد لا آخر له من الناس الذين لم يكفوا عن التصفيق ، وخرج جميع الأكاديميين للقائه) ، ورحب بمقدمه دالامبير ، وأجلس فولتير في كرسي الرئاسة ، وانتخب رئيساً لدورة أبريل الربعية ، بين عاصفة من التصفيق ، ثم ودعوه حتى مركبته ، فلما وصل إلى المسرح قام النظارة والممثلون جميعاً لتحيته .

وفي ٣٠ مايو قدم الأبيه جولتييه ، وكاهن سان سولبيس ، لمناولته سر الكنيسة المقـدس ، إذ أضـاف إلى اعترافه السـابق بالإيمان إيمـانه بلاهـوت المسيح ، لكن فولتير صـاح : (بالله لا تكلموني عن ذلك الإنسـان) ، وقيل : بل قال : (دعوني أمت في سلام) ، فانصرفا دون أن يناولاه القربان .

وحظر لويس السادس عشر على الصحف نشر نبأ موت فولتير .

وفي يوليه ١٧٩١ نقل رفاته من ديرسكلبير إلى باريس ؛ بأمر الجمعية التأسيسية للثـورة ، وطافوا به المدينة في موكب نصر .. وفي مايو ١٨١٤ خلال عودة الملكيـة البوربونية نقلت جماعة من الغيلان الأتقياء رفات فولتير وروسو من البانتيون خفية ، وأودعت الرفات في غرارة ، ودفنته في مقلب قمامة بأطراف باريس، ولم يعثر له على أثر ـ قصة الحضارة مج ٩ ج ٢ ص ١٨٠ ومج ٩ ج ٤ ص ٢١٣/١٦٤ ، ومج ١٠ ج ١ ص ٢٤٦/٢٢٨ ، ومج ١٠ ج ٤ ص ٣٦٠/٣٤٩ .

* * *

روســـو ..

جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) ولد في جنيف لأسرة كلفنية ، ومات والداه في سن مبكرة ، فتربى على يد إحدى عماته . ترك المدرسة في الثانية عشرة، وجرب العمل في مهن مختلفة ، وفي السادسة عشرة رحل عن بيته هارباً .

وفي تورينو اعتنق الكاثولكية لأسباب مصلحية ـ كما يقـول رسل (حكمـة الغرب ج ٢ ص ١٥٢) ـ وظل يعتنقها بعض الوقت ، والتحق بخدمة سيدة شهيرة ، لكنه وجد نفسه مرة أخرى على قارعة الطريق ، حين توفيت بعد ثلاثة أشهر ، وتبين أن روسو سرق وشاحاً من هذه السيدة ، وزعم أن خادمة أعطته إياه ، فلقيت الخادمة عقابها .

وارتبط بسيدة تدعى مدام دى فاران ، كانت قد تحولت كذلك إلى الكاثوليكية ، وكانت تـكبره بأعـوام كثيرة . فأصبحت أمـاً وعشيقــة له ، وقضى في بيتهـا حـوالى عشر سنوات .

وفي سنة ١٧٤٣ أصبح سكرتيراً للسفير الفرنسى فى البندقية .

وفي باريس حوالى سنة ١٧٤٥ التقى بتيريز لوفاسير ، وهي خادمة ، ثم عاش معها بوصفها زوجة له مع دخوله في مغامرات أخرى ، وقد أنجب منها خمسة أطفال أخذوا جميعاً إلى دار اللقطاء .. كانت تيريز فقيرة قبيحة جاهلة غير أمينة ، لكن ـ كما يقول رسل ـ كانت عيوبها تزيده إحساساً بالتفوق .

ويقـول ول ديورانت (قـصـة الحـضـارة مج ١٠ ج ١ ص ٣٢٥/٢٩ و ج ٤ ص ٣٧٩/٣٦١) : بعد أن قرأ شذرات من فرجيل ، وهوراس ، وتاسيتوس ، وترجمة لمحاورات أفلاطون ، وطلع عليه لابرويير ، وبسكال ، وفنيلون ، وبريفوست ، وفتن بما كتبه فولتير ـ فقد اللاهوت القديم الذى كان من قبل إطار فكره ، شكله وصرامته ، ووجد نفسه يفكر ـ دون رعب ـ في عشرات الهرطقات التى كانت تبدو له في شبابه فاضحة شائنة ، وحل محل إله الكتاب المقدس إيمان حار ، يوشك أن يكون مشبوباً ، هو الإيمان بوحدة الوجود : (هناك إله ، نعم ، والحياة بدونه لا معنى لها ، ولا يطيقها الإنسان ، ولكنه ليس ذلك الإله الخارجي ، المنتقم ، الذى تصوره الناس القساة الجناة ، إنما هو روح الطبيعة ، والطبيعة فى صميمها جميلة ، والطبيعة البشرية فى أساسها خيرة) ، وعلى هـذا الإيمان ، وعلى فـكر بسكال ، أقام روسو فلسفته .

في سنة ١٧٤٠ كتب (مقالاً في الآداب والفنون والعلوم) للدخول في مسابقة أعلنتها

أكاديمية ديجون ، وحصل على الجائزة الأولى ، وقد زعم فى مقاله (أن الخليفة عمر حين سئل فى أمر مكتبه الإسكندرية ، وما يفعله بها أجاب : « وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ، ففى كتاب الله غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فلا حاجة إليها ، فتقدم بإعدامها .. وقد ساق أدباؤنا هذا الأسلوب فى التفكير على أنه بلغ غاية السخف ، ولكن لو أن البابا جريجورى الأكبر كان فى مكان عمر ، والإنجيل فى مكان القرآن ، لأحرقت المكتبة رغم ذلك ، ولربما عد هذا أروع عمل فى حياته) .

التاريخ يتحدث عن حرق المكتبة قبل فتح العرب مصر ، فى أحداث عصر الشهداء المريرة ، ومع هذا فالقصة ترددها بعض كتب التاريخ الإسلامى ، كما يرددون إلى اليوم خبر عروس النيل التى تلقى فيه أيام الفيضان ، دون إدراك .

ويتحدث روسو عن خطر الطباعة وتأثير الفلسفة ، فيذكر أن بعض (محبى الحكمة) يخبروننا أنه ليس هناك شىء اسمه المادة ، وغيرهم يؤكدون أنه لاوجود لشىء إلا للمادة ، وليس إله آخر غير الكون ذاته ، وفريق ثالث يعلن أن الفضيلة والرذيلة ليستا سوى اسمين ، وأنه لا اعتبار لشىء إلا للقوة والمهارة .. إن هؤلاء الفلاسفة (يقوضون أسس إيماننا ، ويحطمون الفضيلة ، إنهم يسخرون من الكلمات القديمة التى نستعملها ، مثل « الوطنية » ، و« الدين » ، ويكرسون مواهبهم لهدم وتشويه كل ما نقدسه غاية التقديس) ، ومثل هذا الهراء ما كان ليعمر فى العصور القديمة ، بعد موت صاحبه ، أما الآن ، فبفضل الطباعة (ستبقى إلى الأبد تأملات هوبز وسبينوزا المؤذية .. إذن فاختراع الطباعة كان من أفدح الكوارث فى تاريخ الإنسانية ، ومن السهل أن نرى أن الملوك فى المستقبل سيحرصون على إقصاء هذا الفن الرهيب عن ممالكهم ، حرصهم من قبل على تشجيعه) .

وفاته أن الملوك وغيرهم من الحاكمين أقدر على استخدام الطباعة للتسبيح بحمدهم ، وتشويه صور أعدائهم ، وإعادة كتابة التاريخ وفق أهوائهم ، وأنهم أقدر على شراء الأقلام والصحف ، وفى الوقت نفسه أقدر على مصادرة ما لا يرضون عنه ، واضطهاد من لا يستجيب لأوامرهم وسياساتهم .

وفى هذا المقال أيضاً قال : (فليتعلم البشر ، ولو مرة ، أن الطبيعة كانت تحميهم من العلم ، تماماً كما تخطف الأم سلاحاً خطراً من يدى ولدها) ، مع أن الطبيعة هى المعلم ، والمواد الطبيعية هى الوسائل ، والآفات الطبيعية هى الحوافز والدواعى ، والخيرات الطبيعية هى الأهداف والغايات .

* وفى سنة ١٧٥٣ أعلنت أكاديمية ديجون عن مسابقة أخرى اشترك فيها بـ (مقال فى أصل وأسس عدم المساواة بين البشر) جاء فيه :

(ينبغى ألا تطلق الحرية لكل رجل فى اقتراح القوانين الجديدة على هواه ، بل يقصر هذا الحق على القضاة دون غيرهم ، فقدم القوانين هو أهم عامل فى إضفاء القدسية والاحترام عليها ، والناس سرعان ما يتعلمون الاستهانة بالقوانين التى تبدل وتغير كل يوم ، ولو اعتادت الدول أن تهمل تقاليدها القديمة بحجة التحسين والإصلاح ، لجلبت من الشرور فى الغالب ما هو أسوأ مما تحاول أن تقضى عليه) .

وهذا منطق قاصر ، لأن الواجب تقويم وتقييم القوانين الموروثة ، فقد تكون قد صدرت عن نزوات بعض الحكام وقد تكون الحياة المتغيرة فى حاجة إلى قوانين تواكب التغيرات ، وتحقق التطلعات الجديدة .. صحيح أن من الواجب عدم الجرأة على القوانين ، بحيث تصبح عرضة لتحقيق أهداف فردية موقوتة .. إن الجرأة عليها تحقق الاستهانة بها،كما أن تقديسها ـ وهى غير صالحة ـ يدفع إلى الثورة عليها وعلى كهنتها .. ولهذا نجده فى (العقد الاجتماعى) أبريل سنة ١٧٦٢ عدل عن رأيه ، وقال: (يجب ألا تعطل السلطة المقدسة للقوانين إطلاقاً ، ما لم تكن حياة الوطن فى خطر) ، وهذا قول أشد خطراً ، لأن البلاد أثناء الثورات والحروب إذا لم تستمسك بالقوانين أهدرت كثيراً من الدماء وكثيراً من الحقوق ، بل إن الواجبات لا يمكن الاهتمام بها ، أو التمييز بين حدودها .

* وفى خمسة عشر شهراً استطاع أن ينشر أهم كتبه : (هلويز الجديدة) ـ فبراير ١٧٦١ ، و (العقد الاجتماعى) ـ أبريل ١٧٦٢ ، و (إميل) ـ مايو ١٧٦٢ .. وقد جاء فى إميل الذى يغلب عليه جانب تربوى خلا منه سلوك صاحبه الذى دفع بأولاده إلى ملجأ اللقطاء : (الرجل الذى يأكل وهو عاطل ما لم يكسب بجهده ليس إلا لصاً) مع أنه عاش حياته كلها ينعم بأموال الأرامل ، ويسكن فى كنف الأسر الغنية وعلى هباتها .

وقال : (فى أعماق قلوبنا مبدأ فطرى للعدل والفضيلة ، نحكم بمقتضاه على أفعالنا أو أفعال غيرنا) (إن مشاعرنا الطبيعية تهدينا إلى الطريق الصحيح ، على حين أن العقل يضللنا) .. ولاشك فى أن هذا الموقف الرومانسى مضاد تماماً لأفلاطون وأرسطو والحركة المدرسية ، وهو ـ كما يقول رسل (حكمة الغرب ج ٢ ص ١٥٥) ـ نظرية عشوائية تماماً ، تقر أى نوع من الفعل ما دام يرتكز على دعائم انفعالية لدى فاعله .

ويقول كرين برنتن (أفكار ورجال ص ٤٩٠/٤٩٤) معلقاً على قول روسو (يولد الإنسان حراً ، ولكنه يكبل بالأغلال في كل مكان) : لماذا ؟ الجواب عند روسو هو أنه اضطر إلى استبدال حالة المدنية بحالة الطبيعة .

إن الإنسان لم يطع أحداً في حالة الطبيعة ، أو إن شئت فقل إنه أطاع نزواته الشخصية ورغباته ، أما في حالة المدنية فلابد من طاعة الأوامر التي يعرف أنها لا تنبعث مباشرة من دخيلة نفسه ، فإن كان مثلاً رقيقاً تحتم عليه أن يطيع شخصاً مثله ، وهي تجربة مهينة لا تسر النفس ، بل هي تجربة في الواقع غير طبيعية وغير إنسانية ، وحتى في المجتمعات التي كانت قائمة في القرن الثامن عشر كان عليه أن يطيع قوانين لم يشارك في وضعها ، ورجالاً لم يشارك في اختيارهم حكاماً له ، فأين المخرج ؟.

الناقد والمنقود كلاهما يرى وجهاً دون بقية الوجوه ، فالحرية مرتبطة بحقوق وواجبات ، سواء كان المرء في مجتمع يموج ، أو في جزيرة نائية ، يعيش وحده ، إن حرية الجزيرة مرتبطة بقدراته ، وبالصعوبات التي تعترضه . ومنها الكائنات الأخرى التي تشغل مكاناً في الأرض والماء والهواء .

ويقول برنتن : إن الناس لا يطيعون في الواقع ـ حتى في الحياة السياسية المألوفة العادية ـ إلا إذا أمكنهم أن يشعروا أنهم لا يطيعون إرادة بشرية أخرى ، كطاعة العبد لسيده ، وإنما يطيعون إرادة أعلى ، من نوع ما يمكن أن تعد إرادتهم جزءاً منها ، وهذه الإرادة يسميها روسو (الإرادة العامة) ، وهذه الإرادة العامة بالنسبة للإسميين من جميع الوجوه ـ وبطبيعة الحال ـ مجرد خيال (؟!) بيد أن كل من ارتبط ارتباطاً عاطفياً بمجموعة من المجموعات ، من الأسرة إلى الكلية إلى الأمة ، لا يسعه إلا أن يدرك لمحة مما يتحسس روسو إليه الطريق .

إن (الإرادة العامة) عند روسو يخلقها (العقد الاجتماعي ، والعقد الاجتماعي عنده يسير على نمط هوبز ، من حيث إن كل عضو من أعضاء المجتمع يدخل في التعاقد مع كل فرد آخر ، لكن المجموعة الناتجة عن كل ذلك لا تحول الحكم إلى ملك مطلق ، كما أراد هوبز ، وإنما تعامل أية سلطة حاكمة باعتبارها عميلة لها ، يمكن إعفاؤها من الحكم كلما رأت الإرادة العامة أن هذا الإعفاء هو أفضل الأمور) .

مجرد خيالات فلاسفة لا يعيشون على أرض الواقع ، لأن العقد الاجتماعي يتحول إلى قوانين تخدم الحاكم قبل أن تخدم المحكوم ، لأن الحاكم يتدخل في صناعة القوانين

عن طريق مباشر أو غير مباشر ، كما أنه هو الذى يشرف على تنفيذ القوانين ، وباسم الديمقراطية يمكنه أن (يفرم) أعداءه ، كما قال أحد حكام مصر الخالدين !! .

وما جدوى أن ينص في العقد الاجتماعي على أن (كل من يرفض طاعة الإرادة العامة يجب أن يكره من مجموع زملائه المواطنين على الطاعة .. إنه قد يكون من الضرورى أن نرغم الفرد على أن يكون حراً) ؟!.

إن الإرغام على الحرية يساوى الإرغام على العبودية لأن تكييف الحكم بيد الحاكم ، وكم من الجرائم ترتكب باسم الحرية !!.

* وقال روسو : (كما أن فى أفعالى الإرادية عقلاً هو السبب المدرك للحركة ، كذلك هناك على الأرجح عقل كونى وراء تحركات الكون ، إن الله لا يمكن معرفته ، لكنى أشعر أنه تعالى موجود ، وفى كل مكان ، وأبصره فى جميع الحالات ، من تكوين عينى إلى جميع حركات النجوم ، وينبغى ألا أفكر فى أن أنسب إلى الصدفة ـ مهما ازداد تكاثرها على طريقة ديدرو ـ تكييف الوسائل وفق الغايات ، فى الكائنات الحية ، ونظام العالم ، أكثر مما أنسب إلى الصدفة تجميع الحروف تجميعاً لذيذاً فى طبع الإنيادة) .

(لابد لى من الإيمان بإله خير ، يؤكد انتصار الخير ، ولو لأتحاشى ذلك الإيمان الكئيب بانتصار الشر ، إذن يجب أن أومن بحياة آخرة ، بجنة تجزى فيها الفضيلة ، ومع أن فكرة الجحيم تقززنى ، وأوثر عليها الاعتقاد بأن الأشرار يصلون نار جهنم فى قلوبهم ، فإنى متقبل حتى تلك العقيدة الرهيبة إذا اقتضاها ضبط الدوافع الشريرة فى الإنسان ، وفى تلك الحالة أتوسل إلى الله ألا يجعل آلام الجحيم خالدة) .

وقد رفض روسو عقيدة الخطيئة الأصلية ، والدور الفدائى الذى يؤديه موت المسيح ، وذلك برغم قبوله الرسمى للكلفنية ، ولعل هذا بسبب إيمانه بطبيعة الخير والعدل الإلهى ، وقد أبى قبول العهد القديم بوصفه كلمة الله ، وذهب إلى أن العهد الجديد يحفل بأشياء لا يمكن تصديقها ، أشياء يفر منها العقل ، لكنه أحبَّ الأناجيل، لأنها أعظم الأسفار تأثيراً فى النفس .

ومع أنه لا ينكر أن (الدين الحسن لا وجود له) ، فإنه يرى (أنه ما من دين من الأديان التى سادت لم يثخن الإنسانية بالجراح ، وكل المذاهب عذب بعضها بعضاً، وكلها قدم لله قربان الدم البشرى ، وأياً كان مبعث هذه التناقضات فهى قائمة ، فهل من الإجرام الرغبة فى إزالتها ؟) .

* بعد مصادرة (إميل) نشر فى ديسمبر ١٧٦٤ تسعة (خطابات مكتوبة من

الجبل) ، رداً على أوليجاركية السهل الجنيفى ، وهاجم الكلفنية ، كما هاجم الكاثوليكية ، وأحرق معظم الجسور من خلفه .

وفى الخطاب الثالث تناول اتهامه برفض المعجزات بقوله : (إن عرفنا المعجزة بأنها خرق لقوانين الطبيعة ، فلن تستطيع أبداً أن تعرف هل الشيء معجزة أو غير معجزة ، لأننا لا نعرف كل قوانين الطبيعة ، فحتى فى ذلك العصر كان كل يوم يشهد معجزة جديدة يحققها العلم ، لا مخالفاً بذلك قوانين الطبيعة ، بل بفضل معرفته بها معرفة أعظم) .

(كان الأنبياء في قديم الزمان يستنزلون النار من السماء بكلمتهم ، أما اليوم فالأطفال يفعلون هذا بقطعة صغيرة من الزجاج المشتعل .. إن يشوع أوقف الشمس ، وأى واضع للتقاويم يستطيع الوعد بمثل هذه النتيجة إذا حسب كسوف الشمس ، وكما أن الأوربيين الذين يجرون عجائب كهذه بين الهمج ، يعدهم هؤلاء آلهة ، فكذلك معجزات الماضى ، حتى معجزات السيد المسيح ربما كانت طبيعة ، فسرتها الجماهير خطأ بأنها تعطيلات إلهية للقانون الطبيعي ، ولعل لعازر الذى أقامه المسيح من بين الأموات لم يكن فى حقيقة الأمر ميتاً ، ثم كيف يمكن أن تثبت معجزات معلم صدق تعليمه ، إذا كان معلمو التعاليم المعتبرة عموماً تعاليم كاذبة قد أجروا معجزات قيل إنها أيضاً حقيقية ، كما حدث حين بارى سحرة فرعون هرون فى تحويل العصىّ إلى حيات ؟ إن المسيح حذر من « المسحاء الكذبة » الذين يعطون آيات عظيمة وعجائب) .

* حين بدأ ربيع ١٧٧٨ دعاه المركيز رينيه جيراردان ليسكن كوخاً على مقربة من قصره الريفى ، وهناك راح يجمع عينات نباتية ، ويعلم النبات لابن المركيز .. وفى ٤ يوليه ١٧٧٨ ووري التراب فى ضيعة جيراردان .. وفى ١١ أكتوبر ١٧٩٤ نقل رفاته إلى البانتيون ، ثم حدث له ما حدث لرفات فولتير .

قال تولستوى : (كنت وأنا فى الخامسة عشرة أحيط عنقى بميدالية عليها صورة روسو ، بدلاً من الصليب المعتاد) .

وقال نابليون : (كنت حتى عامى السادس عشر على استعداد لمقاتلة أصدقاء فولتير دفاعاً عن روسو ، أما اليوم فقد انعكس موقفى ، فكلما أمعنت فى قراءة فولتير ازددت شغفاً به ، فهو رجل معقول دائماً) .

وقال روسو : (لا ريب فى أن فولتير رجل ردىء ، وليس فى نيتى أن أثنى عليه ، لكنه قال وفعل أشياء طيبة كثيرة جداً ، بحيث ينبغى أن نرخى الستار على أخطائه) .

هجوم مضـاد ..

لم تكن الساحة خالية لهؤلاء الملاحدة ، حتى يبيضوا ويصفروا على هواهم ، دون أن ترتفع في وجوههم أصابع محذرة رافضة كل هذا الظلام الذى ينسجون .

نشر الكاتب الكاهن بلوشن كتابه (مشهد الطبيعة) فى ثمانية مجلدات (١٧٣٩ ـ ١٧٤٦) ، ظهرت منه ثمانى عشرة طبعة غالية الثمن ، عرض فيه عجائب العلم وأدلة التدبير المقصود في الطبيعة ، ليثبت وجود إله أسمى فى العقل والقدرة ، وإذا وجد العقل البشرى بعض الألغاز فى المشهد الضخم ، فليكن متواضعاً ، إنه لا ينبغى لنا أن ننبذ الإله ، لأننا لا نستطيع فهمه وإدراكه ، ولنقدم له فى نفس الوقت الشكر على بديع صنعه .

وكان غليوم برتييه الذى كان أستاذ الفلسفة أرقى شخصية فى المدافعين عن الكاثوليكية من رجال الدين ، فى القرن الثامن عشر فى فرنسا .. فى سنة ١٧٤٥ عينه اليسوعيون محرراً لصحيفتهم (جورنال دى تريفو) .

وأصبحت هذه النشرة على عهده أكثر الأصوات احتراماً فى فرنسا المثقفة .

وقد وصفه لاهارب أحد تلاميذ فولتير بأنه (الرجل الذى نال إعجاب العلماء والباحثين جميعاً ، لغزارة علمه ، وسعة اطلاعه ، كما نال إعجاب أوروبا ، لفضائله الموسومة بالتواضع ، وامتاز بسحر الكياسة الفرنسية ، حتى عند الاختلاف فى الرأى ، فهاجم الأفكار لا الشخصيات ، وامتدح مواهب خصومه أو معارضيه) .

قال برتييه : إن السعى لإخضاع الكون أو معتقدات الناس التقليدية والعامة لاختبار عقل فردى ـ ضرب من الغرور ، والرجل المتواضع يقبل عقيدة بنى جلدته إذا لم يستطع فهمها .

وذهب فى بعض الأحيان إلى أن الكفار ينبذون الدين لأنه يتدخل فى ملذاتهم ، وتنبأ بأنه إذا سادت مثل هذه الإباحية فلابد أن ينهار القانون الأخلاقى ، ويطلق العنان للأهواء ، وتختفى المدنية فى حمأة الأنانية والشهوة والخداع والجريمة .. وإذا لم توجد الإرادة الحرة فلا وجود للمسئولية الأخلاقية .. وحيث إن الحتمية لا تسلم بأى قانون يلزم الضمير فإن

الشخص المذنب الوحيد هو الشخص الذى لا ينجح ، ومن ثم تكون الفضيلة أو الأخلاق القويمة حينئذ مجرد حساب المنفعة ، ولن يكون إحساس بالعدالة ليكبح جماح الأقلية الذكية الماهرة ، فى سوء استغلال سذاجة الأغلبية ، ولن يشعر أى حاكم بأى التزام نحو شعبه ، اللهم إلا المباعدة بينهم وبين الثورة بسبب استغلاله لهم .

وجـاء جاكوب نقولامور ، فأصدر كتـابه (مذكـرات جديدة لإيضـاح تاريخ الكاكوواك) اقتبس فيه المؤلف الحاذق مقتطفات من ديدرو، ودا لامبير ، وفولتير ، وروسو ، ليبرهن على أن هؤلاء الرجال كانوا حقاً يسممون أنفاس الحياة ، وأنهم ارتكبوا السيئات والشرور (لمجرد حبهم للشر ، وفرحهم بارتكابه) .

وقال : (إن هؤلاء الكاكوواك جنس يكاد يكون من الحيوانات البشرية ، تحمل تحت ألسـنتها أكياساً من السم ، فإذا تكلمت امتزجت السـموم بالكلمات ، ولوثت كل الهواء المحيط بها) .

ولعله أخذ هذا المعنى ـ مع فارق الأصالة والمهارة ـ من قـول فولتير: (بالأمـس القريب ، فى أحد الأودية ، لدغ ثعبان جون فريرون ، فماذا تظن قد حدث آنذاك ؟ لقد مات الثعبان) .

وانضم إلى الحملة جـان جـاك لى فرانك ، مركيز دى بومبينان ، أحد حـكام الأقاليم .. فقد أصدر سنة ١٧٧٢ كتابه (الدين يثأر من الشكوكية بالشكوكية نفسها) ، بسط فيه وجهة نظره فى أن المذهب المادى لم يترك أى وازع للأخلاق والفضيلة ، وإذا لم يكن هناك إله فكل شىء جائز ، أو مرخص به ، فكل ما نحتاجه هـو أن نتخلص من الشرطة .. وتساءل المركيز : (إذا لم يكن هناك إله ، فكيف تقنع الناس بأن يرضوا بوضع التبعية والخضوع الذى وضعتهم الجمهورية فيه) ؟.

* يلاحظ أن هذه المعارك المنتصرة للعقل لم تعدل من مسيرة التيارات المعتادة فى المسيرة الشعبية ، فلا تزال الخرافات تحكم العادات والتقاليد ، وتتسرب إلى الطبقات الأعلى التى تحكم عاصمة النور ، باريس .

كان قارئو البخت ـ ولا يزالون ـ يعيشون على صيت شفافيتهم وكانت مدام ديمبادور ، والأبيه دبيرنيس ، والدوق دشوازيل يستشيرون مدام بونتان التى تقرأ لهم البخت

في ثغل القهوة .. يقول مونتسكيو : إن باريس كانت تعج بالسحرة وغيرهم من الدجالين الذى يكفلون للناس التوفيق فى دنياهم ، أو التمتع بشباب دائم ، وقد أقنع الكونت سان جرمان لويس الخامس عشر أن فى الإمكان إصلاح مالية فرنسا التى فسدت بوسائل خفية لصنع الماس والذهب ، وكان الدوق دريشيليو يتسلى بالسحر والشعوذة ، مستعيناً بالشيطان ، أما أمير أنهالت دساو العجوز الذى كسب معارك كثيرة لبروسيا ، وكفر بالله ، فكان إذا التقى بثلاث عجائز فى طريقه إلى الصيد قفل راجعاً إلى بيته ، لأن (اليوم نحس) ، وكان آلاف الناس يحملون التمائم أو الطلاسم اتقاء الشرور ، واستعملت مئات الوصفات السحرية علاجات طبية شعبية ، واعتقد الناس أن فى قدرة (المخلفات) الدينية أن تشفى كل العلل تقريباً ، وكانوا يجدون مخلفات المسيح ، أو ذخائر القديسين فى أى مكان ، وقد تدعمت قضية المطالبين الاستيوارتيين بالعرش فى انجلترا ، بفضل فكرة آمن بها أكثر الناس ، وهى أن فى استطاعتهم شفاء الداء الخنازيرى بلمسة منهم ، وهى قوة حرم منها الملوك الهانوفريون ، لأنهم (غاصبون) ، وكان أكثر الفلاحين على يقين من أنهم سمعوا العفاريت والجنيات فى الغابات .. وقد كتب أوجستين كالميه البندكتى المثقف تاريخاً لمصاصى الدماء ، وهى جثث تترك قبورها فى الليل لتمتص دم الأحياء ، وقد نشر هذا الكتاب بموافقة السوربون ـ قصة الحضارة مج ٩ ج ٣ ص ٢٢٠/٢٣١ و ص ١٣٨ .

* * *

أهم المصادر والمراجع

١ ـ قصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ ٤٢ جزءاً .

٢ ـ تاريخ الكنيسة ـ جون لوريمر ـ ٥ أجزاء .

٣ ـ مختصر دراسة للتاريخ ـ توينبى ـ ٤ أجزاء .

٤ ـ معالم التاريخ الإنسانية ـ هـ . جـ . ويلز ـ ٤ أجزاء .

٥ ـ الدولة والكنيسة ـ د . رأفت عبد الحميد ـ ٥ أجزاء .

٦ ـ الحضارة البيزنطية ـ ستيفن رنسمان .

٧ ـ أفكار ورجال ـ كرين برنتن .

٨ ـ الكنائس القبطية القديمة فى مصر ـ ألفرد بتلر ـ جزءان .

٩ ـ فتح العرب لمصر ـ ألفرد بتلر .

١٠ ـ تاريخ الفلسفة الغربية ـ برتراند رسل .

١١ ـ حكمة الغرب ـ برتراند رسل .

١٢ ـ رواد الفلسفة الحديثة ـ رتشارد شاخت .

١٣ ـ رسالة فى اللاهوت والسياسة ـ سبينوزا .

١٤ ـ المعتقدات الدينية لدى الشعوب ـ جفرى برندر.

١٥ ـ مصر الرومانية ـ نفتالى لويس .

١٦ ـ حكايات كنتربرى ـ جفرى شوسر .

١٧ ـ اعترافات القديس أوغسطين ـ د . زكريا إبراهيم .

١٨ ـ العهد القديم والعهد الجديد .

١٩ ـ دراسة فى التوراة والإنجيل ـ د . كامل سعفان .

٢٠ ـ اليهود تاريخاً وعقيدة ـ د . كامل سعفان .

٢١ ـ إظهار الحق ـ رحمة الله الهندى .

٢٢ ـ الجواب الصحيح ـ ابن تيمية .

٢٣ ـ هداية الحيارى ـ ابن قيم الجوزية .

٢٤ ـ الملل والنحل ـ الشهرستانى .

٢٥ ـ الفصل ـ ابن حزم .

٢٦ ـ الأدلة الكتابية على فساد النصرانية ـ د . أحمد حجازى السقا .

٢٧ ـ المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام ـ د . محمد وصفى .

٢٨ ـ القوى الدينية فى إسرائيل ـ د . رشاد الشامى .

٢٩ ـ عبقرية المسيح ـ عباس العقاد .

٣٠ ـ مصر فى عهد الولاة ـ د . سيدة الكاشف .

٣١ ـ المسيحية والحضارة العربية ـ د . جورج قنواتى .

٣٢ ـ المسيحية والإسلام على أرض مصر ـ د . وليم قلادة .

٣٣ ـ أضواء على السيرة النبوية ـ عبد الحميد السحار ـ جزءان .

٣٤ ـ الأناجيل ـ أحمد طاهر .

٣٥ ـ ما ترجم للعلامة أحمد ديدات .

* * *

محتويات الكتاب

الموضـــــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

كتب للمؤلف

كتب مطبوعة :

١ ـ المنهج البيانى فى التفسير الحديث للقرآن الكريم بمصر ـ الأنجلو المصرية

٢ ـ التراث .. واجبنا نحوه ـ الأنجلو المصرية

٣ ـ أمين الخولى فى مناهج تجديده ـ المجلس الأعلى للفنون والآداب

٤ ـ أمين الخولى .. حياته وأعماله ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥ ـ سبحان الله ـ دار المعارف

٦ ـ الذين يلحدون فى آيات الله ـ دار المعارف

٧ ـ قراءة فى ديوان ابن الرومى ـ دار المعارف

٨ ـ تنزيل من التنزيل ـ دار المعارف

٩ ـ اليهود تاريخاً وعقيدة ـ دار الاعتصام

١٠ ـ هوامش تراثية ـ دار الاعتصام

١١ ـ فى صحبة أبى العلاء ـ دار الأمين

١٢ ـ الساعة الخامسة والعشرون ـ دار الأمين

١٣ ـ دراسة فى التوراة والإنجيل ـ دار الفضيلة

١٤ ـ هجمة علمانية جديدة ومحاكمة النص القرآنى ـ دار الفضيلة

١٥ ـ فى مرفص الظلال ـ (شعر) ـ توزيع دار المعارف

١٦ ـ الأرض لا تنبت أغصاناً جافة (شعر) ـ توزيع دار المعارف

١٧ ـ حتى تعود الابتسامة (شعر) ـ المجلس الأعلى للثقافة

١٨ ـ قبل أن نفيض الكأس (رواية) ـ توزيع دار المعارف

١٩ ـ حتى مطلع الفجر (رواية) ـ توزيع دار المعارف

٢٠ ـ عبر الأسلاك الشائكة (رواية) ـ توزيع دار المعارف

٢١ ـ الإدانة .. شاهد من أهلها (رواية) ـ توزيع دار المعارف

كتب معدة للطبع :

١ ـ هذا أبو الطيب .. شاعر المعاناة والتمرد ـ الزهراء للإعلام

٢ ـ من تجارب الشعر والشعراء (جزءان) ـ دار الأمين

٣ ـ لله لا لقيصر (دراسة في الإمامة)

٤ ـ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا (دراسة فى الفكر الإسلامى) ـ دار الأمين

٥ ـ كنانة الله يا فرعون (معتقدات مصرية قديمة)

٦ ـ معتقدات آسيوية (إيران ، الهند ، الصين ، اليابان)

٧ ـ معتقدات يونانية رومانية

٨ ـ حالة مخاض + الأرض والجرذان + حين ينزعون اللحاء (روايات)

* * *